

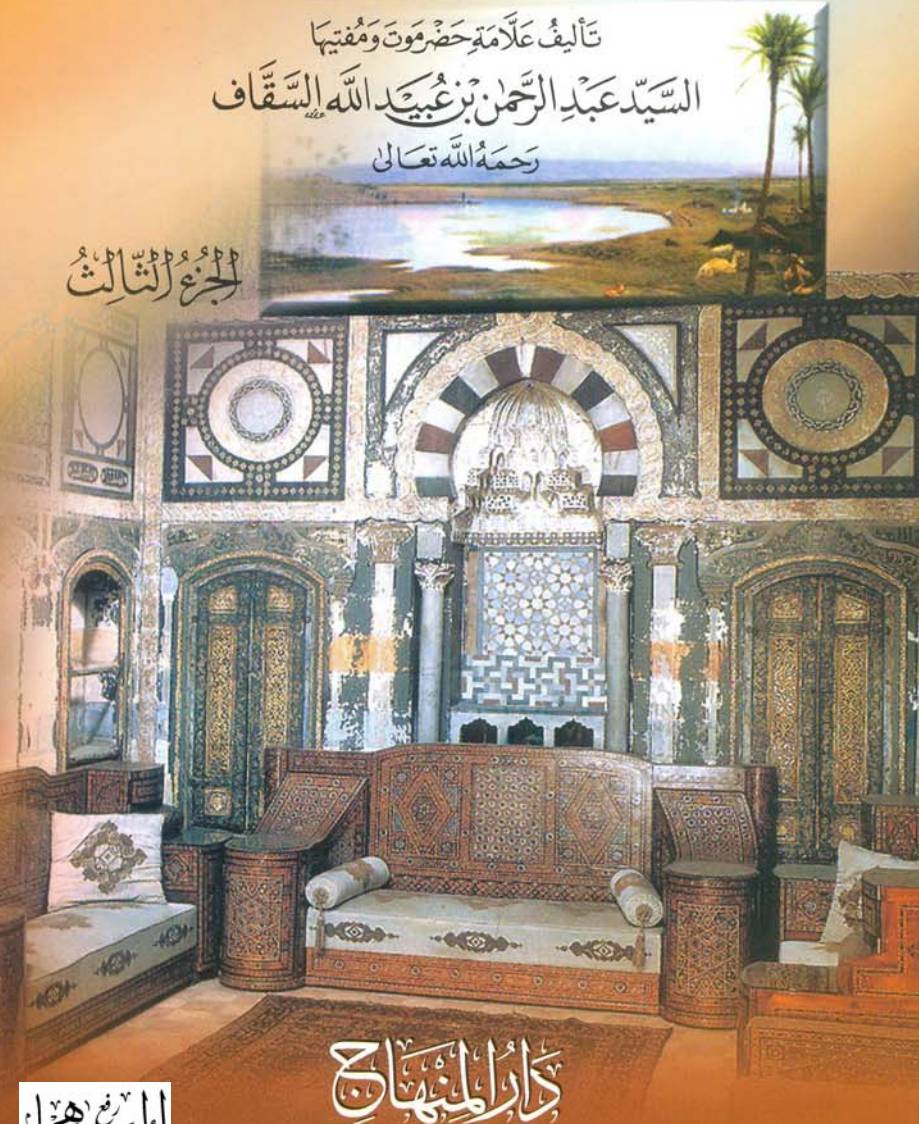
الْعَوْنُ الْهِنْدِي

عَنْ أَمَالِي فِي دِيَوَانِ الْكِنْدِي

مَجَالِسُ أَدَبِيَّةٍ فِي دِيَوَانِ الْمُنْتَبِي

تَأَلَّفَ عَلَامَةُ حَضَرَمَوْتِ وَمُفْتِيهَا
السَّيِّدُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ السَّقَافِ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

الجزء الثالث



دار المنهاج



العقود الهائلة

عن أمالي في ديوان الكندي

مجالس الربيع في ديوان المتنبي

تأليف

علامة حصرمون ومفتيها

السيد عبد الرحمن بن عبد الله السقاف

رحمة الله تعالى

عني به

محمد مصطفى الخليل

بمأهمة

الجنة العلمية بمرزوار المنهج لدراسة النثر

المجلد الثالث

دار المتنبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثانية
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

جدة - هاتف رئيسي ٦٣٢٦٦٦٦ - فاكس ٦٣٢٠٣٩٢

الإدارة ٦٣١١٧١٠ - المكتبة ٦٣٢٢٤٧١

www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5

المجلس الثاني عشر

[قال أبو الطيب المتنبي في « العُكْبَرِيَّ » ٢ / ٣٣٢ من الكامل] :

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقُّ

(الأرقُ) : أمتناعُ النوم ، و(الجَوَى) : الحُزْنُ الذي يستبطنُ شرح المطلع
الإنسانَ ، فيكونُ في حشاهُ ، و(العَبْرَةُ) : تردُّدُ الدمعِ في العين .
يقولُ : لي سُهادٌ بعدَ سهادٍ ، وَمَنْ كَانَ مِثْلِي . . فَلَا بَدَّ لَهُ مِنْ
السَّهادِ ، إِلَّا أَنَّهُ قَصَّرَ هُنَا ، بما يُفهِمُهُ سياقُ كلامِهِ مِنْ أنحصارِ سهادِهِ
على الهوى ، ولو أَنَّهُ جعلَهُ لَهُ وَلِلْمَجْدِ . . لكانَ أَشْرَفَ وَأَجْمَلَ .

وقد قال حافظ [مِنَ الطُّويل] :

السهر والأرق من أجل
الهوى ومن أجل المجد

لِحَاطِكَ وَالْأَيَّامُ جَيْشٌ أَغَالِبُهُ فَهَلْذِي مَوَاضِيهِ وَهَلْذِي كَتَائِبُهُ
وَهَمَّيْنِ ضَاقَ الْقَلْبُ وَالصَّدْرُ عَنْهُمَا غَرَامُ أَعَانِيهِ وَعَيْشُ أَغَالِبُهُ

غيرَ أَنَّهُ لو أَبْدَلَ لَفْظَةَ (العيشِ) ، بلفظةِ الدهرِ . . لكانَ أَفخَرَ
وأكْبَرَ ؛ لِمَا تَجَلَّبُهُ الأُولَى مِنَ الضَّعَةِ ، والمعنى مأخوذٌ مِنْ قولِ
سهلِ بنِ هارونَ [مِنَ الطُّويل] :

تَقَاسَمَنِي هَمَّانِ قَدْ كَسَفَا بِالِي وَقَدْ تَرَكَ قَلْبِي مَحَلَّةَ بَلْبَالٍ^(١)

(١) البلبالُ : الهمُّ الذي يَنْتَلِجُ الصَّدْرَ .

فِرَاقُ خَلِيلٍ مِثْلُهُ يَبْعَثُ الْأَسَى وَحَاجَةُ خِلٍّ لَا يَقُومُ بِهَا مَالِي

ولي في مثله الكثير الطيب ، غير أنني لا أثقل به .

وقد تكررَ في « ديوان الناظم » ما يشيرُ إلى نشأة الهموم ،
وترادف الغموم ، عَنْ كُبَرِ الْهَمَّةِ ، وطموح النفس في طلبِ العُلا ،
كقوله [في « المُكَبَّرِي » ١٨٠ / ١ مِنْ الطَّوِيلِ] :

لَحَا اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخَا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدٍ إِلَيْهِمْ فِيهَا مُعَذَّبٌ^(١)

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ٣٤٥ / ٣ مِنْ الْخَفِيفِ] :

وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ كِبَاراً تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ٢٢ / ٢ مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَأَتَعَبُ خَلْقِ اللَّهِ مَنْ زَادَ هَمُّهُ وَقَصَرَ عَمَّا تَشْتَهِي النَّفْسُ وَجُدُهُ^(٢)

إِلَّا أَنَّهُ خَضَعَ فِي هَذَا لِبَعْضِ الْقَوْلِ ؛ إِذْ صَرَّحَ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَبَ مِنْ
كُبَرِ الْهَمَّةِ إِلَّا لِقَلَّةِ الْمَالِ ، وَقَضِيَّتُهُ أَنَّ لَا مَطْمَحَ لَهُ وَرَاءَ حَصُولِهِ ،
فهو نقيضُ قوله [في « المُكَبَّرِي » ٣٠ / ٢ مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَمَا رَغِبْتَنِي فِي عَسَجِدٍ أَسْتَفِيدُهُ وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ٢٠٠ / ١ مِنْ الطَّوِيلِ] :

إِذَا نَلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ الْكُرَابِ تَرَابٌ

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ١٧٤ / ١ مِنْ الْبَسِيطِ] :

تَهْوِي بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذَاهِبُهُ لِلْبُسِ ثَوْبٍ وَمَأْكُولٍ وَمَشْرُوبٍ

(١) لحا الله : قَبَّحَ ولعنَ ، وأصله من لَحَوْتُ الْعُودَ إِذَا قَشَرْتَهُ .

(٢) الْوُجْدُ : السَّعَةُ .

وما أكثر ما يتناقض قوله ، كما ذكرنا غير مرّة ، وكلّما أدّعى غير ما في نفسه . . . ظهر على فلتات لسانه ، وقد صرّح المخضّ^(١) عن الزيد ، في مثل قوله [في «المكبري» ١٨٢/١ من الطويل] :

إذا لم تنط بني ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وفضلك يسلب^(٢)

وقوله [في «المكبري» ١١٤/٢ من الطويل] :

هما خلتان : ثروة أو مينة لعلك أن تبقي بواحدة ذكر^(٣)

وقوله [في «المكبري» ٣٢٠/١ من الخفيف] :

ضاق صدرني وطال في طلب الرز في قيامي وقل عنه فعودي

فتجلّى في غير شبهة ، أنّه لا يريد من الإمارة غير المال ، وبه اضحك على يتأكّد ما أثر عنه من شدة الحرص ، إلى حدّ أن بعض الأمراء أجازه بـ «الحريص» !!

بمال كثير ، فنشّب منه دائق في الحصر ، فما زال يعالجّه ، ويتمثّل بقول قيس بن الخطيم [في «ديوانه» ٣٥ من الطويل] :

تبدّت لنا كالشمس تحت غمامة بدّا جانب منها وضنت بجانب ولم ينفك حتى دميّت أظافره .

ورأيت في بعض الكتب : أن كسرى أكرم بعض رعيته بـ «بمال»

(١) المخضّ : تحريك اللبّ في المخضّة . وهي وعاء يوضع فيه اللبّ ويحرّك كي يستخرج زبداً .

(٢) تنط : تعلق . الضيعة : البلدة أو القرية ، والمعنى : إذا لم تقطعني ضيعة . . . فجودك يكسوني ، وشغلّك عني يُذهب ويسلب عني تلك الكسوة .

(٣) المعنى : هما خصلتان : إما الغنى أو الموت ، فانهض إمّا لتكسب المال أو لتقتل الأعداء .

طائل ، ولمّا أحتملَهُ ، وما كادَ إلّا بجهدٍ . . سقطَ منه درهمٌ ، فتكلّفَ أخذهُ مِنَ الأرضِ بعناءٍ ومشقّةٍ ، فعاتبَهُ الملكُ ، وقالَ لَهُ : ألمَ يغنكَ الذي معكَ ؟ فهلّا تركتهُ ينتفعُ بِهِ أحدُ الخدمِ ، وتسلمَ مِنْ تعبِ القُعودِ والقيامِ ، معَ الحِمْلِ الثقيلِ ؟ قالَ : يا مولاي ، ما بي حرصٌ على شيءٍ مَعَ بقائِكَ ، ولكن لم تطبْ نفسي بامتّهانِهِ على الأرضِ ساعةً ما ، وعليهِ أسمُ الملكِ ، فأستحسنُها وأضعفُ الجائزةَ ، وأمرَ من يحملُها مَعَهُ .

تعليق المتنبي لسبب مرضه

ويذكرُ عَنِ النّازمِ : أَنَّهُ كَانَ يعلُلُ حرصَهُ بقصّةٍ ، حاصلها : أَنَّهُ وردَ (الكوفةَ) في صباهُ ، ومَعَهُ خمسةُ دراهمٍ في منديلٍ ، فرأى باكورةً بطيّخٍ يناديُ عليها ، فدفعَ فيها الخمسةَ الدراهمَ ، فلم يرضها البائعُ ، حتّى مرَّ أحدُ الوجهاءِ ذاهباً إلى دارِهِ ، فوثبَ إليه صاحبُ البطيّخِ ، وقالَ : يا مولاي ، باكورةٌ بطيّخٍ ، أحملهُ بإجازتِكَ إلى دارِكَ ، قالَ : بِكَمْ ؟ قالَ : بخمسةِ دراهمٍ ، فقالَ الوجيهُ : بل بثلاثةٍ ، فباعَ عليه ، وحملها إلى دارِهِ ، ودعا لَهُ ، وأنقلبَ مسروراً مِنْ نَفْسِهِ بما فعلَ ، قالَ المتنبي : فقلتُ لَهُ : يا هذا ، ما رأيتُ أحقَّ منك ، أعطيتكَ فيه خمسةَ دراهمٍ ، ثمّ تبيعهُ بثلاثةٍ ، وتحملهُ فوقَ ذلكَ إلى منزلِ المشتري ، فقالَ : أسكت ، أما تَذري أَنَّهُ يملكُ مِثْلَ ألفِ دينارٍ ؟! فلا أزالُ على ما ترونَ مِنَ الحرصِ ، حتّى يسمعَ الناسُ بأنَّ عِندي مِثْلَ ألفٍ ، هذا ما يذكرونَ عَنْهُ ، وهو لا يشرفُهُ ، ولا يبرّرُ عملهُ ، وإنّما يدُلُّ على أَنَّهُ صاحبُ زهوٍ وبأوٍ ، يحاولُ أَنْ يتحصّلَ على المنزلةِ الجوفاءِ مِنْ قلوبِ السقاطِ والغوغاءِ ، وإنّما يظهرُ بُعدُ الهمةِ ، وشرفُ النفسِ ، مِنْ مِثْلِ قولِ امرئِ القيسِ لني

« ديوانه » ١٦٧ مِنْ الطويلِ :

وَلَوْ أَنَّمَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي - وَلَمْ أَطْلُبْ - قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلُ أَمْثَالِي

وقول جرثومة بن مالك [من الطويل] :

فَتَى إِنْ تَجِدُهُ مُغَوِزاً مِنْ تِلَادِهِ فَلَيْسَ مِنَ الرِّأْيِ الْأَصِيلِ بِمُغَوِزٍ
والناظم كثيراً ما يرعى غير ماشيته ، ويحطب في جبل^(١) غيره ،
ويتظاهرُ ببعْدِ الهمة ، والاستهانةِ بالمالِ ، فيقول [في «المكبري» ٢٧٨/٣
من البسيط] :

وَمَا شَكَرْتُ لَأَنَّ الْمَالَ فَرَّخَنِي سَيَّانٍ عِنْدِي إِكْثَارٌ وَإِقْلَالُ^(٢)
لَكِنَّ الطَّيْعَ أَغْلَبَ ، والعادة أَمَلَكُ ، وهو القائل [في «المكبري»
١٩/٢ من الطويل] :

وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغْيِراً تَكَلَّفُ شَيْءٌ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ
فهو متكلفٌ في دعواه طلبَ المجدِ الصحيح ، والشرفِ
الصريح ، صادقٌ إذا أشارَ إِلَى أَنَّ معقَدَ العزِّ ، ومطمَحَ المجدِ
عنده ، حيازةُ مئةِ ألفٍ ، وتلك سبيلٌ لَيْسَ فيها بأوحدٍ ، كما بيناهُ في
المجلسين السادس والثالث عشر ، ومنهُ قوله [في «المكبري» ٢٣/٢ من
الطويل] :

فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

(١) قال الخطابي : الجبال : هي ما دون الجبال في الارتفاع .

(٢) السياني : المثالي .

وقولُ هرمِ بنِ عميرِ التغلبيّ [في «البيان والتبيين» ٤٢/١ من البسيط] :

إِنِّي أَمَرُؤُ هَدَمَ الْإِفْتَارُ مَأْتَرَتِي وَأَجْتَاَحَ مَا بَنَيْتَ الْأَيَّامُ مِنْ خَطَرِي
أَرْوَمَةٌ عَطَلْتَنِي مِنْ مَكَارِمِهَا كَالْقَوْسِ عَطَلَهَا الرَّامِي مِنَ الْوَتَرِ

وقولُ الأحنفِ [في «البيان والتبيين» ٣٥٧/١ من المتقارب] :

وَإِنَّ أَلْمُرُوءَةَ لَا تُسْتَطَاعُ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ مَالُهُ فَاضِلًا

وقولُ غيره [من الطويل] :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ أَنَّنِي أَرَى صَالِحَ الْأَخْلَاقِ لَا أَسْتَطِيعُهَا
أَرَى خَلَّةً فِي إِخْوَةٍ وَقَرَابَةٍ وَذِي رَحِمٍ مَا كُنْتُ مِمَّنْ يُضِيعُهَا

وفي هذين شبةً من ناحية بما سبقَ عن سهلِ بنِ هارون^(١) .

ثمَّ إِنَّ الْأَرْقَ تَارَةً يَكُونُ عَنْ مَجْرَدِ الْهَوَى ، كما في البيتِ الذي
نتكلَّمُ عليه ، وكما مرَّ الإطنابُ فيه من المجلسِ الأوَّلِ .
للأرق سبب آخر وهو :
الخوف

وإِذَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْخَوْفِ ، كما سبقَ في شرحِ قولِهِ [في «العُكْبَرِيّ»

أو المجد
٣٠٨/١ من المنسرح] :

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ يُخْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُضْعِدُهَا

وإِذَا أَنْ يَكُونَ فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ ، كما ذكرنا بعضُهُ أواخرَ المجلسِ

السابع .

وإِذَا لَغَيْرِ ذَلِكَ ، فالأسبابُ كثيرةٌ ، ويدخلُ في القسمِ الأوَّلِ قولُ

أَبْنِ الْأَحْنَفِ [في «ديوانِهِ» ٢٨٣ من الطويل] :

(١) في بداية هذا المجلس .

قَفَا خَبْرَانِي أَيُّهَا الرَّجُلَانِ عَنِ النَّوْمِ إِنَّ أَلْهَجَرَ عَنْهُ نَهَانِي
وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْمُ، أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ؟ صِفَا النَّوْمَ لِي إِنْ كُتُمَا تَصِفَانِ
وَإِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَى النَّوْمِ فَأَعْلَمَا وَلَا عَهْدَ لِي بِالنَّوْمِ مُنْذُ زَمَانِ
وقوله [في «ديوانه» ١٣٣ من الخفيف] :

حَدَّثُونِي عَنِ النَّهَارِ حَدِيثًا أَوْ صِفُوهُ فَقَدْ نَسِيتُ النَّهَارَا
وقيلَ لَأُمِّ الهَيْثَمِ ابْنَةِ الْأَسْوَدِ : مَا حَالُكَ ؟ فَقَالَتْ [مِنَ الْوَافِرِ] :
تَجَافَى مَضْجَعِي وَنَبَا رُقَادِي وَلَيْلِي مَا يَقْرَأُ مِنَ الشُّهَادِ
أَرَأَيْتَ فِي السَّمَاءِ بَنَاتٍ نَعَشٍ وَلَوْ أَسْطِيعُ كُنْتُ لَهُنَّ حَادِي^(١)
وقالَ أَبْنُ دُرَيْدٍ [في «ديوانه» ٧٤ من الطويل] :

لَقَدْ أَلْفَتْ دُهُمُ النُّجُومِ رِعَايَتِي فَإِنْ غَبْتُ عَنْهَا فَهِيَ عَنِّي تُسَائِلُ
يُقَابِلُ بِالسَّلْسِلِمِ مِنْهُنَّ طَالِعٌ وَيُؤْمِيءُ بِالتَّوْدِيعِ مِنْهُنَّ أَفْلُ
ولي في الموضوع الْجُمُ الْمُبَارَكُ ، الذي لا بَأْسَ أَنْ أَذْكَرَ مِنْهُ
مطلعَ قصيدةِ نبويةٍ ، وهو [في «ديوان المؤلف» ١٥٨ من الكامل] :

طَفِقَتْ تُعَيِّرُ أَذْهَمِي بِحِرَانِهِ وَهِيَ الَّتِي أَمَرْتُ بِغَضِّ عِنَانِهِ^(٢)
أَنْتِ يَشِيبُ غَرَابُ لَيْلٍ مُتَيَّمٍ ظَلَعْتَ جِيَادُ الشُّهْبِ فِي مِيدَانِهِ^(٣)

- (١) بنات نعش : سبعة كواكب ، أربعة منها نعش ، وثلاث بنات .
- (٢) الغض : التقيص . والعنان : حبل يثبت في اللجام .
- (٣) المتيَّم : من استعبده الحب . ظلع : عرج في مشيه . الشهب : النجوم .
والمعنى : لا أمل في انقضاء الليل إذا كانت نجومه لا تتحرك إلا ببطء كأنها لا تريد السير ، أو كأن جيادها عرجت في الميدان فلا تستطيع السبق .

ويدخل في الثالث كل ما جاء في فضيلة قيام الليل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

وقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

وقوله : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ * قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ٢-١] .

وقوله : ﴿ نَسْجَافِي جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] .

وقول ابن رواحة (في «ديوانه» ٩٦ من الطويل) :

وَقَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ يَتَلَوُّ كِتَابَهُ إِذَا أُنْشِقَّ مَعْرُوفٌ مِّنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنِ فِرَاشِهِ إِذَا أَسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

وقال ابن المعتز (في «ديوانه» ١٠٤/١ من الخفيف) :

أَنَا مَنْ تَعْلَمُونَ أَسْهَرُ لِلْمَجْدِ إِذَا عَطَّ فِي الْفِرَاشِ اللَّثِيمُ

وقال كُشَاجِمُ (في «ديوانه» ٤٨٦ من الهزج) :

تَرَكْتُ النَّوْمَ لِلنُّوَا مِإْشَاقًا عَلَى عُمْرِي

وقال غيره [ابن نباتة في «قرى الضيف» ٤٥٨/٢ من الطويل] :

وَمَنْ سَهَرَتْ فِي الْمَكْرُمَاتِ جُفُونُهُ رَعَى طَرَفُهُ فِي جَوْفِهَا أَنْجَمَ الْعُلَا

ولا يتجافى عن المبحث الذي نخوض فيه ، قول أبي ذؤلف [ابن
المجد والسمو
الطويل] :

وَلَيْسَ فَرَاغُ الْقَلْبِ مَجْدًا وَرَفْعَةً وَلَكِنَّ شُغْلَ الْقَلْبِ لِلْمَرْءِ رَافِعُ
وَذُو الْمَجْدِ مَحْمُولٌ عَلَى كُلِّ آلَةٍ وَكُلُّ قَصِيرٍ إِلَهُمْ فِي الْحَيِّ وَادِعٌ^(١)

(١) وادع : لم يكلف نفسه أدنى مشقة .

وقولُ الصَّاحِبِ [في «ديوانه» ٢٨٠ من المتقارب] :

وَقَائِلَةٍ : لِمَ عَرَّتَكَ الْهُمُومُ وَأَمْرُكَ مُنْشَلٌّ فِي الْأَمَمِ ؟
فَقُلْتُ : أَتُرْكِينِي عَلَى حَالَتِي فَإِنَّ الْهُمُومَ بِقَدْرِ الْهِمَمِ
وقال آخرُ [من الكامل] :

لَيْسَ الْمُرُوءَةُ أَنْ تَبَيَّتَ مُنْعَمًا وَتَظَلَّ مُعْتَكِفًا عَلَى الْأَقْدَاحِ
مَا لِلرَّجَالِ وَلِلتَّنْعَمِ إِنَّمَا خُلِقُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَكِفَاحِ
وسمعَ بعضهم أعرابيَّةً ، تحتُ أبنها على الدعة والإقامة ، فقال
[من الطويل] :

إِذَا مَا أَلْفَتِي لَمْ يَبْغِ إِلَّا لِبَاسُهُ وَمَطْعَمُهُ فَالْخَيْرُ مِنْهُ بَعِيدُ
وقال حاتمٌ [في «ديوانه» ٨٣ من الطويل] :

لَحَا اللَّهُ صُغْلُوكَا مُنَاهُ وَهْمُهُ مِنْ أَلْعِيشِ أَنْ يَلْقَى لُبُوسًا وَمَطْعَمًا
ولمَّا قَالَ الحَظِيئَةُ فِي الزَّبْرَقَانِ بْنِ بَدْرِ [في «ديوانه» ٥٠ من البسيط] :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
.. شكاهُ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ ، فقال [في «الأغاني» ١٧٨/٢] :
مَا أَرَى بِذَلِكَ بَأْسًا ، فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ جَحَدَنِي مَا أَبْتَنِيئُهُ
مِنَ الْمَفَاخِرِ ، فَسَأَلَ حَسَّانًا - لَا عَنْ قَلَّةِ مَعْرِفَةٍ بِمَغْزَى الْكَلَامِ ،
وَلَكِنَّهُ يَحَاوِلُ أَنْ يَدْرَأَ الْعِقَابَ لِلشَّبْهَةِ - فقال لَهُ حَسَّانُ : مَا هِجَاؤُ ،
وَلَكِنَّهُ سَلَحَ عَلَيْهِ^(١) ، فَأَعْتَقَلَهُ بِعَقِبِ ذَلِكَ ، كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ .

(١) سَلَحَ عَلَيْهِ : تَنَجَّى عَلَيْهِ وَتَغَوَّطَ .

وقال أبو تمام في الهجاء [في «ديوانه» ١٤٦/٢ من الوافر] :

بُؤِ أَلِهَمِّ أَلْهَوَامِدِ وَأَلْتَفُوسِ أَلِ حَوَامِدِ وَأَلْمُرَوَاتِ أَلْنِيَامِ

وقال الناطم [في «المكبري» ٢٣/٢ من الطويل] :

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمِسُورِ عَيْشَةٍ وَمَرْكُوبُهُ رِجْلَاهُ وَالشُّوبُ جِلْدُهُ

وقال [في «المكبري» ٣٥٥/١ من الوافر] :

إِلَى كَمْ ذَا أَلْتَخَلَّفُ وَأَلْتَوَانِي وَكَمْ هَذَا أَلْتَمَادِي فِي أَلْتَمَادِي
وَشُغْلُ أَلْنَفْسِ عَنِ طَلَبِ أَلْمَعَالِي بَيْعِ أَلشُّعْرِ فِي سَوْقِ أَلْكَسَادِ^(١)

وقال ابن حيوس [في «ديوانه» ٣٥ من الطويل] :

وَلَسْتُ كَمَنْ أَخْنَى عَلَيْهِ زَمَانُهُ فَظَلَّ عَلَى أَحْدَائِهِ يَتَعَتَّبُ^(٢)
تَلَذُّ لَهُ أَلشُّكُوى وَإِنْ لَمْ يُفَذِّ بِهَا صَلاَحًا كَمَا يَلْتَذُّ بِأَلْحَكِّ أَجْرَبُ
وَلَكِنِّي أَحْمِي ذِمَارِي بِعَزْمَةٍ تَنْوُبُ مَنَابَ أَلسَّيفِ وَأَلسَّيفُ مِقْضَبُ^(٣)

وقال عروة بن الورد [في «ديوانه» ٧٠-٧٣ من الطويل] :

لَحَا اللَّهُ صُغْلُوكَا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مَشَى عَارِي أَلْمَتْنَيْنِ فِي كُلِّ مَجْزَرٍ^(٤)
يَعُدُّ أَلْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ ، كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُسِيرٍ^(٥)

(١) بيع الكسَاد : هو أن يعرض البائع السلعة لمشتري كارو لها ، فلا يبذل فيها ثمن مثلها .

(٢) أخنى عليه الزمان : إذا مال عليه وأهلكه .

(٣) ذمار الرجل : كل شيء يلزمه الدفع عنه ، وإن ضيعة . . لزمه الذمر ؛ أي : اللوم . مقضب : قاطع .

(٤) المجزُر : الموضع الذي تجزُر فيه الإبل ، فهو الدهر في موضع مأكلي .

(٥) الميسر : الذي أقبل خير شائه . والمعنى : إذا ملأ بطنه عدّه غنى ولم يبال =

يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُضْبِحُ نَاعِسًا يَحُثُّ الْحَصَى عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفِّرِ
وَلَكِنَّ صُغْلُوكَا صَفِيحَةً وَجْهِهِ كَضَوْءِ شِهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَوَرِّ^(١)
مُطْلَأًا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ السَّنِيحِ الْمُشَهَّرِ^(٢)
وَإِنْ قَعَدُوا لَا يَأْمَنُونَ أَقْتِرَابَهُ تَشُوفُ أَهْلَ الْغَائِبِ الْمُتَنْظِرِ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَيِّتَةَ يَلْقَاهَا حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَعْنِ يَوْمًا فَأَجْدِرِ

وما زالت رجالات العزِّ مقسّمة الأفكار ، مبلبلّة الخواطر ، العاقل تعبان والجاهل
منغصّة العيش ، من حيث أسترّاح صغار النفوس ، وتنسم العيش مستريح
سفلة الخلق ، وقد قلت من قصيدة [في «ديوان المؤلف» ٣٢ من البسيط] :

وَهَكَذَا كُلُّ صِنْدِيدٍ تُعَاكِسُهُ أَيَّامُهُ وَيَفُوزُ الْفَسْلُ بِالطَّيْبِ^(٣)
فَاضْرِبْ بِطَرْفِكَ أَنَّى شِئْتَ تَلْقَ أَوْلَى أَلْ أخطار في محن هُوجٍ وَتَعْدِيبِ
تَلْقَ الْكَلَامَ الْإِلْيَالِي وَهِيَ بِاسِمَةٍ وَالْأَكْرَمِينَ بِتَغْيِيسٍ وَتَقْطِيبِ
وَأَنْظُرْ إِلَى حَالِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَا لَاقَاهُ فِي اللَّهِ مِنْ حَرْبٍ وَتَكْذِيبِ
وَإِثْرَهُ بِتُّهُ مَاتَتْ بِغَضَّتِهَا سَحَتْ عَلَيْهَا الْأَذَايَا بِالشَّائِبِ^(٤)
وَالْمُرْتَضَى بَعْدَهُ مَا زَالَ فِي مِحْنٍ وَمُوجَعَاتٍ وَأَيَّامٍ غَرَائِبِ^(٥)

= ما وراءه من عياله وقرابته .

(١) وجه مُضْفَع : سهلٌ حسنٌ .

(٢) مُطْلَأٌ : مشرفاً وعالياً . السَّنِيحُ : طيرٌ كانت تشاءمُ العربُ منه .

(٣) الفسلُ : الرديء الرذل .

(٤) سَخَ الماءُ : أشتدَّ أنصبابه . الشُّبُوبُ : الدفعةُ القويّةُ من المطرِ .

(٥) المرتضى : سيدنا عليّ كرم الله وجهه . الغرايبُ - جمعٌ غريبٍ - : وهو شديدٌ

السواد .

أشد الناس بلاءً من
هم؟
وقد سبق في غير هذا المجلس كثير من أنبياءه ، كرم الله وجهه ،
وعتبه على زمانه وأهله ، وما كانت الشهادة التي فاز بها من يد أشقى
الآخرين . . إلا نعمة له من الله وكرامة ، وخلاصاً من المحنة ،
وعافية من البلاء ، فالزمان عادته أمتحان الأحرار ؛ لما في ذلك من
صالحهم ، وعلو درجاتهم ، ومن ثم كان : « أشد الناس بلاءً
الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل »^(١) ، والله درُّ البوصيري في قوله [في
همزته وفي « ديوانه » ٨ من الخفيف] :

لَا تَخْلُ جَانِبَ النَّبِيِّ مُضَامًا حِينَ مَسَّنَهُ مِنْهُمْ الْأَهْوَاءُ
كُلُّ أَمْرِ نَابِ النَّبِيِّينَ فَالْشُّ لَذَّةٌ فِيهِ مَحْمُودَةٌ وَالرَّخَاءُ
لَوْ يَمَسُّ النَّضَارَ هُونٌ مِنَ النَّارِ لِمَا أَخْتِيرَ لِلنُّضَارِ الصَّلَاءُ^(٢)

وقد : (كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَوْعَكَ كَمَا يَوْعَكَ
الرجلان من سائر الناس)^(٣) ، وفي « الصحيح » : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ
مِثْلُ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ ، تَفِيئُهَا الرِّيحُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ مِثْلُ
الْأَرْزَةِ ، لَا يَضُرُّهَا شَيْءٌ حَتَّى تَنْجِفَ مَرَّةً »^(٤) .

(١) أخرج نحوه عن سعد رضي الله عنه الترمذي (٢٤٠٠) في الزهد ، وابن ماجه
(٤٠٢٣) في الفتن وفيه : قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال :
« الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . . . » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .
وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة وفاطمة .

(٢) الصَّلَاءُ : الوضعُ على النار . النَّضَارُ : الخالصُ من جوهر التبر والخشب .
(٣) أخرجه عن ابن مسعود رضي الله عنه البخاري (٥٦٤٨) في المرضى ، ومسلم
(٢٥٧١) في البر والصلة وفيه : « أجل ، إني أوعك كما يوعك رجلان
منكم . . . » .

(٤) تنجيفُ : تنقلعُ . وأخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (٢٨٠٩) ، =

وجاء : أَنَّهُ خَاطَبَ أَمْرَأَةً مِنْ (حَضْرَمَوْت) ، كَانَتْ مَشْهُورَةً
بِالْجَمَالِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهَا : وَأَزِيدُكَ أَنَّهَا لَمْ تَتَوَجَّعْ فِي عَمْرِهَا أَبَدًا ،
قَالَ : « لَا حَاجَةَ لِي بِهَا »^(١) ، وَأَرَادَ عَامِلُ أَبِي بَكْرٍ بِ(حَضْرَمَوْت)
أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ، فَنهَاهُ عَنْ ذَلِكَ .

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » [٤٨٨/١] عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ ،
وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ : « هَلْ أَخَذْتُكَ أُمٌّ مِلْدَمٌ ؟ »^(٢) ، قَالَ : مَا
وَجَدْتُ حَرًّا قَطُّ ، قَالَ : « فَهَلْ أَخَذَكَ الصَّدَاغُ ؟ » ، قَالَ : مَا
وَجَدْتُهُ قَطُّ ، فَلَمَّا وَلَّى . . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :
« مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . . فَلْيَنْظُرْ هَذَا » .

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ
بِالْمُؤْمِنِ ، فِي نَفْسِهِ ، وَمَالِهِ ، وَوَلَدِهِ ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ
خَطِيئَةٌ »^(٣) .

-
- = وعن كعب بن مالك (٢٨١٠) في صفات المنافقين بالفاظ متقاربة .
- (١) وجاء في « السيرة » : أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ ذَلِكَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَبَدَلَ عَلَيْهِ :
حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ ابْنِ حِبَانَ فِي « الْإِحْسَانِ » (٢٩٠٧) :
« مَنْ يَرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِيبُ مِنْهُ » بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ وَقَوْلُهُ عَنْهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ
(٥٦٤١) فِي (الْمَرْضَى) : « لَا يَصِيبُ الْمَرْءَ الْمُؤْمِنُ مِنْ نَصَبٍ وَلَا هَمٍّ
وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى حَتَّى الشُّوْكَةُ يَشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهَا بِهَا خَطَايَاهُ » .
- (٢) أُمٌّ مِلْدَمٌ : الْحُمَّى ، وَهُوَ أَيْضًا فِي « كَنْزِ الْعَمَالِ » (٦٧١٤) وَ(٨٦٤٢) عِنْدَ
ابْنِ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
- (٣) أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٤٩٧/١) ،
وَذَكَرَهُ فِي « كَنْزِ الْعَمَالِ » (٦٨٤٦) ، وَزَادَ نَسْبَتَهُ لِأَحْمَدَ وَهْنَادَ وَابْنَ حِبَانَ
وَالْبَيْهَقِي .

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ١٤٧/٢ من البسيط] :

فإن يكن وصب قاسيت سورته فالورد حلف لليث الغابة الأضم^(١)

وقال [البُحترى في «ديوانه» من الطويل] :

وما أكلب مخموماً وإن طال عمره ولكنما الحمى على الأسد الورد

لن يتسم الزمان؟ إنما يتسم الزمان لصغار الهمم ، وباعة الذمم ، وزمناء المروءة ، وخبثاء النفوس .

ولله در بعضهم في قوله [من السريع] :

من يزج بالفضل نجاحاً يمت جوعاً ولو كان بديع الزمان^(٢)
ومن يقذ أو يتمسخر يعيش عيشاً رخيماً في ظلال الأمان

وقال الناظم فيما يشبهه من ناحية ، وهو يتعلق بما سبق ، من

أقتران التعب بعلو الهمة [في «العكبري» ٢٦٩/٢ من الكامل] :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عمّا مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

هذا ، والميدان واسع ، والشوط بطين ، ويكفي من العقد
ما أحاط بالجيد ، والمناسبات لأمثاله كثير ، فلندع لكل موضع
ما يناسبه ، ممّا يفتح الله به علينا فيه .

أما قوله : (وجوى يزيد) .. فيكاد أن يكون عكس قوله زيادة الحب !!

الماضي [في «العكبري» ٣٢٥/١ من الكامل] :

(١) الوصب : المرض . سورته : حدته . الورد : الحمى . الأضم : الغضبان .

(٢) بديع الزمان : هو أحمد بن الحسين الهمداني ، أبو الفضل ، أحد الأئمة

الكتاب ، وهو صاحب «المقامات» توفي سنة : (٣٩٨ هـ) .

أَقْصِرْ فَلَسْتُ بِزَائِدِي وَدًّا بَلَغَ الْمَدَى وَتَجَاوَزَ الْحَدًّا

إِذِ الْوُدُّ وَالْجَوَى مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ يَدْخُلَانِ ، وَإِلَى مُتَعَلِّقٍ وَاحِدٍ
يَرْجِعَانِ ، وَلَكِنَّهُ مِثْلُ قَوْلِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/٢ مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَلَكِنَّ حُبًّا خَامَرَ الْقَلْبَ فِي الصَّبَا يَزِيدُ عَلَى مَرُّ الزَّمَانِ وَيَشْتَدُّ

وَقَوْلِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٧٢/٢ مِنْ الْمُنْسَرَجِ] :

زَيْدِي أَذَى مُهْجَتِي أَرْدَكِ هَوَى فَأَجْهَلُ النَّاسِ عَاشِقُ حَاقِدٍ

وَقَالَ فِي مَدْحِ أَبِي الْعِشَائِرِ وَهُوَ مِمَّا يَقْرُبُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ [في

«العُكْبَرِيِّ» ٢٦٥/٤ مِنْ الْمُنْسَرَجِ] :

إِنْ كَانَ فِيمَا نَرَاهُ مِنْ كَرَمٍ فَبِكَ مَزِيدٌ فَزَادَكَ اللَّهُ

وَقَوْلُهُ عَنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٣٤٨/٣ مِنْ الْخَفِيفِ] :

كَلَّمَا قِيلَ قَدْ تَنَاهَى أَرَانَا كَرَمًا مَا أَهْتَدَى إِلَيْهِ الْكِرَامُ

وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْبُحْتَرِيِّ [في «ديوانه» ٦٧٢/٢ مِنْ الطَّوِيلِ] :

طَلُوبٌ لَا قَصَى غَايَةٍ بَعْدَ غَايَةٍ إِذَا قِيلَ يَوْمًا قَدْ تَنَاهَى تَزِيدًا

وَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ [في «ديوانه» ١٣١/٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

خَدَمَ أَلْعَلَّا فَخَدَمْنُهُ وَهِيَ الَّتِي لَا تَخْدُمُ الْأَقْوَامَ مَا لَمْ تُخْدَمْ

فَإِذَا أَرْتَقَى فِي قُلَّةٍ مِنْ سُودِدٍ قَالَتْ لَهُ الْأُخْرَى : بَلَغْتَ تَقَدَّمَ^(١)

وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ فَإِذَا فَرَّغْتَ فَأَنْصَبْ * وَلِإِي رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾

[الإنشراح : ٨٧] .

(١) الْقُلَّةُ : رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ . السُّودْدُ : الْمَجْدُ وَالسِّيَادَةُ .

وأفضلَ عبيدُ اللهِ بنُ عَبَّاسٍ على بعضِ العربِ مِنْ حيثُ
لا يعرفُهُ ، فقالَ لَهُ : إِنْ لم تكنِ ابْنُ العَبَّاسِ . . فَإِنَّكَ خيرٌ مِنْهُ ، وَإِنْ
كنتَهُ . . فَأَنْتَ اليومَ خيرٌ مِنْكَ أَمْسٍ .

وللهِ درُّ أعشى هَمْدانَ في قولِهِ لبعضِ بني أُمَيَّةَ [كما في «الأغاني»

: ١٤٠/١٨ مِنْ الوافر] :

وَجَدْتُكَ أَمْسٍ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسٍ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدِ شَمْسٍ
غَيْرَ أَنَّ النَّاظِمَ عكسَ هَذَا المعنى في قولِهِ البَارِدِ [في «المُكَبَّرِي»

: ٣٦٨/١ مِنْ المتقارب] :

وَيُقَدِّمُ إِلَّا عَلَى أَنْ يَفِرَّ وَيَقْدِرُ إِلَّا عَلَى أَنْ يَزِيدَا

* * *

[قال أبو الطيّب المتنبي في « العُكْبَرِيُّ » ٢ / ٣٣٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

مَا لَاحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ إِلَّا أَنْشَيْتُ وَلِيَّ فُؤَادٍ شَيْقُ

(الشَّيْقُ) : المشتاق ، يقول : إِنَّهُ يَزِيدُ شَوْقَهُ لِلْمَعَانِ الْبَرْقِ ،
وتغريد الطائر ، وتلك عادة العرب ، وقلما تقع عين الإنسان على
ما يعجبه ، أو على ما يشنؤه . . . إِلَّا تَذَكَّرَ مِنْ يَحِبُّهُ ؛ ولهذا كَانَ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول : « اَللّٰهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ
الْآخِرَةِ »^(١) كَلَّمَا رَأَى مَا يَعْجَبُهُ ، أَوْ يَسُوؤُهُ ، فَقَدْ قَالَهَا فِي أَسْرٍ
أَحْوَالِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ ، فِي حَاجَةِ الْوَدَاعِ ، حِينَمَا رَأَى كَثْرَةَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَأَجْتَمَاعَهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ ، وَقَالَهَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، وَقَدْ رَأَى شِدَّةَ
مَا بِهِمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالْجُوعِ .

وللهِ دُرُّ الْقَائِلِ [أبو شغب السعدي في « البيان والتبيين » ١ / ٥٣٩ مِنْ الطَّوِيلِ] :

يُذَكِّرُنِيهِمْ كُلُّ خَيْرٍ رَأَيْتُهُ وَشَرٌّ فَمَا أَنْفَكُ مِنْهُمْ عَلَى ذِكْرِ

وَأَحَبُّ مَا يَكُونُ إِلَى الْعَرَبِ الْغَيْثُ ؛ فَلهَذَا يَتَذَكَّرُونَ بِهِ
الْأَحْبَابَ ، وَيَحْتَنُونَ عِنْدَهُ إِلَى الْأَوْطَانِ ، وَيَتَمَنُّونَهُ حَتَّى لِرَمَمِهِمْ
وَأَمْوَاتِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ لَا يُسَمِّنُهُمْ وَلَا يُغْنِيهِمْ مِنْ جُوعٍ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ
يَحِبُّونَ لَهُمْ مَا يَحْبُونَ لَأَنْفُسِهِمْ ، وَذَلِكَ بِهِمْ مِنْ مَتْنَهِي الْأَمَانِي ، وَقَدْ
قَالَ شَاعِرُهُمْ [في « ديوان الشريف الرضي » ١ / ٢٩١ مِنْ الْوَافِرِ] :

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه مسلم (١٨٠٥) ، وعن سهل بن سعد
رضي الله عنه عند مسلم (١٨٠٤) في (الجهاد) .

وَمَا أَلْسَفِيَا لَتَبْلُغَهُ وَلَكِنْ أَحْسُ لَهَا بَرَاداً فِي فُؤَادِي

فَأَمَّا أَهْلُ الْحَاضِرَةِ إِذَا وَصَفُوا الرُّعُودَ وَالْبُرُوقَ ، وَذَكَرُوا الْأَغْوَارَ
وَالنُّجُودَ . . فَإِنَّمَا هُوَ التَّكَلُّفُ وَالْاجْتِلَابُ ، وَلَعَلَّ أَحَدَهُمْ لَا يَحْفَلُ
بِالْمَطَرِ ، وَلَا يَبَالِي بِالْغَيْثِ ، وَلَا يَسْأَلُ عَنِ الْأَنْوَاءِ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى
السَّحَابِ ، وَلَا يَعْرِفُ رُكُوبَ الْجَمَلِ .

ومن عاداتهم التذكير عند
لمح البرق
وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي التَّذْكَرِ بِالْبُرْقِ قَوْلُ نَصِيبٍ [فِي «الْأَغْنِي» ١/ ٢٢٦ مِنْ
الطُّوِيلِ] :

وَدِدْتُ - وَلَمْ أَخْلُقْ مِنْ الطَّيْرِ - كُلَّمَا
بَدَأَ بَارِقُ نَحْوِ الْحِجَارِ أَطِيرُ
وَقَالَ أَحَدُ بَنِي كِلَابٍ [مِنْ الطُّوِيلِ] :

هَوَى نَاقَتِي خَلْفِي وَقُدَّامِي الْهَوَى
هَوَايَ حِجَارِي وَتَثْنِي زِمَامَهَا
نَحْسُ قَتْبِي مَا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ
وَأُخْفِي الَّذِي لَوْلَا الْأَسَى لَقَضَانِي
وَقَالَ أَعْرَابِي آخَرُ [مِنْ الطُّوِيلِ] :

رَمَى قَلْبُهُ الْبَرْقُ الْيَمَانِي رَمِيَّةً
فَهَلْ مِنْ مُعِيرٍ طَرَفَ عَيْنِ خَلِيَّةٍ ؟
بِجَنبِ الْحِمَى وَهَنَا فَكَادَ يَهِيْمُ
فَإِنْ سَانَ طَرَفِ الْعَامِرِيِّ كَلِيْمُ
وَقَدْ سَبَقَ ذَكَرُ الْبَيْتِ الثَّانِي مِنْهُمَا ، فِي غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ .

وَقَالَ آخَرُ [فِي «الْبَيَانِ وَالتَّيْسِينَ» ١/ ٣٧٥ مِنْ الطُّوِيلِ] :

سَرَى الْبَرْقُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَارِ فَشَاقَنِي
فَوَاكِيدِي مِمَّا أَلَاقَنِي مِنَ الْهَوَى
وَكُلُّ حِجَارِي لَهُ الْبَرْقُ شَائِقُ
إِذَا حَنَّ إِلْفٌ أَوْ تَلَأَلَ بَارِقُ

وقال الأحوص [في ديوانه ١٢٤-٢٧ من الطويل] :

أَقُولُ بَعْمَانَ وَهَلْ طَرَبِي بِهِ إِلَى أَهْلِ سَلْعٍ إِنْ تَشَوَّفْتُ نَافِعٌ^(١)
وَلِلْعَيْنِ أَسْرَابٌ تَفِيضُ كَأَنَّمَا تُعَلُّ بِكُحْلِ الصَّابِ مِنْهَا الْمَدَامِعُ^(٢)
أَصَاحَ أَلَمْ تُخْزِنِكَ رِيحَ مَرِيضَةٍ وَبَرَقَ تِلَالًا بِالْعَقِيقَيْنِ لَامِعٌ^(٣)
فَإِنَّ الْغَرِيبَ الدَّارِ مِمَّا يَشُوقُهُ نَسِيمُ الرِّيَّاحِ وَالْبُرُوقُ اللَّوَامِعُ
لَعَمْرُ أُنْتَبَهَ الْزَيْدِيُّ إِنْ أَدَكَرَهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ لِلْفُؤَادِ لَرَائِعُ
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي - وَالنَّوَى مُطْمَئِنَّةً بِنَا وَبِكُمْ - مِنْ عِلْمٍ مَا أَلْبِئُ صَانِعُ

وقال آخر [وهو مجنون ليل في ديوانه ٣٠٣ من الطويل] :

خَلِيلِي إِنِّي قَدْ أَرَقْتُ وَنَمْتُمَا لِبَرْقِ يَمَانٍ فَاقْعُدَا عَلَّانِيَا
خَلِيلِي لَوْ كُنْتُ الصَّحِيحَ وَكُنْتُمَا سَقِيمَيْنِ لَمْ أَفْعَلْ كَفْعَلِكُمَا بِنَا
وقال يعلى بن مسلم الأزدِيُّ ، وقد طال مكثه بـ (مكة) عند
أميرها ، نافع بن علقمة الكناني [في الأغاني ١٥٢-١٥٣/٢٢ من الطويل] :
أَلَا لَيْتَ حَاجَاتِي أَلَلَّوَاتِي حَبْسَنِي لَدَى نَافِعٍ قُضِينَ مُنْذُ زَمَانٍ
وَمَا بِي بَغْضٍ لِلْأَمِيرِ وَلَا قَلَى وَلَكِنَّ بَرَقًا بِالْحِجَارِ دَعَانِي

(١) طربي : أهتزازي شوقاً . سلع : جبل بـ (المدينة) . تشوّفت : تناولت ناظراً
إلى البعيد . والمعنى : أسأل نفسي وأنا في (عمّان) هل ينفعني مدّ نظري
نحو جبل سلع ، مهتراً من الشوق إلى أهله ؟ !
(٢) تُعَلُّ : يقدم لها الشراب ثانية . تنهل : يقدم لها للمرة الأولى . الصاب :
عصارة شجر مرّ .

(٣) العقيقان : موضعان بـ (المدينة) ، العقيق الأكبر فيه بئر عروة ، والعقيق
الأصغر فيه بئر رومة التي اشتراها عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وأوقفها على
المسلمين .

فَبَيْتٌ لَدَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَشِيمُهُ وَنَضَوَايَ مِنْ شَوْقٍ بِهَا أَرْقَانٍ^(١)
فَلَيْتَ لَنَا مِنْ مَاءِ حَمْنَانَ شَرْبَةً مُبَرَّدَةً بَاتَتْ عَلَى طَهْيَانٍ^(٢)

وقال ابن دريد [في «ديوانه» ٩٠ من الوافر] :

أَيَا بَرْقَ الْعَقِيقِ أَقِمْ فَمَا لِي سِوَاكَ عَلَى الصَّبَابَةِ مِنْ مُعِينٍ
أَحِرُّ إِلَى الْعَقِيقِ وَسَاكِينِهِ وَمَا يَخْلُو الْمُتَيْمُّ مِنْ حَنِينٍ

وقال جرير [في «ديوانه» ٨١٣/٢ من الوافر] :

وَهَاجَ الْبَرْقُ لَيْلَةً أَذْرَعَاتِ هَوَى مَا تَسْتَطِيعُ لَهُ طِلَابَا

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٨٤٣/٢ من الطويل] :

مَتَى لَاحَ بَرْقُ أَوْ بَدَا طَلَلُ قَفْرُ جَرَى مُسْتَهْلٌ لَا بَكِيٍّ وَلَا نَزْرُ^(٣)

والمعنى متكرر عند الناظم ، منه قوله [في «المكبري» ٢٢٢/٤ من

البيسط] :

تُهْدِي الْبَوَارِقُ أَخْلَافَ الْمِيَاهِ لَكُمْ وَلِلْمُحِبِّ مِنَ التَّذْكَارِ نِيرَانَا^(٤)

وقال المعري [في «سقط الزند» ٢٨٢ من الطويل] :

طَرِبْنَا لِضَوْءِ الْبَارِقِ الْمُتَعَالِي يَبْغِدَادَ وَهَنَا مَا لَهْنٌ وَمَالِي^(٥) ؟

(١) أشيمه : أنظره ، وأصل الشيم : النظر إلى البرق . النضو : البعير المهزول .

(٢) الحمنان : عنب طائفي صغير الحب وأرض مخمئة كثيرته . الطهيان : قلة الجبل ، أي : رأسه .

(٣) المستهل : الدمع الفياض . البكي : القليل الماء .

(٤) الأخلاف : الضروع ، وأستعار لها أخلافاً ؛ لأنها تغذي النبات كما تغذي الأم بالإرضاع ولدها .

(٥) الوهن : مقدار ثلث الليل الأول . ما لهن ومالي : أستفهام غرضه التوجع .

وقال [في « سقط الزند » ١٠٣ من الوافر] :

سَرَى بَرْقُ الْمَعْرَةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالًا^(١)
شَجَا رَجَبًا وَأَفْرَاسًا وَإِبِلًا وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُو الرُّحَالَ

وقال [في « سقط الزند » ١٠٦ من البسيط] :

يَا سَاهِرَ الْبَرْقِ أَتَقِظُ رَاقِدَ السَّمْرِ لَعَلَّ بِالْجَزَعِ أَغْوَانَا عَلَى السَّهْرِ^(٢)

وَأَمَّا الْبُكَاءُ لَسَجْعِ الْحَمَامِ .. فَلَأَنَّهَا كَمَا قِيلَ : تَنْدُبُ جَدًّا لِمَا الْبُكَاءُ لَسَجْعِ الْحَمَامِ
هَلَكَ فِي غَابِرِ الزَّمَانِ ، قَالَ النَّابِغَةُ [مِنْ الْوَافِر] :

بُكَاءَ حَمَامَةٍ تَدْعُو هَدِيلاً مُفَجَّعَةً عَلَى فَنَنِ تُغْنِي

وقال المعري [في « سقط الزند » ٥٢ من الخفيف] :

إِنِّهِ لَهِ دَرُكُنَّ فَانْتُ نَّ الْلَوَاتِي تَصْنُ عَهْدَ الْوِدَادِ^(٣)
مَا نَسِيتُنَّ هَالِكَا فِي الْأَوَانِ أَلْ حَالِ أَوْدَى مِنْ قَبْلِ هُلْكِ إِيَادِ

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا ، وَأَنَّ كُلَّ حَزِينٍ يَنْتَسِبُ إِلَى
الْحَزِينِ ، وَقَدْ قَالَ مَتَمُّ بْنُ نُورَةَ [فِي « دِيوان الحماسة » ١/ ٣٣١ مِنْ الطُّوِيلِ] :

لَقَدْ لَأَمَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لِتَذَرَاكِ الْدُمُوعُ أَلْسَوَافِكِ

(١) الْمَعْرَةُ : مَعْرَةُ النِّعْمَانِ وَهِيَ بَلَدَةٌ أَبِي الْعَلَاءِ . رَامَةٌ : أَسْمُ مَوْضِعٍ . الْكَلَالُ :
التَّعَبُ وَالضَّعْفُ .

(٢) الْبَرْقُ السَّاهِرُ : الْبَرْقُ الَّذِي يُسْهَرُ عَلَيْهِ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمَجَازِ . السَّمْرُ :
ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ . الْجَزَعُ : مَوْضِعٌ .

(٣) إِيهِ : أَسْمُ فِعْلٍ لِلْإِسْتِزَادَةِ مِنْ حَدِيثٍ أَوْ فِعْلٍ . يَقُولُ : إِنْ بَنَاتِ الْهَدِيلِ - الَّتِي أَشَارَ
إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : أَنْتَنْ ؛ أَيِ : الْحَمَامِ - مَعْرُوفٌ بِالْوِدَادِ ؛ لِقَوْلِ الرَّوَاةِ : بَأَنَّ فَرْخَ حَمَامٍ
هَلَكَ عَلَى عَهْدِ نُوحٍ ، فَالْحَمَامُ تَبْكِي عَلَيْهِ إِلَى الْيَوْمِ ، بَلْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَقَالُوا : أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالْكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنَّ الْأَسَى يَبْعَثُ الْأَسَى دَعُونِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وقال حميد بن ثور [في «ديوانه» ٢٤-٢٧ من الطويل] :

وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقَ إِلَّا حَمَامَةٌ دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وَتَنْدُمًا^(١)
بَكَتْ شَجْوً نَكَلَى قَدْ أَصِيبَ حَمِيمُهَا مَخَافَةً بَيْنَ يَتْرُكُ الْحَبْلَ أَجْذَمًا^(٢)
عَجِبْتُ لَهَا أَنِّي يَكُونُ غِنَاؤُهَا فَصِيحًا وَلَمْ تَتَغَرَّ بِمَنْطِقِهَا فَمَا
وَلَمْ أَرْ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا وَلَا عَرِيَّتًا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمًا

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٤٦٣ من الوافر] :

وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيَهَا وَلَكِنْ شَجَّتْ قَلْبِي فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا
فَكُنْتُ كَأَنَّنِي أَعْمَى مُعْنَى يُحِبُّ الْغَائِيَاتِ وَلَا يَرَاهَا

وقال غيره [في «الدمش» ٢٥٧-٢٥٨ من الرَّمَلِ] :

وَلَقَدْ تَشَكُّوْ فَمَا أَفْهَمُهَا وَلَقَدْ أَشْكُو فَمَا تَفْهَمُنِي
غَيْرَ أَنِّي بِالْجَوَى أَغْرِفُهَا وَهِيَ أَيْضًا بِالْجَوَى تَعْرِفُنِي

وقال الشَّمَّاحُ يصفُ ناقته [في «ديوانه» ٢٥٦ من البسيط] :

تَخْدِي يَدَاهَا وَرِجْلَاهَا عَلَى شَرَكِ سَحَّ النَّجَاءِ بِهِ مِنْ بَارِقِ بَاقِ^(٣)
كَادَتْ تُسَاقِطُنِي وَالرَّحْلَ إِذْ نَطَقَتْ حَمَامَةٌ فَذَعَتْ سَاقًا عَلَى سَاقِ^(٤)

(١) ساق الحرّ : صوت الحمامة .

(٢) الأَجْذَمُ : المقطوع .

(٣) تخدي : تسرع . سحّ النجاء : سريعة كأنها تصبّ الجري صبا ، على التشبيه بالمطر في شدّته وسرعة أنصبابه .

(٤) الساق الأولى : ذكر الحمام . الساق الثانية : ساق الشجرة .

ومكث عوفُ بنُ مُحَلِّمٍ ثلاثينَ سنةً عندَ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ ،
لا يُؤذَنُ لَهُ في العودِ إلى أهلهِ ، فبينا هوَ معَ عبدِ اللهِ . . . إذ سمعَ
حمامةً ، فقالَ [القصة بنحوها في « وفيات الأعيان » ٨٦/٣ من الطويل] :

وَأَرْقَنِي بِالرَّيِّ صَوْتُ حَمَامَةٍ فَنُحْتُ وَذُو الشَّقْوِ الْقَدِيمِ يَنُوحُ
عَلَى أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تَذَرِ دَمْعَةً وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وَنَاحَتْ وَفَرَخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا وَمِنْ دُونِ أَفْرَاحِي مَهَامُهُ فِينُحُ
فَرَّقَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وقالَ لَهُ : واللهِ لا أعمَلتَ خَفًا ، ولا حافراً ،
إِلَّا رَاجِعاً إِلَى أَهْلِكَ ، وزَوَدَهُ بثلاثينَ ألفاً ، غيرَ أَنَّهُ ماتَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ
إِلَى مَنْزِلِهِ .

ومما يروى لعروة بنِ حزامٍ [في « ديوانه » ٣٣ من الوافر] :

أَحَقًّا يَا حَمَامَةَ بَطْنِ وَجٍّ بِهِذَا النَّوْحِ أَنْكَ تَصْدُقِينَا
غَلَبْتُكَ بِالْبُكَاءِ لَأَنَّ لَيْلِي أَوَاصِلُهُ وَأَنْكَ تَهْجَعِينَا
وَإِنِّي إِنْ بَكَيْتُ بَكَيْتُ حَقًّا وَإِنَّكَ فِي بَكَائِكَ تَكْذِبِينَا
فَلَسْتُ - وَإِنْ بَكَيْتُ - أَشَدَّ شَوْقًا وَلَكِنِّي أَسِرُّ وَتُعْلِنِينَا
فَنُوحِي يَا حَمَامَةَ بَطْنِ وَجٍّ فَقَدْ هَيَّجَتْ مُشْتَقًا حَزِينَا

وقالَ قيسُ بنُ الملوِّحِ [في « ديوانه » ٢٣٨ من الطويل] :

كَذَبْتُ - وَبَيَّتَ اللَّهُ - لَوْ كُنْتُ صَادِقًا لَمَّا سَبَقَتْنِي بِالْبُكَاءِ الْحَمَائِمُ

وهو من قولِ الأوَّلِ^(١) [في « شرح مقامات الحريري » ٣٤/١ من الطويل] :

(١) قالَ الشريشيُّ في « شرح مقامات الحريري » (٣٤/١) : البيتانِ لعدِّي بنِ
الرُّقاعِ ، انظر « الكامل » للمبرِّدِ (١٢٥/٣) . ولكن قالَ أبو الحسنِ
الأخفشُ : الصحيحُ أَنَّ الشَّعْرَ لنصيبِ .

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً بَسُغْدِي شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنْذِمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ بُكَاهَا فَقُلْتُ : الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وقال أبو الدمينه [في « ديوانه » ١٨٠ من الطويل] :

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللَّوْىِ عُذْنَ عَوْدَةً فَلِإِنِّي إِلَى أَصْوَاتِكُنَّ حَزِينُ
فَعُذْنَ فَلَمَّا عُذْنَ كِذْنَ يُمِثَّنِي وَكِذْتُ بِأَشْجَانِي لَهُنَّ أُبِينُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ بِوَائِيَا بَكَيْنَ وَلَمْ تَذْرِفْ لَهُنَّ عُيُونُ

وقال أيضاً [في « ديوانه » ٢٨٠-٢٩ من الطويل] :

أَلَا يَا صَبَا نَجِدْ مَتَى هَجَبٍ مِنْ نَجْدٍ لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجْدًا عَلَى وَجْدٍ
أِنْ هَتَفَتْ وَرَقَاءُ فِي رَوْتِي الضُّحَى عَلَى فَنَنِ غَضِّ الْبَنَاتِ مِنَ الرُّنْدِ^(١)
بَكَيْتُ كَمَا يَبْكِي الْوَلِيدُ وَلَمْ أَكُنْ جَلِيدًا وَأَبْدَيْتُ الَّذِي لَمْ أَكُنْ أَبْدِي
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْمُحِبَّ إِذَا دَنَا يَمَلُّ وَأَنَّ النَّأْيَ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ
بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشْفَ مَا بَنَا عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعْدِ

ولهذه الأبيات قصّة ، حاصلها [كما في « الأغاني » ١٧/١٠٩] :
أنّه كان بين إسحاق الموصلي ، والعبّاس بن الأحنف ، ودّ
وإخاء ، فكلّما سمع أحدهما بعجيب . . أتحتف به الآخر ،
فجاء العبّاس يوماً ، وأنشد الأبيات هذه بين الناس ، ثمّ ترنّح
ترنّح الشّوان ، وقال : أنطح العمود برأسي ، فقالوا له :
أرفق بنفسك .

(١) الرنّد : نبات طيب الرائحة من شجر البادية .

وقد تعلق بأذياله في قوله [من شعر العباس بن الأحنف في «ديوانه» ٣٦ من الكامل]: صد الدلال من الكمال

لَوْ كُنْتُ عَاتِبَةً لَسَكَنْ خَاطِرِي أَمَلِي رِضَاكِ وَزُرْتُ غَيْرَ مُرَاقِبٍ
لَكِنْ صَدَدْتُ فَلَمْ تَكُنْ لِي حِيلَةً صَدُّ الْمَلُولِ خِلَافُ صَدِّ الْعَاتِبِ
وقال أبو تمام [من الطويل]:

وَحَلَّصَنِي مِنْ غَمْرَةِ الْمَوْتِ أَنَّهُ صُدُودٌ دَلَالٍ لَا صُدُودَ مَلَالٍ
وقال بعض الأعراب ، فيما يشبه قول ابن الدمينه : (بِكُلِّ مَرَضِ الْحُبِّ لَا دَوَاءَ لَهُ
تَدَاوَيْنَا . .) إلى آخر البيت [من الطويل]:

خَلِيلِي هَلْ يَشْفِي مِنَ الشَّوْقِ وَالْجَوَى دُنُوٌّ مِنَ الْأَوْطَانِ ؟ لَا بَلْ يَشْفُوهَا
وَيَزْدَادُ فِي قُرْبٍ إِلَيْهَا صَبَابَةٌ وَيَبْعُدُ مِنْ فَرْطِ أَشْتِيَاقِ طَرِيقِهَا

وهو مثل قول الآخر [في «خزانة الأدب» ٥١/١ من الوافر]:
وَأَبْرَحُ مَا يَكُونُ الشَّوْقُ يَوْمًا إِذَا دَنَتْ الدِّيَارُ مِنَ الدِّيَارِ
ومنه : أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « كَانَ إِذَا أَبْصَرَ دَرَجَاتِ
الْمَدِينَةِ . . حَرَّكَ دَابَّتَهُ ؛ مِنْ حُبِّهَا »^(١) .
وقال كثير [من الطويل]:

وَلَيْسَ عَلَى شَحْطِ النَّوَى أَكْثَرُ الْبُكَاءِ لَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالْمَزَارُ قَرِيبُ
وقال النظائر الفقهسي [في «المستطرف» ٣٩١/٢ من الطويل]:

يَقُولُونَ : هَلْذِي أُمُّ عَمْرٍو قَرِينَةٌ دَنَتْ بِكَ أَرْضُ نَحْوَهَا وَسَمَاءُ
أَلَا إِنَّمَا بُعِدُ الْحَبِيبِ وَقُرْبُهُ إِذَا هُوَ لَمْ يُوصَلْ إِلَيْهِ سَوَاءُ

(١) أخرجه عن أنس رضي الله عنه بنحوه البخاري (١٨٠٢) في (العمرة) .

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٦٥٦/٢ من المتقارب] :

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ هِجْرَانُهُ عَلَى الصَّبِّ أَيْسَرَ مِنْ فَقْدِهِ
وَقَدْ كُنْتُ أَظْمَأَ إِلَى وَصْلِهِ فَقَدْ صِرْتُ أَظْمَأَ إِلَى صَدِّهِ

وقال [في «ديوانه» ٧٢٥/٢ من الوافر] :

وَهَجَرْتُ الْقُرْبَ مِنْهَا كَانَ أَشْهَى إِلَى الْمُسْتَقَى مِنْ وَصْلِ الْبَعَادِ

وقال وأجاد [في «ديوانه» ٢٠٤٣/٣ من البسيط] :

مَتَى جَرَى الدَّمْعُ عَنْ بَيْنِ تَقْدَمِهِ أَلْ هِجْرَانُ كَانَ خَلِيقًا أَنْ يَكُونَ دَمًا

وقال ابن عنين [في «نفع الطيب» ٨٦٣/٢ من الكامل] :

عَبَّ الصُّدُودُ أَخَفَّ مِنْ عَبِّ النَّوَى لَوْ كَانَ لِي فِي الْحُبِّ أَنْ أَخَيِّرَا

وقال ابن الخياط [في «ديوانه» ٢٥٥ من الكامل] :

يَا عَمْرُو أَيُّ خَطِيرٍ خَطْبٍ لَمْ يَكُنْ خَطْبُ الْفِرَاقِ أَشَدَّ مِنْهُ وَأَوْبَقَا
كِلْنِي إِلَى كَلْفِ الصُّدُودِ فَرُبَّمَا كَانَ الصُّدُودُ مِنَ النَّوَى بِي أَرْفَقَا

وقال النازم في عكسه [في «العكبري» ٨١/٤ من الطويل] :

نَرَى عِظْمًا بِالْبَيْنِ وَالصَّدُّ أَعْظَمُ [وَنَتَهَمُ الْوَاشِينَ وَالْدَّمْعُ مِنْهُمْ]

وقال في قريب من موافقته [في «العكبري» ١٩٨/١ من الطويل] :

أَرَى لِي بِقُرْبِي مِنْكَ عَيْنًا قَرِيرَةً وَإِنْ كَانَ قُرْبًا بِالْبَعَادِ يُشَابُ
وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجُبُ بَيْنَنَا وَدُونَ الَّذِي أَمَلْتُ مِنْكَ حِجَابُ

وقال [في «العكبري» ٢٤٥/١ من الكامل] :

قَرُبَ الْمَزَارُ وَلَا مَزَارَ وَإِنَّمَا يَغْدُو الْجَنَانُ فَنَلْتَقِي وَيَرُوحُ

أَمَّا أَبْنُ الْخَيْطِ . . فَإِنَّهُ يَقُولُ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

غَرَامٌ عَلَى يَأْسِ الْهَوَى وَرَجَائِهِ وَحُبٌّ عَلَى قُرْبِ الْمَزَارِ وَبُعْدِهِ

وَقَالَ قَيْسٌ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

وَإِنَّ مُقِيمَاتِ بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى لِأَقْرَبُ مِنْ لُبْنَى وَهَاتِنِكَ دَارَهَا

ولنعذُ إلى ما نحنُ بسبيله ، ممَّا يتعلَّقُ ببكاءِ الحَمَامِ ، قالَ عودة إلى بكاء الحمام
الصَّمَّةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ الْقَشِيرِيُّ [في «ديوانه» ١١٥] مِنَ الطَّوِيلِ :

أِنْ سَجَعْتَ فِي بَطْنِ وَادِ حَمَامَةٍ تُجَاوِبُ أُخْرَى مَاءَ عَيْنِكَ دَافِقُ^(١)
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بُكَاءَ حَمَامَةٍ بَلِيلٌ وَلَمْ يَخْزُنْكَ إِلْفٌ مُفَارِقُ
بَلَى فَاغْنُ مِنْ ذِكْرِ لَيْلَى فَإِنَّمَا أَخُو الصَّبْرِ مَنْ كَفَّ الْهَوَى وَهُوَ تَائِقُ^(٢)

وَقَالَ آخَرُ [مِنَ الْكَامِلِ] :

أَبْكَيْتَ مِنْ حُزْنِ لِنُوحِ حَمَائِمِ دَعَتْ الْهَدَيْلَ وَظَلَّ غَيْرُ مُجِيبِهَا
نُحْنَا وَنَاحَتْ غَيْرُ أَنْ بُكَاءَنَا بَعُيُونَنَا وَبُكَاءَهَا بِقُلُوبِهَا

وَقَالَ النَّظَّارُ الْفَقْعَسِيُّ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

أَلَا يَا لَقَوْمِي بَرَّحْتَ بِي حَمَامَةٌ مُفَجَّعَةٌ قَدْ غَابَ عَنْهَا قَرِينُهَا
تُغْنِي بِصَوْتِ أَعْجَمِيٍّ فَهَيَّجَتْ شَايِبَ عَيْنٍ مُسْتَهْلٍ مَعِينُهَا
وَجَدَدَ قَرْحِ الْقَلْبِ فِيهِ أَنْدَمَالُهُ تَرْتُمُ الْحَانَ بِهِ لَا تَبِينُهَا

(١) سَجَعُ الحمام : موالاةُ صوته على طريقٍ واحدٍ .

(٢) تَائِقٌ : مشتاقٌ ، وتاقَتِ النفسُ إلى الشيءِ : نزعتْ وأشتاقت .

وقال أبو جعفر المهلبِيُّ [مِن الطويل] :

لَقَدْ هَيَّجَ الشَّقْوَ الْقَدِيمَ حَمَامَةً مُطَوِّقَةً وَزَقَاءً بَانَ قَرِينُهَا ^(١)
تَغَنَّتْ بِصَوْتٍ أَعْجَمِيٍّ فَهَيَّجَتْ وَسَاوِسَ نَفْسٍ مَا تَقَضَّتْ شُجُونُهَا

وقال محمدُ بْنُ جَهْمٍ [مِن الكامل] :

أَبْكَيْتَ إِنْ غَنَّتْ حَمَامَةٌ أَيْكَةً وَزَقَاءً تَهْتَفُ فِي الْغُصُونِ وَتَسْجَعُ
مَأْلُوفَةً أَلْأَلْحَانِ مِطْرَابُ الضُّحَى تَبْكِي بِشَجْوٍ دَائِمٍ وَتَوْجَعُ
مَا تَسْتَفِيقُ مِنَ الْبُكَاءِ وَنَوْحِهَا يَجْوِي الْحَزِينَ وَعَيْنُهَا لَا تَدْمَعُ
عَجَبًا لِمَبْكَى عَيْنِهَا وَجُمُودِهَا وَلِعَوْلَةٍ فِي قَلْبِهَا مَا تُقْلِعُ

وقال أحدُ بني الصَّيْدَاءِ [في «بغية الطلب في تاريخ حلب» ٩٧٣/٢ مِنْ

الطويل] :

دَعَتْ فَوْقَ أَغْصَانٍ مِنَ الْأَيْكِ غَدْوَةً مُطَوِّقَةً وَزَقَاءً فِي إِثْرِ آلِفِ
فَهَاجَتْ عَقَائِلَ الْجَوَى إِذْ تَرَنَّمَتْ وَشَبَّتْ ضِرَامَ الشَّقْوِ بَيْنَ الشَّرَاسِفِ ^(٢)
بَكَتْ بِجُفُونٍ دَمْعُهَا غَيْرُ ذَارِفٍ فَأَغَرَتْ جُفُونِي بِالْأَلْمُوعِ الذَّوَارِفِ

وللأبياتِ قِصَّةٌ ، لا يَتَسَعُ لها الوقتُ ^(٣) .

(١) الوُزْقَةُ : سوادٌ في غبرةِ كلونِ الرمادِ .

(٢) الشرسوفُ : غُضروفٌ معلقٌ بكلِّ ضِلَعٍ ، مثلُ غُضروفِ الكتفِ .

(٣) روى الأصمعيُّ عن مُتَّعِجِ بْنِ نِهَانَ الصَّيْدَاوِيِّ قَالَ : أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي الصَّيْدَاءِ مِنْ أَهْلِ الصَّرِيمِ قَالَ : كُنْتُ أَهْوَى جَارِيَةً مِنْ بَاهِلَةٍ ، وَكَانَ أَهْلُهَا قَدْ أَخَافُونِي ، وَأَخَذُوا عَلَيَّ الْمَسَالِكَ ، فَخَرَجْتُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَإِذَا حَمَامَاتٌ يَسْجَعْنَ عَلَى أَفْنَانِ أَيْكَاتٍ ، مُتَنَاحَاتٍ فِي سَرَاةٍ وَادٍ ، فَاسْتَفَرَنِي الشَّقْوُ ، فَركبتُ وَأَنَا أَقُولُ : دَعَتْ فَوْقَ أَغْصَانٍ . . . الأبيات ، لكنِّي سِرْتُ ، فَأَوَانِي اللَّيْلُ إِلَى =

وقال الطغرائي (في ديوانه ٣٨٩ من البسيط) :

أَيْكَيْتُ صَدَحْتُ شَجَواً عَلَى فَنٍّ فَأَشَعَلْتُ مَا خَبَا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي^(١)
نَاحَتْ وَمَا فَقَدْتُ إِلْفاً وَلَا فُجِعْتُ فَذَكَّرْتَنِي أَوْطَارِي وَأَوْطَانِي
طَلَبْتُ مِنْ إِسَارِ أَلْهَمِ نَاعِمَةً أَضَحْتُ تُجَدُّ وَجَدَ الْمُؤْتَقِ أَلْعَانِي
مَا فِي حَشَاهَا وَلَا فِي جَفْنِهَا أَثَرٌ مِنْ نَارِ قَلْبِي وَلَا مِنْ مَاءِ أَجْفَانِي

= حَيٍّ ، فَلَمَّا رَفَقْتُ فِي عَيْنِي سِنَّةً . . . إِذَا بِقَائِلٍ يَقُولُ :

تَمَنَّعَ مِنْ شَمِيمِ عِرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ أَلْعَشِيَّةِ مِنْ عِرَارٍ
فَكَشَاءَتْ مِنْهَا ، ثُمَّ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ ، فَإِذَا آخِرُ يَقُولُ :
لَنْ يَلْبَثَ الْقُرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يَكْرُهُ عَلَيْهِمْ وَنَهَارٌ
فَقُمْتُ ، وَعَبَرْتُ ، وَرَكِبْتُ مُتَنَكِّباً عَنِ الطَّرِيقِ ، فَإِذَا رَاحَ مَعَ الشُّرُوقِ وَقَدْ
سَرَحَ غَنَمًا لَهُ وَهُوَ يَتَمَثَّلُ :
كَفَى بِاللَّيَالِي الْمُخْلِقاتِ لِحِدَّةٍ وَبِالْمَوْتِ قَطَاعاً حِبَالِ الْقَرَائِنِ
فَأَظْلَمْتُ عَلَيَّ - وَاللَّهِ - الْأَرْضُ ، فَتَأَمَّلْتُهُ فَعَرَفْتُهُ ، قُلْتُ : فَلَانٌ ؟ قَالَ :
فَلَانٌ .

قُلْتُ : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : مَاتَتْ - وَاللَّهِ - رَمْلَةٌ ، فَمَا تَمَالَكْتُ أَنْ سَقَطْتُ عَنْ
بَعِيرِي ، فَمَا أَقْظَنِي إِلَّا حُرَّ الشَّمْسِ ، فَقُمْتُ وَقَدْ عَقَلَ الْغُلَامُ نَاقَتِي وَمَضَى ،
فَرَكِبْتُ إِلَى أَهْلِي وَقُلْتُ :

يَا رَاعِي الضَّانِ قَدْ أَبْقَيْتَ لِي كَمَدًا يَبْقَى وَيُنْفِلُنِي يَا رَاعِي الضَّانِ
نَعَيْتَ نَفْسِي إِلَى جِسْمِي فَكَيْفَ إِذَا أَبْقَى وَنَفْسِي فِي أَثْنَاءِ أَكْفَانِ
لَوْ كُنْتُ تَعْلَمُ مَا أَسْأَزْتُ فِي كَيْدِي بَكَيْتُ مِمَّا تَرَاهُ الْيَوْمَ أَبْكَانِي
(١) الْأَيْكَةُ: الشجر الكثير الملتف. والأَيْكِيَّة: التي من شأنها وعادتها سُكْنَى الْأَيْكِ ،
وهي الحمامة .

وهي بالمكان الأعلى من إثارة الأشجان ، لولا التغير بين
قوله : (شجواً) وقوله : (طليقة وما بعده) .

ومما ينسب لبدر الدين يوسف بن لؤلؤ [من الكامل] :

أَحْمَامَةُ الْوَادِي بِشَرْقِي الْحِمَى إِنْ كُنْتُ مُسْعِدَةَ الْحَزِينِ . . فَرَجِّعِي
فَلَقَدْ تَقَاسَمْنَا الْغَضَا فَعُصُونُهُ فِي رَاحَتِكَ وَجَمْرُهُ فِي أَضْلَعِي

وله [في «خزانة الأدب» ٨٨/٢ من الكامل] :

وَتَبَهَّتْ ذَاتُ الْجَنَاحِ بِسُخْرَةٍ بِالْوَادِيَيْنِ فَهَيَّجَتْ أَشْوَاقِي
وَرَفَاءُ قَدْ أَخَذَتْ فُتُونُ الْحُزْنِ عَنْ يَغْفُوبَ وَالْأَلْحَانَ عَنْ إِسْحَاقِ
أَتَى تَبَارِينِي أَسَى وَصَبَابَةٌ وَكَابَةٌ وَجَوَى وَفَيْضَ مَا قِي ١٩
وَأَنَا الَّذِي أُمْلِي الْهَوَى مِنْ خَاطِرِي وَهِيَ الَّتِي تُنْلِي مِنْ الْأَوْرَاقِ

وكان ابن أبي طاهر ، يستحسن هذه الأبيات [من الطويل] :

وَقَبْلِي أَبَكَى كُلَّ مَنْ كَانَ ذَا هَوَى هَتُوفُ الْبَوَاكِي وَالْدِّيَارُ الْبَلَاغُ
وَمَرَّ عَلَى الْأَطْلَالِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ نَوَائِحُ مَا تَخْضَلُ مِنْهَا الْمَدَامُ (١)
مُزَبَّرَجَةُ الْأَعْنَاقِ نِمْرُ بَطُونِهَا مُحْطَمَةٌ بِالذَّرِّ خُضِرَ رَوَائِعُ (٢)
تَرَى طَرّاً بَيْنَ الْخَوَافِي كَأَنَّهَا حَوَاشِي بُرُودٍ أَحْكَمَتْهَا الْوَشَائِعُ (٣)
وَمِنْ قَطْعِ الْيَاقُوتِ صِبْغَتْ عُيُونُهَا خَوَاضِبُ بِالْحِجَاءِ مِنْهَا الْأَصَابُغُ

(١) تخضلُ : تبتلُ . المدامُ : العيونُ .

(٢) الزَّبْرَجُ : الزينة من وشي أو جوهر أو غيره . طائرُ أنمرُ : منقط بالأسود .

(٣) الوشائع - جمع وشيمة - : وهي الطريقة في البرد .

وقال آخر [من البسيط] :

يَا وَيْحَ قُمْرِيَّةٍ عَنَّتْ لَنَا هَزَجًا مِمَّا تُغْنِي بِنَظْمٍ جِدُّ مُثَرِّنٍ
قَدْ كُنْتَ وَاقِعَةً دَهْرًا عَلَى فَنٍّ فَصِرْتَ فِي جَوْفٍ مَنُحَوِّتٍ مِنَ الْقَنَنِ^(١)
فَخَبَّرِينَا وَمَا أَلْفَاكَ مُخْبِرَةً أَتَسْجَعِينَ لِلَّهِ مِنْكَ أَمْ شَجَنٍ ؟
وَفِي فُؤَادِي هُمُومٌ لَسْتُ أَظْهَرُهَا خَوْفَ الْوُشَاةِ وَإِشْفَاقًا مِنَ الزَّمَنِ

وقال البُحرِيُّ [في «ديوانه» ١٩٦٦/٣ من الطويل] :

وَوُزِقَ تَدَاعَى بِالْبُكَاءِ فَهَجَنَ لِي كَمِينَ أَسَى بَيْنَ الْحَشَا وَالْحَيَازِمِ
وَصَلْتُ بِدَمْعِي نَوْحَهُنَّ وَإِنَّمَا بَكَيتُ لِشَجْوِي لَا لِشَجْوِ الْحَمَائِمِ

وقال المعرِّي [في «سقط الزند» ٢٦٧ من الطويل] :

وَعَنَّتْ لَنَا فِي دَارِ سَابُورَ قَيْنَةٌ مِنْ الْوُزُقِ مِطْرَابُ الْأَصَائِلِ مِيهَالُ^(٢)
فَقُلْتُ : تَغْنِي كَيْفَ شِتِّ فَإِنَّمَا غِنَاؤُكَ عِنْدِي - يَاحَمَامَةُ - إِعْوَالُ^(٣)

وقال المنازلي - وأهل الأندلس يزعمون أنهما لحمدَة الأندلسيّة -

[من الوافر] :

لَقَدْ عَرَضَ الْحَمَامُ لَنَا بِسَلْعٍ إِذَا عَنَى لَهُ رَكْبُ الْأَحَا
شَجَا قَلْبَ الْخَلِيّ فَقَالَ : غَنَى وَبَرَّحَ بِالشَّجِي فَقَالَ : نَاحَا

(١) القَنَنُ - جمع قِنَّة - : وهي قوّة من قوى حبل الليف .

(٢) دار سابور : دارُ العلم بِ(بغداد) . القَيْنَةُ : المغنيّة . الْوُزُقُ : الحمامُ . المِيهَالُ : من الوَهْلِ ، أي الفرعُ ، أو النازلة بين أهلها .

(٣) الإِعْوَالُ : العويلُ وهو رفعُ الصوتِ بالبكاء . يقولُ : إن صوت هذه الحمامة عندي ليس غناءً يبعثُ على اللهُو والطربِ ، وإنما هو عويلٌ يثيرُ الشجَا والكرب .

كل إناء بما فيه ينضح ونعم والله ، فكلُّ يقفُ عندَ حدِّه ، وينتهي لمقدارِ مدِّه ، وكثيراً ما تشبهُ النوائحُ والأغاني ، وتتفقُ الصورُ لا المعاني .

وللهِ درُّ الناظمِ في قوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٥٥/٤ من الرافِري] :

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدًّا وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ
وَيُطْرِبُنِي قَوْلُ الْآخِرِ ، وَقَدْ تَمَثَّلْتُ بِهِ مَرَّةً ، وَعِنْدِي صَدِيقِي
الْجَلِيلُ السَّيِّدُ شَيْخُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَبَشِيُّ ، فَصَعَقَ حَتَّى كَادَ يُغْشَى
عَلَيْهِ ، وَهُوَ [مِنَ الْخَفِيفِ] :

يَنْدُبُونَ الْكُلَّوَا وَأَنْدُبُ سَلْعَا كُلُّ عَيْنٍ تَبْكِي عَلَى مَا شَجَاهَا
وَحَدَّثُوا [في «بنية الطلب» ٣٢١١/٧] : أَنَّ خَالِدَ بْنَ يَزِيدَ الْكَاتِبَ ،
كَانَ يَهْوِي جَارِيَةً لِبَعْضِ أَعْيَانِ (بَغْدَادَ) ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا ، ثُمَّ إِنَّ
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَّاهُ عَمَلًا بِالثَّغُورِ ، فَشَخَصَ ، فَسَمِعَ فِي
طَرِيقِهِ مَنْشِدًا يَقُولُ [مِنَ الْبَسِيطِ] :

مَنْ كَانَ ذَا شَجْنٍ بِالشَّامِ يَطْلُبُهُ فَنِي سَوَى الشَّامِ أَضْحَى الْأَهْلُ وَالشَّجْنُ
فَبَكَى حَتَّى سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أَفَاقَ ، وَلَمْ يَفَارِقْهُ الْوَسْوَاسُ
حَتَّى مَاتَ .

وَلَا غَرَابَةَ ؛ فَإِنَّ مَنْ وَعَى سَمْعُهُ ، وَكُرِمَ طَبْعُهُ ، وَعَذَّبَ
مَشْرَبُهُ . . لَا صَادِحَةَ إِلَّا تَطْرِبُهُ .

ولقد أسهبَ والدي - رحمه الله - في الموضوع بلسانِ القوم ،
وذكرَ حديثَ الثلاثةِ الذينَ سَمِعُوا المُنَادِيَّ عَلَى السَّعْتَرِ الْبَرِّيِّ^(١) ،

(١) الحاصل منها : أن كلَّ سامعٍ يسرعُ فهمه إلى ما يشغل فكره ، فأحدهم سمعه =

وحديث سَامِعِ المَنَادِي عَلَى الخِيَارِ عَشْرَةَ بِدَرْهَمٍ . . وَمَا كَانَ مِنْ تَغْيِيرِهِ
وَقَوْلِهِ : إِذَا كَانَ الخِيَارُ عَشْرَةَ بِدَرْهَمٍ . . فَمَا بَالُ الْأَشْرَارِ ؟ !

وَذَكَرَ الْأُسْتَاذَ الْأَبْرَّ سَيِّدَنَا الْإِمَامَ عِيدْرُوسَ بْنَ عَمَرَ : سَمِعَ
النَّاعُورَةَ يَوْمًا . . فَأَهْتَاجَ وَأَشْتَاقَ ، وَفَاضَتْ حِكْمَتُهُ ، وَتَفَجَّرَتْ
يَنَابِيعُ مَعَانِيهِ ، وَدَرَّتْ شَآئِبُ مَعَارِفِهِ ، فَقُلْتُ لِوَالِدِي : إِنَّ عِنْدِي فِي
ذَلِكَ لِحَدِيثًا يَنَاسِبُ بَعْضَ مَا ذَكَرْتُمْ قَالَ : هَاتِ ، قُلْتُ : ذَكَرَ بَعْضُ
أَهْلِ الْأَدَبِ ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا نَزَلَ بِالْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ ، وَزِيرِ الْمَتَوَكِّلِ
الْعَبَّاسِيِّ ، وَبَاتَ فِي سَطْحٍ يَشْرَفُ عَلَى بَسْتَانٍ لَهُ ، فَلَمَّا أَسْحَرَ ،
وَسَمِعَ أَصْوَاتَ النُّوَاعِيرِ . . حَنَّ وَأَنَّ ، وَجَاشَتْ بِلَابِلُهُ ، وَهَاجَتْ
خَوَاطِرُهُ ، وَقَالَ [فِي «الْأَغَانِي» ٣٨١/٥ مِنْ الْكَامِلِ] :

بَكَرْتُ تَحَنُّنًا وَمَا بِهَا وَجْدِي وَأَحْسَنُ مِنْ شَوْقِي إِلَى نَجْدِي
وَدُمُوعَهَا تَخِي الرِّيَاضُ بِهَا وَدُمُوعُ عَيْنِي أَخْرَقَتْ خَدِّي
فَأَصَابْتُ مِنْ أَبِي مَحْزَأَ ، وَصَادَقْتُ لَهُ مَهْزَأَ ، فَأَهْتَاجَ حَزَنًا ،
وَأَرْسَلَ دُمُوعَهُ فُرَادَى وَمَشْنَى ، وَوَدَّ أَنْ لَوْ كَانَ الْأُسْتَاذُ حَيًّا . . فَاتَّحَفَهُ
بِالْقَصَّةِ وَالْبَيْتَيْنِ ، وَدَعَا لِي حِينَئِذٍ بِمَا أَرْجُو ذُخْرَهُ وَبِرَكَتَهُ .
وَقَالَ نَصِيبٌ أَوْ غَيْرُهُ [مِنْ الطُّوِيلِ] :

وَقَدْ كَذْتُ يَوْمَ الْحُزَنِ لَمَّا تَرَنْمْتُ هَتُوفُ الضُّحَى مَحْزُونَةً بِالتَّرْنَمِ
أُمُوتُ لِمَبْكَاهَا أَسَى إِنَّ لَوْعَتِي وَوَجْدِي بِسَعْدِي شَجْوَهُ غَيْرُ مُنْجَمِ

= يَبِيعُ زَعْتَرِ الطَّعَامِ النَّبْتَ الْمَعْرُوفَ الْمَفِيدَ الشَّهِي الْمَضَادَّ لِلْجَرَائِمِ ، وَالثَّانِي
سَمِعَهُ يَقُولُ : أَسْعَ تَرَبَّرِي ، وَالثَّلَاثُ سَمِعَ : السَّاعَةُ تَرَى بَرِي فَانْهَضْ وَبَادِرْ
قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ .

وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبَ ، وَكُلٌّ يَغْنِي عَلَى لَيْلَاهِ ، وَهَكَذَا .

وقال [من الطويل] :

وَيَوْمَ اللَّوَى أَبْكَاكَ نَزْحُ حَمَامَةٍ هَتُوفِ الضُّحَى بِالنَّوْحِ ظَلَّتْ تَفْجَعُ
فَقُلْتُ : أَنْبِكِي ذَاتُ طَوْقٍ تَذَكَّرْتُ هَدِيلاً وَقَدْ أَوْدَى وَمَا كَانَ تُبْعُ^(١)
وَأَذِرِي وَلَا أَبِكِي وَتَبِكِي وَمَا دَرْتُ بِعَوْلَتِهَا غَيْرَ الْبُكَاءِ كَيْفَ تَضْنَعُ
وَلَمْ تَرَ مَا تَبِكِي وَأَتْرُكُ مَا أَرَى وَتَحْفَظُ مَا تَبِكِي لَهُ وَأُضَيِّعُ

وقد سبق في غير هذا المجلس ، ما قاله أبو فراس في مناجاة الحمامة .

وقال ابن الفارض [في «ديوانه» ٣٩ من الطويل] :

وَلَوْلَاكَ مَا اسْتَهْدَيْتُ بَرْقًا ، وَلَا شَجْتُ فُؤَادِي فَأَبَكْتُ إِذْ شَدْتُ وَزُقْتُ أَيْكَةً^(٢)
فَذَاكَ هَدَى أَهْدِي إِلَيَّ وَهَلِذِهِ عَلَى الْعُودِ إِذْ غَنَّتْ عَنِ الْعُودِ أَغْنَتْ^(٣)

ولي في الموضوع الكثير الطيب ، غير أنني لا أملُ بشيء منه ،
إلا ما أراني لم أسبق إليه من قولي [من البسيط] :

جَعْتُ دُمُوعِي لِفَرْطِ الْوَجْدِ وَالْحَرْقِ وَبِثْ أَرْعَى نُجُومَ اللَّيْلِ مِنْ أَرْقِ
كَذَلِكَ الْوُرُقُ لَا تَذَرِي الدُّمُوعَ إِذَا نَاحَتْ بِأَكْبَادِهَا الْحَرَى عَلَى الْوَرَقِ

(١) تُبْعُ : هو تبع بن حسان بن تبيان ، ويقال : اسمه مرثد ، وهو تبع الأصغر آخر التبابعة من ملوك حمير في اليمن .

(٢) استهدها : طلب منه أن يهديه . شجعت : أحزنت . شَدْتُ : غَنَّتْ . الأيكة : الشجرة الملتفة .

(٣) فذاك : أي البرق . وهذه : أي الحمامة . العود الأول : الغصن . العود الثاني : آلة الطرب .

وَيَتَّصِلُ بِالْمَوْضُوعِ [أن أبا الفرج روى في «الأغاني» ٣٧٥/١٥] : أَنَّ زِيَادًا الْعَرَبَ تَحْفَظُ الْمُسْتَجِيرَ الْأَعْجَمَ ، قَدِمَ عَلَى الْمَهْلَبِ ابْنِ أَبِي صَفْرَةَ ، فَبَيْنَا هُوَ يَشْرَبُ يَوْمًا مَعَ ابْنِهِ حَبِيبٍ . . إِذْ اقْتَرَبَتْ مِنْهُمَا حَمَامَةٌ تَغْنِي ، فَقَالَ زِيَادٌ [في «ديوانه» ١٢٠-١٢١ من الوافر] :

تَغْنِي أَنْتِ فِي ذِمَمِي وَعَهْدِي وَذِمَّةِ وَالِدِي أَنْ لَا تُطَارِي
إِذَا غَنَيْتَنِي وَشَرِبْتُ كَأْسًا ذَكَرْتُ أَحَبِّي وَذَكَرْتُ دَارِي
فَإِمَّا يَقْتُلُوكَ طَلَبْتُ نَارًا لَهُ نَبَأُ لَأَنَّكَ فِي جَوَارِي
فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ شَكَ فَوَادَهَا بِالسَّهْمِ حَبِيبٌ ، فَغَضِبَ زِيَادٌ ،
وَذَهَبَ يَشْكُو إِلَى الْمَهْلَبِ ، فَقَالَ حَبِيبٌ : إِنَّمَا كُنْتُ مَازِحًا ، فَقَالَ لَهُ
أَبُوهُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ جَارَةَ أَبِي أُمَامَةَ لَا تُرَوِّعُ ؟ وَقَضَى فِيهَا بِأَلْفِ دِينَارٍ دِيَّةَ
الْمُسْلِمِ ، فَقَبَضَهَا زِيَادٌ ، وَقَالَ [في «ديوانه» ٦٧ مِنْ الطُّوَيْلِ] :

فَلِلَّهِ عَيْنًا مَنْ رَأَى كَقَضِيَّةٍ قَضَى لِي بِهَا شَيْخُ الْعِرَاقِ الْمُهْلَبُ
رَمَاهَا حَبِيبُ بْنُ الْمُهْلَبِ رَمِيَّةً فَأَقْصَدَهَا وَالسَّهْمُ يُخْطِي وَيَغْرُبُ^(١)
فَالزَّمَهُ عَقْلُ الْقَتِيلِ ابْنُ حُرَّةٍ وَقَالَ حَبِيبٌ : إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ
فَقَالَ : زِيَادُ لَا يُرَوِّعُ جَارُهُ وَجَارَةُ جَارِي مِثْلُ جَارِي وَأَقْرَبُ

وكما تحنُّ العربُ لنوحِ الحمامِ ، وتبوحُ بِرَوْقِ الغمامِ . . كذلك من الأماكن التي تحن
عند حنين الإبل ، يضطرمُّ أوارها ، ويهتاجُ تذكَّارها .
فيها العرب . . عند
حنين الإبل

قَالَتْ أُمْرَأَةٌ مِنْ بَنِي عَقِيلٍ - تَزَوَّجَتْ فِي بَنِي كَلَابٍ [مِنْ الطُّوَيْلِ] - :
خَلِيلَيَّ قَدْ هَاجَتْ عَلَيَّ صَبَابَةٌ قُلُوصُ الْعِبَادِئِينَ لَيْلَةً حَتَّى

(١) يغربُ السهمُ : يأتي من حيث لا يدري ، وهو من قولهم : سهمٌ غربٌ .

بَرَزْتُ لَهَا وَاللَّيْلُ مُلْتِي رُؤَاةُ فَجَاوَبَتْهَا حَتَّى مَلَلْتُ وَمَلَّتْ
 وَتَرَوَّجَتْ أُخْرَى ، فَنَقَلُوهَا عَنْ أَهْلِهَا عَلَى بَكْرٍ^(١) ، فَجَعَلْتُ
 تَبْكِي عَلَى الْأَفْهَى ، وَيَحِنُّ الْبَكْرُ إِلَى عَطْنِهِ^(٢) ، فَقَالَتْ إِنِّي «مَعْجَمُ
 الْبَلْدَانِ ١/ ٦٣ مِنْ الطُّوَيْلِ» :

أَلَا أَيُّهَا الْبَكْرُ الْأَبَانِيُّ إِنَّنِي وَإِيَّاكَ فِي كَلْبٍ لِمُعْتَرِبَانِ
 تَحِنُّ وَأَبْكِي إِنْ ذَا لَبَلِيَّةٌ وَإِنَّا عَلَى الْبَلَوَى لِمُضْطَحِبَانِ
 وَإِنْ زَمَانَا أَيُّهَا الْبَكْرُ ضَمَّنِي وَإِيَّاكَ فِي وَادٍ لَشَرِّ زَمَانِ
 وَقَالَ آخَرُ «إِنِّي» وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ ٦٠/ ٣٧٢ مِنْ الطُّوَيْلِ :

وَحَنَّتْ قَلُوصِي آخَرَ اللَّيْلِ حَنَّةً فَيَا رَوْعَةً مَا رَاعَ قَلْبِي حَيْنُهَا
 تَحِنُّ إِلَى أَهْلِ الْحِجَازِ صَبَابَةً وَقَدْ بَثَّ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ قَرِينُهَا
 وَيَحْكِي «بَنَحُمَا فِي» «مَعْجَمُ الْبَلْدَانِ ١/ ١٣٥» : أَنَّ بَعْضَ أُمَرَاءِ
 (الْمَدِينَةِ) ، اسْتَدْعَى أَعْرَابِيًّا مِنْ أُولِي وَدِّهِ ؛ لِيَكْتُبَ لَهُ فِي الدِّيْوَانِ
 مَا يَكْفِيهِ عَنْ انْتِجَاعِ الْبُوَادِي ، فَتَحَمَّلَ بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ
 عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنَ (الْمَدِينَةِ) . . سَقَى إِبِلَهُ ، وَلَمَّا ضُرِبَتْ بِالْعَطَنِ . .
 أَنْفَلَتْ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ ، وَحَنَّتْ إِلَى وَطَنِهَا ، فَفَرَّتِ الْبَوَاقِي ،
 وَأَمَعَنْتْ فِي آثَارِهَا ، فَأَهْتَاجَتْ أَمْرَئَتُهُ - وَكَانَتْ مِنْ غُطْفَانَ - وَقَالَتْ :
 أَتَكُونُ الْإِبِلَ أَعْقَلَ مِنَّا وَأَرْقَّ عَوَاطِفَ ؟ ! وَاللَّهِ لَا تَبْعُثُكَ إِلَى
 (الْمَدِينَةِ) ، وَقَالَتْ [مِنْ الطُّوَيْلِ] :

إِذَا حَنَّتِ الشُّقْرَاءُ هَاجَتْ لِي الْهُوَى وَذَكَّرَنِي أَهْلَ الْأَرَاكِ حَيْنُهَا

(١) الْبَكْرُ مِنَ الْإِبِلِ : مَا لَمْ يُنْزَلْ بَعْدُ .

(٢) الْعَطْنُ لِلْإِبِلِ : كَالْوَطَنِ لِلنَّاسِ .

ولا مؤاخذه إن كانت القصّة بغير هذا اللون .

وقال المعريّ يصف إبلة [في «سقط الزند» ٢٨٤ من الطويل] :

تَلَوْنَ زُبُوراً فِي الْحَنِينِ مُنْزَلاً عَلَيْنَهُنَّ فِيهِ الصَّبْرُ غَيْرُ حَلَالٍ
وَأَنْشَدْنَ مِنْ شِعْرِ الْمَطَايَا قَصِيدَةً وَأَوْدَعْنَهَا فِي الشُّوقِ كُلَّ مَقَالٍ

وإنما كثر حنينُ العربِ لشيَمِ البروقِ ، ولِبكاءِ الحمائمِ ، وحنينِ الإبلِ ؛ لكثرة ما يمارسونَ من ذلك ، وإلّا . . فإنهم بِرِقَّةِ طباعهم لَا يَنسونَ أَحِبَّائَهُمْ ، وكثيراً ما يحتاجُ لهمُ الجوى لأدنى حادثٍ ، ممّا سوى تلك :

كهبوبِ الرياحِ : ومرّ ذرّو منه أثناء الكلام ، وقال عبدُ الله بنُ قَد يهيجُ شوقَ العربي
أُميّة [في «ديوان الحماسة» ١١٩/٢ من الطويل] :

إِذَا هَبَّ عُلوِيّ الرِّيحِ وَجَدْتَنِي كَأَنِّي لِعُلوِيّ الرِّيحِ نَسِيبُ

وكظهور النارِ : قال بعضهم [في «الأغاني» ١٢٧/١٥ من البسيط] :

يَا مُوقِدَ النَّارِ أَوْقِذْهَا فَإِنَّ بِهَا سَنَأُ يَهْنِجُ فُؤَادَ الْعَاشِقِ السَّدِيمِ^(١)

وقال ابنُ الخطّابِ لمتّمِ بنِ نويرَةَ [في «وفيات الأعيان» ١٩/٦] :
ما بلغَ من حزنِكَ على أخيك ؟ قال : لقد مكثتُ سنّةً لا أنامُ بلبيلٍ
حتّى أصبحَ ، ولا رأيتُ ناراً بلبيلٍ . . إلّا ظنّنتُ نفسي تخرجُ ، أذكرُ
بها نارَ أخي للضيّفانِ .

وكاختلاجِ الرّجلِ أو العينِ : قال ابنُ أبي ربيعة [من الطويل] :

إِذَا مَدِلْتُ رِجْلِي دَعَوْتُكَ أَشْتَفِي بِذِكْرِكَ مِنْ مَذَلٍ بِهَا فَيَهُونُ^(٢)

(١) السَّدِيمُ : الندمُ ، السادمُ : النادمُ .

(٢) مَدِلْتُ : لم تستقرّ في مكانها .

وقال العباسُ بنُ الأحنفِ [مِنَ البسيطِ] :

ظَلَلْتُ تُبَشِّرُنِي عَيْنِي إِذْ اخْتَلَجْتُ بِأَنْ أَرَاكَ وَمَا زَالَتْ عَلَى خَطَرٍ
فَقُلْتُ لِلْعَيْنِ : إِمَّا كُنْتَ صَادِقَةً إِنِّي بِبُشْرَاكِ لِي مِنْ أَسْعَدِ الْبَشَرِ
فَمَا جَزَاؤُكَ عِنْدِي لَسْتُ أَعْرِفُهُ بَلَى جَزَاؤُكَ أَنْ تَخْلِينَ بِالنَّظَرِ
وَأَحْجُبُ الْمُفْلَةَ الْأُخْرَى وَأَمْنَعُهَا وَجْهَ الْحَبِيبِ كَمَا لَمْ تَأْتِ بِالْخَبَرِ

ومنه قولِي مِن قصيدة نبوية [مِن الطويل] :

وَمَا لِي إِلَّا حُبُّهُ مِنْ وَسِيلَةٍ أَصْلِي عَلَيْهِ كُلَّمَا أَلْعِينُ تَخَلَجُ

* * *

[قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ٣٣٣/٢ من الكامل] :

وَعَدَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى دَفَنْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ

يُعْظَمُ أَمْرَ الْعِشْقِ ، ويقولُ : كَيْفَ يَكُونُ الْمَوْتُ مِنْ غَيْرِ عِشْقٍ ؟ كيف يكون الموت بلا
إذ لا ينبغي أن يموت مَنْ لَمْ يَعْشَقْ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُقَاسِ مَا يَوْجِبُ الْمَوْتَ عشق؟^١
مِنَ الْمَشَاقِّ ، وَالْمِ الْفِرَاقِ ، وَإِنَّمَا يَعْالِجُ ذَلِكَ الْعَاشِقُ ، فَتَسْرِعُ إِلَيْهِ
بِالْهَلَاكِ ، فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ [في «العكبري» ١٦٣/٣ مِنْ الْبَسِيطِ] :

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتُ لَهَا الْمَنَائِيَا إِلَى أَزْوَاحِنَا سُبُلًا

والعشق مِنْ طَبَائِعِ النُّفُوسِ ، لَا يَخْلُو عَنْهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَوَالِيدِ العشق من طبائع
الثَلَاثَةِ ، فَضْلًا عَنِ الْإِنْسَانِ ، الَّذِي هُوَ سَرُّهَا وَمَتَخَيَّرُهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ النفوس الكريمة
لَا يُورَى فِيهِ زَنْدُهُ ، إِلَّا عِنْدَ كَرَمِ النَحِيزَةِ^(١) ، وَصَفَاءِ السَّرِيرَةِ ، وَرَقَّةِ
الطَّبْعِ ، وَسَلَامَةِ الْخَاطِرِ ؛ وَلِهَذَا سُئِلَ أَحَدُ بَنِي عُذْرَةَ - كَمَا سَلَفَتْ
الْإِشَارَةُ إِلَى مِثْلِهِ - عَنْ تَبَيُّعِ الْعِشْقِ بِهِمْ^(٢) ؟ فَقَالَ [بِنَحْوِهِ فِي «مِصَارِعِ
الْعِشَاقِ» ١٨٦/٢] : إِنَّ لَنَا أَخْلَاقًا شَرِيفَةً ، وَأَنْفُسًا عَفِيفَةً .

وَإِذَا كَانَ الْعِشْقُ يَهْدُبُ الطَّبَاعَ ، وَيَشْجَعُ الْجَبَانَ ، وَيَطْلُقُ يَدَ
الْبَخِيلِ . . فَأَحْرَى أَنْ لَا تَكُونَ نَشَاتُهُ إِلَّا عَمَّا يَنَاسِبُهُ مِنْ شَرَائِفِ تِلْكَ
الطَّبَاعِ .

(١) النَّحِيزَةُ : الْأَصْلُ وَالطَّبِيعَةُ .

(٢) تَبَيُّعٌ : أَشْتَدُّ عَلَى الْإِنْسَانِ وَلَمْ يَقْدِرْ دَفْعُهُ ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا : الْفَتْكُ .

وقد قال أبو أبي مليكة [في «الأغاني» ١٣٩/١ من الطويل] :

إذا أنت لم تعشق ولم تعرف الهوى فكن حَجراً من يابس الصخر جَلَمَداً

وقال أبو أبي رزين [في «الأغاني» ١٦٨/١٩ من الطويل] :

إذا أنت لم تعشق ولم تتبع الهوى فكن صخرة بالحجر من حجر أصم

والثاني عين الأول في المعنى ، وأكثر اللفظ ، وما أدري أيهما الأول ؟ وما زالت الخواطر تتوارد ، والشعراء تتناهب ، والأدباء تتخالس ، والقضاء للسابق ، وهو أبو أبي مليكة فيما أظن .

المحب يرى بعين غير عيون الناس
وبيت الناظم ناظر إلى قوله في الأخرى [في «المكبري» ٦/١ من الكامل] :

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى تكون حشاك في أحشائه

وهو قريب من قول عزة : وقد قال لها عبد الملك بن مروان بعد ما خلا منها الشباب [كما في «المستطرف» ٣٥٠/٢] : أنت التي أفنق فيك شعرة وعمره كثير ؟ قالت له : إنه كان يراني بعينين ليستا في رأسك ، وصدق أبو أبي ربيعة في قوله :

حسن في كل عين من تود

وأخرج أبو عساكر وغيره : أن جميلاً قدم (مصر) على عبد العزيز بن مروان يمدحه ، فراه رجل ، فقال : ما رأيت في بئنة حتى تيمت بها ؟ فوالله لقد رأيتها ولو ذبح بعرقوبها طائر لاندبح ، فقال له جميل : إنك لم ترها بعيني ، ولو نظرت إليها بعيني . . لأحببت أن لا تلقى الله تعالى إلا وأنت زان .

ثم إنه مرض ، فدخل عليه العباس بن سهل الساعدي ، فذكر له

[كما في « روضة المحبين » ٢٩٩] من عَفَّةٍ نَفْسِهِ مَا اقْتَصَصْنَاهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى
قَوْلِهِ [في « المُكَبَّرِيِّ » ١٦٢/٣] مِنَ الْبَسِيطِ :

أَخِيَا وَأَيَسَّرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا وَالْبَيْنُ جَارَ عَلَى ضَعْفِي وَمَا عَدَلَا
ويشبهه قولَ عَزَّةَ وَجَمِيلٍ ، مَا ذَكَرَهُ الْمَبْرُودُ : أَنَّ يَزِيدَ ابْنَ أَبِي
مُسْلِمٍ ، وَزَيْرَ الْحَجَّاجِ - وَكَانَ دَمِيمًا - دَخَلَ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ
الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : قَبِّحَ اللَّهُ رَجُلًا أَجْرَكَ رَسَنَهُ ، وَأَشْرَكَكَ
فِي أَمَانَتِهِ ، فَقَالَ : لَا تَقُلْ هَذَا ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّكَ رَأَيْتَنِي
وَالْأَمْرُ عَنِّي مَدْبُورٌ ، وَلَوْ رَأَيْتَنِي وَهُوَ مُقْبِلٌ . . لاسْتَحْسَنْتَ مِنِّي
مَا اسْتَقْبَحْتَ ، وَاسْتَعْظَمْتَ مَا اسْتَصْغَرْتَ ، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ :
وَيَحَكَ ، أَوْقَدِ اسْتَقَرَّ الْحَجَّاجُ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ ، أَمْ لَا ؟ قَالَ : لَا تَقُلْ
ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ الْحَجَّاجَ وَطَأَ لَكُمْ الْمَنَابِرَ ، وَأَذَلَّ لَكُمْ الْجَبَابِرَةَ ، وَإِنَّهُ
يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ يَمِينِ أَبِيكَ ، وَيَسَارِ أَخِيكَ ، فَحَيْثُمَا كَانَا . .
كَانَ .

وَلَا يَبْعَدُ عَنْهُ أَيضًا مَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ : أَنَّ رَجُلًا نَشَدَ طِفْلًا
كَالْدِينَارِ^(١) ، فَقَالَ لَهُ النَّاسُ : مَا رَأَيْنَاهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ بَعْدَ زَمَانٍ يَحْمِلُهُ ،
وَمَرَّ عَلَى مَنْ نَشَدَهُمْ ، فَقَالُوا : مَا هَذَا مِنْكَ ؟ قَالَ : ابْنِي الَّذِي
كَنتُ أَنشُدُهُ ، فَقَالُوا لَهُ : لَمْ نَزَلْ مُذِ الْيَوْمِ نَرَاهُ جَائِيًا رَائِحًا ، وَلَوْ قُلْتَ
كَالْجُعَلِ^(٢) . . لَدَلَّلْنَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ ، وَلَكِنَّكَ لَمَّا قُلْتَ
كَالْدِينَارِ . . ذَهَبَ وَهْمُنَا إِلَى أَنَّ الْمَنْشُودَ سِوَاهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : رَأَيْتُمُوهُ
بَعِينٍ ، وَرَأَيْتُهُ أَنَا بِأُخْرَى .

(١) طِفْلٌ كَالْدِينَارِ : أَيِ وَجْهِهُ مُشْرِقٌ مُتَلَالِيٌّ .

(٢) الْجُعَلُ : دَابَّةٌ مِنْ هَوَامِ الْأَرْضِ .

ولقد أنصف كثيرٌ في قوله [في «ديوانه» ٤٤٢ من الكامل] :
لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكْعَا وَسُجُودَا

وقال عليُّ بنُ عبدِ الله بنِ جعفرٍ [من المُجَنَّث] :
وَلَا تُسَمِّ لَامَ فِينِهِ يَنْغِي بِيْذَلِكَ شَيْنِي
فَقُلْتُ إِذْ صَدَّ عَنْهُ هَلَّا نَظَرْتَ بَعَيْنِي

ولنعذُ لذكرِ ما يناسبُ البيتَ ، فمنهُ قولُ البُحترِيِّ [في «ديوانه»
إذا رأيتَ عاشقاً..
فارحمه
١٦١٩/٣ من الطويل] :

وَيَأْمُرُنِي بِالصَّبْرِ مَنْ لَيْسَ وَجْدُهُ كَوَجْدِي وَلَا إِغْلَانُ حَالِي كَحَالِهِ
وقوله [في «ديوانه» ١٥٠٥/٣ من الطويل] :

إِذَا شِئْتُ أَنْ لَا تَعْدُلَ الدَّهْرَ عَاشِقًا عَلَى كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ النَّيْنِ فَأَعْشَقِ
وقوله [في «ديوانه» ١٥٣٠/٣ من الطويل] :

بِرِدِّي لَوْ يَهْوَى الْعُدُولُ وَيَعْشَقُ لِيَعْلَمَ أَسْبَابَ الْهَوَى كَيْفَ تَعْلَقُ
وقال البرُّعيُّ [من البسيط] :

عَذَلْتُهُ حِينَ لَمْ تَنْظُرْ بِنَاطِرِهِ وَلَا عَلِمْتَ الَّذِي فِي الْحُبِّ يَغْلُمُهُ
وأصلُ المعنى : أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِأَمْرَةٍ تَبْكِي
عَلَى قَبْرِ ، فَقَالَ : « أَصْبِرِي وَآخْتِسِبِي » ، فَقَالَتْ لَهُ : إِلَيْكَ عَنِّي ،
فإِنَّكَ لَمْ تَصَبْ بِمُصِيبَتِي ، فَسَارَ عَنْهَا ، فَقَالَ لَهَا رَجُلٌ مَرَّ بِهَا بَعْدَهُ :
مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَتْ : أَوَذَاكَ
رَسُولُ اللَّهِ ؟ وَأَخَذَهَا الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ مِنْ رَدِّهَا عَلَيْهِ ، وَأَنْطَلَقَتْ إِلَيْهِ
لِتَعْتَذِرَ ، قَالَتْ : فَلَمْ أَجِدْ بَوَابًا وَلَا حَجَّابًا ، فَقَالَ لَهَا : « إِنَّمَا الصَّبْرُ

عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى^(١) . وموضع المناسبة قولها : إِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي .

ثُمَّ إِنَّا نَرَى النَّازِمَ يَعْتَرِفُ عَلَى نَفْسِهِ تَارَةً بِالْجُمُودِ فيقول [في المتنبّي يعترف على نفسه بالجمود] :
« الْمَكْبَرِيُّ » ٤٠ / ٢ مِنْ الْبَسِيطِ :

لَمْ يَتْرُكْ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلَا كَيْدِي شَيْئًا تُبَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِنْدُ
أَصْحَرَةٌ أَنَا ؟ مَالِي لَا تُحَرِّكُنِي هَلْذِي الْمُدَامُ وَلَا هَلْذِي الْأَغَارِيدُ ؟
ويقول [في « الْمَكْبَرِيُّ » ٢٩٠ / ٣ مِنْ الطُّوِيلِ] :

عَدِمْتُ فَوَادًا لَمْ تَبْتَ فِيهِ فَضْلَةٌ لِغَيْرِ الشَّابَا الْغُرِّ وَالْحَدَقِ الثُّجَلِ^(٢)
ويقول [في « الْمَكْبَرِيُّ » ١٩٢ / ١ - ١٩٣ مِنْ الطُّوِيلِ] :

وَلِلْخَوْدِ مِنِّي سَاعَةٌ ثُمَّ بَيْنَنَا فَلَاةٌ إِلَى غَيْرِ اللَّقَاءِ تُجَابُ^(٣)
وَمَا الْعِشْقُ إِلَّا غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ يُعَرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فَتَصَابُ
وَغَيْرُ فَوَادِي لِلْغَوَانِي رَمِيَّةٌ وَغَيْرُ بَنَانِي لِلزُّجَاجِ رِكَابُ^(٤)
تَرَكْنَا لِأَطْرَافِ الْقَنَا كُلِّ شَهْوَةٍ فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا بِهِنَّ لِعَابُ^(٥)

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه البخاري (١٢٨٣) في (الجنائز) .

(٢) الْغُرُّ : البيضُ . النَجْلُ : الواسعةُ .

(٣) الْخَوْدُ : الجارية الناعمةُ . فَلَاةٌ : الأرضُ المنقطعةُ البعيدةُ عن الماءِ . تُجَابُ : تُقَطَّعُ .

(٤) الْغَوَانِي - جمع غانية - : وهي التي استغنت بجمالها عن الحلي . رَمِيَّةٌ : طريدةٌ .

(٥) اللَّعَابُ : من اللعبِ .

هذه هي الشجاعة يا أبا
الطيب

وَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ أَخِي عَنَسٍ [مِنْ الْكَامِلِ] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلُ مِنِّي وَبِنِصُّ الْهِنْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْيِيلَ السُّيُوفِ لَأَنْهَا لَمَعَتْ كَبَارِقِ نَعْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ

وقول الآخر [في «البيان والتبيين» ١/ ٥٨٨ مِنْ الطُّوِيلِ] :

أَسَجْنَا وَقَيْدًا وَأَشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً وَنَائِي حَيْبٍ إِنَّ ذَا لِعَظِيمُ
وَإِنَّ أَمْرًا دَامَتْ مَوَاتِنُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ مَا قَاسَيْتُهُ لَكَرِيمُ

وقول بعض الصوفيَّة [مِنْ الْكَامِلِ] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ - وَالَّذِي أَنَا عَبْدُهُ - وَالسَّيْفُ عِنْدَ ذَوَابَّتِي مَسْلُورُ

وقول الآخر [وهو صفِيُّ الدين الحلِّي في «ديوانه» ٤٨٤ مِنْ الطُّوِيلِ] :

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيئُ يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَلْتُ مِنِّي الْمُتَقَفَّةُ السُّمُرُ
فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَصَادِقُ بِنَا فَتَكَتْ تِلْكَ الرِّمَاحُ أَمِ السَّخْرُ

وقال الشريفُ البياضي [مِنْ الْكَامِلِ] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ فِي السَّفِينَةِ وَالرَّدَى مُتَوَقِّعُ بَسَلَاطِمِ الْأَمْوَاجِ
وَالْجَرُّ يَهْطُلُ وَالرِّيَّاحُ عَوَاصِفُ وَاللَّيْلُ مُسَوِّدُ الذَّوَائِبِ دَاجِي^(١)
وَعَلَتْ لِأَصْحَابِ السَّفِينَةِ ضَجَّةُ وَأَنَا وَذِكْرُكَ فِي أَلَذِّ تَنَاجِي

وقال غيره [مِنْ الْكَامِلِ] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالسُّيُوفُ لَوَامِعُ وَالْمَوْتُ يُزَقُّ تَحْتَ حِصْنِ الْمُزَقِّ
وَالْمَوْتُ يَلْمَعُ بِالنُّفُوسِ وَخَاطِرِي يَلْهُو بِطَيْبِ ذِكْرِكَ الْمُسْتَعَذِّبِ

(١) الجرُّ : السيل ، وهو هنا مجاز عن شدة المطر .

وقول الصفيّ الحليّ [في «ديوانه» ٣٤٤ من الكامل] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْعَجَاجَ كَأَنَّهُ مَطْلُ الْغَنِيِّ وَسُوءُ عَيْشِ الْمُعْسِرِ^(١)
فَظَنَنْتُ أَنِّي فِي صَبَاحٍ مُسْفِرٍ بِضِيَاءٍ وَجْهِكَ أَوْ مَسَاءٍ مُقْمِرٍ
وَتَعَطَّرْتُ أَرْضُ الْكِفَاحِ كَأَنَّمَا فُتِّقَتْ لَنَا أَرْضُ الْجِلَادِ بِعَنْبِرٍ

ومرّ ما يناسبه عن الطغرائيّ ، في شرح قوله [في «المكبريّ» ٣١٧/١

من الخفيف] :

هَلْذِهِ مُهَجَّتِي لَدَيْكَ لِحَيْنِي فَأَنْقُصِي مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَرِيدِي^(٢)

ويقول الناظم أيضاً فيما نحن فيه [في «المكبريّ» ٣٧٥/١ من الطويل] : المتنبّي صاحب أحوال

مقلّبة

بِقَلْبِي - وَإِنْ لَمْ أَرَوْ مِنْهَا - مَلَأَةً وَبِي عَنْ غَوَائِنِهَا وَإِنْ وَصَلْتُ صَدُّ

ويقول [في «المكبريّ» ٣٥٠/٣ من الطويل] :

أَطَعْتُ الْغَوَائِنِ قَبْلَ مَطْمَحِ نَاطِرِي إِلَى مَنْظَرٍ يَصْغُرُنَ عَنْهُ وَيَعْظُمُ^(٣)

وما ذلك المنظر الذي يطمح إليه ناظره ، غير المال ، الذي
شغفَ بذكره ، وغطى هواه على بصره ، وأطال قيامه وسعيه من
أجله ، كما قال [في «المكبريّ» ٣٢٠/١ من الخفيف] :

ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ الرُّزْ فِي قِيَامِي وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي

وقال [في «المكبريّ» ١٢٤/١ من الكامل] :

أَظْمَنْتَنِي الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُهَا مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا

(١) العجاج : الغبار . والمراد : أرض المعركة .

(٢) الحين : الهلاك والموت .

(٣) طمح : إذا أبعد النظر ببصره .

وقال [في «المكبري» ١٠/ ١٢٠ من البسيط] :

فَجِئْتُ نَحْوَكَ لَا أَلُوِي عَلَى أَحَدٍ أَحْتُ رَاحِلَتِي الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا

وقال [في «المكبري» ٤/ ١١١ من الطويل] :

فَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا طَلَابِي نُجُومُهَا وَمَسْعَايَ مِنْهَا فِي شُدُوقِ الْأَرَاقِمِ^(١)

فَأَيْنَ ذَلِكَ الْمَنْظَرُ الَّذِي عَظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ ، وَقَصَّرَ بِمَجَامِعِ أَهْوَاءِ
الْقُلُوبِ مِنْ أَجْلِهِ ، مِنْ قَوْلِ لِسَانِ الدِّينِ ابْنِ الْخَطِيبِ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

جَزَى اللَّهُ عَنِّي زَاجِرَ الشَّيْبِ خَيْرَ مَا جَزَى نَاصِحًا فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيقَ الْحُبِّ حَتَّى إِذَا انْتَهَى تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللَّهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

أَمَّا لَقَدْ أَخْطَأَ النَّازِمُ مِنْ جِهَاتٍ ، نَعُدُّ مِنْهَا وَلَا نَعُدُّهَا :

مِنْهَا : تَشْبِيهُهُ نَفْسَهُ بِالْحَجَرِ ، كَمَا سَمِعْتَ مِنْ بَعْضِ آيَاتِهِ الَّتِي
سُقْنَاها ، بِجَامِعِ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْعِشْقِ فِي زَعْمِهِ ، وَذَلِكَ عَيْنُ الْغَلْطِ ؛
لَأَنَّ لِسَانِ الْمَنْطَرِقَاتِ أَحْجَارًا ، تَجْذِبُهَا إِلَيْهَا الْمَشَاكِلَةُ بَيْنَهُمَا فِي
بَعْضِ الْأَجْزَاءِ ، وَلِنَّمَا أَشْتَهَرَ الْمَغْنَاطِيسُ وَالْحَدِيدُ ؛ لِأَنَّهُ فِي الْحَجَرِ
كَعُرْوَةٍ بِنِ حَزَامٍ فِي الْبَشَرِ .

وَمِنْهَا : تَوْهُمُهُ بَرَاءَةَ قَلْبِهِ مِنَ الْعِشْقِ ، وَهُوَ غَلَطٌ أَيْضًا ؛ إِذْ
لَا يَتَصَوَّرُ خُلُقَ قَلْبٍ أَبَدًا مِنَ الْهَوَى ، وَإِنَّمَا أَنْصَرَفَ هَوَاهُ إِلَى مَا لَا
طَائِلَ تَحْتَهُ ، وَلَا خَيْرَ فِيهِ ، وَهُوَ مَجْرَدُ الْمَالِ ، كَمَا قَرَّرْنَا ، فَهُوَ إِذَنْ
مِنَ الْعُشَاقِ ، الَّذِينَ أَكْثَرُ فِي مَذْمَتِهِمْ ، وَبَالَغَ فِي نَعْيِ حَالَتِهِمْ ، بِمَثَلِ
قَوْلِهِ [في «المكبري» ٤/ ٢٣٤ من البسيط] :

(١) الْأَرَاقِمُ : نَوْعٌ مِنَ الْحَيَّاتِ .

مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنَّهُمْ هَوُوا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَلَا فُطِنُوا
تَفَنَّى عِيُونُهُمْ دَمْعًا وَأَنْفُسُهُمْ فِي إِنْثِرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهَهُ حَسَنُ
بل لقد أَقْرَبَ أَنَّ الشَّغَفَ بِالْمَالِ أَرْتَفَعَ بِهِ عَنْ حَدِّ الْعِشْقِ إِلَى حَدِّ
الْهَيْمَانِ ، كما سبقَ فِي قَوْلِهِ [في «المُكَبَّرِ» ١/ ١٢٤] : أَظْمَتْنِي
الدُّنْيَا... إِلَى آخِرِهِ .

وقد قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعَسَّ
عَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَ ، وَإِذَا شِئْتَ . . فَلَا أَنْتَقَشَ »^(١) .
فَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ شَرُّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ مِمَّا أَصَابَ النَّازِمَ ، أَوْ أَلَمَ
بِهِ ، نَسَأَلَ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ .

وما أَحْسَنَ قَوْلَ يَحْيَى بْنِ مَعَاذٍ الرَّازِيِّ : حُبُّ الدِّينَارِ رَأْسُ كُلِّ
خَطِيئَةٍ ! ؛ فَلَقَدْ جَمَعَ عُلَمَاءُ كَثِيرًا ، وَأَدَبَاءُ غَزِيرًا ، حَتَّى لَقَدْ قَالَ بَعْضُ
عُلَمَاءِ (الْيَمَنِ) : أَحْسَنْتُ بِمَرْضٍ مِنْ نَفْسِي ، فَحَرَضْتُ عَلَى
عِلَاجِهِ ، وَأَيَقَنْتُ أَنْ لَا يُمْكِنَ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ تَشْرِيحِهِ ، فَلَمْ أَزَلْ أُفَشِّشُ
عَنْ أَصُولِهِ ، حَتَّى وَجَدْتُهَا فِي كَلِمَةِ يَحْيَى ، ثُمَّ لَمْ أَنْفَكْ فِي الْبَحْثِ
عَنِ الدَّوَاءِ ، حَتَّى وَجَدْتُهُ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :
« أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ . . . »^(٢) الْحَدِيثُ .

وبعدُ : فَالْناظِمُ يَنَاقِضُ نَفْسَهُ ذَاتَ الْمَرَّاتِ ، فِيمَا أَدْعَاهُ أَنْفَاءً مِنْ

(١) سلف أنه أخرجه البخاري وابن ماجه .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي (٢٣٠٧) ، وابن ماجه (٤٢٥٨)
في الزهد ، والنسائي في « الكبرى » (١ / ٦٠٠) ، وفي « المجتبى » (٤ / ٤)
وابن حبان في « الإحسان » (٢٩٩٢) في الجنائز بإسناد حسن ، وله شواهد .

الجمود والتنصل من الهوى ، فيقول « في » المكبري « ٤٨ / ١ من الطويل] :
وَإِنِّي لَمَمْنُوعُ الْمَقَاتِلِ فِي الْوَعَى وَإِنْ كُنْتُ مَبْذُولَ الْمَقَاتِلِ فِي الْحُبِّ

ويقول « في » المكبري « ٣٢٧ / ٣ من الطويل] :
وَمَا أَنَا إِلَّا عَاشِقٌ ، كُلُّ عَاشِقٍ أَعَشَى خَلِيلَيْنِ الصَّفِيِّينِ لَا ثَمَّةَ

ويقول « في » المكبري « ١٩٣ / ٣ من الخفيف] :
لَا تَلْمِزْنِي فَإِنِّي أَعَشَى الْعُدَّ شَقِيقَ فِيهَا يَا أَعْذَلَ الْعُذَالِ

ويقول « في » المكبري « ٢٣٤ / ٣ من الكامل] :
حَدَقَ الْحَسَنُ مِنَ الْغَوَانِي هَجَنَ لِي يَوْمَ الْفِرَاقِ صَبَابَةً وَغَلِيلًا^(١)

فيما لا يحصى من تلك المثل في « ديوانه » ، غير أنه يظهر عليه أثر التكلف في هذا ، بخلافه في الأول ، مصداق ما قيل في ترجمته : إِنَّهُ عَزَاهَا^(٢) .

ونراه طورا يصف نفسه بالقسوة ؛ للإغراق في وصف الحبيبة بالحسن ، وهو بين بين ، كما في قوله « في » المكبري « ٣٠٤ / ٢ من الطويل] :

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ الْعَشَقُ قَلْبَهُ وَلَكِنْ مَنْ يُبْصِرُ جُفُونَكَ يَعْشَقُ
وَأَلَمَ فِي هَذَا بِقَوْلِ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

وَقَدْ كَانَ لَا يَضْبُو وَلَكِنْ عَيْنَهُ رَأَتْ مَنْظَرًا يُضْنِي الْقُلُوبَ فَر_اقَهَا

(١) الصبابة : رقة الشوق . الغليل والثلة : حرارة العطش . وفي المخطوط : وعويلا .

(٢) المزهاة : هو الرجل الذي لا يكلم النساء ولا يريدن ولا يلهو .

وهاهنا بحثٌ ؛ إذ توهم بعضُ مَنْ لا رويّةَ عندهُ التنافرَ بينَ لا تنافر بين الشجاعة
الشجاعةِ والمحبةِ ، والحالُ أنَّ المحبةَ ليستَ إلّا مِنْ أوثقِ أسبابِ والمحبة
الشجاعةِ ، وما زالتِ الرؤساءُ تطالبُ أبناءَها بعشقي سرورات
البيوت^(١) ؛ لأنّه وسيلةُ الانتباهِ مِنَ الخمولِ ، والارتفاعِ عَنِ
النزولِ ، كما في حديثِ ذي الرئاستين^(٢) المشهورِ ، وغيره .

وقد سبقَ قولُ الأحوصِ أو غيره [مِنَ الكاملِ] :

الْحُبُّ شَجَعَ قَلْبَ كُلِّ فَرْوُزَةٍ وَالْحُبُّ حَمَلَ عَاجِزًا فَاطَاقَا

ويروى : أَنَّ توبةَ بَنِ حُمَيْرٍ مرَّ بجميلٍ ، فَأَنزَلَهُ وَأَحْسَنَ خِدْمَتَهُ ، الحب يصنع المعجزات
وَأَسْبَغَ قِرَاءَهُ ، ثُمَّ تَدَاعَا الصُّرَاعُ ، وكانا في موقفٍ تُشْرِفُ مِنْهُ عَلَيْهِمَا ويقوي الجبان
بُيْنَتُهُ ، فما كَانَ مِنْ جَمِيلٍ ، إلّا أَنْ صَرَخَ توبةً عَلَى شِدَّةِ أَسْرِهِ ، ثُمَّ
نَضَلَهُ^(٣) ، ثُمَّ قَهَرَهُ عَلَى ظَهْرِ الْفَرَسِ ، وَلَمْ يَكُنْ جَمِيلٌ كُفُوًا لِتوبةَ
شجاعةً وَشِدَّةً بِأَسِ ، فَقَالَ لَهُ توبةٌ : كَأَنَّكَ تَحْسِبُ ذَلِكَ مِنْكَ ، وَلَمْ
تَدْرِ أَنَّهُ بِرِيحِ تِلْكَ الْمَشْرِقَةِ عَلَيْنَا ، وَأَشَارَ إِلَى بُيْنَتِهِ ، ثُمَّ دَعَاهُ إِلَى وَادٍ
يَخْفَى عَنْهَا ، وَتَصَارَعَا فِيهِ ، فَصَرَغَهُ توبةٌ مِرَارًا ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا

(١) سَرَواتُ البيوتِ : اللاتي يسكنُ البيوتَ ولا يخرُجنَ إلى الطَّرِيقِ .

(٢) ذو الرئاستين : هو محمد بن محمد بن محمد بن بنان ، أبو الفضل الأنباري
المصري الفاضل الأثير الكاتب . ولد بالقاهرة سنة : (٥٠٧ هـ) . قدم بغداد
رسولاً من صاحب اليمن سيف الإسلام طغتكين فحدث بالسيرة عن والده عن
الجبال ، وبعد أن توجه إلى اليمن فوزر بها ، ثم إلى بغداد وترسل فعظم
وبجل ، ثم صار إلى مصر وكان ضنك شديد بها ، وتوفي فيها سنة :
(٥٩٦ هـ) .

(٣) نَضَلَهُ : غلبهُ في رمي السهام .

عندهُ ، ثمّ مضى ، وقال هُوَ ، أو غيرهُ [في «ديوان» المجنون ٢٣٠ من الطويل] :

إِذَا مَا انْتَضَلْنَا فِي الْخَلَاءِ نَضَلْتُهُ وَإِنْ يَزِمِ رَشْقًا عِنْدَهَا فَهُوَ نَاضِلِنِي
وَلَوْلَا الْهَوَى.. لَمَا جَادَتِ الْبَحَالُ بِالْأَلُوفِ ، وَلَا تَكْرَمَتِ
الْأَبْطَالُ بِالنَّحُورِ لِلسَّيُوفِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْتَحِمُونَ الْمَهَالِكَ ،
وَيَنْغَمِسُونَ فِي الْمَعَارِكِ ؛ لَتُحْمَدَ شَمَائِلُهُمْ عِنْدَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ ،
وَتَتَغَنَّى بِأَمَادِيحِهِمْ أُولَاتُ الْغَنَجِ وَالْدَّلَالِ ، قَالَ الْأَحْوَصُ [مِنَ الطَّوِيلِ] :
وَيَزْتَاخُ لِلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ الْعُلَا لَتُحْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلَى شَمَائِلُهُ
ثُمَّ أَنْظَرُ إِلَى نِسَاءِ الْعَرَبِ ، كَيْفَ تَتَدَفَّقُ عَلَى الْمَازِقِ ، وَتَتَرَنَّمُ
بَاهَا زِيْجَهَا فِي أَشَدِّ الْمَضَائِقِ ، فَتَسُرُّ الْفَاتِرَ^(١) ، وَتَرُدُّ الشَّارِدَ ،
وَتَهَيِّجُ الْبَطْلَ الْمُشِيخَ ، وَتَثِيرُ الْحَفَائِظَ ، وَتَغْنِي مَا لَا تَغْنِيهِ الْمَوْسِيقَا
الْحَرِيْبَةُ الْيَوْمَ .

وما ذَكَرَ عَنْ بَعْضِ الْقَرَشِيِّينَ مِنْ تَوْهِينِ أَمْرِ الْعَشَقِ.. فَإِنَّمَا يَعْنِي
بِهِ مَا يَنْتَهِي إِلَى الْخَبَلِ ، وَيُقْضَى إِلَى الْجَنُونِ ، وَإِلَّا.. فَهُمْ رُؤُوسُ
هَذَا الشَّانِ ، وَقَدْ مَرَّ وَيَأْتِي فِي تَضَاعُيفِ الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ .

وحسبك بسيّد أهل السماء والأرض ، والشافع والمشفّع يوم
الْعَرْضِ ، وما ذاقه مِنَ الْحُزَنِ عَلَى خَدِيْجَةٍ حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ : (مَا
غَرْتُ عَلَى أَمْرَاءٍ قَطُّ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيْجَةٍ مِنْ كَثَرَةِ مَا يَذْكُرُهَا)^(٢) .

أحوال سيد الوجود ﷺ
مع النساء

(١) تَسُرُّ الْفَاتِرَ : تَقْوُمُ وَتَشْجِعُ الَّذِي أَنْهَزَمَ وَضَعُفَ .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها مسلم (٢٤٣٥) في الفضائل وفيه يقول
أيضاً ﷺ : «إني قد رزقت حبها» .

وإنَّ كَانَ لِيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيَبْعَثُ بِهَا فِي خَلَائِلِهَا ، وَتَأْتِي الْعَجُوزُ فَيَتَفَتَّحُ لَهَا ، وَيُنْعِمُ الْإِقْبَالَ عَلَيْهَا ، وَيَسْأَلُهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهَا ، يَقُولُ : « إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خَدِيجَةَ ؛ وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ »^(١) .

وَكَانَ هَدِيَّةُ مَعَ أَزْوَاجِهِ مُوَافَقَتَهُ لِهَوَاهُنَّ مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، وَكَانَ يَتَعَمَّدُ مَوْضِعَ شَرْبِ عَائِشَةَ مِنَ الْإِنَاءِ^(٢) ، وَيَحْمِلُهَا لَتَنْظُرَ إِلَى اللَّعِبِ^(٣) ، وَيُسَابِقُهَا ، وَلَمَّا سَبَقَهَا بِالْآخِرَةِ . . قَالَ لَهَا : « هَٰذِهِ بِتِلْكَ »^(٤) ، مُذَكِّرًا لَهَا بِمَا سَلَفَ مِنْ سَبَقِهَا لَهُ ، كَيْلَا يَنْكَسِرَ خَاطِرُهَا ، وَكَانَ يَدَافِعُهَا لَدَى الْبَابِ ، وَكَانَ أَزْوَاجُهُ يَهْجُرُونَهُ إِلَى اللَّيْلِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ هَٰذَا الْمَجْلِسِ صَنِيعَ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ بِالْجُونَةِ ، وَتَمَثَّلْنَا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ [مِنْ الْوَافِرِ] :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي فَتَفْعَلُهُ فَيَخْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ

وإنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ تَكْتُبُ فِي إِمضَائِهَا : مِنْ حَبِيبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، الْمَبْرَأَةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ .

-
- (١) أَخْرَجَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٦٢ / ١) ، وَأُورِدَهُ الْهِنْدِيُّ فِي « كَنْزِ الْعَمَالِ » (٣٤٣٤٤) وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ .
(٢) أَخْرَجَهُ عَنْ عَائِشَةَ الْمَبْرَأَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ابْنُ مَاجَهَ (٦٤٣) فِي الطَّهَارَةِ وَفِيهِ : (فَيَضَعُ فَمَهُ حَيْثُ كَانَ فَمِي وَأَنَا حَائِضٌ) .
(٣) أَخْرَجَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الْبُخَارِيُّ (٥٢٣٦) فِي النِّكَاحِ ، وَمُسْلِمٌ (٨٩٢) ، وَالنَّسَائِيُّ (١٩٥ / ٣) وَغَيْرُهُمْ .
(٤) أُورِدَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي « كَنْزِ الْعَمَالِ » (٤٠٦١٤) وَنَسَبَهُ إِلَى أَحْمَدَ وَأَبِي دَاوُدَ .

فيا له من إ مضاء تهتز له النفوس ، وتقف^(١) الشعور ، وتتندى
الخدود ، ويكاد يذوب منه الجلود .

الحب في ساحة الوغى وقال خالد بن يزيد - وقد بنى برملة أبنه الزبير ، والسيوف تسيل
دماً ، والأسنة تقاطر مهجاً [كما في الأغاني ، ١٧ / ٣٤٠ من الطويل] - :

أحب بني العوام طراً لحبها ومن أجلها أحببت أخوالها كلنا
تجول خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلخالاً يجول ولا قلباً
وقال علي بن محمد العلوي أو غيره [من الخفيف] :

نحن قوم تذيئنا الأغين النجى لى على أننا نذيب الحديدنا
وترانا لدى الكريهة آخراً رأ وفي السلم للغواني عبيداً
وهو مثل قول العطوي [من مجزوء الوافر] :

أخاف الرئيم أزمقه وأضرب هامة الأسد
ويجرخني بمقلته ويئبؤ السيف عن جسدي
وقال محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى الجوني العلوي ،
وهو في السجن [من الكامل] :

وبدا له من بعد ما أندمل الهوى بريق تالق مؤهناً لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه صعب الدرى متمنعا أركانه
فمضى لينظر أين لاح فلم يطق نظراً إليه وصده سجانه
فالنار ما أشتملت عليه ضلوعه وألماء ما سمحت به أجفانه

(١) يقف : قام من النزاع .

وكان من حديث الأبيات : أَنَّهُ خَرَجَ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ وَأَخَذَ قَافِلَةً
الحجيج ، قَالَ : فَبَيْنَا أَصْحَابِي يَجْمَعُونَ الْأَمْوَالَ ، وَأَنَا عَلَى
صالح العلوي
كرسي . . إِذَا بِأَمْرَةٍ رَفَعَتْ سِجَافَ هَوْدَجٍ ، فَأَضَاءَ مِنْهَا الْمَكَانُ ،
وَلَا إِضَاءَتُهُ بِالشَّمْسِ ، فَقَالَتْ : أَيْنَ الشَّرِيفُ صَاحِبُ الْكِتَابَةِ ؟ فَإِنِّي
لِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ ، قُلْتُ : هُوَ يَسْمَعُ كَلَامِكَ ، قَالَتْ : أَنَا حَمْدُونِيَّةُ بِنْتُ
عِيسَى بْنِ مُوسَى ، تَعْلَمُ مَكَانَنَا عِنْدَ الْخَلِيفَةِ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ أَنْ تَأْخُذَ
مِنِّي ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، مَعَ مَا قَدْ قَبِضْتُمُوهُ ، وَأَسْأَلُكَ بِفَضْلِكَ أَنْ
لَا يَكْشِفَ لِي أَحَدٌ سِتْرًا ، فَنَادَيْتُ أَصْحَابِي ، وَلَمَّا اجْتَمَعُوا . .
قُلْتُ : مَنْ أَخَذَ مِنْ هَذِهِ الْقَافِلَةِ عِقَالًا . . آذَنَتْهُ بِحَرْبٍ ، فَرَدُّوا حَتَّى
الْأَطْعَمَةَ ، وَخَفَرْتُهُمْ إِلَى الْمَأْمَنِ ، فَلَمَّا ظَفَرَ بِي الْمُتَوَكِّلُ ، وَحَبَسَنِي
بِـ (سَرٍّ مِنْ رَأْيٍ) . . دَخَلَ عَلَيَّ السَّجَّانُ يَوْمًا ، فَقَالَ لِي : إِنَّ بِالْبَابِ
أَمْرَاتَيْنِ مِنْ أَهْلِكَ ، تَرِيدَانِ الدَّخُولَ عَلَيْكَ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ قَدْ مَنَعَ
مِنَ الدَّخُولِ عَلَيَّ ، وَلَكِنَّهُمَا أَعْطَاهُ دُمْلُجًا مِنَ الذَّهَبِ ،
فَادْخُلْهُمَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَا مَعَ أَمْرَةٍ أُخْرَى ، وَجَارِيَةٍ تَحْمِلُ شَيْئًا ، فَلَمَّا
بَصُرْتُ بِي . . قَالَتْ : إِي وَاللَّهِ إِنَّهُ لَهُوَ ، وَبَكَتْ لِمَا أَنَا فِيهِ ، ثُمَّ قَبَّلَتْ
قَدَمِي ، وَقَالَتْ : لَوْ اسْتَطَعْتُ لَفَدَيْتُكَ بِنَفْسِي ، وَلَكِنِّي لَا أَقْصِرُ فِي
خِلَاصِكَ ، وَدُونَكَ هَذِهِ النِّفْقَةُ ، وَرَسُولِي يَأْتِيكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِمَا
تَرِيدُ ، حَتَّى يَفْرُجَ اللَّهُ عَنْكَ ، وَدَفَعَتْ إِلَيَّ خَمْسَ مِئَةِ دِينَارٍ ، وَثِيَابًا ،
وَطِيبًا ، وَطَعَامًا ، وَأَنْصَرَفَتْ ، وَقَدْ أَضْرَمَتْ بِقَلْبِي نَارًا ، أَوْرَثَتْهَا
النَّظَرَةُ الْأُولَى ، فَقُلْتُ : الْأَبْيَاتُ أَعْنِي السَّابِقَةَ ، وَلَمْ يَزَلْ
رَسُولُهَا يَعَاوِدُنِي بِالْإِحْسَانِ ، وَمِلَاطَفَةِ السَّجَّانِ ، إِلَى أَنْ خَرَجْتُ ،
وَعَظُمَ شَأْنِي عِنْدَ الْخَلِيفَةِ ، فَخَطَبْتُهَا ، فَأَمْتَنَعَ أَبُوهَا ، فَكَانَ لِي سَجْنُ
مَوَاهَا أَعْظَمَ مِنَ السَّجْنِ السَّابِقِ ، فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَنْ أَتِيَتْ إِبْرَاهِيمَ بْنَ

المقتدر ، فأخبرته بذلك ، وكان أبوها صنيعةً ، فركب إليه ، ولم يفارقه حتى عقد لي بها ، ولابن صالح فيها عدة قصائد ، وفي ابن المقتدر عدة مدائح ، ولهذه الأبيات قصة أخرى ، كما ليبتني علي بن محمد حديث ممتع ، غير أننا لا نطيل بهما ، وربما تأتي لهما فرصة أخرى ، وما كان أحق ابن الجون بقول أبي فراس لني « ديوانه ، ١٤٤ من الطويل » :

وَيَا رَبَّ دَارَ لَمْ تُخَفِّنِي مَنِيْعَةً طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا وَالْفَجْرُ
وَسَاحِبَةِ الْأَذْيَالِ نَحْوِي لَقِيْتُهَا فَلَمْ يَلْقَهَا جَافِي الْجَنَابِ وَلَا وَغْرُ
وَهَبْتُ لَهَا مَا حَازَهُ الْجَيْشُ كُلُّهُ وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لَأَبْيَانِهَا سِتْرُ
بل ما أرى الحمداني إلا ناظراً إلى هذه القصة .

* * *

[قال أبو الطَّيِّبِ المَتَنِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٣ من الكامل] :

وَعَدَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنِّي عَيْرْتُهُمْ فَلَقِيتُ فِيهِ مَا لَقُوا

يقول : إِنَّهُ عَذَرَ الْعُشَّاقَ لَمَّا ذَاقَ مَا ذَاقُوهُ مِنَ الْامْتِحَانِ ، وَجَهْدٍ مِنْ عَيْبٍ .. ابتلي
البلاء ، وعرفَ أَنَّ ذَنْبَهُ الَّذِي أَوْقَعَهُ فِي الْعَشَقِ هُوَ تَعْيِيرُهُ إِيَّاهُمْ ،
فَكَانَ جِزَاءُ ذَلِكَ أَنْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِمَا ابْتَلَاهُمْ ، وَقَدْ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ
وَحَسَنَهُ : « لَا تُظْهِرِ السَّمَانَةَ بِأَخِيكَ ، فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ »^(١) .

وَأَخْرَجَ السَّيُوطِيُّ فِي « جَامِعِهِ » مَرْفُوعاً : « الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ
بِالْمَنْطِقِ »^(٢) ، « فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا عَيَّرَ رَجُلًا بِرَضَاعِ كَلْبَةٍ ..
لَرَضَعَهَا »^(٣) .

وَيُؤَثِّرُ عَنِ ابْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : لَوْ عَيَّرْتُ أَمْرَأَةً بِالْحَبْلِ ..
لَخَشِيتُ أَنْ أَحْبَلَ .

وَيُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ تَحْتَ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ [الحجرات : ١١] .

(١) أَخْرَجَهُ عَنْ وَائِلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٥٠٨) وَقَالَ : حَسَنٌ غَرِيبٌ .

(٢) أَخْرَجَ عَنْ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَطْرَهُ الْقِضَاعِي كَمَا فِي « كَنْزِ الْعَمَالِ »
(٧٨٤٥) ، وَذَكَرَهُ الْعَجْلُونِيُّ عَنْ جَمَاعَةٍ فِي « كَشْفِ الْخُفَاءِ » (٩٢٦) مَعَ
جَمِيعِ شَوَاهِدِهِ ، فَأَفَادَ وَأَجَادَ .

(٣) أَخْرَجَهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِتَمَامِهِ الْخَطِيبُ فِي « تَارِيخِ بَغْدَادِ » كَمَا فِي
« كَنْزِ الْعَمَالِ » (٧٨٦٧) .

وقوله تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ رَسُولَ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠] .

وقوله تَبَارَكَ ثَنَاؤُهُ : ﴿ قَالِیَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى
الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ تُؤِتَبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : ٣٤-٣٦]

وقال أبو مطير [في «ديوانه» ٥٣ من الطويل] :

أَحْبَبَكَ حُبًّا لَنْ أُعْتَفَ بَعْدَهُ مُحِبًّا وَلَكِنِّي إِذَا لَيْمَ عَاذِرُهُ

وقال عليُّ بنُ الجهم [من الطويل] :

وَقَدْ كُنْتُ بِالْعُشَاقِ أَهْرَأُ مَرَّةً فَهَا أَنَا لِلْعُشَاقِ أَصْبَحْتُ بَاكِيًا

وقال أبو الشيص [من الوافر] :

وَكُنْتُ إِذَا رَأَيْتُ فَتًى يُبْكِي عَلَى شَجَنِ هَزَأْتُ إِذَا خَلَوْتُ
وَأَخْسِبُنِي أَدَالَ اللَّهُ مِنِّْي فَصِرْتُ إِذَا بَصُرْتُ بِهِ بِكَيْتُ^(١)

وقال الأصبطُ بنُ قريع [من الخفيف] :

لَا تُهِنَنَّ الْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ تَز كَعَ يَوْمًا وَالذَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

وقال عليُّ بنُ عبد الله بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، رضوان الله عليهم [في «صبح
الأعشى» ٢٠ / ٣٣٠ من الطويل] :

وَلَمَّا بَدَا لِي أَنَّهُ لَا تُحِبُّنِي وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّي بِمُنْجِلِي
تَمَنَيْتُ أَنْ تَهْوَى سِوَايَ لَعَلَّهَا تَذُوقُ صَبَابَاتِ الْهَوَى فَرَّقَ لِي

(١) ادالَ : قَلَبَ عَلَيَّ الزَّمَانَ .

فَمَا كَانَ إِلَّا عَنْ قَلِيلٍ وَأَشْغَفْتَ بِحَبِّ غَزَالٍ أَدْعَجَ الطَّرْفِ أُنْحَلِ
وَعَذَّبَهَا حَتَّى أَذَابَ فُؤَادَهَا وَجَرَّعَهَا مُرَّ الْهَوَىٰ وَالتَّذَلُّلِ
فَقُلْتُ لَهَا : هَذَا بِذَاكَ فَاطْرَقَتْ حَيَاءً وَقَالَتْ : كُلُّ مَنْ عَايَبَ ابْتُلِيَ

وفي الأبيات مِنَ التَّدْيِثِ والسَّخَافَةِ ، وَقَلَّةِ الْغَيْرَةِ ، وَهَتْكِ يجب أن تكون غيراً
السترِ ، مَا لَا غَايَةَ بَعْدَهُ ، فَهُوَ أَقْبَحُ مِنْ قَوْلٍ جَمِيلٍ [في «البيان والتبيين»
٥٦٣/١ مِنَ الطُّوِيلِ] :

أَهْنِمُ بِدَعْدٍ مَا حَيْثُ وَإِنْ أُمْتُ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ يَهْنِمُ بِهَا بَعْدِي
وقول الفرزدق [في «ديوانه» ٢١١-٢١٢ مِنَ الطُّوِيلِ] :

هُمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا أَنْقَضَ بَارِ أَكْثَمُ الرُّبُوسِ كَاسِرُهُ
فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ فِي الْأَرْضِ قَالَتَا : أَحْيِي فَيُزَجِّي أَمْ فَيَنْقِلُ نَحَازِرُهُ ؟
فَقُلْتُ : أَرْفَعُوا الْأَسْبَابَ لَا يَشْعُرُوا بِنَا وَأَسْرَعْتُ فِي أَطْرَافٍ لَيْلِ أَبَادِرُهُ
مَخَافَةَ بَوَائِبِنِ أَنْ يَشْعُرَا بِنَا وَأَخْمَرَ مِنْ سَاجٍ تُصَرُّ مَسَامِرُهُ^(١)

وقول عبد المحسن الصوري [في «قرى الضيف» ٣٦٦/١ مِنَ الطُّوِيلِ] :

تَعَلَّقْتُهُ سَكْرَانٍ مِنْ خَمْرَةِ الصُّبَا بِهِ غَفْلَةٌ عَنْ لَوْعَتِي وَنَحِيْبِي
وَشَارَكْنِي فِي حُبِّهِ كُلِّ مَا جِدَ يُشَارِكُنِي فِي مُهْجَتِي بِنَصِيْبِ
فَلَا تُلْزِمُونِي غَيْرَةً مَا أَلْفُتْهَا فَلِإِنْ حَبِيْبِي مَنْ أَحَبَّ حَبِيْبِي

وقول النازم [في «المكبري» ٥٥/٤ مِنَ الطُّوِيلِ] :

أَذَاقَ الْغَوَانِي حُسْنَهُ مَا أَذَقْتَنِي وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّي عَلَى الصَّرْمِ^(٢)

(١) أحمر من ساج : أي باب من خشب الساج .

(٢) الصَّرْمُ : الانقطاع .

فإنَّه كالصریح ، في أنَّ حَبَائِبَهُ لَوَلا عَفَافُ الممدوح .. لهتَكنَ
الأعراضَ ، وكأنَّه أَسْتَحَسَنَ كَلَامَ عَلِيٍّ ، فَأَحَبَّ أَنْ لَا يَخْلُوَ دِيوَانُهُ
عَنْ مِثْلِهِ ، وقد بالغَ أَبْنُ الجَعْبَرِيِّ في الرَّدِّ عَلَى عَلِيٍّ بنِ عَبْدِ اللَّهِ إِذْ
قَالَ [في « المثل السائر » ٣٥٩/٢ مِنْ الخَفِيفِ] :

وَلَقَدْ سَرَّني صُدُودُكَ عَنِّي فِي طِلَائِكَ وَأَمْتِنَاؤِكَ مِنِّي
حَذِراً أَنْ أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِي وَإِذَا مَا خَلَوْتَ كُنْتَ أَلْتَمَنِي
وقال أَبْنُ مطرُوحٍ [في « المستطرف » ٤٠١/٢ مِنْ الوَافِرِ] :

فَلَوْ أَضْحَى عَلَى تَلْفِي مُصِراً لَقُلْتُ : مُعَذِّبِي بِاللهِ زِدْنِي
وَلَا تَسْمَحْ بِوَضْلِكَ لِي فَإِنِّي أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْكَ فَكَيْفَ مِنِّي ؟
وهو مِنْ قولِ البُحْتَرِيِّ [مِنْ الكَامِلِ] :

إِنِّي لِأَخْسُدُ نَاطِرِي عَلَيْكَ حَتَّى أَغْضَّ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ
وَأَرَاكَ تَخْطُرُ فِي شَمَائِلِكَ أَلْتِي هِيَ فِتْنَتِي فَأَغَارُ مِنْكَ عَلَيْكَ
وَلَوْ أَسْتَطَعْتُ مَنَعْتُ لَفُظَكَ غَيْرَةً كَيْ لَا أَرَاهُ مُقْبِلاً شَفَتَيْكَ
خَلَصَ أَلْهَوِي لَكَ وَأَضْطَفْتُكَ مَوَدَّتِي حَتَّى أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ مَلَكَيْكَ
وفيه غلوٌّ لَا يقبل ، إِنَّمَا المَقْبُولُ مَا كَانَ مِنْ مِثْلِ قولِ كُشَاجِمٍ [في
« ديوانه » ٦٨ مِنْ الوَافِرِ] :

وَعَذَّبْنِي قَضِيبٌ فِي كَثِيبٍ تَشَارَكَ فِيهِ لَيْسٌ وَأَنْدِمَاجُ
أَغَارُ إِذَا دَنَتْ مِنْ فِيهِ كَأْسٌ عَلَى دُرٍّ يُقْبَلُهُ زُجَاجُ
وقدِ أَسْتَحَسَنُ النَاطِمُ فَنَقَلَهُ إِلَى غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَلَمْ يَقْعِ إِلَّا فِي
سَوْءِ الْأَدَبِ ، إِذْ جَاءَ فِي مَمْدُوحِهِ بِمَا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا فِي رَبَّاتِ

الخدور ، حيث قال [في «المكبري» ١٩٣/٤ من الوافر] :

أَغَارُ مِنَ الرُّجَا جَةِ حِينَ تَجْرِي عَلَى شَفَةِ الْأَمِيرِ أَبِي حُسَيْنٍ

وما أحسن قول كثير [في «ديوانه» ١٠١-١٠٢ من الطويل] :

أَسْتِنِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ
وَأَنِّي وَإِنْ صَدَّتْ لَمْثُنٍ وَصَادِقٌ عَلَيْهَا بِمَا كَانَتْ إِلَيْنَا أَرْزَلْتُ^(١)
وَمَا أَنَا بِالذَّاعِي لِعِزَّةٍ بِالْجَوَى وَلَا شَامِتٌ إِنْ نَعْلُ عِزَّةً زَلْتُ

وقول ديك الجن ، وقد ذكرناه في غير هذا المجلس [في «ديوانه»

١٨٨ من البسيط] :

كَيْفَ الدُّعَاءُ عَلَى مَنْ جَارَ أَوْ ظَلَمَا وَمَالِكِي ظَالِمٌ فِي كُلِّ مَا حَكَمَا ؟
لَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ أَمْوِي بِجَفْوَتِهِ عَنِّي وَلَا أَقْصَى لِي مِنْهُ وَلَا أَتَقَمَّا

ويروى عن ذي النون المصري أنه قال : رأيت فتاة على غاية من
الجمال ، متعلقة بأستار البيت ، تقول^(٢) :

أَمَّا لِفَتَاةٍ بَاعَدَ الْهَجْرُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الَّذِي تَهْوَاهُ يَا رَبِّ مِنْ وَضَلِ
حَجَجْتُ وَلَمْ أَخْجُجْ لِسُوءِ عَمَلْتُهُ وَلَكِنْ لِتُعَذِّبَنِي عَلَى قَاطِعِ الْحَبْلِ
ذَهَبْتُ بِعَقْلِي فِي هَوَاهُ صَغِيرَةً فَرَدَّ بِطِبِّ الْوَضَلِ مَا ضَاعَ مِنْ عَقْلِي
وَالْأَفْسَاوِ الْحُبُّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَإِنَّكَ يَا مَوْلَايَ تُوصَفُ بِالْعَدْلِ

قال : فصحتُ بها ، فقالت : إليك عني ، فلو علمت ما بي ،
وبينا أنا أراجعُها الكلامَ ، وأرميها بالملام . . إذ جاءت أخرى ،

(١) أَرْزَلْتُ إِلَيْهِ نِعْمَةً : أَسَدْتُهَا .

(٢) الأبيات من الطويل ، وهي للمجنون في «ديوانه» (٢٣٢) .

وَقَالَتْ : لَشَأْنِي أَغْرُبُ ، وَقَوْلِي أَعْجَبُ ، وَأَنْشَأْتُ تَقُولُ [مِنْ
الطُّوِيلِ] :

صَبْرْتُ وَكَانَ الصَّبْرُ خَيْرَ مَغَبَّةٍ وَهَلْ جَزَعٌ يُجْدِي عَلَيَّ فَأَجْزَعُ ؟
صَبْرْتُ عَلَيَّ مَا لَوْ تَحْمَلُ بَعْضُهُ جِبَالُ شُرُورِي أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ^(١)

وبعد : فللأديب أن يعترض قولي : إِنَّ أبياتَ عليّ بن عبد الله ،
أقبحُ من أبياتِ عبد المحسنِ الصوريّ ، ولا سبيلَ غيرِ الاعترافِ ؛
لأنَّ الأوَّلَ لم يرضَ بالاشتراكِ إلّا بعدَ يأسِهِ ، ونفضِ يَدِهِ مِنْ
محبوبِهِ ، بخلافِ الثاني ، فهوَ في التديُّثِ أظهرُ ، وفي الخساسةِ
أدخلُ .

اعتراض المؤلف على نفسه

والله درُّ أبي ذؤيبٍ في قوله [في «الأغاني» ٢٨٨/٦ مِنْ الطُّوِيلِ] :

الغيرة والأنفة العربية

تُرِيدِينَ كَيْمَا تَجْمَعِينِي وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السِّيفَانِ وَيَحْكُ فِي غَمْدٍ !؟

وقال عمرو القيس [في «ديوانه» ١٦٩ مِنْ الكَامِلِ] :

إِنِّي بِحَبْلِكَ وَاصِلٌ حَبْلِي وَبِرِنْسِ نَبْلِكَ رَائِشُ نَبْلِي^(٢)
مَا لَمْ أَجِدْكَ عَلَيَّ هُدًى أَثَرٍ يَقْرُؤُ مِقْصَصِكَ قَائِفٌ قَبْلِي^(٣)

(١) شُرُورِي : واد بالشام ، محاط بسلسلة جبلية ، قال الشاعر :

سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغْنِي وَلَوْ سَقَوْا جِبَالُ شُرُورِي مَا سَقَيْتُ لَغْنَتِ
وقال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (٣/٣٣٩) : هو جبل مطل على تبوك
في شريقها .

(٢) ريشُ النبلِ : ما يوضعُ في جانبي السهمِ من الريشِ ، وهو هنا كنايةٌ عن مجاراتها
فيما لا يمسُّ الكرامة .

(٣) يَقْرُؤُ مِقْصَصِكَ : يستقري أثرَكَ . قَائِفٌ : الذي يقصُّ الأثرَ ويتبعُهُ . قبلي : أي
أنه يريد لها لنفسه دون غيره ، وأنه يرجو ألا تكون قد نال حبًّا أحدًا قبله .

وَذَكَرْتُ هُنَا آيَاتًا لِعُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ ، لَا تَتَّصِلُ بِالْمَوْضُوعِ إِلَّا مِنْ آيَاتٍ جَمِيلَةٍ فِي الْحَبِّ
 حَيْثُ الْإِشْتِرَاكُ فِي الْحَبِّ الَّذِي تَمَتَّتُهُ الْمَرْأَةُ فِي حَدِيثِ ذِي النُّونِ ،
 وَلَا بِأَسَرٍّ بِإِيرَادِهَا ؛ لِرَفَقَتِهَا وَعَذُوبَتِهَا ، وَهِيَ لَنِي « دِيَوَانِهِ » ٧٠ مِنْ
 الْكَامِلِ :

إِنَّ النَّبِيَّ زَعَمْتَ فُؤَادَكَ مَلَّهَا	خُلِفْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِفْتَ هَوَى لَهَا
فَبِكَ الَّذِي زَعَمْتَ بِهَا فِكْلَاكُمَا	أَبْدَى لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَةَ كُلَّهَا
حَتَّى تَكْتُمُ فِي الْحَشَا مِنْ حُبِّهَا	وَجَدَا لَوْ أَصْبَحَ فَوْقَهَا لَاظْلَمَا
وَبَيِّتُ تَحْتَ جَوَانِحِي حُبِّ لَهَا	لَوْ كَانَ فَوْقَ فِرَاشِهَا لَأَقْلَمَا ^(١)
وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ	شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفُؤَادِ فَسَلَمَا
يَنْضَاءُ بِأَكْرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا	بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا
لَمَّا عَرَضْتُ مُسْلِمًا فِي حَاجَةٍ	أَخْشَى صُعُوبَتَهَا وَأَزْجُو ذُلَّهَا
مَنْعَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي	مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَمَا
فَدَنَا وَقَالَ : لَعَلَّهَا مَعْدُورَةٌ	مِنْ بَعْضِ رَفِيقَتِهَا فَقُلْتُ : لَعَلَّهَا ^(٢)

وقد أنشدها لعبيد الله بن عروة بن الزبير في منزله بـ (العقيق) ، أبو السائب المخزومي
 قَالَ عُرْوَةُ بْنُ عَبِيدِ اللَّهِ [في «الأغاني» ١٨ / ٣٤٠] : جَاءَنِي أَبُو السَّائِبِ ^{يطلب العلم}
 الْمَخْزُومِيُّ يَوْمًا ، وَقَالَ : لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ ، قُلْتُ : مَا هِيَ ؟ قَالَ :
 آيَاتُ ابْنِ أُذَيْنَةَ ، فَأَمَرْتُ بِطَعَامٍ فَأَحْضَرَهُ ، فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ حَتَّى أُرْوِيَ
 الْآيَاتَ ، فَمَا زِلْتُ أُرَدِّدُهَا عَلَيْهِ حَتَّى حَفِظَهَا ، ثُمَّ وَثَبَ ، فَقُلْتُ لَهُ :

- (١) الْجَوَانِحُ : أَوَائِلُ الضُّلُوعِ تَحْتَ التَّرَائِبِ مِمَّا يَلِي الصَّدْرَ ، كَالضُّلُوعِ مِمَّا يَلِي
 الظُّهْرَ سَمِيتَ بِذَلِكَ ؛ لِجَنُوحِهَا عَلَى الْقَلْبِ . أَقْلَمَهَا : هَزَمَهَا .
 (٢) الرَّقَبَةُ : الْحَذَرُ وَالْخَوْفُ . -

كما أنت حتى تأكل ، قال : والله لا أخلطُ بروايتها شيئاً غيرها ،
وقال : هذا والله الودُّ الصادقُ ، والعهدُ الدائمُ ، لا ما كان من
الهذلي في قوله [من الكامل] :

إِنْ كَانَ أَهْلُكَ يَمْنَعُونَكَ رَغْبَةً عَنِّي فَأَهْلِي بِي أَضْنُ وَأَرْغَبُ
إِنِّي لَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ لَابْنِ أُذَيْنَةَ بِتَطْلُبِهِ لِحَبِيبَتِهِ الْمَعَاذِيرَ ، ثُمَّ
أَنْصَرَفَ وَلَمْ يَتَنَاوَلَ شَيْئاً .

وحرصُ أبي السائبِ عليها إلى هذا الحدِّ ، ممَّا يمهِّدُ العذرَ لنا
في سوقها ، معَ ضَعْفِ المناسِبَةِ ، ومرَّ أوائلَ المجلسِ التاسعِ
ما يشبهُ قولَ ابنِ أُذَيْنَةَ : (لَأُظْلِمَهَا) ، وقوله : (لَأَقْلَمَهَا) ، فيما
جرى بينَ نصرِ بنِ حجاجٍ ، وزوجِ مجاشعِ بنِ مسعودٍ .

وكانَ أبو السائبِ هذا من كبارِ الصالحينَ ، إلَّا أَنَّهُ كَانَ فَكِيهاً ،
خفيفَ الظلِّ ، كما هو الأغلبُ على أهلِ الحجازِ ، ولَهُ ما لا يُحصى
مِنَ النَوَادِرِ .

فَمِمَّا يَتَّصِلُ مِنْهَا بِبَعْضِ مَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَسِيرُ الْحَسَنَ بْنَ زَيْدِ أَمِيرَ
(الْمَدِينَةِ) ، فَمَرَّ وَإِيَّاهُ بِنِسَاءٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِنَّ أَبُو السَّائِبِ ، فَنَهَاةُ
الْحَسَنِ ، فَلَمْ يَنْتِهِ ، فَتَمَثَّلَ الْأَمِيرُ لِتَغَاوُلِ أَبِي السَّائِبِ بِقَوْلِهِ [فِي دِيوَانِ
الْمَجْنُونِ ٢٧٠ : مِنَ الْبَسِيطِ] :

أَرَى الْإِزَارَ عَلَى لَيْلَى فَأَحْسُدُهُ إِنَّ الْإِزَارَ عَلَى مَا ضَمَّ مَحْسُودُ
فَقَالَ لَهُ : لِمَنْ هَذَا ، يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ؟ قَالَ : يَقُولُهُ قَيْسٌ ،
فَتَخَلَّفَ عَنْ مَسِيرَتِهِ ، ثُمَّ عَادَ وَهُوَ حَاسِرُ الرَّأْسِ ، فَقَالَ لَهُ : أَيْنَ
عِمَامَتُكَ ؟ قَالَ : تَصَدَّقْتُ بِهَا عَلَى الشَّيْطَانِ الَّذِي أَلْقَى بِهِذَا الْبَيْتِ
عَلَى لِسَانِهِ .

وقد أغار منصورُ النميريُّ على البيتِ الأخيرِ من أبياتِ عروة بنِ
أُذينة ، فقال [في « ديوانِ صريعِ الغواني » ٣٤٠ من الطُّويل] :

لَعَلَّ لَهَا عُذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ وَرُبَّ أَمْرِيءَ قَدْ لَامَ وَهُوَ مَلِيْمٌ

* * *

تَيَمَّمْتُ لَهَا أَتَيْتَنِي أَلْعَلَّمْ عَنْهُمْ وَقَدْ رُدَّ عِلْمُ الْعَائِفِينَ إِلَى لَهَبٍ^(١)
 فَقُلْتُ لَهُمْ : مَاذَا تَرَوْا فِي سَوَانِحِ وَصَوْتُ غُرَابٍ يَفْخَصُ الْوَجْهَ بِالْكَزْبِ؟^(٢)
 فَقَالُوا : جَرَى الظَّنُّ السَّيِّئُ بَيْنَهَا وَنَادَى غُرَابٌ بِالْفِرَاقِ وَالسَّلْبِ^(٣)
 فَلَا تَكُنْ مَاتَتْ فَقَدْ حَالَ دُونَهَا خِبَاءُ خَلِيلٍ بَاطِنٍ مِنْ بَيْنِ كَنْبٍ^(٤)

فَأَلْفَاهَا - كَمَا قَالُوا - تَزَوَّجَتْ بِأَبْنِ عَمِّ لَهَا ، فَأَخَذَهُ الْهَلَاسُ ،
 فَكُوِيَ مِنْ أَجْلِهَا جَنْبَاهُ .

ليس كل غراب يُشَاءُ منه وَخَرَجَ لِهَبِي فِي حَاجَتِهِ [كما في « صبح الأعشى » ١/٤٥٦] وَمَعَهُ سِقَاءٌ ،
 فَلَمَّا عَطَشَ . . أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ لِيَشْرَبَ ، فَإِذَا غُرَابٌ يَنْعَبُ ، فَأَثَارَ رَاحِلَتَهُ
 وَمَضَى ، فَلَمَّا جَهْدَهُ الْعَطَشُ . . أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ لِيَشْرَبَ ، فَنَعَبَ الْغُرَابُ
 وَتَمَرَّغَ فِي التَّرَابِ ، فَضْرَبَ الرَّجُلُ سِقَاءَهُ بِسَيْفِهِ ، فَإِذَا فِيهِ أَسْوَدُ
 سَالِحٍ^(٥) ، فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ سَارَ فَإِذَا غُرَابٌ وَقَعَ عَلَى سَدْرَةٍ ، فَصَاحَ بِهِ ،
 فَوَقَعَ عَلَى سَلَّةٍ ، فَصَاحَ بِهِ ، فَوَقَعَ عَلَى صَخْرَةٍ ، فَأَتَتْهُ إِلَيْهَا ، فَأَثَارَ
 كِتْرًا ، فَاحْتَمَلَهُ إِلَى أَهْلِهِ ، وَلَمَّا أَخْبَرَ أَبَاهُ . . وَجَدَ عِنْدَهُ مِنْ أَلْعَلَّمِ
 مَثْلَ الَّذِي عَمِلَ بِهِ .

وَمِنْهُ تَعْرِفُ أَنَّ التَّشَاوُمَ بِالْغُرَابِ لَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، بَلْ فِيهِ
 تَفْصِيلٌ يَطُولُ بَيَانُهُ ، وَأُظْهِرُ أَنَّ قَدِ اسْتَوْفَاهُ أَبُو عَثْمَانَ الْجَاحِظُ فِي كِتَابِهِ
 « الْحَيَوَانُ » ، وَقَدْ زَجَرْتُ الْغُرَبَانَ لِلتِّيَامُنِ فِي عِدَّةٍ قَصَائِدَ ، فَكَانَ

-
- (١) العائفُ : الذي يزجرُ الطيرَ ، فيتشَاءُ إن طارت يساراً ، ويتفاءل إن طارت يميناَ
 مِنَ الْيَمَنِ . بنو لهبٍ : هم قبيلةٌ مشهورةٌ بالعياقةِ والزجرِ .
 (٢) فحَصَّ الترابَ : حَفَرَهُ باحثاً فِيهِ .
 (٣) السوانحُ - جمعُ سانحٍ - : وَهُوَ الطيرُ الذي يَمُرُّ عن يسارِ المسافرِ .
 (٤) الخليلُ الباطنُ : الصديقُ الخفيُّ .
 (٥) أسود سالحٍ : اسمُ الأسود من الحَيَّاتِ .

المجلس الثالث عشر

[قال أبو الطيّب المتنبي في «العُكْبَرِيّ» ٣٣٤ / ٢ من الكامل] :

أَبْنِي أَبِينَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبْدَأُ غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعَقُ
نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا

(أَبْنِي أَبِينَا) : نِدَاءٌ لَجَمِيعِ النَّاسِ ؛ لِأَنَّ أَبَاهُمْ آدَمَ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ قَوْمًا مَخْصُوصِينَ ، يَقُولُ : نَحْنُ نَازِلُونَ فِي دِيَارٍ يَتَفَرَّقُ أَهْلُهَا بِالْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْغُرَابَ كَنَايَةً عَنْهُ ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَتَشَاءَمُ بِشَيْءٍ تَشَاوَمَهَا بِالْغُرَبَانِ .

حِكْمِي [فِي «الْأَغَانِي» ٤٤ / ٩] : أَنَّ كَثِيرًا تَعَشَّقَ أَمْرَأَةً مِنْ خِزَاعَةٍ يَقَالُ لَهَا : أُمُّ الْحَوِيرِثِ ، فَشَبَّ بِهَا ، فَكْرِهَتْ أَنْ يَفْضَحَهَا كَمَا فَضَحَ النَّاعِقُ عَزَّةً ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّكَ فَقِيرٌ ، فَأَتَبَعَ لَكَ مَالًا ، ثُمَّ أَرْجِعْ وَأَخْطُبْنِي ، وَأَعْطَتْهُ عَهْدَهَا أَنْ لَا تَتَزَوَّجَ حَتَّى يَرْجِعَ ، فَمَدَحَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْأَزْدِيُّ ، وَأَصَابَ مِنْهُ مَا يَرِيدُ ، وَبَعِثَ أَنْصَرَفَهُ مِنْ عِنْدِهِ سَخَتْ لَهُ الطَّبَاءُ ، وَرَأَى غُرَابًا يَفْخَصُ التُّرَابَ بِوَجْهِهِ فَتَطَيَّرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَسْتَفْتَى بَعْضَ اللَّهْيِيِّينَ فَأَجَابَهُ بِمَا لَا يَسْرُهُ ، فَقَالَ [فِي «دِيَوَانِهِ» ٥٩-٦٠ مِنْ الطُّوِيلِ] :

الأمر كما تفاءلت من الخير ، ومرّ بعض ما يتعلّق بالفأل في المجلس العاشر .

وقد عابوا على الناظم انتقاله من الغزل إلى الوعظ ، ثمّ توبّنه من العيب على المتبي الوعظ إلى المديح ، وقالوا : إنّما يحسن مثله في الرائي ، كما أنتقدوا على أبي تمام في قوله [في «ديوانه» ١٣٤/١ من الخفيف] :

غَرَبْتُهِ الْعُلَا عَلَى كَثْرَةِ الْأَفْـ
فَلْيَطْلُ عُمُرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْسٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبًا
وقالوا : لم يوقعه في ذكر الموت إلاّ عثرة اللسان ، التي أفضت به إلى التنكيد والتنجيس .

وإنّي لأتعجب من حلم معاوية وسعة صدره ، وتغاييه عن سيئات الحلم على الجاهل قاصديه ، فقد ذكر أنّ الأخطل قدّم عليه مادحاً ، فقال له : إنّ كنت شبهتني بالحيّة أو الأسد . . فلا حاجة لي في ذلك ، وإنّ كنت قلت كما قالت الخنساء [في «ديوانها» ١١٤ من الطويل] :

وَمَا بَلَغْتَ كَفِّ أَمْرِيءٍ مُّتَنَاوَلًا مِنْ الْمَجْدِ إِلَّا وَالَّذِي نَلْتَ أَطْوْلُ
وَلَا بَلَغَ الْمُهْدُونُ فِي الْقَوْلِ مَذْحَةً وَإِنْ صَدَقُوا إِلَّا الَّذِي فَبِكَ أَفْضَلُ
.. فهات ، فقال : لقد قلت بيتين ها هما ، بدون ما قالت ، قال : أنشد ، فقال [من الطويل] :

إِذَا مِتَّ مَاتَ الْعُرْفُ وَأَنْقَطَعَ النَّدَى وَلَمْ يَنْقُ إِلَّا مِنْ قَلِيلٍ مُصَرَّدُ
وَرُدَّتْ أَكْفُ الرَّاغِبِينَ وَأَمْسَكُوا عَنِ الدُّنْيَا وَالْدُّنْيَا بِخُلْفٍ مُجَرَّدُ

(١) الجنيب : الغريب ، يقول : جعلت المكارم والعلا هذا الممدوح غريباً في الناس ، فلا يوجد له نظير فيهم .

فوصله وأحسن إليه ، مع أنه لم يترك شيئاً من القحة والنغاصه إلا وأخذ بنواحيه ، فهما شرٌّ مما سبق عن أبي تمام ؛ لزيادتهما عليه بالإنذار ، بأنقطاع الأثر ، فحق صاحبهما أن يضرب في القذال^(١) ، أو يسجن مع الأندال ، إلا أنه لا يستنكر من معاوية - إن كان صاحب القصة - مثل ذلك ، فقد كان مضرب المثل فيه ، وإن كان مروان . . فما غض جفنه عما فيهما من الخذلان غير تعصبه للأخطل ، فقد كان معروفاً بذلك .

النشازم والطيرة

وكان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي يسائر السقاح ، وبينما هما ينظران إلى بناء فرغ منه السقاح . . قال لعبد الله : هات ما عندك ، فقال [من الوافر] :

أَلَمْ تَرَ مَالِكاً لَمَّا تَبَنَّى بِنَاءً نَفَعَهُ لِيَنِي بَقِيلَهُ
بِرُجْحَانٍ يُعَمِّرُ عُمَرُ نُوحٍ وَأَمْرُ اللَّهِ يَخْذُ كُلَّ لَيْلَهُ

فأبدى السقاح نواجذه لغير تبسم ، فقال عبد الله : عفواً يا أمير المؤمنين ؛ فإنها غفلة الشيوخ ، وبوادٍ الخواطر ، قال : صدقت ، فخذ في غيره .

وأنشد بعضهم لأبي مسلم الخراساني ، في يوم قتله لكما في سير أعلام النبلاء ٦٠ / ٧١ من الطويل :

سَيِّئَتِكَ مَا أَفْنَى الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ وَمَا حَلَّ فِي أَكْنَافِ عَادٍ وَجُرْهُمِ
وَمَنْ كَانَ أَذْنَى مِنْكَ عِزًّا وَمَفْخَرًا وَأَنْهَضَ بِالْجَيْشِ اللَّهُامِ الْعَرَمَرَمِ

فقال أبو مسلم : هذا مع الأمان الذي معي ؟ فقال ذلك المنشد :

(١) القذال : مؤخر الرأس .

كلُّ عبدٍ لي حرٌّ إنْ كَانَ هَذَا الشَّيْءُ مِنْ أَمْرِكَ ، وَلِنَّمَا هُوَ خَاطِرٌ جَرَى عَلَى لِسَانِي ، فَقَالَ : بَشَّرَ وَاللَّهِ الْخَاطِرُ ، فَمَا غَابَتْ شَمْسُهُ حَتَّى تَحْكَمَ فِي رَأْسِهِ الْحُسَامُ ، وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْقِصَّةِ هُوَ أَبْنُ هَبِيرَةَ ؛ إِذْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الْأَمَانَ الضَّخْمَ .

وكثيراً ما جَرَتْ نِظَائِرُ هَذِهِ الْأَقَاصِيصِ لِلنَّاسِ فِي الطَّيَرَةِ .
مِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ مِرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْجَعْدِيِّ ، وَحَدِيثُ الْأَمِينِ مَعَ قَبِيَّتِهِ .

وَقَالَ بَعْضُ الْمُلُوكِ : مَا لِهَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ - قَاتَلَهُمُ اللَّهُ - رَبَّمَا ذَكَّرُونَا التَّذْكِيرَ بِالموتِ وقتَ شَيْئاً نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْراً مِنْهُمْ ، فَيَنْغُصُونَ عَلَيْنَا ، وَمَا يَعْنِي إِلَّا المَوْتَ . اللذات
وَخَرَجَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذِرِ مَرَّةً يَتَنَزَّهُ وَمَعَهُ عَدِيٌّ بْنُ زَيْدِ الْعَبَّادِيِّ ، فَلَمَّا أَطْمَأَنَّ بِهِمُ الْمَجْلِسُ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ . . قَالَ عَدِيٌّ [بِنَحْوِهِ فِي «بُغْيَةِ الْطَلَبِ» ١٠/٤٥٠٣] : أَتَدْرِي مَا تَقُولُ هَذِهِ الشَّجَرَةُ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَإِنَّهَا تَقُولُ [مِنْ الرَّمْلِ] :

رُبَّ نَاسٍ قَدْ أَنَاخُوا قَبْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالنَّمَاءِ الْزُلَّالِ
عَصَفَ الدَّهْرُ بِهِمْ فَأَنْقَلَبُوا وَكَذَاكَ الدَّهْرُ حَالاً بَعْدَ حَالٍ
فَأَنْقَبَضَ الْمَلِكُ ، وَأَنْكَسَفَ بِالْهُ ، وَتَنَغَّصَ عَيْشُهُ ، وَعَادَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ .

وَخَرَجَ مَرَّةً أُخْرَى لِلصَّيْدِ وَمَعَهُ عَدِيٌّ ، فَمَرُّوا بِأَرَامٍ - وَهِيَ الْقُبُورُ - فَقَالَ عَدِيٌّ [بِنَحْوِهِ فِي «بُغْيَةِ الْطَلَبِ» ١٠/٤٥٠٣] : أَيْبَتُ اللَّعْنِ ، تَدْرِي مَا تَقُولُ هَذِهِ الْأَرَامُ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : إِنَّهَا تَقُولُ [مِنْ مَجْزُوءِ الرَّمْلِ] :

أَيُّهَا الرِّكْبُ الْمُخِجُّونَ نَ عَلَى الْأَرْضِ تَمْرُؤُونَ
فَكَمَا كُنْتُمْ فَكُنَّا وَكَمَا كُنَّا تَكُونُونَ

قَالَ : أَعَدُّهُ ، فَأَعَادَهُ ، فَأَنْكَسَرَلَهُ ، وَتَرَكَ صِيدَهُ .

وقد أثنى ابنُ جنِّي على الناظِمِ في هذا الاقتضابِ ، وقالَ : إِنَّهُ مِنْ حَسَنِ التَّصْرِيفِ ، وَلَمْ يَظْهَرْ لِي وَجْهُ ذَلِكَ ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَبَيِّنَهُ ، إِلَّا أَنَّ يَقَالَ فِي مَنَاسِبَةِ الوَعْظِ لِلغَزَلِ : إِنَّ الْجَمَالَ زَهْرَةٌ رَبِيعٌ ، سُرْعَانٌ مَا يَلْحَقُهَا الذَّبُولُ ، وَفِي مَنَاسِبَتِهِ لِلْمَدِيحِ : إِنَّ الدُّنْيَا خَبَرٌ ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْأَكْرُ ، وَالْعَيْشُ حَقِيرٌ ، وَالْعَمْرُ قَصِيرٌ ، وَلَكِنْ مَنْ يَدْخُرُ الْمَكْرُمَاتِ . . يَعِيشُ بِالذِّكْرِ الْجَمِيلِ وَإِنْ فَاتَ ، وَهَذَا مَا لَا أَظُنُّهُ يَخْطُرُ بِبَالِ النَّازِمِ ، حَتَّى يُوَجَّهَ بِهِ لِكَلَامِهِ ، ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ دَلَّتْ عَلَى عَيْبِهَا بِنَفْسِهَا ، قَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ [صَرِيحُ الْغَوَانِي فِي « دِيوانِهِ » ١٢٢ مِنْ الْبَسِيطِ] :

دَلَّتْ عَلَى عَيْبِهَا الدُّنْيَا وَصَدَّقَهَا مَا اسْتَرْجَعَ الدَّهْرُ مِمَّا كَانَ أَعْطَانِي

وقَالَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - [فِي « نَهْجِ الْبَلَاغَةِ » ٧٣] :
مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ!! أَوَّلُهَا عَنَاءٌ ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ ، حَلَالُهَا حِسَابٌ ، وَحَرَامُهَا عِقَابٌ ، مِنْ آمِنٍ فِيهَا . . سَقِمٌ ، وَمِنْ مَرَضٍ فِيهَا . . نِدَمٌ ، وَمِنْ أَسْتَغْنَى فِيهَا . . فُتِنٌ ، وَمِنْ أَفْتَقَرَ فِيهَا . . حَزَنٌ .

حفاة الدنيا والكلام
على الموت وذكر
قصص في ذلك

وقَالَ بَعْضُهُمْ : أَنْصَرَفْتُ مِنْ مَجْلِسِ حَمَادِ الرَّاوِيَةِ^(١) ، فَقِيلَ لِي : مَا حَدَّثَكُمُ؟ قُلْتُ : حَدَّثَنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَوْ لَمْ يَكُنْ أَبْنُ آدَمَ إِلَّا الصُّحَّةَ وَالسَّلَامَةَ . . لَكَفَى بِهِمَا ذَاءً »^(٢) ، فَقِيلَ :

(١) حماد الراوية : هو حماد بن سابور بن مبارك الشيباني العلامة الإخباري ، المكين النديم للوليد بن عبد الملك مات في دولة المهدي سنة : (١٦٠ هـ)
وسمى الراوية لأنه قال للخليفة : إني لأروي لكل شاعر تعرفه أو لا تعرفه ، وأنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة للجاهلية ، ثم سرد (٢٩٠٠) قصيدة فأعطاه مئة ألف درهم .

(٢) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما المتقي الهندي في « كثر العمال » =

قاتل الله حميداً حيث قال [في «ديوانه» ٧ من الطويل] :

أَرَى بَصَرِي قَدْ رَابِنِي بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا

وقال [في «ديوان عمرو بن قمئة» ٧٧ من الكامل] .

وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِداً لِيُصِحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ

وقال [في «ديوانه» ١٣٤ من مجزوء الكامل] :

لَوْ لَمْ يُوَكَّلْ بِالْفَتَى إِلَّا السَّلَامَةُ وَالنَّعَمُ

وَتَدَاوُلَاهُ لَا وَشَكَا أَنْ يُسَلِّمَاهُ إِلَى الْهَرَمِ

ونظر أعرابي إلى الهلال فقال : ما لي وله ؟ مُحِلُّ دَيْنٍ ، ومقرَّبُ
حَيْنٍ^(١) .

وقال عبدة [من الطويل] :

إِذَا مَا سَلَخْتُ الشَّهْرَ أَهْلَلْتُ مِثْلَهُ كَفَى قَاتِلًا سَلَخِي الشُّهُورَ وَإِهْلَالِي

وقال أبو العتاهية [في «ديوانه» ٦٢٨ من البسيط] :

تَظَلُّ تَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ تَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُذْنِي مِنَ الْأَجَلِ

وقال الناطم [في «المكبري» ٣/ ١٣٠-١٣١ من الخفيف] :

أَبْدَأُ تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ الدُّنْ يَا فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا

وَهِيَ مَغْشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ لَا تَخُ فَظُّ عَهْدًا وَلَا تَتَّمُّ وَضْلًا

شِبْمُ الْغَانِيَاتِ فِيهَا فَلَا أَدُ رِي لَذَا أَنْتَ أَسْمَهَا النَّاسُ أَمْ لَا

= (٦٧٢٢) وعزاه إلى ابن عساكر ، ولفظه : « لو لم يكن لابن آدم إلا الصحة والسلامة لكفاه بهما داء قاتلاً » .

(١) الحَيْنُ : الهلاك والموت .

وقال [في «المكبري» ١٩/٤٩ من الطويل] :

لَقَدْ فَارَقَ النَّاسُ الْأَحِبَّةَ قَبْلَنَا وَأَعْيَى دَوَاءَ الْمَوْتِ كُلَّ طَيْبٍ

وقال [في «المكبري» ٣/١٨٩٨ من الوافر] :

نِعِدُّ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمُنُونُ بِلَا قِتَالٍ^(١)
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقَرَّبَاتٍ وَمَا يُنَجِّينَ مِنْ خَبَبٍ اللَّيَالِي^(٢)
وَمَنْ لَمْ يَغْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصَالِ
نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالِ
يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمَشِّي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

وقد لاذ في الأخير بقول أبي نواس [في «ديوانه» ٢٥٤ من الطويل] :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَأَبْنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقُ

وقوله أيضاً [من الوافر] :

أَلَا يَا أَبْنَ الدِّينِ فَنُؤَا وَبَادُوا أَمَا وَاللَّهِ مَا بَادُوا لَتَبْقَى

وقول أبي العتاهية [في «ديوانه» ٦٠١ من مخلع البسيط] :

كَيْفَ بَقَاءُ الْقُرُوعِ يَوْمًا وَقَدْ ذَرَتْ قَبْلَهَا الْأُصُولُ ؟!

وقد قال متمم بن نويرة [من الكامل] :

وَعَدَدْتُ آبَائِي إِلَى عِزِّي الثَّرَى فَدَعَوْتُهُمْ وَعَلِمْتُ أَنَّ لَمْ يَسْمَعُوا
وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلَا مَحَالَةَ أَنِّي لِلْحَادِثَاتِ فَهَلْ تَرَانِي أَجَزُّ ؟

(١) المشْرِفِيَّةُ : السيوف . العَوَالِي : الرماح .

(٢) المقربَات من الخيل : الكرام التي تربط لكرامتها على أصحابها ، أو لفرط الحاجة إليها . الْخَبَبُ : عَدُوٌّ لَا يَسْتَفْرِغُ الْجَهْدَ .

وقد سبق إليه الإمام الغالب في قوله [في «شرح النهج» ٩١/٩] :
(وقد مضت أصول نحن فروعها وما بقاء الفرع بعد ذهاب أصله)

وقد قال الأول [في «ديوان ليبي» ٢٥٥ من الطويل] :
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَصْدُقْكَ نَفْسُكَ فَانْتَسِبْ لَعَلَّكَ تَهْدِيكَ الْقُرُونُ الْأَوَائِلُ
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنَانَ وَالِدَا وَدُونِ مَعْدٍ فَلْتَرُعْكَ الْغَوَائِلُ
وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ١٥٧٦/٣ من الكامل] :
وَمَتَى وَجَدْتَ النَّاسَ إِلَّا تَارِكًا لِحَمِيمِهِ فِي الْكُزْبِ أَوْ مَثْرُوكًا

وقال [في «ديوانه» ١٨٦٠/٣ من الطويل] :
يُسَارُ بِنَا قَصْدَ الْمُنُونِ وَإِنَّا لَنُشْغِفُ أَخْيَانًا بِطَيِّ الْمَرَاحِلِ
عَجَلًا مِنَ الدُّنْيَا بِأَسْرَعِ سَيْرِنَا إِلَى أَجَلٍ مِنْهَا شَيْنُهُ بِعَاجِلِ
أَوَاخِرُ مِنْ عَيْشٍ إِذَا مَا أَمْتَحَنَتْهَا تَأَمَّلْتُ أَمْثَالَ لَهَا فِي الْأَوَائِلِ
وقال الأصمعي : قَدِمَ عَلَيْنَا أَعْرَابِيٌّ ، فَأَقَامَ عِنْدَنَا أَيَّامًا ، ثُمَّ رَجَعَ
إِلَى الْبَادِيَةِ ، فَسَأَلَ عَنْ إِخْوَانِهِ وَأَتْرَابِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : مَاتُوا ، فَاسْتَرْجَعَ
وَبَكَى ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ [في «ديوان أبي العتاهية» ٣٣ من الوافر] :

أَلَا يَا مَوْتُ لَمْ أَرِ مِنْكَ بُدًّا أَبَيْتَ فَمَا تَحِيدُ وَلَا تُحَابِي
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِينِي كَمَا هَجَمَ الْمَشِيبُ عَلَى شَبَابِي
وقال آخر [في «المدحش» ٤٨١ من الطويل] :

إِذَا مَا أَلْمَنَّا يَا أَخْطَأَتَكَ وَصَادَفْتَ حَبِينِكَ فَأَعْلَمَ أَنَّهَا سَتَعُودُ
وقال ليبي [في «ديوانه» ٣٠٨ من الكامل] :

صَادَفَنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصْبَبَهَا إِنَّ أَلْمَنَّا يَا لَا تَطِيشُ سِهَامُهَا

ولمّا دخل عليّ ابنُ أبي طالب - كرّم الله وجهه - مدائن كسرى . .
نظر إلى الإيوان ، فأنشده بعض من حضر قول الأسود بن يعفر [في
«الأغاني» ٢١/١٣ من الكامل] :

مَاذَا أُوْمِلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ تَرَكُّوْا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيسَادِ
أَهْلِ الْخَوَزَنْتِ وَالسَّيْدِ بْنِ بَارِقِ وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
جَرَّتِ الرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِينَعَادِ
فَأَرَى الْكَنِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادِ

فقال عليّ [في «الأغاني» ٢١/١٣] : أبلغ من ذلك قوله عز وجل :
﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُدُّوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمُوا كَانُوا فِيهَا فَيَنكِهْنَ
* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا
مُنْظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٩-٢٥] .

وقال بعضهم في رثاء الزهراء بـ (الأندلس) [في «نفع الطيب» ٢٧/١ هـ
من السريع] :

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِرًا مُعْتَبِرًا أَنْدُبُ أَشْهَاتَا
فَقُلْتُ : يَا زَهْرَا أَلَا فَارِجِعِي قَالَتْ : وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا ؟
فَلَمْ أَزَلْ أَبْكِي وَأَبْكِي بِهَا هِنَهَاتٍ يُغْنِي الدَّمْعُ هِنَهَاتَا
كَأَنَّمَا آثَارُ مَنْ قَدْ مَضَى نَوَاحٍ يَنْدُبْنَ أَمْوَاتَا

وقال الناطم [في «المكبري» ٢٧٠/٢ من الكامل] :

أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ مَا حَالُهُ مَا يَوْمُهُ مَا الْمَضَرَعُ^(١) ؟

(١) الْهَرَمَانِ : بناء عظيم بأرض (مصر) ، واختلف بهما اختلافاً كثيراً ، ارتفاع كل واحد منهما أربع مئة ذراع ، وهما ثابتان ، ولا يُعرف الباني لهما ، وقال =

تَخْلَفُ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِيناً وَيُذَرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَبَعُ

وقال سلمة بن زيد الفهمي يصف حال قومه [من الخفيف] :

دَرَجَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَى فَهْمِ بْنِ عَمْرٍو فَأَصْبَحُوا كَالرَّمِيمِ
وَحَلَّتْ دَارُهُمْ فَأَضَحَتْ يَبَاباً بَعْدَ عَزٍّ وَثَرَوَةٍ وَنَعِيمِ
وَكَذَلِكَ الزَّمَانُ يَذْهَبُ بِالنَّاسِ وَتَبْقَى دِيَارُهُمْ كَالرُّسُومِ

وقال آخر [وهو أبو العتاهية في «ديوانه» ٢٩٧ من الوافر] :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ
فَمَا تَرْجُو بِشَيْءٍ لَيْسَ يَبْقَى وَشَيْكاً مَا تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِي

ولقد أجادَ طرفه بن العبد في قوله [في «ديوانه» ٣٦-٣٧-١٥٠-١٥١ من

الطويل] :

أَرَى الْعُمَرَ كَنَزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ الْأَيَّامُ وَالْعُمُرُ يَنْقَدِ
لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَ الطَّوْلُ الْمُرْخَى وَثِيَاءُ فِي الْيَدِ^(١)
إِذَا شَاءَ يَوْمًا قَادَهُ بِزَمَامِهِ وَمَنْ كَانَ فِي حَبْلِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ
أَرَى الْمَوْتَ لَا يَزْعَى عَلَى ذِي جَلَالَةٍ وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَزِيزاً بِمَقْعَدِ
لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَوَاجِلُ أَفِي الْيَوْمِ إِقْدَامُ الْمَنِيَّةِ أَوْ غَدِ
لَعَمْرُكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا مُعَارَةٌ فَمَا أَسْطَغَتْ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوَّدِ

وقال أعشى وائل [من الخفيف] :

ذَاكَ عَيْشٌ شَهِدْتُهُ ثُمَّ وَلَّى كُلُّ عَيْشٍ مَصِيرُهُ لِلزَّوَالِ
وخرَجَ الإمام - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - مرةً إلى الجَبَانَةِ ، ووقفَ على

= الواحدني : أحدهما : قبر شداد بن عاد ، والآخر : قبر إرم ذات العماد .

(١) الطول : الحبل . ثيابه : ما أثنى منه .

المقابر ، ثمَّ قَالَ [في «المستطرف» ٦١٠/٢] : يَا أَهْلَ الثَّرْبَةِ ، يَا أَهْلَ
 الْكُرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْغُرْبَةِ ، أَمَّا الْأَزْوَاجُ . . فَقَدْ نَكَحَتْ ، وَأَمَّا
 الْأَمْوَالُ . . فَقَدْ قُسِمَتْ ، وَأَمَّا الدُّورُ . . فَقَدْ سُكِنَتْ ، هَذَا خَيْرُ
 مَا عِنْدَنَا ، فَمَا خَيْرُ مَا عِنْدَكُمْ ؟ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي
 الْمَقَالِ . . لَقَالُوا : إِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

ويروى : أَنَّ الْمُتَوَكَّلَ الْعَبَّاسِيَّ بَلَغَهُ عَنِ الْهَادِي الدَّعَاءُ إِلَى
 نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ يَكَاتِبُ فِي ذَلِكَ ، فَأَمَرَ بِكُبْسِ دَارِهِ وَإِشْخَاصِهِ عَلَى
 حَالِهِ ، فَأَلْفَوْهُ يَتَهَجَّدُ ، فَجَاؤُوا بِهِ ، وَعَرَّفُوهُ بِرَأْيِهِ ، فَلَا طَفَةَ وَقَضَى
 حَاجَتَهُ ، وَالتَّمَسَّ مِنْهُ أَنْ يَرَوْيَ لَهُ شِعْرًا ، فَأَعْتَذَرَ بِقِلَّةِ رَوَايَتِهِ فَأَلَحَّ
 عَلَيْهِ ، فَقَالَ [الآبيات في «المستطرف» ٦٠٥/٢ مِنْ الْبَسِيطِ] :

بَاتُوا عَلَى قَلِيلِ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ	غُلِبَ الرِّجَالُ فَمَا أَغْنَتْهُمْ الْقُلُلُ
وَأَسْتَنْزِلُوا بَعْدَ عِزٍّ عَنْ مَعَاقِلِهِمْ	وَأَسْتَوْدِعُوا حُفْرًا يَا بَشَرُ مَا نَزَلُوا
نَادَاهُمْ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِرُوا :	أَبْنِ الْأُسْرَةَ وَالْتِجِجَانِ وَالْحُلُلُ ؟
أَبْنِ الْوُجُوهَ الَّتِي كَانَتْ مُنْعَمَةً	مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ وَالْكُلُلُ ؟
فَأَفْصَحَ الْقَبْرُ بِالْمَعْنَى وَقَالَ لَهُ :	تِلْكَ الْوُجُوهُ عَلَيْهَا الدُّودُ يَفْتَسِلُ
يَا طَالَمَا أَكَلُوا دَهْرًا وَمَا شَرِبُوا	فَأَصْبَحُوا بَعْدَ ذَلِكَ الْأَكْلِ قَدْ أَكَلُوا

وَقَالَ الْقَطْبُ الْحَدَّادُ [في «ديوانه» ٥٠٦ مِنْ الْبَسِيطِ] :

تِلْكَ الْقُصُورُ وَتِلْكَ الدُّورُ خَاوِيَةٌ	يَصْبِيحُ فِيهَا غُرَابُ الْبَيْنِ بِالْوَهَنِ
فَلَوْ مَرَزَتْ بِهَا وَالْبُومُ يَنْدُبُهَا	فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ لَمْ تَلْتَدَّ بِالْوَسَنِ

وَقَالَ مِنْ أُخْرَى [في «ديوانه» ٤٤٦ مِنْ الْبَسِيطِ] :

يَا صَاحِبِي إِنَّ دَمْعِي الْيَوْمَ يَنْهَمِلُ	عَلَى الْخُدُودِ حَكَاهُ الْعَارِضُ الْهَطِلُ
وَفِي الْقَوَادِ وَفِي الْأَخْشَاءِ نَارُ أَسَى	إِذَا أَلَمَ بِهَا التَّلْذَّكَارُ تَشْعِلُ

عَلَى الْأَحِبَّةِ وَالْإِخْوَانِ إِذْ رَحَلُوا إِلَى الْمَقَابِرِ وَالْأَلْحَادِ وَانْتَقَلُوا
كُنَّا وَكَانُوا وَكَانَ الشَّمْلُ مُجْتَمِعًا وَالذَّارُ أَهْلَةً وَالْحَبْلُ مُتَّصِلًا
حَدَا بِهِمْ هَازِمَ اللَّذَاتِ فِي عَجَلٍ فَلَمْ يَرِيْمُوا وَعَنْ أَحْبَابِهِمْ شُغِلُوا
وَعَافِلٍ لَيْسَ بِالْمَغْفُولِ عَنْهُ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى غَرَّهُ الْإِمْنَاهُ وَالْأَمَلُ
قُلْ لِلْحَزِينِ الَّذِي يَبْكِي أَحِبَّتُهُ إِنَّكَ لِنَفْسِكَ إِنَّ الْأَمْرَ مُقْتَبِلُ

ومات لبعض الخلفاء ولد ، كان ألد له من المني ، وأعجب إليه من العافية ، وأعذب لديه من صوب الغمام ، فتتكر حاله ، وأمتنع عن الشراب والطعام ، حتى دخل عليه بعضهم ، فقال له [بنحو ما في «البيان والتبيين» ٦٠٥/١] : إِنَّ الْقُرْآنَ عَلَيْكُمْ نَزَلَ ، فَأَنْتُمْ أَعْرَفُ بِتَأْوِيلِهِ ، وَإِنَّ النَّبِيَّ مِنْكُمْ أَتَيْتُ ، فَأَنْتُمْ أَعْرَفُ بِسُنَّتِهِ ، وَإِنَّا لَا نَعْلَمُكَ شَيْئًا [نراك] جهلته ، وَإِنَّمَا نَذْكُرُكَ بِمَا لَعَلَّ الْمَصِيئَةَ أَنْسَنَكَ إِيَّاهُ ، وَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ قَالَهَا بَعْضُ مَنْ أَصَابَهُ مِثْلُ مَا أَصَابَكَ ، وَأَنْشَدَ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا لَيْلَةٌ وَنَهَارُهَا وَيَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ وَشَهْرٌ إِلَى شَهْرٍ
سَرِينَا وَأَذْلَجْنَا فَكَانَتْ رِكَابُنَا تَسِيرُ بِنَا فِي غَيْرِ بَحْرِ وَلَا بَرٍ
مَنَايَا يُقَرِّبُنَ الْبَعِيدَ إِلَى الْبَلَى وَيُذْنِبِينَ أَشْلَاءَ الْكِرَامِ إِلَى الْقَبْرِ
وَيُفْسِمُنَ مَا بَقِيَ الشَّجِيحُ مِنَ الْوَفْرِ^(١) وَيَقْسِمُنَ مَا بَقِيَ الشَّجِيحُ مِنَ الْوَفْرِ^(١)
لَعَمْرِي لَنْ أَتُبْتَ عَيْنِيكَ مَا مَضَى مَعَ الدَّهْرِ أَوْ سَاقِ الْحِمَامِ إِلَى الْقَبْرِ
لَسْتَنَفِدَنَّ مَاءَ الشُّؤُونِ بِأَسْرِهَا وَلَوْ كُنْتَ تُمْرِيهِنَّ مِنْ تَبَجِّ الْبَحْرِ
نَيْسَ فَإِنْ كَانَ الْبُكَاءُ رَدَّ هَالِكًا عَلَى أَحَدٍ فَاجْهَدْ بِكَاءِكَ عَلَى عَمْرٍو
وَلَا تَبْكِ مِنَّا بَعْدَ مَيِّتٍ أَجَنَّهُ عَلَيَّ وَعَبَّاسٍ وَآلِ أَبِي بَكْرٍ^(٢)

(١) الوفير من المال والمتاع : الكثير الواسع .

(٢) الْأَبْيَاتُ الْأَرْبَعُ الْأَوَّلُ لِأَبِي الْمَتَاهِيَةِ فِي « دِيوانه » (٥٥٢-٥٥٣) ، وكذا في =

وأظنُّ الأبياتَ تداخلتْ على الزَّجَّاجِ ؛ فَإِنِّي أَحْفَظُهَا مِنْ
«أَمَالِيهِ» ، مَعَ أَنِّي رَأَيْتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ مُتَفَرِّقَةً لِغَيْرِ وَاحِدٍ ، ثُمَّ قَالَ
لِلْخَلِيفَةِ وَهَذَا بَيْتٌ وَاحِدٌ أُعْزِيكَ بِهِ وَهُوَ [مِنْ الطُّوِيلِ] :

وَهَوْنٌ بَغْضَ الْوَجْدِ عَنِّي أَنَّنِي أَجَاوِرُهُ فِي دَارِهِ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا^(١)

وقد سبقَ لَنَا فِي الْمَجْلِسِ السَّابِعِ أَنْ ذَكَرْنَا هَذَا الْبَيْتَ ، مَعَ
مَا يَنَاسِبُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ [فِي «الْمُكَبَّرِيِّ» ١٦٣/٣ مِنْ الْبَسِيطِ] :

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَخْبَابِ مَا وَجَدْتُ لَهَا الْمَنَآيَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا

ويروى : أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ أُصِيبَ بِأَبْنٍ يُقَالُ لَهُ الْعَبَّاسُ ،
فَأَشْتَدَّ جَزَعُهُ عَلَيْهِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ الْعُلُوِّيِّ
يَعِزُّهُ ، وَأَنْشَدَهُ [مِنْ الْكَامِلِ] :

إِضْبِرْ نَكْنُ بِكَ صَابِرِينَ فَإِنَّمَا صَبْرُ الرَّعِيَّةِ بَعْدَ صَبْرِ الرَّاسِ
خَيْرٌ مِنَ الْعَبَّاسِ رَبُّكَ بَعْدَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

= «أَمَالِي الزَّجَّاجِي» (ص/١٠١) ، وَآخِرُ بَيْتَيْنِ لِلْحُطَيْنَةِ فِي «دِيَوَانِهِ»
(١٦٣) ، بَلْ قَالَ مُحَقِّقُ «أَمَالِي الزَّجَّاجِي» (ص/٩٨) عَبْدُ السَّلَامِ
هَارُونَ : هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَرَاكَةِ الثَّقَفِيِّ وَعِزَاهُ لـ : «أَمَالِي الْمُرْتَضَى»
و«حِمَاسَةِ» ابْنِ الشَّجَرِيِّ ، وَقَالَ فِي «الْعَقْدِ» (٣٠٦/٣) لِأَرَاكَةِ الثَّقَفِيِّ
وَيَبْدُو أَنَّهُ الصَّوَابُ .

وزادها بيتاً وهو ثالثها فصارت خمسة :

فقللت لعبد الله إذ حنَّ باكياً تعزُّ ، وماء العين منهمرٌ يجري
(١) جاء في «البيان والتبيين» (٩٧/٤) أن منشد الشعر يحيى بن منصور ، ولم
يصرح بنسبته إليه .

وما أحسنَ ما قاله إبراهيمُ بنُ مهديٍّ ، وهو [مِنَ الطويل] :
وَأَنِّي وَإِنْ قُدُنْتُ قَبْلِي لَعَالِمٌ بِأَنِّي وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ قَرِيبُ
وَإِنْ صَبَاحًا نَلْتَقِي فِي مَسَائِهِ صَبَاحٌ إِلَى قَلْبِي الْغَدَاةَ حَبِيبُ
وقال سلمةُ بنُ يزيدَ في رثائه لمسلمةَ بنِ مغراء ، وكانَ أخاهُ مِن
أُمِّهِ [مِنَ الطويل] :

وَكُنْتُ إِذَا يَنأَى بِهِ بَيْنُ لَيْلَةٍ يَبِينْتُ عَلَى الْأَحْشَاءِ مِنْ بَيْنِهِ جَمْرُ
فَهَذَا لَيْتِنِ قَدْ عَلِمْنَا إِسَابَهُ فَكَيْفَ لَيْتِنِ كَانَ مَوْعِدُهُ الْحَشْرُ ؟
وَمَوْنٌ وَجِدِّي أَنِّي سَوْفَ أَغْتَدِي عَلَى إِثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفَسَ الْعُمْرُ
ومما جاءَ في مجرَّدِ التفعُّع ، المنادي بحقارةِ الدنيا ، وسرعةِ
فراقِها ، ما حكاَهُ الْأَصْمَعِيُّ قَالَ : رَأَيْتُ أَمْرَأَةً بِالْبَادِيَةِ تَطُوفُ عَلَى
رَاحِلَتِهَا بِقَبْرِ ، وَهِيَ تَبْكِي وَتَنشُدُ [مِنَ الْكامل] :

يَا قَبْرَ سَيِّدِنَا الْمَجْنُ سَمَاحَةً صَلَّى إِلَالَهُ عَلَيْكَ يَا قَبْرُ
مَا ضَرَّ لَحْدًا أَنْتَ سَاكِنُهُ أَنْ لَا يَمُرَّ بِأَرْضِهِ الْقَطْرُ
فَلَيْتُبْعَنَّ سَمَاحُ جُودِكَ فِي الْكُرَى وَلِيُورِقَنَّ بِقُرْبِكَ الصَّخْرُ
وَإِذَا غَضِبْتَ تَصَدَّعَتْ فَرَاقًا مِنْكَ الْجِبَالُ وَخَافَكَ الدُّعْرُ^(١)
وَإِذَا رَقَدْتَ فَأَنْتَ مُتَّبِعُهُ وَإِذَا أُنْتَبَهْتَ فَوَجْهُكَ الْبَدْرُ

قَالَ : فَأَعْجَبَنِي شِعْرُهَا ، وَدَنُوتُ لَأَسْأَلَهَا ، فَسَقَطَتْ مَيِّتَةً ، وَقَدْ
طَرَقَ سَمْعِي بَعْضُ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ أَوْ كُلُّهَا بِاللَفْظِ أَوْ بِالْمَعْنَى ، فِي رِثَاءِ
الْإِمَامِ الْغَالِبِ سَيِّدِنَا عَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ .

(١) الدُّعْرُ : الْفَرْعُ .

ويروى : عَنْ الْأَصْمَعِيِّ - أَيْضاً - أَوْ عَنْ غَيْرِهِ : أَنَّ أَمْرَأَةً وَقَفَتْ عَلَى قَبْرِ ، فَبَكَتْ وَأَبَكَتْ ، ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ [مِنْ الْكَامِلِ] :

مَا حَالُ مَنْ سَكَنَ الْكُرَى مَا حَالُهُ مَا حَالُهُ أَنْقَطَعَتْ هُنَاكَ حِبَالُهُ ؟
أَمْسَى وَلَا رَوْحُ الْحَيَاةِ يُصِيبُهُ يَوْمًا وَلَا لُطْفُ الْحَيَبِ يَنَالُهُ
أَمْسَى قَدْ أَمْتَحَشَتْ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ وَتَقَطَّعَتْ فِي لَحْدِهِ أَوْصَالُهُ
أَمْسَى غَرِيبًا مُفْرَدًا فِي حُفْرَةٍ وَتَشَتَّتْ بَعْدَ النِّظَامِ عِيَالُهُ
وَتَبَدَّلَتْ مِنْهُ الْمَجَالِسُ غَيْرَةً وَتَقَسَّمَتْ مِنْ بَعْدِهِ أَمْوَالُهُ

ويروى : أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ عَلِيٍّ ، نَظَرَتْ إِلَى جَنَازَةِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحُسَيْنِ ، فَأَغْشَى عَلَيْهَا ، وَلَمَّا أَفَاقَتْ .. قَالَتْ [مِنْ الطُّوِيلِ] :

وَكَاُنُوا رَجَاءً ثُمَّ عَادُوا رَزِيَّةً لَقَدْ عَظُمَتْ تِلْكَ الرَّزَايَا وَجَلَّتْ^(١)

(١) الرَّزَايَا : المصائب . والمعنى : أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ كَانُوا مَلْجَأً لِلنَّاسِ فِي حَوَائِجِهِمْ ، وَغَوَا لَهُمْ فِي شِدَائِدِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَشْهَدُوا .. صَارُوا مَصِيبَةً عَلَيْهِمْ ، فَمَا أَشَدَّ تِلْكَ الْمَصِيبَةَ وَأَعْظَمَهَا .

وهذا البيتُ أَحَدُ آيَاتِ لِسْلِيمَانَ بْنِ قَتَّةَ قَالَهُ فِي الْحُسَيْنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَفِي أَصْحَابِهِ حِينَ اسْتَشْهَدُوا ، وَمِنْ الْآيَاتِ كَمَا فِي « دِيوان الحماسة » (٣٩٩/١) :

مَرَرْتُ عَلَى آيَاتِ آلِ مُحَمَّدٍ فَلَمْ أَرَهَا أَمْثَالَهَا يَوْمَ حُلَّتِ
فَلَا يُعِيدُ اللَّهُ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا وَإِنْ أَضْبَحَتْ مِنْهُمْ بِرَغْمِي تَحَلَّتِ
أَلَا إِنَّ قَتْلَى الْطُفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَرَلْتُ رِقَابَ الْمُسْلِمِينَ فَذَلَّتِ

ويروى البيت أيضاً بلفظ :

وَكَاُنُوا غِيَاثًا ثُمَّ أَضْحَوْا رَزِيَّةً أَلَا عَظُمَتْ تِلْكَ الرَّزَايَا وَجَلَّتِ

ثُمَّ ضَرَبْتُ عَلَى قَبْرِهِ فَسَطَاطًا ، أَقَامَتْ فِيهِ سَنَةً ، ثُمَّ أَنْصَرَفْتُ ،
فِيَقَالَ : إِنَّهَا سَمِعَتْ هَاتِفًا يَقُولُ : هَلْ وَجَدُوا مَا طَلَبُوا؟ فَقَالَ لَهُ
آخَرُ : بَلِ أَيْسُوا فَأَنْقَلِبُوا .

وَحَجَّتْ أَمْرَأَةً مِنَ الْعَرَبِ ، مَعَهَا ابْنٌ لَهَا أُصِيبَتْ بِهِ ، وَلَمَّا
دَفَنُوهُ . . قَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ مَوْجَعَةٌ تَقُولُ لَهَا « جُمُورَةُ خُطْبِ الْعَرَبِ »
[٢٧٣/٣] : يَا بُنَيَّ ، وَاللَّهِ لَقَدْ غَذَوْتُكَ رَضِيْعًا ، وَفَقَدْتُكَ سَرِيْعًا ،
وَكَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ مَدَّةً أَلْتَدُّ فِيهَا بِعَيْشِكَ ، وَأَتَمَتِّعُ فِيهَا بِالنَّظَرِ
إِلَيْكَ ، وَمَا بَقِيَ مِنْ عَمْرِي أَذُوبُ فِيهِ كَمَدًّا عَلَيْكَ ، ثُمَّ قَالَتْ :

اللَّهُمَّ : مِنْكَ الْعَدْلُ ، وَمِنْ خَلْقِكَ الْجَوْرُ ، وَهَبْتَهُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي ،
فَلَمْ تَمَتِّعْنِي بِهِ كَثِيرًا ، بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشِيكًا ، ثُمَّ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ ،
وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ بِالْأَجْرِ ، فَصَدَّقْتُ وَعْدَكَ ، وَرَضِيْتُ قَضَاءَكَ ، فَأَرْحَمِ
اللَّهُمَّ غَرِبَتُهُ ، وَأَسْتَرْ عَوْرَتَهُ يَوْمَ تَنْكَشِفُ الْعَوْرَاتُ ، وَتُظْهَرُ
السَّوْءَاتُ ، وَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ تَرَحَّمَ عَلَى مَنْ أَسْتَوْدَعْتَهُ الرِّدْمَ ، وَوَسَدْتُهُ
الثَّرَى ، ثُمَّ قَالَتْ :

أَيُّ بُنَيَّ ، لَقَدْ تَزَوَّدْتُ مِنَ الدُّنْيَا لِسَفَرِي ، فَلَيْتَ شِعْرِي ! مَا زَادُكَ
لِسَفَرِكَ وَيَوْمٍ مَعَادِكَ؟

اللَّهُمَّ : إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا عَنْهُ بِرِضَائِي عَنْهُ ، ثُمَّ قَالَتْ :

أَسْتَوْدَعْتُكَ اللَّهُ الَّذِي أَسْتَوْدَعْنِيكَ جَنِينًا فِي الْأَحْشَاءِ ، وَأَذَاقَنِي
عَلَيْكَ غَصَّةَ الشَّكْلِ ، وَاتَّكَلْتُ الْأُمَّهَاتِ ، وَحَرَارَةَ قُلُوبِهِنَّ ، وَأَطُولُ
سَهْرَهُنَّ وَكَثْرَةَ عَنَائِهِنَّ .

وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ : أَنَّهُ لَمَّا هَلَكَ حَنْظَلَةُ بْنُ نَهْدٍ بْنِ زَيْدٍ . . لَمْ يَدْفَنْ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، حَتَّى أَتَاهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ وَجُوهُهُمْ ، فَقَامَتِ الْخُطَبَاءُ
بِالتَّعْزِيَةِ ، وَقِيلَتْ فِيهِ الْأَشْعَارُ ، حَتَّى عُدَّ ذَلِكَ الْيَوْمُ مِنْ أَكْبَرِ مَوَاسِمِ

العرب ، فلما وُورِي في حفرته .. قام جديلة بن أسد بن ربيعة فقال :

أيها الناس ، هذا حنظلة بن نهيد ، فكأك الأسير ، وطارد العسير ، فهل منكم اليوم مجاز بفعليه ، أو حامل عنه من ثقله ؟ كلاً ، وأجل ، إنَّ مع كل جرعة لكم شرفاً ، وفي كل أكلة لكم غصصاً ، لا تتالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل معمر يوماً من عمره إلا بهزم آخر من أجليه ، ولا يجد زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبله من رزقه ، ولا يحيا له أثر إلا مات أثر ، إنَّ في هذا لعباً ومزدجراً لمن نظر ، لو أصاب أحد سُلماً إلى البقاء ، ووجد سبيلاً عن الفناء .. لكان ابن داود المقرون له بالنبوة ، ملك الإنس والجن^(١) ، ثم ذكر شعراً طويلاً لا حاجة بنا إليه .

وقام بعده ابن كثير بن عذرة بن سعد بن تميم فقال :

أيها الناس ، هذا حنظلة بن نهيد معدن الحكماء ، وعز الضعفاء ، معطي ألبانع ، ومطعم الجائع ، فهل منكم له مانع ، أو لما حل به دافع ؟!

أيها الناس ، إنما البقاء بعد الفناء ، وقد خلقنا ولم نك شيئاً ، وسنعود إلى ذلك ، إنَّ العواري اليوم ، والهباء غداً ، ورثنا من قبلنا ، ولنا وارثون ، ولا بد من رحيل عن محل نازل ، وقد أصبحتم في منزل لا يستتب فيه سرورٌ يبسر .. إلا تبعه حصيرٌ بعسر ، ولا تطول فيه حياة مرجوة .. إلا آخرتها موت مخيف ، ولا يوثق فيه بخلقٍ باقي .. إلا وسيتبعه سابق ماضٍ ، فأنتم أعوانٌ للحتوف على

(١) أي : سليمان بن داود عليهما السلام .

أَنْفُسِكُمْ ، لَهَا بِكُلِّ سَبَسْبٍ^(١) مِنْكُمْ صَرِيحٌ مُجْتَزِزٌ ، مُعَازِبٌ^(٢) مُنْتَظَرٌ ، هَذِهِ أَنْفُسُكُمْ تَسَوِّفُكُمْ إِلَى الْعَنَاءِ ، فَلِمَ تَطْلُبُونَ الْبَقَاءَ؟ أَطْلَبُوا الْخَيْرَ وَمَوْلِيَهُ ، وَأَحْذَرُوا الشَّرَّ وَمُبْدِيَهُ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ مَنْ الْخَيْرِ مُعْطِيهِ ، وَشَرُّ مَنْ الشَّرِّ فَاعِلُهُ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ شِعْراً لَا نُكْثِرُ بِهِ^(٣) .

وَكُتِبَ الْقَاضِي الْفَاضِلُ لِأَحَدِ أَبْنَاءِ صَلاحِ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ ، حِينَما مَاتَ بَطَاقَةً يَقُولُ فِيهَا [في «السير» ٢٩٠/٢١] : كُتِبَتْ إِلَيَّ مَوْلانا الظَّاهِرُ ، أَحْسَنَ اللَّهِ عِزَّاهُ ، وَجَبَرَ مُصَابَهُ ، وَجَعَلَ فِيهِ الْخَلْفَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي زُلْزَلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا زَلْزَلاً شَدِيداً ، وَقَدْ حَفَرَتْ أَلْدَمُوعُ الْمُحَاجِرِ ، وَبَلَغَتْ أَلْقُلُوبُ الْحَنَاجِرِ ، وَقَدْ وَدَّعْتُ أَبَاكَ وَمَخْدُومِيَّ وَدَاعاً لَا لِقَاءَ بَعْدَهُ ، وَأَسْلَمْتُهُ إِلَى اللَّهِ ، مُغْلُوبَ الْحِيلَةِ ، ضَعِيفَ الْقُوَّةِ ، رَاضِياً عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبِالْبَابِ مِنَ الْجُنُودِ الْمُجَنَّدَةِ ، وَالْأَسْلِحَةِ الْمُغْمَدَةِ ، مَا لَا يَدْفَعُ بِلَاءَهُ ، وَلَا يَرُدُّ قِضَاءَهُ ، وَتَذْمَعُ الْعَيْنُ ، وَيَخْشَعُ الْقَلْبُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي الرَّبَّ : وَإِنَّا عَلَيْكَ يَا يُوسُفُ لَمَحْزُونُونَ ، وَأَمَّا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْوَصَايَا . . فَقَدْ شَغَلَنِي عَنْهُ الْمَصَابُ ، وَلَا تَحِجُّ الْأَمْرَ إِنَّهُ إِنْ وَقَعَ اتَّفَاقٌ . . فَمَا عَدَمْتُمْ إِلَّا شَخْصَةَ الْكَرِيمِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ . . فَالْمَصَائِبُ الْمُسْتَقْبَلَةُ أَهْوَنُهَا مَوْتُهُ ، وَهُوَ الْهَوْلُ الْعَظِيمُ .

(١) السَّبَسْبُ : الْمَفَازَةُ .

(٢) الْمُعَازِبُ : الْبَعِيدُ .

(٣) ذَكَرَ الشَّيْخُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٣١ / ٤) وَأَبْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» (٢٨٢ / ٩) : هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي تَقَدَّمَ كُلُّهُ الَّذِي عَزَاهُ الشَّيْخُ لِابْنِ جَدِيدَةَ ، وَالَّذِي عَزَاهُ إِلَى ابْنِ كَثِيرٍ عَلَى أَنَّهُ مَوْعِظَةٌ لَوْهَبِ بْنِ مَنبُوهٍ .

وبعض هذا - مع ما سبق - ناظرٌ إلى ما صنع عمرو بن العاص ،
 فقد روي : أَنَّهُ لَمَّا حضرَهُ الموتُ . . أَسْتَدْعَى عسَاكِرَهُ ، وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ
 يَسْتَلِثُمُوا ، وَأَمَرَ بِالْفِرْسَانِ فَرَكَبُوا ، وَلَمَّا أَجْتَمَعُوا عَلَى بَكْرَةِ أَبِيهِمْ . .
 قَالَ : لَقَدْ نَزَلَ بِي مِنَ الْأَمْرِ مَا تَرَوْنَ ، فَهَلْ تَمْلِكُونَ لِي نَفْعًا ، أَوْ
 تَغْنُونَنِي دَفْعًا؟ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ ، وَلَكِنَّهُ
 أَرَادَ أَسْتِخْرَاجَ الْعِبْرَةِ مِنْهُمْ ، وَأَنْ يَرِيَهُمْ حَقَارَةَ الدُّنْيَا ، وَأَنْ مَا حُسِرَ
 لَهُ مِنْ جُنُودِ (مَصْرَ) الْفِيحَاءِ لَا يُغْنِي فِتْيَلًا وَلَا نَقِيرًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ،
 فَسَبَحَانَ مَنْ لَا يَدُومُ إِلَّا مَلَكُهُ .

وَالْمَبْنَى النَّاظِمُ فِي قَوْلِهِ [فِي «الْمَكْبَرِيِّ» ٢/ ٢٧٣ - ٢٧٤ مِنْ الْكَامِلِ] :

مَا زِلْتَ تَذْفَعُ كُلَّ أَمْرٍ فَادِحٍ حَتَّى أَتَى الْأَمْرُ الَّذِي لَا يُدْفَعُ
 فَظَلَلْتَ تَنْظُرُ لَا رِمَا حُكَّ شُرْعٍ فِيمَا عَرَاكَ وَلَا سِيُوفُكَ قُطِعُ
 بِأَبْنِي الْوَحِيدُ وَجَيْشُهُ مُتَكَاثِرٌ يَبْكِي وَمِنْ شَرِّ السِّلَاحِ الْأَذْمُعُ

وَمِنْ كَلَامِ قَالَةِ الْإِمَامِ ، وَهُوَ يَجْهَزُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ [فِي «نَهجِ الْبَلَاغَةِ»
 ٢٧٢] : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ أَنْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَا يَنْقَطِعُ
 بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ الثُّبُوءِ وَالْأَنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ ، وَخُصِّصْتَ حَتَّى
 صِرْتَ مُسْلِيًا عَمَّنْ سِوَاكَ ، وَعُمِّمْتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سِوَاءَ ،
 وَلَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ . . لَأَنْفَذْنَا عَلَيْكَ مَاءَ
 الشُّوْنِ ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مِمَّا طَلَا ، وَالْكَمْدُ مُحَالَفًا ، وَقِلَافًا لَكَ ،
 وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلِكُ رُدُّهُ ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ،
 أَذْكَرُنَا عِنْدَ رَبِّكَ ، وَأَجْعَلُنَا مِنْ بَالِكَ .

وَلَمَّا دُفِنَ ﷺ . . قَامَ عَلَى قَبْرِهِ فَقَالَ [فِي «نَهجِ الْبَلَاغَةِ»] : إِنَّ الصَّبْرَ
 لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ ، وَإِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ
 لَجَلِيلٌ ، وَإِنَّهُ بَعْدَكَ لَقَلِيلٌ .

وإِنَّهُ وَإِيْمُ اللَّهِ لَمِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ ، أَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ
إِلَّا عَنْكَ : فَقَدْ تَلَقَّفَهُ الشُّعْرَاءُ مِنْهُ ، قَالَ أَبُو تَمَّامٍ [في «ديوانه» ٣٣٩/٢ مِنْ
الْعُودِ] :

وَقَدْ كَانَ يُدْعَى لِابْنِ الصَّبْرِ حَازِمًا فَقَدْ صَارَ يُدْعَى حَازِمًا حِينَ يَجْزَعُ
وَقَالَ [في «ديوانه» ٣١/٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

الصَّبْرُ أَجْمَلُ غَيْرِ أَنْ تَلْذُذًا فِي الْحُبِّ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا
وَقَالَ النَّازِمُ [في «المكبري» ٢٣٣/٣ مِنْ الْكَامِلِ] :

أَجْدُ الْجَفَاءِ عَلَى سِوَاكِ مُرْوَةً وَالصَّبْرُ إِلَّا فِي نَوَاكِ جَمِيلًا^(١)
وَقَالَ غَيْرُهُ [- وهو السري الرفاء - في «المستطرف» ٣٩٨/٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

وَالصَّبْرُ يُخَمِّدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ
وَقَالَتِ الْخَنَسَاءُ قَبْلَ ذَلِكَ [في «ديوانها» ١٢٥ مِنْ الْوَافِرِ] :

أَلَا يَا صَخْرُ إِنْ أَبَكَيْتَ عَيْنِي فَقَدْ أَضْحَكْتَنِي دَهْرًا طَوِيلًا
بَكَيْتُكَ فِي نِسَاءٍ مُغْوِلَاتٍ وَكُنْتُ أَحَقَّ مَنْ أَبْدَى الْعَوِيلَ
دَفَعْتُ بِكَ الْجَلِيلَ وَأَنْتَ حَيٌّ فَمَنْ ذَا يَدْفَعُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَ ؟
إِذَا قُبِحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ رَأَيْتُ بِكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلَ

وَأَمَّا قَوْلُهُ^(٢) : وَإِنَّهُ بَعْدَكَ لَقَلِيلٌ . . فَقَدْ سَبَقَ مَا يَنَاسِبُهُ عِنْدَ شَرْحِ
قَوْلِهِ [في «المكبري» ١٦٣/٣ مِنْ الْبَسِيطِ] :

بِمَا بِجَفْنَيْكَ مِنْ سِحْرِ صِلِي دَنِفًا يَهْوِي الْحَيَاةَ وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتَ فَلَا

(١) الجفاء : الامتناع . النوى : البعد .

(٢) أي : الإمام في رثائه ﷺ .

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ زِيَادٍ فِي رِثَاءِ حَبِيبِ بْنِ الْمُهَلَّبِ [مِنَ الطُّوَيْلِ] :

سَابِكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغَضُّ
كَأَنَّ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ
لَيْنٌ حَسُنَتْ فِيكَ الْمَرَائِي وَصَوَّغَهَا
فَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ وَإِنْ جَلَّ جَانِعٌ
فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَجُنُّ الْجَوَانِحُ
عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ النَّوَائِحُ
لَقَدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فِيكَ الْمَدَائِحُ
وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ^(١)

وقوله : (سَابِكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي .. إِلَى آخِرِ الْبَيْتِ)

مُنَاسِبٌ لِمَا سَبَقَ عِنْدَ شَرْحِ قَوْلِهِ [فِي « الْمَكْبَرِيِّ » ٣١٨/١٠ مِّنَ الْخَفِيفِ] :

شَيْبُ رَأْسِي وَذَلَّتْ بِي وَتَحُولِي وَدُمُوعِي عَلَى هَوَاكَ شُهُودِي

وَقَامَ بَعْضُهُمْ عِنْدَ قَبْرِ ، فَبَكَى وَأَسْتَبَكَى ، ثُمَّ قَالَ [مِنَ الطُّوَيْلِ] :

لِمَنْ جَدْتُ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي وَأَرْسَلَ فِي شَأْوِ الْهُمُومِ عَنَانِي
وَقَفْتُ بِهِ حَيْرَانَ وَقَفَّةَ هَائِمٍ أَعَالِجُ قَلْبًا دَائِمَ الْخَفَقَانِ
وَمَا بِي مَنْ فِي الْقَبْرِ لَكِنْ رَأَيْتُهُ عَلَى كَمَدٍ لَا بُدَّ فِيهِ أَرَانِي

وقد لَهَجَ أَبُو الْفَضْلِ ابْنُ الْعَمِيدِ ، قَبْلَ نَكْبَتِهِ الَّتِي قَتَلَ فِيهَا ،

بِهَازِئِ الْبَيْتَيْنِ [مِنَ الرَّمْلِ] :

سَكَنَ الدُّنْيَا أَنَا سَ قَبْلَنَا رَحَلُوا عَنْهَا وَخَلَّوْهَا لَنَا
وَنَزَلْنَاهَا كَمَا قَدْ نَزَلُوا وَتَخَلَّيْهَا لِقَوْمٍ بَعْدَنَا

وهي شبيهة بما سبق أوائل المجلس ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ بِلِسَانِ
الْأَرَامِ . وَلِي فِي الْمَوْضُوعِ الْكَثِيرُ الطَّيِّبُ ، مِنْهُ قَوْلِي [فِي « دِيْوَانِ

الْمَوْلَفِ » ق ١١٦ مِّنَ الطُّوَيْلِ] :

لَقَدْ أَبْلَغْتَ دُنْيَاكُمْ فِي عِظَاتِهَا إِلَيْكُمْ فَهَلَّا يَسْتَجِيبُ سَمِيعُ

(١) الأبيات لأشجع السلمي في « ديوان الحماسة » (٣٥٥ / ١) .

فَكَمْ قَلَبَتْ ظَهَرَ الْمَجَنِّ لِأُمَّةٍ ؟ وَيَا رَبِّ شَمَلِ عَادَ وَهُوَ صَدِيعُ
وَسَبْعُ الثُّرَيَّا آيَلَاتٌ إِلَى النَّوَى وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَهِيَ جَمِيعُ

والكلامُ في ذمِّ الدنيا ، وسرعةِ فنائِها ، وكثرةِ عنائِها ، والتواءِ
أُمُورها ، وتراؤفِ شرورها ، ووشيكِ أنحلّالِها ، وتقاربِ زوالِها . .
ما تَبَطُّ مِنْهُ بطونُ الأسفار^(١) ، ويتذكَّرُ لَأَقْلَهُ أولوا الأبصارِ ، ومن
كونِهِ موضعَ أنفاقٍ بينَ الأممِ . . لم يكفِ الاقتصارُ عليه في الخطبِ
الجُمُعِيَّةِ ، كما هُوَ مذكورٌ في المتنِ ، وربما يكونُ بعضُ ما سقناه
في الكلامِ على بيتِ المَطلعِ أليقَ بما يلي ، غيرَ أنَّ الأبياتَ آخذةٌ
برقابِ بعضها بعضاً ، فلا بدَّعَ أَنَّ كانَ الكلامُ عليها من نوعٍ واحدٍ .

* * *

(١) الأَطيَطُ : صوتُ الرِّحالِ إذا ثَقُلَ عليها الرُّكبانُ ، وهُوَ هنا كنايةٌ عَن وفرةِ الكلامِ
في ذمِّ الدنيا في كتبِ الأقدمين .

[قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ٣٣٤ / ٢ من الكامل] :

أَيْنَ الْأَكْسِرَةِ الْجَبَابِرَةُ الْأَلَى كَنْزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ وَلَا بَقُوا

سبحان الدائم الباقي

توضيحٌ لسابقه وتفریعٌ عليه ، وفي وَهْمِي أَنْ قد أَشْرْتُ مرَّةً إلى حديثِ أبنِ الخطَّابِ ، وما تمثَّلَ بهِ مِنَ الأبياتِ ، ولا بِأَسْ بِإِعَادَتِهِ ؛ إذ لم أَكُنْ على يقينٍ مِنْ ذَكَرِهِ ، فضلاً عَنِ اسْتِيفَائِهِ ، وحاصلُهُ : أَنَّهُ حججٌ . . فلَمَّا كَانَ بِـ (ضَجَنَان) ^(١) قَالَ : لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العليُّ العظيمُ ، المعطي ما يشاءُ لِمَنْ يشاءُ ، لَقَدْ كُنْتُ أَرعَى للخطَّابِ بهذا الوادي مع أُخِيَّةٍ لي ، في مدارعِ الصوفِ ، وكانَ فظاً ، يُتَعَبُّنا إِذا عَمِلنا ، ويضربُنا إِذا قَصَرنا ، وقد أَمْسَيْتُ اليومَ وما بَيْنِي وبينَ اللهِ أَحَدٌ ، ثمَّ أَنشدَ مَثَمَلًا [الأبيات في «الأغاني» ١٢١ / ٣ وهي لورقة بن نوفل مِنَ البسيط] :

لَا شَيْءَ مِمَّا تَرَى تَبَقَى بِشَاشَتُهُ يَبْقَى إِلَالَهُ وَيُودَى الْمَالُ وَالْوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُرٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ وَالْخُلْدُ قَدْ حَاوَلَتْ عَادَ فَمَا خَلَدُوا
وَلَا سُلَيْمَانَ إِذْ تَجَرَّيَ الرِّيَّاحُ لَهُ وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ فِيمَا بَيْنَهُمَا بَرْدُ ^(٢)
أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّتِي كَانَتْ مَنَازِلُهَا مِنْ كُلِّ أَرْبٍ إِلَيْهَا رَاكِبٌ يَفْدُ ؟
حَوْضُ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بِلاَ كَذِبٍ لَا بُدَّ مِنْ وُرْدِهِ يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا

وقال أبنُ أبي طالِبٍ [في «نهج البلاغة» ٢٦٦] : وأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ على

يا ابن آدم . . إنك سائر
إلى قبرك فتنبه

(١) جبلٌ بناحية (تهامة) .

(٢) البيت في «الأغاني» :

ولا سليمان إذ دان الشعوب له والجنُّ والإنسُ تجري بينها البردُ

سَبِيلٍ مِّن مَّضَىٰ قَبْلَكُمْ ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ أَعْمَارًا ، وَأَعَمَرَ دِيَارًا ، وَأَبْعَدَ
 آثَارًا ، أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً ، وَرِيَا حُهُمْ رَاكِدَةً ، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً ،
 وَأَجْسَامُهُمْ بَالِيَةً ، قَدِ اسْتَبَدَّلُوا الْقُصُورَ بِالْقُبُورِ ، وَالنَّمَارِقَ بِالصُّخُورِ ،
 وَكَأَنَّ قَدِ صِرْتُمْ إِلَىٰ مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، فَأَرْتَهُنَّكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ ،
 وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ ، فَكَيْفَ لَوْ تَنَاهَتْ الْأُمُورُ ، وَبُعِثَرَتِ الْقُبُورُ ،
 وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُم الْحَقُّ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

والله جلَّ شأنه يقول : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ
 الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

[السجدة : ٢٦] .

ويقول : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ
 لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] .

ويقول : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ
 أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا
 كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[العنكبوت : ٤٠] .

ويقول : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
 نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُرًّا وَآرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
 بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ٦] .

ويقول : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْنٍ مِّن قَرْنٍ بَاطَلَ مَعِيشَتُهَا فَنَلَّكَ
 مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾

[القصص : ٥٨] .

ويقول : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا
 يَرْجِعُونَ ﴾ [يس : ٣١] .

وَالْآيَاتُ فِي الْإِعْتِبَارِ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَحْصَرَ .

وَقَالَ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ [فِي « دِيَوَانِهِ » ٢ / ٨٧٧-٨٨٠ مِنْ الْخَفِيفِ] :

مَا أَقَلَّ اعْتِبَارَنَا بِالزَّمَانِ	وَأَشَدَّ اغْتِرَارَنَا بِالْأَمَانِ
وَقَفَاتٍ عَلَى غُرُورٍ وَأَقْدَا	مُ عَلَى مَزَلَقٍ مِنَ الْحَدَثَانِ
كُلُّ يَوْمٍ رَزِيَّةٌ بِفُلَانٍ	وَوُقُوعٌ مِنَ الرَّدَى بِفُلَانٍ
قَدْ مَرَزَنَا عَلَى الدِّيَارِ خُشُوعًا	وَرَأَيْنَا الْبِنَا فَايِنَ الْبَنَانِي ؟
أَيْنَ رَبِّ السِّدِيرِ فَالْحَيَرَةِ الْبَيْتِ	ضَاءٍ أَمْ أَيْنَ صَاحِبِ الْإِيْوَانِ ؟
وَالسُّيُوفُ الْحِدَادُ مِنْ آلِ بَذْرِ	وَالْقَنَا الصُّمُّ مِنْ بَنِي الْكُرْيَانِ
وَالْمَوَاضِي مِنْ آلِ جَفَنَةِ أَرْسَى	طُنْبًا مُلْكُهُمْ عَلَى الْجَوْلَانِ ^(١)
تَرَاءَاهُمْ الْوُفُودُ بَعِيدًا	ضَارِبِينَ الصُّدُورَ بِالْأَذْقَانِ
فِي رِيَاضٍ مِنَ السَّمَاحِ غَوَانٍ	وَجِبَالٍ مِنَ الْحُلُومِ رِزَانٍ
وَهُمْ أَلْمَاءٌ لَدَّ لِلنَّاهِلِ الظَّمِ	سَانَ بَزْدًا وَالنَّارِ لِلْحَيْرَانِ
مَا نَثَتْ عَنْهُمْ أَلْمُنُونُ يَدًا شَوْ	كَاءَ أَطْرَافَهَا مِنَ الْمُرَّانِ ^(٢)
عَطَفَ الدَّهْرُ فَرَعَهُمْ فَرَاهُ	بَعْدَ بُعْدِ الدَّرَى قَرِيبَ الْمَجَانِي
وَتَتَّهُمْ بَعْدَ الْجَمَاحِ الْمَنَايَا	فِي عِنَانِ التَّسْلِيمِ وَالْإِدْعَانِ
لَيْسَ يَبْقَى عَلَى الزَّمَانِ جَرِيءٌ	فِي إِبَاءٍ أَوْ عَاجِزٍ فِي هَوَانٍ

وَقَالَ [فِي « دِيَوَانِهِ » ٢ / ٣٨١-٣٨٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

أَوْ مَا رَأَيْتَ وَقَائِعَ الدَّهْرِ	أَفَلَا تُسَيِّئُ الظَّنَّ بِالْعُمَرِ
بَيْنَا أَلْفَتَى كَالطُّودِ تَكْنُفُهُ	هَضْبَاتُهُ وَالْعَضْبُ ذُو الْأَثَرِ

(١) الطُّنْبُ : حَبْلُ الْخَبَاءِ . الْجَوْلَانُ : جَبَلٌ بِالشَّامِ مَعْرُوفٌ يَقَعُ جَنُوبَ غَرْبِ

سُورِيَةِ .

(٢) الْمُرَّانُ : الرَّمَاحُ الصَّلْبَةُ .

يَأْبَى الدَّيْنَةَ فِي عَشِيرَتِهِ وَيُجَاذِبُ الْأَيْدِي عَلَى الْفَخْرِ
 زَلَّ الزَّمَانُ بِوِطْءٍ أَخْمَصِهِ وَمَوَاطِئُ الْأَقْدَامِ لِلْعَنَرِ
 ثُمَّ أَتْنَتْ كَفُّ الْمُتُونِ بِهِ كَالضُّغْتِ بَيْنَ النَّابِ وَالظُّفْرِ^(١)
 جَمَعَ الْجُنُودَ وَرَاءَهُ وَكَأَنَّمَا لَاقَهُ وَهُوَ مُضَيَّعُ الظُّهْرِ
 وَبَنَى الْخُصُونَ تَمْتَعًا فَكَأَنَّمَا أَمْسَى بِمَضِيعَةٍ وَلَا يَذَرِي

ويروى عن أبي الدرداء [ينحوه في حلية الأولياء ١/ ٢١٣] : أَنَّهُ قَامَ عَلَى دَرَجِ الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ : يَا أَهْلَ (دِمَشْقَ) ، أَلَا تَسْمَعُونَ مِنْ أَخٍ نَاصِحٍ لَكُمْ ؟ إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ جَمَعُوا كَثِيرًا ، وَبَنَوْا مَشِيدًا ، وَأَمَلُوا بَعِيدًا ، فَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا ، وَبَنَانُهُمْ قُبُورًا ، وَأَمَلُهُمْ غُرُورًا ، وَمَلِكُهُمْ هَبَاءٌ مَنثورًا ، هَـلْكَ عَادٌ قَدْ مَلَأَتْ الْبِلَادَ أَهْلًا وَمَالًا ، وَخِيَلًا وَرِجَالًا ، فَمَنْ يَشْتَرِي تَرْكَائِهِمَ الْيَوْمَ بِدَرْهَمِينَ ؟ !

وكم رأينا في تصاريف الأيام من والٍ عَزَلَتْ ، وعالٍ أُنْزِلَتْ ، وحكيم لا يدوم إلا الحَيُّ القَيُومُ زَلَزَلَتْ ، ولو أردنا أن نُفِيضَ فِيمَنْ سَقَاهُمُ الدَّهْرُ كَأْسَهُ ، وَجَرَّعَهُمْ بِأَسَهُ ، وَضَرَبَ عَلَيْهِمْ جِرَانَهُ ، وَأَنْزَلَ بِهِمْ حَدَثَانَهُ . . . لَأَخُوجَ مَا رَأَيْنَاهُ بَعِيُونَنَا ، وَسَمِعْنَاهُ مِنْ قَرِيبِ زَمَانِنَا ، إِلَى تَأْلِيفِ مَخْصُوصٍ .

ومرّ في أواخرِ المجلسِ الثاني ما يتصلُ بالموضوعِ ، مع الإِحَالَةِ عَلَى مَا هُنَا .

وقد فَتَحَ (الْأَنْدَلُسَ) مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ ، فَكَانَتْ الْغَنَائِمُ تُحْمَلُ ^{تقلب أحوال الدنيا في} إِلَيْهِ ، فَيَرْمِي بِالذَّهَبِ رَمِيَهُ الْحِجَارَةَ ، وَلَا يَلْتَقِطُ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ ^{الناس} خَالِصِ الْجَوْهَرِ ، ثُمَّ لَمْ تَطِلِ الْأَيَّامُ . . . حَتَّى مَاتَ يَسْأَلُ النَّاسَ بَمَنْى ، عَلَى مَا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ .

(١) الضُّغْتُ : قُبْضَةٌ حَشِيشٍ مَخْتَلِطَةٌ الرُّطْبِ بِالْيَابِسِ .

ولمَّا زَرْتُ (قِيدُون) فِي سَنَةِ : (١٣٢٩ هـ) دَخَلَ عَلَيَّ جَمَاعَةٌ مِنْ آلِ الْعُمُودِيِّ ، لَا يَقْلُونَ عَنْ خَمْسِينَ ، فِي غَرَرٍ مَلِيحَةٍ ، وَوَجْهِهِ صَبِيحَةٍ ، وَقَامَاتٍ مَدِيدَةٍ ، وَأَجْسَامٍ شَدِيدَةٍ ، وَأَفْكَارٍ بَعِيدَةٍ ، وَلَمَّا سَأَلْتُهُمْ عَنْ حَالِهِمْ . . ذَكَرُوا مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ بَسْطَةِ وَصُولَةِ الْمَلِكِ فِي سَائِرِ بِلَادِ (دَوْعَن) ، ثُمَّ مَا ضَرَبَ عَلَى أَيْدِيهِمُ الْذَهْرُ ، وَأَسْتَرَدَّتْ مَا أَعْطَتْهُمْ الْأَيَّامُ ، وَمَا زَالُوا يَشْرَحُونَ لِي الْحَالَ ، وَيَكْثُرُونَ مِنْ الْكَلَامِ ، وَيَلْتَمِسُونَ مِنِّي الدِّعَاءَ . . حَتَّى أَغْرُورَقْتُ عَيْنِي ، وَتَنَدَّيْ خَذْيِي ، وَلَمَّا رَأَيْتُ أَحَدَهُمْ بِتِلْكَ الرِّقَّةِ . . قَالَ : لَا تَحْزَنْ ، فَقَدْ كُنَّا وَاللَّهِ أَهْلًا لِمَا نَزَلَ بِنَا ، وَمَا أَصَابَنَا إِنَّمَا هُوَ بِمَا كَسَبَتْهُ أَيْدِينَا ، فَقَدْ وَلَّانَا اللَّهُ وَلَايَةً لَمْ نُحْسِنْ سِيَاسَتَهَا ، بَلْ أَبَدَلْنَا الْعَدْلَ جَوْرًا ، وَالْحِلْمَ جَهْلًا ، وَلَمْ نَشْكُرِ النِّعْمَةَ ، فَسَلَبْتُ عَنَّا .

وَمَا أَخَذَهَا إِلَّا مِنْ قَوْلِ يَحْيَى الْبَرْمَكِيِّ ، وَقَدْ سَأَلَهُ الْفَضْلُ فِي مُحَبِّسِهِ عَنْ أَسْبَابِ نَكْبَتِهِمْ ، فَإِنَّهُ قَالَ [بَنُوهُ فِي « السَّيَر » ٩/ ٦١] : لَيْسَتْ إِلَّا دَعْوَةُ مَظْلُومٍ سَرَتْ بَلِيلٍ وَنَحْنُ نَائِمُونَ .

وَقَدْ اتَّفَقَ أَنْ تَقْوُضَ عَلَى يَدِ فَحْلِ (حَضْرَمَوْتَ) - السُّلْطَانِ عَوْضِ بْنِ عَمْرِو الْقَعِيطِيِّ - عِدَّةٌ دَوْلٍ فِي عَهْدٍ قَرِيبٍ :

مِنْهَا : دَوْلَةُ آلِ الْعُمُودِيِّ الْمَذْكُورِينَ ، وَدَوْلَةُ آلِ بُرَيْكِ ، وَدَوْلَةُ النَّقِيبِ الْكَسَادِيِّ ، وَدَوْلَةُ آلِ عَمْرِو بَاعَمَرٍ ، وَدَوْلَةُ الْعَوْلَقِيِّ ، وَدَوْلَةُ بَنِي مُسَاعِدٍ ، وَدَوْلَةُ مَنْصُورِ بْنِ عَمْرِو الْكَثِيرِيِّ ، وَغَيْرُهُمْ .

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِهِمْ وَقَدْ مَرَّ بِدِيَارِ قَوْمِ كِرَامٍ ، كَانُوا . . فَبَانُوا الدُّنْيَا دَوْلَابٌ يَدُورُ
[كَمَا فِي « الْمُسْتَرْف » ٢٠/ ٦٠٧ مِنْ الْبَسِيطِ] :

هَلْ ذِي مَنَازِلٍ أَقْوَامَ عَهْدَتْهُمْ يُؤْفُونَ بِالْعَهْدِ مُذْ كَانُوا وَبِالذَّمِّ
تَبْكِي عَلَيْهِمْ دِيَارٌ كَانَ يُطْرِبُهَا تَرْتُمُ الْمَجْدَ بَيْنَ الْجُودِ وَالْكَرَمِ

وقال أحد بني أمية ، وهو الأبيوردئي [في «ديوانه» ٥٨٦-٥٨٧ من
الطويل] :

مَلَكْنَا أَقَالِنِمَّ الْبِلَادِ فَادْعَنْتَ لَنَا رَغْبَةً أَوْ رَهْبَةً عُظْمَاؤُهَا
فَلَمَّا انْتَهَتْ أَيَّامُنَا عَلِقْتَ بِنَا شَدَائِدُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ رَخَاؤُهَا
وَكَانَ إِلَيْنَا فِي السُّرُورِ ابْتِسَامُهَا فَصَارَ عَلَيْنَا فِي الْهُمُومِ بَكَاءُهَا
وَصِرْنَا نُلَاقِي النَّائِبَاتِ بِأَوْجِهِ رِقَاقِ الْحَوَاشِي كَادَ يَقْطُرُ مَاؤُهَا
إِذَا مَا هَمَمْنَا أَنْ نَبْجَحَ بِمَا جَنَتْ عَلَيْنَا الْكَلْبَالِي لَمْ يَدْعُنَا حَيَاؤُهَا
وَأَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ صَرِيحِ الْقَوْلِ ، وَنَادِرِ الشَّعْرِ ، وَمَنْفَعِ
الْكَلَامِ .

ويُحكى : أنه لما فرغ فخرُ الدولة بنُ بُويه من القلعة التي
استحدثها على جبل طبرك . . نزل بها مرتاحاً ، فأشتهى طرائح لحم
البقر ، فنُحرث واحدة منها بين يديه ، وطَفِقَ أصحابه يطبخون له من
أطائبها ، وهو ينال منها ، ويأكلُ من عناقيد الكرم ، ويشربُ من
الكوؤس ، فلم يلبث أن لوى عليه جوفه ، وأتصل على الأكم
صوته ، إلى أن جثم عليه موته ، فقال أبو الفرج الساوي [في «قري
الضيف» ٤٥٨/٣ من الوافر] :

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمِلْءِ فِيهَا حَذَارٍ حَذَارٍ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
وَلَا يَغُرُّزُكُمْ حُسْنُ ابْتِسَامِي فَقُولِي مُضْحِكٌ ، وَالْفِعْلُ مُبْكِي
بِفَخْرِ الدَّوْلَةِ اغْتَبِرُوا فَإِنِّي أَخَذْتُ الْمُلْكَ مِنْهُ بِسَيْفِ هُلْكِ
فَأَمْسَى بَعْدَ مَا قَرَعَ الْبَرَائِيَا أَسِيرَ الْقَبْرِ فِي ضَيْقِي وَضَنْكِ
أَقْدَرُ أَنَّهُ لَوْ عَادَ يَوْمًا إِلَى الدُّنْيَا تَسْرِبَلْ ثَوْبَ نُسْكِ
دَعِي يَا نَفْسُ فِكْرَكَ فِي مُلُوكِ مَضُوا وَعَلَى الَّذِي قَدَمْتَ فَأَبْكِي

هِيَ الدُّنْيَا كَمِثْلِ الطُّفْلِ بَيْنَا يُقَهِّقُهُ إِذْ بَكَى مِنْ بَعْدِ ضِخْكِ
أَلَا يَا قَوْمَنَا أَنْتَبِهُوا فَإِنَّا نَحَاسِبُ فِي الْقِيَامَةِ دُونَ شَكِّ

أَلَا أَيْنَ أَرْبَابُ الْحَصُونِ ، وَالْمَالِ الْمَصُونِ ؟

أَيْنَ مَنْ مَلَأُوا الْخَزَائِنَ ، وَشَيَّدُوا الْمَدَائِنَ ، وَرَاضُوا الصُّعَابَ ،
وَأَخْضَعُوا الرِّقَابَ ؟

لَقَدْ أَسْرَهُمْ هَازِمُ اللَّذَاتِ ، وَمَفْرُقُ الْجَمَاعَاتِ ، فَأَيَّمُوا^(١)
النِّسْوَانَ ، وَأَيَّمُوا الْوِلْدَانَ ، وَدَخَلُوا فِي خَبَرِ كَانَ [قِيلَ مِنَ الْبَسِيطِ] :

أَمَّا سَمِعْتَ بِأَمْلَاكِ مَضَوْا أَمَّامًا شُمُّ الْأَنْوَفِ بِرَوْضِ الْمُلْكِ قَدْ عَرَّشُوا
إِنْ دُفِعُوا دَفَعُوا أَوْ زُوِّحُوا زَحَمُوا أَوْ غُولِبُوا غَلِبُوا أَوْ بُوْطِشُوا بَطِشُوا
جَاءَتْهُمْ وَجُنُودُ اللَّهِ غَالِبَةٌ كَتَابَتْ لِلْمَنَائِيَا مَا بِهَا دَهْشُ

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ كَثِيرٍ أَوْ غَيْرِهِ [كَمَا فِي «الْبَيَانِ وَالتَّبَيِّنِ» ١/ ٤٧٧ مِنْ
الطُّوِيلِ] :

وَنُحْدِثُ رَوْعَاتٍ لَدَى كُلِّ فَرْعَةٍ وَنُسْرِعُ نِسْيَانًا وَمَا جَاءَنَا أَمْنٌ
كَأَنَّا - وَلَا كُفْرَانًا لِلَّهِ رَبِّنَا - لَكَالْبُذْنِ ، لَا تَذَرِنِي مَتَى يَوْمُهَا الْبُذْنُ

وَقَالَ أَبُو عِبَادَةَ [فِي «دِيَوَانِهِ» ٣/ ١٥٧٤ مِنْ الْكَامِلِ] :

نَلْقَى الْمُنُونُ حَقَائِقًا وَكَأَنَّا مِنْ غِرَّةٍ نَلْقَى بِهِنَّ شُكُوكًا^(٢)

وَفِي سِيَاقٍ لِلِّسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ - مَا مَعْنَاهُ إِنْ أَخْطَأْتُ لَفْظَهُ -

[فِي «نَفْحِ الطَّيْبِ» ٦/ ٣٢٤] : يَا مُشْتَغَلًا بِدَارِهِ ، وَرَمَّ جِدَارِهِ عَنْ إِسْرَاعِهِ
إِلَى النِّجَاةِ وَبِدَارِهِ ، يَا مَنْ أَنْذَرَهُ شَيْبُ عِزَارِهِ ، وَأَثْقَلَهُ حَمْلُ أَوْزَارِهِ ،

(١) الْأَيُّمُ مِنَ النِّسَاءِ : مَنْ لَا زَوْجَ لَهَا ، بَكَرًا كَانَتْ أَمْ ثَيِّبًا .

(٢) الْغِرَّةُ : الْغَفْلَةُ .

يا مُعْتَلِفًا يَنْتَظِرُ هَجُومَ جَزَارِهِ ، يا مُخْتَلِسًا يَهَابُ تَفْتِيشَ مَا تَحْتَ
إِزَارِهِ ، كَأَنِّي بَكَ قَدْ أَوْثَقْتُ الشَّدَّ ، وَجَزَرَ مِنْكَ الْمَدَّ ، وَالْيَمِينَ
تَنْقَبِضُ ، وَالْأُخْرَى تُمَدُّ ، وَاللِّسَانُ يَقُولُ : يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ [مِنْ الْكَامِلِ] :

أَيْنَ الْأَوَّلَى كَتَرُوا الدَّخَائِرَ وَابْتَنَوْا نِلَكَ الْمَصَانِعَ وَالْفُصُورَ الْعَالِيَةَ ؟
دَرَجُوا فَأَصْبَحَتِ الْمَنَازِلُ مِنْهُمْ عُطْلًا وَأَصْبَحَتِ الْمَسَاكِينُ خَالِيَةَ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

مَضَى قَبْلَنَا قَوْمٌ رَجَوْا أَنْ يُقَوْمُوا بِلَا تَعَبٍ عَيْشًا فَلَمْ يَتَّقَوْمَا

وَقَالَ آخَرُ [مِنْ السَّرِيعِ] :

عِشْ مُوسِرًا فِي النَّاسِ أَوْ مُغْسِرًا لَا بُدَّ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَلْغَمِ
وَكُلَّمَا زَادَكَ مِنْ نِعْمَةٍ زَادَ الَّذِي زَادَكَ فِي أَلْهَمِ

وَقَالَ آخَرُ [مِنْ السَّرِيعِ] :

أَفْ مِنْ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا فَإِنَّهَا لِلْهَمِّ مَخْلُوقَةٌ
هُمُومُهَا مَا تَنْقُضِي سَاعَةً عَنْ مَلِكٍ فِيهَا وَلَا سُوقَةً

ويعجبني في الموضوع رثاء أبي البقاء لـ (الأندلس) ، وأبنُ
اللبانة لبني عبّاد ، وأصلهُ شعرُ عديّ بن زيد العبادي ، الذي يقولُ
فيه يونسُ بنُ حبيب النحويّ [في «طبقات فحول الشعراء» ١/١٤١] : لو
تمنّيتُ أَنْ أَقُولَ الشعرَ . . لَمَا تمنّيتُ أَنْ أَقُولَ إِلَّا مِثْلَ قَوْلِ عَدِيِّ بْنِ
زَيْدِ الْعَبَادِيِّ [مِنْ الْخَفِيفِ] :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعَيَّرُ بِالذَّهْرِ بِرِ الْأَنْتِ الْمُبَرِّءِ الْمَوْفُورُ ؟
أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْقَدِيمُ مِنَ الْأَيِّ أَمْ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ

مَنْ رَأَيْتَ الْمُتُونَنَ جَازَتْهُ أَمَ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرٌ^(١) ؟
 أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشَرُ وَأَنْ بَلْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ ؟
 وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكَرَامُ مُلُوكُ الْـ رُومَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ
 وَأَخُو الْحَضَرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَلَهُ تُجَبَّى إِلَيْهِ وَالْحَابُورُ
 شَادَهُ مَزْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلَاسًا فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ^(٢)
 لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ الزَّمَانِ قَبَادَ الْـ مُلُوكِ عَنْهُ قَبَابُهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخَوْرَنْقِ إِذْ أَشْرَفَ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَذَكِيرُ^(٣)
 سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَفَرَهُ مَا يَمْلِكُ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّيْدِيرُ^(٤)
 فَأَزَعَوِي قَلْبُهُ فَقَالَ وَمَا غِبْطَةُ حَيٍّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْقِلَاعِ وَالْمُلُوكِ وَالْإِمَّةِ وَارْتَهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ^(٥)
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَّ فَأَلَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالذَّبُورُ^(٦)
 وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : مَا أَرَى لَنَا وَلِلدُّنْيَا مَثَلًا . . إِلَّا قَوْلَ كَثِيرٍ لَنِي
 « دِيوانه ٦٩٠ مِنَ الطُّوِيلِ » :

أَسِينِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَةً إِنْ تَقَلَّتْ

- (١) الخفير : المجير .
 (٢) المرمز : الرُخَامُ .
 (٣) الخورنق : أسمُ قصرٍ في (العراق) ، فارسيّ مُعَرَّبٌ ، بناءُ النُّعْمَانُ الْأَكْبَرُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : الْأَعُورُ ، وَهُوَ الَّذِي لِبَسَ الْمَسُوحَ ، فَسَاحَ فِي الْأَرْضِ .
 (٤) البحر : يراد به هنا الفرات . السَّيْدِيرُ : نهرٌ به (الحيرة) .
 (٥) الإِئِمَّةُ : الْحَالَةُ .
 (٦) أَلَوْتُ بِهِ : ذَهَبْتُ بِهِ . الصَّبَا : رِيحٌ وَمِهْبُهَا الْمُسْتَوِي أَنْ تَهَبَّ مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِذَا أَسْتَوَى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ . الذَّبُورُ : هِيَ الرِّيحُ الَّتِي تَقَابِلُ الصَّبَا .

وقال أبو العتاهية [في «ديوانه» ٣٧٣ من الخفيف] :

كُلُّنَا يُكْثِرُ الْمَذْمَةَ لِلدُّنَى يَا وَكَلٌ بِحُبِّهَا مَفْتُونٌ

وقال أبو نواس [وهو لسليمان بن يزيد العدوي من قصيدة له شائعة ، كما في «روضة العقلاء» ٢٧٩ من الطويل] :

يَذُمُّونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا تُذَمُّ وَتُحَلَبُ

وقال سابق البربري [في «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» ٣٢٣/١ من البسيط] :

الْكَفْسُ تَكْلَفُ بِالدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ السَّلَامَةَ مِنْهَا تَرَكَ مَا فِيهَا^(١)

وقد سبق في شرح البيت الذي قبل ما نحن فيه قول الناظم [في «العكبري» من الخفيف] :

وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ لَا تَخُفُّ عَهْدًا وَلَا تُتَمِّمُ وَضَلًا

(١) وقبله :

أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمُهَا وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبِيْهَا
وبعدہ :

فَلَا الْإِقَامَةُ تُنْجِي الْكَفْسَ مِنْ تَلَفٍ وَلَا الْفِرَارُ مِنَ الْأَخْدَابِ يُنْجِيهَا
وَكُلُّ نَفْسٍ لَهَا زَوْرٌ يُصَبِّحُهَا مِنَ الْمَنِيَةِ يَوْمًا أَوْ يُمَسِّيَهَا

ومما يناسب الموضوع قول عمران بن حطان :

حَتَّى مَتَى تَسْقِي الْكُفْسَ بِكَاسِهَا رَبُّ الْمُنُونِ وَأَنْتَ لَا تَزْنَعُ
أَفْقَدَ رَضِيَتْ بِأَنْ تُعَلَّلَ بِالْمُنَى وَإِلَى الْمَنِيَةِ كُلَّ يَوْمٍ تُدْفَعُ
أَخْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَطِلَ زَائِلِ إِنَّ اللَّيْلَ بِمَنْلِهَا لَا يُخْدَعُ
فَتَزَوَّدَنَّ لِيَوْمٍ فَفَرَّكَ دَائِبًا وَأَجْمَعَ لِفَرِّكَ لَا لِغَيْرِكَ تَجْمَعُ

وقال [في «المكبري» ٣/ ٣٤ من المتقارب] :

تَفَانَى الرَّجَالُ عَلَى حُبِّهَا وَمَا يَخْصُلُونَ عَلَى طَائِلِ

وقال [في «المكبري» ٣/ ٨ من الوافر] :

وَمَنْ لَمْ يَغْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ١٩ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصَالِ

أَمَّا قَوْلُ النَّازِمِ : (كَتَرُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ) .. فمعناه : أنها لم تبقَ لهم ، ولم تنفعهم ، وإلا .. فلا يزال كثير من دفائن السابقين مطموراً تحت التراب ، باقياً على حاله حتى اليوم ، ولا سيما في البلاد التي لم تطأها أقدام الأجانب ، كالأكثر من ذخائر ملوك حمير في (مأرب) و (الهجر) و (شبوة)^(١) ؛ بدليل ما يظهر من نماذجها كلما جرفت السيول ، وقد قلت في سيني ، أخاطب الديار ، لَمَّا كَثُرَ مَا رَأَيْتُ مِنْ اخْتِلَافِ رِوَاةِ الْأَخْبَارِ [في «ديوان المؤلف» ٢٣٢ من الخفيف] :

تجمع الدنيا بإرادتك
وتركها رغم أنفك

حَدَّثِنَا عَنِ التَّبَاعِ إِذْ كُنْتِ عَلَى عَهْدِهِمْ بِحُلَّةِ عُرْسٍ^(٢)
وَلَمَنْ تُخَيِّسْ مَا أَدَّخَرُوهُ مِنْ كُنُوزِ مُغْطِيَاتِ بَكْبَسٍ^(٣) ؟
وَصِفِي كِنْدَةَ الْمُلُوكِ فَيَا رُبَّ كَرِيمٍ فِيهِمْ وَيَا رُبَّ جَبَسٍ^(٤)
قَادَةُ الْحَرْبِ وَالْكَلَامِ وَلَكِنْ لَا يُبَالُونَ فِي الْمَلَامِ بِغَمْسٍ^(٥)

(١) (مأرب) و (هجر) و (شبوة) : أسماء أماكن في (اليمن) .

(٢) التابع : ملوك (اليمن) - واحدهم تبع - وسئوا كذلك ؛ لأنهم كان يتبع بعضهم بعضاً .

(٣) بكبس : تراب .

(٤) الجبس : اللثيم .

(٥) بغمس : أي بغمس أنفسهم فيما يلام عليه .

وبعدُ : فيها هنا مسألةٌ مِنْ أُمّهاتِ المسائلِ ، لولا ضيقُ الوقتِ ، مسألةٌ أصوليةٌ حول
 وضعفُ المناسبةِ للأبحاثِ الأصوليّةِ . . لكانَ الواجبُ أن نتوسّعَ فيها ^{الدنيا}
 كثيراً ، ولكنّا نطلقُ مِنَ العَنانِ بقدرِ ما تحصلُ بِهِ الفائدةُ ، وينحلُّ مِنْهُ
 الإشكالُ الذي أَشْرنا إِلَيْهِ أوائلَ المجلسِ السادسِ ، وذلكَ أَنَّهُ ما مِنْ
 نبيٍّ ، ولا حكيمٍ ، ولا شاعرٍ ، ولا خطيبٍ . . إلّا ذَمَّ الدنيا ،
 وأشتكى مِنَ تواليِ آفاتِها ، وترادفِ حسراتِها ، وتتابعِ مُوجعاتِها ؛ إذ
 لا لَذَّةَ فيها إلّا مصحوبةٌ بالألمِ ، ولا راحةً إلّا ممزوجةٌ بنكدٍ ، لَمْ
 تَصِفْ لِشقيٍّ ولا تقيٍّ ، ولا مأمورٍ ولا أميرٍ ، ولا غنيٍّ ولا فقيرٍ ،
 ومعَ هذا فدَهَماءُ النَّاسِ ^(١) مصفقونَ على حُبِّها ^(٢) ، والتكالبُ
 عليها ، وَمِنْ ذلكَ نشأَ التخاصُّمُ والتقاطعُ ، فزادَ النكدُ ، وكثُرَ
 التعبُ ، وتشوَّشتِ الحَيَاةُ ، وتكدَّرَ العيشُ ، وتضاعفتِ الكُشُورُ
 والآلامُ ، والقليلُ مِنَ الصُّوفِيَّةِ والفلاسفةِ أطرحوها جملةً ،
 وأعرضوا عَنْها رأساً ، وليسَ هذا في شيءٍ مِنَ الصَّوابِ ؛ إذ لو
 تأثَّرَهُمُ النَّاسُ . . لأفضى إلى الخرابِ ، وأنتهى إلى الانقراضِ ،
 ولكنَّ الذِّكرَ الذي لا يأتِيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يديه ولا مِنْ خلفِهِ . . قامَ
 بحلِّ هذهِ العقدةِ ، وكشَفَ هذا الإشكالَ ، فبيَّنَ في أَكثَرِ الآياتِ
 مذاماً للدنيا وحقارتها ، وقلةَ خطرِها ؛ كبحاً لِجَماعِ الشهوةِ
 المذمومِ ، وغضاً لعنانِ الحِرْصِ الممقوتِ ، ونَبَّةً على أَن لا بُدَّ
 مِنْها ، بَلْ أَلزَمَ القيامَ بعمارتِها ، وأوجَبَ مراعاةَ أسبابِها في مثلِ
 قولِهِ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] . والأصلُ في
 الأمرِ الجازِمِ الوجوبُ .

(١) دُهَمَاءُ النَّاسِ : الجماعةُ مِنْهُمْ .

(٢) مصفقونَ : مجتمعونَ .

وقوله : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وإنما أطنب في الأول ، واكتفى بالإيجاز في الثاني ؛ وكولاً إلى الطبع ، وإحالة على الداعية ، كما رتب الحد على شرب الخمر ، ولم يرتبه على شرب البول ، وهذا كله من بدائع القرآن ، الذي لا تفنى عجائبه ، ولا تطفأ مصابيحُه ، ولا يخمدُ برهانه ، ولا تهدمُ أركانه ، وقد نضوا في المتون على أنَّ الحِرَف والصنائع ، وكلَّ ما يتمُّ به المعاش . . معدود من فروض الكفايات ، والذي أعتمده ابن حجر الهيتمي ، تبعاً لإمام الحرمين ، تفضيلُ فرض الكفاية على فرض العين ، إلا أنَّ في « التحفة » ما نصُّه : (تنبيه : لا يحتاج في هذه - والضميرُ عائِدٌ إلى الحِرَف والصنائع وما يتمُّ به أمرُ المعاش - لأمرِ الناسِ بها ؛ لأنَّ فطرَهم مجبولةٌ عليها ، ولكن لو تمالؤوا على تركِ واحدةٍ منها . . أثموا ، وقوتلوا كما هو قياسُ بقيَّةِ فروضِ الكفاية) . أنتهى .

* * *

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المَتَنِّي فِي «العُكْبَرِيِّ» ٢/ ٣٣٥ مِنْ الكَامِلِ] :

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَبِيئِهِ حَتَّى قَضَى ، فَحَوَاهُ لَخْدُ ضَيْقُ

معناه ظاهرٌ ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِ أَشْجَعَ [فِي «ديوانه» ١٩٩ مِنْ الطُّوِيلِ] : شرح المطلع
وَأَصْبَحَ فِي لَخْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٍ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ الصَّاحِبُ^(١)
وَعَمَّا قَلِيلٍ يَأْتِي مَعَ مَا يَنَاسِبُهُ فِي شَرْحِ قَوْلِهِ [فِي «العُكْبَرِيِّ» ٢/ ٢٤٧ مِنْ
الطُّوِيلِ] :

وَأَنَّكَ فِي ثَوْبٍ وَصَدْرِكَ فِيكُمْمَا [عَلَى أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ الْأَرْضِ أَوْسَعُ]
وَيَتَّصِلُ بِهِ مَا سَبَقَ أَوَائِلَ الْمَجْلِسِ عَنْ ابْنِ الْعَاصِ ، وَعَنِ الْقَاضِي
الْفَاضِلِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ .

وللقاضي أبي يعلى فِي رِثَاءِ مُخْلِصِ الدَّوْلَةِ مَا نَصَّهُ [كَمَا فِي «وفيات
الأعيان» ٥/ ٢٧٢ مِنْ الطُّوِيلِ] :

قَضَى اللَّهُ أَنْ يَزْدَى الْأَمِيرُ وَهَذِهِ صَوَافِنُهُ مَوْقُورَةٌ وَصَوَاهِلُهُ
وَكُلُّ فِتْيَ كَالْبَرْقِ إِبْرِيقُ غَمْدِهِ إِذَا شَامَهُ أَوْ كَالدُّبَالَةِ ذَابِلُهُ
فَلَيْتَ ظَبَاهُ صَلَّتِ الْيَوْمَ خَلْفَهُ فَظَلَّتْ عَلَى غَيْرِ الصِّيَامِ صَوَاهِلُهُ

وهي من قصيدة شاعرة ، أَسْتَوْفَاهَا ابْنُ خَلْكَانَ [فِي «وفيات الأعيان»
٥/ ٢٧٠-٢٧٢] فِي تَرْجُمَةِ مُخْلِصِ الدَّوْلَةِ ، وَأَسْمُهُ مَقْلُدُ بْنُ نَصْرِ بْنِ
مَنْقُذٍ .

(١) الصَّاحِبُ : الْأَرَضِي الْمُسْتَوِيَّةُ .

مَلِكُ الْمَوْتِ وَسِيدِنَا وَيُرْوَى [في «المستطرف» ٥٧٤/٢] : أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ دَخَلَ عَلَى دَاوُودَ
 دَاوُدَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الَّذِي لَا يَهَابُ
 وَالسَّلَامُ الْمُلُوكَ ، وَلَا تَمْنَعُ مِنْهُ الْقُصُورُ ، وَلَا يَقْبَلُ الرُّشَا . قَالَ : إِذَنْ أَنْتَ
 مَلِكُ الْمَوْتِ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَعِدَّ بَعْدُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا دَاوُودُ ، أَيْنَ
 جَارُكَ فَلَانٌ ؟ أَيْنَ قَرِيبُكَ فَلَانٌ ؟ قَالَ : مَاتَا ، قَالَ : أَمَا كَانَ لَكَ
 فِيهِمْ عِبْرَةٌ ؟ ثُمَّ قَبَضَهُ .

وفيه : أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَقْبَضُونَ مَا لَمْ يُخَيَّرُوا ، ففيه إشكالٌ ، وقد
 وَضَحْنَا مَا كَانَ مِنْ نَوْعِهِ فِي صَكَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَلِكِ الْمَوْتِ ،
 مِنْ كِتَابِنَا «بَلَابِلُ التَّغْرِيدِ» .

الْمَلِكُ وَمَلِكُ الْمَوْتِ وَذَكَرَ الْغَزَالِيُّ : أَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ،
 وَرَكِبَ مَعَهُ عَسَاكِرُهُ ، فَفَتَحَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ ، حَتَّى كَادَ أَنْ يَطِيرَ كِبَرًا
 وَتَعَاظَمًا ، وَبَيْنَا هُوَ فِي مَوْكِهِ . . إِذْ أَخَذَ بِلِجَامِهِ رَجُلٌ عَلَيْهِ آثَارُ الْفَقْرِ
 وَالضَّعْفِ ، فَاسْتَشَاطَ غَضَبًا ، وَقَالَ : خُلِّ اللَّجَامُ ، فَقَالَ لَهُ : لَا بَدَّ
 مِنْ مَسَارَتِكَ ، فَانزَعَجَ وَأَنْكَسَرَ ، وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مَلِكُ الْمَوْتِ . .
 اسْتَخَذِي ، وَخَارَتِ قَوَاهُ ، وَأَسْتَمَهَلَهُ فَلَمْ يَمِهَلَهُ ، بَلْ أَخَذَهُ عَلَى
 هَيْئَتِهِ .

لَا تَدْرِي أَيْنَ تَكُونُ وَيُرْوَى [في «المستطرف» ٥٧٤/٢] : أَنَّهُ كَانَ لِحَسَّانَ أَبْنِ ، يَطْعُمُهُ
 الْمَنِيَّةُ الزُّبْدَ بِالْعَسَلِ ، فَشَرَقَ وَمَاتَ ، فَقَالَ [مِنْ الْبَسِيطِ] :

إِعْمَلْ وَأَنْتَ صَحِيحٌ مُطْلَقٌ فَرِحْ مَا دُمْتَ وَيَحْكُ يَا مَغْرُورٌ فِي مَهَلٍ
 يَزْجُو الْحَيَاةَ صَحِيحٌ رَبِّمَا كَمَنْتَ لَهُ الْمَنِيَّةُ بَيْنَ الزُّبْدِ وَالْعَسَلِ

أَبُو دَلْفٍ يَتَزَوَّدُ لِمَوْتِهِ وَيُرْوَى [في «المستطرف» ٥٧٣/٢] : أَنَّ أَبَا دَلْفٍ الْعَجَلِيَّ - الَّذِي سَبَقَ
 ذِكْرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ - قَدِمَ عَلَيْهِ فِي عِلَّتِهِ عَشْرَةٌ مِنْ آلِ عَلِيٍّ ، فَحُجِبُوا مَدَّةً ،

حَتَّى رَأَى رُؤْيَا فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ : نَحْنُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَدْ حَطَّمْنَا الْمَصَائِبُ ، وَأَجَحَفَتْ بِنَا النَوَائِبُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَجْبِرَ كَسِيرًا ، وَتَغْنِي فَقِيرًا . فَأَفْعَلَ ، فَقَالَ لَخَادِمِهِ : أَجْلِسْنِي ، وَأَقْبَلَ يَلْطِفُهُمْ ، وَيَعْتَذِرُ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ : لِيَكْتُبَ كُلُّ مِنْكُمْ بِيَدِهِ أَنَّهُ قَبَضَ مِنِّي أَلْفَ دِينَارٍ ، ثُمَّ أَعْطَاهُمْ ذَلِكَ ، وَحَمَّلَهُمْ ، وَكَسَاهُمْ ، وَزَوَّدَهُمْ ، وَدَفَعَ لِكُلِّ وَاحِدٍ أَلْفَ دِرْهَمٍ ^(١) ؛ حَتَّى يَصِلُوا بِالْدَنَانِيرِ كَامِلَةً إِلَى أَهْلِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ لَخَادِمِهِ : إِذَا أَنَا مِثٌ . . فَأَجْعَلْ هَذِهِ الرِّقَاعَ فِي كَفْنِي ؛ لِأَلْقَى بِهَا مُحَمَّدًا ﷺ .

وَمَعَ هَذَا فَقَدْ رُؤِيَ فِي دَارِ ضَيْقَةٍ مُوحِشَةٍ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا حَالُكَ ؟
فَأَنشَدَ [الآيات فِي « نَفْحِ الطَّيْبِ » ٣٢٦/٦ مِنْ الْوَافِرِ] :

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةً كُلَّ حَيٍّ
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا وَنُسْأَلُ بَعْدَهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ

وَيَذَكُرُ : أَنَّهُ قَدِمَ (الْكُوفَةَ) أَمِيرٌ ، لَمْ يَبْقَ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ إِلَّا تَمُوتَ وَلَا يَفْعَلَ إِلَّا عَمَلُكَ
خَرَجَ لِمُقَابَلَتِهِ ، وَمَشَاهِدَةٍ مُوَكَّبِهِ يَوْمَ دُخُولِهِ ، فَطُعِنَ بَعْدَ أَيَّامٍ ، وَمَعَ
دَفْنِهِ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ لَا رَابِعَ لَهُمْ ، يَحْمِلُونَ جَنَازَةَ فَقِيرٍ ، دَفَنُوهَا عَلَى
مُقَرَّبَةٍ مِنْهُ ، فَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ . . حَتَّى لَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَمِيزُ مَا بَيْنَ
الْقَبْرَيْنِ .

وَزَهَدَ بَعْضُ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ فِيمَا عَلَيْهِمُ وَالِدُهُ ، وَلَزِمَ الْمُقَابِرَ ، فَقِيلَ
لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنَّ لِي زَمَنًا أُرِيدُ أَنْ أَفَرِّقَ بَيْنَ عِظَامِ الْفُقَرَاءِ
وَالْمُلُوكِ فَلَمْ أَقْدِرْ .

(١) إِضَافَةٌ إِلَى الْأَلْفِ دِينَارٍ .

وفي « النهج » [٣٥٨] : وما أصنعُ بِفَدَكٍ^(١) وغيرِ فَدَكٍ ، والنفسُ
مظانُّها في غِدِّ جَدَثٍ ، تنقطعُ في ظلمتِهِ آثارُها ، وتغيبُ أخبارُها ،
وحفرةٌ لو زيدَ في فسحَتِها ، وأوسعتَ يَدًا حافِرُها . . لأضغَطَها
الحَجَرُ والمدَرُ ، وسدَّ فُرَجَها الترابُ المتراكِمُ ، وإنَّما هيَ نفسِي
أروضُها بالتقوى ؛ حتَّى تأتيَ آمَنَةٌ يومَ الفَرعِ الأكبرِ ، أو ما يقربُ مِن
هَذَا .

* * *

(١) فَدَكٌ : اسم مكان قريب من خيبر ، تركه ﷺ ولم يقسمه أبو بكر بين ورثته ،
وأبلغهم قوله ﷺ : « لا نورث ما تركناه صدقة » و« نحن معاشر الأنبياء
لا نورث ما تركناه صدقة » رواه بالفاظ متعددة عدد من الصحابة . انظر البخاري
(٤٠٣٣) و(٥٦٥٨) و(٦٧٢٨) و« الإحسان » (٦٦٠٧) و(٦٦٠٨) و
(٦٦٠٩) وإلى (٦٦١٢) .

[قال أبو الطيّب المتنبّي في « العُكْبَرِيّ » ٢ / ٣٣٥ مِنْ الْكَامِلِ] :

خُرْسٌ إِذَا تُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقٌ

معناه ظاهرٌ ، والغالب أنَّ الأخرسَ لا يكونُ إِلَّا أَصَمَّ ، ولكنَّ الميتَ بخلافِ ذلكَ ، ففي « الصحيح » : أَنَّهُ ﷺ قامَ على قَتْلِ قريشٍ في القليبِ يناديهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فقالَ لَهُ عمرُ : ما تخاطبُ مِنْ أَقْوَامٍ قد جَيَّفُوا ، قَالَ : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْجَوَابَ »^(١) .

وقالَ ابنُ عبدِ البرِّ : ثبتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُرُّ عَلَى قَبْرِ أَخِيهِ ، كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ . . وَلَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ »^(٢) .

وثبتَ عنه : أَنَّ الميتَ يسمَعُ قرعَ نعالِ المشيعينَ إِذَا أنصَرَفُوا عنه^(٣) .

(١) أخرجه عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه البخاري (٣٩٧٦) في المغازي ، ومسلم (٢٨٧٥) في الجنة . وعن أنس رضي الله عنه عند مسلم (٢٨٧٣) و(٢٨٧٤) .

(٢) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما في « التمهيد » ، والشوكاني في « نيل الأوطار » (٢/٣) ، ونحوه في « كثر العمال » عن أبي هريرة رضي الله عنه (٤٢٦٠١) و(٤٢٦٠٢) وعزاه إلى أبي الشيخ والديلمي وتمام والخطيب وابن عساكر وابن النجار .

(٣) وذلك في الحديث الذي أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (١٢٧٣) في الجنائز ، ونحوه : مسلم (٢٨٧٠) في الجنة قال : « أَلْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ =

وقال : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أَخِيهِ ، وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ .. إِلَّا اسْتَأْنَسَ بِهِ حَتَّى يَقُومَ » ^(١) .

وفي المسألة الأولى مِنْ كتابِ « الروح » للعلامة ابن القيم .. ما لا يُحصى مِنْ ذَلِكَ ، وشيءٌ مِنْ ذَلِكَ لا يعارضُ أمثالَ قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتِ وَلَا تُسْمِعُ الذُّعَلَاءَ ﴾ [النمل : ٨٠] ؛ لأنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ أَنَّ أمواتِ القلوبِ لا يسمعونَ سماعَ الاهتداءِ ، ولا ينتفعونَ بالتذكيرِ .

وقد رويَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : أَنَّهُ لَمَّا دَفِنَ وَلَدُهُ إِبْرَاهِيمَ .. وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ وَقَالَ : « يَا بَنِيَّ ، الْقَلْبُ يَخْزَنُ ، وَالْعَيْنُ تَذْمَعُ ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ ، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، يَا بَنِيَّ : قُلْ : اللَّهُ رَبِّي ، وَالْإِسْلَامُ دِينِي ، وَرَسُولُ اللَّهِ أَبِي » ^(٢) ، فبَكَتِ الصَّحَابَةُ ، وبَكَى عمرُ بْنُ الْخَطَّابِ بكاءً أَرْفَعَ لَهُ صَوْتُهُ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « مَا يَبْكُكَ يَا عَمْرُؤُ ؟ » فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا وَلَدُكَ ، وَمَا بَلَغَ الْحُلُمَ ، وَلَا جَرَى عَلَيْهِ الْقَلَمُ ، فَمَا حَالُ مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ مَلَقٌ مِثْلَكَ يَلْقَاهُ التَّوْحِيدُ ؟ فَتَزَلَّ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

= وَتَوَلَّى وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ .. أَنَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، فَيَقَالُ : انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ .

(١) أورده عن عائشة رضي الله عنها العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٤٧٥/٤) : أخرجه ابن أبي الدنيا في « القبور » وقال : فيه عبد الله بن سمعان لم أقف على حاله .

(٢) أخرج عن أنس رضي الله عنه نحوه البخاري (١٣٠٣) .

وفيه دليلٌ على سؤَالِ الصبيانِ ، وهو أحدُ قولينِ ، اختارَ النوويُّ في « الروضة » و « شرح المَهْدَبِ » الثاني .

وعبارةُ « التحفة » لابن حجرٍ : ويستحبُّ تلقينُ بالغٍ عاقلٍ ، أو مجنونٍ سبقَ له تكليفٌ ، ولو شهيداً ، كما اقتضاء إطلاقهم بعدَ تمامِ الدفنِ ؛ لخبرٍ فيه ، وضعفه اعتضدَ بشواهدَ على أَنَّهُ مِنْ أَلْفَضَائِلِ^(١) ، فاندفعَ قولُ ابنِ عبدِ السلامِ : إِنَّهُ بدعةٌ . انتهى .

وذكرَ ابنُ خَلْكَانَ [« وفياتُ الأعيانِ » ٣٧/٥] وغيرُهُ : أَنَّهُ اجتمعَ نفرٌ قبرِ المعتمدِ بنِ عبادٍ ، منَ الشعراءِ الذينَ كانوا يقصدونهُ بالمدائحِ ، فيجزلُ لهمُ المَنائِحُ ، فرثوهُ بقصائدٍ أنشدوها عندَ قبرِهِ ، من أحسنها قولُ بعضهم [وهو أبو بحرٍ عبدُ الصمدِ مِنَ الكاملِ] :

مَلِكُ الْمُلُوكِ أَسَامِعُ فَأُنَادِي أَمْ قَدْ عَدْتَكِ عَنِ السَّمَاعِ عَوَادِي ؟
لَمَّا نُقِلْتَ عَنِ الْقُصُورِ وَلَمْ تَكُنْ فِيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي الْأَعْيَادِ
أَقْبَلْتُ نَحْوَكَ فِي الثَّرَى لَكَ خَاضِعَا وَجَعَلْتُ قَبْرَكَ قِبْلَةً لِلْإِنْشَادِ
ولمَّا فرغَ من إنشادِها.. قَبَّلَ الثرى ، ومرَّغَ جسمَهُ ، وعَفَّرَ خَدَّهُ ، وبكى وأبكى مَنْ حضرَ ، والشاهدُ في قولِهِ : (أَسَامِعُ فَأُنَادِي) .

(١) أخرجه عن أبي أمامة رضي الله عنه الطبراني في « الدعاء » (١٢١٤) وفي « الكبير » (٢٩٨ / ٨) وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٤٥ / ٣) وقال : في إسناده جماعة لم أعرفهم ، وقال ابن القيم : لا يصح رفعه ، وقال النواوي في « الأذكار » (ص / ٢٧٤) : ليس بالقائم إسناده ، ثم قال : ولكن اعتضد بشواهد ويعمل أهل الشام به قديماً .

وَأَمَّا قَوْلُ النَّازِمِ : (مُطْلَقٌ) . . فَقَالَ قَوْمٌ إِنَّهُ حَشَوُ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ إِلَّا اجْتِلَابُ الْقَافِيَةِ ، عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ تَتَأَوَّلَ لَهُ بِمَا لَيْسَ فِي حِسَابِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَلَامَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَوْ قَدَرُوا عَلَيْهِ . . لَكَانَ حَلَالًا مُطْلَقًا ؛ لَارْتِفَاعِ التَّكْلِيفِ ، فَلَا حَرَمَةَ فِيهِ إِذَنْ قَطُّ ، بِخِلَافِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ . . فَإِنَّ مِنْهُ الْحَلَالَ ، وَمِنْهُ الْحَرَامُ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ لَا تَكْلِيفَ فِي الْبَرْزَخِ ، وَهُوَ مَا يَشْمَلُهُ إِطْلَاقُهُمْ .

وَزَعَمَ الْعَلَامَةُ أَبُو الْقَيْمِ أَنَّ الْبَرْزَخَ دَارُ تَكْلِيفٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَتَرَفَعُ بِالْمَوْتِ ، وَلَوْ أُرْتَفَعَ . . لَمْ يَكُنْ لِلسُّؤَالِ حَاجَةً ، وَقَدْ يَجَابُ عَنْهُ : بِأَنَّ حِكْمَةَ السُّؤَالِ أَنْ يَظْهَرَ بَعْدَ الْمَوْتِ عُنَاؤُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ فِي أَيَّامِ الْحَيَاةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ شَأْنُهُ أَجْرَى أَمْرِ الْعِبَادِ عَلَى الْمُتَعَارَفِ بَيْنَهُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا ، وَإِلَّا . . فَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى الْمَحَاسَبَةِ وَالْمِرَاقَبَةِ ، وَوِزْنِ الْأَعْمَالِ وَالصَّحَائِفِ ؟ مَعَ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ : ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [آل عمران : ٥-٦] .

وَيُمْكِنُ الْجَوَابُ - أَيْضًا - عَمَّا وَرَدَ مِنْ عِبَادَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَصَلَاةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي قُبُورِهِمْ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . . بِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ التَّكْلِيفُ ؛ لظُهُورِ أَنَّهُ مَجْرَدُ تَعَبُّدٍ ، أَوْ خَالِصُ تَلَذُّذٍ ؛ بِدَلِيلِ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ [في الجنة وصفة نعيمها] (٢٨٣٥) : أَنَّهُمْ « يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفْسَ » وَقَوْلِ الْفُقَهَاءِ : أَنَّ سَجُودَ نَبِيِّنَا ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . كَانَ بِطَهَارَةِ غَسْلِ الْمَوْتِ . . لَا يَلْزَمُهُ الْقَوْلُ بِالتَّكْلِيفِ ؛ لِأَنَّا إِنَّمَا نَمْنَعُ مِنْهُ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْعِقَابُ .

وَالْأَسْلَمُ : تَفْوِيضُ الْعِلْمِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ ، مَا لَمْ يَرِدِ النَّصُّ الصَّرِيحُ ، وَقَدْ اسْتَشْكَلَ أَبُو الْفَاكَهَانِيُّ الْمَالَكِيُّ حَدِيثَ التِّرْمِذِيِّ :

« مَا مِنْ أَحَدٍ سَلَّمَ عَلَيَّ . . إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ »^(١) ، مع استحالة خلو الوجود من مسلم عليه في ليل أو نهار ، وعدم السَّامة مع ديمومة حياته . ثمَّ أجاب : بأنَّ الروحَ مَجَارٌ عَنِ النُّطْقِ ، وَأَسْتَبَعْدَهُ الْإِمَامُ السِّيُوطِيُّ ، وَقَالَ : إِنَّهُ مَدْفُوعٌ بِالنُّقْلِ وَالْعَقْلِ .

أَمَّا النُّقْلُ : فَلَاخْبَارُ الْوَارِدَةُ عَنْ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْبَرْزَخِ مَصْرُحَةً بِأَنَّهُمْ يَنْطَقُونَ ، كَيْفَ شَاؤُوا ، بَلْ وَالشَّهَدَاءُ وَسَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ ، إِلَّا مَنْ مَاتَ مِنْ غَيْرِ وَصِيَّةٍ ، فَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ فِي كِتَابِ (الْوَصَايَا) : « مَنْ لَمْ يُوصَ . . لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي الْكَلَامِ مَعَ الْمَوْتَى » ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَهَلْ تَتَكَلَّمُ الْمَوْتَى ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، وَيَتَرَاوَرُونَ »^(٢) .

وَأَمَّا الْعَقْلُ : فَلَأَنَّ الْحَبْسَ عَنِ النُّطْقِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ نَوْعٌ حَصْرٍ وَتَعْذِيبٍ ، وَلِهَذَا عُذِّبَ بِهِ تَارِكُ الْوَصِيَّةِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مُنْزَعٌ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَلْحَقُهُ حَصْرٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ أَصْلًا بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَأَجَابَ عَنِ الْحَدِيثِ بِأَجْوَبَةٍ كَثِيرَةٍ ، أَقْوَاهَا عِنْدَهُ : أَنَّ الْمَعْنَى مَا مِنْ أَحَدٍ سَلَّمَ عَلَيَّ . . إِلَّا قَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي قَبْلَ ذَلِكَ فَأَرَدَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا جَاءَ الْإِشْكَالُ مِنْ ظَنٍّ أَنَّ جُمْلَةَ (رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ) بِمَعْنَى الْحَالِ أَوْ الْإِسْتِقْبَالِ ، وَظَنٍّ أَنَّ (حَتَّى) تَعْلِيلِيَّةٌ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وَبِهَذَا يَنْدَفِعُ

(١) بل أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أبو داود (٢٠٤١) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٤٥/٥) قال عنه النواوي في «المجموع» (٢٠٠/٨) :
رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(٢) أورده عن قيس بن وابصة رضي الله عنه الهندي في «كتر العمال» (٤٦٠٨٠) و(٤٦٠٨٦) وعزاه إلى أبي الشيخ في «الوصايا» .

مِنْ أَصْلِهِ الْإِشْكَالُ ، وَيتَأَكَّدُ هذا بورود الحديثِ عندَ البيهقيِّ في كتابِ « حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ » [ص/١٣] بلفظِ : « إِلَّا وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي »^(١) فَصَرَّحَ فِيهِ بلفظِ : « وَقَدْ » ، فَحَمَدْتُ اللَّهَ كَثِيرًا . أَنتَهَى كَلَامُهُ بلفظٍ وَأختصارٍ .

الموت... آه من الموت كم فعل الأعاجيب
وبعدُ : فطالَمَا أحرستِ أَلْمَنَايا مِنْ فصيحِ لسانٍ ، وأميرِ بيانٍ ، وغزيرِ بدائعٍ ، وكثيرِ روائعٍ [مِنَ البسيطِ] :

وَذِي بَيَانٍ إِذَا مَا قَالَ أَوْ خَطَبَا يَأْتِي بِسِخْرِ يَزِينُ الْقَوْلَ وَالْأَدْبَا
يَأْتِي بِسَهْلٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ مُنْتَبِعٍ جَزَلٍ يُصِيبُ أَلْمَعَانِي آيَةً عَجَبَا
رَمَتْهُ هَلْذِي أَلْمَنَايا وَهِيَ صَائِبَةٌ سَهْمًا فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَتْ فَكَبَا

(١) قال محققه محمد بن محمد الخانجي البوسنوي : حديث أبي هريرة أخرجه أحمد وأبو داود والمصنف في كتابه « شعب الإيمان » وكتابه « الدعوات الكبير » وفي الحديث إشكال : وهو أن ظاهرة مفارقة روح النبي ﷺ لبدنه الشريف في بعض الأوقات وهو مخالف للأحاديث الدالة على حياة الأنبياء ، وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة فأجاب السيوطي في كتابه « إنباء الأذكياء » بخمسة عشر جواباً يراجعها من شاء . ومال البيهقي إلى أن قوله ﷺ « رَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ رُوحِي » جملة حالية يقدر فيها قد وقاعدة العربية : أن جملة الحال إذا وقعت فعلاً ماضياً قدرت فيها قد كقوله تعالى : ﴿ جَاءَكُمْ وَكُنْتُمْ حَاصِرَتٌ صُدُّوهُمْ ﴾ أي : وقد حصرت ، ويبقى الإشكال في حتى لأن الظاهر أنها للتعليل ، فأجاب السيوطي أنها لمجرد العطف فصار تقدير الحديث : ما من أحد يسلم علي إلا قد رَدَّ اللَّهُ علي رُوحِي قبل ذلك ، وأرد عليه ، وأجاب الشهاب الخفاجي بأن الأنبياء والشهداء أحياء ، وحياة الأنبياء أقوى ، وإذا لم يسلم عليهم الأرض فهم كالتائمين ، والتائم لا يسمع ولا ينطق حتى يتنبه ؛ لحديث : أنه ﷺ إذا صلى عليه يستيقظ من النوم ، فالمراد برد الروح الإرسال الذي في قوله تعالى : ﴿ وَرَبِّمِلْ الْأَمُوتِ ﴾ الآية ، لأن روحه ﷺ تقبض قبض الممات ثم تنفخ وتعاد كموت الدنيا وحياتها . اهـ .

فَأَخْرَسَتْهُ فَمَا يُنِدِّي بِضَاحِكَةٍ وَلَا يَرُدُّ جَوَابًا هَانَ أَوْ صَعْبًا
 فَاَلْمُوتُ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، وَخَطْبٌ جَسِيمٌ ، وَشَيْءٌ مَهُولٌ ، لَوْلَا
 كَثْرَةُ الْأَعْرَاضِ وَالذُّهُولُ ، وَلِئِنْ سَكَتَ الْمَيْتُ بِجَوَارِحِهِ . . فَقَدْ
 نَطَقَ حَالُهُ بِعَظِيمِ جَوَائِحِهِ ، فَقَدْ جَاءَ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ
 مَا طُعِنَ [كما في « نهج البلاغة » ١٦٨-١٦٩] : إِنَّمَا كُنْتُ لَكُمْ جَارًا ،
 جَاوَرَكُمْ بِدَنِي أَيْامًا ، وَسُتُعْقَبُونَ مِنِّي جَنَّةَ خِلَاءَ ، سَاكِنَةً بَعْدَ
 حِرَاكِ ، صَامِتَةً بَعْدَ نَطَوِي ، فَلْيَعْظَلْكُمْ هُدُوءِي ، وَسَكُونُ أَطْرَافِي ،
 وَخَفَوْتُ إِطْرَاقِي ؛ فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمُنْطَقِ الْبَلِيغِ ،
 وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ ، وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ أَمْرِيءِ مُرْصِدٍ لِلثَّلَاقِي ، غَدَاً
 تَرَوْنَ أَيْامِي ، وَيَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ سِرَائِرِي ، وَتَعْرِفُونِي إِذَا خَلَا
 مَكَانِي ، وَقَامَ غَيْرِي مَقَامِي .

وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ ، فِيمَا يَنَاسِبُ شَيْءٍ كَلَامِ الْإِمَامِ الْأَوَّلِ ، يَرْتِي
 عَلِيٌّ بْنُ ثَابِتٍ [في « ديوانه » ٤٤٢ مِنْ الْوَافِرِ] :

بَكَيْتُكَ يَا أَخِي بَدَمْعٍ عَيْنِي فَلَمْ يُغْنِ الْبَكَاءُ عَلَيْكَ شَيْئًا
 طَوْنُكَ خُطُوبُ دَهْرِكَ بَعْدَ نَشْرِ كَذَلِكَ خُطُوبُهُ نَشْرًا وَطَيًّا
 وَلَوْ نَشَرْتُ قُورَاكَ لِي الْمَنَآيَا شَكَوْتُ إِلَيْكَ مَا صَنَعْتُ إِلَّا
 وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

وَلِي فِي الْمَعْنَى [في « ديوان المؤلف » ١١٦ مِنْ الطُّوَيْلِ] :

أَغْرَكَ مِنْ هَذِي الْقُبُورِ صُمُوتُهَا وَأَبْلَغُ وَغَظٍ لَوْ عَلِمْتَ سُكُوتُهَا
 تَقُوتُكَ هَذِي الْأَرْضُ مِنْ فَضْلِ قُوَّتِهَا لِأَنَّكَ مَهْمَا طَالَ عُمرُكَ قُوتُهَا

وَتَعَلَّقَ بِآخِرِ كَلَامِ الْإِمَامِ ، أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ [في « ديوانه » ٢٨٤/٢ مِنْ

السَّرِيعِ] :

رَاحَتْ وَفُودُ الْأَرْضِ عَنْ قَبْرِهِ فَارِغَةَ الْأَيْدِي مِلَاءَ الْقُلُوبِ
قَدْ عَلِمْتَ مَا رَزَيْتَ إِنَّمَا يُعْرِفُ قَدْرُ الشَّمْسِ بَعْدَ الْغُرُوبِ

والناظم في قوله [في «المكبري» ٢٢/١ من الكامل] :

وَنَذَّهْنُهمُ وَبِهِمُ عَرَفْنَا فَضْلَهُمُ وَبِضِدِّهَا تَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ

وأبو فراس في قوله [في «ديوانه» ١٤٥ من الطويل] :

سَيَفْقِدُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلَمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ

والمعري في قوله [في «سقط الزند» ٧١ من السريع] :

وَالْشَّيْءُ لَا يُعْرِفُ مِقْدَارَهُ إِلَّا إِذَا قَنِسَ إِلَى ضِدِّهِ

ويعجبني في سكوت الأموات ، وأنقطاع أخبارهم .. قول

التهامي [في «ديوانه» ٤٦٨ من الكامل] :

وَالشَّرْقُ نَحْوَ الْغَرْبِ أَقْرَبُ شُقَّةً مِنْ بَعْدِ هَذِي الْخُمْسَةِ الْأَشْبَارِ^(١)

وقول المعري [في «سقط الزند» ٦٠ من الطويل] :

إِذَا غُيِبَ الْمَرْءُ اسْتَسَرَّ حَدِيثُهُ وَلَمْ تُخْبِرِ الْأَفْكَارُ عَنْهُ بِمَا يُغْنِي

تَضِلُّ الْعُقُولُ الْهَبْزَرِيَّاتُ رُشْدَهَا وَلَمْ يَسْلَمْ الرَّأْيُ السَّيِّدِيُّ مِنَ الْأَفَنِ^(٢)

وهو مما قد ذكرناه عن قيس ، أو عن المجنون ، في قوله [من

الطويل] :

دَنْتُ بِأَنَاسٍ عَنْ تَنَاءٍ زِيَارَةً وَشَطَطٍ بِلَيْلَى عَنْ دُنُوٍّ مَزَارَهَا

(١) الشُّقَّةُ - بالضم والفتح - : الناحية يقصدها المسافر .

(٢) الهَبْزَرِيَّاتُ : العقول القويَّة المحكَّمة ، جمعُ هَبْزِيٍّ ، وهو : الرجل القوي .

الْأَفَنُ : ضعفُ الرأي ، والمأفون الذي لا عقل له .

وَأَنَّ مُقِيمَاتِ بِمُنْقَطِعِ اللَّوَى لِأَقْرَبُ مِنْ لَيْلَى وَهَاتَيْنِكَ دَارُهَا

وقلتُ في بعضِ المراثي [في «ديوان المؤلف» ق ٧٠ من الكامل] :

سَفَرٌ عَلَى قُرْبِ الْمَسَافَةِ مَا لَهُ خَبَرٌ وَلَكِنَّ الشُّكُوتَ كَلَامٌ

ويؤثرُ عنِ أبْنِ الخطَّابِ - أو عنِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ - كلامٌ طويلٌ
عَمَّا يَقُولُهُ المَيِّتُ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ دَفْنِهِ ، يُطِيشُ العقولَ ، ويزعجُ
القلوبَ .

وما أحسنَ قولَ صلَّةِ بنِ أَشِيَمَ لِأَخِيهِ وقد دَفَنَهُ [كما في «جمهرة خطب

العرب» ٤٩٩/٢ من الطويل] :

فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجُّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيَا

وقولَ الآخرِ [كما في «نفع الطيب» ٢٥٩/٤ من الرَّمَلِ] :

كَمْ أَنَاسٍ فِي نَعِيمٍ عُمُرُوا فِي ذُرَى مُلْكٍ تَعَالَى وَسَبَقُوا
سَكَتَ الدَّهْرِ زَمَانًا عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَطَقُوا

* * *

[قال أبو الطيّب المتنبي في «العكبري» ٣٣٦/٢ من الكامل] :

وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ وَلِمَنِي مُسَوِّدَةٌ وَلِمَاءٌ وَجْهِي رَوْنَقُ

شرح المطلع والكلام
على المتنبي

يقول : إِنَّهُ يَبْكِي عَلَى شَبَابِهِ فِي حِينِ وَجُودِهِ ؛ خَشْيَةً مَا يَتَوَقَّعُهُ
مِنْ فِرَاقِهِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي « دِيَوَانِهِ » الْأَسْفُ عَلَى الشَّبَابِ ، مَعَ زَعْمِهِ
أَنَّهُ كَانَ يَتَمَنَّاهُ ، بِشَهَادَةِ قَوْلِهِ [في «العكبري» ١٨٨/١-١٩٠ مِنْ الطَّوِيلِ] :

مُنَى كُنْ لِي أَنَّ الْبَيَاضَ خِضَابُ فَيَخْفَى بِتَبَيُّضِ الْقُرُونِ شَبَابُ
لَيْسَالِي عِنْدَ الْبَيْضِ فَوْدَايَ فِتْنَةٌ وَفَخْرٌ وَذَاكَ الْفَخْرُ عِنْدِي عَابٌ (١)
فَكَيْفَ أَذُمُّ الْيَوْمَ مَا كُنْتُ أَشْتَهِي وَأَدْعُو بِمَا أَشْكُوهُ حِينَ أُجَابُ ؟
جَلَا اللَّوْنُ عَنْ لَوْنِ هَدَى كُلِّ مَسْلَكٍ كَمَا أَنْجَابَ عَنْ لَوْنِ النَّهَارِ ضَبَابٌ (٢)

غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْكُرُ مَعَ مَا نَقَرُّهُ كُلَّ حِينٍ مِنْ تَنَاقُضِهِ ، وَتَقَلُّبِ
أَطْوَارِهِ ، فَهُوَ تَارَةً يَغَايِرُ النَّاسَ بِمَثَلٍ مَا سَمِعْتَ مِنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ ،
وَأُخْرَى يُوَافِقُهُمْ فَيَقُولُ [في «العكبري» ٣٤٤/٤ مِنْ الْبَسِيطِ] :

ضَبِيفُ أَلَمٍ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمٍ [وَالسَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلًا مِنْهُ بِاللَّمَمِ]
[إِنْعَذَ بَعْدَتْ بَيَاضًا لَا بَيَاضَ لَهُ] لِأَنْتَ أَسْوَدُ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ

وَيَقُولُ [في «العكبري» ١٣٠/٣ مِنْ الْخَفِيفِ] :

آلَةُ الْعَيْنِشِ صِحَّةٌ وَشَبَابُ فَيَاذَا وَلِيًّا عَنِ الْمَرْءِ وَلِيٍّ

(١) القودان : جانبا الرأس يميناً وشمالاً .

(٢) أنجاب : أنكشف .

ويقول [في «المكبري» ٧٧/٣ من البسيط] :

وَقَدْ أَرَانِي شَبَابِي الرُّوحَ فِي بَدَنِي وَقَدْ أَرَانِي مَشْيِي الرُّوحَ فِي بَدَلِي

ويقول [في «المكبري» ١٧٠/١ من البسيط] :

لَيْتَ الْحَوَادِثَ أَعْطَيْتَنِي الَّذِي أَخَذْتُ مِنْنِي بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطْتُ وَتَجَرَّبِي

ويقول [في «المكبري» ٣٥٦/١ من الوافر] :

مَتَى لَحَظْتُ بَيَاضَ الشَّيْبِ مِنْنِي فَقَدْ وَجَدْتُهُ مِنْهَا فِي السَّوَادِ
وَالْآخِرُ مِنْ قَوْلِ أَبِي دُلْفِ الْعَجَلِيّ [في «الأغاني» ٢٥٧/٨ من البسيط] : الكلام على الشيب

فِي كُلِّ يَوْمٍ أَرَى بَيَضاءَ قَدْ طَلَعَتْ كَأَنَّمَا طَلَعَتْ فِي نَاطِرِ الْبَصَرِ

ونظر إليه البحتري في قوله [في «ديوانه» ١٥٠٥/٣ من الطويل] :

وَدِدْتُ بَيَاضَ السَّيْفِ يَوْمَ لَقَيْتَنِي مَكَانَ بَيَاضِ الشَّيْبِ لَاحَ بِمُفْرِقِي

وقال أبو تمام [من الخفيف] :

إِنَّ قُبْحَ الْبَيَاضِ فِي شَعْرِ الرَّأْسِ سِ كَقُبْحِ الْبَيَاضِ فِي الْأَحْدَاقِ

فأخذه التهامي وقال [في «ديوانه» ١٧٨ من البسيط] :

سَوَادُ رَأْسِكَ عِنْدَ الْهَائِمَاتِ بِهِ مُعَادِلُ لِسَوَادِ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ

وقال أيضاً [في «ديوانه» ٣٣٣-٣٣٤ من البسيط] :

عَبَسَنَ مِنْ شَعْرِ فِي الرَّأْسِ مُرْتَسِمٌ لَا يُنْفِرُ الْبَيْضَ مِثْلُ الْبَيْضِ فِي اللَّمَمِ^(١)
ظَلَّتْ شَيْبَتُهُ تَبْقَى وَمَا عَلِمْتُ أَنَّ الشَّيْبَةَ مَرْقَاةٌ إِلَى الْهَرَمِ^(٢)

(١) عَبَسَنَ : أنقبضت وجوههن . اللَّمَمُ : - جمع لَمَّةٌ - : وهو الشعرُ المجاورُ

شحمة الأذن .

(٢) المرقاة : الشَّلْمُ .

وَكَلَّمَا أُعْتَاضَ رَأْسِي غَيْرَ صِبْنَتِهِ فَالْشَّبُّ فِي الرَّأْسِ دُونَ الشَّبِّ فِي الشَّبِّمِ
مَا خَانَ عَزَمِي وَلَا حَزَمِي وَلَا خُلُقِي وَلَا وَفَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرَمِي

والأخيران ينظران إلى قول الناظم [في «المكبري» ١٩٠/١ من الطويل] :

وَفِي الْجَنَمِ نَفْسٌ لَا تَشِبُّ بِشَبِّهِ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْوَجْهِ مِنْهُ حِرَابٌ
لَهَا ظَفَرٌ إِنْ كُلَّ ظَفَرٍ أَعْدَهُ وَنَابٌ إِذَا لَمْ يَبْقَ فِي الْقَمِ نَابٌ
يُغَيِّرُ مِنِّي الدَّهْرُ مَا شَاءَ غَيْرَهَا وَأَبْلُغُ أَقْصَى الْعُمُرِ وَهِيَ كَعَابٌ^(١)

والأصل قول غيلان بن سلمة الثقفي - رضي الله عنه - [كما في

«الأغاني» ٤١٧/٥ من الكامل] :

لَمْ يَتَقَصَّ مِنِّي الْمَشَبُّ قَلَامَةً الْآنَ حِينَ بَدَا أَلْبٌ وَأَكْسُ
وَالشَّبُّ إِنْ يَخْلُلُ فَإِنَّ وَرَاءَهُ عُمْرًا يَكُونُ خِلَالَهُ مُتَنَقِّسُ

وقول الحارث بن السليك الأزدي [في «مجمع الأمثال» ١٢٣/١ من

البيط] :

وَعَيَّرْتُ أَنْ رَأَيْتَنِي لِإِسَاءٍ كَبْرًا وَغَايَةُ النَّفْسِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْكَبَرِ
فَإِنْ بَقِيتَ رَأَيْتَ الشَّبَّ رَاغِمَةً وَفِي التَّفَرُّقِ مَا يَقْضِي مِنَ الْغَيْرِ
وَإِنْ يَكُنْ قَدْ عَلَا رَأْسِي وَغَيْرُهُ صَرَفُ الزَّمَانِ وَتَغْيِيرُ مِنَ الشَّعْرِ
فَقَدْ أَرُوحُ لِلذَّاتِ الْفَتَى جَدَلًا وَهَمَّتِي لَمْ تَشِبْ فَاسْتَخْبِرْنِي أَثَرِي

ولهذه الأبيات حديثٌ ظريفٌ ، يغلبُ على ظني أنه في (ثكلتك
أمك ، قد تجوع الحرّة ولا تأكلُ بثدييها)^(٢) من «أمثال الميداني»

[١٢٣/١] .

(١) الكعاب - بالفتح - : الجارية حين يبدو الثدي لها للنهود .

(٢) القصة قد ذكرناها فيما مضى تعليقاً .

قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ [مِنْ مُخْلَعِ الْبَسِيطِ] :

قَالَتْ وَقَدْ رَاعَهَا مَشِينِي : كُنْتُ ابْنٌ عَمٌ فَصِرْتَ عَمًّا
وَأَسْتَهْزَأْتُ بِي فَقُلْتُ أَيْضًا : قَدْ كُنْتُ بَشًّا فَصِرْتَ أُمًّا
كُفِّي وَلَا تُكْثِرْ بِي مَلَامِي وَلَا تَزِيدْ بِي الْعَلِيلَ سُقْمًا
مَنْ شَابَ أَبْصَرَنَاهُ الْغَوَانِي بَعَيْنٍ مَنْ قَدْ عَمِيَ وَصَمًّا
لَوْ قِيلَ لِي : اخْتَرْ عَمِي وَشَيْبًا أَتَاهُمَا شَيْتٌ لَقُلْتُ : أَعْمَى

نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ ؛ فَلَقَدْ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا لَنْ يَسْلَمَ مِنْ سُوءِ
مَغْبِئَتِهِ ، كَمَا لَمْ يَنْجُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ نَتِيجَةِ قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ
رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وقد ذكرناه في غير هذا المجلس ، ولئن سلم هذا الشاعر . .
فلا لكرامة على الله ؛ ولكنَّهُ الاستدراجُ ، والتأجيلُ إلى اليوم الذي
يشتدُّ فيه الجزاءُ على مَنْ أَسَاءَ الْأَدَبَ ، وَأَوَّلُ آيَاتِهِ نَاطِرٌ إِلَى قَوْلِ
الْأَخْطَلِ [فِي « دِيوانه » ٣٨٦ مِنْ الْكَامِلِ] :

وَإِذَا دَعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فَإِنَّهُ نَسَبُ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ خَبَالًا
وَإِذَا دَعَوْنَكَ يَا أَخِي فَإِنَّهُ أَذْنَى وَأَقْرَبُ خُلَّةً وَوَصَالًا

وهو من قول النمر بن تولب - رحمه الله عليه - [فِي « دِيوانه » ٨٨ مِنْ
الطَوِيلِ] :

دَعَانِي الْغَوَانِي عَمَّهُنَّ وَخِلَّتْنِي لِي أَسْمُ فَمَا أَدْعَى بِهِ وَهُوَ أَوَّلُ

وقال ابنُ زهير الأندلسي [فِي « نَفْعِ الطَّيِّبِ » ٧٢٩/٢ مِنْ الْبَسِيطِ] :

كَانَتْ سُلَيْمَى تُنَادِي يَا أَخِي وَقَدْ أَضَحَّتْ سُلَيْمَى تُنَادِي الْيَوْمَ يَا أَبْنَا

وقد غايرت في ذلك أم الضحاك حيث تقول [من الطويل] :

فَيَا رَبَّ لَا تَجْعَلْ حَيَاتِي وَبَهْجَتِي لَشَيْخٍ يُعَنِّتُنِي وَلَا لِعِلَامٍ
فَبُنْتُ أَنَّ الشَّيْخَ يَغْدِلُ أَهْلَهُ وَفِي شِرَّةِ حَالِ الْفَتَى وَعُرَامٍ^(١)
وَلَكِنْ صُمْلٌ قَدْ عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَرُوجٌ لِأَحْرَاحِ النِّسَاءِ هُمَامٍ^(٢)

وجارها ، وأحسن ما شاء أبو الأسود حيث يقول [في ديوانه] ١١٣

[من الطويل] :

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا أُمَّ عَمْرٍو وَحُبَّهَا عَجُوزًا وَمَنْ يَعْشَقُ عَجُوزًا يُفَنِّدُ
كَبُرِ الدِّمَائِي قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَرَفَعَتْهُ مَا شَتَّ فِي الْعَيْنِ وَالْيَدِ

أما البكاء على الشباب . . فمن أحسن ما فيه قول منصور النُميري

البكاء على الشباب

[في «الأغاني» ١٦٣/١٣ من البسيط] :

مَا تَنْقَضِي حَسْرَةً مِنِّي وَلَا جَزَعُ إِذَا ذَكَرْتُ شَبَابًا لَيْسَ يُرْتَجَعُ
بَانَ الشَّبَابُ وَفَاتَتْنِي بِشِرَّتِهِ صُرُوفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٌ لَهَا خِدَعُ
مَا كَذْتُ أَوْ فِي شَبَابِي كُنْهَ غُرَّتِهِ حَتَّى أَنْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ
مَا كَانَ أَقْصَرَ أَيَّامِ الشَّبَابِ وَمَا أَبْقَى حَلَاوَةَ ذِكْرَاهُ أَلْتِي يَدَعُ

فلقد بكى الرشيد من هذه الأبيات ، وقال [في «الأغاني»

١٦٣/١٣] : صدقت يا نُميري ، لا خير في دنيا لا يُستمتع فيها بحلاوة

الشباب وأيامه .

(١) الغرام : الشديداً القوي الشرس .

(٢) الصُّمْلُ : الشديداً الخُلُقُ العظيم . فروج : صيغة مبالغة من فارح ، والمعنى :

أنها تدعو الله عز وجل أن يرزقها زوجاً يكفيها مؤنة النكاح ، ولا يقصر في حقها

فيه . الأحرأ : الفروج . الهمام : الملك العظيم الهمة والسيد الشجاع .

وهذا البيت من قصيدة له جزلة مختارة ، حتى لقد أجمع الشعراء باب المعتصم ، فبعث إليهم [كما في «الأغاني» ٨١/١٩] : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَحْسُنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورِ النُّمَيْرِيِّ فِي الرَّشِيدِ [مِنْ الْبَسِيطِ] :

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَهُ أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
أَيُّ أَمْرٍ بَاتَ مِنْ هَارُونَ فِي سَخَطٍ؟ فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخُمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ الْغَيْثُ لَمْ تُخْلَفْ أُنَامِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَسَّعُ

.. فليدخل ، فيقال [كما في «الأغاني» ٨١/١٩] : إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ وَهَبٍ دَخَلَ يَوْمَئِذٍ ، وَأَنْشَدَ الْمَعْتَصِمَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا [مِنْ الْبَسِيطِ] :

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِنَهْجَتِهِمْ شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
فَاهْتَزَّ لَهَا ، وَأَحْسَنَ جَائِزَتَهُ . وَمَا هُوَ بِالْحَكَمِ الثَّرْصِي حُكُومَتُهُ
فِي الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الْقَصِيدَتَيْنِ ؛ فَإِنَّ بَيْنَهُمَا بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ .

وقد أغار الناظم على قول منصور : (فإذا الدنيا له تبع) فيما سبق من قوله : (فإذا وليا عن المرء ولي) ، وأغار أيضاً على قوله : (أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيسَّع) حيث قال [في «المكبري» ٣٠٣/٣] :
[الكمال] :

مَلِكٌ إِذَا مَا الرُّنْحُ أَذْرَكَهُ طَنَبَ ذَكَرْنَاهُ فَيَعْتَدِلُ

ولاذ به المعري في قوله [في «سقط الزند» ١٢١] من الوافر] :

وَلَوْ كَتَبَ اسْمُهُ مَلِكٌ هَزِيمٌ عَلَى رَايَاتِهِ وَالْيُ الْفُتُوحَا

دواء عجيب لتسهيل
الولادة.. اقراه ولا
تطبقه!!!

ولبيت النميري قصّة ، حاصلها [كما في «الأغاني» ١٣/١٦٧] : أنّه جاء
إلى صديق له وهو قلق الخاطر ، منزعج الفكر ، مُبَلِّل البال ، فسأله
صاحبه عن موجب ذلك ، فقال له : تركت زوجتي في المخاض ،
وقد عسر عليها الولاد ، وهي يدي ورجلي ، ورؤحي وراحتي ، قال
له : ألسن القائل : (أو ضاق أمر ذكرناه فيسّع) ؟ قال : بلى ، قال :
فأذهب ، فأكتب على فرجها : هارون الرشيد ؛ حتى يحصل الفرج ،
ويُسّع المضيق ، فبلغت الرشيد ، وأختلفت الرواية ، فمن قائل : إنّهُ
استطرفها ، ومن قائل : إنّهُ عاقب الرجل ، وقيل «لني» «الأغاني»
١٣/١٦٧ : إنّ الرجل نمّ على النميري عند الرشيد بميله إلى العلويين ،
وأنّه لا يريد بهارون إلاّ عليّ ابن أبي طالب ، من قوله عليه السلام :
« أنت منّي بمنزلة هارون من موسى »^(١) ، وأنشد له [من البسيط] :

آل الرّسول خيار النّاس كلّهم وخير آل رسول الله هارون
وأنّ الرشيد أرسل بعد ذلك إلى النميري من يبيع بطنه ، فألفاه
منصرف الناس من جنازته ، وكان النميري متمكناً عند الرشيد
بنفاقه ، الذي من أظهر آياته قوله [من الوافر] :

بني حسنٍ وقلّ لبني حُسينٍ عليّكم بالسّوء من الأمور
أمنطوا عنكم كذب الأمانيّ وأخلاماً يعذّن عداّ زورٍ
إنّ النّبّيّ أبأ ويأبى من الأخزاب سطرٍ في سطورٍ^(٢)

(١) أخرجه عن سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه مسلم (٢٤٠٤) في (فضائل
الصحابه) وفيه : « أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى » .

(٢) البيت مكسورٌ عروضياً ولعل صوابه :

ولم يكن النّبّيّ أبأ ، ويأبى من الأخزاب سطرٍ في سطورٍ

يريدُ قوله: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، حتَّى
ليُقَال: إِنَّ الرِّشِيدَ حَكَمَهُ فِي بَيْتٍ بِمَا أَرْضَى لِهَوَاهُ فِي هَذَا الشَّعْرِ.

وَمِنْ بَدَائِعِ الْفَرَزْدَقِ قَوْلُهُ يَبْكِي الشَّبَابَ [في «ديوانه» ١/ ٣٧٢ مِنْ الْمَشِيبِ وَالشَّبَابِ
وَالْبُكَاءِ عَلَيْهِمَا
الْكَامِلُ]:

قَالَتْ: وَكَيْفَ يَمِيلُ مِثْلَكَ لِلصَّبَا وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ الْحَلِيمِ وَقَارُ؟
وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الْأَسْوَادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

وَقَالَ الْعَرَبِيُّ [أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فِي «دِيَوَانِهِ» ٣٢ مِنْ الْوَافِرِ]:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرَهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

وَقَالَ دِعْبِلٌ [في «ديوانه» ٢٠٣ مِنْ الْكَامِلِ]

أَبْنَ الشَّبَابِ؟ وَأَيُّهُ سَلَكَ؟ لَا، أَيْنَ يُطَلَّبُ؟ ضَلَّ، بَلْ هَلَكَ
لَا تَعْجَبْنِي يَا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

وَقَدْ أَخَذَ أَصْلَ الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ [صَرِيحُ الْغَوَانِي فِي
«دِيَوَانِهِ» ٣٠٦ مِنْ السَّرِيعِ]:

مُسْتَعْبِرٌ يَبْكِي عَلَى دِمْنَةٍ وَرَأْسُهُ يَضْحَكُ فِيهِ الْمَشِيبُ

أَوْ مِنْ قَوْلِ أَبِي مَطِيرٍ [في «ديوانه» ٢٧ مِنْ الْخَفِيفِ]:

كُلَّ يَوْمٍ بِأَفْحْوَانٍ جَدِيدٍ تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ

وَمِنْ أَبْكَى مَا يَكُونُ عَلَى الشَّبَابِ.. قَوْلُ أَبِي الْغَضَنِ الْأَسَدِيِّ [مِنْ

الْوَافِرِ]:

أَتَأْمَلُ رَجْعَةَ الدُّنْيَا سَفَاهَا وَقَدْ صَارَ الشَّبَابُ إِلَى الذَّهَابِ
فَلَيْتَ الْبَاكِياتِ بِكُلِّ أَرْضٍ جُمِعْنَ لَنَا فَتُخَنَ عَلَى الشَّبَابِ

وقال محمد بن أبي حازم [في «ديوانه» ٨٧ من البسيط] :

لَا حِينَ صَبِرَ فَحَلَّ الدَّمْعَ يَنْهَمِلُ فَقَدْ الشَّبَابَ يَوْمَ الْمَرْءِ مُتَّصِلُ
لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا مِنَ الشَّبَابِ يَوْمَ وَاحِدٍ بَدَلُ
كَفَاكَ بِالشَّيْبِ ذَنْبًا عِنْدَ غَانِيَةٍ وَبِالشَّبَابِ شَفِيعًا أَثَمًا الرَّجُلُ

وقال عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط - رضوان الله عليهم -

[من الكامل] :

لَوْ أَنَّ أَسْرَابَ الدُّمُوعِ نَثَتْ شَرَحَ الشَّبَابِ عَلَى أَمْرِي قَبْلِي^(١)
لَبَكَيْتُهُ دَهْرِي بِأَرْبَعَةٍ فَسَفَحْتُهَا سَجَلًا عَلَى سَجَلِ

وقال ابن الرومي [في «ديوانه» ٦/٢٣٤٤-٢٣٤٣ من الكامل] :

لَا تَلَحْ مَنْ يَبْكِي شَيْبَتَهُ إِلَّا إِذَا لَمْ يَنْكِهَا بِدَمِ^(٢)
لَسْنَا نَرَاهَا حَقَّ رُؤْيَيْهَا إِلَّا زَمَانَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَلَرُبَّ شَيْءٍ لَا يُبَيِّنُهُ وَجْدَانُهُ إِلَّا مَعَ الْعَدَمِ
كَالشَّمْسِ لَا تَبْدُو فَضِيلَتُهَا حَتَّى تَغْشَى الْأَرْضُ بِالظُّلَمِ

وقال آخر [وهو أبو العتاهية في «ديوانه» ٣٥٣ من الكامل] :

الشَّيْبُ إِخْدَى الْمَيْتَيْنِ تَقَدَّمَتْ إِخْدَاهُمَا وَتَأَخَّرَتْ إِخْدَاهُمَا

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ١/١٣٣ من الخفيف] :

لَوْ رَأَى اللَّهُ أَنَّ فِي الشَّيْبِ فَضْلًا جَاوَرَتْهُ الْأَبْرَارُ فِي الْخُلْدِ شِينَا

(١) شرح الشباب : أوله وقوته ونضارته .

(٢) لاح : أشفق وبكى .

وقال [في «ديوانه» ١١٧/٢ من الخفيف] :

شُعْلَةٌ فِي الْمَفَارِقِ اسْتَوَدَعْتَنِي فِي صَمِيمِ الْفَوَادِ تُكَلَّا صَمِيمًا^(١)
تَسْتَيْزِرُ الْهَمُومُ مَا أَكْتَنُ مِنْهَا صُعْدًا وَهِيَ تَسْتَيْزِرُ الْهَمُومًا^(٢)
دِقَّةٌ فِي الْحَيَاةِ تُدْعَى جَلَالًا مِثْلَ مَا سُمِّيَ اللَّيْدِغُ سَلِيمًا
حَلَمْتُنِي زَعْمُهُمْ وَأَرَانِي قَبْلَ هَذَا التَّخْلِيمِ أَدْعَى حَلِيمًا^(٣)

وقال [في «ديوانه» ٣٩٨/١ من الطويل] :

غَدَا الشَّيْبُ مُخْطَأً بِفَوْدِي خِطَّةً سَبِيلُ الْفَتَى فِيهَا إِلَى الْمَوْتِ مَهْيَعٌ^(٤)
هُوَ الزُّورُ يُجْفَى، وَالْمُعَاشِرُ يُجْتَوَى وَذُو الْإِلْفِ يُقْلَى، وَالْجَدِيدُ يُرْقَعُ^(٥)
لَهُ مَنْظَرٌ فِي الْعَيْنِ أَبْيَضُ نَاصِعٌ وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ^(٦)
وَنَحْنُ نَزْجِيهِ عَلَى الْكُرْهِ وَالرَّضَا وَأَنْفُ الْفَتَى مِنْ وَجْهِهِ وَهُوَ أَجْدَعُ^(٧)

وقال [في «ديوانه» ١١٦/١ من البسيط] :

سِتٌّ وَعِشْرُونَ تَدْعُونِي فَأَتَّبُعُهَا إِلَى الْمَسِيبِ وَلَمْ تَظْلِمِ وَلَمْ تَحُبِ^(٨)
يَوْمِي مِنَ الدَّهْرِ مِثْلَ الدَّهْرِ تَجْرِبَةٌ حَزْمًا وَعَزْمًا وَسَاعِي مِنْهُ كَالْحَقْبِ^(٩)

(١) الصمِيمُ : الخالص .

(٢) تستيزر : تحرك ، والضمير يعود إلى الثَّلَّةِ من الشيب . أكتن : استتر .
صُعْدًا : ارتفاعاً .

(٣) حلمتني : صيرتني حليماً .

(٤) الفودُ : جانب الرأس . الخِطَّةُ : الطريقة . المهْيَعُ : الطريق الواسع .

(٥) الزُّورُ : الزائر . يُجْفَى : يُهَجَرُ . يُجْتَوَى : يكره . يُقْلَى : ييغض .

(٦) أسفعُ : خالص السواد .

(٧) نزجّيه : نسوقه . أجْدَعُ : مقطوع .

(٨) لم تحب : لم تأثم .

(٩) الساعُ : مفردها الساعة . الحَقْبُ - مفرده حِقْبَةٌ - : وهي المدة الطويلة من =

وَأَصْغِرِي أَنْ شَيْئاً لَاحَ بِي حَدَثَا وَأَكْبِرِي أَنِّي فِي الْمَهْدِ لَمْ أَشِبْ^(١)
وَلَا يُؤْزِفُكَ إِيْمَاضُ الْقَتِيرِ بِهِ فَإِنَّ ذَاكَ أَيْتَسَامُ الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ^(٢)

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ١١٩٨/٢ من الكامل] :

تَرَكَ الْسَّوَادَ لِلْأَبْسِنِهِ وَيَيْضَا وَنَضَا مِنْ أَلْسَتَيْنِ عَنْهُ مَا نَضَا^(٣)

وقال [في «ديوانه» ١٢٠٧/٢ من الخفيف] :

لَا بَسُّ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ نَاضِي ؟ وَمُلَيْحٌ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ رَاضِي^(٤) ؟
فَهَلِ الْحَادِثَاتُ يَا أَبْنَ عُوَيْفٍ تَارِكَاتِي وَلُبْسَ هَذَا الْبَيَاضِ ؟

وقال [في «ديوانه» ٥٥٦/١ من البسيط] :

وَجَدُّهُ الشَّعْرَاتِ السُّودِ يُزَجِّعُهَا بَيِضًا تَتَابَعُ مَرَّ الْبَيِضِ وَالسُّودِ^(٥)
لَوْ كَانَ فِي الْحِلْمِ مِنْ جَهْلٍ مَضَى عَوْضُ لَمْ أَذُمَّ الشَّيْبَ فِي قَوْلِي وَمَعْقُودِي

وقال [في «ديوانه» ٥٥٦/١ من الطويل] :

إِذَا مَا لَقِينَاهُنَّ وَالشَّيْبُ شَفَعَنَا تَغَايَيْنَ أَوْ كَلَّمْنَنَا بِالسَّوَالِفِ^(٦)

وقال [في «ديوانه» ٩٩/١ من الوافر] :

أَقُولُ لِلْمَتْنِي إِذْ أَسْرَعَتْ بِي إِلَى الشَّيْبِ : أَخْسِرِي فِيهِ وَخِيبِي !

= الوقت ، ومنه قوله تعالى ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابٌ﴾ [عم : ٢٣] .

(١) أصغري وأكبري : فعلا أمر معناهما ليصغر وليكبر .

(٢) إيماض : لمعان . القتير : الشيب .

(٣) نضا الثوب : نزعهُ وألقاه .

(٤) المليح : المشفق الخائف الحذر .

(٥) الجلة : كون الشيء جديداً .

(٦) الشيبُ شفعنا : أي ثابنا . السوالف - جمع سالف - : وهي العني .

والمقصود : أنهم يُعرضن عنه .

وقال [في ديوانه ١٣٩٥/٣ من الطويل] :

نُتْ طَرْفَهَا دُونَ الْمَشِيبِ، وَمَنْ يَشُبْ فَكُلُّ الْغَوَانِي عَنْهُ مُنِيَّةُ الطَّرْفِ

وقال [في ديوانه ٥٠٩/١ من الخفيف] :

غَلَسَ الشَّيْبُ أَوْ تَعَجَّلَ وَرْدُهُ وَأَسْتَعَارَ الشَّبَابَ مَنْ لَا يَرُدُّهُ^(١)
لَا تُلْمِنِي عَلَى الْفُضَا بَعْدَمَا صَ—وَحَ رَوْضُ الصَّبَا وَأَنْهَجَ بُرْدُهُ^(٢)

وقال [في ديوانه ١١٩/١ من البسيط] :

وَالشَّيْبُ مَهْرَبٌ مَنْ جَارَى مَنِيَّتُهُ وَلَا نَجَاءَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْهَرَبِ

وقال [في ديوانه ٩٥٤-٩٥٣/٢ من البسيط] :

فِي الشَّيْبِ زَجْرٌ لَهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجِرُ وَيَبَالِغُ مِنْهُ لَوْلَا أَنَّهُ حَجَرُ
إِبْيَضٌ مَا أَسْوَدَ مِنْ فُودَيٍّ وَأَزْتَجَعَتْ جَلِيَّةُ الصُّبْحِ مَا قَدْ أَغْفَلَ السَّحَرُ
وَالْفَنَى مُهْلَةٌ فِي الْحُبِّ وَاسِعَةٌ مَا لَمْ يَمُتْ فِي نَوَاحِي رَأْسِهِ الشَّعَرُ

وقال المعري [في سقط الزند ٢٤٦ من البسيط] :

وَقَدْ تَعَوَّضْتُ عَنْ كُلِّ بِمُشَبِّهِهِ فَمَا وَجَدْتُ لِأَيَّامِ الصَّبَا عِوَضًا

وقال [المعري في ديوانه ١٤٨١/٣ من الخفيف] :

هَاهُوَ الشَّيْبُ لَايْمًا فَأَفِيقِي! وَأَتَرُكِهِ إِذْ كَانَ غَيْرَ مُفِيقِ

وقال [المعري في سقط الزند ١١٢ من الوافر] :

وَعِيشَتِي الشَّبَابُ وَلَيْسَ مِنْهَا صِبَايَ وَلَا ذَوَائِبِي الْهَجَانُ^(٣)

(١) الغَلَسُ : ظلمة آخر الليل .

(٢) أَنْهَجَ الثَّوبُ : بلي .

(٣) الدَّوَائِبُ الْهَجَانُ : البيض .

[وقيل من الوافر] :

وَكَا لِنَارِ الْحَيَاةِ فَمِنْ دُخَانٍ أَوَائِلُهَا وَآخِرُهَا رَمَادُ

وقال صردر [من الكامل] :

لَمْ أَبْكْ أَنْ رَحَلَ الشَّبَابُ وَإِنَّمَا أَبْكِي لَأَنْ يَتَقَارَبَ الْمِنْعَادُ
شَعْرُ الْفَتَى أَوْزَاقُهُ فَإِذَا ذَوَى جَفَّتْ عَلَى أَثَارِهِ الْأَعْوَادُ

الشيب قبل الأوان مؤلم

وفي بعض ما سبق - خصوصاً عن أبي تمام - شكاية من نزول
الشيب قبل أوانه ، وأصله قول أبي نواس [في «ديوانه» ٣٣٠ من الكامل] :

وَإِذَا عَدَدْتُ سِنِّي عُمْرِي لَمْ أَجِدْ لِلشَّيْبِ عُذْرًا فِي التُّزُولِ بِرَاسِي

وقال كشاجم [في «ديوانه» ٤٩٨ من الوافر] :

إِذَا فَكَّرْتُ فِي شَيْبِي وَسِنِّي عَتَبْتُ عَلَيْهِ فِيمَا نَالَ مِنِّي
كَأَنَّ الشَّيْبَ غَارَ عَلَى الْغَوَانِي فَعَرَّضَهُنَّ لِلْإِعْرَاضِ عَنِّي

وقال النازم [في «المكبري» ١٢٣/٤ - ١٢٤ من الكامل] :

لَوْ كَانَ يُمَكِّنُنِي سَفَرْتُ عَنِ الصَّبَا فَالشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ الْأَوَانِ تَلُثُّ^(١)
وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْحَادِثَاتِ فَلَا أَرَى شَيْئاً يُمِيتُ وَلَا سَوَاداً يَغْصُمُ

وقال آخر [من الطويل] :

وَهَلْ أَنَا إِلَّا ابْنُ الثَّلَاثِينَ لَمْ تَشِبْ لِدَاتِي وَلَكِنَّ الْخُطُوبَ تُضِيمُ

وقال آخر [من الخفيف] :

قَدْ رَأَيْنَاهُ بِالْعَشِيِّ غُلَاماً فَعَدَوْنَا نَعْدُهُ فِي الْكُهُولِ

(١) سفرْتُ : أظهرْتُ وكشفتُ ، وسفر وجهه زيد : أشرق . التلثُّمُ : ستر الوجه .

وقال الموسوي [وهو الشريف الرضي في «ديوانه» ٦٨٨ من السريع] :

عَجَلْتَ يَا شَيْبُ عَلَى مَفْرِقِي وَأَيُّ عُذْرِ لَكَ أَنْ تَعَجَلَ
وَكَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَى عَارِضٍ مَا اسْتَفْرَقَ الثَّبْتَ وَلَا اسْتَكْمَلَ ؟
يَا زَائِراً مَا جَاءَ حَتَّى مَضَى وَعَارِضاً مَا غَامَ حَتَّى أَنْجَلَى
وَمَا رَأَى الْكَرَاؤُونَ مِنْ قَبْلِهَا زُرْعاً ذَوَى مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْقَلَ

وقال أبو فراس الحمداني [في «ديوانه» ١٥١ من الوافر] :

وَمَا أَزَيْتَ عَلَى الْعِشْرِينَ سِنِي فَمَا عُذْرُ الْمَشِيبِ إِلَى عِذَارِي ؟

وقال ابن دريد [في «ديوانه» ٤٥ من البسيط] :

نُوبُ الشَّبَابِ عَلَيَّ الْيَوْمَ بِهِجَّتُهُ وَسَوْفَ تَنْزِعُهُ عَنِّي يَدُ الْكِبَرِ
أَنَا ابْنُ عِشْرِينَ مَا زَادَتْ وَلَا نَقَصَتْ إِنَّ ابْنَ عِشْرِينَ مِنْ شَيْبٍ عَلَى خَطَرٍ

وقد سبق - ولا سيّما فيما سقناه عن أبي عبادَةَ - عُذْرُ الْمَشِيبِ إِذَا
جاءَ فِي وَقْتِهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ الرُّومِيِّ [في «ديوانه» من الكامل] :

أَذْرَى غُرَابَ الشَّيْبِ فَوْقَ مَفَارِقِي رَكُضُ السَّيْنِ الرَّاحِضَاتِ أَمَامِي
وَلَعَلَّهُ أَرَادَ الْغُرَابَ الْأَبْقَعَ ، أَوْ مِنْ حَيْثُ إِنْذَارُهُ بِالرَّحِيلِ ،
وِلَا . . . فَلَوْهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلشَّيْبِ ، وَقَوْلُهُ أَيْضاً ، وَهُوَ مَا يُعْجِزُنِي ؛
لِمَوَافَقَتِهِ لِسُنِّي [وهو في «ديوانه» ١/٣٦٠-٣٦١ من السريع] :

فَكَزْتُ فِي خَمْسِينَ عَاماً مَضَتْ كَانَتْ أَمَامِي ثُمَّ خَلْفَتْهَا
لَوْ أَنَّ عُمْرِي مِثْلَ هَذَا نِي تَذَكَّرْنِي أَنِّي تَنَصَّفْتُهَا

وقول أبي عبادَةَ أيضاً [في «ديوانه» ١/١٣٦ من الطويل] :

وَقَدْ رَدَّتِ الْخُمْسُونَ رَدَّ صَرِيْمَةٍ إِلَى الشَّيْبِ مَا وَلَّى عَنِ الشَّيْبِ يَهْرُبُ

وقوله [من الكامل] :

إِنْ كَانَ قَدْ عَبَتْ الْمَشِيبُ بِلِمَّتِي فَلَقَدْ أَخَذْتُ مِنَ الشَّبَابِ نَصِيْبِي

وقوله [في «ديوانه» ١٥٠/١ من المقارب] :

وَمَنْ يَطْلُعُ شَرْفَ الْأَرْبَعِ مَنْ يُحْيِي مِنَ الشَّيْبِ زَوْراً غَرِيباً

وقول آخر [وهو أبو الأسود الدؤلي في «الأغاني» ٣٧٣/١٢ من البسيط] :

أَفْنَى الشَّبَابِ الَّذِي حَاوَلْتُ جِدَّتَهُ مَرُّ الْجَدِيدَيْنِ مِنْ آتٍ وَمُنْطَلِقِي
لَمْ يُتَقِيَا لِي مِنْ طُولِ اخْتِلَافِهِمَا شَيْئاً أَخَافُ عَلَيْهِ لَذَعَةَ الْحَدَقِ

وقال المعري [في «سقط الزند» ٢٦١ من الكامل] :

وَلَقَدْ سَلَوْتُ عَنِ الشَّبَابِ كَمَا سَلَ غَيْرِي وَلَكِنْ لِلْحَزِينِ تَذَكُّرُ

وكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم [في «الأغاني» ٦٤/٢٠] :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي سَنِي ، فَإِذَا أَنَا قَدْ بَلَغْتُ الْخَمْسِينَ ،
وَأَنْتَ نَحْوُ مَنِي فِي السَّنِّ ، وَإِنَّ أَمْرًا قَدْ سَارَ خَمْسِينَ حِجَّةً إِلَى
مَنْهَلٍ . . لَقَمِينَ أَنْ يَرِدَهُ .

من سار على الدرب . .
وصل

فأخذه بعضهم فقال [أبو العتاهية في «ديوانه» ٢١ من الطويل] :

وَإِنَّ أَمْرًا قَدْ سَارَ خَمْسِينَ حِجَّةً إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لَقَرِيبُ
فَإِنْ كَانَتْ السُّنُونُ سَنَكَ لَمْ يَكُنْ لِدَائِكَ إِلَّا أَنْ تَمُوتَ طَيْبُ

وقال ابن المعتز [من البسيط] :

إِحْدَى وَخَمْسُونَ لَوْ مَرَّتْ عَلَى حَجَرٍ لَكَانَ مِنْ حُكْمِهَا أَنْ يَقْلَقَ الْحَجَرُ

أَمَّا المَشِيبُ : فَإِنَّهُ مَكْرُوهٌ لِقَاؤُهُ ، مَحْبُوبٌ بَقَاؤُهُ ، وَأَنْشَدَ ابْنُ

دريد [في «ديوانه» ٢٩ من الطويل] :

وَلِي صَاحِبٌ مَا كُنْتُ أَهْوَى لِقَاءَهُ فَلَمَّا التَقَيْنَا كَانَ أَكْرَمَ صَاحِبٍ
عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ يُفَارِقَ بَعْدَ مَا تَمَنَيْتُ دَهْرًا أَنْ يَكُونَ مُجَانِبِي

وقال مسلم بن الوليد [في «ذيل ديوانه» ٣١١] مِنَ الْبَسِيطِ :

الشَّيْبُ كُرَهُ وَكُرَهُ أَنْ يُفَارِقَنِي فَأَعَجَبَ لَشَيْءٍ عَلَى الْبُغْضَاءِ مَوْدُودٍ
بِنُضِيِّ الشَّبَابِ وَيَأْتِي بَعْدَهُ خَلْفٌ وَالشَّيْبُ يَذْهَبُ مَفْقُودٌ بِمَفْقُودِ

وقيل لأبي العيناء : كيف أنت؟ قال : في الداء الذي يتمنى
الناس بقاءه .

وقيل لأعرابي ضعيف من الكبر : لقد أذنب إليك الدهر ،
فقال : أ طال الله بقاء ذنبه إلي .

وقال البحتري [في «ديوانه» ٩٩/١ من الوافر] :

يَعِيبُ الْغَانِيَاتُ عَلَيَّ شَيْبِي وَمَنْ لِي أَنْ أُمْتَعَ بِالْمَعِيبِ

أما كره النساء للشيب : فلم يخرج منهن إلا ما سبق عن أم بغض النساء الشيب
الضحاك ؛ ولهذا صان الله نبيه ﷺ عن كثرته ، ومات وما في لحيته
ورأسه منه عشرون شعرة^(١) ، على اختلاف في الروايات ، قررناه
مع ما يتعلق به ، وما اختلف فيه من أسبابه في «حاشيتنا على
الشمائل» .

ويحكي [في «المستطرف» ٦٩/٢] : أَنَّهُ مَرَّ أَشْمَطُ^(٢) بِأَمْرَأَةٍ بَدِيعَةٍ

(١) أخرجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الترمذي في «الشمائل» (٤٠) ،
وابن ماجه (٣٦٣٠) قال عنه في «الزوائد» : هذا إسناد صحيح ، رجاله
ثقات . وفيه : (إنما كان شيب رسول الله ﷺ نحواً من عشرين شعرة بيضاء) .
(٢) الشَّمَطُ : بياض شعر الرأس واختلاطه بسواده .

الجمال ، فقال : يا هذه ، إن كان لك زوج . . فبارك الله لك فيه ،
والأ . . فأخبرنا ، قالت : كأنك تخطبني ، قال : نعم ، قالت : إن
في عيباً ما أراك ترضاه ، قال : وما هو؟ قالت : شيب غلب على
سواد رأسي ، فشئ عنان فرسي ، فقالت : على رسلك ، وكشفت له
عن الفاحم الأثيت ، وقالت له : أشيأ ترى؟ قال : لا والله ،
قالت : وأزيدك على ذلك أني لم أبلغ العشرين ، ولكن أحبت
إعلامك على أني أكره منك ما تكره مني .

فتنوع الشعراء في معناه ، قال ابن الرومي [في ديوانه ١٠٨٣/٣ من
الطويل] :

أعز طرفك المرأة وأنظر فإن نبا بعينك عنه الشيب فالبيض أعذر
إذا شئت عين الفتى عيب نفسه فعين سواه بالشئاء أعذر

وقال ابن المعتز [في ديوانه ٣٥٨/٢ من الوافر] :

لقد أبغضت نفسي في مشيبي فكيف تحبني البيض الكعاب ؟

وقال الناطم [من الوافر] :

أرى شيب الرجال من الغواني بموقع شيبهن من الرجال

ومن المغالطات في الموضوع . . قول أبي العلاء المعري [في

سقط الزند ٢٩٦ من الخفيف] :

خبرني ماذا كرهت من الشيب ب فلا علم لي بذنب المشيب
أضيأ النهار أم وضح اللؤ لؤ أم كونه كثر الحبيب
وأذكرني لي فضل الشباب وما يجد مع من منظر يرؤف وطيب
غذره بالخليل أم حبه لل غي أم أنه كدهر الأريب

وقال آخر [في « المستطرف » ٦٩/٢ من البسيط] :

قَالَتْ: أَرَى مِسْكَةَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ وَفَتْ كَافُورَةً أَخْلَقَتْهَا رَاحَةُ الزَّمَنِ
فَقُلْتُ: طِيبٌ بِطِيبٍ وَالتَّبْدُلُ فِي رَوَائِحِ الطِّيبِ أَمْرٌ غَيْرُ مُنْتَهَنِ
قَالَتْ: صَدَقْتَ وَلَكِنْ لَا سَوَاءَ فَا نَ الْمِسْكَ لِلْعُرْسِ وَالْكَافُورَ لِلْكَفَنِ

وبهذا ذكرت قول الآخر [في « المستطرف » ٦٩/٢ من البسيط] :

سَأَلْتُهَا قُبْلَةً يَوْمًا وَقَدْ نَظَرْتُ شَيْبِي وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ وَذَا نِعَمٍ
فَأَعْرَضَتْ وَتَوَلَّتْ وَهِيَ قَائِلَةٌ لَا وَالَّذِي أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ مِنْ عَدَمٍ
مَا كَانَ لِي فِي بَيَاضِ الشَّيْبِ مِنْ أَرْبٍ أَنِّي حَيَاتِي يَكُونُ الْقُطْنُ حَشَوَ فَعِمِي

وَمِنَ الْمَغَالِطَاتِ فِيهِ، مَا سَبَقَ عَنِ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ قَوْلِهِ [في «ديوانه» ١١٦/١]

مِنَ الْبَسِيطِ:]

[وَلَا يُؤَرِّفُكَ إِيْمَاضُ الْقَتِيرِ بِهِ] فَإِنَّ ذَاكَ ابْتِسَامُ الْكَرْأِيِّ وَالْأَدَبِ

وقد قال أبو الحسن علي بن طاهر بن منصور [من الخفيف] :

أَعْرَضَتْ حِينَ أَبْصَرْتُ شَعْرَاتِ فِي عِذَارِي كَأَنَّهُنَّ الْكُفَّامُ^(١)
قُلْتُ: هَذَا تَبَسُّمُ الدَّهْرِ، قَالَتْ: قَدْ سَعَى فِي صُدُودِكَ الْإِبْتِسَامُ

ويعجبني بمناسبة الشيب قول ابن الفارض [في «ديوانه» ٤٠ من الطويل] :

وَأَبْعَدَنِي عَنِ أَرْبُعِي بَعْدُ أَرْبَعٍ شَبَابِي وَعَقْلِي وَأَرْتِيَا حِي وَصَحَّتِي
فَلَيْ بَعْدُ أَوْطَانِي سُكُونٌ إِلَى الْفَلَائِ وَيَا لَوْحِشِ أَنْسِي إِذْ مِنَ الْإِنْسِ وَخَشْتِي
وَرَهْدٌ فِي وَضْلِي الْفُغْوَانِي إِذْ بَدَأَ تَبَلُّجُ صُبْحِ الشَّيْبِ فِي جُنْحِ لِمَتِي
فَرُخْنٌ بِحُزْنٍ جَارِعَاتٍ بُعِيدَ مَا فَرِخْنٌ بِحُزْنِ الْجَزَعِ بَنِي لِسِينَتِي

(١) الكُفَّامُ: نبتٌ على شكل الحلبي، يكون في الجبل أخضر ثم يبيض إذا يبس.

وقد سبق - في غير هذا المجلس - بعض هذه ، غير أنَّ كلام
الشيخ لا يُمل ، وقوله : (وَيَا لَوْ خَشِ أَنْسِي) هو من قولٍ تَأَبَّطَ شَرًّا ،
وقد مرَّ أيضاً [مِنَ الطَّوِيلِ] :

عَوَى الذَّنْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّنْبِ إِذْ عَوَى وَصَوَّتْ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطْبِرُ
وكان الربعُ كثيراً ما ينشدُ [مِنَ الكَامِلِ] :

لَيْتَ الْكِلَابَ لَنَا كَانَتْ مُجَاوِرَةً وَإِنَّا لَا نَرَى مِمَّنْ نَرَى أَحَدًا
إِنَّ الْكِلَابَ لَتَهْدَا فِي مَرَابِضِهَا وَالنَّاسُ لَيْسَ بِهِادٍ شَرُّهُمْ أَبَدًا

[وقال آخر في « قِرَى الضيف » ٣٨٣/٤ من البسيط] :

شَرُّ السَّبَاعِ الضَّوَارِي دُونَهُ وَزَرُّ وَالنَّاسُ أَشْرَارُهُمْ مَا دُونَهَا وَزَرُّ
كَمْ مَغْشَرٍ سَلِمُوا لَمْ يُؤْذِهِمْ سَبْعٌ وَمَا نَرَى بَشَرًا لَمْ يُؤْذِهِ بَشَرٌ

قصائد للمؤلف في
الموضوع ولي فيما يتعلق بالمشيب ما لا ينحطُّ إلى التقصير ، إن لم يرتفع
إلى الإجادة ، منه [في « ديوان المؤلف » ٣٥٤-٣٥٣ من الكامل] :

لَا تُنْكِرْنِي أَنْ رَيْتَ فَوْدِي أَشْيَبَا أَوْلَيْسَ أَوْقَرَ فِي الثُّفُوسِ وَأَهْيَبَا
مَا شَبْتُ مِنْ كِبَرٍ وَلَكِنْ هِمَّةٌ مِنْ شَأْنِ حَامِلٍ مِثْلَهَا أَنْ يَتَعَبَا
وَسَلِّني الزَّمَانَ يُفْذِكْ عَنْ صَبْرِي لَهُ وَسَتَعْدُرْنِي إِنْ سَالَتْ عَنِ النَّبَا
مَا زِلْتُ أَعْرُكَ أُذُنُهُ وَغَنِمْتُ إِذْ أَخَذَ الْغُرَابَ عَلَيَّ بَارِ أَشْهَبَا
يَجْلُو دُجَى شَعْرِي صَبَاحُ تَجَارِيي وَكَذَاكَ ضَوْءُ الصُّبْحِ يَجْلُو الْغَيْهَبَا
مَا فَلَ مِنْ عَزْمِي الْمَشِيبُ وَلَمْ يَكُنْ لِيَزِيدَنِي إِلَّا مَضَاءً فِي إِبَا
فَلْأَجْرِيْنَ الْعَزْمَ مِلءَ عِنَانِهِ حَتَّى يُبْلَغَنِي سُرَاهُ الْمَطْلَبَا
وَلَأَنْفُضَنَّ الْعَجْزُ فِي نَصْرِ الْهُدَى عَنِّي فَإِنَّ السَّيْلَ قَدْ بَلَغَ الزُّبَى^(١)

(١) هذا مثل أورده الميداني في «مجمع الأمثال» (٤٣٦) ويضرب لما جاوز الحد .

ومن أخرى تقدمت بها يوم لاقيت الإمام^(١) - حفظه الله تعالى -
[من الطويل] :

وَكَاذَبْتُ فِي سِرِّي إِلَيْكَ مَصَاعِبًا بِهَا قَبْلَ وَقْتِ الشَّيْبِ مِنِّي وَهِيَ الْعَظْمُ
وَأَنْ قُتْتُ فِي وَجْهِ الْوَذِيلَةِ لَاحَ لِي بِيَاضٍ بِهِ اغْتَاصَتْ غَدَائِرِي السُّخْمُ^(٢)

ولمّا بلغت مطيبي ذروة العقد الخامس ، ورأيت ما رأيت من
عوارض المشيب ، جاشت الجائشة ، فقلت في معارضة الشريف
الرضي [في «ديوان المؤلف» ٢٠٧-٢١٢ من الطويل] :

عَذِيرِي مِنَ الْخُمْسِينَ حَلَّتْ بِعَقَوْتِي وَمِنْ مُوجَعَاتِ الدَّهْرِ تَنْقُضُ قُوَّتِي^(٣)
وَيَبِضُ بِمَرَأَى الْعَيْنِ سُودٌ لَدَى النُّهَى تَحْكُمْنَ فِي رَأْسِي وَوَجْهِي بِسَطْوَةٍ
وَفَضْلٍ أَدْنَمَ لَاحَ لِي مِنْ وَذِيلَةٍ ضَحَى فَاسْتَحَالَتْ ظُلْمَةٌ مِنْهُ ضُخُوتِي
فُضُولٌ بِلَا فَضْلٍ وَتُورٌ بِلَا بَهَا وَرَكَضٌ عَلَى شَهَبَاءَ تَجْرِي لِهَوَّةِ
عَلَى أَنْتِي لَمْ أُعْطِ فَضْلَ مَقَادِنِي لِضَعْفٍ وَلَمْ تَقْصُرْ عَنِ الْمَجْدِ خُطُوتِي
فَلَا يَسْتَمِ الْأَعْدَاءُ فَالْفَضْرُ حَافِلٌ وَمَا فَاتَ مِمَّا فِي الْإِنَا غَيْرُ رِغْوَةٍ
لَقَدْ طَارَ عَنْ قُودِي الْغُرَابُ وَإِنَّمَا أَلْ عِرَابُ تَرَانِي وَإِنَّا كُلُّ صَهْوَةٍ^(٤)
فَمَا خَانَنِي صُنْعُ الْمَشِيبِ بِلَمَّتِي وَلَا فَلَ مِنْ عَزَمِي وَلَا مِنْ فُتُوتِي

(١) لعله الإمام : يحيى حميد الدين إمام اليمن . . حيث كانت له صلة ومواصلة
بالمؤلف .

(٢) الْوَذِيلَةُ : المرأة .

(٣) عذيري من الخمسين : هاتِ للخمسين سنة عذراً فيما فعلت بي . حلت
بعقوتي : نزلت بساحتي .

(٤) طَارَ عَنْ قُودِي الْغُرَابُ : ذهبَ عن رأسي الشعرُ الأسود . الْغُرَابُ : الخيلُ التي
ليسَ فيها عِرْقٌ هجينٌ .

وَلَا غَضٌّ حَتَّى مِنْ عِنَانٍ صَبَابَتِي
وَلَا ذَلَّلْتُ هُوجُ الْخُطُوبِ مَطَامِحِي
حُسَامُ يَمَانِي يَزِيدُ مَضَاوِيهِ
قُبُورُ امْتِحَانٍ زَنْ مَرَأَى فِرْنْدِهِ
تَقَلَّبْتُ فِي خِصْبِ الزَّمَانِ وَبُؤْسِهِ
قَرِيبٌ لَدَى الْكَسْرَاءِ لَيْنُ جَانِبِ
فَلَمْ يَنْتَقِضْنِي الْفَقْدُ حَبَّةَ خَزْدَلٍ
وَرَاَجَعْتُ أَعْمَالِي فَلَمْ أَرْ نُقْطَةً
وَلَكِنَّهَا فَضْلٌ وَتُبْلٌ وَعِفَّةٌ
وَقُورٌ إِذَا خَفَ الْحَلِيمُ وَرَابِطٌ
وَإِنْ نَالَتْ الْأَيَّامُ مِنِّي بِحَرْبِهَا
وَفِيمَا جَرَى لِلْمُرْتَقَصِي وَلِزَوْجِهِ
فَلَا تَضْحَكُ الْأَيَّامُ إِلَّا لِسَفَلَةٍ
فَكَمْ كَابَدُوا فِي الْحَقِّ مِنْ مِخْنَةٍ وَكَمْ
وَلَوْلَاهُمْ لِلدِّينِ مَا قَامَ قَائِمٌ
وَلَكِنْ جِهَادٌ فِيهِ تَسْتَبِقُ الطُّلَا

وَلَا رَيْتُ مَنْ يَبْضِ الدَّمَى نَوْعَ جَفْوَةٍ^(١)
وَلَا قَرَعَتْ سُودُ الْمَصَائِبِ مَرَوْتِي^(٢)
إِذَا رَقَّ جِسْمًا عَادَ مَأْمُونٌ نَبْوَةٍ
وَأَعَدَّدْنَاهُ لِلْفَتَنِ فِي كُلِّ هَبْوَةٍ^(٣)
فَمَا عَلَقْتُ مِنِّي الْكِلَابِي بِهَفْوَةٍ
وَفِي حَالَةِ الضَّرَاءِ تَشْتَدُّ نَخَوْتِي
وَلَا زَادَ فِي الْوَجْدِ آثَارَ نَشْوَةٍ
تَمَسُّ بِتَارِيخِي الْكَتَبِي لِصَبْوَةٍ
صَعِدْتُ بِهَا فِي الْمَجْدِ أَمْنَعُ ذِرْوَةٍ
لَدَى الْهَوْلِ لَا تَنْحَلُّ لِلْخَطْبِ حَبَوْتِي
أَذَاةً فَفِي خَيْرِ النَّبِيِّنَ أُسُوتِي
وَأَوْلَادِهِ فِي سَاعَةِ الْكَرْبِ سَلَوْتِي
وَلَا تَلْتَفِي الْأَبْطَالُ إِلَّا بِعُنْوَةٍ
لَقُوا مِنْ بَلَايَا كُلِّ مُنْسٍ وَغُدْوَةٍ
وَلَا أَصْبَحَ الْإِسْلَامُ رَوْضًا بِرَبْوَةٍ
وَأَجْسَادُهَا بَعْدَ اخْتِجَاجٍ وَدَعْوَةٍ^(٤)

(١) الدَّمَى : يريدُ بها النساءَ .

(٢) هُوجُ الخطوبُ : الأحداثُ الشديدةُ . مَرَوْتِي : صخرتي ، وأصلُ المروِ الصخرُ
الأمْلَسُ .

(٣) قُبُورٌ - جمعُ قَبْرٍ - : وهو الحدَّادُ . فِرْنْدُهُ : وشيئهُ . الهَبْوَةُ : الغبارُ ، يريدُ
الحربَ .

(٤) الطُّلَا : الأعناقُ .

حُرُوبٌ إِذَا عَصَّت رَحَاَهَا نِفَالَهَا
أَذَالُوا لَهَا تَحْتَ الْقَسَاطِلِ أَوْجَهَا
أُولَئِكَ أَبَائِي وَعِزِّي وَسُودُودِي
جَرَى فِي عُرُوقِي حُبُّهُمْ وَبِجَاهِهِمْ
إِذَا زَارَنَا مِنْهُمْ خِيَالٌ تَضَوَّعَتْ
سَامُضِي عَلَى آثَارِهِمْ جُهْدَ طَاقَتِي
فَقِينَا خُلُوفٌ مِنْ بَيْنِهِمْ تَكْبُؤُوا
مَذَامِينُ لَا بَغْيًا أَهَانُوا ، وَلَا هُدًى
وَيَا لَيْتَهُمْ كَانُوا كَفَافًا وَلَا أَعْتَدُوا
مَنَاسِبُ عَنْ مَرَاقِبِهَا الطُّغْنُ يَرْتَمِي
يَعْدُونَ إِعْلَانِي الصَّوَابَ جَرِيمَةً
تَغْرَبْتُ عُقْرَ الدَّارِ فِيهِمْ فَجَلُّهُمْ
وَكَمْ فَتَلُّوا لِي فِي الْغَوَارِبِ وَالْدَّرَى
فَلَمْ يَجِدُوا بِالْعَجْمِ فِي الْعُودِ مَعْمَرًا

فَمَا تَمَّ إِلَّا إِلَهَامٌ فِي كُلِّ لَهْوَةٍ (١)
تَشُقُّ الدُّجَا ، فِيهَا ضِيَاءُ الْبُؤَةِ (٢)
وَفَخْرِي وَذُخْرِي وَأَعْتَصَامِي وَقُدُورِي
لِي الْأَمْنُ فِي الدَّرَائِنِ مِنْ كُلِّ شَفْوَةٍ
رُبَانَا بِأَزْكَى مِنْ أَرْنَجِ الْأَلْوَةِ (٣)
وَلِنْ صَدْنِي شَعْبِي وَقَوْمِي وَإِخْوَتِي
طَرِيقَتُهُمْ ظُلْمًا لِحَقِّ الْأُبُوَةِ
أَعَانُوا ، وَلَكِنْ فِي رِضَا كُلِّ شَهْوَةٍ
وَلَا فَتَحُوا لِلشَّرِّ أَشَامَ كُوءٍ
وَلَكِنَّمَا الْأَعْمَالُ ضِدُّ الْبُؤَةِ (٤)
وَيَفْرُونَنِي إِنْ كُنْتُ عَنْهُمْ بِنَجْوَةٍ
يَقُولُونَ : نَعْسًا لَا لَمَاعًا عِنْدَ كِبْرِي (٥)
وَكَمْ رَوَّجُوا مِينًا لِكَيْدِي بِرِشْوَةٍ
وَلَا هِمَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ بِرِخْوَةٍ (٦)

- (١) نِفَالُهَا - جمعُ نِفَالٍ ككتاب - : وهو جلدٌ يوضعُ تحت الرُحَى يَحمِيه عليه الدقيق ، وهو مثلٌ لشدة الحرب ، وفي حديث علي رضي الله عنه : « وتدقُّهم الفتنُ دَقَّ الرُحَى بِنِفَالِهَا » ، أي : تدقُّهم دَقَّ الرُحَى للحبِّ إذا كانت مثقلة ، ولا تنفل إلا عند الطحن . اللَهْوَةُ : ما يُلْقَى في فم الرُحَى من الحبوب للطحن .
- (٢) أَذَالُوا : أَمَاتُوا واسترخصوا في سبيلها . الْقَسَاطِلُ : غبارُ الحرب .
- (٣) تَضَوَّعَتْ : فاحت . أَرْنَجٌ : رائحة . الْأَلْوَةُ : العود الذي يتبخَّرُ به .
- (٤) الْمَنَاسِبُ : أنسابهم شريفةٌ عالية ، ولكن أعمالهم سيئةٌ ضداً ما يتسبون إليه .
- (٥) لَا لَمَاعًا : لا أتعاش لك من كبرتك ، يقول العربُ في الدعاء عليه : نَعْسًا لَا لَمَاعًا .
- (٦) الْعَجْمُ فِي الْعُودِ : يقالُ : عَجِمَ العودُ ، إذا لأكهُ للاختبار .

وَكَمْ قَدْ نَحَدَيْتُ الْمُرَائِينَ فَأَنْشَنُوا وَهَابُوا كِفَاحِي فِي الْجِدَالِ بِجَلْوَةٍ
وَكَمْ بِدَعَةٍ أَحْيَوْا وَكَمْ سَنَةٍ مَحَوْا فَقَدْ لَبَسُوا الْإِسْلَامَ مَقْلُوبَ قُرْوَةٍ
وَمَا لِي سِوَى حُسْنِ أَنْتِظَارِي عِنَايَةٍ مِنْ اللَّهِ لِي مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ وَقُوَةٍ
وَوَعْدٍ مِنَ الْمَوْلَى الْإِمَامِ بِنَجْدَةٍ غَدًا نَجْزُهَا مِنِّي عَلَى قَابِ غُلْوَةٍ^(١)
وَبِالْخُمْسَةِ الْأَرْوَاحِ اسْتَجَلِبُ الْمُنَى وَاسْتَدْفِعُ الْبَلْوَى فَهُمْ خَيْرُ عُرْوَةٍ

ولمّا تقاطرتِ الفصولُ ، وأتسقتِ المواضيعُ ، وأخذَ الكلامُ
برقابِ بعضِهِ . . لم يُمكنّا قطعهُ ، معَ رَقَّةِ الانسجامِ ، وخَفَّةِ النسيمِ ،
وجمالِ الديباجةِ ، وقِلَّةِ الفضولِ ، وعدمِ الحشوِ ، وكنتُ أكرهُ أَنْ
أثقلَ بمثلها مِنْ شعري ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ الْمُنْصَفَ لَنْ يَزِيدَ بِهَا إِلَّا
أرتياحاً ، وَأَمَّا الْبَغِيضُ . . فكلُّ ما أقولُ ثَقِيلٌ عَلَيْهِ ، ولو مِنْ بعيدٍ ،
فأَجْرَزْتُهَا رَسْنَ الْقَلَمِ ، لِتَزِيدَ الْمُقِيتَ غِظاً ، وَتَفِيضَ الْإِحْسَانَ
فِيضاً ، وَمِمَّا لِي أَيْضاً فِي الْمَوْضُوعِ قَوْلِي [فِي « دِيوانِ الْمُؤَلَّفِ » ٢٩٤ مِنْ
الْبَسِيطِ] :

رُدُّوا عَلَى لِمَتِي الْحَبْرَ الَّذِي نَصَلَا حَتَّى أَطَالَعَ مَا فِي عَهْدِهِ حَصَلَا^(٢)
فَإِنَّهَا ذِكْرِيَّاتٌ كُلَّمَا ابْتَسَمَتْ لِلْقَلْبِ آنَسَ مِنْهَا نَشْوَةٌ فَسَلَا
مَرْسُومَةٌ فِي ضَمِيرِي وَهِيَ جَالِيَةٌ مِنَ الْمَحَاسِنِ يَكْسُوهَا الْهُوَى حُلَلَا
مَرَّ الزَّمَانُ بِهَا عَجَلَى وَعَوَّضَنِي عَنْهَا حُلُومًا فَلَمْ أَقْنَعْ بِهَا بَدَلَا
كَأَنَّ قَادِمَتِي نَسْرٍ تَعَلَّقَا فِيهَا قَوْلْتُ سِرَاعاً بَيْنَ لَا وَبَلَى^(٣)

(١) الْغُلْوَةُ : قَلَرُ رَمِيَةِ السَّهْمِ .

(٢) اللَّمَّةُ : الشَّعْرُ الْمَجَاوِرُ شَحْمَةَ الْأُذُنِ . الْحَبْرُ : الْمَقْصُودُ بِهِ هُنَا سَوَادُ الشَّعْرِ
الَّذِي ذَهَبَ وَحَلَّ مَكَانَهُ الشَّيْبُ .

(٣) قَادِمَتِي نَسْرٍ : رِيشَاتٌ فِي مَقْدَمِ جَنَاحِهِ .

أَلْفَيْتُ كُلَّ مُصَابٍ جَلَّ مَوْقِعُهُ فِي جَنْبِ مَا فَاتَنِي مِنْ صَفْوَهَا جَلًّا
فِيهَا أَرَى الْبَالَ رِخْوًا، وَالزَّمَانَ رِضًا وَالْعَيْشَ غَضًا، وَأَسْبَابَ الْمُنَى ذُلًّا
وَالْجَوْ طَلْقًا، وَشَمَلَ الْأَنْسِ مُجْتَمَعًا وَالْحِظَّ يَنْسُطُ فِي إِقْبَالِهِ الْأَمَلَا
وَهِيَ مِنْ نَوْعِ السَّابِقَةِ، عَلَى أَنَّهَا أَشَدُّ مَتْنًا، وَأَكْثَرُ حَسَنًا،
وَأَجْمَلُ شَارَةً، وَأَحْلَى إِشَارَةً.

والكلام يطول في فوائد الشيب، ومنها: ردُّعُهُ عَنِ الْغَيِّ. من فوائد الشيب أنه
يُردِّعُ عَنِ الْغَيِّ
قَالَ مُسْلِمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ: مَا وَعْظَنِي شَعْرٌ مَا وَعْظَنِي قَوْلُ
عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ [في «ديوان دريد بن الصمة» ٥٠٠ مِنَ الطُّوِيلِ]:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسُهُ فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ: أَبْعِدِ
وَقَالَ دِغْبِلٌ [في «ديوانه» ١٠٢-١٠٣ مِنَ الْكَامِلِ]:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِالشَّيْبِ فَإِنَّهُ سِمَةٌ الْعَفِيفِ وَحِلْيَةُ الْمُتَحَرِّجِ
ضَيْفُ أَلَمٍ بِمُفْرِقِي فَقَرْنَيْهِ رَفَضَ الْغَوَايَةَ وَأَقْتَصَادَ الْمُنْهَجِ
وَقَالَ الْبَيْغَا [مِنَ الْبَسِيطِ]:

لَا عُذْرَ بَعْدَ عِذَارِ شَابٍ أَكْثَرُهُ فَالشَّيْبُ أَوْعَظُ إِعْذَارٍ وَإِنْذَارِ
وَقَالَ أَبُو أَبِي طَاهِرٍ [مِنَ الطُّوِيلِ]:

رَكِبْتُ الصَّبَا حَتَّى إِذَا مَا وَنَى الصَّبَا نَزَلْتُ مِنَ التَّقْوَى بِأَكْرَمِ مَنْزِلِ
وَدِينُ الْفَتَى بَيْنَ التَّنَشُّكِ وَالْتُّهَى وَدُنْيَا الْفَتَى بَيْنَ الصَّبَا وَالتَّغْزُلِ
وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْإِمَامِ أَبِي دَقِيقٍ الْعِيدِ [في «شذرات الذهب» ٦/٣ مِنْ
الطُّوِيلِ]:

تَمَنَيْتُ أَنَّ الشَّيْبَ عَاجَلَ لِمَتِّي وَقَرَّبَ مِنِّي فِي صِبَايَ مَزَارُهُ
لَأَخْذَ مِنْ عَصْرِ الشَّبَابِ نَشَاطَهُ وَأَخْذَ مِنْ عَصْرِ الشَّيْبِ وَقَارُهُ

ونظر إياسُ بنُ معاويةَ إلى شعرةٍ بيضاءٍ لاحَتْ في لحيتِهِ..
فقالَ : واللهِ لا أراني سميماً بعدَها لحاجاتِ بني تميم ، فلزَمَ بيتهُ ،
ولم يدخلْ بعدَ ذلكَ على السلطانِ .

وكانَ الواحدُ مِنَ ألسفِ الطَّيِّبِ إذا بلغَ الأربعينَ .. حَمَلَ عَصَا
السفرِ ، وطوى فراشَ النومِ ، وأقبلَ على عملِ الآخرةِ ، وَمَنْ لَمْ
يردِّعهُ الشَّيْبُ عَنِ الغوايةِ ، ولم يأخذْ بعَتائِهِ إلى طُرُقِ الهدايةِ .. فقد
تَوَدَّعَ مِنْهُ ، وَمِنْ ههْؤَلاءِ أبو نواسٍ ؛ بشهادةِ قولِهِ [في «ديوانِهِ» ٢٨٤ مِنْ
الطُّرُلِ] :

يَقُولُونَ فِي الشَّيْبِ الْوَقَارُ بِأَهْلِهِ وَشَيْبِي بِحَنْدِ اللَّهِ غَيْرُ وَقَارٍ (١)
وفي «صحيحِ مسلمٍ» : « أَنْ أَبْقَضَ الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ .. شَيْخُ
زَانَ » (٢) .

(١) قالوا : إِنَّ الرِّشِيدَ لَمَّا سَمِعَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ .. أَنْكَرَ هَذَا الْبَيْتَ ، وَقَالَ لِلْفَضْلِ :
قُلْ لِهَذَا الْمَاجِنِ : أَتَقُولُ : إِنَّ الشَّيْبَ غَيْرُ وَقَارٍ وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :
« لَا يَشَيْبُ الْمُؤْمِنُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَ ذَلِكَ حِجَاباً لَهُ مِنَ النَّارِ ١٩ » فَلَمَّا أَحْضَرَ
وَسُئِلَ .. قَالَ : لَا أَنْكَرُ الْوَقَارَ فِي الشَّيْبِ ، وَلَا مَا جَاءَ الْخَبَرُ بِهِ ، وَلَكِنِّي
قُلْتُ : وَشَيْبِي أَنَا غَيْرُ وَقَارٍ ؛ لِمَا أَجَاوَزُ بِهِ مِنْ تَعْجِيلِ الذُّنُوبِ وَتَأْخِيرِ التَّوْبَةِ ،
وَالْبَيْتُ الَّذِي بَعْدَهُ يَشْهَدُ لِي ، فَلَمَّا أَخْبَرَ الرِّشِيدُ بِقَوْلِهِ .. ضَحَكَ ، وَقَالَ : هُوَ
أَعْلَمُ بِسِرِّرَتِهِ وَقَبِيحِ عَمَلِهِ .

والبَيْتُ الَّذِي بَعْدَهُ :

إِذَا كُنْتُ لَا أَنْفُكَ عَنِ طَاعَةِ الْهَوَى .. فَإِنَّ الْهَوَى يَزِمُنِي أَلْفَتَى بَوَارٍ
(٢) طرف حديث أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٠٧) في الإيمان
وهو قوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولهم عذاب أليم :
شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » .

وقال بعض المتهورين [من الطويل] :

لَعَرِي لَيْنَ حَلِّ الْمَشِيبِ يَلْمَنِي لَقَدْ كَانَ مَا أَخْلَلْتُ بِالشَّيْبِ أَغْظَمَا
سَلِ الشَّيْبَ عَنِّي هَلْ عَرَفْتُ وَقَارَهُ وَهَلْ عِفْتُ حَوْبًا أَوْ تَجَبَّبْتُ مَائِمًا ؟

وقال آخر [من الكامل] :

إِنْ يَكْتَهِلُ مِنِّي الْقَدَالُ فَإِنِّي فِي الْغَايَاتِ وَحُبِّهِنَّ غُلَامُ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْتَدُّ نَوْعًا ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ بَشَارٌ فِي قَوْلِهِ [في «ديوانه»
: ١٨٩-١٩٠ من الكامل] :

إِنَّ الْمَشِيبَ وَمَا تَرَى بِمَقَارِقِي صَرَفَ الْغَوَايَةَ فَأَنْصَرَفْتُ كَرِيمَا
وَصَحَوْتُ إِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ حَسَنِ الْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَغْلِيمَا
والبُحْثَرِيُّ فِي قَوْلِهِ [في «ديوانه» ١٠٧١/٢ من الكامل] :

إِنِّي وَإِنْ جَانَبْتُ بَعْضَ بَطَالَتِي وَتَوَهَّمُ الْوَاثُونَ أَنِّي مُفْصِرُ
لَيْسُوْفُنِي سِخْرُ الْعُيُونِ الْمُجْتَلَى وَيَرَوُّونِي وَرَدُّ الْخُدُودِ الْأَحْمَرُ
وَلَوْ مَا عُرِفَ مِنْ حَالِ بَشَارٍ ، وَتَهْتِكِهِ .. لَمَا كَانَتْ بَيْتَاهُ إِلَّا
دَلِيلًا كَافِيًا عَلَى صِحَّةِ تَوْبَتِهِ ، وَصَدَقِ أَوْبَتِهِ ، وَلَكِنَّا تَوَسَّطْنَا فِي
الْحُكْمِ عَلَيْهِ ؛ إِذْ جَعَلْنَاهُ مِنَ الْمُذَبْذَبِينَ .

وَمَعَ مَا أَكْثَرَ النَّاسُ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَى الشَّبَابِ ، وَالتَّأْسَفِ عَلَى
أَيَّامِهِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ [في «قرى الضيف» ٨٤/٤ من الكامل] :

شَيَانٌ لَوْ بَكَتِ الدَّمَاءُ عَلَيْهِمَا عَيْنَاكَ حَتَّى يُؤْذِنَا بِذَهَابِ
لَمْ يَبْلُغَا الْمِغْشَارَ مِنْ حَقِّهِمَا فَقَدْ الْشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الْأَخْبَابِ

.. فَإِنَّ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ أَنَّهُمْ لَا يُحِشُونَ لَهُ أَلَمًا ؛ لِأَنَّهُ
لَا يَجِيءُ إِلَّا تَدْرِيجًا ؛ وَلِهَذَا قَالُوا [وَمِنْهُمْ الشَّعْبِيُّ فِي «الْمُسْتَرْفِ» أَلَمًا
من لطف الله بالعباد
أنهم لا يحسون للشيب

٢/٦٩ : إِنَّ الشَّيْبَ عَلَّةٌ لَا يَعَادُ مِنْهَا ، وَمَصِيبَةٌ لَا يَعْرِىُ عَلَيْهَا .

قَالَ مَحْمُودُ الْوَرَّاقُ [فِي «الْبَيَانِ وَالتَّبَيُّنِ» ١/٤٨٤ مِنْ الْمُتَقَارِبِ] :

أَلَيْسَ عَجِيئاً بِأَنَّ الْفَتَى يُصَابُ بِبَغْضِ الَّذِي فِي يَدَيْهِ
فَمَنْ يَتَيْنِ بِأَكْ لَهْ مُوْجِع وَيَتَيْنِ مُعْنَى مُعْزٍ إِلَيْهِ
وَيَسْلُبُهُ الدَّهْرُ سَلَخَ الشَّبَا بَ وَلَيْسَ يُعْزِيهِ خَلْقُ عَلَيْهِ

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ [مِنْ الطُّوِيلِ] :

أَرَى الشَّيْبَ مَذْ جَاوَزْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً يَدُبُّ دَيْبَ الصُّبْحِ فِي غَسَقِ الظُّلَمِ
هُوَ الْكُفْمُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُؤْلَمٍ وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الشَّيْبِ سُقْمًا بِلَا أَلَمٍ

أَمَّا بَكَاءُ النَّازِمِ لِشَيْبِهِ فِي أَيَّامِ شَبَابِهِ .. فَعَلَى حَدِّ قَوْلِهِ [فِي «الْمُكَبَّرِيِّ»
٢٢٤/٣ مِنْ الْوَافِرِ] :

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْتِقَالاً

وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي «دِيَوَانِهِ» ، فَمَنْهُ قَوْلُهُ [فِي «الْمُكَبَّرِيِّ» ٢/١٦٢ مِنْ

الْكَامِلِ] :

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ حَائِثاً أَنْ يَخْذَرَا

وَقَوْلُهُ [فِي «الْمُكَبَّرِيِّ» ٢/٣٨٩ مِنْ الْوَافِرِ] :

أَرَى أَسْفِي وَمَا سِرْنَا بَعِيداً فَكَيْفَ إِذَا غَدَا السَّيْرُ أَبْتِرَاكَا ؟

وَقَوْلُهُ [مِنْ الطُّوِيلِ] :

وَمَنْ كَانَ فِي السَّرَّاءِ فِي حَالٍ مُعْجَبٍ فَمَحْصُولُهُ مِنْهَا عَلَى حَالٍ نَادِمٍ

وَبَعْضُهُ مِنْ قَوْلِ سُحَيْمٍ [فِي «دِيَوَانِهِ» ٥٦ مِنْ الطُّوِيلِ] :

أَشَوْقَا وَلَمَّا يَمُضْ لِي غَيْرُ لَيْلَةٍ؟ فَكَيْفَ إِذَا جَدَّ أَلْمَطِيُّ بِنَا عَشْرَا؟!

وقال أشجع [في «ديوانه» ٢٢٦ من المتقارب] :

فَهَا أَنْتَ تَبْكِي وَهُمْ جِرَّةٌ فَكَيْفَ تَكُونُ إِذَا وَدَّعُوا؟!

وقال آخر [من الطويل] :

لَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي خِيفَةً لِفِرَاقِهِ فَكَيْفَ إِذَا بَانَ الْحَبِيبُ وَوَدَّعَا

وقال قيس [ابن ذريح في «الأغاني» ٢٥٠/٩ من الطويل] :

وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالنَّوَى لَا أَظُنُّهُ بِنَا وَبِكُمْ لَمْ نَذِرْ مَا هُوَ صَانِعٌ^(١)

وقال أبو المطاع ذو القرنين ابن حمدان [من الطويل] :

لَقَدْ كَانَ شَكْنِي فِي الْفِرَاقِ يَرُوعُنِي فَكَيْفَ يَكُونُ الْيَوْمَ وَهُوَ يَقِينُ؟

وقال قيس أيضاً [المجنون في «ديوانه» ٢٧٥ من الطويل] :

وَلَيْنِي لِأَبْكِي الْيَوْمَ مِنْ حَذَرِي غَدًا فِرَاقِكَ وَالْحَيَّانِ مُجْتَمِعَانِ

وقال الأحوص [في «ديوانه» ١٢٧ من الطويل] :

وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالنَّوَى مُطْمَئِنَّةً بِنَا وَبِكُمْ؛ مِنْ خَوْفِ مَا أَلْبَسَ صَانِعٌ^(٢)

وقال كثير بن عبد الرحمن [من الطويل] :

وَلَيْسَ عَلَى شَخِطِ النَّوَى كَثْرُ الْبُكَاءِ لَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالْمَزَارُ قَرِيبُ

وَأَنشَدَ ثعلب للعباس بن الأحنف [في «ديوانه» ٣٣ من المنسرح] :

قَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَأَنْتَ رَاضِيَةٌ حِذَارَ هَذَا الصُّدُودِ وَالْغَضَبِ

(١) النَّوَى : البُعد .

(٢) النَّوَى : الدَّارُ .

وقال الحماسي [في «ديوان الحماسة» ١٢٤/٢ من الوافر] :

فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الْفِرَاقِ
وَلَا يَبْعُدُ عَمَّا نَحْنُ فِيهِ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أَذْيَنَةَ [في «ديوانه» ١٣ من الطويل] :
كَأَنَّ خُرَامِيَ طَلَّةً صَاغَهَا الْتَدْيُ وَفَارَةَ مِنْكَ ضَمَّتْهَا ثِيَابُهَا^(١)
إِذَا أَتَرَبَّتْ سَعْدَى لَهَجَتْ بِحُبِّهَا وَإِنْ تَغْتَرِبَ يَوْمًا يَرُغِكَ أَغْتَرِبُهَا
وَكَذَتْ لِذِكْرَاهَا تَطِيرُ صَبَابَةً وَغَالَبَتْ نَفْسًا زَادَ شَوْقًا غِلَابُهَا
فَفِي أَيِّ هَذَا رَاحَةٌ لَكَ عِنْدَهَا؟ سَوَاءٌ لَعْمَرِي نَائِيهَا وَأَقْرِبُهَا

وقد مرَّ بعض ما يشبه هذا في المجلس الثاني ، قبيل قول الناظم
[في «المكبري» ٢٩٧/١ من المنسرح] :

بَانُوا بِخُرْعُوْبَةٍ لَهَا كَفَلٌ يَكَادُ عِنْدَ الْفِيَامِ يُفْعِدُهَا^(٢)
وفي المجلس الثاني عشر في الكلام على قوله [في «المكبري»
٣٣٢/٢ من الكامل] :

مَا لَاحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ إِلَّا أَنْشَيْتُ وَلِي فَوَادُ شَيْقُ
هذا ، والشوْطُ بطينٌ ، والدنيا تعبٌ ، والافتراقُ نكدٌ ، والعيشُ
ضيقٌ ، والراحةُ مُحالٌ ، ولكن ما أحسن قول الطغرائي [في «ديوانه»
٣٠٦ من البسيط] :

أَعْلَلُ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقُبُهَا مَا أَضِيقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فَسْحَةُ الْأَمَلِ

-
- (١) الخُرَامِي : نبات طيب الرائحة ، من فصيلة الزنبقيات . طَلَّةٌ : المطر الخفيف الضعيف . فَارَةُ الْمَسْكِ : وعاء المسك .
(٢) الخرعوبة : المرأة الشابة اللينة الطويلة الطريفة ، وقال الجوهري : الدقيقَةُ العظام الناعمة . الْكَفَلُ : الردف .

وكانَ ابْنُ الخطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يستحسنُ قولَ عبدَةِ بنِ الطَّيِّبِ [في «ديوانه» ٧٥ من البسيط] :

وَالْمَرْءُ سَاعٍ لِأَمْرِ لَيْسَ يُذَرِّكُهُ وَالْعَيْشُ شُعْ وَإِشْفَاقٌ وَتَأْمِيلٌ^(١)
وقد مرَّ - في غير هذا المجلس - بعضُ ما يتعلَّقُ بِالْأَمَانِيِّ ،
ونزيدُ هُنَا أَنَّ العِمَادَ الكَاتِبَ أَغَارَ عَلَى بَيْتِ الطُّغْرَايْنِيِّ فَقَالَ [مِنَ الطُّوِيلِ] :
وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا صَحَائِفُ نُورُخُ فِيهَا نُمُحَى وَنُمَحَى
وَلَمْ أَرْ عَيْشًا مِثْلَ دَائِرَةِ الْمُنَى تُوَسَّعُهَا الْأَمَالُ وَالْعَيْشُ ضَيِّقُ

وقالَ آخَرُ [ابو الفتح البُستِي كما في «النجوم الزاهرة» ٢٢٩/٤ من الوافر] :

أَعْلَلُ بِالْمُنَى قَلْبِي لِأَنِّي أَفْرُجُ بِالْأَمَانِيِّ أَلْهَمَ عَنِّي
وَأَعْلَمُ أَنَّ وَضْلِكَ لَا يُرْجَى وَلَكِنْ لَا أَقِلُّ مِنَ التَّمْنَى

وقالَ أَبُو الحُسَيْنِ الجَزَّارُ [مِنَ الخفيف] :

لَيْتَ شِعْرِي مَا أَلْعُذُّ لَوْلَا قَضَاءُ أَلْهُ فِي رِزْقِهِ وَفِي حِرْمَانِي
وَلَقَدْ كَذْتُ أَنَّ أَهْيَمَ بِحَمْلِ أَلْسَ هُمْ لَوْلَا تَعَلُّلِي بِالْأَمَانِيِّ

وقالَ أَبُو عِبَادَةَ [مِنَ الكامل] :

لَوْلَا الرَّجَاءُ لَمِثُّ مِنَ أَلَمِ الْنَوَى لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلُ

وَمَنْ أَعْتَقَدَ حَالِ الدُّنْيَا ، وَأَنَّهَا تَغُرُّ ثُمَّ تَمُرُّ . . يَفْرَحُ بِخُلُوقِهَا ، وَلَمْ يَجْزَعْ لَمُرِّهَا ، قَالَ أَبُو عَمْرٍو ابْنُ الْعَلَاءِ [في «وفيات الأعيان» ٣/٣١٨] : كُنْتُ إِلَيْهَا

أَدُورُ فِي ضَيْعَةٍ لِي ، مَعَ شِدَّةِ الْحَرِّ ، فَسَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ [مِنَ الطُّوِيلِ] :

وإِنَّ أَمْرًا دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ لَمْسْتَمْسِكْ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورِ

[فالتفتُ فَلَمْ أَرِ أَحَدًا فَجَعَلَتْهُ نَقْشَ خَاتَمِي] .

(١) «البيان والتبيين» (١/١٣٣) .

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : وَجَذْتُ لَسَعِيدِ بْنِ وَهَيْبٍ بَيْتَيْنِ كَأَنَّمَا أَخَذَهُمَا
 مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ [الأنعام : ٤٤] ،
 وَهُمَا قَوْلُهُ [بل الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانه » ٥٣٦ من البسيط] :

أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ غَيْبَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
 وَسَلَّمْتِكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْرِ اللَّيَالِي يَخْصُلُ الْكَدَرُ

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْبُحْتَرِيِّ [بل القائل أبو علي المسيبي كما في « قرى الضيف »

١٦٨/٤ من الطويل] :

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا سَاعَةٌ نُمُّ تَنْقِصِي بِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ بَلَاءٍ وَمِنْ خَفْصِ ؟ !
 فَهَوْنُكَ لَا تَخْفَلُ إِسَاءَةَ عَارِضٍ وَلَا فَرْحَةَ تَأْتِي فَكِلْتَاهُمَا تَمْضِي

وَقَالَ آخَرُ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

فَمَا أَكْتَابَتْ نَفْسٌ قَدَامَ أَكْتَابِهَا وَلَا أَبْتَهَجَتْ نَفْسٌ قَدَامَ أَبْتِهَاجِهَا

وَقَالَ آخَرُ [الْبُحْتَرِيُّ فِي « دِيَوَانِهِ » ٥٤/١ مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ لَمْ يَرْ خَفْضَهَا نَعِيمًا ، وَلَمْ يَعْدُدْ تَصَرُّفَهَا بِلَوَى

وَقَالَ الرُّضَيْيُّ أَوْ الْمُرْتَضِيُّ [الْمُرْتَضَى فِي « دِيَوَانِهِ » ٤٩٤/٣ مِنْ البسيط] :

وَكَيْفَ آنَسُ بِالدُّنْيَا وَلَسْتُ أَرَى إِلَّا أَمْرًا قَدْ تَعَرَّى مِنْ عَوَارِيهَا ؟
 نَضَبُوا إِلَيْهَا بِأَمَالٍ مُخَيَّيَةٍ كَأَنَّنَا مَا نَرَى عُقْبَى أَمَانِيهَا
 فِي وَخْشَةِ الدَّارِ مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا كُلُّ أَعْتِسَارٍ لِمَنْ قَدْ ظَلَّ بِأَوْنِهَا
 لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا قَلْبِي لَهَا وَطَنٌ وَقَدْ رَأَيْتُ طُلُولًا مِنْ مَغَانِيهَا

وَقَالَ أَبُو عِبَادَةَ [فِي « دِيَوَانِهِ » ٢٣١-٢٣٢ مِنْ الطَّوِيلِ] :

مَتَى تَسْتَرِدُّ فَضْلًا مِنَ الْعُمَرِ تَعْتَرِفُ بِسَجْلِكَ مِنْ شَهْدِ الْخُطُوبِ وَصَابِهَا^(١)

(١) السجلُ : الدلو العظيمُ . الشَّهْدُ : العَسَلُ . الصَّابُ : العَلَقُ .

تُشَدُّبُنَا الدُّنْيَا بِأَخْفَضِ سَعِيهَا وَغَوْلُ الْأَفَاعِي لِمَةً مِنْ لُعَابِهَا^(١)
يَسْرُ بِعُمَرَانِ الدِّيَارِ مُضَلَّلٌ وَعُمَرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خَرَابِهَا
وَلَمْ أَرْتَضِ الدُّنْيَا أَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ أَرْتَضَائِهَا أَوَانَ ذَهَابِهَا؟
أَقُولُ لِمَكْذُوبٍ مِنَ الدَّهْرِ زَاغٍ عَنْ تَخَيَّرِ آرَاءِ الْحَجَا وَأَتَّخِابِهَا
سَيْرِ دُنْيَاكَ أَوْ يَثْوِيكَ أَنَّكَ مُخْلِسٌ إِلَى شَقَّةٍ يُبْكِيكَ بُعْدُ مَا بَهَا^(٢)
وَهَلْ أَنْتَ فِي مَرْمُوسَةٍ طَالَ أَخْذُهَا مِنَ النَّاسِ إِلَّا حَفَنَةٌ مِنْ تُرَابِهَا^(٣)

ومنها والضميرُ فيه عائِدٌ إلى الحبيبة [البحرئِي في «ديوانه» ١/ ٢٣١ من الطويل] :

يُفَاوِتُ مِنْ تَأْلِيْفِ شَعْبِي وَشَعْبِهَا تَنَاهِي شَبَابِي وَأَبْتَدَاءُ شَبَابِهَا^(٤)
ثُمَّ إِنَّ قَوْلَهُ : (إِلَّا حَفَنَةٌ مِنْ تُرَابِهَا) شِبْهُهُ بِقَوْلِي مِنْ قِطْعَةٍ مَرَّةً
بَعْضُهَا [في «ديوان المؤلف» ق : ١١٧ مِنْ الطويل] :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا الطُّيُنُ وَالْعَكْسُ صَالِحٌ فَلِلَّهِ ذَاتُ عَدَدَتِهَا نُعُوتُهَا
وَيَشْهَدُ اللَّهُ وَالرَّقِيبُ الْأَدْنَى عَلَيَّ ، أَنِّي لَمْ أَكُنْ وَقَفْتُ عَلَى مَا قَالَهُ
الْبُحْرَيْيُّ إِلَّا بَعْدَ مَدَّةٍ مِنْ إِنْشَائِي لَتِلْكَ الْقِطْعَةِ ، الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا
الْبَيْتُ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ ؛ إِذْ دَلَّتِ الْمَوَارِدُ عَلَى إِصَابَةِ الْمَرْمَى ، وَتَطْبِيقِ
الْمَحْزُ ؛ فَقَدْ حَكَمِي [في «الإيضاح في علوم البلاغة» ١/ ٣٨٠] : أَنَّ أَبْنَ مِيَادَةَ
أَنْشَدَ لِنَفْسِهِ [مِنْ الطُّوِيلِ] :

- (١) شَدَّبَ الشَّجَرَ : أَسْقَطَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْأَغْصَانِ .
- (٢) مَخْلِسٌ : مَتَّخِذٌ حِلْسًا ، وَهُوَ مَا يَوْضَعُ فَوْقَ الرَّحْلِ ، وَالْمَعْنَى : أَنْكَ مَتَّهِيٌّ لِلرَّحْلِ .
- (٣) الْمَرْمُوسَةُ : مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَمَسَ ، غَطَى وَدَفَنَ .
- (٤) الشَّعْبُ : مَا تَفَرَّقَ مِنَ الشَّيْءِ .

مُفِيدٌ وَمِثْلَافٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُ تَهَلَّلَ وَأَهْتَزَّ أَهْتَزَّازَ الْمُهْتَدِ
فَقَالُوا لَهُ : أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ ؟ هَذَا الْبَيْتُ موجودٌ فِي « دِيوانِ
الْحُطَيْبَةِ » [٥١] ، فَقَالَ : الْآنَ عَلِمْتُ أَنِّي شَاعِرٌ ؛ إِذْ وافقْتُهُ عَلَى قَوْلِهِ
وَلَمْ أَسْمَعْهُ .

* * *

المجلس الرابع عشر

[قال أبو الطيب المتنبي في «العُكْبَرِيّ» ٣٣٧/٢ من الكامل] :

وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضٍ سَحَابُ أَكْفُهُمْ مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُورُهَا لَا تُورِقُ

يقول : إِنَّهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ صَخُورِ أَرْضِهِمْ ، كَيْفَ لَا تُورِقُ ، وقد الجود الذي تورق منه
شملها جودهم ، وأنعشها وجودهم ، وهو من قول العربي [من الصخور
البيسط] :

لَوْ أَنَّ رَاحَتَهُ مَرَّتْ عَلَى حَجَرٍ صَلْدٍ... لَأُورِقَ فِيهَا ذَلِكَ الْحَجَرُ
وقال أبو صخر الهذلي ، أو قيس ، على اختلاف في الرواية [بل
قيس في «ديوانه» ١٣٠ من الطويل] :

نَكَادُ يَدَيَّ تَنْدَى إِذَا مَا لَمَسْتَهَا وَتَنَبَّتُ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ الْخَضَرُ
وقال مسلم بن الوليد [من الكامل] :

لَوْ أَنَّ كَفًّا أَغْشَبَتْ لِسَمَاحَةٍ لَبَدَا بِرَاحَتِهِ النَّبَاتُ الْأَخْضَرُ
وقال أبو الشَّمَقَمِي - وكان مع طاهر بن الحسين في حَرَّاقَةِ
بد (دجلة) - [في «البداية والنهاية» ٣٦٠/١٠ من المتقارب] :

عَجِبْتُ لِحَرَّاقَةِ ابْنِ الْحُسَيْنِ مِنْ كَيْفَ تَعُومُ وَلَا تَغْرُقُ ؟
وَبَخْرَانٍ مِنْ فَوْقِهَا وَاحِدٌ وَآخَرُ مِنْ تَحْتِهَا مُطْبِقُ

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ عَيْنَانُهَا وَقَدْ مَسَّهَا كَيْفَ لَا تُورِقُ ؟

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ١٥٣١/٣ من الطويل] - وأظنني قد سقتني في الكلام على قوله : (يُعْطِي فَلَا مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا) - :

مَوَاهِبُ أَعْدَادُ الْأَمَانِي وَخَلْفَهَا عِدَاتُ يَكَادُ الْعُودُ مِنْهُنَّ يُورِقُ

وقال [في «ديوانه» ١٣٧/٣ من الطويل] :

لَهُ هِزَّةٌ مِنْ أَرْحِيَّةِ جُودِهِ تَكَادُ لَهَا الْأَرْضُ الْجَدِيبَةُ تُعْشِبُ

ومرأ أيضاً عن الأصمعي قول الأعرابي [من الكامل] :

فَلْيَنْبَعْنَ سَمَاحُ جُودِكَ فِي الثَّرَى وَلْيُورِقَنَّ بِقُرْبِكَ الصَّخْرُ

وقال بعضهم يمدح أبا دلف العجلي [من البسيط] :

وَلَوْ يَجُوزُ لَقَالَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لَوْلَا أَبُو دَلْفٍ لَمْ يُورِقِ الشَّجَرُ

قَرَمٌ إِذَا مَا حَوَى فِي كَفِّهِ حَجَرًا يَفِيضُ فِي كَفِّهِ مِنْ جُودِهِ الْحَجَرُ

وقال شاعر (المعرّة) [في «سقط الزند» ٢٦٠ من الكامل] :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلَا تَسْعُرُ بَأْسِهِ لَاخْضَرَ فِي يُمْنِي يَدِيهِ الْأَسْمَرُ^(١)

وقد سبق ذكر البيت المختلف في نسبته وهو [في «ديوان أبي تمام» ١٥/٢

من الطويل] :

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَسِّقِ اللَّهُ سَائِلُهُ

وقبله - وهو موضع الشاهد - :

يَمُرُّ عَلَى الْوَادِي فَتَبْكِي رِمَالُهُ عَلَيْهِ وَيَا لِنَادِي فَتَبْكِي أَرَامِلُهُ

(١) التسعُرُ : الالتهاب . الأسمرُ : الرُّمَحُ .

ولن تبكي الرمال . . إلا وقد أستيرث لها الحياة التي تنمو بجود الممدوح .

وقال ابن حيوس يمدح صاحب بن عبّاد [في «وفيات الأعيان» ٤/٤٤١ من الطويل] :

مِنَ النَّفَرِ الْعَالِينَ فِي السَّلَامِ وَالْوَعَى وَأَهْلِ الْمَعَالِي وَالْعَوَالِي وَالْهَى
إِذَا نَزَلُوا أَخْضَرَ الثَّرَى مِنْ نَزُولِهِمْ وَإِنْ نَازَلُوا أَحْمَرَ الْقَنَا مِنْ نِزَالِهَا
قال ابن خلكان [في «وفيات الأعيان» ٤/٤٤١] : هذا والله الشعر الخالص ، الذي لا يشوبه شيء من الحشو .

وإنني لأتعبج من ألقاضي في مبالغته بمدح ذين البيتين إلى هذا الحد ، مع أنه الناقد البصير ، غير مدافع ، والحال أن عليهما ملاحظتين : الأولى : في قافية البيت الأول ؛ فإنه لا داعي لها بعد سبق الأهل غير الاجتلاب .

والثانية : في تأنيث الضمير من ضرب البيت الثاني مع تذكيره في عروضه ، وكل ذلك ممّا يتنزّه عنه أهل الإحسان .

وفي بعض الأبيات التي سقناها غلو لا يقبل ، ولو جرى أبو مسألة بلاغية في الغلو الطيب على عادته من الإغراق . . لادّعى إिरاق الشجر ، ومن المقرّر أنه لا يقبل من المبالغة إلا :

١- ما أمكن وجوده عقلاً وعادة ، كقوله ﷺ : «لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ . . أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»^(١) ؛ فإنه ممكن عادة وعقلاً .

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) في الصوم .

وكقولِ أُمْرِئِ القَيْسِ [في «ديوانه» ١٥٦ من الطويل] :

فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ ثَوْرٍ وَنَعَجَةٍ دِرَاكًا وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلَ^(١)

وقولِ النَّازِمِ [في «المكبري» ١٨٠/١ من الطويل] :

وَأَضْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ فَقَيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ^(٢)

وهو ما يسمونه : (التَّبْلِغُ) .

٢- أو ما أمكن عقلاً لا عادةً ، ومثلوا له بقولِ عَمْرِو بْنِ الْأَهْتَمِ [بل

القاتل عمير بن كريم التغلبي كما في «خزانة الأدب» ٨/٢ من الوافر] :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا وَتَتْبَعُهُ الْكِرَامَةُ حَيْثُ مَالَا

وفيه نظرٌ ؛ لإمكانِ أَنَّ المعنى تزويده بما يكون معه في كلِّ جهةٍ ينتحي إليها ، وهذا موجودٌ بكثرةٍ في أحوالِ الكرامِ ، وأربابِ المروءاتِ ، فلا يستحيلُ عادةً كما زعموا ، وذلك ما يسمونه : (الإغراق) .

٣- أو ما لا يمكنُ عقلاً ولا عادةً ، كقولِ أَبِي نُوَاسٍ [في «ديوانه»

٤١٣ من الكامل] :

وَأَخَفْتُ أَهْلَ الشُّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافَكَ الْكُفْفُ الْتَنِي لَمْ تُخْلَقِ

وكلُّ ما سبقَ في المجلسِ الأوَّلِ ، من مثلِ قولِ النَّازِمِ [في

«المكبري» ١٨٦/٤ من البسيط] :

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَنْبِي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

(١) عادى : وإلى الجري حتى جمع بين الثور والبقر ، على تباعدٍ ما كان بينهما .

دراكاً : سريعاً . لم ينضح : لم يعرق .

(٢) قَيْتُهُ : تَبَعْتُهُ .

وهو ما يستؤنه : (أَلْغُلُوْ) وهو مردود ما لم يقترن به ما يُخرجه
عن الامتناع ، كقوله جل شأنه في الثور المبين ، والحبل المتين :
﴿ يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٠] .

وقوله : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْنَهَا ﴾ [النور : ٤٠] .

وقوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِزُّ الْجِبَالِ هَذَا ﴾

[مريم : ٩٠] .

وقوله : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

وكما يروى عنه عليه السلام : « كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَإِنْ كَانَ الْمَاءُ الْقَرَّاحُ ^(١) .
فإسكار الماء الخالص مستحيل ، وإنما كساه القبول اقترانه به
(إن) الموجودة ؛ لفرض المحال وقوعه .

ومثلوا له أيضاً بقول المعري [في « سقط الزند » ١٠٣ من الوافر] :

شَجَا رَجَبًا وَأَفْرَاسًا وَإِنْلًا وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُو الرِّحَالَ

وقول حمديس [في « ديوانه » ٣٢٩ من الكامل] :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً عَنْ ظِلِّهِ لَوْ كَانَ يَزْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وعندي أنه ليس من المقبول ، وإنما المقبول ما قاله المعري في

معناه ، وهو [في « سقط الزند » ١٠٠ من الوافر] :

وَلَمَّا لَمْ يُسَابِقْهُنَّ شَيْءٌ مِنْ الْحَيَوَانِ سَابِقْنَ الظُّلَالَ

(١) القَرَّاحُ : الخالص . والحديث أخرجه الدلمي في « الفردوس بمأثور
الخطاب » (٢٥٠ / ٣) ، والجملة الأولى منه ثابتة في « الصحيحين » وغيرهما
عن أبي موسى ، بل وثابتة عن جماعة من الصحابة عند غيرهما من أصحاب
السنن والمسانيد . انظر صحيح الجامع الصغير رقم (٤٥٥٠) .

البخل الذي تجف منه
البحار

وفي عكسٍ ما يمدحُ به النَّاطِمُ مِنْ سَمَاحَةِ الْكَفِّ . . يقولُ جريرٌ
[الآياتُ في « روضةِ العقلاء » (٢٤١ / ١) غير معزوةٍ لقائلٍ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّمَا خُلِقْتَ كَفَّاهُ مِنْ حَجَرٍ فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالنَّدَى عَمَلُ
يَرَى تَيْمَمَهُ بِالشَّطِّ نَافِلَةً مَخَافَةً أَنْ يُرَى فِي كَفِّهِ بَلَلُ

ويقولُ الأَخْطَلُ [في « ديوانه » ٢٤٩ مِنْ الكَامِلِ] :

كَفُّ الْيَدَيْنِ مِنَ الْعَطِيَّةِ مُنْسِكٌ مَا إِنْ تَبَضَّ صِفَاتُهُ بِبِلَالٍ

وقالَ أَبُو عَبْدِ رَبِّهِ [في « ديوانه » ١١٠ مِنْ البسيطِ] :

يَرَاعَةُ غَرْنِي مِنْهَا وَمِنْصُ سَنَا حَتَّى مَدَدْتُ إِلَيْهِ الْكَفَّ مُقْتَسِمًا^(١)
فَصَادَفْتُ حَجْرًا لَوْ كُنْتُ تَضْرِبُهُ مِنْ لَوْمِهِ بَعْصًا مُوسَى لَمَّا أُتْبِجَسَا!
كَأَنَّمَا صَنِغَ مِنْ لَوْمٍ وَمِنْ كَذِبٍ فَكَانَ ذَاكَ لَهُ رُوحًا وَذَا نَفْسًا

وفيما يوافقُهُ يقولُ حُجَبَةُ بْنُ الْمَضْرِبِ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

أَنَاسٌ إِذَا مَا الدَّهْرُ أَظْلَمَ وَجْهَهُ فَأَيْدِيهِمْ بِيضٌ وَأَوْجُهُهُمْ غُرٌّ
يَصُونُونَ أَحْسَابًا وَمَجْدًا مُؤَثَّلًا بِبَذْلِ أَكْفٍ دُونَهَا الْمَزْنُ وَالْبَحْرُ
فَلَوْ لَأَمَسَ الصَّخْرُ الْأَصَمُّ أَكْفَهُمْ أَفَاضَ يَنَابِيعَ النَّدَى ذَلِكَ الصَّخْرُ

ويقولُ أَبُو تَمَّامٍ [في « ديوانه » ١٤ / ٢ مِنْ الطَّوِيلِ] :

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ

ويقولُ أَبُو الرُّومِيِّ [في « ديوانه » ٢٠٩٨ / ٥ مِنْ الطَّوِيلِ] :

مُقَبَّلُ ظَهْرِ الْكَفِّ وَهَابُ بَطْنِهَا لَهُ رَاحَةٌ فِيهَا الْحَطِيمُ وَزَمْزَمُ

(١) البراعة : حشرة صغيرة يكون منها شبيهة الضوء بالليل .

ولقد أخطأ ابنُ الرُّوميِّ ، إذ توهمَ أنَّ المَقْبَلَ الحَطيِّمُ ، وإنَّما
يُقْبَلُ الرُّكْنُ الْأَسْوَدُ ، وليسَ بهِ .

ويقولُ النَّاطِمُ [في «المَكْبَرِيِّ» ٢٣١/١ مِنْ الكَامِلِ] :
عَجِبًا لَهُ حِفْظُ الْعِنَانِ بِأَنْمُلٍ مَا حِفْظُهَا الْأَشْيَاءَ مِنْ عَادَاتِهَا
وفي الْعَجْزِ مَا لَا يَخْفَى مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ .

* * *

[قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ٣٣٨/٢ من الكامل] :

وَتَفُوحُ مِنْ طِيبِ الثَّنَاءِ رَوَائِحُ لَهُمْ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَشَقُّ

شرح المطلع يقول : إِنَّ الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ موجودٌ في كُلِّ مَكَانٍ ، ومنهُ تَفُوحُ الرَوَائِحُ الطَّيِّبَةُ ، واللهِ دُرُّ الْقَائِلِ [من الطويل] :

وَلَيْسَ أَرِنُجُ الْمِسْكِ مَا تَجِدُونَهُ وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الثَّنَاءُ الْمُخَلَّفُ

والطبيب الفائح من المحبوب لا يمكن أن يخفى وهو معنى شائع ذائع ، يتصل به كثيرٌ ممَّا سبق في شرح قوله [في «العكبري» ١٦٤/٣ من البسيط] :

يُجَرُّ شَوْقًا فَلَوْلَا أَنْ رَائِحَةً تَزُورُهُ مِنْ رِيَّاحِ الشَّرْقِ مَا عَقَلَا

وقد أحلنا على ما هنا قبيل قوله [في «العكبري» ٣١٧/١ من الخفيف] :

هَذِهِ مُهَجَّتِي لَدَيْكَ لِحَيْنِي فَأَنْقُصِي مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَرِيدِي^(١)

وقال المجنون ، أو مسلم بن الوليد [بل مسلم في «ديوانه» ٣٢٠ من

الطويل] :

أَرَادُوا لِيُخَفُّوا قَبْرَهَا عَنْ مُحِبِّهَا وَلَكِنَّ طِيبَ الْقَبْرِ دَلَّ عَلَى الْقَبْرِ

وقال ابن الرومي [في «ديوانه» ١٧١٤/٤ من السريع] :

إِنْ جَاءَ مَنْ يَبْغِي لَنَا مَنْزِلًا قُولُوا لَهُ يَمْشِي وَيَسْتَشِيقُ

(١) الحَيْنُ : الهلاك .

وقال [في «ديوانه» ١٤٩٠/٤ من الكامل] :

أَعْبَقْتُهُ مِنْ رِيحِ طِينِكَ عَبَقَةً كَادَتْ تَكُونُ ثَنَاءَكَ الْمَسْمُوعَا

وقال ابنُ عِمَارَةَ السُّلَمِيُّ [في «الأغاني» ٢٨٠/١ من الطويل] :

يَبِينُ ظِلَامُ اللَّيْلِ مِنْ حُسْنِ وَجْهِهَا وَتَهْدِي بِطِيبِ الرِّيحِ مَنْ جَاءَ مِنْ نَجْدِ

وقال أبو عُبَادَةَ [في «ديوانه» ١٢٦٣/٢ من الطويل] :

وَحَاوَلْنَا كَيْثَمَانَ التَّرْحُلِ فِي الدُّجَى فَنَمَّ بِهِنَّ الْمِسْكُ لَمَّا تَضَوَّعَا

وقال آخرُ [من الطويل] :

وَأَخْفَوْا عَلَى تِلْكَ الْمَطَايَا مَسِيرَهُمْ فَنَمَّ عَلَيْهِمْ فِي الظَّلَامِ التَّنَسُّمُ

وقال آخرُ [وهو عبدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْبَوَابِ كما في «الأغاني» ٤٢/٢٣ من

الطويل] :

وَلَوْ أَنَّ رَكْبًا يَمْمُوكَ لَقَادَهُمْ أَرِنُجَكَ حَتَّى يَسْتَدِلَّ بِكَ الرُّكْبُ

وقال الطغرائي [في «ديوانه» ٣٠٤ من البسيط] :

فَسِرْ بِنَا فِي ذِمَامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفَا فَتَفَحُّ الطُّيْبِ تَهْدِينَا إِلَى الْحَلَلِ^(١)

وقال بعضهم يمدحُ أهلَ البيتِ [من الكامل] :

لَوْ كَانَ يُوجَدُ رِيحُ مَجْدٍ فَائِحَا لَوَجَدْتُهُ مِنْهُمْ عَلَى أَمِيَالِ
نُورُ الْبُيُوتِ وَالْمَكَارِمِ فِيهِمْ مُتَوَقِّدٌ فِي الشَّيْبِ وَالْأَطْفَالِ

(١) العسفُ : ركوبُ المفازة وقطعُها بغيرِ قصدٍ ولا هدايةٍ ولا توخِّي طريقٍ مسلوكةٍ .

وقد تمثّل بهما مسلمُ بنُ بلالٍ لجعفرِ بنِ سليمانَ حينما خطبَ
خطبةً لم يعرفِ الناسُ أهيَ أحسنُ أم وجهه ؟

والمعنى متكرّرٌ عندَ الناظم ، منه قوله [في «المكبري» ٢٩٧/٢ من
الوافر] :

أدِلَّتْهَا رِيَّاحُ الْمِسْكِ مِنْهُ إِذَا فَتَحْتَ مَخْرَجَهَا أَنْثِشَاقًا
وقوله [في «المكبري» ٣٩٣/٢ من الوافر] :

وَذَاكَ الْنَشْرُ عِرْضُكَ كَانَ مِسْكَاً وَهَذَا الْشَّعْرُ فَهْرِي وَالْمَدَاكَ^(١)
وقوله [في «المكبري» ٢٠٢/٤ من الكامل] :

أَرَجَ الطَّرِيقُ فَمَا مَرَزْتَ بِمَوْضِعٍ إِلَّا أَقَامَ بِهِ الشَّدَا مُسْتَوِطَنَا^(٢)
وقوله [في «المكبري» ٤٥/١ من الوافر] :

تَنْفَسُ وَالْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرُ فَنَعْرِفُ طِيبَ ذَلِكَ فِي الْهَوَاءِ
وقوله [في «المكبري» ٢٠/٢ من الطويل] :

إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفَاوَحَ مِسْكَ الْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ^(٣)
وقوله : (أَقَامَ بِهِ الشَّدَا مُسْتَوِطَنَا) مأخوذٌ ممّا جاءَ في صفته ﷺ ..
أنّه إذا مرّ في مكانٍ .. عُرفَ مِن طيبه مروءة به ، وإذا جلسَ بموضع ..

-
- (١) النشْرُ : الرائحة الطيبة . الفهرُ : الحجرُ الذي يسحقُ به الطيبُ . المداكُ :
الصلاية التي يداكُ عليها ، والدوكُ : الدقُّ والطحنُ .
(٢) أَرَجَ الطيبُ : فاح . الشدا : حدة الرائحة .
(٣) الأحداجُ : مراكبُ النساءِ . تفاوَحَ : تفاعلٌ من فاح يفوحُ . الرندُ : نبتٌ طيبُ
الرائحة .

بَقِيَ عَرَفُهُ^(١) فِيهِ أَيَّامًا بَعْدَهُ ، وَإِذَا صَافَحَهُ إِنْسَانٌ ، أَوْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ صَبِيٍّ . . . عُرِفَ ذَلِكَ ؛ لَطِيبِ رِيَّاهُ .

وَأِنَّمَا سُمِّيَتْ دَارُهُ (طَيِّبَةً) ؛ لَكثَرَةِ مَا يَفُوحُ بِهَا مِنْ رَوَائِحِ الطَّيِّبِ .

وَقَوْلُهُ : (تَنَفَّسُ وَالْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرٌ) . . . إِلَى آخِرِهِ أَلَمْ فِيهِ أَكْذَبُ الشَّعْرِ بِقَوْلِ مَهْلَهْل [في «الأغاني» ٥٨/٥ مِنْ الْوَافِرِ] :

فَلَوْلَا الْرَّيْحُ أَسْمَعُ مَنْ بِحَجَرٍ صَلِيلٍ الْبَيْضُ تُفْرَعُ بِالذُّكُورِ
فَبَيْنَ (حَجَرٍ) وَبَيْنَ مَوْضِعِ الْوَاقِعَةِ عَشْرَةُ أَيَّامٍ ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْمَعُ
الصَّوْتُ فِي الْعَادَةِ مَعَ سَكُونِ الْهَوَاءِ مِنْ مَقْدَارِ مِيلٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ
بَعْضُهُمْ : إِنَّ هَذَا أَكْذَبُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهِ
صَاحِبُنَا بَعِينِ الْإِسْتِحْسَانِ ؛ لِأَنَّهُ يَتَصَيَّدُ الْإِغْرَابَ مِنْ حَيْثُمَا كَانَ ،
فَنَقَلَ الْمَسْمُوعَ إِلَى الْمَشْمُومِ ، غَيْرَ أَنَّ الْحَازِمِيَّ ذَكَرَ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ [كَمَا فِي «وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ» ٢٧٧/٣] : أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ عَلَى
(سَلْعٍ) - وَهُوَ جَبَلٌ عِنْدَ (الْمَدِينَةِ) - فَيَنَادِي غُلَمَانَهُ وَهُمْ بِالْغَابَةِ ،
وَذَلِكَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ، وَبَيْنَ الْغَابَةِ وَ(سَلْعٍ) . . . ثَمَانِيَةُ أَمْيَالٍ .

وَذَكَرَ الْمُبَرِّدُ : أَنَّ غَارَةً جَاءَتْ وَقْتُ الصَّبْحِ . . . فَصَاحَ الْعَبَّاسُ
بِأَعْلَى صَوْتِهِ : وَاصْبَاحَاهُ ، فَلَمْ تَسْمَعْهُ حَامِلٌ فِي الْحَيِّ إِلَّا وَضَعَتْ .

وَلِئِنْ قِيلَ : إِنَّ أَكْثَرَ الشَّوَاهِدِ الَّتِي سَقْنَا لَيْسَتْ فِي طَيْبِ الشَّنَاءِ ، طَيْبِ الشَّنَاءِ تَابِعَ لَطِيبِ
وَأِنَّمَا هِيَ فِي طَيْبِ الذَّاتِ ، وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ ، فَالْجَوَابُ : أَنَّ الذَّاتِ

(١) الْعَرَفُ : الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ . قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ سِرَاجُ الدِّينِ فِي كِتَابِ « مُحَمَّدٍ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » (ص / ٣٠) : رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى وَابْرَازُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ .

لا مشاحَّة ؛ لأنَّ طيبَ الذاتِ متبوعٌ بطيبِ الشئاءِ لا محالة ، والجامعُ مجردُ الطيبِ .

ويعجبني قولُ ذي الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ١٠٤٥/٢ من الطويل] :

يَطِيبُ تُرَابُ الْأَرْضِ إِنْ نَزَلُوا بِهَا وَيَخْتَالُ أَنْ تَغْلُو عَلَيْهَا الْمَنَابِرُ

وممَّا يتعلَّقُ بطيبِ الشئاءِ قولُ أبي تمامٍ [من الكامل] :

عَذَبَتْ مَمَادِحُهُ بِأَفْوَاهِ الْوَرَى فَتَنَّاوَةٌ يَتَنَابُ كُلُّ مَكَانٍ

بل ربَّما كانَ أصلاً لبَّيتِ الناظمِ الذي نتكلَّمُ فيه .

وقال الناظمُ [في «المكبري» ٨٦/٤ من الطويل] :

أَلَدُّ مِنَ الصَّهْبَاءِ بِالْمَاءِ ذِكْرُهُ وَأَحْسَنُ مِنْ يُسْرِ تَلْقَاةٍ مُعْدَمٌ^(١)

وقد سبق - في غير هذا المجلس - قولُ الحماسيِّ [خلف بن خليفة

كما في «ديوان الحماسة» ٣٦٢/٢ من الطويل] :

عَذَابٌ عَلَى الْأَكْبَادِ مَا لَمْ يَذُقْهُمْ عَذْوٌ وَفِي الْأَفْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَخْلُو

وقال آخرُ [وهو شرف الدين القيرواني كما في «خزانة الأدب» ٣٨٨/٢ من البسيط] :

جَاوَزَ عَلِيًّا وَلَا تَخْفَلُ بِحَادِثَةٍ إِذَا أَدْرَعْتَ فَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْأَسْلِ

سَلْ عَنْهُ وَأَسْمَعْ بِهِ وَأَنْظُرْ إِلَيْهِ تَجْذِمِلْهُ الْمَسَامِعِ وَالْأَفْوَاهِ وَالْمُقَلِّ

وأهدى الصاحبُ بنُ عبَّادٍ قارورةَ عطرٍ لبعضِ القضاةِ ، وكتبَ

عليها [في «ديوانه» ٢٥٣ من الكامل] :

يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي نَفْسِي لَهُ مَعَ قُرْبِ عَهْدٍ لِقَائِهِ أَشْتَاقُهُ

أُهِدِيهِ عِطْراً مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ فَكَأَنَّمَا أُهِدِيَ لَهُ أَخْلَاقُهُ

(١) الصَّهْبَاءُ : من أسماءِ الخمرِ .

وَقَالَ أَبْنُ هَانِيءٍ الْأَنْدَلُسِيُّ [في «ديوانه» ٥١ من الكامل] :
 قَدْ طَيَّبَ الْأَفْوَاهَ طَيْبٌ ثَنَائِهِ مِنْ أَجْلِ ذَا تَجِدُ الثُّغُورَ عَذَابًا
 وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الطَّشْرِيقَةِ [في «ديوانه» ٤٩ من الطويل] :

وَأِنِّي وَإِنْ أَحْمَوْا عَلَيَّ كَلَامَهَا وَحَالَتْ أَعَادِ دُونَنَا وَحُرُوبُ
 لَمْثُنِ عَلَى لَيْلَى ثَنَاءُ تَزِينُهُ قَوَافِ بِأَفْوَاهِ الرَّجَالِ يَطْيِبُ

ولا شك أن الذكر الجميل . . يهزُّ الرؤوسَ ، ويخلبُ النفوسَ ؛ الذكر الجميل والثناء الحسن . . جدير بأن يطلب من الله
 [الشمراء : ٨٤] ، ومما يتصل بذلك قولُ ذي الرِّمَّةِ [في «ديوانه»
 ١٢١٥/٢ من الطويل] :

إِذَا مَاتَ فَوْقَ الرَّحْلِ أَحْيَيْتُ رُوحَهُ بِذِكْرِكَ ، وَالْعَيْسُ الْمَرَّاسِيلُ جُنْحُ
 يَقُولُ : إِنَّ طَيْبَ ذِكْرِهِ يوقظُ النَّائِمَ ، وَيُنْعِشُ السَّاكِنَ ، وَيَحْرِّكُ
 الْجَامِدَ ، وَهُوَ مِنْ كَلِمَةٍ لَهُ جَزَلَةٌ ، مَنْقَحَةٌ الْمَعْنَى وَاللَّفْظَ ، يَقُولُ فِيهَا
 [في «ديوانه» ١١٩٢-١٢١٥ من الطويل] :

عَلَى حِينٍ رَاهَقْتُ الثَّلَاثِينَ وَأَزَعَوْتُ لِذَاتِي وَكَادَ الْحِلْمُ بِالْجَهْلِ يَزْجَعُ
 إِذَا خَطَرْتُ مِنْ حُبِّ مَيَّةَ خَطَرَةٌ عَلَى الْقَلْبِ كَادَتْ فِي فُؤَادِي تَجْرَحُ
 تَصَرَّفُ أَهْوَاءُ الْقُلُوبِ وَلَا أَرَى نَصِيئِكَ مِنْ قَلْبِي لِغَيْرِكَ يُنْمَحُ
 إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكْذُ رَسِيْسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ
 أُنَيْنُ وَشَكْوَى بِالنَّهَارِ طَوِيلَةٌ عَلَيَّ وَمَا يَأْتِي بِهِ اللَّيْلُ أَبْرَحُ
 ذَكَرْتُكَ إِذْ مَرَّتْ بِنَا أُمُّ شَادِنِ أَمَامَ الْمَطَايَا تَشْرِبُ وَتَسْنَعُ^(١)

(١) أمُّ شادين : ظبيةٌ معها ولدُها حينَ شَدَنَ وقويَ ومشى . تشريبٌ : تشرفٌ .
 تسنحُ : تعرضُ .

مِنْهَا :

هَجَانُ الثَّنَائَا مُغْرِبًا لَوْ تَبَسَّمَتْ لَأُخْرِسَ عَنْهُ كَادَ بِالْقَوْلِ يُفْصِحُ
لَئِنْ كَانَتْ الدُّنْيَا عَلَيَّ كَمَا أَرَى تَبَارِيحَ مِنْ مَيِّ فَلَلَمَوْتُ أَرْوَحُ^(١)

هذا والله الشعرُ الخالصُ ، والكلامُ المنقَّحُ ، والقولُ المختارُ ،
وقد كانت عندنا نونيةُ ابنِ زيدون^(٢) في الاعتبارِ الأولِ .. حَتَّى

(١) تباريحُ : عذابٌ ومشقةٌ .

(٢) قصيدة مشهورة للوزير أحمد بن زيدون ؛ كتب بها إلى ولادة بنت المستكفي بالله في (قرطبة)، بعد مفارقتها لها، ويأسه من لقاءها، يشوقها ويستديم عهدها ، ومنها هذه الأبيات :

أَضْحَى الثَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لَقِينَانَا تَجَانِينَا
أَلَا وَقَدْ حَانَ صَبْحُ الْيَسِينِ صَبَحَنَا حِينَ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا

ومنها :

أَدَّ الزَّمَانُ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا أَنْسَا بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهُوَى قَدَعُوا بِأَنْ نَقْصَ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَغْقُودًا بِأَنْفُسِنَا وَأَنْبَتَ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُزْجَى تَلَاِينَا

ومنها :

بِشْمٍ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَتْ مَاقِينَا
حَالَتْ لَيْنِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِنَضًا لَيَالِينَا
لَا تَخْسَبُوا نَائِكُمْ عَنَّا يُعِيرُنَا إِذْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُجِيبُنَا
وَاللَّهِ مَا طَلَبْتَ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفْتَ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

ومنها :

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ زَقُومًا وَغَسْلِينَهَا

وجدناها عالةً على هذه في كثيرٍ من معانيها المختارة .

وهاهنا نكتةٌ ، وهي : قيلَ : إِنَّ نَفْيَ كَادَ لِلإِبْثَاتِ مطلقاً :

مسألة نحوية حول
(كاد) :

ماضياً كانَ : بشهادة قولِهِ : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧١] .

وقد فعلوا فذبحوها .

أو مضارعاً : فقد رويَ عَنْ عنبسةَ أَنَّهُ قَالَ [في «الأغاني» ٣٩/١٨] :

قَدَمَ ذُو الرُّمَّةِ الكَوْفَةَ فَأَعْتَرَضَ عَلَيْهِ ابْنُ شَبْرَمَةَ قَوْلُهُ : (لَمْ يَكْذُ

رَسِيسُ الْهُوَيِ) ، وَقَالَ : إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى زَوَالِ رَسِيسِ الْهُوَيِ ، فلم

ينفصل ذُو الرُّمَّةِ بَلِ اعْتَرَفَ بِالْغَلَطِ ، وَغَيَّرَهُ بقَوْلِهِ : (لَمْ أَجْذُ رَسِيسَ

الْهُوَيِ) ، وَلَكِنْ قَالَ عنبسةُ : حَدَّثْتُ أَبِي بِذَلِكَ . . فَقَالَ أَخْطَأَ ابْنُ

شَبْرَمَةَ فِي إِنْكَارِهِ عَلَى ذِي الرُّمَّةِ ، وَأَخْطَأَ ذُو الرُّمَّةِ فِي اعْتِرَافِهِ

وتغييرِهِ ، إِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَكْذُ بِرَبِّهَا ﴾ [النور : ٤٠] ،

والمعنى : أَنَّهُ لَمْ يَرَهَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ الْحَاجِبِ : إِذَا دَخَلَ النَفْيُ

عَلَى كَادَ . . كَانَ كَالنَفْيِ الدَّاخِلِ عَلَى سَائِرِ الْأَفْعَالِ ، وَفِي الْبَحْثِ

طَوَّلُ يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ أَلْفَقِهِ قَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ فِي « تَحْفِيَّتِهِ » :

قَالَ الْبَغَوِيُّ : وَلَوْ قَالَ : مَا كَدْتُ أَنْ أَطْلُقَكَ . . كَانَ إِقْرَاراً

بِالطَّلَاقِ ، وَسَكَتَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يَتَأَتَّى عَلَى مَا سَبَقَ مِنَ الْقِيلِ ، وَقَدْ

اعْتَمَدَ الرَّمْلِيُّ فِي « النِّهَايَةِ » : أَنَّ لَا يَكُونُ إِقْرَاراً ؛ لِأَنَّ كَادَ كَغَيْرِهَا ،

= كَأَنَّا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِي الدُّنْيَا أَلْقَاءُ بِكُمْ
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَمْسَى يَوْمَ الْكُوفَى سُوراً
عَلَيْكَ مِثْلَ سَلَامِ اللَّهِ مَا بَقِيَتْ
وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشْتِنَا
فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ تَلْقَاكُمْ وَتَلْقَوْنَا
مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقَيْنَا
صَبَابَةً مِنْكَ تُخَفِّئُهَا فَتُخَفِّئُنَا

وهو الجاري كما سبقَ عَنِ ابْنِ الْحَاجِبِ ، وعليهِ الأكثرُونَ في
الاعتمادِ ، واللهُ أعلمُ .

ثناء المؤلف على
المتنبى

وبما أَنَّ العلمَ أمانةٌ ، والإنصافَ واجبٌ . . فلا بُدَّ مِنَ الاعترافِ
لِلنَّاظِمِ بحسنِ الاتباعِ ، فيما تعلَّقَ بِهِ مِنْ بَيْتِ ذِي الرُّمَّةِ الْأَوَّلِ ،
وذلكَ حيثُ يقولُ [في «المكبري» ٢/ ٣٤٥-٣٤٦-٣٤٩ مِنَ الطُّوِيلِ] :

شَدَّوْا بِأَبْنِ إِسْحَاقَ الْحُسَيْنِ فَصَافَحَتْ ذَفَارِيهَا كَيَرَانُهَا وَالنَّمَارِقُ^(١)
بِمَنْ تَقْشَعِرُّ الْأَرْضُ خَوْفًا إِذَا مَشَى عَلَيْهَا وَتَرْتَجُ الْجِبَالُ الشَّوَاهِقُ
فَتَى كَالسَّحَابِ الْجَوْنِ يُخْشَى وَيُتَّقَى يُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا ، وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ
خَفِ اللَّهُ وَأَسْتَرْ ذَا الْجَمَالِ يَرْفَعُ فَإِنْ لُحْتُ ذَابَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ^(٢)
أَمَّا إِنَّهُ لَشَعَرْتُ تَقَفْتُ لَهُ الشُّعُورُ ، وَتَنْشِرُحُ الصُّدُورُ ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ
اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور : ٤٠] .

وَالْأَوَّلُ : هُوَ الَّذِي تَعَلَّقَ فِيهِ بِأَذْيَالِ ذِي الرُّمَّةِ ، وَقَدْ أَجَادَ ، وَلِئِنْ
أَجَادَ فِيهِ . . فَلَقَدْ أَرَبَى عَلَى الْإِجَادَةِ فِي نَظِيرِهِ ، إِذْ يَقُولُ [في «المكبري»
٢/ ١٢٤ مِنَ الطُّوِيلِ] :

- (١) شَدَّوْا : غَنَّوْا . الذَفَرِيُّ : الموضعُ الذي يَعرَقُ من البعير خلفَ الأذنين .
النَّمَارِقُ - جمعُ نُمْرَقَةٍ - : وهي الوسادةُ تكونُ تحتَ الراكِبِ ، والذي أرادَهُ أبو
الطيبِ هنا ، هي التي تكونُ قُدَّامَ الرَّحْلِ ، يجعلُ الراكِبُ عليها ساقَهُ للاستراحةِ
إِذَا أَخْرَجَهَا مِنَ الْغُرْزِ . وكبرائها - جمعُ كَوْرٍ - : وهو الرَّحْلُ .
- (٢) الْبَرَقُ : نقابٌ للعربِ ، يَغطِّي بِهِ الجبينَ والوجهَ ، ولا يكونُ فِيهِ إِلَّا ثِقْبَانِ
لِلْعَيْنَيْنِ تَنْظَرَانِ مِنْهُمَا . الْعَوَاتِقُ - جمعُ عَاتِقٍ - : وهي الجاريةُ المقاربةُ
لِلْاحْتِلَامِ . الْخُدُورُ - جمعُ خَدِرٍ - : وهو الكِنُّ والبيتُ الذي يَسْتَرُ فِيهِ الْعَوَاتِقُ .

نَفَخْتُ بِذِكْرَاكُمْ حَرَارَةَ قَلْبِهَا فَسَارَتْ وَطُولُ الْأَرْضِ فِي عَيْنِهَا شَبْرًا^(١)

هذا ما لا يقدر أحد أن يقول مثله ، فهو من مواضع السجود في الشعر ، وفي بعض معناه ولفظه قوله السابق في المجلس الثامن [من الطويل] :

وَمَنْ كَانَ عَزَمِي بَيْنَ جَبِينِهِ حَتَّى وَحِيلَ طُولُ الْأَرْضِ فِي عَيْنِهِ شَبْرًا

والثاني : ناظر إلى قول الكندي يمدح عمرو بن هند [من الطويل] :

نَكَادُ تَمَبِدُ الْأَرْضُ بِالنَّاسِ إِنْ رَأَوْا لِعَمْرِو بْنِ هِنْدٍ غَضَبَةً وَهُوَ عَاتِبٌ

وأما الثالث : فما أخذه إلا من قوله جل ذكره : ﴿ يُرِيكُمْ

الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [الرعد : ١٢] ، ولئن سبقه إليه البحتري بقوله [في «ديوانه» ١٩٩٧/٣ من الطويل] :

سَاحًا وَبَاسًا كَالصَّوَاعِقِ وَالْحَيَا إِذَا اجْتَمَعَا فِي الْعَارِضِ الْمُتَرَاكِمِ^(٢)

.. فبين البيتين شأو بعيد ، وفرق كبير ، والذوق حاكم ، والصنعة شاهد ، وقد اتفق لي أن أخذت بنصبي من هذا المعنى ، فقلت من قصيدة [في «ديوان المؤلف» ٤٠١ من البسيط] :

قُدُومُكُمْ كَالْحَيَا لَكِنْ صَوَاعِقُهُ عِنْدَ الْعِدَا ، وَالْتَدَى يَغْشَى الْمَسَاكِينَا^(٣)

(١) المعنى : أبرد بذكراكم ، وبشعري الذي فيكم.. حرارة قلب هذه الناقة ، فتسرع ويقرب عنها البعد ، لنشاطها بذكراكم ومدحكم .

(٢) الحيا : المطر . العارض : السحاب .

(٣) صواعقه عند العدا تصيبهم بمرماها .

وَلَا تُنْكِرُ أَنَّ بَيْتَ الْمُتَنَبِّي أَجْزَلُ وَأَفْخَمُ ، غَيْرَ أَنَّ فِي هَذَا تَوَازِي
الْعِدَا وَالنَّدَى ، وَالْإِفْصَاحُ بِغَشْيَانِهِ الْمَسَاكِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَر_اقِبُونَ
الْأَنْوَاءَ ، وَيَسْتَمْطِرُونَ الْغَمَامَ ، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُتَرْفِينَ ، وَقَدْ
سَبَقَ بَعْضُ آيَاتِ ذِي الرُّمَّةِ وَآيَاتِ النَّازِمِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ ،
فَلَا مَوْأَخَذَةً .

* * *

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢ / ٣٣٩ مِنْ الْكَامِلِ] :

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَبَدًا وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ

معناه ظاهرٌ : وفيه من الغلوّ والمجازفة ما لا غاية وراءه ، والأمرُ
في مثله إلى النية ، فإن أراد حقيقة العموم ، والترجيح على حضرات
الأنبياء .. فقد وقع في صريح الكفر ، وإلا .. فلا ، ألا ترى لقول
بعضهم في مدح خالد بن عبد الله القسريّ [في « ديوان الحماسة » ١ / ٣٨٤ مِنْ
الطويل] :

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا وَمَيِّتًا أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِي السَّلَاسِلِ
.. فَإِنَّهُ لَا يَقْلُ عَنْ بَيْتِ النَّاظِمِ فِي الْعُمُومِ ، وَلَمْ يَكْفُرُوهُ مَعَ
ذَلِكَ ، وَلَمْ يَقُولُوا : إِنَّهُ فَضَّلَ مَمْدُوحَهُ عَلَى سَيِّدِ الْبَشَرِ ﷺ ؛ لِأَنَّ كُلَّ
مَنْ ذَكَرَ النَّاسَ لَا يَرِيدُهُمْ بِجَمَلَتِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَرِيدُ قَوْمًا مَخْصُوصِينَ
بِالْعَهْدِ ، أَوْ الْقَرِينَةِ ، وَمَعَ هَذَا .. فَإِنَّهَا إِسَاءَةٌ أَدَبٍ ، وَمَجَاوِزَةٌ
حَدٍّ ، وَقَلَّةٌ مَبَالَاةٍ ، وَقِحَّةٌ وَجْهِ .

وما أحسن ما فعل موسى الهادي مع أبي الأسد وقد مدحه بقوله أبو الأسد وموسى
الهادي [كما في « تاريخ الخلفاء » ١ / ٢٨٢ مِنْ الْبَسِيطِ] :

يَا خَيْرَ مَنْ عَقَدَتْ كَفَاهُ حُجْرَتُهُ وَخَيْرَ مَنْ قَلَّدَتْهُ أَمْرَهَا مُضَرُّ
فَإِنَّهُ قَالَ لَهُ : إِلَّا مَنْ ، يَا بَائِسُ ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَبْلَعَ رِيْقَهُ [مِنْ
الْبَسِيطِ] :

إِلَّا النَّبِيَّ رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَهُ فَخْرًا وَأَنْتَ بِذَاكَ الْفَخْرِ تَفْتَخِرُ

فعرف أنه أرتجله ، وفُتَشَ صحيفته فلم يجده فيها ، فأسنى
جائزته ، وأكرم وفادته .

سلم الخاسر والمهدي : ودخل سلم الخاسر على المهدي فقال [من الطويل] :

أليس أحق الناس أن يُذكرَ الغنى مُرَجِّي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَائِلُهُ
لَقَدْ بَسَطَ الْمَهْدِيُّ عَدْلًا وَنَائِلًا كَأَنَّهُمَا عَدْلُ النَّبِيِّ وَنَائِلُهُ

فقال المهدي : أمّا ما ذكرت من الجود . . فوالله إن الدنيا
لا تعدل عندي هذا الخاتم ، وأمّا العدل . . فإنه لا يقاس
برسول الله ﷺ أحد ، وإنني لأتحرّاه جهدي ، ثم أمر له بعشرة
آلاف دينار ، وعشرة أثواب ، وقدم عليه في السنة الثانية فقال [من
الكامل] :

إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمْ تَكُنْ بِخِلَافَةٍ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي بَيْتِ الْعَبَّاسِ
شُدَّتْ مَنَاقِبُ مُلْكِهِمْ بِخَلِيفَةٍ كَالذَّهْرِ يُخْلَطُ لِنُورِ شِمَاسِ
فأمر له بعشرين ألف دينار ، ولما كان العام الثالث . . قدم عليه
وقال [من الكامل] :

أَفْنَى سُؤَالَ السَّائِلِينَ بِجُودِهِ مَلِكُ مَوَاهِبُهُ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي
هَذَا الْخَلِيفَةُ جُودُهُ وَنَوَالُهُ نَقَدَ السُّؤَالُ وَجُودُهُ لَمْ يَنْقَدْ
فأمر له بثلاثين ألفاً ، وثلاثين ثوباً .

وأقول : إن المهدي أنصف في اعترافه بمرجوحيته في العدل ،
وأخطأ في مسألة الجود . ومن ذا الذي يُباري البحر البارد العذب ،
أمسى زاحراً ؟! وهل يستطيع أحد في العالم أن يقول : « مَنْ تَرَكَ

مالاً.. فَلَوَرَّثِيهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا.. فَعَلَيْنَا»^(١) غيرُ سيِّدِ
الأنام ، وخيرٌ مَنْ يَشْرَبُ صَوْبَ الغمام ؟ وكانَ الأولَى بالمهديِّ ..
أَنْ يُوَدِّبَ سَلَمًا عَلَى مَا تَهَضَّم مِنْ محاسنِ الخلفاءِ الراشدينِ فِي
القطعةِ الثانيةِ ، أَوْ يَنْبِهُهُ ، أَوْ يَسْتَفِصِلُهُ ، عَلَى الْأَقْل .

أَمَّا الرشيْدُ . فقد سبقَ أوائلَ المجلسِ الخامسِ أَنَّهُ سَكَتَ عَلَى
قولِ عليِّ بنِ الخليلِ [في « زمرة الآداب » ٨٤١/٢ مِنْ الكَامِلِ] :

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَنْتَ كُلِّهِمْ فِي يَوْمِكَ الْغَادِي وَفِي أَمْسٍ
وَأَمَّا المأمونُ . فلم يَغْضَبْ عَلَى ابْنِ جَبَلَةَ لِقَوْلِهِ فِي أَبِي دُلْفٍ [في

« ديوانه » ٦٨ مِنْ المَدِيدِ] :

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهِ
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرَمَةٌ يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مُفْتَحَرِهِ

وإنَّمَا حَقَّقَ عَلَيْهِ بَدِيعَ مَدَائِحِهِ ، كَمَا سَيَأْتِي أَوَائِلَ المجلسِ
السادسِ عَشَرَ ، وإِلَّا .. فَقَدْ قَالَ فِي الاعتذارِ عَنْهُ : أَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ
لَا يَقَاسُ بِكُمْ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ اخْتَصَّكُمْ عَلَى عِبَادِهِ ، وَإِنَّمَا ذَهَبْتُ إِلَى أَقْرَانِ
الْقَاسِمِ وَأَشْكَالِهِ مِنَ النَّاسِ^(٢) .

ويروى [ينحوه في « الأغاني » ٣٥١/١٠] : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ
أَكْرَمَ الْفَرَزْدَقَ حَتَّى أَرْضَاهُ عَلَى مَدْحَةٍ مَدَحَهُ بِهَا ، وَلَمَّا أَنْصَرَفَ
ابن مَرْوَانَ وشهامة
نفس الْفَرَزْدَقِ

(١) أخرجه عن جابر مسلم (٨٦٧) في (الجمعة) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه
البخاري (٢٣٩٨) في الاستقراض ، ومسلم (١٦١٩) ، وأبو داود
(٢٩٥٥) .

(٢) بَلْ هَذَا الْبَيْتَانِ هُمَا اللَّذَانِ أَغْضَبَا الْمَأْمُونَ وَأَحْفَظَاهُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَتَّى سَلَّ
لسانَهُ مِنْ قَفَاهُ . انظر « الأغاني » (٢٦٣/٨) .

الفرزدقُ . . أَخَذَ يَتَغَنَّى وَيَقُولُ [في «ديوانه» ٢١٤ من البسيط] :

لَمْ تَخْتَمِلْ نَاقَةً مِنْ مَغْشَرِ رَجُلًا مِنْلِي، إِذَا الرِّيحُ أَلْقَتْني عَلَى الْكُورِ
وَكَانَ عَلَيْهِ عَيْنٌ أَسْرَعَ بِهَا إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَأَسْتَرَدَّهُ وَقَالَ لَهُ :
لَيْتَنِي لَمْ تَخْرُجْ مِنْهَا . . لَأَتِيَنَّ عَلَيْكَ ، فَأَنْشَدَ مِنْ فَوْرِهِ [في «ديوانه» ٢١٥
من البسيط] :

إِلَّا قُرَيْشًا فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُمْ مَعَ التُّبُوءَةِ بِالإِسْلَامِ وَالْثُورِ
تَرَى وَجُوهَ بَنِي مَرْوَانَ مُشْرِقَةً يَوْمَ الْكَذْدَى كَمْشُوفَاتِ الدَّانَائِيرِ
فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَوْلَى لَكَ .

والظاهرُ من حالِ عبدِ الملكِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مَدْفُوعاً مِنْ جَهَةِ
الدينِ ، وإلَّا . . فكيفَ يَقْنَعُ بِمَدْحِ بني مروانَ ، مَعَ أَوْلَوِيَّةِ بني هاشمِ
بذلكَ النورِ والنبوةِ ؟

وكيفَ يَقْرَأُ الْحَجَّاجَ - كما رويَ - عَلَى قَوْلِهِ أَنَّ الْخُلَفَاءَ أَفْضَلُ مِنْ
الرُّسُلِ ؟!

و [روى الأصفهاني بنحوه في «الأغاني» ٧١/٨ أنه] : قَدِمَ عَلَيْهِ جَرِيرٌ ،
وكانَ سَاخِطاً عَلَيْهِ ؛ لَانْقِطَاعِهِ إِلَى الْحَجَّاجِ ، حَتَّى هَمَّ أَنْ يُرَكِّبَ
الْأَخْطَلَ - وهو نصرانيٌّ - عَلَى ظَهْرِهِ ^(١) ، لَوْلا مَرَاجَعَةُ جُلَسَائِهِ لَهُ فِي
ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا أَمْتَدَحَهُ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا [في «ديوانه» ٨٩/١ من
الوافر] :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ ؟

(١) أي : كَادَ أَنْ يُرَكِّبَ الْأَخْطَلَ عَلَى ظَهْرِ جَرِيرٍ .

.. تطلق له ، ورضي عنه ، وأعطاه مئة من الإبل ، وصحفة من
الفضة - أو من الذهب فكل ذلك روي - فتعين أن الذي دعاه إلى
الإنكار على الفرزدق .. إنما هو الموجدة عليه ، لحاجة في نفسه :
إِنَّمَا لَا سَكْنَارٍ مَا أَعْطَاهُ عَلَى حَدِّ قَوْلِ النَّازِمِ [في «العكبري» ٢٣٦/٤ من
البيط :

وَيَغْضَبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَهُمْ حَتَّى يُكَذِّرَهُ التَّنْغِصُ وَالْمِنَّ^(١)
وإِنَّمَا لِأَنَّ الْفَرَزْدَقَ كَانَ شَرِيفَ الْهَمَّةِ ، قَوِيَّ النَّفْسِ ، وَالْمُسْتَبْدُونَ
لَا يَمِيلُونَ إِلَّا إِلَى الْمُتَصَاغِرِينَ الْمُتَمَلِّقِينَ الْأَخْسَاءِ ، كَذَلِكَ الَّذِي قَالَ
لَهُ : جَبَّ^(٢) ، لِيُرَكِّبَ الْأَخْطَلَ عَلَى ظَهْرِهِ ، فَجَبَّ ، وَهُوَ جَرِيرٌ كَمَا
سَبَقَ ، بِخِلَافِ الْفَرَزْدَقِ ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ تَعَاظُمِهِ أَنَّهُ لَا يَنْشُدُ قَائِمًا ،
وَقَدْ مَرَّ قَوْلُ خَالِدِ الْقَسْرِيِّ فِيهِ [بل القائل ابن هبيرة كما في «طبقات فحول
الشعر» ٣٤٦/٢ : مَا رَأَيْتُ أَشْرَفَ مِنْ الْفَرَزْدَقِ ، هَجَانِي مُلْكًا ،
وَمَدَحَنِي سَوْقَةً .

وَلَمَّا قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ [في «الأغاني» ٣٢٣/١ :
أَنْشَدَنِي .. أَنْشَدَهُ قَوْلَهُ [في «ديوانه» ٢٩/١ من الطويل] :
وَرَكَّبْتُ كَأَنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عَنْدهُمْ لَهَا تِرَةً مِنْ جَذِبِهَا بِالْعَصَائِبِ^(٣)
سَرَوْا يَخْبِطُونَ اللَّيْلَ وَهِيَ تَلْفُهُمْ إِلَى شُعْبِ الْأَكْوَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ^(٤)

-
- (١) في «العكبري» البيت بلفظ المخاطب : (تَغْضَبُونَ) (رِفْدُكُمْ) .
(٢) الناقة الجباء : هي التي لا سنم لها ، ومعنى جَبَّ هنا كأنه مأخوذ منها ؛ أي
اقعد القرفصاء ، كالناقة التي لا سنم لها .
(٣) الترة : الثأر . العصائب : العمائم .
(٤) شعبُ الأكوار : نواحيها . والكور : رحلُ البعير .

إِذَا أَبْصَرُوا نَارًا يَقُولُونَ: لَيْتَهَا - وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمْ - نَارُ غَالِبٍ^(١)

وكان يظنُّ أنَّه ينشده مدحاً فيه ، فلمَّا لم يَجِءْ إِلَّا بِذلِكَ
الفخر . . أسودَّ وجهه ، ولجأ إلى شعرٍ قاله نصيبٌ ، لا يوزن بشيءٍ
مما قاله الفرزدقُ ، ولا توضع اليدُ على شيءٍ منه ، عدا قوله [مِنَ
الطويل] :

فَعَا جُؤَا فَأَنْتَوَا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَنْتُوا أَثْنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وليسَ هذا ببدع ، إذ كلُّ مَنْ كانَ كبيرَ القدرِ ، جليلَ الخطرِ . .
تحومُ عليه غربانُ الأحسادِ ، وتُفَوِّقُ إليه نبلانُ الأحقادِ ، كما سبقَ
تقريرُهُ في موضعيه ، وكما قالَ عليُّ بنُ محمَّدٍ الأَفْوَ [مِنَ البسيط] :

مُحَسَّدُونَ وَمَنْ يَغْلَقُ بِحَبْلِهِمْ مِنْ الْبَرِيَّةِ يُضْبِحُ وَهُوَ مَخْسُودُ

وما أرى حادثة الخوارزميِّ معَ بديع الزمانِ إِلَّا مِنْ هَذَا النوعِ ،
فقد كانَ الأوَّلُ فريدَ دهره ، منقطعَ النظرِ في عصره ، ولم يأتِ
البديعُ إِلَّا والخاصَّةُ كلُّهم أعداؤه ، فصغَّروا مِنْ أمرِهِ ما عَظُمَ ،
وكبَّروا مِنْ أمرِ البديعِ ما صَغُرَ ، حَتَّى كَانَ ما كَانَ ، ممَّا لم يأتِ إِلَّا
بروايةِ البديعِ وحدهُ ، ولأقلِّ مِنْ تلكَ التهمة . . يعلُّ بل يردُّ
الحديثُ .

وقدِ اتَّفَقَ لي مِنْ هَذَا النوعِ أَنْ وَرَدَ (حضر موت) رجلٌ مِنْ
(اليمنِ) ، منذُ خمسةِ شهورٍ ، أَخَذَ يَتَفَنِّجُ وَيَتَحَدَّى ، حَتَّى أَكْبَرَهُ
بعضُ الناسِ ، وفي الليلةِ الأولى مِنْ محرَّمِ هَذِهِ السَّنَةِ أَجْتَمَعْنَا بِهِ ،
في لفيفٍ مِنْ أَهْلِ الوجاهَةِ والأدبِ ، فأقترحوا عَلَيْنَا المِباراةَ فِي

(١) خصرت : بردت . غالب : أي أبيه .

الشعر ، مع تعيين الموضوع والقافية والبحر ، فانتبذت عنهم قليلاً في المجلس ، ولم تمض ساعة وربع . . حتى جهزت قصيدة لا تقل عن أربعين بيتاً ، وجاء هو في نفس المدة بنحو من أربعة وعشرين بيتاً ، لا ترتفع إلى الإجادة ، ولا تنحط إلى التقصير ، غير أنها انعقدت بعد ذلك عدة مجالس ، يُقترح علينا فيها النضال ، فنقول ويُفحم ، كما سبق لنا ذكر ذلك في المجلس الثاني عند شرح قوله [في «المكبري» ١/ ٢٩٧ من المنسرح] :

بَانُوا بِخُرْعُوْبَةٍ لَهَا كَفَلٌ يَكَادُ عِنْدَ الْقِيَامِ يُقْعِدُهَا

ولولا أنفراج الأمر عما لا يقبل الأوهام والشكوك . . لمثلوا ما جرى على الخوارزمي من البديع ، فما أشد حرصهم على أنهزامنا وانتصاره ، ولو وجدوا أدنى منفذ إلى التمويه والتشويه . . لقتلوا في كل غارب ، وذروه ؛ لغمط فضلنا وترجيح ، غير أنه بفضل الله تعالى أبى أن يردّهم إلا بغیظهم ، هذا مع أن الشعر لا يتيسر لي في كل وقت ، بل قد يكون الشروع فيه أحياناً أصعب عليّ من قلع الأسنان ، وأنا أحيل كل ما يحصل لي من الانتصار بالحجة على الخصوم - مع قلة البضاعة ، وتوفر الدواعي لاضطهادي - على بركة دعاء المشايخ ، الذي لا يُحجب عن سماء الإجابة ، وذكرت عند هذا قول الأمير تميم بن المعز [في «ديوانه» ٢٠٤ من السريع] :

أَرَى أَنَسًا سَاءَنِي ظَنُّهُمْ فِي كُلِّ مَا قُلْتُ مِنَ الشُّعْرِ
فَنَاطِرُونِي فِيهِ أَوْ فَاشْرَحُوا شِعْرِي إِنْ أَنْكَرْتُمْ أَمْرِي
أَوْ لَا ، فَقُولُوا : حَسَدٌ قَاتِلٌ مُسْتَمَكِّنٌ فِي الْقَلْبِ وَالصَّدْرِ

وقوله أيضاً [في «ديوانه» ١٨٧ من الخفيف] :

نَحْنُ أَهْلُ الثَّقَى وَأَهْلُ الْمُوَاسَاةِ وَأَهْلُ النَّوَالِ وَالْإِنْشَارِ
فَدَعُوا خُطَّةَ الْعُلَا لِدَوْنِهَا مِنْ بَنِي بَيْتِ أَحْمَدَ الْأَبْرَارِ
أَوْ فَلَوْمُوا إِلَالَةَ فِي أَنْ بَرَانَا فَوْقَكُمْ وَأَغْضَبُوا عَلَى الْمِقْدَارِ

هل يجوز التسمي بـ : هذا : وقد اختلف العلماء في التسمي بملك الملوك [في «طبقات ملك الملوك وما ابن السبكي» ٢٧١/٥] :
شابهه؟

فأجازه كثيرٌ ، منهم : القاضي أبو الطيب الطبري .

ومنعه آخرون ، منهم : الماوردي ، وهو الذي اعتمده أبو حجر
في «تحفته» ؛ لأنه الأسعدُ بالدليل ؛ إذ جاء في «الصحیح» :
«أَخْنَعُ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ»^(١) .

وأولُ مَنْ تَسْمَى بِذَلِكَ - فيما أظن - عضدُ الدولة ، وكانَ صديقَ
الماوردي ، فعزَمَ اللهُ لَهُ بالثبات ، وجزَمَ بالحرمة ، وأمَّا بقيَّةُ
العلماء . . فصانَعُوا ، وأفتوا بالجواز ، بناءً على ما سبق من التأويلِ
بإرادةِ التخصيصِ ، فلم يكن من الأميرِ إلَّا أن زادَ في احترامِ
الماوردي ؛ لتصلِّبِهِ في الدينِ ، وقالَ : لو حابى أحداً . . لحاباني ،
وأخذَ في أطراحِ المقاريينَ لَهُ ، وهانَ قدرُهُم عليه ، قالَ ابنُ السبكيِّ
[في «طبقاته» ٢٧٢/٥] : ولم تطل مدَّةُ العضدِ بعدَ ذلك .

والظنُّ بالعضدِ أَنَّهُ هوَ الذي أمتدَحَهُ الناظمُ بقصيدتهِ التي يقولُ
فيها [في «المكبري» ٢٧٤/٤ - ٢٧٥ من المنسرح] :

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٢٠٥) ، ومسلم (٢١٤٣)
في (الآداب) . أخنع : أوضع وأذل وأرذل .

وَقَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّى رَأَيْتُ مَوْلَاهَا
وَمَنْ مَنَائِهِمْ بِرَاحَتِهِ يَأْمُرُهَا فِيهِمْ وَيَنْهَاهَا
أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضْدَ الدَّوْ لَةِ فَنَاحُشَرَ وَشَهْنَشَاهَا^(١)

وله فيه القصيدة المستهله بقوله [في «المكبري» ٣٨٥/٢ من الوافر] :

فِدَى لَكَ مَنْ يُقْصِرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَا مَلِكُ إِذَا إِلَّا فِدَاكَ
ومما ينسب لعضد الدولة - كما ذكره أبو منصور الثعالبي ،
وغيره - قوله [في «قرى الضيف» ٢٥٩/٢ من الرمل] :

لَيْسَ شُرْبُ الرِّاحِ إِلَّا فِي الْمَطَرِ وَغَنَاءُ مِنْ جَوَارٍ فِي السَّحَرِ
غَائِيَاتِ سَالِبَاتٍ لِلنُّهَى نَاقِمَاتٍ فِي تَضَاعِيْفِ الْوَتَرِ
مُبْرِزَاتِ الْكَأْسِ مِنْ مَطْلَعِهَا سَاقِيَاتِ الرِّاحِ مَنْ فَاقَ الْبَشَرِ
عَضْدَ الدَّوْلَةِ وَأَبْنُ رُكْنِهَا مَلِكُ الْأَمْلَاقِ غَلَابَ الْقَدَرِ

نعوذ بالله من التعرض لغضب الله ومقته ، ومنازعته في أسمائه
وجبروته ، ثم أشكل علي الأمر : بأن وفاة عضد الدولة كانت سنة :
(٣٧٢هـ) ، وفادة الناظم عليه ، كانت سنة : (٣٥٤هـ) ، وأبن
السبكي يقول : إن أول من تسمى (بشهنشاه) من آل بويه كان في
سنة : (٤٢٩هـ) ، وأنى تكون الأوليّة في الاسم وقد أطلقها
المتنبي على العضد قبل هذا التاريخ بزمان ؟ فليتامل .

(١) أبا شجاع : بدل من قوله : مولاها . قال في «المكبري» : قال أبو الفتح :
هذا البيت على أنه قصير الوزن ، قد جمع فيه كنية الممدوح ، وبلده ،
وأسمه ، ولغته ، وسماه ملك الملوك ، وهو من أحسن الجمع والمدح .
فناحشر : أسم من أسماء الأسد ، وهو أسم عضد الدولة .

ويستحيل أن يكون الماوردي هو صاحب عضد الدولة ؛ إذ كانت وفاة الماوردي سنة : (٤٥٠ هـ) عَنْ سِتَّةِ وَثَمَانِينَ عَامًا ، فَسِتُّهُ يَوْمَ وَفَاةِ الْعُضْدِ لَا يَتَجَاوَزُ التَّسْعَ .

ودون التسمي بملك الأملاك التسمي بحاكم الحكام ؛ فإنه فطيع ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِصَرِيحٍ بَلْ مُحْتَمِلٌ ، أَمَّا قَاضِي الْقَضَاةِ .. فَقَدْ أَطَبَّقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ ، ثُمَّ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ النَّاطِمُ أَرَادَ التَّوْرِيَّةَ فِي الْبَيْتِ الَّذِي تَكَلَّمُ عَلَيْهِ بَسِيْدُ الْبَشَرِ ﷺ ، لَا بِمَمْدُوْحِهِ مُحَمَّدِ بْنِ أَوْسٍ ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ مِنَ الصَّادِقِينَ [مِنَ الطُّوْلِ] :

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ كُوزِهَا أَبَرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ^(١)

وقد سبق عن منصور النميري نظيره في الكناية بهارون عن علي كرم الله وجهه ، وقد مرَّ بعض ما يتَّصل بهذا الكلام في شرح قوله : [في « المعبري » ١٦١/٣ مِنْ الطُّوْلِ] :

[أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيْهِنِي بِمَا وَكَانَهُ] فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي

الغلو في المديح وقال أبو العلاء المعري [في « سقط الزند » ١٧٧ مِنْ الْكَامِلِ] :

لَوْلَا أَنْقِطَاعُ الْوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ قُلْنَا مُحَمَّدٌ مِنْ أَبِيهِ بِدِيلُ هُوَ مِثْلُهُ فِي الْفَضْلِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةٍ جَبْرِيْلُ

قال القاضي عياض : فصدر البيت الثاني شديد ؛ لتشبيه غير النبي بالنبي ﷺ ، وأما العجز .. فمحتمل لوجهين :

(١) قاله سارية الديلمي في « المستطرف » ٤٩١/١ وهو الذي ناداه سيِّدنا عمر رضي الله عنه بقوله : يا سارية ، الجبل الجبل .

أحدهما : أَنَّ هذه الفضيلة نقصت الممدوح .

والآخر : أستغناؤه عنها ، وهذه أشد . انتهى .

ولا شك أَنَّ الاحتمال الثاني زيادة في الكفر ، وهو غير مستنكر من المعري مع تهجمه على الأنبياء ، وقلة احترامهم لهم ، كما في قوله [من الخفيف] :

كُنْتُ مُوسَى وَاقْتُهُ بِنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيكُمْ مِنْ فَقِيرٍ
فإنَّ الاستدراك في الشطر الثاني لا يحتمل غير التحقير والازدراء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقال الناظم في مديح طاهر بن الحسين العلوي [في « المعبري »
١/١٥٤-١٥٨ من الطويل] :

وَأَبْهَرُ آيَاتِ التَّهَامِي أَنَّهُ أَبُوكُمْ وَأَجْدَى مَا لَكُمْ مِنْ مَنَاقِبٍ^(١)
هُوَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ وَابْنُ وَصِيهِ وَشِبْهَهُمَا شَبَّهْتُ بَعْدَ التَّجَارِبِ
غَيْرَ أَنَّ البلاغة شيء ، والدين شيء آخر ، وهؤلاء الشعراء

(١) قال الواحدي في شرح ديوان المتنبي ص ٣٣١ : قال أبو الفضل العروضي فيما أملاه عليّ : هذا بيت حسن المعنى مستقيم اللفظ حتى لو قلت : إنه أمدح بيت في شعره لم أبعد عن الصواب ولا ذنب له [أي المتنبي] إذا جهل الناس غرضه واشتبّه عليهم ؛ أما معناه :

إن قريشاً وأعداء النبي ﷺ كانوا يقولون : إن محمداً صنبرٌ - أي منفرد أبتر لا عقب له فإذا مات استرحنا منه فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا آعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أي العدد الكثير ولست بالأبتر الذي قالوا : ﴿ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ؛ فقال المتنبي : أنتم من معجزات النبي ﷺ وآيات لتصديقه وتحقيق قول الله تعالى . . وذلك أجدى ما لكم من مناقب .

- بِالْأَعْلَبِ - لا وازعَ لَهُم مِنَ الدِّينِ ، بل يَمُرُّونَ مَعَ خَوَاطِرِهِمْ ،
وَيَنْفُثُونَ بِكُلِّ مَا تَوْحَى لَهُمْ ضَمَائِرُهُمْ ، وَمِنْ ثَمَّ ضَعْفَ شَعْرُ بَعْضِ
الصَّحَابَةِ ، بِمَا عَقَدَ مِنَ أَلْسِنَتِهِمُ الْحَقُّ ، بِقَدْرِ مَا أَطْلَقَ مِنَ أَلْسِنَةِ مَنْ
سِوَاهُمْ الْبَاطِلُ ؛ وَلِهَذَا قَالُوا : أَظْرَفُ النَّاسِ الزَّنَادِقَةُ ؛ إِذَا لَا يَتَّقِيْدُونَ
بِشَيْءٍ مِنَ حَرَمَةِ الدِّينِ ، بَلْ يَضْحَكُونَ بِمَا يَحِلُّ وَمَا لَا يَحِلُّ ، وَقَدْ قِيلَ
[الْقَائِلُ أَبُو نَوَاسٍ كَمَا فِي «مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ» (٦٢٧)]: تَبَهُ مُغْنً ، وَظُرْفُ زَنْدِيقٍ ^(١) .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الْحَجَّاجِ قَوْلُهُ : وَدِدْتُ لَوْ أَنِّي أَدْرَكْتُ أَرْبَعَةَ فَقَتَلْتُهُمْ
شَرَّ الْقَتْلِ ، أَحَدُهُمْ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ بْنِ ظَبْيَانَ ، قَالَ لَهُ أَبْنُ مَسْمَعٍ :
كَثَّرَ اللَّهُ فِي الْعَشِيرَةِ مِثْلَكَ ، فَقَالَ : لَقَدْ سَأَلْتَ رَبَّكَ شَطَطًا ^(٢) .

ثُمَّ إِنَّ بَيْتَ النَّاطِمِ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ . . . مُتَدَاوِلُ الْمَعْنَى بَيْنَ
الشُّعْرَاءِ ، قَالَ أَبُو الشَّيْصِ الْخَزَاعِيُّ [مِنْ الْكَامِلِ] :

مَا كَانَ مِثْلَكَ فِي الْوَرَى فَيَمُنْ مَضَى أَحَدٌ وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يُخْلَقُ
وَقَالَ أَيْضًا [مِنْ الْبَسِيطِ] :

لَوْ تَبَغَّيْ مِثْلَهُمْ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ طَلَبْتَ مَا لَيْسَ فِي الدُّنْيَا بِمَوْجُودٍ
وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ [فِي «دِيَوَانِهِ» ٢/٣١٤ مِنْ الْكَامِلِ] :

هَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِي الْزَّمَانُ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ

(١) وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ : (ظُرْفُ زَنْدِيقٍ) : مُطِيعٌ بِنِ إِيَّاسٍ ، وَلَقَبَهُ بِشَارِ بْنِ بَرْدٍ ، وَكَانَ إِذَا
وَصَفَ إِنْسَانًا بِالظَّرْفِ قَالَ : أَظْرَفُ مِنَ الزَّنْدِيقِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ تَزْنَدِيقٍ كَانَ لَهُ ظَرْفٌ
يُبَايِنُ بِهِ النَّاسَ .

(٢) «مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ» (٤٥٨٠) .

فَأَخَذَهُ النَّاطِمُ وَقَالَ [في «المكبري» ٢٣٦/٣ من الكامل] :

أَعْدَى الزَّمَانِ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ وَلَقَدْ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانُ بَخِيلًا
وفي هذا البيت دورٌ يفسدهُ ، لأنه كيف يعدي الزمان بسخائه
قبل وجوده ؟ وكيف وجودُ به الزمان قبل العدوى ، وهو بخيلٌ ؟ إلا
أن يجاب : بأن العدوى كانت في الأزل ، وهو حينئذٍ شبيهٌ بما نقرُّه
من أن خلق النفس الناطقة . . يكون قبل استعداد النطفة لقبولها بزمان
بعيد ، وهو الحق ، خلافاً للغزالي ، وأبن سينا ، والحكيم
السهروردي المقتول .

وقال البُحترِّي [من الكامل] :

وَلَيْنَ طَلَبْتُ شَبِيهَهُ إِنِّي إِذَنْ لَمُكَلِّفُ طَلَبِ الْمَحَالِ رِكَابِي

وقال [في «ديوانه» ١٦٥٩/٣ من الكامل] :

لَا تَطْلُبَنَّ لَهُ الشَّيْبَةَ فَإِنَّهُ قَمَرُ التَّأْمَلِ مُزْنَةُ التَّأْمِيلِ

وقال [في «ديوانه» ٢٠٤٤/٣ من البسيط] :

إِلَى مُقِلٍّ مِنَ الْأَكْفَاءِ لَوْ طَلَبُوا مَكَانَ مُشَبِّهِهِ فِي الْأَرْضِ مَا عَلِمَا

وقال [في «ديوانه» ٢٤٠٦/٤ من الكامل] :

فَتَى كَانَ يَأْبَى قَدْرُهُ أَنْ يُرَى لَهُ نَظِيرٌ مُسَاوٍ أَوْ شَبِيهٌ مُشَاكِلٌ

وقال [في «ديوانه» ٢٤٠٦/٤ من الكامل] :

مَا زَالَ مُنْقَطِعَ الْقَرْنَيْنِ وَقَدْ أَرَى مَنْ لَا يَزَالُ مُشَاكِلٌ يَلْقَاهُ
لَيْسَ التَّفَرُّدُ بِالسِّيَادَةِ عِنْدَهُمْ أَنْ يُوجَدَ الْأَمْثَالُ وَالْأَشْبَاهُ

وقال [في «ديوانه» ١/٢٤٩-٢٤٨ من الكامل] :

دَانِ عَلَى أَيْدِي الْعَفَاةِ وَشَاسِعُ عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدَى وَضَرِبِ^(١)
كَالْبَذْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوْؤُهُ لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبِ

وقال أبو الرومي [في «ديوانه» ٤/١٦٨٨ من المتقارب] :

فَهَلْ مِنْ سَيْنِلٍ إِلَى مِثْلِهِ ؟ أَبَى اللَّهُ ذَاكَ عَلَى مَنْ خَلَقُ

وقال [من السريع] :

لَيْسَ لَهُ عَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ لَا تَقَعُ الْعَيْنُ عَلَى مِثْلِهِ
وما زال الناظم يحوم على هذا المعنى . . . حَتَّى أَنْقَضَ عَلَيْهِ فِي
قَوْلِهِ [في «العكبري» ٣/١٨٩ من الطويل] :

وَمَا عَزَّ فِيهَا مُرَادُ أَرَادَهُ وَإِنْ عَزَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ
وقال الحصني [من الخفيف] :

لَمْ يَكُنْ فِي خَلِيقَةِ اللَّهِ نِدٌّ لَكَ فِيمَا مَضَى وَلَيْسَ يَكُونُ
وقال آخر - وغالب ظني أنه عُمَارَةُ اليميني يمدحُ شاوراً - [ظنُّ الشيخ
المؤلف صحيح كما في «السير» ١٥/٢١١ من الكامل] :

ضَجَرَ الْحَدِيدُ مِنَ الْحَدِيدِ وَشَاوِرُ مِنْ نَصْرِ دِينِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَضْجَرْ
حَلَفَ الزَّمَانُ لِيَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ حَيْثُ يَمِينُكَ يَا زَمَانُ فَكَفَّرِ

ويروى [في «وفيات الأعيان» ٣/٢٨٩] : أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ إِلْكِيَا الْهَرَّاسِيُّ . .
حضره قاضي القضاة أَبُو الدامغاني ، وأبو طالب الزينبي ، وقد

(١) العفاة : كلُّ طالبٍ فضلٍ أو رزقي . الشاسعُ : البعيدُ .

أَنْتَهَتْ إِلَيْهِمَا رِثَاسَةُ الْحَنْفِيَّةِ ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا تَنَافُسٌ وَتَنَافُرٌ فِي أَيَّامِ
الْحَيَاةِ ، فَوَقَفَ أَحَدُهُمَا [وهو الدامغاني] عِنْدَ رَأْسِهِ ، وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ
الشَّاعِرِ [مِنْ الْوَافِرِ] :

وَمَا تُغْنِي الْتَوَادِبُ وَالْبَوَاكِي وَقَدْ أَضْبَحْتَ مِثْلَ حَدِيثِ أَمْسٍ
فَأَنْشَدَ الثَّانِي مِمَثْلًا بِمَا يَنَاسِبُ الْمَقَامَ ، وَهُوَ قَوْلُ الْآخِرِ [مِنْ
الْكَامِلِ] :

عَقِمَ الْنِّسَاءُ فَلَا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ إِنَّ النِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عَقُمُ
وَأَكْثَرُ أَوْلَثَكَ الشَّعْرَاءُ مُغَالٍ فِيمَا قَالَ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يَوْقُظُ
مَرْوَتَهُ ، وَيُنِيمُ هَوَاهُ ، وَيَزِنُ كَلَامَهُ ، وَيَنْظُرُ بَعِينَ الْإِنْصَافِ وَالْمَعْدَلَةِ
فِيمَا يَقُولُ ، وَيَتَرَسَّمُ قَانُونَ الْمَعْرِيِّ فِي قَوْلِهِ [فِي «سَقَطِ الزَّيْدِ» ١٥٧ مِنْ
الْبَسِيطِ] :

وَرَتَّبِ النَّظْمَ تَرْتِيبَ الْحُلِيِّ عَلَى الشَّـ خُصِّ الْجَلِيِّ بِلَا مَيْنٍ وَلَا خَرَقٍ^(١)
فَالْحِجْلُ لِلرَّجُلِ وَالتَّاجُ الْمُئِنْفُ لِمَا فَوْقَ الْحِجَاجِ وَعِقْدُ الدُّرِّ لِلْعُنَى^(٢)

وَمَا عَلِمْتُ أَحَدًا وَضَعَ هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوْضِعِهِ سِوَى ابْنِ
عَبَّاسٍ ؛ إِذْ يَقُولُ [فِي «جُمُورَةِ خُطَبِ الْعَرَبِ» ١/٣٤٧] : عَقَمَتِ الْنِّسَاءُ أَنْ
تَأْتِيَ بِمِثْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ لِعَهْدِي بِهِ فِي (صِفِّينَ) عَلَيْهِ عِمَامَةٌ
بِيضَاءُ ، يَقِفُ عَلَى النَّاسِ شَرِذِمَةٌ شَرِذِمَةٌ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَيَّ ، وَأَنَا فِي
كَنَفٍ مِنَ النَّاسِ ، حَوْلِي غَلَمَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَقَالَ :

- (١) الْجَلِيُّ : الْعُرُوسُ . يَقُولُ : إِنَّ الشَّعْرَ أَشْبَهَ بِالْحُلِيِّ ، وَكُلُّ نَوْعٍ مِنْهُ يَلِيقُ بَعْضُهُ
مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ ، وَكُلُّ نَوْعٍ مِنَ الشَّعْرِ يَلِيقُ بِوَاحِدٍ مِنَ الْمَمْدُوحِينَ .
(٢) الْحِجْلُ : هُوَ الْخَلْخَالُ .

يا معشرَ المسلمين تجلببوا السكينة ، وكمّلوا اللّامة ، وأقلّقوا
السيوف ، وكافحوا بالظّبّا ، وصلّوا السيوف بالخطا ، فإنّكم
بعين الله ، ومع أبي عمّ رسول الله ﷺ . . وذكر خطبة جزلة
طويلة .

وقوله : صلّوا السيوف بالخطي موجودٌ بكثرة عند العرب ، منه
قول كعب بن مالك [في « ديوانه » ١٩٤ من الكامل] :

وصل السيوف بالخطا
عند العرب

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطُونَا قُدْمًا وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

وقول ودّك بن ثميل [في « ديوان الحماسة » ٣٣/١ من الطويل] :

مَقَادِيمُ وَصَالُونَ فِي الرُّوْعِ خَطْوُهُمْ بِكُلِّ رَقِيْقٍ الشُّفَرَتَيْنِ يَمَانِي
إِذَا أَسْتَنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لِأَيِّ حَرْبٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانٍ

وقال آخر [ومو الأخنس بن شهاب كما في « المثل السائر » ٣٦٢/٢ من

الطويل] :

إِذَا قَصُرْتُ أَسْيَافُنَا كَانَ وَضْلُهَا خُطَانًا إِلَى أَعْدَائِنَا فَتَضَارِبُ

وقال نابغة بني الحارث بن كعب [من الكامل] :

إِنْ تَسْأَلِنِي عَنَّا سَمِيَّ فَإِنَّهُ يَسْمُو إِلَى فَخْمِ الْعَلَا نَارَانَا
وَتَبَيَّنْتُ جَارَتُنَا حَصَانًا عِفَّةً تَرْضَى وَيَأْخُذُ حَقَّهُ مَوْلَانَا
وَنَقُومُ إِنْ طَرَقَ الْمَنُونُ بِسُخْرَةٍ لِرِوَاةِ وَالِدِنَا الَّذِي أَوْصَانَا
أَنْ لَا نَفِرَّ عَنِ الْكُتَيْبَةِ أَقْبَلَتْ حَتَّى تَدُورَ رَحَاهُمْ وَرَحَانَا
وَتَعِيشُ فِي أَخْلَامِنَا أَشْيَاعُنَا مُزْدَا وَمَا وَصَلَ الْوُجُوهَ لِحَانَا
وَإِذَا السُّيُوفُ قَصُرْنَ طَوَّلَهَا لَنَا حَتَّى نَنَالَ مِنَ الْكُمَاةِ خُطَانَا

وقال حميد بن ثور [في «ديوانه» ٨٩٨٨ من الطويل] :

إِلَى أَنْ نَزَلْنَا بِالْفَضَاءِ وَمَالَنَا بِهِ مَعْقِلٌ إِلَّا الرِّمَاحُ الشَّوَاجِرُ^(١)
وَوَضِلُّ الْخُطَا بِالسَّيْفِ وَالسَّيْفِ بِالْخُطَا إِذَا ظُنُّ أَنْ الْمَرْءَ ذَا السَّيْفِ قَاصِرُ

وقال أبو سعيد المخزومي [من الخفيف] :

وَإِذَا مَا الْحَسَامُ كَانَ قَصِيرًا طَوَّلَتْهُ إِلَى الْعَدُوِّ بَنَانِي

وقال السموءل [من الطويل] :

وَإِنْ قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَضْلُهَا خُطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا فَتَطُولُ

وقال بشامة بن حزن [في «البيان والتبيين» ٤٠٣/١ من البسيط] :

إِذَا الْكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمْ حَدُّ السُّيُوفِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا

وقال غيره [في «البيان والتبيين» ٤٠٤/١ من الطويل] :

وَصَلْنَا الرِّفَاقَ الْمُرْهَقَاتِ بِخُطُونَا عَلَى الْهَوْلِ حَتَّى أَمَكَّتْنَا الْمَضَارِبُ

قلنا : إنَّ في كثيرٍ ممَّا سبق غُلُوءًا ، وقد علمتَ ممَّا مرَّ أَنَّ الغُلُوءَ
لا يُقْبَلُ ، وشرٌّ من الغُلُوءِ أَنْ يَقَعَ فِيهِ الشَّاعِرُ وَهُوَ يَعْتَقِدُ خِلَافَهُ ، وفي
مقدمة هـ لاء . . الناظم ؛ بشهادة قوله [في «المكبري» ٢٩٥/٤ من الطويل] :

وَلَوْلَا فَضُولُ النَّاسِ جِثَّتْكَ مَادِحًا بِمَا كُنْتُ فِي سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِبًا

وقوله [في «المكبري» ٢١٣/٤ من البسيط] :

مَدَحْتُ قَوْمًا وَإِنْ عَشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ قَصَائِدًا مِنْ إِيَّاتِ الْخَيْلِ وَالْحُصْنِ^(٢)

(١) المَعْقِلُ : الملجأ . الرماح الشواجر : المختلفة المتداخلة .

(٢) قَالَ الْمُكَبَّرِيُّ : الْمَعْنَى : مَدَحْتُ قَوْمًا لَمْ يَسْتَحِقُّوا الْمَدْحَ ؛ لِبَخْلِهِمْ وَجَهْلِهِمْ ، =

في كثير من تلك الأمثال .

وقال من قبله الكميث [في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١٩١/١ من

الطويل] :

وَقَرَّظْتُكُمْ لَوْ أَنَّ تَقَرُّيْظَ مَادِحٍ يُوَارِي عَوَاراً مِنْ أَدِيمِكُمُ النَّغْلِ^(١)

وقال بشار [في « ديوانه » ٢٣/٤ من الكامل] :

إِنِّي مَدَحْتُكَ كَاذِباً فَأَثْبِتْنِي لَمَّا مَدَحْتُكَ مَا يَثْبُتُ الْكَاذِبُ

وقال سلم الخاسر [من الطويل] :

فَإِنْ تُعْطِنِي جِزْمٌ لِأَنِّي أَمْتَدَحْتُهَا فَمَا عَلِمْتَ جِزْمٌ لَهَا مَادِحاً قَبْلِي

وفي جِزْمٍ - هؤلاء - يقول الآخر [وهو زياد الأعجم كما في « طبقات فحول

الشعر » ٦٩٨/٢ من البسيط] :

إِنِّي لَأُكْرِمُ نَفْسِي أَنْ أَكْلَفَهَا هِجَاءَ جِزْمٍ وَمَا يَهْجُوهُمْ أَحَدٌ

مَاذَا يَقُولُ لَهُمْ مَنْ كَانَ هَاجِبُهُمْ لَا يَبْلُغُ النَّاسُ مَا فِيهِمْ وَإِنْ جَهِدُوا

وعكس المعنى على سلم الخاسر أبو تمام في قوله [في « ديوانه »

٢٩١/١ من الطويل] :

كَرَيْمٌ مَتَى أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ وَالْوَرَى مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَخِدي

وقال أبو نواس [بنحوه في « المستطرف » ٤/٢] : ما رأيتُ أكرمَ من

جعفر بن يحيى ، لقد قلتُ فيه [في « ديوانه » ١٠٢ من الطويل] :

= ولكن إن عشتُ .. غزوتهم بخيلٍ وإنَّ ذكورٍ ، وجعل الخيلَ كالقصاصيدِ
المؤلفة التي مدحهم بها .

(١) النَّغْلُ : فسأد الجلد في دباغهِ . وأديمكم النغل : جلدكم الفاسد .

وَلَسْتُ وَإِنْ أَطْنَبْتُ فِي مَدْحِ جَعْفَرٍ بِأَوَّلِ إِنْسَانٍ خَرَىٰ فِي ثِيَابِهِ
فَأَمْرٌ لِي بِعَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، وَقَالَ : إِغْسِلْ بِهَذَا الْخَرَا مِنْ
ثِيَابِكَ .

وَلَكِنَّ أَبَا نَوَاسٍ لَمْ يَتَحَدَّثْ بِهَذَا . . . إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَضَىٰ عَلَى
الْبِرَامِكَةِ زَمَانٌ طَوِيلٌ ، وَإِلَّا . . . فَقَدْ كَانَ جَاحِدًا لِفَضْلِهِمْ .

وَقَدْ سَبَقَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ إِلَىٰ مِثْلِ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ ، فَقَدْ اسْتَوْجَرَ
أَعْرَابِيٌّ عَلَىٰ إِغْضَابِهِ ، فَتَلَقَّاهُ بِقَصِيدَةٍ أَقْدَعَ لَهُ فِيهَا ، حَتَّىٰ قَالَ [مِنْ
الْوَافِرِ] :

أَتَذْكُرُ إِذْ قَمِيصُكَ جِلْدُ شَاةٍ وَإِذْ نَعْلَاكَ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ^(١)
فَقَالَ لَهُ : نَعَمْ ، أَذْكُرُ ذَلِكَ وَلَا أَنْسَاهُ يَا أَخَا الْعَرَبِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
عَلَىٰ مَا تَفَضَّلَ وَأَجْمَلَ ، فَقَالَ لَهُ [مِنْ الْوَافِرِ] :

فَعَجَّلْ يَا ابْنَ نَاقِصَةٍ بِمَالٍ فَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَىٰ الْمَسِيرِ
فَلَمْ يَثُرْ لَهُ غَضَبٌ ، وَلَا تَحَرَّكَ لَهُ عِرْقٌ ، بَلْ أَمَرَ لَهُ بِمَالٍ ، فَقَالَ
[مِنْ الْوَافِرِ] :

قَلِيلٌ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَإِنِّي لَأَطْمَعُ مِنْكَ فِي الشَّيْءِ الْكَثِيرِ
فَأَضْعَفُهُ لَهُ حَتَّىٰ أَرْضَاهُ ، فَتَخَلَّصَ إِلَىٰ مَدْحِهِ ، كَذَا رَأَيْتُ الْقِصَّةَ
مِنْ زَمَانٍ طَوِيلٍ فِي « أَعْلَامِ النَّاسِ » ، وَمَا رَأَيْتُهَا فِي غَيْرِهِ ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِصَحَّتِهَا^(٢) .

(١) البيت في « جمهرة الأمثال » (٣٩ / ٢) بإبدال (جلد شاة) بـ : (جلد
تيس) .

(٢) روى القصة صاحب « المتنظم حتى سنة [٢٥٧ هـ] » (٦ / ٢٨٠) عَنِ الْأَصْمَعِيِّ =

وَقَالَ أَبُو الرُّومِيِّ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ [فِي « دِيوانِهِ » ١٤٢٢/٤ مِنْ الْوَافِرِ] :
أَتَيْتُكَ مَادِحًا فَهَجَوْتُ شِعْرِي فَكَانَتْ هَفْوَةٌ مِنِّي وَغَلَطَةٌ

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ [فِي « دِيوانِهِ » ١٨٦٥/٣ مِنْ الطَّوِيلِ] :

هُمْ سَرَقُوا طِرْفِي وَقَدْ جِئْتُ مَادِحًا لَهُمْ ، إِنَّ بَغْضَ الْمَذْحِ إِنْهُمْ وَبَاطِلٌ^(١)

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ [بِنَحْوِهِ فِي « الْمُسْتَرْف » ١٨/٢] : أَنَّ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ كَانَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ بِالْمَوْسِمِ ، بَعْدَ عَقْدِهِ الْبَيْعَةَ لِيَزِيدَ ، وَقَدْ نُصِبَ لَهُ قَبَّةٌ ، وَلِيَزِيدَ أُخْرَى ، فَكَانَ النَّاسُ يَسْلُمُونَ عَلَيْهِ ، وَيُثْنُونَ إِلَى يَزِيدَ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَحَدُ الْعَرَبِ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى يَزِيدَ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، وَقَالَ : أَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّكَ لَوْ لَمْ تَوَلَّ هَذَا عَهْدَ الْمُسْلِمِينَ . . لَكُنْتَ أَضْعَعْتَهُمْ ، فَأَرْتَاخَ لَهَا مُعَاوِيَةَ ، وَقَالَ لِلْأَحْنَفِ : مَا تَقُولُ يَا أَبَا بَخْرٍ ؟ قَالَ : نَخَافُ اللَّهَ إِنْ كَذَبْنَا ، وَنَخَافُكُمْ إِنْ صَدَقْنَا ، قَالَ : يَكْفِينَا مِنْكَ السَّكُوتُ ، ثُمَّ خَرَجَ الْأَحْنَفُ وَلَاقَى الرَّجُلَ ، فَقَالَ لَهُ : أَرَأَيْتَ

ذو الوجهين لا يكون
عند الله وجيهاً

= قِصَّةٌ تَشْبِهُهَا حَيْثُ قَالَ : كَانَ أَعْرَابِيَّانِ مُتَوَاحِشَيْنِ ، غَيْرَ أَنَّ أَحَدَهُمَا اسْتَوْطَنَ الرَّيْفَ وَالْآخَرَ اخْتَلَفَ إِلَى الْحِجَّاجِ فَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى (أَصْفَهَانَ) ، فَسَمِعَ بِهِ أَخُوهُ الَّذِي بِالْبَادِيَةِ ، فَضَرَبَ إِلَيْهِ ، فَأَقَامَ بِيَابِهِ حِينًا لَا يَصُلُّ إِلَيْهِ ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُ بِالْدُخُولِ ، وَأَخَذَهُ الْحَاجِبُ ، فَمَشَى بِهِ وَهُوَ يَقُولُ : سَلَامٌ عَلَى الْأَمِيرِ ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى قَوْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

فَلَسْتُ مُسْلِمًا مَا دُمْتُ حَيًّا عَلَى زَيْنِدٍ بِتَسْلِيمِ الْأَمِيرِ
فَقَالَ زَيْدٌ : لَا أَبَالِي . فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ :

أَتَذْكُرُ إِذْ لِحَافُكَ جِلْدُ شَاةٍ وَإِذْ نَعْلَاكَ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ
فَقَالَ : نَعَمْ . فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ :

فَسُبْحَانَ الَّذِي أَعْطَاكَ مُلْكًا وَعَلَّمَكَ الْجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ
(١) الطَّرْفُ : الْكَرِيمُ مِنَ الْخَيْلِ .

ما قلتَهُ لمعاويةَ أنفاً أعَن صَحَّةِ اعتقادٍ ؟ قَالَ : لا واللهِ ، ولكنهم أخذوا أموالَ الله ، وجعلوا عليها أقفالَ الحديدِ ، فلَسنا نَسْتَخْرِجُها مِنْهُم إلا بِمِثْلِ ما سمعتَ مِنْ أَلْكَلامِ ، فقالَ لَهُ : وَلَكِنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : « أَخْلَقَ بِيْذِي الْوَجْهَيْنِ أَنْ لَا يَكُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيْهاً » (١) .

وكانَ العَبَّاسُ بنُ سَهْلٍ بنِ سَعْدِ الأنصاريِّ عاملَ أبْنِ الزبيرِ على (المدينةِ) ، ثُمَّ وَلِّيَ عَلَيْها عِثْمَانُ بنُ حِثَّانَ بنِ مَعْبِدِ المَرِيَّيِّ ، وآلِيهِ لِيَقْتُلَنَّ العَبَّاسَ ، فَغَيَّبَ حَتَّى أَضَرَّ بِهِ التَّغْيِيبُ ، وَرَغِبَ إِلَى أَصْحَابِ الْأَمِيرِ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُ ، فَقَالُوا : لَا نَقْدِرُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَذْكُرُكَ إِلَّا تَغِيْظَ حَتَّى كَادَ يَتَفَسَّخُ جِلْدُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَتَبَسَّطُ سَاعَةَ الطَّعَامِ ، وَيَرْتاحُ عِنْدَهُ لِلْحَدِيثِ ، قَالَ العَبَّاسُ : فَتَنَكَّرْتُ ، وَحَضَرْتُ عَلَى طَعَامِهِ ، وَجِيءَ بِجَفْنَةٍ عَلَيْها اللَّحْمُ وَالثَّرِيدُ ، فَقُلْتُ :

وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى جَفْنَةِ حِثَّانَ بنِ مَعْبِدٍ يَتَكَوَّسُ النَّاسُ عَلَيْها ، وَهُوَ يَطْوُفُ فِي أَرْدِيَةِ الْخَزْ ، يَتَفَقَّدُ مَصالِحَهُمْ ، حَتَّى إِنَّ الْحَسَكَ لِيَتَعَلَّقُ بِهِ فَلَا يُمِيطُهُ ؛ مِنْ شِدَّةِ أَهْتِمَامِهِ بِضَيْفِهِ ، وَلَا يَكِلُ ذَلِكَ إِلَى حَاشِيَتِهِ ، بَلْ يَراقِبُهُمْ بِنَفْسِهِ ، ثُمَّ يُوْتِي بِجَفْنَةٍ يَحْمِلُها أَرْبَعَةٌ ما يَسْتَقْلُونَ بِحَمْلِها إِلَّا بِمَشَقَّةٍ وَعِناءٍ ، وَهَذَا بَعْدَ ما يَفْرغُ النَّاسُ مِنَ الطَّعَامِ ، يَجْلِسُ عَلَيْها هَوَ الطَّارِئُ مِنْ أَشْرافِ قَوْمِهِ ، وَمَا بِأَكْثَرِهِمْ

(١) أَخْرَجَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُسْلِمٌ (٢٥٢٦) فِي الْفَضَائِلِ : « وَتَجِدُونَ مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءَ بِوَجْهِهِ وَهَؤُلَاءَ بِوَجْهِهِ » (٢٦٠٤ م) وَفِيهِ : « إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ » . وَفِي الْبَابِ : عَنْ عِمَارٍ عِنْدَ الدَّارِمِيِّ (٢٦٦٢) : « مَنْ كَانَ ذَا وَجْهَيْنِ فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ » .

مِنْ حَاجَةٍ إِلَى الْأَكْلِ ، وَلَكِنْ يَحْبُوتُ الْفَخْرَ بِالدَّنُوِّ مِنْ طَعَامِهِ ،
وَمُشَارَكَةِ يَدِهِ .

قَالَ : هِيَ ، أَنْتَ رَأَيْتُهُ كَذَلِكَ ، قُلْتُ : إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ،
قَالَ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : وَأَنَا آمِنٌ ، قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : أَنَا
الْعَبَّاسُ بْنُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ، قَالَ : لَا تَتْرِبْ عَلَيْكَ ، وَأَهْلًا بِكَ ،
وَلَقَدْ أَبْطَأْتَ عَلَيْنَا ، وَإِنَّا إِلَى مِثْلِكَ لَمُحْتَاجُونَ .

قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا بَدَا الْمَدِينَةَ (أَثَرُ وَلَا أَوْجُهُ عِنْدَهُ مِنِّْي .

قَالُوا لَهُ : وَأَنْتَ رَأَيْتَ حَيَّانَ كَذَلِكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، لَقَدْ نَزَلْنَا
مَرَّةً عَلَى بَعْضِ الْمِيَاهِ ، فَغَشَيْنَا وَعَلِيهِ عِبَاءَةٌ بِالْيَتَةِ ، فَجَعَلْنَا نَذُودُهُ عَنْ
رِحَالِنَا ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَسْرِقَهَا ، وَأَعْطَيْنَاهُ تَمْرًا أَكْثَرُهُ حَشْفٌ ، فَفَرَحَ بِهِ ،
وَكَانَ قَدْ مَسَّ عِثْمَانَ هَذَا - أَوْ وَالِدَهُ حَيَّانَ - أَسْرًا ، وَلِهَذَا رَدَّهُ
عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ لَمَّا خَطَبَ إِلَيْهِ أَبْنَتُهُ ، وَقَالَ لَهُ [فِي « الْأَغَانِي » ١٢ / ٢٩٨] :
تَرِيدُ نَاقَتِي ؟ فَظَنَّ عِثْمَانُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ ، فَرَفَعَ صَوْتَهُ وَقَالَ : زَوْجَنِي
بَنَتَكَ ، فَقَالَ : أَنَا قَتَيْتُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ؟ فَجَفَاهُ ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ ، وَكَانَ
أَبْنُ عَمٍّ لَهُ ، فَقَالَ [مِنَ الطُّوَيْلِ] :

وَكُنَّا بَنِي غَيْظٍ رِجَالًا فَأَصْبَحَتْ بَنُو مَالِكٍ غَيْظًا وَصِرْنَا لِمَالِكٍ
لَحَى اللَّهِ دَهْرًا ذَعْدَعَ الْمَالَ كُلُّهُ وَسَوَدَ أَبْنَاءُ الْإِمَاءِ الْعَوَارِكُ^(١)

ومل أنا إلا مهرة عربية وذاك شبيهة بما قالتُ أبنَةُ النعمانِ بنِ بشيرٍ لزوجها روحِ بنِ زنباعٍ
[فِي « وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ » ٣٠ / ٩٥] ، وَكَانَ سَيِّدَ (الْيَمَنِ) وَخَطِيبَهُمْ ، وَقَائِدَهُمْ
بِـ (الشَّامِ) ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ مَسَّهُ الْأَسْرُ يَوْمَ الرَّجِّ ، فَلَمْ تَزَلْ تَعِيرُهُ

(١) ذَعْدَعَ : فَرَّقَ وَبَدَّدَ .

بذلك ، حَتَّى قَالَتْ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مُهْرَةٌ عَرِيَّةٌ سَلِيلَةٌ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلٌ
فَإِنْ تَنَجَّتْ مُهْرًا كَرِيمًا فَبِالْحَرَى وَإِنْ يَكُ أَقْرَابُ فَمَا أَنْجَبَ الْفَخْلُ
وبعضُهم ينسبُ هذينِ البيتينِ لهنديٍّ زوجِ الحجاجِ ، وهو خطأ ،
وإنما تمثَّلتَ بهما ؛ لمناسبتِهما لحالِها ، في حديثِ لَها معِ الحجاجِ
طريفٌ ، غيرَ أَنَّا لا نَظِلُّ بِهِ (١) .

(١) والقصة رواها الألبسيهي في « المستطرف » (١٢٣ / ١) فقال :

إِنَّ هِنْدًا بِنْتَ الثُّعْمَانِ كَانَتْ أَحْسَنَ أَهْلِ زَمَانِهَا ، فَوُصِفَ لِلْحَجَّاجِ حُسْنُهَا ،
فَأَنفَذَ إِلَيْهَا يَخِيطُهَا ، وَبَذَلَ لَهَا مَالًا جَزِيلًا ، وَتَزَوَّجَ بِهَا ، وَشَرَطَ عَلَيْهَا الصَّدَاقَ
مِثْقَى أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَدَخَلَ بِهَا ، ثُمَّ إِنَّهَا أَنْحَدَتْ مَعَهُ إِلَى بَلَدٍ أَبْيَهَا (المَعْرَةَ) ،
وَكَانَتْ هُنْدٌ فَصِيحَةً أَدِيبَةً ، فَأَقَامَ بِهَا الْحَجَّاجُ بَدَ (المَعْرَةَ) مُدَّةً طَوِيلَةً ، ثُمَّ إِنَّ
الْحَجَّاجَ رَحَلَ بِهَا إِلَى (الْعِرَاقِ) فَأَقَامَتْ مَعَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا فِي
بَعْضِ الْأَيَّامِ وَهِيَ تَنْظُرُ فِي الْمِرْآةِ وَتَقُولُ :

وَمَا هِنْدُ إِلَّا مُهْرَةٌ عَرِيَّةٌ سَلِيلَةٌ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلٌ
فَإِنْ وَلَدَتْ فَخَلًا فَلِلَّهِ دَرُّهَا وَإِنْ وَلَدَتْ بَغْلًا فَجَاءَ بِهِ الْبَغْلُ
فَأَنصَرَفَ الْحَجَّاجُ رَاجِعًا ، وَلَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهَا ، وَلَمْ تَكُنْ عَلِمَتْ بِهِ ، فَأَرَادَ
الْحَجَّاجُ طَلَاقَهَا ، فَأَنفَذَ إِلَيْهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ ، وَأَنفَذَ لَهَا مَعَهُ مِثْقَى أَلْفِ دِرْهَمٍ
- وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ لَهَا عَلَيْهِ - وَقَالَ : يَا أَبْنَ طَاهِرٍ . . طَلِّقْهَا بِكَلِمَتَيْنِ ، وَلَا تَزِدْ
عَلَيْهَا ، فَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ عَلَيْهَا وَقَالَ : يَقُولُ لَكَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَجَّاجُ :
(كُنْتُ . . فِينَتْ) ، وَهَذِهِ الْمِثْقَى أَلْفِ دِرْهَمٍ الَّتِي كَانَتْ لَكَ عَلَيْهِ .

فَقَالَتْ : اعْلَمْ يَا أَبْنَ طَاهِرٍ أَنَّنَا - وَاللَّهِ - كُنَّا قَمًا حَمِيدَنَا ، وَبِنًا فَمَا نَدِمْنَا ،
وَهَذِهِ الْأَمْوَالُ الَّتِي جِئْتُ بِهَا بِشَارَةً لَكَ بِخَلَاصِي مِنْ كَلْبِ بَنِي ثَقِيفٍ .

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ خَبْرُهَا ، وَوُصِفَ لَهُ
جَمَالُهَا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا يَخِيطُهَا ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ كِتَابًا تَقُولُ فِيهِ - بَعْدَ الثَّنَاءِ
عَلَيْهِ - : اعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . . أَنَّ الْإِنَاءَ وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ . =

.....
 = فلما قرأ عبد الملك الكتاب.. ضحك من قولها ، وكتب إليها يقول : إذا
 وَلَعَ الكلبُ في إناءٍ أحدكم فليفسلهُ سبعا ، إحداهنَّ بالثرابِ ، فأغسلي
 الإناءَ.. يحلُّ الاستعمالُ .

فلما قرأت كتابَ أمير المؤمنين.. لم يمكنها المخالفةُ ، فكتبت إليه - بعد
 الثناء عليه - : يا أمير المؤمنين.. والله لا أحلُّ العقدَ إلا بشرطٍ ، فإن قلت :
 ما هو الشرطُ ؟.. قلتُ : أن يقودَ الحجاجُ محملي من (المعرة) إلى بلدك
 التي أنت فيها ، ويكونَ ماشياً حافياً بحليته التي كانَ فيها أولاً .

فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب.. ضحك ضحكاً شديداً ، وأنفذَ إلى
 الحجاج ، وأمره بذلك ، فلما قرأ الحجاجُ رسالةَ أمير المؤمنين.. أجاب
 وأمثلَ الأمرَ ، ولم يُخالف ، وأنفذَ إلى هندٍ يأمرها بالتجهُّز ، فتجهَّزت ، وسارَ
 الحجاجُ في موكبه ، حتَّى وصلَ (المعرة) بلدَ هندٍ ، فركبتَ هندُ في محمل
 الزُفَّافِ ، وركبَ حولها جواربها وخدمها ، وأخذَ الحجاجُ بزمَامِ البعيرِ يقودُه ،
 ويسيرُ بها ، فجعلتَ هندُ تتواغَّدُ عليه ، وتضحكُ معَ الهيفاءِ دانتها ، ثمَّ إنَّها
 قالتَ للهيفاءِ : يا دايةُ.. أكتفي لي سَجَفَ المحملِ ، فكشفتُه ، فوقعَ وجهُها
 في وجهِ الحجاجِ ، فضحكتَ عليه ، فأنشأ يقولُ :

فإن تضحكي مني فيا طُولَ لَيْلَةٍ تَرَكْتُكِ فِيهَا كَالْقَبَائِ الْمَفْرُجِ
 فأجابتهُ هندُ تقولُ :

وَمَا نُبَالِي إِذَا أَرَوَّاحَنَا سَلِمَتْ بِمَا فَقَدْنَاهُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ نَشَبِ
 فَالْمَالُ مَكْتَسَبٌ وَالْعِزُّ مُرْتَجِعٌ إِذَا التُّمُوسُ وَقَاهَا اللَّهُ مِنْ عَطَبِ

ولم تزل كذلك تضحك وتلعبُ ، إلى أن قرَّبت من بلد الخليفة ، فرمَتْ بدينارٍ
 على الأرضِ ، ونادت : يَا جَمَّالُ.. إِنَّهُ قد سقطَ مِنَّا درهمٌ ، فارفعه إلينا ، فنظرَ
 الحجاجُ إلى الأرضِ فلم يجد إلا ديناراً ، فقال : إِنَّمَا هو دينارٌ ، فقالت : بل هو
 درهمٌ ، قال : بل دينارٌ ، فقالت : الحمدُ لله ، سقطَ مِنَّا درهمٌ ، فعرضنا الله
 ديناراً ، فحجلَ الحجاجُ ، وسكتَ ، ولم يردَّ جواباً ، ثمَّ دخلَ بها على عبدِ
 الملكِ بن مروان فتزوجَ بها ، وكانَ من أمرها ما كانَ . والله أعلمُ .

وقال الشعبي : حضرت مجلس زياد ، فجاء رجل وقال : إن لي حرمّة أيها الأمير ، أفأذكرها ؟ قال : نعم ، قال : رأيتك بالطائف وأنت غليم ذو ذؤابة ، وقد أحاطت بك جماعة من الغلمان ، وأنت تركض هذا ، وتنطح هذا ، وتكدم هذا ، وهم ينثالون عليك مرّة ، ويندون عنك أخرى ، وأنت تتبعهم ، حتى كاثروك ، فحجزت بينك وبينهم ، وأنت سليم ، وكلهم جريح ، قال : صدقت ، أنت ذلك الرجل ؟ قال : أنا ذاك ، قال : حاجتك ؟ قال : الغنى عن الطلب ، فقال : يا غلام ، أعطه كل صفراء وبيضاء عندك ، فلم ينصرف إلا بأربعة وخمسين ألف درهم ، فقيل له بعد ذلك : أنت رأيت زياداً وهو غلام على تلك الحال ؟ قال : لا والله ، ولكن رأيتُه وقد اكتنفه صبيان صغيران ، كأنهما من سخال المعز ، فلو لا أنني أدركته . . لأتيا عليه .

ولمّا استلحق معاوية زياداً . . قال الجاحظ : مرّ وهو والي (البصرة) بأبي العريان العدوي ، وكان شيخاً مكفوفاً ، ذا لسان عارضة شديدة ، فقال أبو العريان : ما هذه الجلبة ؟ قالوا : زيادُ ابنُ أبي سفيان في موكبه ، قال : والله ما ترك أبو سفيان إلا يزيد ، ومعاوية ، وعتبة ، وعنبسة ، وحنظلة ، ومحمداً ، فمن أين جاء زياد ؟ فبلغ الكلام زياداً ، وقال له قائل : لو سدذت عنك فم هذا الكلب ؟ فأرسل إليه بمئتي دينار . . فقال له رسول زياد : إن الأمير زياداً ابن عمك قد بعث إليك بمئتي دينار ؛ لتستعين بها على نفقتك ، قال : وصلته رحم ، أي والله ابن عمي حقاً ، ثم مرّ به زياد من الغد في موكبه ، فوقف عليه ، وسلم ، فبكى أبو العريان ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : حنّ في أذني صوت أبي سفيان من لسان

زياد ؟ فبلغ ذلك معاوية ، فكتب إلى أبي العريان [في « ديوانه » ١٢٢ من البسيط] :

مَا أَلْبَسَكَ الدَّنَانِيرُ الَّتِي بُعِثَتْ أَنْ لَوْنَكَ أَبَا الْعُرْيَانِ أَلْوَانَا
أَمْسَى إِلَيْكَ زِيَادٌ فِي أَرْوَمَتِهِ نُكْرًا فَأَصْبَحَ مَا أَنْكَزْتَ عِزْفَانَا
لِلَّهِ دُرُّ زِيَادٍ لَوْ تَعَجَّلَهَا كَانَتْ لَهُ دُونَ مَا يَخْشَاهُ قُرْبَانَا !

فلما قرىء كتاب معاوية على أبي العريان . . قال : أكتب في جوابه يا غلام [من البسيط] :

أَخِذْ لَنَا صِلَةً تُخَيِّبُ الثُّقُوسَ بِهَا قَدْ كَذَتْ يَا ابْنَ أَبِي سُفْيَانَ تَسْنَانَا
أَمَّا زِيَادٌ فَقَدْ صَحَّتْ مَنَاسِبُهُ عِنْدِي فَلَا أَبْتَغِي فِي الْحَقِّ بُهْتَانَا
مَنْ يُسَدِّ خَيْرًا يُصِيبُهُ حِينَ يَفْعَلُهُ أَوْ يُسَدِّ شَرًّا يُصِيبُهُ حَيْثُمَا كَانَ

ولما ولي الحسن بن عمارَةَ المظالم . . قال الشعبي : ظالمُ أبْنِ
ظالمٍ يتولَّى المظالمَ ، فاتصلت بالحسن ، وثقلَ عليه أن يحطَّ من
قدره عالمُ المصرِ ، فأهدى إليه رِزْمَةً مِنَ الْكِيَابِ ، فيها صُرَّةٌ مِنَ
الذَّهَبِ ، ودسَّ من يُجْري ذكره بمجلسه ، فقال : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ زَانَ
الوْظِيفَةَ ، وَلَمْ تَزِنُهُ ، فَقَالُوا لَهُ : بِالْأَمْسِ تَقُولُ كَذَا ، وَالْيَوْمَ هَذَا
قَوْلُكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّهُ أَهْدَى إِلَيْنَا ، وَقَدْ جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ
أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، فَقَالُوا : الْهَدِيَّةُ مُشْتَرَكَةٌ ، قَالَ : ذَاكَ حَيْثُ كَانَتْ
الْهَدَايَا اللَّبَنُ وَالْجَبْنُ وَالْأَقِطُ . ذَكَرَهَا الْغَزَالِيُّ فِي « الْإِحْيَاءِ »
وغيره .

النفاق والمداينة ليس وما زالت الدنيا مملوءة نفاقاً ، إِلَّا أَنْ يَخِفَّ وَطْأَةٌ بِمَا يَدَاخِلُهُ مِنْ
أَمْرًا حَدِيثًا كَمَا فِي أَحَادِيثِ هَؤُلَاءِ ، بِخِلَافِ الْمُتَصَنِّعِينَ الَّذِينَ
يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَعِبَادَهُ ، بَلْ يَخَادِعُونَ حَتَّى أَنْفُسَهُمْ ، وَقَدْ صَانَ اللَّهُ

قريشاً فيما سلفَ عَنِ الْنِفَاقِ ، فَلَا تَجِدُ عَنْدهُمْ إِلَّا كُفْرًا صَريحًا ، أو إيمانًا صحيحًا ، أمَّا اليومَ . . فلا تَجِدُ الكَذِبَ والغَدْرَ ، وسوءَ المعاملةِ ، وإظهارَ الصداقةِ ، وإِضمارَ العداوةِ . . أَكْثَرَ ما يَكُونُ إِلَّا عَنْدهُمْ ، ومعاذَ اللهِ أَنْ أَقولَ ما ليسَ لي بِهِ عِلْمٌ ، فَأَعَمَّ سائِرَهُمْ في مشارِقِ الأَرْضِ ومغاريبِها ، وإنَّما أَخُصُّ بِحُكْمِي من جَرِيئَتِهِ مِنْ أَهْلِ بلادِنَا ، ولا أَقولُ هَذَا إِلَّا مَعَ أَحْتِراقِ الضميرِ ، وحسرةِ القلبِ ، وَلَكِنَّ الحَقِيقَةَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهَبْنِي وارِبْتُ ، فلنَ أَسْتَفِيدَ إِلَّا التَّكْذِيبَ بَعْدَ أَنْكِشافِ الأمرِ وَأَتُصَاحِ الحَالِ .

وَمِنْ النُّوادرِ عِنْدَنَا ، أَنَّهُمْ وَقَتَمًا كانُوا يَعْمُرُونَ الرِّباطَ بِـ (تَريمَ) ، كانَ السَّيِّدُ عَبْدُ القادِرِ بْنُ أَحْمَدَ الحَدَّادُ مِنْ جَمَلَةِ القائِمِينَ فِيهِ ، وكانَ السَّيِّدُ عَلِيُّ بْنُ حَسَنِ الحَدَّادُ - صاحِبُ المَقامِ لذلِكَ العَهدِ - مِنْ أَلْمَنكَرِينَ ، قالَ : لَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَعَلِ السَّلَفِ ، ولأنَّهُ مِمَّا لا تَخْلُصُ النِّيَّةُ فِيهِ لَطَلِبِ العِلْمِ ، فوردَ السَّيِّدُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحسَنِ بْنِ جَعْفَرِ الحَبَشِيِّ إلَى (تَريمَ) ، وباتَ عِنْدَ السَّيِّدِ عَبْدِ القادِرِ ، فقالَ لَهُ : لَقَدْ رَأَيْتُ الفَقِيهَ المَقَدَّمَ ، والسَّقَّافَ ، والمَحْضارَ ، والعِيدَرُوسَ ، كُلُّ واحِدٍ حامِلٌ لِنِيتَةٍ يَضَعُها عَلَى رَكنٍ مِنْ أركانِ الرِّباطِ ، ثُمَّ عاجَ^(١) إلَى عِنْدِ السَّيِّدِ عَلِيِّ بْنِ حَسَنِ ، وقالَ لَهُ : لَقَدْ رَأَيْتُ البَارِحَةَ أَرْبَعَةَ مِنْ أَشْياطِينِ ، كُلُّ واحِدٍ يَبُولُ إلَى زاوِيَةٍ مِنْ زوايا الرِّباطِ .

ولنعد إلى ما يتعلّقُ بالبيتِ ، فنقولُ : لَقَدْ قَصَرَ حَسَّانُ فِي عودَةِ إلى المديحِ

(١) عاجَ : عطفَ ومالَ إليه .

مدحه عنه إذ يقول [في «ديوانه» ٤١/١ من الوافر] :

وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
خُلِفْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِفْتَ كَمَا تَشَاءُ

ولكنه جهد المقل ، إذ كلُّ مدح تقصير فيه ، غير أنَّ ما لا
يستطاع كله . . لا يتركُّ كله ، وما أسوأ أدب أبي تمام في نقله معنى
البيت الأخير إلى مَنْ لا يستحقُّ ، حيثُ قال [في «ديوانه» ٤٠٦/١ من
الوافر] :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَرِذْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ
وَلِئِنْ وَقَعْتُ فِي قَرِيبٍ مِنْهُ ، إِذْ رَثِيتُ وَلَدِي بَصْرِي . . فَعَذْرِي فِيهِ
أَنَّهُ مِنْ تِلْكَ النِّبَعَةِ ؛ وَأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ ، مَعَ شَهَادَةِ الْعِيَانِ وَالْحَسِّ
بِمَا قُلْتُ فِيهِ مِنَ الطَّهَارَةِ .

وقال بعضهم : يمدحُ أَوْسَ بْنَ حَارِثَةَ بْنَ لَأْمٍ [في «ثمار القلوب»
١١٩/١ من الوافر] :

إِلَى أَوْسٍ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَأْمٍ لِيَقْضِيَ حَاجَتِي فَيَمُنَّ قَضَاهَا
فَمَا وَطِئَ الْحَصَى مِثْلُ ابْنِ سَعْدَى وَلَا لَبَسَ النَّعَالَ وَلَا اخْتَذَاهَا
وَكَانَ قَدْ ظَفَرَ بِهِ بَعْدَ هَجَاءٍ لَهُ مِنْهُ^(١) ، فَأَطْلَقَهُ بِإِشَارَةِ أُمِّهِ ؛ إِذْ قَالَ

(١) كَانَ أَوْسُ بْنُ حَارِثَةَ مِنْ أَجْوَادِ الْعَرَبِ وَكَانَ يَضَاهِي حَاتِمًا فِي الْجُودِ ، وَكَانَ مِنْ
أَمْرِهِ : أَنَّ الثُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ دَعَا بِحُلَّةٍ نَفِيسَةٍ وَعِنْدَهُ وَفُودُ الْعَرَبِ مِنْ كُلِّ حَيٍّ ،
وَفِيهِمْ أَوْسٌ ، فَقَالَ لَهُمْ : احْضَرُوا غَدًا ؛ فَإِنِّي مَلْبَسٌ هَذِهِ الْحُلَّةَ أَكْرَمَكُمْ ،
فَحَضَرَ الْقَوْمُ إِلَّا أَوْسًا ، فَقِيلَ لَهُ : لِمَ تَتَخَلَّفُ ؟ فَقَالَ : إِنْ كَانَ الْمَرَادُ غَيْرِي . .
فَأَجْمَلَ الْأَشْيَاءَ بِأَنَّهُ لَا أَكُونُ حَاضِرًا ، وَإِنْ كُنْتُ الْمَرَادُ فَسَأُطَلَّبُ ، فَلَمَّا جَلَسَ =

[كما في «المثل السائر» ١١١/٢ من الطويل] :

فَهَبْ لِي حَيَاتِي وَالْحَيَاةُ لِقَائِمٍ يَسْرُوكَ فِيهَا حِينَ مَا أَنْتَ وَاهِبٌ
سَأْمُحُو بِمَذْحِ فَيْكَ إِذْ أَنَا صَادِقٌ كِتَابَ هِجَاءٍ سَارَ إِذْ أَنَا كَاذِبٌ
وما أدري بصاحب الشعر ، أهو الحطيئة ، أم بشر بن أبي
خازم ؟ فقد جرى له مع كل نحوٍ ممّا ذكرناه .

وقلّما تقدّم الناظم لأحدٍ بمدحٍ . . إلّا أقطعَهُ جانبَ التفرّدِ ، كما
سبقَت الإشارةُ إلى بعضِ شعرِهِ في مثله عندَ الكلامِ على قولِهِ [في
«المكبري» ٣١٠/١ من المنسرح] :

قَدْ أَجْمَعْتَ هَذِهِ الْخَلِيقَةَ لِي أَنْكَ يَا أَبْنَ النَّبِيِّ أَوْحَدَهَا
مِنَ الْمَجْلِسِ الثَّالِثِ ، وَأَفْطَعُ مَا فِيهِ قَوْلُهُ [في «المكبري» ١١/٤ من
الكامل] :

= الثُّعْمَانُ وَلَمْ يَرِ أَوْسًا . . قَالَ أَذْهَبُوا إِلَى أَوْسٍ فَقُولُوا لَهُ : احْضُرْ أَمْنًا مِمَّا خَفْتُ ،
فَالْبَسَ الْحُلَّةَ ، فَحَسَدَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِهِ ، فَقَالُوا لِلْحَاطِيَةِ : اهْجُوهُ وَلَكَ ثَلَاثُ مِثَّةٍ
نَاقَةٍ ، فَقَالَ : كَيْفَ أَهْجُو مَنْ لَا أَرَى فِي بَيْتِي أَثَانًا وَلَا رِيَاشًا وَلَا مَالًا إِلَّا مِنْ
عِنْدِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

كَيْفَ الْهِجَاءُ وَمَا تَنْفَكُ صَالِحَةً مِنْ آلٍ لَأُمٍ يَظْهَرُ الْغَنِيْبُ تَأْتِيْنِي
فَقَالَ لَهُمْ بَشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ : أَنَا أَهْجُوهُ لَكُمْ ، وَفَعَلَ ، فَأَخَذَ الْإِبِلَ ،
فَأَغَارَ أَوْسٌ عَلَيْهَا ، وَاکْتَسَحَهَا ، وَطَلَبَهُ ، فَجَعَلَ لَا يَسْتَجِيرُ حَيًّا مِنْ أَحْيَاءِ
العَرَبِ إِلَّا قَالُوا لَهُ : قَدْ أَجْرْنَاكَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَّا مِنْ أَوْسٍ ، فَكَانَ فِي هِجَائِهِ
إِيَّاهُ ذِكْرُ أُمِّهِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى أَتَاهُ بِهِ أَسِيرًا ، فَدَخَلَ أَوْسٌ إِلَى أُمِّهِ ،
وَأَسْتَشَارَهَا فِي أَمْرِهِ ، فَقَالَتْ : أَرَى أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِ مَالَهُ ، وَتَعْفُو عَنْهُ ، وَتَحْبُوهُ ،
وَأَفْعَلُ أَنَا مِثْلَ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَغْسُلُ هِجَاءَهُ إِلَّا مَدِيحُهُ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَتْ ،
فَقَالَ : لَا جَرَمَ ، وَاللَّهِ لَا مَدْحُ أَحَدًا حَتَّى أَمُوتَ غَيْرَكَ ، فَقَالَ الْآيَاتُ
(إِلَى أَوْسٍ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَأْمٍ . . .) . انظر «نمار القلوب» (١١٩/١) .

إِنْ كَانَ مِثْلَكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَاتِنٌ فَبَرِئْتُ حَيْثِيذٍ مِنَ الْإِسْلَامِ
وإِنِّي لأعجبُ من سكوتِ سيفِ الدولةِ على مثلِ هذا ، ولكن
قد عرفناكَ أحوالَ الملوكِ .

موقف رجولي للمأمون وقد اتفقَ للمأمون العباسي [كما في «الأغاني» ١١/٣٤١] أَنْ عزَلَ
قاضيَ (دمشق) [وهو عبد الله بن محمد الخلجي] لَمَّا غَنَّاهُ عَلُوِيَه بِقَوْلِهِ [أي
الخلجي مِنَ الطَّوِيلِ] :

بَرِئْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِي أَتَاكَ بِهِ الْوَأُشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا
وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْكَ سَرِيعَةً إِلَيَّ تَوَاصَوْا بِالنِّمِيمَةِ وَآخْتَالُوا
فحلفَ القاضي أَنَّهُ [قاله مذ كان حدثاً وأنه] منذُ ثلاثين^(١) سنةً
لم ينظَمْ إلَّا في الزهدِ ، قالَ المأمونُ : مَهْمَا يَكُنْ مِنَ الْأَمْرِ . . فلن
أَجْعَلَ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ يَبْدَأُ فِي هَزْلِهِ بِالْبَرَاءَةِ مِنَ
الْإِسْلَامِ .

ولعلَّهُ لم يثقْ مِنْ حَسَنِ نِيَّتِهِ ، وإلَّا . . فالتوبةُ الصادقةُ تغسلُ
ما قَبْلَهَا ، ولا سِيَّما بعدَ أَنْقِضَاءِ مَدَّةِ الاستبراءِ ، أو جرى على
عادةِ الملوكِ مِنَ التَّجَنُّيِ عَلَى عِظَمَاءِ الرِّجَالِ ، وافتجارِ العيوبِ
لَهُمْ ، لتشفيَ ضِبابَ حَقْدِهَا عَلَيْهِمْ ، بما يقولونَ مِنَ الْحَقِّ ، مِنْ
حَيْثُ تَنْظُرُ أَنَّ النَّاسَ لَا يَطْلَعُونَ عَلَى سُوءِ نَوَايَاهُمْ ، وخبثِ
غَوَائِلِهِمْ ، ولا يَعْدَمُونَ مِنْ عِلْمَاءِ السُّوءِ مَنْ يَزِينُ لَهُمْ ذَلِكَ ،
ويساعدهم عليه .

(١) في «الأغاني» : (منذ عشرين سنة) .

وكانَ يُقالُ [كما في « المستطرف » ١ / ٥٠ من قول الفضيل بن عياض] : شرُّ شرِّ العلماء .. علماء
الملوك
العلماء علماء الملوك .

وقلّما ذهبَ عظيمٌ مع شفراتِ سيوفهم إلّا مظلوماً ، يجبُ أن
نتحرّى في كلام المؤرّخين عنه ؛ لأنّهم لا يكتبون إلّا تحت الرّغبة
والرّهبة ، أو مقلّدون لِمَن يكتبُ تحت ذلك التّأثير ، وهو ممّا تُعلّلُ
بِرواياتِ الثّقاتِ ، فضلاً عمّن لم يَرخ رايحةَ العَدالةِ .

* * *

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُنْتَبِي فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٣٣٩ / ٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

يَا ذَا الَّذِي يَهْبُ الْجَزِيلَ وَعِنْدَهُ أَنِّي عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ

شرح المطلع يقول : إِنَّ ممدوحه يعطي العطاء الجزيل ، ويرى المنّة للأخذ ، وقالوا [في « العكبري » ٣٣٩ / ٢] : إِنَّ أَصله قولُ زهير [في « ديوانه » ٥٧ مِنْ الطُّويل] :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
والفرق واضح ، فبيث الناظم أبلغ مدحاً ، وأشرف معنى ،
وأراهم يطنبون في الثناء على بيت زهير ، ويدّعي بعضهم أنّه أمدحُ
بيتِ قائلته العربُ ، وعندي أنّه ليس هناك ؛ لأنّ الفرح بالأخذ ليس
في شيءٍ مِنَ الكُشْرِ ، ففي ذكره حطٌّ مِنَ المَقَامِ ، وتقصيرٌ
بالممدوح ، فالبيت بالذمّ أشبهُ منه بالمدح ، ويقربُ منه قولُ الناظم
[في « العكبري » ٨١ / ٣ مِنْ البسيط] :

تُمْسِي الْأَمَانِي صَرَخِي دُونَ مَبْلَغِهِ فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ : لَيْتَ ذَلِكَ لِي
أَمَّا قولُ الناظم : (وَعِنْدَهُ أَنِّي عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ) . . فَمِنْ أبلغِ
المدح ؛ إذ يشهدُ بأنطباعِ الممدوحِ على الجودِ ، فكأنّه لَمَّا يجدُ مِنْ
عظيمِ لَذَّةِ الإحسانِ . . يرى المنّةَ لِلأخذِ ؛ إذ لَوْلَاهُ لَمَّا حَصَلَتْ لَهُ
تِلْكَ اللَّذَّةُ ، وفي الموضوعِ أبياتٌ لأبي دُلْفِ العجليّ ، تأتي إن
شاء الله أوّلَ المجلسِ الخامسِ عشرَ عندَ قولِ الناظمِ [في « العكبري »
٣٣٩ / ٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

أَمِطْرَ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً وَأَنْظُرَ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لَا أَغْرُقُ

ومنه قوله عن سيف الدولة [في «المكبري» ٩٩/١ من المتقارب] :

[إِذَا حَازَ مَالًا فَقَدْ حَازَهُ] فَتَى لَا يُسْرِ بِمَا لَا يَهَبُ

ولو أن زهيراً قال عن ممدوحه : إِنَّهُ يَفْرَحُ بِالْبَذْلِ ، كما يفرح
المحتاجُ بالأخذ . . لأصاب ، وقد قال أبو تمام [في «ديوانه» ٢٧٠/١ من
الطويل] :

أَسْأَلُ نَصْرٍ لَا تَلْنُهُ فَإِنَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ الْإِزْفَادِ مِنْكَ إِلَيَّ الرَّفْدِ^(١)

وقال أبو نوفل عمرو بن محمد الثقفي [من الكامل] :

وَلَيْتَنِي فَرَحْتُ بِمَا يُبْنِيكَ إِنَّهُ لَبِمَا يُبْنِيكَ مِنْ نَدَاهُ أَفْرَحُ
مَا زَالَ يُعْطِي نَاطِقًا أَوْ صَامِتًا حَتَّى ظَنَنْتُ أَبَا عَقِيلٍ يَمْنَحُ

وذكر [في «وفيات الأعيان» ٣٤٩/٤] : أَنَّ الْوَاقِدِيَّ الْمَفْسَّرَ كَانَ لَهُ
صديقان ، أحدهما هاشمي ، فجاء عيّد ولم يكن عنده إلا خمس مئة
درهم ، فبينما هو يتأمر وأمرأته فيما يأخذون بها للعيد . . جاءه كتاب
من صديقه الهاشمي يستسلفه ، ويخبره بحاجته ، فقال لامرأته : إِنْ
أَعْطَيْتَاهُ إِيَّاهَا . . بَقِينَا بِلَا شَيْءٍ ، وَإِنْ قَسَمْنَاهَا . . لَمْ تَنْفَعْنَا وَلَمْ
تَنْفَعُهُ ، قَالَتْ : بَلْ أَعْطِهِ إِيَّاهَا ، وَيَكْفِينَا التَّلَذُّذُ بِالْإِيثَارِ ، فَدَفَعَهَا
لِخَادِمِهِ ، وَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ رَجَعَتْ لَهُ الصَّرَّةُ بِخَتْمِهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ
بَعْدَ مَا بَعَثَ بِهَا لِلهَاشِمِيِّ ، كَتَبَ لَصَدِيقِهِ الْآخَرِ يَسْتَمِيعُهُ وَيُسْتَعِينُهُ ،
فَكَتَبَ ذَاكَ لِلهَاشِمِيِّ ، فَبَلَغَتِ الْقِصَّةُ إِلَى الْمَأْمُونِ ، فَأَعْظَمَ

(١) الإرفاد : الإعطاء . الرفد : العطاء .

مروءتهم ، وبعث إليهم بسبعة آلاف دينار ، للمرأة ألف ، ولكل ألفان ، وعندى أنه قصر في حق المرأة التي هي أصل تلك الأكرومة ، وموضع المناسبة في قولها : تكفينا لذة الإيثار .

وهذه لا تبعد عما يروى عن حذيفة العدوي [في المستطرف] ، [٣٤٣/١] : فإنه أنطلق يوم اليرموك يطلب ابن عم له في القتلى ، ومعه شيء من الماء ، وقال : إن كان به رمق . . سقيته ، فأدركه بين الشهداء ، فلما أراد سقيته . . إذا برجل يثر ، فأشار إليه ابن عمه أن يؤثره بالماء ، فأنطلق إليه فإذا هو الحارث بن هشام ، فقال له : أسقيك ، فأشار عليه أن يؤثر به عكرمة بن أبي جهل وكان يتشخط في دمه ، فجاء إلى عكرمة فوجده قد مات ، فرجع إلى الحارث بن هشام فإذا هو قد فاض ، وعاد إلى ابن عمه فإذا هو بارد .

ومن هذا القبيل كانت أكرومة كعب بن مامة ، التي كتبها له الشرف على جبهة الزمان بحروف من النور^(١) .

وقال الأصمعي : قصدت يوماً رجلاً كنت أغشاه لكرمه ، فالفيتته قد احتجب وأنقطع ؛ لرقه حاله ، ويوسه عيشه ، فكتبت إليه رقعة أقول فيها [من الوافر] :

إِذَا كَانَ الْكَرِيمُ لَهُ حِجَابٌ فَمَا فَضْلُ الْكَرِيمِ عَلَى اللَّئِيمِ
فَعَادَ بِهَا الْحَاجِبُ ، وَقَدْ وَقَعَ عَلَيْهَا [من الوافر] :

إِذَا كَانَ الْكَرِيمُ قَلِيلَ مَالٍ تَسْتَرُ بِالْحِجَابِ عَنِ الْغَرِيمِ

(١) والمأثرة : هي أنه كان يسير في الصحراء مع رفيق له ، وكان معه سقاء فيه ماء لا يفضل عنه ، وله رفيق ، فسقاء ، ومات عطشاً . انظر «صبح الأعشى» . (٣٩٠/١) .

ومعه صرةٌ فيها خمسُ مئة دينارٍ ، فقلتُ : والله لأتحفنَّ بهذا الحديثِ المأمونَ ، فما مرَّ به مثلهُ ، فلمَّا رأيتهُ .. قالَ : مِن أينَ أقبلتَ ؟ قلتُ : مِن عندِ أكرمِ الأحياءِ بعدَ أميرِ المؤمنينَ ، وشرحتُ لَهُ الحديثَ ، ولمَّا أطلعتهُ على الصرةِ .. أربدَّ وجهُهُ ، وقالَ : خاتمُ بيتِ مالي ، ولا بدُّ لي مِن الرجلِ الذي دفعها إليك ، فقلتُ : على شريطةٍ أن لا يروِّعَ ، فلمَّا حضَرَ بينَ يديه .. عرفهُ ، وقالَ لَهُ : أأستِ أنتَ الذي تعرَّضتَ لي بالأمسِ ، وشكوتَ رقةَ حالكِ ، فدفعتُ إليك هذه الصرةَ لتُصلِحَ بها شأنَكَ ، فقصدَكَ الأصمعيُّ بيتَ مِن الشَّعْرِ فدفعَها إليه ؟! فقالَ : والله يا أميرَ المؤمنينَ ، ما كذبتُ فيما شكوتُهُ مِن رقةِ الحالِ ، وصعوبةِ الزمانِ ، ولكن أستحييتُ أن أُعيدَ قاصِدي إلَّا بما جُبِلَ عليه طبعي ، فقالَ لَهُ المأمونُ : لله أبوكَ ، ما ولدتِ العربُ مثلكَ ، وأمرَ لَهُ بألفِ دينارٍ ، قالَ الأصمعيُّ : فقلتُ لَهُ : ألحقني به يا أميرَ المؤمنينَ ، فتبسَّمَ وأمرَ بأن يكَمِّلَ لي الألفُ ، ولعلَّ هذا الحديثَ كانَ قبلَ قصَّةِ الواقديِّ ، وإلَّا .. ضاعَ قولُ الأصمعيِّ : فما مرَّ به مثلهُ .

وَإِذْ قَدْ أَنْتَهَى بِنَا الْكَلَامِ إِلَى هُنَا .. فَلْنَذْكُرْ كَلَامَ الْفُقَهَاءِ فِي حُكْمِ الْإِيثَارِ
الْإِيثَارِ ، فَإِنَّ لَهُمَ عَابَرَتَيْنِ :

الأولى قولهم : يجوزُ للمضطرِّ إيثَارُ مضطرٍّ آخرَ مسلمٍ .

والثانية قولهم : يحرمُ على عطشانٍ إيثَارُ عطشانٍ آخرَ .

قالَ أبْنُ حَجَرٍ : والأولى محمولةٌ على مَنْ يصبرُ على الإضاعة .
والثانية محمولةٌ على مَنْ لا يصبرُ عليها ، وأمَّا ما يحتاجُهُ الإنسانُ
لنَفَقَةٍ مِّن تَلَزُّمِهِ نَفَقَتُهُ ، أَوْ لَدَيْنَ لَا يَرْجُو لَهُ وِفَاءً .. فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ

التصدُّق به ، ولمن خرجَ مِنَ السلفِ عَن جميعِ ماله في سبيلِ اللهِ
مَحَامِلُ ، لا حاجةَ لَأَن نطيلَ فيها ، وأحسنُها عِنْدِي الثَّقَةُ بِقَرَبِ
الخَلْفِ ، وقد وُفِّيتُ البَحْثَ حَقُّهُ في « حاشيتي على الشَّمائِلِ » حينَما
تكلَّمْتُ في الأنصاريِّ الذي آثرَ ضيفَ رسولِ اللهِ على عياله^(١) ،
ونزلَ فيه : ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

[الحشر : ٩] .

ومِمَّا يتعلَّقُ بالجودِ المطبوعِ قولُ الفقيهِ عُمارةَ اليمينيِّ [مِن الطَّوِيلِ] : الجود المطبوع في النفس

لَهُ رَاحَةٌ يَنْهَلُ جُوداً بَنَانَهَا وَوَجْهٌ إِذَا قَابَلَتْهُ يَتَهَلَّلُ
يَرَى الْحَقَّ لِلضَّيْفَانِ حَتَّى كَانَهُ عَلَيْهِمْ - وَحَاشَا قَدْرُهُ - يَتَطَهَّلُ

وقال عليُّ بنُ جبلةَ [في « ديوانه » ٩٩ مِن الكامل] :

أَعْطَيْتَ حَتَّى لَمْ تَدَعْ لَكَ سَائِلًا وَبَدَأْتَ إِذْ قَطَعَ الْعُفَاءُ سُؤَالَهَا^(٢)

فسرقهُ أبو عُبَادَةَ سَرْقَةً مَكشُوفَةً عَلَى ضَوْءِ الشَّمْسِ . . . حيثُ يقولُ

[في « ديوانه » ١٥/١ مِن الخفيف] :

جَادَ حَتَّى أَفْنَى السُّؤَالَ وَلَمَّا بَادَ مِنَّا السُّؤَالُ أَعْطَى أَبْتِدَاءَ

- (١) أخرجه عن أبي هريرة البخاري (٣٧٩٨) في مناقب الأنصار . وأورد السيوطي في « أسباب النزول » (ص / ٢٣٠) أنه أخرجه مسدد في « مسنده » وابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي أن الذي أضاف هو ثابت بن قيس . وفي « الفتح » (١١٩/٧) عن ابن التين كذلك ، وابن بشكوال مرسلاً كما أنه ذكر أنه عبد الله بن رواحة من غير مستند ، وجزم الخطيب أنه أبو طلحة ، وليس هو لرواية مسلم له ولكنه قال : أظنه غير أبي طلحة زيد بن سهل ؛ لأنه كان من أكثر الصحابة مالاً ، والله أعلم .
- (٢) العُفَاءُ : المحتاجونُ الْمُعْوزُونَ .

ولقد أحسنَ ابنُ نباتةَ السعديُّ في قوله لسيفِ الدولة [في «ديوانه» ٤١١
مِنَ البسيطِ] :

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئاً أَوْمَلُهُ تَرَكَتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ

وقالَ ابنُ بابك في الصَّاحِبِ بنِ عَبَّادٍ [مِنَ البسيطِ] :

فَحُسْنُ ظَنِّكَ بِي أَسْتَوْفَى مَدَى أَمَلِي وَحُسْنُ رَأْيِكَ بِي لَمْ يُبْقِ لِي أَمَلاً

وقالَ أبو تَمَّامٍ [في «ديوانه» ٢٦٧/١ مِّنَ الكاملِ] :

لَوْ يَعْلَمُ الْعَافُونَ مَا لَكَ فِي الْكُدَى مِنْ لَذَّةٍ وَقَرِيحَةٍ لَمْ تُخْمَدِ

وهو مِن قولٍ بِشَّارٍ [في «ديوانه» ١١١/١ مِّنَ الخفيفِ] :

لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلِلْخَوْ فِ وَلَكِنْ يَلْدُ طَعْمَ الْعَطَاءِ

وقالَ أشجعُ السلميُّ يمدحُ الفضلَ بنَ الربيعِ [في «ديوانه» ٢٠٢ مِّنَ

الكاملِ] :

أَوْصَلْتَنِي وَرَفَدْتَنِي وَكِلَاهُمَا شَرَفٌ فَقَأْتُ بِهِ عُيُونََ الْحُسَدِ

وَكَفَيْتَنِي مِنْ الرُّجَالِ بَنَائِلٍ أَغْنَى يَدِي عَنْ أَنْ تُمَدَّ إِلَيَّ يَدِ

وبالبيت الأخيرِ ذكرتُ أَنَّ المنصورَ العبَّاسيَّ وجَّهَ إلى شيخٍ كانَ

مِنَ بطانةِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ ، فسألهُ عَن تديبِهِ ؟ فوصَفَ حالَهُ ،
يترعها إلا غاسلي...
رجل وفي

وَأَكْثَرَ مِنْ أَلْتَرَحَّمِ عَلَيْهِ ، كُلَّمَا جَرَى أَسْمُهُ ، فَقَالَ لَهُ المنصورُ [في

«المستطرف» ٤٣٩/١] : قُمْ عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ ، تَطَأُ بِسَاطِي وَتَتَرَحَّمُ عَلَيَّ

عَدُوِّي ، قَالَ الشَّيْخُ : إِنَّ نِعْمَتَهُ قِلَادَةٌ فِي عُنُقِي ، لَا يَنْزِعُهَا إِلَّا

غَاسِلِي ، فَقَالَ لَهُ المنصورُ : أَرْجِعْ ، أَشْهَدُ أَنَّكَ لَنْهِيضُ حَرَّةٍ ،

وَعِرَاسُ شَرِيفٍ ، عُدْ إِلَيَّ حَدِيثِكَ ، فَعَادَ إِلَيَّ مَا كَانَ أَسْتَطْعِمُهُ مِنْ

سيرة هشام ، حتّى إذا فرغ . . دعا له بمالٍ ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما بي حاجةٌ إليه ، ولقد مات عني من كنت في ذكره ، وما أحوّجني إلى أحدٍ بعده ، ولولا جلالة أمير المؤمنين . . ما لبست لأحدٍ بعده نعمةً ، فقد أغنى يدي عن أن تُمَدَّ إلي يد ، فقال المنصور : مُت إذا شئت ، فلله أنت ، لو لم يكن لقومك غيرك . . لكنت قد أبقيت لهم مجداً متلداً مخلداً .

المرثية الثانية لابن الأنباري . . قمة في الوفاء
ويتصل بهذه الحكاية ما ذكره ابن عساكر في « تاريخ دمشق »
[وابن عماد الحنبلي في « شذرات الذهب » ٦٣/٢ : أن ابن الأنباري لَمَّا صنع المرثية الثانية^(١) في الوزير ابن بقيّة . . رماها بشوارع (بغداد) ،

(١) والقصيدة هي [من الوافر] :

عَلَوْ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ جِنَنَ قَامُوا
كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيئاً
مَدَدْتَ يَدَيْكَ تَحْوَهُمْ اخْتِفَاءً
وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ
أَصَارُوا النِّجْوَ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاضُوا
لِعَظْمِكَ فِي الثُّمُوسِ بَقِيَّتَ تَرْعَى
وَتَوْقَدُ حَوْلَكَ النَّيْرَانُ لَيْلًا
رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلِ زَيْدٍ
وَتِلْكَ قَضِيَّةٌ فِيهَا نَاسٌ
وَلَمْ أَرْ قَبْلَ جَذْعِكَ قَطُّ جَذْعًا
أَسَأَتْ إِلَيَّ النَّوَائِبُ فَاسْتَشَارَتْ
وَكُنْتُ تُجَبِّرُ مِنْ صَرْفِ اللَّيَالِي
وَصَبَرَ دَهْرُكَ الْإِحْسَانَ فِيهِ
وَكُنْتُ لِمَعْشَرٍ سَعْدًا فَلَمَّا

لَحَقْتُ تِلْكَ إِخْدَى الْمُعْجَزَاتِ
وَفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ
كَمَدَهُمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ
يَضُمُّ عِلَاقَ مِنْ بَعْدِ الْوَفَاةِ
عَنِ الْأَكْفَانِ ثُوبَ السَّاقِيَاتِ
بُخْرَاسٍ وَحُمَاطٍ ثِقَاتِ
كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ
عَلَاهَا فِي السِّنِينَ الْمَاضِيَاتِ
تُبَاعِدُ عَنْكَ تَغْيِيرَ الْعُدَاةِ
تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ
فَأَنْتَ قَيْنُلُ نَارِ النَّائِبَاتِ
فَصَارَ مُطَالِبًا لَكَ بِالثَّرَاتِ
إِلَيْنَا مِنْ عَظِيمِ السَّيِّئَاتِ
مَقِيَّتَ تَفَرَّقُوا بِالْمُنْحَسِنَاتِ

فتداولتها الأيدي ، حَتَّى وصلتْ إلى عَضِدِ الدَوْلَةِ ، فَلَمَّا أُنشِدَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ .. تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَصْلُوبَ دُونَهُ ، وَقَالَ : عَلَيَّ بِهِذَا الرَّجُلِ ، فَطَلَبُوهُ سَنَةً كَامِلَةً ، حَتَّى رَسَمَ لَهُ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ بِالْأَمَانِ ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذِكْرِ الْأَمَانِ .. قَصَدَ حَضْرَةَ الصَّاحِبِ ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ قَائِلُ الْقَصِيدَةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ لَهُ : أُنشِدْنِيهَا مِنْ فَيْكِ ، فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ مِنْهَا [مِنْ الْوَاغِي] :

وَلَمْ أَرْ قَبْلَ جِذْعِكَ قَطُّ جِذْعًا تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ

.. قَامَ إِلَيْهِ الصَّاحِبُ وَعَانَقَهُ ، وَقَبَّلَ فَاهُ ، وَأَنْفَذَهُ إِلَى عَضِدِ الدَوْلَةِ ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ .. قَالَ لَهُ : مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَرِئِيَّةِ عَدُوِّي ؟ فَقَالَ : حَقُوقُ سَلَفَتِ ، وَأَيَادٍ مَضَتْ ، فَجَاشَ الْحَزَنُ فِي قَلْبِي ، فَرِثِيَّتُهُ ، وَأَسْتَنْشَدُهُ فِيهِ غَيْرَهَا فَأَنْشَدَهُ ، فَخَلَعَ عَلَيْهِ ، وَأَكْرَمَهُ ، وَرَضِيَ عَنْهُ .

وقد سبقَ حَدِيثُ ابْنِ الرِّقْيَاتِ مَعَ الْمَصْعَبِ ، وَيَأْتِي عَمَّا قَرِيبٍ مَا لَا يَقُلُّ عَنْ هَذَا فِي أَخْبَارِ الْبَرَامِكَةِ ، وَأَرَى كَثِيرًا يُطَنَّبُونَ فِي بَيْتِ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ السَّابِقِ ، وَلَوْ أَنَّ ابْنَ بَقِيَّةٍ كَانَ أَوَّلَ مَصْلُوبٍ فِي الْإِسْلَامِ .. لَاعْتَرَضَهُ مَا صَحَّ مِنْ ضَمِّهِ ﷺ لِلْجِذْعِ حِينَ حَنَّ

= غَلِيلٌ بَاطِنٌ لَكَ فِي فُؤَادِي
وَلَوْ أَنِّي قَدَرْتُ عَلَى قِيَامِ
مَلَأْتُ الْأَرْضَ مِنْ نَظْمِ الْقَوَافِي
وَلَكِنِّي أَصْبَرُ عَنْكَ نَفْسِي
وَمَا لَكَ تُزْبَةُ فَأَقُولُ تُنْقَى
عَلَيْكَ تَجِيَّةُ الرَّخْمَنِ تَتَرَى
يُخَفَّفُ بِالدُّمُوعِ الْجَارِيَاتِ
بِفَرَضِكَ وَالْحُقُوقِ الْوَاجِبَاتِ
وَتُخَشُّ بِهَا خِلَافَ النَّائِحَاتِ
مَخَافَةً أَنْ أُعَدَّ مِنَ الْجُنَاةِ
لَأَنَّكَ تُصَبُّ هَطْلِ الْهَاطِلَاتِ
بِرَحْمَاتِ غَوَادٍ رَائِحَاتِ

لفراقه^(١) ، فذلك الجذعُ بالحقيقة هو الذي تمكَّن من عناقِ
المكرُماتِ غيرِ مدافعٍ ، فكيفَ ؟ وقد قالَ في نفسِ القصيدةِ [منَ
الوافر] :

رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلُ زَيْدٌ عَلَاهَا فِي السُّنَنِ الْمَاضِيَاتِ
أَفْتَرَى جِذْعَ زَيْدٍ لَمَّا يَتِمَكَّنُ مِنْ عُنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ ؟ ! كَلَّا ، غَيْرَ أَنَّهُ
عَلَى الْجَوَادِ ، وَالبَدِيعُ فِيهِ لِأَبِي تَمَامٍ [في «ديوانه» ١/٣٤٠ من الكامل] :

رَمَقُوا أَعَالِي جِذْعِهِ فَكَأَنَّمَا رَمَقُوا الْهَلَالَ عَشِيَّةَ الْإِفْطَارِ

الحر لا يكذب ولو قُتِلَ وَلَمَّا قُتِلَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ .. جَمَعَ الشُعْرَاءَ مُسَلِّمَةً بَنُ عَبْدِ
الْمَلِكِ ؛ ليقولوا فيه ، فَلَمْ يَأْلُوا أَنْ يذكروهُ بِأَقْبَحِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ ،
مَا خَلَا رَجُلًا مِنْ (دَارِم) ، فَإِنَّهُ قَالَ : لَا أَذُمُّ مَنْ لَا أَمْلِكُ رَيْعًا
وَلَا أَثَانًا إِلَّا مِنْهُ ، وَلَوْ قَطَعْتُمُونِي إِزْبًا فِإِزْبًا ، وَلَقَدْ رَثِيْتُهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ ،
وَأَنشَدَ أَبِيَاتًا جَزَلَةً ، أُعْجِبَ بِهَا مُسَلِّمَةٌ ، فَأَنعَمَ عَلَيْهِ وَقَالَ : مَنْ أَرَادَ
أَنْ يَصْطَنِعَ .. فَلْيَصْطَنِعْ مِثْلَ هَذَا .

وَيَأْتِي مَا يَقْرُبُ مِنْهُ عَنْ عُمَارَةَ الْيَمْنِيِّ قَبِيلَ شَرْحِ قَوْلِ النَّازِمِ [في
«المكبري» ٢/٢٤٣ من الطويل] :

إِذَا عَرَضْتُ حَاجًّا إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ إِلَى نَفْسِهِ فِيهَا شَفِيعٌ مُشَقَّعٌ

الذروة في الشجاعة وَمِنْ أَلْغَايَةِ فِي الْوَفَاءِ ، وَالدُّرُورَةِ فِي الشَّجَاعَةِ ، مَا كَانَ مِنْ أَخِي
مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي رِثَائِهِ لَجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ، وَقَوْلُهُ [في «الأغاني»
١٦/٢٦٥ من الوافر] :

(١) أورد حديث حنين الجذع العلامة جعفر الكتاني في «نظم المتنائر» عن نحو
عشرين صحابياً. فهو من الأحاديث المتواترة .

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ لَا خَوْفٌ وَاشِرٌ وَعَيْنٌ لِلْخَلِيفَةِ لَا تَنَامُ
لَطُفْنَا حَوْلَ قَبْرِكَ وَأَسْتَلَمْنَا كَمَا لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ أَسْتِلَامُ

وخيرٌ من هذا كله : أنَّ بقيَّ بنَ مَخْلَدٍ قدم في طلبِ الحديثِ منَ
(الأندلس) إلى (العراق) ، فوافقَ ألامتحانَ بأبي عبدِ اللهِ^(١) ، وكانَ
لا يذكرُهُ ذاكِرٌ إِلَّا تناولتُهُ الأيدي ، ونزلَ به العقابُ ، فلم يكنْ منَ بقيٍّ
إِلَّا أَنْ وَقَفَ بحلقةِ يحيى بنِ معينٍ ، وهو يكشفُ الرجالَ ، يوثقُ
هذا ، ويؤهَّنُ الآخرَ ، فقالَ لَهُ : أَسَأَلُكَ عَنْ أَحْمَدَ ابنِ حنبلٍ ؟ فَأَرِمَ
القومُ ، وضربَ يحيى صدرَهُ بِذَقْنِهِ ، يترَوَّى بينَ أَنْ يؤثرَ الحياةَ الدنيا
بأتباعِ مرضاةِ السلطانِ ، وبينَ أَنْ يؤثرَ الأخرى ويصبرَ على الأذى في
جنبِ اللهِ ، فأَيَّدَهُ اللهُ بعزمٍ منَ عنْدِهِ ، فرفعَ رأسَهُ وقالَ لَهُ : ذاكَ سيِّدُ
المسلمينَ ، وإمامُ أهلِ العلمِ اليومَ ، أو ما يقربُ منَ هذا ،
رضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ .

وممَّا يكتُبُ على جَرائِدِ الوفا ، بمدادِ الشرفِ ، ما كانَ منَ البحرِ شديداً الوفاءِ
البحرِ وكثرةِ رثائِهِ للمتوكِّلِ ، وقد قتلهُ أبْنُهُ المنتصرُ ، وقولهُ [في
ديوانِهِ ٢٠/٤٨١٠٤٩١٠٤٨ : مِنَ الطَّوِيلِ] :

حَرَامٌ عَلَيَّ الرِّاحُ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى دَمًا بِدَمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرَةٌ
وَهَلْ يُزْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ الدَّمُ طَالِبٌ مَدَى الدَّهْرِ وَالْمَوْتُورُ بِالْأَمِّ وَأَبْرُهُ؟^(٢)
فَلَا مُلِيَّ الْبَاقِي تَرَاثَ الَّذِي مَضَى وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهُ^(٣)

(١) يعني : أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى .

(٢) الوائرُ : الظالمُ ، الموتورُ : من قتلَ له قتيلاً فلم يدركْ دمه .

(٣) مُلِيَّ : مُنْعَ .

أبلغ ما يكون من الجود
أن تكون كلك من
أيادي معطيك
ولنعد لما كنا فيه ، فنقول : قال أبو تمام [من الخفيف] :
لَمْ يَدْعِنِي وَفِي يَمِينِي فَضْلٌ لِنَدَى غَيْرِهِ وَلَا فِي شِمَالِي

وقال [في «ديوانه» ٤٧/٢ من الطويل] :

وَمَا يَلْحَظُ الْعَافِي جَدَاكَ مُؤَمَّلًا سَوَى لَخْطَةٍ حَتَّى يُوْزَبَ مُؤَمَّلًا^(١) .

وقال [من الكامل] :

الْبَسْتَنِي حُلَّ الشَّاءِ فَلَبِسْتُهَا وَجَعَلْتَ آمَالِي لَهُنَّ ذُبُولًا

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٩٥٦/٢ من البسيط] :

لَا يُتَعَبُ النَّائِلُ الْمُبْذُولُ هِمَّتُهُ وَكَيْفَ يُتَعَبُ عَيْنُ النَّاطِرِ النَّظَرُ^{١٩}

وقال [في «ديوانه» ١٢٠٣/٢ من الطويل] :

ثَنَى أَمْلِي فَأَحْتَازَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ يَبِيتُونَ وَالْأَمَالَ فِيهِمْ مَطَامِعُ^(٢)

وقال الناظم في معنى ما سبق عن بشار وعن غير بشار [في

«المكبري» ٢٧٩/٤ من المنسرح] :

لَوْ كَفَرَ الْعَالَمُونَ نِعْمَتَهُ لَمَا عَدَتْ نَفْسُهُ سَجَايَاهَا

وقال الخزاعي [في «ديوانه» ٣٣٤ من الكامل] :

شَفَعَتْ مَكَارِمُهُمْ لَهُمْ فَكَفَّتْهُمْ جَهْدَ السُّؤَالِ وَلُطْفَ قَوْلِ الْمَادِحِ

وفيه إشارة إلى أنَّ المديح لا يكون إلا عن رغبة ، ومنه قول أمية
المديح لا يكون إلا عن رغبة

[ابن أبي الصلت في «ديوان الحماسة» ٣٧٣/٢ من الوافر] :

إِذَا أَتْنِي عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَّاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الشَّنَاءِ

(١) جدّاك : عطاك .

(٢) أحْتَازَهُ : أدخله في حوزته .

وإذا كَانَ كَذَلِكَ.. فَلَنْ تَكُونَ الإِطَالَةُ فِيهِ إِلَّا لضعفِ أريحيةِ الحر تكفيه الإشارة
 الممدوح ، أمّا الحرّ.. فتكفيه الإشارة ، وأمّا الجواد.. فتحرّكه
 الغمزة ، وقد سبق قول بعضهم [في « روضة العقلاء » ٢٥١ من الكامل] :

وإذا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
 ووضّح المعنى أبْنُ الرومي في قوله [في « ديوانه » ١١١/١ من الكامل] :

وإذا أَمَرْتُ مَدَحَ أَمْرًا لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
 لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوَرُودِ لَمَّا أَطَالَ رِشَاءَهُ

وما زلتُ في إشكالٍ من حالِ أغنيائنا ؛ إذ تفيضُ أَكْثُهُم فيما متى ينفع الجود وابن
 لا ينفَعُ ، ويضنونَ بالتأفهِ اليسيرِ لدى حسنِ الموقعِ ، حتّى أنحلَّ محله؟
 الإشكالُ بما سبقَ عَنِ الْخَوَارِزْمِيِّ في غيرِ هذا المكانِ ، وجلُّهم
 لا يبدُلُ إِلَّا رَغْبَةً ، أَوْ رَهْبَةً ، أَوْ اسْتِصْلَاحًا ، أَوْ إِرضَاءَ شَهْوَةٍ ،
 وذلكَ غيرُ مجزئٍ حتّى في فريضةِ الزكاةِ - على رأيِ بعضهم -
 وإن رَجَّحَ أبْنُ حجرٍ [في « تحفته »] الجوازَ متى كَانَ المدفوعُ إِلَيْهِ
 بصفَةِ الاستحقاقِ ، وما أحسنَ قولَ الناظمِ [في « المُكَبَّرِيِّ » ٢٨٤/٤ من
 الطويل] :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَتَى أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيَا

وقول الآخر [وهو ابن عبد ربه الأندلسي في « قرى الضيف » ٨٧/٢ من الطويل] :

وَمَا الْجُودُ مَنْ يُعْطِي إِذَا مَا سَأَلْتُهُ وَلَكِنَّ مَنْ يُعْطِي بِغَيْرِ سُؤَالٍ

وقول المقنع الكندي [في « ديوان الحماسة » ٣٤٣/٢ من الكامل] :

لَيْسَ الْعَطَاءُ مِنَ الْفُضُولِ سَمَاحَةً حَتَّى تَجُودَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيلُ

وقول زهير [في «ديوانه» ٢٢٨ من البسيط] :

[إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا ، جِنٌّ إِذَا فَرَعُوا] مُرَرُّوْنَ بِهَالِئِلٍ إِذَا جَهَدُوا

وقول بشامة بن حزن [من البسيط] :

فَرَضُ عَلَى مُكْثَرِنَا بَذْلُ نَيْلِهِمْ وَالْجُودُ وَالْبَذْلُ فِي طَبْعِ الْمُقْلِنَا

وقد سبق أكثره في غير هذا المجلس ، وكان السلف الطيب - رضوان الله عليهم - يحاملون ، ويستقون ، ويتصدقون ، وقد قيل

[القاتل محمد بن يسير كما في «الأغاني» ٣٥ / ١٤ من البسيط] :

جُهِدَ الْمُقْلُ إِذَا أَعْطَاكَ نَائِلُهُ وَمُكْثَرٌ مِنْ غِنَى سَيِّانٍ فِي الْجُودِ

وأكل بعض العرب على مائدة معاوية ، ولما أراد أن يتلعق لقمة . . قال له معاوية [كما في «المستطرف» ٣٨٩ / ١] : على رسلك ، فإن فيها شعرة ، قال : أوتراقبني مراقبة من يرى الشعرة في لقمتي ؟ والله لا أكل لك زاداً بعدها ما حييت .

الحلم على الجاهلين

وما كان معاوية هناك ، ولا ينبغي لابن عبد مناف أن يشتعل على شيء من اللؤم ، لكنّها حانت التفتاة ، فحملها العربي على أسوأ ما يُظنّ ، وذهب بها إلى قول قيس بن عاصم [من الطويل] :

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يَلَاحِظُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدٍ

ويحكى [كما في «المستطرف» ٣٨٩ / ١] : أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ كَانَ عَلَى طَعَامِ مُعَاوِيَةَ ، فَقُدِّمَتْ دَجَاجَةٌ ، أَمَعَنَ الْحَسَنُ فِي الْأَكْلِ مِنْهَا ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : هَلْ يَبْنُوكَ وَبَيْنَهَا عِدَاوَةٌ ؟ فَقَالَ الْحَسَنُ : وَهَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا قَرَابَةٌ ؟ قَالَ الْجَاحِظُ : وَمَا أَنْكَرَ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْحَسَنِ إِلَّا تَقْصِيرَهُ فِي تَوْقِيرِ الْخِلَافَةِ بِإِظْهَارِ النَّهَمِ مَعَ الْمُؤَاكَلَةِ ، وَأَشَارَ إِلَى مِثْلِ

ذَلِكَ صَاحِبُ « الْمُسْتَطَرَفِ » وَهُوَ مَنْ أَفْحَشِ الْغُلَطِ ، فَمَا كَانَ التَّصَنُّعُ لَهُمْ بَعَادَةً ، وَسُنَّةُ الْعَرَبِ مَعْرُوفَةٌ فِي أَطْرَاحِهِ ، وَقَدْ عَرَفَ النَّاسُ لِمَعَاوِيَةَ أَحْتِمَالَهُ مَا لَا تَبْرُكُ الْإِبِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَفَاءِ ؛ لِمَنْ لَا يوزُنُ بِنَعْلِ الْحَسَنِ ، فَضْلًا عَنْهُ .

إِنَّمَا جَنَحَ إِلَى الْمَدَاعِبَةِ ، وَعَمَدَ إِلَى الْمَطَايِبَةِ ؛ لِيَتَسَحَّبَ الْحَسَنُ عَلَى مَلِكِهِ ، وَيَتَبَسَّطَ عَلَى سُلْطَانِهِ ، وَيَزُولَ تَحْقِظُهُ ، وَتَذَهَبَ حَشْمَتُهُ ، وَيَفْضِي بِحَوَائِجِهِ ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنَّ لِلدَّاحِلِ حِشْمَةً ، فَأَبْسِطُوهُ بِأَنْسٍ »^(١) .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ مَعَاوِيَةَ إِنَّمَا يَتَعَرَّضُ لَجَفَاءٍ مَنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ؛ لِيَشْتَهَرَ بِالْحِلْمِ إِذَا سَكَتَ عَنْ جَوَابِهِ ، وَعَقَابِهِ ، وَلَا يَطِيبُ نَفْسًا بِمَلَايِنَةِ أَمْثَالِ الْحَسَنِ عَلَى الْمَلَأِ ؛ لِأَنَّهَا تَسْمُهُ بِالْعَجْزِ ، وَتَدْخُلُ عَلَيْهِ الْوَهْنَ ، وَالْإِنْسَانُ قَدْ يَحْتَمِلُ لِلْحَقِيرِ وَالْأَجْنَبِيِّ ، مَا لَا يَحْتَمِلُهُ لِلْقَرِيبِ وَالْعَظِيمِ . . قُلْتُ : لَا يُنْكِرُ أَنْدِمَاجُ النُّفُوسِ عَلَى مِثْلِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الْأَخْلَاقِ الْمُنْحَطَّةِ ، وَالطَّبَاعِ السَّافِلَةِ ، أَمَّا قَرِيشٌ . . فَمَا زَالَتْ حَتَّى فِي جَاهِلِيَّتِهَا مَعْرُوفَةٌ بِحَسَنِ التَّنَاصُفِ ، وَكَثِيرًا مَا تَرَى الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَحْتَرِمُ الْآخَرَ ، وَيَقُولُ : إِنَّهُ سَيِّدُ الْوَادِي ، وَإِنْ كَانَ فِي جُوفِهِ مَا يَكَادُ يَقْتُلُهُ سِلَاحًا مِنَ الْحَسَدِ لَهُ ، وَهَذَا مَسْكِينُ الدَّارِمِيِّ - أَوْ أَبُو الْجَهْمِ الْعَدَوِيِّ - يَقُولُ فِي مَعَاوِيَةَ نَفْسِهِ [كَمَا فِي « الْبَيَانِ وَالتَّبَيِّنِ » ٥٠٠/١ مِنْ الْوَافِرِ] :

نَقَلْبُهُ لِنَخْبُرَ حَالَتَيْهِ فَنَخْبُرُ مِنْهُمَا كَرَمًا وَلَيْنَا
نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا نَمِيلُ إِذَا نَمِيلُ عَلَى آبِنَا

(١) لم أجده .

وأنا ذاكرٌ ما أخرجهُ المدائنِيُّ ، وغيرُهُ [كما في «جمهرة خطب العرب»
 ١٢٨/٢] : مِنْ قَدُومِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ ، ومَجْلِسُهُ غَاصُّ
 بِأَصْحَابِهِ ، فَنَالَ أَبْنُ الْعَاصِ مِنْ عَلِيٍّ جَهْرًا ، فَحَسَرَ عَبْدُ اللَّهِ عَنْ
 ذِرَاعِيهِ ، وَقَالَ لِمَعَاوِيَةَ : حَتَّامٌ نَتَجَرَّعُ غِيظَكَ ، وَنَصْبِرُ عَلَى مَكْرِهِ
 قَوْلِكَ ، وَسَيِّئُ أَدَبِكَ ، وَذَمِيمٌ أَخْلَاقُكَ ؟ أَمَا يَزْجُرُكَ ذِمَامُ الْمَجَالَسَةِ
 عَنِ الْإِقْدَاعِ لَجْلِيسِكَ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ لَكَ حَرَمَةٌ تَنْهَاكَ مِنْ دِينِكَ ؟ أَمَا
 وَاللَّهِ ، لَوْ عَطَفْتُكَ أَوَاصِرُ الْأَرْحَامِ ، أَوْ حَامَيْتُ عَلَى سَهْمِكَ مِنَ
 الْإِسْلَامِ . . لَمَا أَرَعَيْتَ بَنِي الْإِمَاءِ الْكُفْرَ^(١) أَعْرَاضَ قَوْمِكَ ،
 وَمَا يَجْهَلُ مَوْضِعَ الصَّفْوَةِ إِلَّا أَهْلُ الْجَفْوَةِ ، فَلَا يَدْعُونَكَ اسْتِقَامَةً
 خَطِّكَ إِلَى التَّمَادِي فِي الْغَيِّ ، فَقَدْ طَالَ عَمَهُكَ عَنِ الرُّشْدِ ،
 وَخَبَطُكَ فِي ظِلْمَةِ الْجَهْلِ ، فَإِنْ آبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَبْقَى عَلَى سُوءِ
 اخْتِيَارِكَ . . فَأَعَفْنَا عَنْ سُوءِ الْقَالَةِ فِينَا إِذَا ضَمَّنَا وَإِيَّاكَ الْبُذْيُ ،
 وَشَأْنُكَ وَمَا تَرِيدُ إِذَا خَلَوْتَ بِنَفْسِكَ ، وَاللَّهُ حُسْبِيكَ ، فَوَاللَّهِ لَوْلَا مَا لَنَا
 عِنْدَكَ . . مَا جِئْنَاكَ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : نَغَيِّرُ الْخَطَأَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ ، وَأُقْسِمُ
 عَلَيْكَ لَتَجْلِسَنَّ ، لَعَنَّ اللَّهُ مَنْ أَخْرَجَ ضَبًّا صَدْرَكَ مِنْ وَجَارِهِ ،
 مَحْمُولٌ لَكَ مَا قُلْتَ ، وَلَكَ عِنْدَنَا مَا أَمِلْتَ ، وَأُقْسِمُ عَلَيْكَ لَمَّا
 ذَكَرْتَ حَاجَةً إِلَّا قَضَيْتُهَا لَكَ ، كَائِنَتْ مَا كَانَتْ ، وَلَوْ ذَهَبَتْ بِجَمِيعِ
 مَا أَمْلَكُ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : أَمَّا فِي هَذَا الْمَجْلِسِ . . فَلَا ، ثُمَّ
 أَنْصَرَفَ ، فَاتَّبَعَهُ بَصْرُهُ ، وَقَالَ : لَكَأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ فِي مَشْيِهِ ،
 وَخُلُقِهِ ، وَخُلُقِهِ ، وَإِنَّهُ لَمِنْ مَشْكَاةِهِ ، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ أَخِي بِنَفْسٍ

(١) يُقَالُ فِي السَّبِّ : يَا أَبْنَ الْمَتَكَا ؛ أَي : عَظِيمَةُ الْمَتَكِ وَهُوَ عَرَقُ الْبُظْرِ مِنَ
 الْمَرْأَةِ ، وَمِنْ الرَّجُلِ الْعَرَقُ الَّذِي فِي بَاطِنِ الذِّكْرِ عِنْدَ اسْفَلِ حَقْوِهِ .

ما أملك ، ثم قال لابن العاص : ما منعه من خطابك ؟ قال : ما تعرف ، قال : لا والله ، وَلَكِنَّهُ اسْتَحْقَرَكَ وَأَزْدَرَكَ .

هذا ما بقي بحفظي منه ، ولا معابة إن أخطأت اللفظ ، مع إصابة الأكثر من المعنى .

أما رسول الله ﷺ وقربه من الناس ، وتودُّه إلى المساكين ، التودد والتقرب من المساكين
فحدث عنه ولا حرج ، وهو القائل - كما سبق في غير هذا المجلس - لِمَنْ هَابَتْهُ : « هَوْنِي عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلَا جَبَّارٍ ، وَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ أُمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَأَنْتَ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ »^(١) .

وأما أخوه وصهره ووصيُّه : فهو القائل من أثناء كلام له لني « نهج البلاغة » : لا تكلموني بما تكلم به الجابرة ، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادية ، ولا تخالطوني بالمصانعة ، ولا تظنوا بي استئقالا في حق قيل لي ، ولا ألتماس إعظام لنفسي ، فلا تكفوا عن مقالة بحق ، أو مشورة بعذل ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي ، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي ، وَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عِبِيدُ مَمْلُوكُونَ لِرَبِّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ .

وقال ابن أبي الحديد في « شرحه » : أحسن ما سمعته - في سلطان لا تخاف الرعيَّة بادرته ، ولا يتلجلج المتحاكون عنده ، مع سطوته وقوته ؛ لإيثاره العدل - قول أبي تمام في محمد بن عبد الملك [ني « ديوانه »
١/١٦٣ من البسيط] :

وَزَيْرٌ حَقٌّ وَوَالِي شُرْطَةٌ وَرَحَى دِيْوَانِ مُلْكٍ وَشِيعِيٍّ وَمُخْتَسِبٌ

(١) سلف في مجلس سابق .

كَالْأَرْحَبِيِّ الْمَذْكُورِ سَيْرُهُ الْمَرْطَلُ وَالْوَحْدُ وَالْمَلْعُ وَالْتَقَرِبُ وَالْحَبَبُ^(١)
 عَوْدُ تُسَاجِلُهُ أَيَّامُهُ فِيهَا مِنْ مَسْهِ وَبِهِ مِنْ مَسْهَا جُلْبُ^(٢)
 ثَبْتُ الْخِطَابِ إِذَا اضْطَكَّتْ بِمَظْلَمَةٍ فِي رَحْلِهِ أَلْسُنُ الْأَقْوَامِ وَالرُّكْبُ
 لَا الْمَنْطِقُ اللَّغْوُ يُذَكِّرُ فِي مَقَاوِمِهِ يَوْمًا وَلَا حُجَّةُ الْمَلْهُوفِ تُسْتَلَبُ
 كَأَنَّمَا هُوَ فِي نَادِي قَبِيلَتِهِ لَا أَلْقَلْبُ يَهْفُو وَلَا الْأَخْشَاءُ تَضْطَرُّ

ويعجبني فيما يتعلق بذلك : أَنَّ المأمونَ ناظرَ مُحَمَّدَ بنِ القاسمِ
 النوشنجانيِّ في مسألةٍ كلاميَّةٍ ، فجعلَ النوشنجانيُّ يخضعُ في
 الكلامِ ، فقالَ لَهُ : يا مُحَمَّدُ ، أراكَ تنقادُ إلى ما أقولُهُ قبلَ وجوبِ
 الحجَّةِ ، وقد ساءَني ذلكَ مِنْكَ ، ولو شئتُ أَنْ أفسِّرَ الأمورَ بعزَّةِ
 الخلافةِ ، وهيئةِ الرئاسةِ . . لصدقتُ وإن كنتُ كاذباً ، وعدلتُ وإن
 كنتُ جائراً وصوِّبتُ وإن كنتُ مخطئاً ، وَلَكِنِّي لَا أَقْنَعُ إِلَّا بِإِقَامَةِ
 الحجَّةِ ، وإزالةِ الشبهةِ ، وإنَّ أنقصَ الملوكِ عقلاً ، وأسخفهم
 رأياً ، مَنْ رضيَ بقولهم : صدقَ الأميرُ . ذكره ابنُ أبي الحديدِ أيضاً
 في شرحِ ما سقناه آنفاً من كلامِ الإمامِ [في « شرح نهج البلاغة »] .

ولنعدَّ مِنَ الْأَسْطَرَادِ إِلَى حَيْثُ خَرَجْنَا ، فنقولُ : قد سبقَ ذرؤُ
 مِنْ حَدِيثِ ابْنِ الطَّيَّارِ أَوَائِلَ الْمَجْلِسِ الْحَادِي عَشَرَ فِي الْكَلَامِ عَلَى
 قَوْلِهِ [في « المُكَبَّرِي » ١٧٢/٣ مِنْ الْمُنْسَرَحِ] :

- (١) الْأَرْحَبِيُّ : النَجِيبُ مِنَ الْإِبِلِ . الْمَذْكُورُ : الَّذِي تَمَثَّلَتْ سُهُ وَذَكَوَاهُ . الْمَرْطَلُ
 وما بعدهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ : ضُرُوبٌ مِنَ السَّيْرِ . أَرَادَ هُنَا أَنَّ مَدْوَحَهُ يَجْمَعُ ضُرُوبَ
 إِصْلَاحِ الْمَلِكِ كَمَا يَجْمَعُ هَذَا الْأَرْحَبِيُّ جَمِيعَ ضُرُوبِ السَّيْرِ .
 (٢) الْعَوْدُ : الْمَسُّ مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَرَادَ بِهِ هُنَا الرَّجْلَ الْمَجْرَبَ . تُسَاجِلُهُ : تَنَاضَرُهُ .
 جُلْبُ - جَمْعُ جَلْبِيَّةٍ - : وَهِيَ الْأَثَرُ فِي ظَهْرِ الْبَعِيرِ وَغَيْرِهِ مِنْ مَسِّ حَمَلٍ وَنَحْوِهِ .

تَمَثَّلُوا حَاتِمًا وَلَوْ عَقَلُوا لَكُنْتُ فِي الْجُودِ غَايَةً كَمَثَلِ

وفي غيره .

ونَزِيدُ هُنَا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ [في «شرح نهج البلاغة»] وغيره إذا أعطيت هذا - [في «المستطرف» ١/٣٤٨] : مع تمهيد العذر للزيادة والنقص ببعد العهد - أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ قَدِمَ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، فَأَنْزَلَهُ بِحَيْثُ كَانَ يَنْزِلُهُ أَبُوهُ ، مِنْ عَلَى الْقَدْرِ ، وَرَعَايَةِ الْجَانِبِ ، وَلَمَّا أَعْتَرَمَ الْانْصِرَافَ .. قَالَ لَهُ : كَمْ كَانَ يُعْطِيكَ أَبِي ؟ قَالَ : كَانَ يُعْطِينِي أَلْفَ أَلْفٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَقَالَ يَزِيدُ : قَدْ زِدْنَاكَ أَلْفَ أَلْفٍ أُخْرَى لِتَرْحِمَكَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي ، قَالَ : وَهَذِهِ لَهَا أَلْفُ أَلْفٍ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : وَاللَّهِ لَا أَقُولُهَا لِأَحَدٍ بَعْدَكَ ، قَالَ يَزِيدُ : وَلِهَذِهِ أَيْضًا أَلْفُ أَلْفٍ ، فَقِيلَ لِيَزِيدَ : أَعْطَيْتَ هَذَا الْقَدْرَ كُلَّهُ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَعْطَيْتُهُ إِلَّا لِجَمِيعِ أَهْلِ (الْمَدِينَةِ) ، وَوَكَّلَ بِهِ عَيْنًا يَطَالِعُهُ بِخَبْرِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَفْرُقُهَا فِي أَنْوَاعِ الْمَعْرُوفِ .. حَتَّى أَحْتَاجَ بَعْدَ شَهْرَيْنِ إِلَى الْإِسْتِدَانَةِ ، فَهُوَ الْأَحَقُّ مِنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بِقَوْلِ الْقَطَامِيِّ [في «ديوانه» ٢٩ مِنْ الْبَسِيطِ] :

أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَا يَخْزُنُكَ حَالُهُمْ إِذَا تَخَطَّ عَبْدُ الْوَاحِدِ الْأَجَلَ

وَعُدِلَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى كَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فَقَالَ [في «المستطرف» ١/٣٤٨] : العذل في الجود إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَوَّدَنِي أَنْ يُتَفَضَّلَ عَلَيَّ ، وَعَوَّدْتُهُ أَنْ أَتَفَضَّلَ عَلَى عِبَادِهِ ، فَأَخَافُ أَنْ أَقْطَعَ الْعَادَةَ ، فَيَقْطَعَ [عَنِّي] الْمَادَّةُ .

وذكرت بهذا أَنَّ الْوَاقِدِيَّ - السَّالِفَ الذِّكْرَ - كَتَبَ إِلَى الْمَأْمُونِ فِي جُودِ الْمَأْمُونِ دِينَ أَرْتَكِبُهُ ، فَكَتَبَ لَهُ الْمَأْمُونُ [كما في «وفيات الأعيان» ٤/٣٤٩] : إِنَّ نِيَّتَكَ لَكُمْرًا أَطْلَقَ مَا فِي يَدِكَ ، وَحَيَاءٌ مَنَعَكَ أَنْ تَذْكُرَ كُلَّ حَاجَتِكَ ،

غَيْرَ أَنَّكَ حَدَّثْتَنِي وَأَنْتَ عَلَى قِضَاءِ الرَّشِيدِ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ
لِلزَّبِيرِ : « يَا زُبَيْرُ ، إِنَّ مَفَاتِيحَ الرِّزْقِ فِي خِزَانَةِ بِلَازَاءِ الْعَرْشِ ، فَمَنْ
كَثُرَ . . كَثُرَ لَهُ ، وَمَنْ قَلَّ . . قَلَّ لَهُ »^(١) . قَالَ الْوَاقِدِيُّ : فَلَأَنَا
بِمَرَاجَعَةِ الْمَأْمُونِ الْحَدِيثَ لِي أَفْرَحُ مِنْهُ بِالصَّلَاةِ ، أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ
هَذَا الْمَعْنَى .

جود الفرزدق وَبَيْنَا طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوْفٍ بِالسُّوقِ . . وَافَقَ الْفَرَزْدَقُ ،
فَقَالَ لَهُ [فِي « الْمُسْتَرْفِ » ١/٣٥٩] : أَخْتَرُ عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ ، فَفَعَلَ ، فَقَالَ
لَهُ الْفَرَزْدَقُ : ضَمَّ إِلَيْهَا مِثْلَهَا ، فَفَعَلَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ لَهُ : ضَمَّ إِلَيْهَا
مِثْلَهَا . . حَتَّى صَارَتْ مِثَّةً ، فَأَتْنِي عَلَيْهِ بِأَبْيَاتٍ ، مِنْهَا قَوْلُهُ [مِنْ
الْكَامِلِ] :

إِنَّ النَّدَى أَلْقَى إِلَيْكَ رِحَالَهُ فَبَحِثُ بِتِّ مِنَ الْمَنَازِلِ بَاتًا
فَأَخَذَهُ أَبُو الشَّيْبِصِ الْخَزَاعِيُّ حَيْثُ يَقُولُ [فِي « أَشْعَارِهِ » ٩٢ مِنْ
الْكَامِلِ] :

وَقَفَ الْهُوَيُّ بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمٌ
وَتَعَدَّيْ عَلَيْهِ أَبُو نَوَاسٍ مَجَاهِرَةً فَقَالَ [فِي « دِيَوَانِهِ » ٢٩٩ مِنْ الطُّوِيلِ] :
فَمَا جَاَزَهُ جُودٌ وَلَا حَلٌّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَسِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَسِيرُ
ثُمَّ أَعْتَوْرَتُهُ الْأَيْدِي وَمِنْهُ قَوْلُ الْبُحْتَرِيِّ [فِي « دِيَوَانِهِ » ١/٥٧٤ مِنْ
الْبَسِيطِ] :

(١) أخرجه عن الزبير رضي الله عنه بنحوه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب »
(٤٠٢/٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » كما في « كنز العمال » (٦٢٨) بلفظ :
« يا زبير إن الرزق مفتوح من لدن العرش إلى قرار بطن الأرض ، يرزق الله كل
عبد على قدر همته ونهمته » .

تَحَيَّرَ الْجُودُ وَالْإِحْسَانُ بَيْنَهُمْ فَمَا يَجُوزُهُمْ جُودٌ إِلَى أَحَدٍ
وذكرتُ بعدَ هذا عن بعضِ الأوائلِ ما معناه - إن أخطأتُ لفظه -

[قولُ البُحْثَرِيِّ في «ديوانه» ٣ / ١٨٤٥ من الكامل] :

إِنَّ السَّمَّاحَ الْعِدَّ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلْ^(١)

ولا نُدَحَّةَ عَنْ ذِكْرِ مِثَالَيْنِ مِنْ جُودِ الْبِرَامِكَةِ تَصِلُ بِمَا ذَكَرْنَاهُ سَابِقاً
ولاحقاً :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ كَانَ مُتَّصِلاً بِهِمْ ، وَلَهُ نِعْمَةٌ
واسعةٌ ، وَضِياعٌ كثيرةٌ ، صودرتَ فيما كَانَ لِلْبِرَامِكَةِ وَأَتْبَاعِهِمْ ،
فَرَفَعَ فِيهَا قِصَّةً إِلَى الْمَأْمُونِ ، يَمُتُّ فِيهَا بِحَرَمَةٍ ، فَدَفَعَهَا الْمَأْمُونُ إِلَى
أَحْمَدَ ابْنِ أَبِي خَالِدٍ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَضُمَّ الرَّجُلَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَيَحْسَنَ
إِلَيْهِ ، فَصَلَحَتْ حَالُهُ ، وَتَمَاسَكَتْ أُمُورُهُ ، وَأَتَّخَذَهُ ابْنُ أَبِي خَالِدٍ
نَدِيمًا ، لَا يَصْبِرُ عَنْهُ ، فَأَنْقَطَعَ يَوْمًا لِمَوْلُودٍ وَهُبَّهٖ ، وَلَمْ يَأْتِ بَعْدَ
أَسْتَدْعَائِهِ مَرَارًا ، فَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَسَجَنَهُ ، وَقَيَّدَهُ ، وَزَعَمَ لِلْمَأْمُونِ
أَنَّهُ كَثِيرُ الْمَصَارِفِ وَالتَّيِّهِ وَالْإِفْتِخَارِ بِالْبِرَامِكَةِ ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِهِ عَلَى
قَيْدِهِ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ مَسْفُهَاً لِرَأْيِهِ ، وَأَخَذَ يَطْعَنُ عَلَى الْبِرَامِكَةِ ، وَيَضَعُ
مِنْهُمْ ، وَيَطْنُبُ فِي ذَلِكَ .

فَعَارِضُهُ وَقَالَ : كَانُوا شِفَاءَ دَهْرِهِمْ ، وَغِيَاثَ عَصْرِهِمْ ، وَإِنْ
أَذِنَ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ . . حَدَّثْتُهُ عَنْ أَخْبَارِهِمْ ، قَالَ : هَاتِ ، قَالَ :
مَحَدَّثٌ وَمَقَيَّدٌ !؟ فَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ ، فَقَالَ : اقْتَرَحَ الْفَضْلُ عَلَيَّ مَرَّةً أَنْ

(١) الْبَيْتُ فِي «الْدِيَّانِ» :

أَوْ مَا رَأَيْتُ الْمُنْجِدَ أَلْقَى رَحْلَهُ

أَدْعُوهُ وَأَبَاهُ وَأَخَاهُ ، قُلْتُ : دَارِي وَحَالِي يَصْغُرُ عَنْ ذَلِكَ ، قَالَ :
 لَا حَشْمَةَ وَلَا كَلْفَةَ ، فَأَقْعِدْنَا عَلَى أَثَاثِ بَيْتِكَ ، وَأَطْعِمْنَا مِنْ طَبِيخِ
 أَهْلِكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ الْإِحَاخَةَ .. اسْتَمَهَلْتُهُ سَنَةً ؛ لَأَسْتَعِدَّ ، فَقَالَ :
 وَهَلْ مَعَنَا أَمَانٌ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى سَنَةٍ ، إِنَّكَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ ، فَأَصْلَحَ
 بَيْنَنَا جَعْفَرٌ عَلَى شَهْرَيْنِ ، أَصْلَحْتُ فِيهَا دَارِي ، وَبَذَلْتُ مَا بَلَغَتْ
 يَدَيَّ مِنْ تَرْبِيْنِهِ ، وَتَأْتِيْنِهِ ، وَتَرْبِيِيهِ ، وَفَعَلْتُ مَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مِنْ
 الطَّعَامِ ، وَجَاءَ هُوَ وَأَبُوهُ وَجَعْفَرٌ وَأَوْلَادُهُمْ وَفَتِيَانُهُمْ ، فَقَالَ : إِنَّ
 أَوَّلَ مَا أَبْدَأُ بِهِ النَّظْرُ إِلَى جَلِيلِ نِعْمَتِكَ وَصَغِيرِهَا ، فَدَارَ عَلَى سَائِرِ
 الْمَنَازِلِ ، وَقَالَ : مَنْ جِيرَانُكَ ؟ قُلْتُ : فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، وَفِي جَانِبِ
 دَارِي بِالْمَلَاصِقَةِ قَصْرٌ ضَخْمٌ مَشِيدٌ ، قَالَ : لِمَنْ هَذَا ؟ قُلْتُ :
 لَا أَعْرِفُهُ ، قَالَ : مَا كَانَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَطِيلَ عَلَيْكَ ، فَهَلَمْ بَنَجَارٍ
 يَفْتَحُ لَنَا بَاباً إِلَى تِلْكَ الدَّارِ مِنْ نَاحِيَتِكَ الْمُتَّصِلَةِ بِهِ ، فَنَاشِدُهُ أَنْ
 لَا يَفْعَلَ ، فَصَمَّمْ وَفَتَحَ الْبَابَ ، فَإِذَا بَرَجٌ لِصَطْبِلِ دَوَابِّهِ خَيْرٌ مِنْ دَارِي
 بِسَبْعِينَ مَرَّةً ، وَقَالَ : هَذَا الدَّارُ بِمَا فِيهِ لَكَ ، فَكَذْتُ أَجْرُ مِنْ
 ذَلِكَ ، وَلَمْ أَدْرِ أَنَا فِي يَقْظَةٍ أَوْ مَنْامٍ ، وَلَمَّا سَمِعَ أَخُوهُ وَأَبُوهُ بِمَا
 جَرَى .. رَأَيْتُ الْانْمِغَاضَ بَادِئاً عَلَى وَجْهِ جَعْفَرٍ ، وَأَقْبَلَ عَلَى أَبِيهِ
 يَشْكُو مِنْ تَفَرُّدِ الْفَضْلِ بِهَذِهِ الْمَكْرُمَةِ ، فَقَالَ الْفَضْلُ : يَا أَخِي ، بَقِيَ
 لَكَ الْقُطْبُ مِنْهَا ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : إِنَّهُ لَا يَتَهَيَّأُ ضَبْطُ هَذِهِ
 الدَّارِ بِمَا فِيهَا .. إِلَّا بِدُخْلِ جَلِيلٍ ، قَالَ : فَرَجَّتْ عَنِّي يَا أَخِي ،
 وَكَتَبَ لِي بِصَكَائِكَ عَقَارٍ ، صَرْتُ بِهِ مِنْ أَيْسَرِ أَهْلِ زَمَانِي ، قَالَ
 الْمَأْمُونُ : صَدَقَ وَاللَّهِ ، ذَهَبَ الْقَوْمُ بِالْمَكَارِمِ ، وَرَدَّ عَلَيْهِ ضِيَاعُهُ ،
 وَأَحْسَنَ مَعَامَلَتَهُ .

ثَانِيَهُمَا [رَوَى الْأَبْشَيْهِي فِي « الْمُسْتَرْف » ٤٣٦/١] : حَدِيثُ الْمَغِيرَةِ بْنِ

المنذر فقد كان يُسحرُ كلَّ ليلةٍ إلى دورِ البرامكةِ وآثارِهِم ، ويندُبُهُم
بشعرٍ منه [مِن الطويل] :

وَلَمَّا رَأَيْتُ السَّيْفَ جَلَلْ جَعْفَرًا وَنَادَى مُنَادٍ لِلْخَلِيفَةِ : يَا يَحْيَى
بَكَيْتُ عَلَى الدُّنْيَا وَزَادَ تَأْسُفِي عَلَيْهِم ، وَقُلْتُ : أَلَا لَا تَنْفَعُ الدُّنْيَا

فرصدهُ المأمونُ حتَّى أَمْسَكَهُ ، وَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدِهِ متحطِّطاً متكفِّئاً
مستعدّاً للقتلِ .. أَخَذَ المأمونُ بتوبيخِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ للقومِ عِنْدِي
لَأَيَادِي لَا تَزَالُ خَضِرَاءَ ، إِنَّ شَيْءَ .. حَدَّثَكَ عَنْهَا ، قَالَ : قُلْ ،
فَقَالَ : أَنَا مِنْ أَوْلَادِ الملوِكِ ، فَزَالَتْ نِعَمَتِي ، وَبَعْتُ مَا عَلَى
رَأْسِي ، وَرؤُوسِ أَوْلَادِي وَأَهْلِي ، وَمَا بَقِيَ لَنَا شَيْءٌ يُوْهَبُ
وَلَا يَبَاعُ ، حَتَّى دَخَلْنَا (بغدادَ) ، وَنَزَلْنَا فِي بَعْضِ المَسَاجِدِ ،
فذهبتُ أَسْأَلُ عَنِ البرامكةِ - وَتَرَكْتُهُمْ جِياعاً - وَأَخَذْتُ أَنْتَصِبُ مِنْ
العرقِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ صِنَاعَتِي ، فَإِذَا جَمَاعَةٌ جُلُوسٌ فِي مَسْجِدٍ ،
يَنْتَظِرُونَ دَاعِياً لِحُضُورِ إِمْلَإِكٍ فِي دَارِ يَحْيَى ، وَلَمَّا دَخَلُوا .. دَخَلْتُ
مَعَهُمْ ، وَمَا مَعِيَ مِنْ أَلَرِّمَقٍ إِلَّا مَا يَحْمِلُ رَجُلِي مِنَ الأَسْتَحْيَاءِ ،
وَفَرَّقَ الخَدَمُ صَوَانِي الفُضَّةِ ، فِي كُلِّ صِينِيَّةٍ أَلْفُ دِينَارٍ ، فَلَمْ أَجِسِرْ
عَلَى أَخِذِ التِّي هِيَ لِي .. حَتَّى غَمَزَنِي الخَادِمُ فَأَخَذْتُهَا ، وَقُمْتُ
أَتَلَقُّتُ مَخَافَةَ الرَّدِّ ، فَلَحَظَنِي يَحْيَى ، وَأَسْتَدْعَانِي ، وَقَالَ : مِمَّ
تَتَلَقُّتُ ؟ فَبَدَرْتَنِي عَيْنِي ، ثُمَّ شَرَحْتُ لَهُ قِصَّتِي ، فَأَمَرَ وَلَدَهُ مُوسَى
بِضَمِّي إِلَيْهِ ، وَإِكْرَامِي ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَبَادَلُنِي القَوْمُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَأَنَا
لَا أَدْرِي بِخَبْرِ عِيَالِي وَأَهْلِي ، غَيْرَ أَنِّي آمَنُ مِنْ ضِيَاعِهِمْ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ
يَحْيَى بِحَالِهِمْ ، وَلَمْ أَدْرِ أَيْنَ تَرَكْتُ الصِّينِيَّةَ بِمَا فِيهَا ، وَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ
الحَادِي عَشَرَ .. قَالُوا لِي : قُمْ إِلَى عِيَالِكَ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :

واويلاهُ ، وقد فقدتُ الصنيَّةَ بما فيها مِنَ الدنانيرِ ، فقمْتُ إلى دارٍ لَمْ أَرِ مثلها أَيَّامَ نِعْمَتِي ، وإذا بِصِيباني وأهلي يتقلَّبونَ في الحريرِ والديباجِ ، وحملوا إليَّ مئةَ ألفِ درهمٍ ، وعشرةَ آلافِ دينارٍ^(١) ، ومنشوراً بضيعتينِ ، وتلكَ الصنيَّةُ بما فيها ، وأقمتُ غَدِيَّ نِعْمَتِهِمْ ثلاثَ عشرةَ سنةً ، فلَمَّا جاءَتْهم البليَّةُ . . أَخَذْتُ أموالِي فيما أَخَذَ من أموالِهِمْ ، فَقَالَ المأمُونُ : رُدُّوا عليه جميعَ ما أَخَذَ مِنْهُ ، فَعَلَّا نَحِيْبُهُ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ المأمُونُ : كَيْفَ تَبْكِي وقد أَحْسَنَّا إِلَيْكَ ؟ قَالَ : وهذا أيضاً من صنيعِ البرامكةِ ، فلو لم آتِ آثارُهُمْ ، وَأَنْدَبَهُمْ . . ما أَتَصَلَّ بِكَ خبري .

قَالَ إبراهيمُ بْنُ ميمونٍ : فرأيتُ المأمونَ تذرِفُ عيناهُ ، ويقولُ : إِنَّ هَذَا لَعَمْرِي مِنْ صنيعِ البرامكةِ ، فعليهم فَأَبْكُ ، وإيَّاهُمْ فَأَشْكُرُ ، ولهم فَأُوفِ ، ولإِحْسَانِهِمْ فَأَذْكُرُ ، وصدقَ اللهُ ، فَهُمُ القومُ الَّذِينَ يَفِيضُ جودُهُمْ ، ويَهْتَزُّ عودُهُمْ ، وتَتَزَيَّنُ المجالسُ بِذِكْرِهِمْ ، وتَتَعَطَّرُ الْأَنَافُ بِنَشْرِهِمْ .

لَمَّا نَزَلَتْ الْمُحَنَّةُ بِأَبْنِ الزِّيَّاتِ . . قَالَ لَهُ خَادِمُهُ : صرْتَ إِلَى ما صرْتَ إِلَيْهِ ، وَمَالُكَ حَامِداً فِي النَّاسِ ؟ ! قَالَ : وَكَمْ لِلْبِرَامِكَةِ مِنْ صنيعٍ ، فَهَلْ نَفَعَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ لَهُ : نعم ، لو لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُكَ لَهُمْ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ، قَالَ : صدقتُ .

وَأَثْنَيْتُ مَرَّةً عَلَى الْأَمِيرِ مَنْصُورِ بْنِ عَمَرَ الْكَثِيرِيِّ صَاحِبِ (شِبَامَ) ، وَكَانَ عَرْضَةً ذَلِكَ ، فَحَوْلَةً وَبَطُولَةً ، وَزَعَامَةً وَشَهَامَةً ،

(١) فِي «الْمُسْتَطَرَفِ» : (ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار) .

وشدة بأسٍ في لينٍ جانبٍ ، فقالَ لي أحدُ الرؤساءِ : إِنَّ شجاعتهُ
 أنتهتْ بهِ إلى القتلِ ، فقلتُ لَهُ : وَلَكِنَّ مَنْ خَلَفَ ذَلِكَ الشَّاءَ العاطِرَ
 لم يمُتْ ، وأما الموتُ . . فإنه لا بدَّ منه على كلِّ حالٍ [مِن الطويل] :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ
 أَمَّا الْيَوْمَ . . فقد ماتَ الجودُ ، وشملَ الجمودُ ، وإنَّكَ لترى
 المتَّسِمَ بِسَمِّهِ ، والمدَّعي أَنَّهُ مِن أُمَّتِهِ . . لجديرٌ بقولِ جرير [في
 «ديوانه» ٥٢/٢ مِن الكامل] :

وَالْتَغْلِبِي إِذَا تَخَنَخَ لِلْقَرَى حَكَّ أَسْنَهُ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَ
 والبيتُ الذي نتكلَّمُ عليه متكرِّرُ المعنى في «ديوانه» ، منه قوله
 [في «المكبري» ٢٥٤/٢ مِن الوافر] :

قَبُولُكَ مَنَّهُ مَرٌّ عَلَيْهِ وَإِلَّا يَتَّيْدِي يَرَهُ فَظِنَعَا

وذكرتُ بشرطه الأخير [ما ذكره الأبيهي في «المستطرف» (٣٤٦/١) يقضي دين صديق
 وهو] : أَنَّ بعضهم شكَا إلى صديقٍ لَهُ ديناً ، ففضاهُ عنه ، ثمَّ عادَ
 باكياً ، فقالتْ لَهُ امرأتهُ : هَلَّا تَعَلَّلْتَ إِذْ عَلِمْتَ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَشُقُّ
 عَلَيْكَ ، قَالَ لَهَا : مَا بِي ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَبْكِي ؛ لِأَنِّي لَمْ أَتَفَقَّدْ حالَهُ
 قَبْلَ سُؤَالِهِ . والقصةُ في «الإحياء» للإمام الغزالي ، وفي غيرها من
 كتب الأخبار .

وفي مثله يقولُ الناظمُ [في «المكبري» ١٩٦/٣ مِن الخفيف] :

وَالْجِرَاحَاتُ عِنْدَهُ نَعَمَاتٌ سَبَقَتْ قَبْلَ سَيِّئِهِ بِسُؤَالٍ^(١)

(١) السببُ : العطاء .

وهو ناظرٌ إلى قول أبي تمام [في «ديوانه» ١/ ٤٠٥ من الوافر] :
 وَنَعْمَةٌ مُتَعَفٍ يَرْجُوهُ أَخْلَى عَلَى أُذُنَيْهِ مِنْ نَعَمِ السَّمَاعِ^(١)
 وأخذه الناظم غير أنه أفرغه في قالب آخر ، فقال [في «العكبري»
 ١٧٢/ ١ من البسيط] :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِي مَسَامِعِهِ قَمِينٌ يُوسِفُ فِي أَجْفَانٍ يَغْفُوبِ
 وقد ألمَّ به البحتري من قبله ، فقال [في «ديوانه» ١/ ٦٢٩ من الكامل] :
 نَشْوَانٌ يَطْرُبُ لِلسُّؤَالِ كَأَنَّمَا غَنَاءُ (مَالِكُ طِيءٍ) أَوْ (مَعْبُدٌ)^(٢)
 وقال الجزازي [من الطويل] :

وَيَهْتَرُ لِلْجَدْوَى إِذَا [مَا] مَدَّخَتْهُ كَمَا اهْتَرَّ - حَاشَا وَضَعُهُ - شَارِبُ الْخَمْرِ
 وقد ذكرنا مرة قول عكرشة بن أريد [في «قرى الضيف» ٢/ ٢٩٦ من
 الطويل] :

وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ نَشْوَةٌ كَمَا اهْتَرَّ نَحْتَ الْبَارِحِ الْفُصْنُ الرَّطْبُ
 وما أحسن قول ابن الرومي [في «ديوانه» ٦/ ٢٤٣٩ من الكامل] :
 ذَهَبَ الَّذِينَ تَهْزُهُمْ مُدَّاخُهُمْ هَزَّ الْكُمَاةِ عَوَالِي الْمُرَانِ

(١) الممتقي : السائل .

(٢) مالك طيء : هو أبو الوليد مالك بن أبي السمح جابر بن ثعلبة الطائي ، كان من
 مغنّي المصمرين : الأمويّ والعباسيّ ، أخذ صناعة الغناء عن معبد توفي نحو
 سنة (١٤٠ هـ) .

معبد : هو معبد بن وهب ، أصله من الموالي نشأ في (المدينة) يرعى
 الغنم لمواليه وربما اشتغل بالتجارة ولما ظهر نبوغه في الغناء . . أقبل عليه كبراء
 (المدينة) ؛ ثم رحل إلى (الشام) فاتصل بأمرائها وعلا شأنه .

كَانُوا إِذَا مُدِحُوا رَأَوْا مَا فِيهِمْ فَأَلْزَجِيَّةٌ مِنْهُمْ بِمَكَانٍ

وَكَانَ لِلْحَضَارِمَةِ النَّصِيبُ الْأَوْفَى مِنَ السَّمَاكِ ، وَمِنْ مَتَأَخَّرِيهِمْ : مِنْ أَجْوَادِ الْحَضَارِمَةِ
الْبَحْرُ الطَّافِحُ ، الْإِمَامُ الْهَمَامُ ، الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ ، وَخَيْرُ كُلِّ فَتَى
وَكَهْلٍ ، الْمَنْهَلُ الْعَذْبُ ، الْحُسَيْنُ بْنُ سَهْلٍ ، وَقَدْ مَرَّتْ نَسْمَةٌ مِنْ
عَرْفِهِمُ الشَّمِيمِ ، وَقَطْرَةٌ مِنْ مَكَارِمِ جَوْدِهِمُ الصَّمِيمِ ، وَلَا يَخْلُو
(الْيَمْنُ) عَنْ كِرَامٍ ، تَجْدُ سَعَةً فِي مَنَاقِبِهِمُ الْأَقْلَامُ ، مِنْهُمْ أَخِي
وَصَدِيقِي مُحَمَّدُ سَيْفُ الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ الْقَائِلُ لَمَّا عَذَلُوهُ فِي كَثْرَةِ
الْإِنْفَاقِ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

يَقُولُونَ : إِنِّي مُسْرِفٌ إِذْ يَرَوْنَنِي أَطَوَّقُ أَغْنَاكَ الرَّجَالِ بِإِحْسَانِي
فَقُلْتُ لَهُمْ : مُوتُوا لِئَامًا بِغَيْظِكُمْ فَإِنِّي شَرِيتُ الْمَجْدَ بِالثَّانَةِ الدَّانِي
إِذَا جِئْتُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ بِكَتْرِكُمْ أَجِيءُ بِعَفْوٍ مِنَ إِلَهِي وَعُفْرَانٍ

وَيُسَبِّحُهَا : أَنَّ الرَّاضِيَ الْعَبَّاسِيَّ وَصَلَ الشُّعْرَاءَ بِصَلَاتٍ جَزَلَةٍ ،
لَامَةً فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الْإِسْرَافِ ، فَقَالَ [فِي «الْبَدَايَةِ»
وَالنَّهَايَةِ ١١/١٩٧ مِنْ الْكَامِلِ] :

لَا تَعْدِلُوا كَرَمِي عَلَى الْإِسْرَافِ رِنِحُ الْمَحَامِدِ مَتَجَرُّ الْأَشْرَافِ
إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَكْفُهُمْ مُعْتَادَةُ الْإِتْلَافِ وَالْإِخْلَافِ

إِلَّا أَنَّ هَذَا قَاصِرُ النَّظَرِ عَلَى مَا فِي الدُّنْيَا ، وَذَاكَ طَامِحُهُ إِلَى
مَا فِي الْآخِرَةِ ، فَهَنِيئًا لَهُمَا ، كُلُّ أَمْرٍ يَأْخُذُ زَادَهُ : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ
الْمَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا
مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ
سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الْإِسْرَاءُ : ١٨-١٩] .

نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ ..
لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ

وَسَأَلَ سَائِلٌ عَنِ الْفَرْقِ مَا بَيْنَ أَمْوَالِ السَّابِقِينَ مِنَ الْحَضَارِمَةِ ،
حَيْثُ أُقِيمَتْ بِهَا الدُّوَلُ ، وَبُنِيَتْ الْمَسَاجِدُ ، وَعُمِّرَتْ الْمَدَارِسُ ،
وَأُصْلِحَتْ الْمَسَاقِي ، وَأُكْرِمَتْ الْضُّيُوفُ ، وَتَوَزَّعَتْ فِي طَرَفِ
الْمَعْرُوفِ ، وَبَيْنَ أَمْوَالِ الْمُتَأَخِّرِينَ ، لَمْ تَظْهَرْ إِلَّا فِي إِثَارَةِ الشُّرُورِ ،
وَعِمَارَةِ الْقُصُورِ ، وَتَحْلِيَةِ الثُّحُورِ ، فَأُجِيبَ : بِأَنَّ الثَّرْوَةَ السَّابِقَةَ لَمْ
تَكُنْ إِلَّا فِي أَيْدِي أَهْلِهَا ، وَأَكْثَرُهَا هَدَايَا مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ لِأَعَاضِمِ
الرِّجَالِ ، بِخِلَافِ أَمْوَالِ الْمُتَأَخِّرِينَ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْرًا .
جَعَلَ أَغْنِيَاءَهُمْ خِيَارَهُمْ ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ ، وَلِلَّهِ دَرْ النَّاظِمِ فِي قَوْلِهِ
[فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٢ / ٣٧٠ مِنْ الْخَفِيفِ] :

وَالْغِنَى فِي يَدِ اللَّئِيمِ قَيْنِحٌ قَدَرٌ قُبِحَ الْكَرِيمُ فِي الْإِمْلَاقِ
أَمَّا الْمَوْجُودُونَ . . فَكَمَا وَصَفْنَاهُمْ قَبْلُ ، وَكَمَا قَالَ جِحْظَةُ [فِي
« دِيَوَانِهِ » ٦٤ مِنْ الْوَافِي] :

تَسَاوَى النَّاسُ فِي فِعْلِ الْمَسَاوِي فَمَا يَسْتَخْسِنُونَ سِوَى الْقَبِيحِ
وَصَارَ الْجُودُ عِنْدَهُمْ جُنُونًا فَمَا يَسْتَعْقِلُونَ سِوَى الشَّحِيحِ
وَكَانُوا يَهْرُبُونَ مِنَ الْأَهَاجِي فَصَارُوا يَهْرُبُونَ مِنَ الْمَدِيحِ
وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ يَهْرُبُ مِنَ الْمَدِيحِ خَشِيَّةَ الْمَكَافَاةِ عَلَيْهِ . . خَيْرٌ
أَلْفَ مَرَّةٍ مِمَّنْ يَتَمَنَّاهُ مَجَانًا ، وَيَطْلُبُهُ بِلا ثَمَنِ ، وَقَالَ غَيْرُهُ - وَأَحْسَنُ
مَا شَاءَ - [مِنْ الْبَسِيطِ] :

كَانَ الْكَرَامُ وَأَبْنَاءُ الْكَرَامِ إِذَا تَسَامَعُوا بِكَرِيمٍ مَسَّهُ عَدَمٌ
تَسَابَقُوا فَيُؤَاسِيهِ أَخُو كَرَمٍ مِنْهُمْ وَيَزْجِعُ بَاقِيَهُمْ وَقَدْ نَدِمُوا
وَالْيَوْمَ مَا بَيْنَهُمْ صَارَ النَّدَى سَفْهًا فَيُكْرُونَ عَلَى الْمُعْطِيِّ إِذَا عَلِمُوا

وقال أبو العتاهية [في «ديوانه» ٣١٣ من مجزوء الكامل] :
 اضرب بطرفك حيث شئت فلن ترى إلا بخيلاً
 فقيل له [كما في «الأغاني» ٨١/٤] : لقد بخلت الناس أجمعين ،
 قال : كذبوني ولو بواحد .
 وهذا جور منه ، وقلة حياء ، وإلا . . فمن أين له الأموال
 الطائلة التي جمعها ؟ ولكنه كان شحيحاً خبيثاً ، وكان يتخنث في
 أول أمره ، ولذا صنع معه ابن معن ما ذكرناه أول المجلس
 الرابع^(١) ، وإنما ينطبق بيته على أهل بلادنا ، أمّا العصر الذي تزين
 بالبرامكة . . فلا يجوز أن يقال فيه مثل هذا ، ولكنه من أعدائهم ،
 وجاحدي فضائلهم .
 ويروى : أن له يداً في نكبتهم ، قاتله الله ، وأرضاهم .

* * *

(١) وهو أنه أمر عبيده أن يلوطوا به أمام عينيه .

المجلس الخامس عشر

[قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ٣٣٩/٢ من الكامل] :

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً وَأَنْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لَا أَغْرِقُ

يقول : أَمْطِرْ سَحَابَ جُودِكَ عَلَيَّ مَطْراً غزيراً ، ثُمَّ أَرْفُقْ بِي ؛ لَا أَغْرِقُ مِنْ كَثَرَتِهَا ، وفيه تناقض ؛ إذ كيف يَطْلُبُ الغزير ، ثُمَّ يَسْأَلُ السَّلَامَةَ مِنَ الْغَرَقِ ؟ وَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يَطْلُبْ إِلَّا الْقَلِيلَ بَادِئاً . . لَمَا أَحْتَاجَ إِلَى الْإِحْتِرَاسِ ، فَهُوَ كَطَرْفَةِ بْنِ الْعَبْدِ فِي قَوْلِهِ [فِي «دِيوانه» ٩٧ مِنْ الْكَامِلِ] :

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوَّبُ الرِّينِيعِ وَدِيْمَةُ تَهْمِي
إِذْ لَا تَنَاسَبَ بَيْنَ قَوْلِهِ : (غَيْرَ مُفْسِدِهَا) وَقَوْلِهِ : (تَهْمِي) ،
وَقَدْ وَقَعَ جَرِيرٌ فِي شَرْ مِنْ ذَلِكَ ؛ إِذْ فَاتَهُ الْإِحْتِرَاسُ جُمْلَةً فِي قَوْلِهِ [فِي «دِيوانه» ٩١١/٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

فَسَقَاكَ حَيْثُ حَلَلْتَ غَيْرَ فَقِينْدَةٍ هَزَجُ الرِّوَاكِ وَدِيْمَةُ لَا تُقْلَعُ^(١)

(١) هَزَجُ الرِّوَاكِ : يَرِيدُ غَيْمًا بَرَعِدٍ فَيَكْثُرُ مَآؤُهُ . وَفِي الْمَخْطُوطِ : (الرِّيَاح) بَدَلِ (الرِّوَاكِ) .

إِذْ لَوْ دَامَ مَا يَتَمَنَّاهُ عَلَى أَهْرَامٍ مَصْرَ . . لَمَا صَارَتْ إِلَّا أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، ومثله قول الناظم [في «العُكْبَرِيّ» ٨٦/٢ من الكامل] :

وإِذَا أَرْتَحَلْتَ فَشَيْعَتَكَ سَلَامَةً حَيْثُ أَتَجَهَّتْ وَدِيْمَةٌ مِذْرَارٌ^(١)
وقد علم أَنَّ المسافرَ لا يكره شيئاً كرهه للمطر ، وهو القائل [في «العُكْبَرِيّ» ١٣٣/٤ من الوافر] :

وَلَكِنَّ الْغَيْوُثَ إِذَا تَوَالَتْ بِأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ الْغَمَامَا
وأقبح منه قول مهيار الديلمي - في مطلع قصيدة [في «ديوانه» ١٨٣/٤ من الطويل] :

سَقَى دَارَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ وَحَيَّاهَا مُلْكٌ يُعِيدُ الْكُزْبَ فِي الدَّارِ أَمْوَاهَا^(٢)
أما قول ذي الرُّمَّة [في «ديوانه» ٥٥٩/١ من الطويل] :

أَلَا يَا أَسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى الْبَلَى وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجَرَءَائِكَ الْقَطْرُ . .
فلا يخرجُ عَنْ بَيْتِ طَرْفَةٍ ، وبَيْتِ النَّاظِمِ الذي نتكلَّمُ فيه ، إِلَّا أَنْ يَجَابَ بِأَنَّهُ دَعَا لِلدَّارِ بِالسَّلَامَةِ ، وللجرعاءِ حولَهَا لَا لَهَا بتوالي الغيوثِ ، فيكونُ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا»^(٣) .

وسمع أعرابي خطيباً يقولُ : اللَّهُمَّ أَسْقِنَا غَيْثًا مَغِيثًا ، مجللاً ،

(١) الدِيْمَةُ : المطرُ الذي ليسَ فيه رعدٌ ولا برقٌ .

(٢) المُلْكُ : المطرُ يدومُ أياماً ولم يقلع .

(٣) طرف حديث أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (١٠١٤) ، ومسلم (٨٩٧) ، وأبو داود (١١٧٤) و(١١٧٥) ، والنسائي (١٥١٥) في الاستسقاء .

سَخَا ، طَبَقَا ، عَامَا ، دَائِمَا^(١) ، فَقَالَ لَهُ : رَوَيْدَكَ ؛ حَتَّى آوِيَ إِلَى
جَبَلٍ يَعِصُمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، فَإِنَّكَ لَا تَطْلُبُ إِلَّا طُوفَانَ نُوحٍ .

وَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ [فِي « دِيَوَانِهِ » ٣٩١ مِنْ الْكَامِلِ] :

للجود... حدود وكل
ما زاد على حده...
انقلب إلى ضده على
رأى!!

أَنْتَ أَمْرُوؤُ جَلَّلْتَنِي نِعْمَا أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا

وَقَالَ دِغْبِيلُ [فِي « دِيَوَانِهِ » ٤٢٥ مِنْ الْكَامِلِ] :

أَصْلَحْتَنِي بِالْبِرِّ بَلْ أَفْسَدْتَنِي وَتَرَكْتَنِي أَسْحَطُ الْإِحْسَانَا^(٢)

وَلَمَّا أَنْتَهَى مِرْوَانُ ابْنُ أَبِي الْجَنُوبِ فِي مَدْحِهِ لِلْمَتَوَكِّلِ إِلَى قَوْلِهِ

[مِنْ الْكَامِلِ] :

فَأَمْسِكَ نَدَى كَفَيْكَ عَنِّي وَلَا تَزِدْ فَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَطْغَى وَأَنْ أَتَجَبَّرَا

.. قَالَ [فِي « الْأَغَانِي » ٩٩/١٢] : لَا وَاللَّهِ حَتَّى أَغْرَقَكَ بِجُودِي ،

وَلَا تَبْرَحْ حَتَّى تَسْأَلَ حَاجَةً ، فَسَأَلَهُ ضَيْعَةً ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا .

وَقَالَ أَبُو عُبَادَةَ [فِي « دِيَوَانِهِ » ٢٢-٢١/١ مِنْ الْكَامِلِ] :

أَخْجَلْتَنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ مَا بَيْنَنَا تِلْكَ أَلْيَدُ الْبَيْضَاءِ

صِلَةٌ غَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ قَطِيعَةٌ عَجَبٌ وَبِرٌّ عَادَ وَهُوَ جَفَاءُ

وَكثِيرًا مَا نَقُولُ : إِنَّ النَّازِمَ لَا يَدْعُ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً ، وَمِمَّا يُوَكِّدُ

ذَلِكَ أَنَّهُ أَغَارَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى ، فَلَمْ يَحْسِنْ الْأَتْبَاعَ ، بَلْ سَقَطَ عَلَى

أَمِّ رَأْسِهِ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ [فِي « الْمُكَبَّرِيِّ » ٢٩/١ مِنْ الْكَامِلِ] :

(١) بَعْضُ حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الشَّافِعِيُّ فِي « الْأَمِّ »

(٢٢٢/١) وَعَنْهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي « مَعْرِفَةِ السَّنَنِ » (٢٠١٥) وَ« السَّنَنِ الْكُبْرَى »

(٣٥٥/٣) فِي الصَّلَاةِ .

(٢) أَسْحَطُ : أَسْتَقِلُّ .

وَلَجَذَتْ حَتَّى كَذَتْ تَبْخُلُ حَائِلًا لِلْمُتَتَهَى ، وَمِنْ الشُّرُورِ بَكَاءُ
إِذْ لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَنْتَهِيَ الْجُودُ إِلَى ضِدِّهِ مِنَ الْبَخْلِ إِلَّا بِالْمَغْسَرَةِ ،
وَلَا يُمْكِنُ إِرَادَةُ ذَلِكَ ، إِنَّمَا يَتَصَوَّرُ مِثْلُ مَا أَجَادَهُ الْمَعْرِئِيُّ فِي قَوْلِهِ إِنِّي «سَقَطُ
الزُّنْدِ» ١٠٦ مِنْ الْبَسِيطِ :

لَوْ أَخْتَصَرْتُمْ مِنَ الْإِحْسَانِ زُرْتُكُمْ وَالْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي الْخَصَرِ^(١)
وَمِنْ الْمَبَالِغَةِ فِي الْإِحْسَانِ ، مَا كَانَ مِنْ هَرَمٍ بِنِ سَنَانٍ إِلَى زَهِيرٍ ،
فَلَقَدْ آلَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَسْلَمَ عَلَيْهِ إِلَّا أَعْطَاهُ غُرَّةً مِنْ مَالِهِ ، فَكَانَ
زَهِيرٌ بَعْدَ ذَلِكَ يَمُرُّ بِالْقَوْمِ فِيهِمْ هَرَمٌ ، فَيَقُولُ إِنِّي «وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ»
٢٦٤/٦ : عِمُوا صَبَاحًا خَلَا هَرَمًا ، وَخَيْرَكُمْ تَرَكْتُ .

أَبُو دَلْفٍ وَعَلِيُّ بْنُ جَبَلَةَ وَيُرْوَى فِي «الْأَغَانِي» ٢٦٥/٨ : أَنَّ أَبَا دُلْفٍ الْعَجَلِيَّ أَخْجَلَ عَلِيَّ بْنَ
جَبَلَةَ بِتَوَالِي الْعَطَايَا ، وَإِفَاضَةِ النَّدَى ، فَأَنْقَطَعَ عَنْهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ
يَسْتَزِيرُهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

هَجَرْتُكَ لَمْ أَهْجُرْكَ مِنْ كُفْرِ نِعْمَةٍ وَهَلْ يُرْتَجَى نَيْلُ الزِّيَادَةِ بِالْكَفْرِ ؟
وَلَكِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ زَائِرًا فَأَفْرَطْتُ فِي بَرِّي عَجَزْتُ عَنِ الشُّكْرِ
فَمِ الْآنَ لَا أَتِيكَ إِلَّا مُسْلِمًا أَزُورُكَ فِي الشَّهْرَيْنِ يَوْمًا أَوْ الشَّهْرِ
فَإِنْ زِدْتَنِي بَرًّا تَزَايَدْتُ جَفْوَةً وَلَمْ تَلْقَنِي طَوْلَ الْحَيَاةِ إِلَى الْحَشْرِ
فَأَعْجَبَ بِهَا أَبُو دُلْفٍ ، وَكَانَ حَاضِرَ الْجَوَابِ ، شَدِيدَ الْعَارِضَةِ ،
فَأَجَابَهُ مِنْ سَاعَتِهِ بِقَوْلِهِ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

أَلَا رَبُّ ضَيْفٍ طَارِقٍ قَدْ بَسَطَتْهُ وَأَنْسَتْهُ قَبْلَ الْضِّيَافَةِ بِالْبَشْرِ

(١) الْعَذْبُ : الْمَاءُ الْبَارِدُ . الْإِفْرَاطُ : الْإِسْرَافُ . الْخَصَرُ : الْبُرُودُ .

أَنَانِي يُرَجِّئُنِي فَمَا حَالَ دُونَهُ وَدُونَ الْفَرَى وَالْعَرَفِ مِنْ نَائِلِي سَتْرِي
وَجَدْتُ لَهُ فَضْلاً عَلَيَّ بِقَصْدِهِ إِلَيَّ وَبِرّاً زَادَ فِيهِ عَلَيَّ بِرِّي
فَزَوَّدْتُهُ مَا لَا يَدُومُ بَقَاؤُهُ وَزَوَّدَنِي مَذْحاً يَدُومُ عَلَيَّ الدَّهْرُ

هؤلاءِ واللهِ طوالُ الباع ، وبمثلِ أخبارِهِم تشنَّفُ الأسماعُ ،
ولا غرو ؛ فالأُمُومُ مع سَعَةِ حِلْمِهِ قد أَعْتَاطَ مِنْ أُمَادِيحِ ابْنِ جَبَلَةٍ
لَأَبِي دُلْفٍ [كما في «الأغاني» ٢٠ / ٢١] وما زالَ يَتَحَيَّنُ لَهُ الْفُرْصَ ، حَتَّى
أَسْتَلَّ لِسَانَهُ مِنْ قَفَاهُ ؛ حَسِداً عَلَيَّ مَا خَلَفَهُ لَأَبِي دُلْفٍ مِنْ صَادِقِ
الْمَدْحِ الَّذِي لَا يَبْلَى ، وقد سَبَقَ قَبِيلَ الْمَجْلِسِ الْحَادِي عَشَرَ
مَا يَتَّصِلُ بِهَذَا الْكَلَامِ .

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْبَسْطَةَ مَحْمُودَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ ، وقد قَالَ جَلٌّ لا إِسْرَافَ فِي الْخَيْرِ
ذَكَرُهُ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء :
٢٩] ، وَقَالَ عَزَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ
بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ [في «خِزَانَةِ الْأَدَبِ» ١ / ٣٥٥] : لا خَيْرَ فِي السَّرْفِ ،
فَقَالَ آخَرُ : لا إِسْرَافَ فِي الْخَيْرِ . وفي الْعَكْسِ نَظَرٌ .

وقد سبق - في المجلسين السادس والثالث عشر - بعضُ ما جاءَ
في المفاضلةِ بَيْنَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، مَعَ الْإِتِّفَاقِ عَلَيَّ مَدْحِ الْكَفَافِ ،
لَأَنَّ اللَّهَ - جَلَّ شَأْنُهُ ، كما في سُورَةِ الْفَجْرِ - سَمَّى كِلَا الْأَمْرَيْنِ بِلَاءً .

وَتَكَلَّمَ النَّاسُ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ عَنِ الْأَنْعَمِ عِيناً ،
الْأَرْغَدِ عَيْشاً ، فَأَفَاضُوا فِي الْقَوْلِ ، وَذَهَبُوا الْمَذَاهِبَ ، وَسَلَكُوا
الْوَهَادَ وَالْيَفَاعَ ، حَتَّى سَكَتُوا ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَسْعَدُ النَّاسِ

حالاً ، وأنعمُهم بالاً ، مَنْ لَهُ دَارٌ تَوْهِيهِ ، وَزَوْجٌ تَرْضِيهِ ، وَمَالٌ يَكْفِيهِ ، وَلَا يَأْتِينَا ، وَلَا نَأْتِيهِ .

وَبِعَثَ زِيَادُ ابْنُ سَمِيَّةَ لَيْلَةً بِـ (البَصْرَةِ) - بَعْدَ هِدَاةٍ مِنَ اللَّيْلِ - إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فِيهِمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ، فَقَالَ : حَدَّثُونِي عَنْ جَهْدِ الْعَرَبِ ؛ حَتَّى أَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ ، فَقَدْ كَانَ عِنْدِي جَمَاعَةٌ مِنَ الْفَرَسِ يَتَوَاصِفُونَ مَا كَانَتْ الْأَكَاسِرَةُ فِيهِ مِنَ الْكُنْعِمِ ، حَتَّى كَذْتُ أَسْتَضْغِرُ مَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْنَا .

الجود العربي في سنة القحط

قَالَ أَحَدُهُمْ : حَدَّثَنِي أَبُو عَمٍّ لِي صَدُوقٌ ، قَالَ : خَرَجْتُ فِي عَامِ أَصَابِ الْعَرَبِ فِيهِ قَحْطٌ شَدِيدٌ ، حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ ، فَطَفَقْتُ ثَلَاثًا لَا أَطْعَمُ إِلَّا مِنْ جَنْسٍ مَا يَأْكُلُهُ بَعِيرِي مِنْ حَشَرَاتِ الْأَرْضِ ، حَتَّى دَفَعْتُ إِلَى حَيٍّ ، فَقَالُوا : مَنْ ؟ قُلْتُ : ضَيْفٌ ، قَالَتْ أَمْرَأَةٌ مِنْهُمْ : وَاللَّهِ مَا تَرَكَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْ قِرَى ، وَلَكِنْ أَذْهَبَ إِلَى تِلْكَ الْقَبَةِ ، فَتَيْمَّمْتُهَا ، فَنَادَى رَئِيسُهَا غَلَامَهُ : هَلْ تَجِدُ رِسْلًا^(١) ؟ قَالَ : لَا ، إِلَّا قَدَرَ مَا يَمْسِكُ رِمَقَكَ فِي فَلَانَةٍ - لِنَاقَةٍ سَمَّاها - قَالَ : هَاتِي لَضَيْفِنَا ، فَأَخَذَ يَحْلُبُ ، قَالَ أَبُو عَمِّي : فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ الْأَغَانِي ، وَالْمِثَانِي ، وَأَحَادِيثَ الْأَحْبَابِ فِي الثَّلَاقِي عَلَى طَوْلِ الْبِعَادِ ، فَمَا كَانَ شَيْءٌ أَلَذَّ فِي سَمْعِي . . مِنْ صَوْتِ الشَّخْبِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، فَلَمَّا هَوَيْتُ لِأَخِذِ الصَّحْفَةِ . . سَقَطَتْ مِنْ يَدِي ، وَذَهَبَ مَا فِيهَا ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ ذُقْتُ فَقْدَ الْأَهْلِ ، وَمَرَارَةَ الثُّكُلِ ، وَخَسَارَةَ الْمَالِ ، فَلَمْ أَرِ مَصِيبَةً أَعْظَمَ مِنْ أَنْكَفَاءِ تِلْكَ الْعَلْبَةِ عَلَى مِثْلِ حَالَتِي ، فَلَمَّا عَرَفَ صَاحِبُ الْقَبَةِ جَهْدَ مَا بِي . . عَمَدَ إِلَى نَاقَةٍ ، فَكَشَفَ عَنْ عَرَقِهَا ،

(١) الرِّسْلُ : اللَّيْنُ .

وقال : دونك السنّام ، فلمّا أمتلأت بطني من الكسواء ، وشربت عليه
 من ماء في شئ .. خرزت مغشياً عليّ ، وما أيقظني إلا برد السحر ،
 فقال زياد : قطني^(١) ، فالحمد لله الذي منّ علينا بمحمد ﷺ ،
 وهدانا إلى الإسلام ، فمن صاحب القبيّة ؟ قلت : عامر بن الطفيل ،
 فقال : كان والله أهلاً لها أبو عليّ ، فلا أشك أنّه الأحقّ بقوله [نبي
 ديوان ذي الرّومة ١٥٦/١ من الطويل] :

إِذَا أُعْتَدِرْتَ بِالْمَحَلِّ عَنْ ذِي ضُرُوعِهَا إِلَى الضَّبِّ يَجْرَحُ فِي عَرَاقِيهَا نَضْلِي^(٢)

وذكرت بها : أنّ يحيى بن خالد البرمكيّ أشتهى اللحم في
 محبسه ، فبعد جهدٍ قدر الفضل على أن يشتري له بدرهم ، وطبخه
 على ضوء السراج ، يمسكه تارةً بيمينه ، ويسراه أخرى ، حتّى إذا
 أنتهى وتناولوه والدّه .. أنكفأ عليه ، فكادت تتبعه نفسه .

[وروى ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ١٢٤/٢ أنه] كان الوزير المهلبيّ الموت يباع فاشتره
 على غاية من الضيق ، حتّى كان في سفرٍ مع صاحب له^(٣) ، فأشتهى
 اللحم ، ولم يكن معه إلا درهم ، فأشتره ، وبعد أن نضج .. أنكفأ
 عليهم ، ف تبرّم المهلبيّ بالحياة ، وقال [من الوافر] :

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا أَلْعَيْشُ مَالًا خَيْرَ فِيهِ
 إِذَا أَبْصَرْتُ قَبْرًا مِنْ بَعِيدٍ وَدَدْتُ لَوْ أَنَّني فِيمَا يَلِينِي
 أَلَا رَحِمَ الْمُهْنِمِينَ رُوحَ عَبْدٍ تَصَدَّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ

(١) قطني : أي حسي .

(٢) أي : وإن تعذرت إليّ بالمحل فلم يكن في ضروعها لبن .. نحرتها للضيف .

عن ذي ضروعها : أي اللين . نضلي : سفي .

(٣) وهو أبو الحسين العسقلاني .

الدهر دولاب والحر لا
ينسى الأصحاب

ثُمَّ افترقا ، وضربَ الدهرُ ضرباتِهِ ، وترقَّتْ حالُ المهلبِ إلى
أعظمِ درجةٍ مِنَ الوزارَةِ ، فرضيَ عَنِ الأَيَّامِ ، وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

رَقَّ الزَّمَانُ لِفَاقَتِي وَرَأَى لَطُولَ تَحَرُّقِي
وَأَنَالَ نَبِيَّ مَا أَشْتَهِي وَأَقَالَ نَبِيَّ مَا أَتَقِي
فَلَا غَفَرَ لَهُ الْكَثِيرُ رَمِيَ الدُّنُوبَ السُّبْقِي
حَتَّى جَنَائِثُهُ لِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ بِمَفْرِقِي

وبقيَ رفيقُهُ مِنَ الدهرِ في بؤسٍ ، وطالعٍ منحوسٍ ، وحالٍ
موجعٍ ، وفقرٍ مدقعٍ ، حتَّى سمعَ بما أنتهى إليه صاحِبُهُ ، فقصدَهُ
وأنهى إليه [مِنَ الوافرِ] :

أَلَا قُلْ لِلزُّوزِ فَدَنَّهُ نَفْسِي مَقَالَةَ مُذَكِّرٍ مَا قَدْ نَسِيهِ
أَتَذَكُرُ إِذْ تَقُولُ لِضَيْقِ عَيْشٍ أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ

فَأَمَرَ لَهُ فِي عاجِلِ الحالِ بسبعِ مئةِ درهمٍ ، وكتبَ في رقعتهِ :
﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي
كُلِّ سَبْكَةٍ مِائَةِ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٦١] ، ثُمَّ دَعَاهُ ،
وخلَعَ عليه ، وقلَّدهُ عملاً يرتزقُ منه .

ويشبهُ ذلكَ : أَنَّ بعضَ أمراءِ (مصر) كَانَ معَ تاجرٍ جليبهُ إليها ،
فَارْتَقَتْ بِهِ الْأَحْوَالُ ، وَأَنحَطَّتْ بِذَلِكَ التَّاجِرُ ، حَتَّى أَفْتَقَرَ ، فَكُتِبَ
إِلَيْهِ رُقْعَةٌ ، فِيهَا [الآياتِ فِي « الإيضاح فِي علومِ البلاغة » ٣٨٥ مِنْ البسيطِ] :

كُنَّا جَمِيعِينَ فِي كَدِّ نَكَابِدُهُ وَالْقَلْبُ وَالْطَّرْفُ مِنَّا فِي أَذَى وَقْدَى
وَالآنَ أَقْبَلْتَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ بِمَا تَهْوَى فَلَا تَنْسِنِي إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا

وقوله : (إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا) هُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ لِأَبِي تَمَّامٍ ، أُولَعَ الشعراءُ
بتضمينه ، وهو [في «ديوانه» مِنْ البسيط] :

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلِفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ
ثم رأيتُه معزواً عندَ أَبِي خُلُكَانَ [في «وفيات الأعيان» ٤٦/١]
لإبراهيمَ بنِ العباسِ الصوليِّ ، وقبله [مِنْ البسيط] :

أُولَى الْبَرِيَّةِ طُرّاً أَنْ تُوَاسِيَهُ عِنْدَ السُّرُورِ الَّذِي وَاسَاكَ فِي الْحَزَنِ

ولو أَنَّ الناظِمَ كَانَ مِنْ رِجَالِ التَّمَوِيِّ وَالصَّلَاحِ . . لَمَّا فَسَّرْنَا
قوله : (لَا أَغْرِقُ) إِلَّا بِإِثَارِ الْكَفَافِ ؛ لِأَنَّ مِنْ تَدَسَّسَ فِي الشَّهَوَاتِ
وَأَنْغَمَسَ فِي الشُّبُهَاتِ . . لَمْ يَكَدْ يَتَخَلَّصُ عَنِ الْآفَاتِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ
رِجَالَ الْأَعْمَالِ ، وَكِبَارَ الْأَمَالِ ، لَا يَكُونُ قُصَارَاهُمْ ^(١) الْمَالُ ، وَقَدْ
عَرَفْتَ حَالَ النَّازِمِ مِمَّا أَطْبَنَّا فِيهِ غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَيَعْجِبُنِي قَوْلُ لِسَانِ
الدين بن الخطيب [مِنْ الكامل] :

مَنْ مُبْلَغٌ قَوْمِي عَلَى بُعْدِ الْمَدَى وَالْبَيْنُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنِي حَالاً
إِنِّي قَطَعْتُ الْبَحْرَ لِلْبَحْرِ الَّذِي أَغْنَى وَأَقْنَى وَاجْتَبَى وَأَنَالَ
فَإِذَا نَفَضْتُ جَوَانِحِي عَنْ مَطْمَعٍ لَمْ أَلْفِ لِلطَّمَعِ الْمُخِلَّ مَجَالاً
إِلَّا رِضَا اللَّهِ الَّذِي هُوَ غَايَةٌ لِأُولِي الْكُفَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
وَزِيَارَةُ اللَّخْدِ الَّذِي أَنْوَارُهُ أَبَدًا بِمَشْكَاةِ الْهُدَى تَسْلَالاً

وهو مناسبٌ لِمَا سَبَقَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ مِنْ تَدْرِجِ الْأَرْوَاحِ
الْعَالِيَةِ ، فِي مَعَارِجِ الشُّوقِ ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى الْغَايَةِ ، وَأَسْتَأْذِنُ لَهُ

(١) قُصَارَاهُمْ : غَايَتُهُمْ وَطَلِبَتُهُمْ .

بِمَا كَانَ مِنْ حَالِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَدَلَّلْنَا عَلَيْهِ بِقَوْلِ أَفْضَلِ
 الْبَشَرِ : « اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » ^(١) وَقَرْنَا إِلَيْهِ حَالَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي
 قَوْلِهِ : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
 السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
 بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وَلِلَّهِ دَرُّ لِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ [مِنَ الْكَامِلِ] :
 كَمْ مَزَكَبَ أَنْضَبْتُ فِي طَلَبِ الْهَوَى وَظَلَامَ مَسَعَى تَهْتُ فِيهِ ضَلَالًا
 وَقَفْتُ بِهِ قَدَمِي عَلَى نَدَمِي أَسَى مَنْ رَامَ غَيْرَ اللَّهِ رَامَ مُحَالًا

* * *

(١) مر الحديث وتخريجه في غير هذا المجلس .

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢ / ٣٤٠ مِنَ الْكَامِلِ] :

كَذَبَ ابْنُ فَاعِلَةٍ يَقُولُ بِجَهْلِهِ مَاتَ الْكَرَامُ وَأَنْتَ حَيٌّ تَرْزُقُ

كُنِيَ بِالْفَاعِلَةِ عَنِ الزَّانِيَةِ ، يَقُولُ : مَنْ قَالَ : إِنَّ الْكَرَامَ مَاتُوا ، شرح المطلق وفيه
وَأَنْتَ حَيٌّ .. فَهُوَ كَاذِبٌ ، وَأُمُّهُ زَانِيَةٌ ، وَيُرْوَى (تَرْزُقُ) بِالْبَاءِ مباحث
لِلْفَاعِلِ ، وَفِيهِ مَبَاحِثُ :

الأول : أَنَّهُ لَا اعْتِرَاضَ عَلَى مَنْ يَقُولُ : مَاتَ الْكَرَامُ ، مع وجود المبحث الأول على
الأفراد منهم ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ عَلَى الْغَالِبِ ، وَإِلَّا .. فَالزَّمَانُ لَا يَخْلُو المطلق: هل يصح
- وَإِنْ فَسَدَ - عَنِ الْخَيْرِ ، كَمَا لَا يَسْلَمُ - وَإِنْ صَلَحَ - عَنِ الشَّرِّ ، وَلَوْ القول بموت الكرام مع
وجود بعضهم؟
أَخْتَلَّ ذَلِكَ .. لَفَسَدَ النِّسْبُ ، وَسَقَطَ الْامْتِحَانُ ، وَخَرَجَتِ الدُّنْيَا عَنْ
طَبِيعَتِهَا ، وَصَارَتْ إِمَّا خَيْرًا مُحْضًا كَالْجَنَّةِ ، أَوْ شَرًّا مُحْضًا كَالنَّارِ ،
وَمَا عَمَدَ أَبُو الطَّيِّبِ إِلَّا إِلَى مَا أَعْتَادَهُ مِنَ الْغُلُوِّ ، وَإِلَّا .. فَالنَّاسُ
تَشْكُو قَلَّةَ الْكَرَامِ مِنَ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكُلُّ يَذُمُّ زَمَانَهُ ؛ لِأَنَّهُ
لَا يَصِفُو إِلَّا لِسَفَلَةِ النَّاسِ ، وَلِثَامِ الْخَلْقِ ، فَهَمَّ الَّذِينَ يَسْتَرِيحُونَ ،
مِنْ حَيْثُ يَتَعَبُ الْكَرَامُ ، وَلِئِنْ قَالَ أَبُو نَوَاسٍ - مَا مَعْنَاهُ إِنْ أَخْطَأْتُ
لَفِظَهُ^(١) - :

(١) الْبَيْتُ فِي « الدِّيْوَانِ » مِنْ قَصِيدَتِهِ الَّتِي مَطْلَعُهَا [مِنْ الْبَسِيطِ] :

دَغَّ عَنْكَ لَوْ مَنِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِأَلْتَنِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
وَالْبَيْتُ هُوَ :

دَارَتْ عَلَى فِتْنَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصَيِّهُمُ إِلَّا بِمَا شَاؤُوا

صَفَتْ لَهُمُ الْأَيَّامُ مِنْ مُوجِعَاتِهَا فَمَا تَتَلَقَّاهُمْ بِغَيْرِ الَّذِي شَاؤُوا
 . . فَإِنَّمَا يَصِفُ سَقَاطًا مِثْلَهُ ، أَوْ هُوَ مِنَ الشَّاذِّ الَّذِي لَا يَعْلَقُ عَلَيْهِ
 الْحُكْمُ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مَا يَقْرُبُ مِنْ ذَلِكَ فِي صِفَاتِ
 الْأَبْدَالِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ ، وَلَا تَنْهَضُ بِهِ حُجَّةٌ ، وَلَوْ ذَهَبْنَا مَعَ
 النَّازِمِ إِلَى الْمَشَاحَةِ . . لَرَمِينَاهُ بِحَجَرِهِ ؛ إِذْ هُوَ أَكْثَرُ النَّاسِ قَوْلًا
 بِمَوْتِ الْكَرَامِ ، وَتَغْيِيرِ الْأَيَّامِ ، أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ [فِي « الْمَكْبَرِيِّ » ٢٠٩/٤ مِنْ
 البسيط] :

وَأِنَّمَا نَحْنُ فِي جَبَلِ سَوَاسِيَةٍ شَرَّ عَلَى الْخُرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى الْبَدَنِ^(١)
 وَقَوْلُهُ : (سَوَاسِيَةٍ) أَي : مُتَسَاوِينَ فِي اللَّؤْمِ وَالْخَسَةِ ؛ إِذْ
 لَا يَقَالُ : سَوَاسِيَةٌ فِي الْخَيْرِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا عَنِ اللَّهِ إِلَّا أَهْلُ
 زَمَانِنَا بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴾ [الملك : ٣] . فَإِنَّهُمْ
 سَوَاسِيَةٌ فِي الدَّنَاءَةِ وَالْإِنْحِطَاطِ .

وَهُوَ الْقَائِلُ أَيْضًا [فِي « الْمَكْبَرِيِّ » ٧٣/٤ مِنْ الْوَافِرِ] :

بِأَرْضٍ مَا أَشْتَهَيْتُ رَأَيْتُ فِيهَا فَلَيْسَ يَفُوتُهَا إِلَّا الْكَرَامُ
 وَقَالَ [فِي « الْمَكْبَرِيِّ » ١٥١/٤ مِنْ الْوَافِرِ] :

أَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَرِيمٌ تَزُولُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ الْغُمُومُ

(١) الْجَبَلُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ ، وَمِنْهُ مَا قُرِئَ شَذُوذًا : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا »
 بِالْيَاءِ ، وَاحِدُ الْأَجْيَالِ كَمَا فِي « الْكَشَافِ » (٣٢٨/٣) وَهِيَ قِرَاءَةُ عَلِي
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَفِيهَا تِسْعُ قِرَاءَاتٍ أُخَرُ كَذَلِكَ كَمَا فِي مُخْتَصَرِ شَوَازِ الْقُرْآنِ
 (ص ١٢٦) .

وقال [في «المكبري» ٢٦/٤ من البسيط] :

لَا تَطْلُبَنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رُؤْيَيْهِ إِنَّ الْكَرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدَاخُتُمُوا

وقال [في «المكبري» ٢٨١-٢٨٢ من الطويل] :

كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمَنِّيْتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَاعْيَا، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا^(١)

وقال [في «المكبري» ٩/٤ من الكامل] :

وَتَعْدُرُ الْأَحْرَارَ صَيَّرَ ظَهْرَهَا إِلَّا إِلَيْكَ عَلَيَّ فَزَجَ حَرَامٍ^(٢)
فبعضُ هذا يقتضي أن يكونَ كاذِبًا ، وأُمَّهُ فاعِلَةٌ ، إِلَّا أَنْ
يجاب : بأنَّ البيتَ الذي نتكلَّمُ فيه كانَ في صباهُ ، ولعلَّ الكرامَ إذ
ذاك كثيرٌ ، ثمَّ تَفَانَوْا بَعْدَهُ ، كما جرى على عهدنا نظيرُهُ ، حسبما
يعرفُ من أماديحنا للأشياخ الكرامِ ، ثمَّ أَسْوَدَ ظُنُّنَا ؛ إذ أَجْلَنَاهُ فِي
هَذَا السَّوَادِ الْمُظْلَمِ ، بَعْدَ أَنْتَشارِ عَقُودِهِمْ ، رضوانُ اللهِ تعالى
ورحماته عليهم .

وما أحسن قول المعري [في «سقط الزند» ١٣٣ من الخفيف] :

كَمْ أَرَدْنَا ذَاكَ الْزَمَانَ بِمَدْحٍ فَشُغِلْنَا بِذَمِّ هَذَا الزَّمَانِ

المبحث الثاني على
المطلع

الثاني : لا تغاير بين قول القطب الحداد [من الطويل] :

(١) أَعْيَا : صعب وعزٌّ . المداجي : السائر للعداوة ، وهو من الدجى ، وهي
الظلمة .

(٢) أي : تعذر وجود الأحرار وقتلهم صيَّرَ ظهرَ هذه الناقَةِ عليَّ في ركوبها إلى قصدِ
سواك حراماً ، كركوبِ الفرجِ الحرامِ ، يريدُ الزنا .

مَضَى الصَّدَقُ وَأَهْلُ الصَّدَقِ يَا سَعْدُ قَدْ مَضَوْا
فَلَا تَطْلُبَنَّ الصَّدَقَ فِي أَهْلِ ذَا الزَّمَنِ

وقول أبي مدين [من البسيط] :

وَأَعْلَمَ بِأَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ دَارِسَةٌ وَحَالُ مَنْ يَدْعِيهَا الْيَوْمَ كَيْفَ تَرَى

وبين قول سيدنا عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه [من الرجز] :

يَقُولُ قَوْمٌ عَنْ هُدَاهُمْ ضَلُّوا قَدْ عُدِمُوا فِي عَصْرِنَا أَوْ قَلُّوا
فَقُلْ لَهُمْ كَلًّا وَلَكِنْ جَلُّوا عَنْ أَنْ تَرَاهُمْ أَعْيُنُ الْجُهَّالِ

لأنَّ الأوَّلَ هو الأغلبُ الأكثرُ الذي يَنَاطُ بِهِ الحُكْمُ ، وللهِ في حُكْمِ
العمومِ خصوصٌ ، كما أجابَ بِهِ بعضُ القضاةِ ، وقد قيلَ : جميعُ
قضاةِ المسلمينِ لخصوصٍ ، في شعرِ ذكره أبْنُ السَّكَيْي في « طبقاتِهِ »
[١٤٣/٣] ونسيتهُ (١) .

وَأَمَّا الثاني . . فَإِنَّهُ نَظَرٌ خَاصٌّ إِلَى الْمَعْنَى ، لَا إِلَى الصُّورَةِ ،

(١) قَدِمَ أَبُو جَعْفَرِ الْبَحَّاثُ عَلَى الصَّاحِبِ بْنِ عَجَّادٍ ، فَارْتَضَى تَصَرُّفَهُ فِي الْعِلْمِ ،
وَتَفَقَّهَهُ فِي أَنْوَاعِ الْفَضْلِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْقَضَاءَ ، عَلَى شَرْطِ انْتِحَالِ مَذْهَبِهِ
- يعني الاعتزال - فامتنعَ وقالَ : لَا أبيعُ الدِّينَ بِالدُّنْيَا ، فتمَثَّلَ الصَّاحِبُ بِقَوْلِ
الْقَائِلِ :

فَلَا تَجْعَلْنِي لِلْقَضَاءِ فَرِيسَةً فَإِنَّ قُضَاةَ الْعَالَمِينَ لُصُوصُ
مَجَالِسُهُمْ فَيَنَالُ مَجَالِسُ شُرَطَةِ وَأَيْدِيهِمْ دُونَ الشُّصُوصِ شُصُوصُ
فَأَجَازَهُ الْبَحَّاثُ بِدِيهَةٍ بِقَوْلِهِ :

سِوَى عُصْبَةٍ مِنْهُمْ تُخَصُّ بِعِمَّةٍ وَلِلَّهِ فِي حُكْمِ الْعُمُومِ خُصُوصُ
خُصُوصُهُمْ زَانَ الْبِلَادِ وَإِنَّمَا يَزِينُ خَوَاتِيمَ الْمُلُوكِ قُصُوصُ

فَأَهْلُ الْحَقِّ فِي الصُّورَةِ قَلِيلٌ ، لَكِنَّهُمْ فِي الْمَعْنَى كَثِيرٌ ، قَالَ أَبُو تَمَّامٍ
[في «ديوانه» ١/ ٣٣٠ مِنْ الْبَسِيطِ] :

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا^(١)
فَلَا تَخَالَفَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، هَذَا مِنْ جَهَةِ ، وَالْأُخْرَى أَنَّ أَهْلَ
الْجَهْلِ وَالْفَسَادِ مُوَلَّعُونَ بِإِنْكَارِ فَضَائِلِ الْعُلَمَاءِ وَالصُّلَحَاءِ ، وَغَمَطِ
فَضَائِلِهِمْ ، وَكُتِمَ مَنَاقِبُهُمْ ، فَهُمْ الَّذِينَ اعْتَمَدَهُمُ الثَّانِي بِتَوْبِيخِهِ
وَتَقْرِيعِهِ ، بِدَلِيلٍ مَا وَسَمَّاهُمْ بِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ إِذَا
قَالَ أَحَدُهُمْ : هَلَكَ النَّاسُ . . فَهُوَ أَشَدُّهُمْ هَلَاكًا^(٢) ، أَمَّا أَهْلُ الْفَضْلِ
وَالْعِلْمِ . . فَلَا مَعَابَةَ عَلَيْهِمْ فِي تَشْكِي الزَّمَانِ ، وَتَنْقُصِ أَهْلِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ
لَا يَقُولُونَ إِلَّا الْحَقَّ فِي ذَلِكَ .

وَأَيْضًا : فَالْحُكْمُ بِالشَّيْءِ فَرَعُ تَصَوُّرِهِ ، وَمِنْ أَيْنَ لِلْجَاهِلِ أَنْ
يُحْكَمَ عَلَى أَحَدٍ بِالْفُسَادِ أَوْ الصَّلَاحِ ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ حَدَّهُ ،
وَلَا مَا هِيَئُهُ ؟ ! وَقَدْ صَرَّحُوا فِي بَابِ التَّزْكِيَةِ مِنَ الْفَقْهِ ، وَبَابِ الْجَرْحِ
وَالْتَعْدِيلِ مِنَ الْحَدِيثِ ، أَنَّ لَا بَدَّ لِلْمَزْكِيِّ وَالْجَارِحِ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْأَسْبَابِ ، وَالْخَبَرَةِ بِهَا ، وَإِلَّا . . كَانَ مِنَ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ ، وَالْقَوْلِ
فِي دِينِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، بِخِلَافِ الْعَالِمِ ، فَإِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا عَنْ بَرَهَانٍ ،
وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا عَنْ حُجَّةٍ ، فَأَعْلَمَ هَذَا كُلَّهُ ، وَإِلَّا . . أَرْتَدَّ عَلَى الْعُلَمَاءِ

(١) أَي : إِنَّ الْكِرَامَ وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُمْ . . فَإِنَّ فَعْلَهُمْ كَبِيرٌ كَمَا أَنَّ غَيْرَهُمْ مِنَ اللَّثَامِ وَإِنْ
كَانُوا كَثِيرِي الْعَدَدِ . . لَا وَجُودَ لَهُمْ .

(٢) لَمَّا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ
أَهْلَكُهُمْ » . وَعَزَاهُ فِي « الْفَتْحِ الْكَبِيرِ » (١/ ١٣٣) إِلَى أَحْمَدَ وَمُسْلِمَ وَأَبِي
دَاوُدَ .

ما مَلَّوْا بِهِ كِتَابَهُمْ مِنَ الْحَطِّ عَلَى أَبْنَاءِ زَمَانِهِمْ ، وَالتَّشْهِيرِ بِهِمْ ، وَفِي طَلِيعَتِهِمُ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ زُرَايَةً عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ .

والثالث : أَنَّ النَاطِمَ لَا يَزُنُ كَرَمَ النَّاسِ وَلَوْ مَهُم إِلَّا بِمَعَامِلَتِهِمْ لَهُ ، وَلَا يَقَاسُ أَحْوَالَهُمْ إِلَّا بِمَا يَصْنَعُونَ إِلَيْهِ ، فَمَنْ عَرَفَ لَهُ حَقَّهُ . . فهو الكَرِيمُ عِنْدَهُ ، وَمَنْ لَا . . فَلَا ، كَمَا قَالَ [نبي العُكْبَرِيِّ] ٢٦٨/٣ مِنْ [المنسرح] :

أَنَا الَّذِي بَيْنَ الْإِلَهِ بِهِ أَلْ
جَوْهَرَةٌ يَفْرَحُ الْكِرَامُ بِهَا
أَقْدَارَ وَالْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهُ
وَعُصَّةٌ لَا تُسِيغُهَا السَّفَلَةُ
وقد أخذه ولم يحسنِ الاتِّباعَ مِنْ قَوْلِ أَبِي عُبَادَةَ [في «ديوانه» ١/٢٢٥
مِنَ الطَّوِيلِ]:

وَأَنَّ مُقَامِي حَيْثُ خَيَّمْتُ مِخْنَةً تَذُلُّ عَلَى فَهْمِ الْكِرَامِ الْأَجَاوِدِ
وَصَدَقَ مِنْ جِهَةٍ ؛ فَإِنَّ الْفَضْلَ إِنَّمَا يَعْرِفُهُ ذَوُوهُ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ
الْفَاضِلَ لَا يَخْسُنُ حَالُهُ إِلَّا بَيْنَ الْفَضْلَاءِ ، أَوْ أَشْبَاهِ الْفَضْلَاءِ .
وَقَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ [في «ديوانه» ١٥٣-١٥٤ مِنَ الطُّوِيلِ] :

وَمَا ضَاعَ مِنِّي حَيْثُ حَلَّتْ رِكَابُهُ
وَمِنِّي مَخْضُوعٌ لَهُ غَيْرُ أَنَّهُ
وَمِنِّي مُتَبَوِّعٌ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ
بَلَى حَيْثُ ضَاعَ الْمَجْدُ مِنِّي ضَائِعٌ
إِذَا كَانَ مَجْهُولَ الْقَضَائِلِ خَاصِعٌ
فَإِنْ يَنْقَلِبُ وَجْهُ الزَّمَانِ فَتَابِعٌ
وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ كَبِيرَ النَّفْسِ . . . لَكَانَ لَهُ مَنَدُوحَةٌ عَمَّا ذَكَرَهُ فِي الْبَيْتَيْنِ
الْأَخِيرَيْنِ ، إِمَّا بِالْإِنْجِمَاعِ عَنِ النَّاسِ ، وَإِمَّا بِالْإِرْتِحَالِ عَنِ الْمَقَرِّ ،
وَاللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ يَقُولُ : ﴿ إِنَّا الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ
كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا ﴾

[النساء : ٩٧] .

وقد اختلف في الغنى ، وخفة الروح ، أيهما أرفق بالإنسان . ؟
فقال قوم : بالأول ؛ لأن الغني محبوبٌ كيفما كان ، وقال آخرون :
بالثاني ؛ لأن الخفيف الظل مسلط ، بخلاف الثقل ، فإنه مبغوض
حتى عند أهله ، فماذا يفيدُه الغنى ، مع البغضة ؟

والحق : أنه لا بد من التفصيل ، فإن كان في وسطٍ فاضل ..
فقد يصح قول الآخرين ، وإلا .. فلا معدل عن الأول ، وإذا نحن
أمعنا النظر في حال الناظم ، وأستقرأنا أشعاره .. لم نكر دعواه ،
ولم نقد على دفعه عن الكرم ، أولا ترى إلى شدة إبابه ، وتعظيمه
على الرؤساء ، وترفعه عن الأذنان والسقاط ، فهو القائل لابن
كنداج - وقد أهدى إليه هدية هو إليها محتاج إذ كان معتقلاً بسجن
(حمص) - [في « العكبري » ٢٠ / ٢٨١ من المنسرح] :

غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ بَنِي وَالْجُوعُ يُزِضُنِي الْأَسُودَ بِالْجَنَفِ

فترأه مع شدة الضيق ، وقلة الريق ، يتظاهر بشتات الجأش ،
وذهاب الإيحاش ، لم يشن السجن من شأوه ، ولم يغض الامتحان
من بأوه ، ولم يكذ يقبل تلك الصلة إلا على التكره والاشمئزاز ،
وليس بالقليل ما أصابه من الوزير المهلبي ؛ فقد أغرى به شعراء
(العراق) يزدرونه ، ويتهضمونه ، ويمزقون عرضه ، وحرش عليه
من قدر من العلماء - كصاحب « الأغاني » - ينتقصونه ، ويشهرون
به ، وليس بالهين ما لاقاه من الصاحب بن عباد ؛ إذ حدا حذو
سابقه ، فأغرى به كل من قدر عليه من طلاب معروفه - وهم كثير -
وألّف كتاباً في الكشف عن معانيه ، مع كثرة ما يُغَيَّرُ في العلانية على
بدائع معانيه ، وما ذلك إلا نتيجة ترفعه عن مدحهما ، وضنه بكلامه

عنهما ، وشيء من هذا لا يخالف ما سبق لنا ذكره أواخر المجلس الثاني ، في الكلام على قوله [في «المكبري» ٣٠١/١ من المنسرح] :

لَا نَأْتِيَنَّ تَقَبُّلُ الرَّدِّيفِ وَلَا بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرُّهَانِ أَجْهَدَهَا^(١)

على فرق ما بين حاله في بدء أمره ؛ إذ يبيع المديح بالشيء التافه ، وبين آخر أمره ؛ وقد أنف وأمتلاً شمماً وكرماً ، لا يقال إنه يدور حيثما دارت الزجاجة ، إن أعطي . . رضي ، وإن لم يُعط . . سخط ؛ لأنه لو كان كذلك . . لما توقّف عن هجاء سيف الدولة بكل ما تصل إليه بلاغته ، فإن قيل : إنه إنما أمسك عنه احتفاظاً بخط الرجعة . . قلنا : محال ، ولا سيما عند سورة الغضب^(٢) ، وكبره في نفسه ، وتشبّعه بالآمال ، وإنما يكون له وجه من الاحتمال لو كان بعد فشله ، وخيبة رجائه من كل ناحية ، على أنه لا يصدّه ذلك وهو القائل [في «المكبري» ٢١٢/٣ من المنسرح] :

فِي سَعَةِ الْخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ وَفِي بِلَادٍ مِنْ أُخْتَيْهَا بَدَلٌ^(٣)

ويقول [في «المكبري» ١٩١/١ من الطويل] :

غَنِيٌّ عَنِ الْأَوْطَانِ لَا يَسْتَفْرِئُنِي إِلَى بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إِيَابٌ^(٤)

(١) الرديف : هو ما يرتدّ خلف الراكب . الرهان : السباق . والناقّة هنا : نعلّه .

(٢) سورة الغضب : شدّته .

(٣) الخافقان : الشرق والغرب لأنّ الريح تخفّق فيهما . المضطرب : موضع الاضطراب ، وهو الذهاب والمجيء .

(٤) يستفّرني : يستحقّني ويحرّكني . الإياب : الرجوع .

وَأَنشَدَ الْأَصَمِيُّ لِبَعْضِ الْأَعْرَابِ [دَعَلَ فِي « دِيوانه » ١٩٥ مِنْ الْكَامِلِ] :
 أَحْسِبْتَ أَرْضَ اللَّهِ ضَيْقَةً عَنِّي وَأَرْضُ اللَّهِ لَمْ تَضِقْ
 مَا أَطْوَلَ الدُّنْيَا وَأَغْرَضَهَا وَأَدَلَّنِي بِمَسَالِكِ الطُّرُقِ
 وَكَانَ مَنْصُورُ بْنُ بَاذَانَ - أَوْ بَكْرُ بْنُ النُّطَاحِ - أَمْتَدَحَ الْقَاسِمَ
 الْعَجَلِيَّ الْمَعْرُوفَ بِأَبِي دُلْفٍ ، فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِنْهُ مَا فِي نَفْسِهِ ،
 فَأَنْفَصَلَ عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ [الْقَائِلُ مَنْصُورُ بْنُ بَاذَانَ كَمَا فِي « وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ » ٧٦/٤ مِنْ
 الطُّوِيلِ] :

دَعَيْنِي أَجُوبُ الْأَرْضَ فِي فَلَوَاتِهَا فَمَا الْكَرَجُ الدُّنْيَا وَلَا النَّاسُ قَاسِمٌ^(١)
 وَقَالَ السَّمْعَانِيُّ [فِي كِتَابِ « الذَّلِيلِ » كَمَا فِي « وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ » ٧٦/٤] :
 أَنَشَدَنِي الْقَاضِي عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَلْخِيُّ - مَتَمَثِّلًا - لِلْأَمِيرِ أَبِي الْحَسَنِ
 عَلِيِّ بْنِ الْمُنْتَخَبِ [مِنْ الْبَسِيطِ] :

فَإِنْ رَجَعْتُمْ إِلَى الْإِحْسَانِ فَهُوَ لَكُمْ عَبْدٌ كَمَا كَانَ مِطْوَاعٌ وَمِذْعَانٌ
 وَإِنْ أَيْبَيْتُمْ فَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ لَا النَّاسُ أَنْتُمْ وَلَا الدُّنْيَا خُرَاسَانٌ
 وَلَمْ نَسْمَعْ النَّازِمَ يَتَكَلَّمُ فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ بِهِجَاءٍ مَمْضٍ ، وَكَلَامٍ
 جَارِحٍ قَطُّ ، وَغَايَةُ مَا يَكُونُ مِنْهُ التَّبَرُّمُ بِنَفَثَاتٍ لَا يَصِلُ بِهَا إِلَى
 التَّصْرِيحِ ، وَلَا يَخْرُجُ فِيهَا إِلَى الطَّعْنِ الْقَبِيحِ ، كَقَوْلِهِ [فِي « الْمُكَبَّرِيِّ »
 ٢٣٦/٤ مِنْ الْبَسِيطِ] :

رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُ الْعِرْضَ جَارُكُمْ وَلَا يَدِرُّ عَلَى مَرْعَاكُمْ اللَّبَنُ
 جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَلَلٌ وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمْ ضَعْفٌ

(١) الْكَرَجُ : بِلْدُ أَبِي دُلْفٍ .

وَتَغْضَبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمْ حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِصُ وَالْمِنْهُ
وهو في ذلك غير ملوم ، فما الذي ناله في تلك الحاضرة
بالقليل ، ومع ذلك .. فَإِنَّهُ يَقُولُ فِي نَفْسِ الْقَصِيدَةِ [في «المكبري»
٢٣٧/٤ مِنْ الْبَسِيطِ] :

سَهَرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَخَشَّةً لَكُمْ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَأَزَعَوِي الْوَسْنُ^(١)
ويقول له أيضاً [في «المكبري» ٢٩٣/١ مِنْ الْبَسِيطِ] :

فَارْقُتْكُمْ فَإِذَا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ قَبْلَ الْفِرَاقِ أَذَى بَعْدَ الْفِرَاقِ يَدُ
إِذَا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَعَانَ قَلْبِي عَلَى الشَّوْقِ الَّذِي أَجِدُ
فلم يزل يعتليج في صدره الأمران ، وإن لقيه منه الأمران .

وقال أبو الفتح ابن جني : قرأت على المتنبي « ديوانه » .. حَتَّى
أَنْتَهَيْتُ إِلَى قَوْلِهِ [في «المكبري» ١٨١/١ مِنْ الطُّوِيلِ] :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً فَلَا أَشْتَكِي فِيهَا وَلَا أَتَعَبُّ
وَبِي مَا يَذُودُ الشَّعْرَ عَنِّي أَقْلُهُ وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قَلْبُ
قلت له : يعز علي أن يكون هذا الشعر في غير سيف الدولة ،
فقال : أَلَمْ تَرَنِي حَذَرْتُهُ ، وَأَنْذَرْتُهُ ، فِي قَوْلِي لَهُ [في «المكبري» ١١٧/٣
مِنْ الطُّوِيلِ] :

أَخَا الْجُودِ أَعْطِ النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ وَلَا تُعْطِينَ النَّاسَ مَا أَنَا قَائِلُ

(١) استمر : استقام . المريز : القوة من الحبل . أرعوى : أنزجر . الوسن :
النعاس .

فهو الذي فرط فيه بسوء تدبيره ، وقد سبق في المجلس السابع
على قوله : [في « المكبري » ١٦٣/٣ من البسيط] .

وَالْوَجْدُ يَقْوَى كَمَا تَقْوَى النَّوَى أَبَدًا [وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جِسْمِي كَمَا نَحَلًا]
بيتٌ للأمير تميم بن المعز ، يشبه قول الناظم [في « المكبري » ١٨١/١
من الطويل] :

وَبَنِي مَا يَذُودُ الشَّعْرَ عَنِّي أَقْلُهُ [وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قَلْبٌ]
وقد أدرك الأمير تميم نحواً من ثمانية عشر عاماً من عصر
المتنبي ، فالأقرب أن الناظم هو السابق إلى المعنى .

وقد ذكرنا مرة قضاء الناظم لسيف الدولة على ابن العميد
بالانطباع على الكرم .

ثُمَّ مَا أَكْثَرَ مَا يَتَأَلَّمُ مِنْ فِرَاقِهِ ، فتراه يقول - ودمٌ جرحه يسيلُ ،
لَمْ يَجِفَّ بَعْدُ - [في « المكبري » ١٣٤/٤ من الطويل] :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُدَمِّمٍ وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَمْتُ خَيْرُ مُيَمِّمٍ^(١)
ويقول [من الطويل] :

وَفَارَقْتُ خَيْرَ النَّاسِ قَاصِدَ شَرِّهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ طَرّاً لَأَنْذِلَهُمْ طَرّاً
ويلوم قلبه في الحنين إليه ، فيقول [في « المكبري » ٢٨٣/٤ من
الطويل] :

حَبِيبُكَ قَلْبِي ، قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى وَقَدْ كَانَ عَذَاراً فَكُنْ لِي وَافِياً

(١) الأُمُّ : القصدُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَلْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ فَلَسْتَ فَوَادِي إِنْ رَأَيْتَكَ بَاكِيًا
فَإِنَّ دُمُوعَ أَلْعَيْنِ غُذِرَ بِرَبِّهَا إِذَا كُنَّ إِثْرَ الْغَادِرِينَ جَوَارِيَا

ويقول [في «المكبري» ١٧٨/١ من الطويل] :

عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتِي أَتَجَنَّبُ^(١)

أما ذكره الغدر ، وما أشبه ذلك عن سيف الدولة . . فما هو إلا لقوة نفسه ، لا يرى للملوك فمن دونهم فضلاً عليه ، وإنما يخاطبهم مخاطبة اللذات والأقران^(٢) ، في الكثير الأغلب ، ولا بد من مثل ذلك للعتاب ، فهو مضطرٌ إليه ، بدافع الشهامة والموجدة ، ومن نظر إلى قصيدته المستهله بقوله [في «المكبري» ٣٦٢/٣ من البسيط] :

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمْ وَمَنْ بِجَسَمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ^(٣)

. . ألفاها تتدفق بلاغة ، وجزالة ، وشهامة ، وفخراً ، ونخوة ، تُسجلُ له في صفحات التاريخ ما لا تسجله كبار الفتح لأرباب الدول ، فحصيلته البحث : الاعتراف له بالكرم وحفظ العهد ، وإني لأرجو أن يغفر الله له كل خطيئة زلفها بقوله [في «المكبري» ٢٨٤/٤ من الطويل] :

خُلِفْتُ أَلَوْفًا لَوْ رُدِدْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِيًا

ولئن قيل : إنه لم يبق متعلقاً بمحاسن سيف الدولة إلا سياسة في

(١) أحفى : أبلغ الناس مسألة عني ، من الحفاوة وهي : المبالغة في السؤال عن الرجل والعناية في أمره .

(٢) اللذات : الأقران الذين ولدوا معه ، أو من هم في سنه .

(٣) الشبم : البارد ، والشبم : البرد .

حفظِ الهيبةَ والمروءةَ ؛ لأنه لا يأمنُ السقوطُ من عينِ كافورٍ إذا تعالَمَ
الناسُ بأنه مطرودٌ . . فالجوابُ عنه أنَّ ذلك لا يكونُ :

أما أولاً : فلأنَّهُ لم يتكتمْ بشيءٍ ممَّا صارَ بينَهُ وبينَ سيفِ الدولة .

وأما ثانياً : فلأنَّهُ لم يخرجْ مطروداً ، وإنَّما خرجَ مغاضباً ؛ لأنه
يرى أن قد قصَّروا في بعضِ حقِّه ، معَ حرصِهِم على بقائه ،
والاستئثارِ به ، ألا تسمعُ إلى قولِهِ [في « المعبري » ٣ / ٣٧٢ من البسيط] :

لئن تَرَكْنَ ضَمِيرًا عَنْ مِيَامِنِنَا لِيَخْذُنَّ لِمَنْ وَدَعْتُهُمْ نَدَمٌ^(١)

وأما ثالثاً : فلأنَّ مثلَ ذلك لا يحصلُ إلَّا في الأوساطِ السافلةِ ،
والأُممِ المنحطَّةِ ، فهي التي تبني إهانتها أو إكرامها على مجرَّدِ
التقليدِ ، بخلافِ الحيَّةِ ، فإنَّها لا تضعُ الرجالَ إلَّا بحيثُ وضعَهُم اللهُ
من الفضيلةِ ، بل كلُّما استحكمتِ النفرةَ بينَ فاضلٍ وأحدِ الملوكِ . .
أستدُّ حرصُ الآخرينَ على الاستئثارِ به ، أمَّا سُقَّاطُ الحُسادِ . . فإنَّهُ
لا يُبالِي بهم ، وإن توجَّهَتْ أنظارُهُم إلى مثلِ ذلك بشاهدِ قولِهِ [في
« المعبري » ٩ / ٢ من الطويل] :

فلا زِلْتُ أَلْقَى الْحَاسِدِينَ بِمِثْلِهَا وَفِي يَدِهِمْ غَيْظٌ وَفِي يَدَيَّ الرَّفْدُ^(٢)
وَعِنْدِي قَبَاطِي الْأَمِيرِ وَمَالُهُ وَعِنْدَهُمْ مِمَّا ظَفِرْتُ بِهِ الْجَحْدُ^(٣)

وأما رابعاً : فإنَّهُ لو نظرَ إلى شيءٍ من ذلك . . لَمَّا تظاهرَ بمعاداةِ

(١) ضَمِيرٌ : جبلٌ على يمينِ طالبِ (مصر) من (الشام) وهو قريبٌ من
(دمشق) .

(٢) الرَّفْدُ : العطاءُ .

(٣) القباطيُّ - جمعُ قبطيَّة - : وهي ثيابٌ بيضٌ تُصنعُ في (مصر) .

الملوك ، وَلَمَّا حَشَا « دِيوانَهُ » بهجاء كافور وغيره ، وَلَمَّا أَسْتَعْلَنَ بهريه من عنده .

وَأَمَّا خَامِساً : فَلَأَنَّهُ لَا يَرَى لِلْمَلُوكِ فَضْلاً عَلَيْهِ كَمَا قَدَّمْنَا ، وَمَا كَانَ يَنْشُدُهُمْ إِلَّا قَاعِداً ، مِثْلَ الْفَرَزْدَقِ ، وَلَقَدْ أُرِيدَ مَرَّةً عَلَى الْإِنْشَادِ قَائِماً ، فَقَالَ : أَوَلَسْتُ الْقَائِلَ [فِي « الْمَكْبَرِي » ٢٨١/١ مِنْ الطُّوَيْلِ] :

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا [وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْطَغْنُ فِي الْعِدَا]
وَأَمَّا سَادِساً : فَلَأَنَّهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ بِالْمُودَّةِ مَعَ الْأَسْتِيَاءِ . . . إِلَّا لِمَنْ زَادَ اخْتِصَاصُهُ بِهِ ، كَسَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَأَبِي الْعَشَائِرِ ، وَإِلَّا . . . فَمَا أَكْثَرَ تَشْكِيهِ مِنْ هُضَائِمِ الْمُلُوكِ وَجُورِهِمْ .

والرابع من المباحث التي في البيت : أَنَّهُ نَظَرَ فِيهِ إِلَى قِصَّةِ جَرَتْ لِأَبِي تَمَّامٍ مَعَ أَمِيرٍ ، طَفِقَ يَتَأَلَّمُ لِفَسَادِ الزَّمَانِ ، وَقَلَّةِ الْكِرَامِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو تَمَّامٍ : لَا ذَنْبَ لِلزَّمَانِ مَعَ وَجُودِكَ ، وَلَا قَلَّةَ فِي الْكِرَامِ مَعَ جُودِكَ ، وَإِنَّكَ لَكَمَا قَالَ أَبُو جَوَيْرِيَّةَ الْعَبْدِيُّ [مِنْ الطُّوَيْلِ] :

المبحث الرابع على
المطلع : أصل هذا
المطلع من قصة جرت
لأبي تمام

طَوِيلُ نِجَادِ السَّيْفِ حَتَّى كَانَهُ بِأَعْلَى سَنَامِي فَالِجٍ يَنْطَوِّحُ
إِذَا أَعْتَمَ بِالْبُرْدِ الْيَمَانِي خِلْتَهُ هِلَالاً بَدَأَ مِنْ جَانِبِ الْأَفْقِ يُلْمَحُ
يَزِيدُ عَلَى فَضْلِ الرِّجَالِ فَضِيلَةً وَيَقْصُرُ عَنْهُ مَذْحُ مَنْ يَتَمَدَّحُ
وَيُدْلِجُ فِي حَاجَاتِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ وَيُؤْرِثِي كَرِيمَاتِ النَّدَى حِينَ يَقْدَحُ

فَاهْتَزَّ الْأَمِيرُ أَرْتِيحاً ، وَامْتَلَأَ أَنْفُهُ أَرْيَحِيَّةً ، وَصَدْرُهُ أَنْشَرَحاً ، وَقَالَ لِأَبِي تَمَّامٍ : بوركَ فِيهِ شَاعِراً ، وَرَاوِيَةً ، فَأَكْثَرَ أَبُو تَمَّامٍ بَعْدَ فِي « دِيوانِهِ » مِنْ أَلْمَعْنَى ، فَقَالَ فِي أَحْمَدَ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ [فِي « دِيوانِهِ » ٢١٤/١ مِنْ الْوَافِرِ] :

لَقَدْ أَنْسَتْ مَسَاوِيءَ كُلِّ دَهْرٍ مَحَاسِنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دُوَادٍ

ومنه أخذ النازمُ قوله «في» المكبري «١٥٩/٢٠ من الطويل» :

أَزَالَتْ بِكَ الْآيَامُ عَثْبِي كَأَنَّمَا بُنُوها لَهَا ذَنْبٌ وَأَنْتَ لَهَا عُذْرُ

وقد سبق بعضُ هذا ، مع ما يناسبهُ من كلام أمير المؤمنين - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - في أواخرِ المجلسِ السابع .

والخامسُ : قَالَ بعضهم : في قوله مِنَ الْقَافِيَةِ (تُزْرَقُ) إِنَّهُ مِنَ المبحث الخامس على المطلع : ادعى بعضهم الحشو القبيح ، الواقع مثله في قول بعضهم [ومر أبو العيال الهذلي في أن في البيت حشواً لا الأغاني « ١٦٠ / ٢٤ » من مجزوء الوافر] :

داعي للذكره

[ذَكَرْتُ أَخِي] فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصَبُ

والحقُّ أَنَّهُ ليسَ كذلك ، وَلَكِنَّهُ ناظرٌ إلى قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ ﴾ [النحل : ٢٦] ، وقوله : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقوله : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، بل ربَّما أَرَادَ التلميحَ فيه إلى قوله جلَّ شأنهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وإن كانَ الفرقُ ظاهراً ، بأحتياجِ الحياةِ البرزخيةِ إلى التأكيدِ بذكرِ الرزقِ ، ما لا تحتاجُهُ الحياةُ الدنيا .

وبما جاء في الحشو . . ذكرتُ أَنَّ بعضهم أنشأ قصيدةً ، عَرَضَهَا على سبعينَ شاعراً ، كُلُّهُمْ يُعْنِي عَلَيْهَا ، وبيتُ المطلعِ منها هذا [من الرجز] :

دَعَهَا وَلَا تَحْسَبِ زِمَامَ الْمِقْوَدِ تَطْوِي بِأَيْدِيهَا بِسَاطَ الْفَدْفَدِ

ثُمَّ عَرَضَهَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : هَذَا الْمَطْلَعُ
كَاسِفٌ ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : أَرَأَيْتَ لَوْ أُطْلِعَ عَلَيْهَا الْمَمْدُوحُ ،
وَبِمَجَرَّدِ مَا رَأَى ، أَوْ سَمِعَ ، قَوْلَكَ : دَعَهَا . . رَمَاهَا ، وَأَحَالَ
عَلَيْكَ فِي الذَّنْبِ ، وَقَالَ : إِنَّمَا أَخَذْنَا بِقَوْلِكَ فِي تَرْكِهَا .
وَأَقُولُ : إِنَّ فِيهَا نَقْدًا آخَرَ لَمْ يَذْكُرْهُ رَاوِي الْقِصَّةِ ، وَهُوَ أَنَّ
لَا حَاجَةَ لَذِكْرِ الْمَقْوَدِ مَعَ الزَّمَامِ ؛ لِأَنَّ الزَّمَامَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِيهِ ، وَلَيْسَ
الْمَقَامُ مَقَامَ إِطْنَابٍ ، أَوْ تَقْرِيرٍ ، حَتَّى يَغْتَفَرَ فِيهِ أَوْ يَقْبَلَ .

* * *

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المَتَنِّي فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥ مِنْ الطَّوِيلِ] :

حُشَّاشَةُ نَفْسٍ وَدَعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أَشْبَعُ

يقول : لي بقيَّةُ نفسٍ فارقتني يومَ ودَّعني الأحبابُ ، فبقيتُ شرح المطلع
حائراً ، لا أدري ، أودَّعُ الحشَّاشَةَ ، أم أودَّعُ الأحبابَ ؟
(الظَّاعِنِينَ) يروى بالتثنية ويروى بالجمع ، وكلاهما صالحٌ ، كما
لا يخفى ، وقالوا : إِنَّهُ مأخوذٌ مِنْ قولِ بشارٍ [في « ديوانه » ١٠١/٤] مِنْ
الطَّوِيلِ] :

حَدَى بَعْضُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَبَعْضُهُمْ شِمَالاً وَقَلْبِي بَيْنَهُمْ مُتَوَرِّعٌ
وشتَّانَ ما بينهما ، فبيتُ بشارٍ متوقِّدُ الزُّجَاجَةِ ، ناصعُ الديباجةِ ،
أما بيتُ الناظمِ . . فيؤخذُ عليه فيه أَنَّ الحشَّاشَةَ ذهبتَ معَ الأحبابِ
لجهةٍ واحدةٍ ، فالتوديعُ لأحدهما توديعٌ للآخرِ ، فلا مجالَ للتَّرَدُّدِ ،
ولا موضعَ للحيرةِ ، فإن قيلَ : إِنَّهُ تحيُّرٌ مِنْ حيثُ الكيفيَّةُ ، لا مِنْ
حيثُ الآيِنَةُ . . قلنا : فيه بعدٌ كثيرٌ ، ثُمَّ إِنَّهُ يتوجَّهُ إليه - أيضاً -
ما أنتقدتهُ سيِّدَتنا سَكِينَةُ على قولهِ [في « ديوانِ جميلٍ » ١٧٦] مِنْ الطَّوِيلِ] :

فَلَوْ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِيَ مَا طَلَبْتُهَا وَلَكِنْ طَلَبْتُهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِي
ولو كانَ صادقَ المحبةِ ، صحيحَ الهوى . . لَمَا قالَ إلَّا مثلَ قولِ
العبَّاسِ بنِ الأحنفِ [مِنْ الكَامِلِ] :

أَبْكِي وَقَدْ ذَهَبَ الْفَوَادُ وَإِنَّمَا أَبْكِي لِفَقْدِكَ لَا لِفَقْدِ الدَّاهِبِ

فالتكلفُ إذن ظاهرٌ من كلامِهِ ، والتشعُّعُ بما لَمْ يُعطَ مِنَ المَحَبَّةِ معروفٌ
مِنْ حالِهِ ، ومعَ ذلكَ . . . فهو القائلُ [في « المُكَبَّرِي » ٣٢٧/٣ مِنَ الطَّوِيلِ] :

وَقَدْ يَنْزِيًا بِالْهَوَى غَيْرُ أَهْلِهِ وَتَسْتَضِحُّ الْإِنْسَانُ مِنْ لَا يِلَافُهُ^(١)
وَقَالَ [في « المُكَبَّرِي » ٣٢١/٢ مِنَ الطَّوِيلِ] :

وَجَائِزَةٌ دَعَوَى الْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى وَإِنْ كَانَ لَا يَخْفَى كَلَامُ الْمُنَافِقِ
وَقَالَ [في « المُكَبَّرِي » ٢٩٥/٣ مِنَ الطَّوِيلِ] :

وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَدَّعِي الْحُبَّ قَلْبُهُ وَيَخْتَجُّ فِي تَرْكِ الْزِّيَارَةِ بِالشُّغْلِ
ولو أَحْفَيْنَاهُ الْمَسْأَلَةَ ، وناقشناهُ الْحِسَابَ . . . لَأَلْزَمْنَاهُ مَا يَرْجُمُ بِهِ
سِوَاهُ ، بما يَظْهَرُ عَلَى شِعْرِهِ مِنْ فِلَتَاتِ لِسَانِهِ حَسَبَمَا رَأَيْتَ .

والبيتُ الذي نتكلَّمُ فِيهِ مَتَكَرَّرُ الْمَعْنَى فِي « دِيَوَانِهِ » ، مِنْهُ قَوْلُهُ
[في « المُكَبَّرِي » ٣٤١/٢ مِنَ الطَّوِيلِ] :
القلب والروح مع
الأحباب أينما ذهبوا
وأينما ارتحلوا

هُوَ الْبَيِّنُ حَتَّى مَا تَأْتِي الْحَزَائِقُ وَيَا قَلْبُ حَتَّى أَنْتَ مِمَّنْ أَفَارِقُ^(٢)!!
وَقَوْلُهُ [في « المُكَبَّرِي » ٦٩/٢ مِنَ الطَّوِيلِ] :

فَجَذُّ لِي بِقَلْبٍ إِنْ رَحَلْتُ فَإِنِّي مُخَلَّفُ قَلْبِي عِنْدَ مَنْ فَضَّلَهُ عِنْدِي
وَقَوْلُهُ [في « المُكَبَّرِي » ٣٦٥/١ مِنَ الْوَافِرِ] :

وَإِنِّي عَنْكَ بَعْدَ غَدٍ لَغَادٍ وَقَلْبِي مِنْ فَنَائِكَ غَيْرُ غَادِي^(٣)

(١) تَزْيَا : تَكَلَّفَ الزِّيَّ . يِلَافُهُ : يُوَافِقُهُ .

(٢) تَأْتِي : تَمُوتُ وَتَرْفُقُ . الْحَزَائِقُ : الْجَمَاعَاتُ . وَالْمَعْنَى : يَقُولُ مُخَاطَباً قَلْبَهُ :

كُلُّ أَحَدٍ يَفَارِقُنِي حَتَّى أَنْتَ ؛ لِأَنَّ الْأَحِبَّةَ فَارِقُونِي ، فَذَهَبَتْ مَعَهُمْ .

(٣) الْفِنَاءُ : الْمَمَرُ .

وقال أبو هانئ الأندلسي [في «ديوانه» ١١٤ من الرُّمَلِ] :

انْسَحُوا عَن نَّاطِرِي كُحْلَ الشَّهَادِ وَأَنْفُضُوا عَن مَضْجِعِي شَوْكَ الْقَتَاذِ
أَوْ خُذُوا مِنِّي مَا أَبْقَيْتُمْ لَا أُرِيدُ الْجِسْمَ مَسْلُوبَ الْقَوَاذِ
وقال الباخريزي [من الكامل] :

قَالَتْ - وَقَدْ فَتَشْتُ عَنْهَا كُلَّ مَنْ لَا قَيْتُهُ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِي - :
أَنَا فِي فُؤَادِكَ فَازِمٌ لَخَطِّكَ نَحْوَهُ تَرَنِّي فَقُلْتُ لَهَا : وَأَيْنَ فُؤَادِي ؟
إِلَّا أَنْ فِيهِ مَوَازِدَةٌ ؛ إِذْ كَيْفَ يَرَاغِبُهَا وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَكَانَهَا ؟
وكيف يخاطبها خطاب الحاضر ، وإنما هي في قلبه الغائب ؟ ولكن
المطرب قول الآخر [من الخفيف] :

يَا مُقِيمًا فِي خَاطِرِي وَجَنَانِي وَبَعِيدًا عَن نَّاطِرِي وَعِيَانِي
أَنْتَ رُوحِي إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَرَاهَا فَهِيَ أَذْنِي إِلَيَّ مِنْ كُلِّ دَانِي
وقال بعض المتأخرين [من الكامل] :

لِي فِي الْحِجَازِ وَدِينَعٌ خَلَقْتُهَا أَوْدَعْتُهَا يَوْمَ الْوَدَاعِ مُودَعِي
وَأَطْنُهَا - لَا بَلَّ يَقِينِي - أَنَّهَا قَلْبِي فَإِنِّي لَمْ أَجِدْ قَلْبِي مَعِي
وتلاعب به الشرف ابن الفارض ، فقال [في «ديوانه» ٢٤ من الرُّمَلِ] :

كَانَ لِي قَلْبٌ بِجَرَاعٍ الْحِمَى ضَاعَ مِنِّي ، هَلْ لَهُ رَدٌّ عَلَيَّ (١)
وقال [في «ديوانه» ١٢٦ من الكامل] :

وَأَسْأَلُ غَزَالَ كِنَاسِهِ : هَلْ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِقَلْبِي فِي هَوَاهُ وَحَالِهِ (٢)

(١) الجرعاء : الأرض الطيبة .

(٢) الكِنَاسُ : بيت الغزال . والضمير فيه يعود إلى العقيق في البيت قبله ، وهو :

وقال [في «ديوانه» ١٤٩ من الكامل] :

يَا سَائِرًا بِالْقَلْبِ غَدْرًا كَيْفَ لَمْ تَتَّبِعُهُ مَا غَادَرْتَهُ مِنْ سَائِرِي ؟

وقال [في «ديوانه» ٣٦ من الطويل] :

أَخَذْتُمْ فُؤَادِي وَهُوَ بَعْضِي فَمَا الَّذِي يَضُرُّكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوهُ بِجُمْلَتِي

وقال [في «ديوانه» ١٣٥ من الطويل] :

أَخَذْتُمْ فُؤَادِي وَهُوَ بَعْضِي فَمَا الَّذِي يَضُرُّكُمْ لَوْ كَانَ عِنْدَكُمْ الْكُلُّ

وقال الخابزارزي [من الكامل] :

أَنَا غَائِبٌ وَالْقَلْبُ عِنْدَكَ حَاضِرٌ سَافَرْتُ عَنْكَ وَمَا الْفُؤَادُ مُسَافِرٌ

وقال آخر [من الطويل] :

وَإِنْ يَزْتَجِلْ جِسْمِي مَعَ الرُّكْبِ مُكْرَمًا يُقِمُّ عِنْدَهُ قَلْبِي وَأَمْضِي بِلَا قَلْبٍ

وقال الروذباري [من البسيط] :

وَلَوْ مَضَى الْكُلُّ مِنِّي لَمْ يَكُنْ عَجَبًا أَذْرِكُ بَقِيَّةَ نَفْسِي فَيْكُ قَدْ تَلَفْتُ وَإِنَّمَا عَجَبِي لِلْبَعْضِ حِينَ بَقِيَ قَبْلَ الْفِرَاقِ فَهَذَا آخِرُ الرَّمَقِ

وقال مهيار [في «ديوانه» ٣٢٨/٣ من الرمل] :

وَيَجْزَعَاءُ الْحِمَى قَلْبِي فُعْجَ بِالْحِمَى وَأَفْرَأُ عَلَى قَلْبِي السَّلَامَا وَتَرَجَّلَ فَتَحَدَّثَ عَجَبًا : أَنَّ قَلْبًا سَارَ عَنْ جِسْمٍ أَقَامًا^(١) ١١ قُلْ لِحِيزَانِ الْغَضَا : آهًا عَلَى طَيْبِ عَيْشٍ بِالْغَضَا : لَوْ كَانَ دَامَا

= يَا صَاحِبِي هَذَا الْعَقِيْتُ فَقِفْ بِهِ مُتَوَالِهًا إِنْ كُنْتَ لَسْتَ بِوَالِدٍ
(١) الترجل : النزول عن الفرس أو الدابة ، والرجل : خلاف الفارس .

حَمَلُوا رِيحَ الصَّبَا مِنْ نَشْرِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَ شِيحًا وَخَرَامًا
وَأَبْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِي فِي الْكَرَى إِنْ أَذِنْتُمْ لِحُفُوزِي أَنْ تَنَامَا

ويعجبني قول أبي عبادة [في «ديوانه» ٢/ ٨٩٥ من الطويل] :

فَإِنْ بِنْتُ عَنْكُمْ مُصْبِحًا حَضَرَ الْهَوَى وَإِنْ غَبْتُ عَنْكُمْ سَائِرًا شَهِدَ الشُّغْرُ
سَأَشْكُرُ لَا أَنِّي أَجَازِيكَ نِعْمَةً بِأُخْرَى ، وَلَكِنْ كَيْ يُقَالَ لَهُ شُكْرُ
وَأَذْكُرُ أَيَّامِي لَدَيْكَ وَحُسْنَهَا وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنَ الذَّاهِبِ الذِّكْرُ

وقوله [في «ديوانه» ٤/ ٢٢٣٨ من الكامل] :

وَتَعَلَّمَنِي أَنَّ اغْتِلَاقِي حُبَّكُمْ ذُلِّي ، وَأَنَّ هَوَايَ فِينِكَ هَوَايَ
إِمَّا أَقَمْتُ فَإِنَّ لُبِّي ظَاعِنٌ أَوْ سِرْتُ مُنْطَلِقًا فَقَلْبِي عَائِنِي

وقال جميل بن معمر [في «ديوانه» ١١٨ من الطويل] :

لَيْتَ يَكُ جُثْمَانِي بِأَرْضِ سِوَاكُمْ فَإِنَّ فُؤَادِي عِنْدَكَ الدَّهْرَ أَجْمَعُ

وقال بعض العرب [في «لسان العرب» ١/ ٥٠٢ من الطويل] :

وَسِرْتُ وَفِي نَجْرَانَ قَلْبِي مُخْلَفٌ وَجِسْمِي بِبَغْدَادِ الْعِرَاقِ مُشَاعِبٌ^(١)

وقال آخر [هو جعفر بن عتبة الحارثي في «ديوان الحماسة» ١/ ١١ من الطويل] :

فُؤَادِي مَعَ الرُّكْبِ الْيَمَانَيْنِ مُضْعِدٌ جَنِيبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوْتِقٌ^(٢)

(١) المشاعِبُ : الذي يباعِدُ صاحِبَهُ .

(٢) الرُّكْبُ : رُكْبَانُ الْإِبِلِ خَاصَّةً . الْمُضْعِدُ : الْمُبْعِدُ . جَنِيبٌ : مُسْتَبْعٍ .

الْجُثْمَانُ : الْبَدَنُ . الْمُوْتِقُ : الْمُقَيَّدُ .

يقول : هُوَ مَعَ رُكْبَانِ الْإِبِلِ الْقَاصِدِينَ نَحْوَ (الْيَمَنِ) مَقُودٌ ، وَبَدَنُهُ مُقَيَّدٌ
مَاسُورٌ بِـ(مَكَّةَ) .

وقال عمرُ ابنُ أبي ربيعة [في «ديوانه» ٢٣٧/١ من الخفيف] :

أَيُّهَا الرَّاغِبُ الْمُجِدُّ ابْتِكَارًا قَدْ قَضَى مِنْ تِهَامَةٍ الْأَوْطَارِ^(١)
مَنْ يَكُنْ قَلْبُهُ سَلِيمًا مُقِيمًا فَفُؤَادِي بِالْخَيْفِ أَضْحَى مُعَارًا
ومما يروى لصقير قريش - وهو عبدُ الرحمن بن معاوية بن
هشام بن عبد الملك - [في «نفع الطيب» ٤١/٣ من الخفيف] :

أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُيَّمُّ أَرْضِي أَقِرْ مِنْ بَغْضِي السَّلَامَ لِبَغْضِي
إِنَّ جِسْمِي كَمَا رَأَيْتَ بِأَرْضِي وَفُؤَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِي
وقال كثيرٌ [في «ديوان الحماسة» ٩٦/٢ من الطويل] :

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَبْتَ شَغْبًا إِلَى بَدَا إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِأَرْضِ سِوَاهُمَا^(٢)
حَلَلْتِ بِهِذَا حَلَّةً ثُمَّ حَلَّةً بِهِذَا ، فَطَابَ الْوَادِيَانِ كِلَاهُمَا
إِذَا ذَرَفَتْ عَيْنَايَ أَغْتَلُّ بِالْقَذَى وَعَزَّةٌ لَوْ يَذِرْنِي الطَّيِّبُ قَذَاهُمَا
والأخيرُ من قول الحطيئة [في «ديوانه» ٩١ من الوافر] :

إِذَا مَا أَلْعَيْنُ فَاضَ الدَّمْعُ مِنْهَا أَقُولُ : بِهَا قَذَى وَهُوَ الْبُكَاءُ
وقال الفرزدق [من الطويل] :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو بِالْمَدِينَةِ حَاجَةً وَبِالسَّامِ أُخْرِى كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟
وقال [جريرٌ في «ديوانه» ٨٥٠/٢ من الطويل] :

أَحِبُّ ثَرَى نَجْدٍ وَبِالْغَوَرِ حَاجَةً أَغَارَ الْهَوَى يَا عَبْدَ قَيْسٍ وَأَنْجَدًا

(١) الرَّاغِبُ : الذاهِبُ ليلًا . المجدُّ ابتكاراً : المبالغُ في تكبيره . الأوطارُ : الغياثُ والمأربُ .

(٢) شَغْبٌ : منهلٌ ماءً . بدَا : موضعٌ .

وقال أبو العتاهية [من الطويل] :

تَفَرَّقَ أَهْلَانَا مُقِيمًا وَظَاعِنًا فَلَلَّهُ أَذْرَى أَيَّ قَوْمِي أَتْبَعُ
يُنَازِعُنِي شَوْقِي أَمَامِي وَحَاجَتِي وَرَائِي فَمَا أَذْرِي بِهَا كَيْفَ أَصْنَعُ

وقال آخر [وهو أبو تمام في «ديوانه» ١٦١/٢ من البسيط] :

فِي الشَّامِ أَهْلِي ، وَبَعْدَادُ الْهَوَى ، وَأَنَا بِالرَّقَمَتَيْنِ ، وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ حَتَّى تُبَلِّغَنِي أَقْصَى خُرَاسَانَ

وقال أبو العباس المبرِّد [في «مصرع العشاق» ٢٢/١] : أجتزتُ بدير
هرقل ، فقلتُ لأصحابي : أصدعوا بنا إليه ، فرأينا منظرًا حسنًا ، وإذا
كهلٌ مشدودٌ ، عليه آثارُ النعمة ، قال : ما أقدمكم هذا البلد ، الثقيل
ماؤه ، الغليظ هواؤه ، الجفأة أهله ؟ قلنا : طلبُ الحديث والأدب ،
قال حبذا تُشِدُّونِي أو تُنْشِدُكُمْ ، فقلنا : بل أنت ، فقال [من الكامل] :

اللَّهُ يُعَلِّمُ أَنْنِي كَمِدٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَبْتُ مَا أَجِدُ
رُوحَانِي لِي : رُوحٌ تَضْمَنُهَا بَلَدٌ وَأُخْرَى حَازَهَا بَلَدُ
وَإِذَا الْمُقِيمَةُ لَيْسَ يَنْفَعُهَا صَبْرٌ وَلَيْسَ يَضُرُّهَا جَلَدُ
وَأَظُنُّ غَائِبَتِي كَشَاهِدَتِي بِمَكَانِهَا تَجِدُ الَّذِي أَجِدُ

ثمَّ أغمي عليه ، فتركناه وأنصرفنا ، فأفاق ، وقال : بأبي
ما أسرعَ ذهابكما ، أعيراني سمعكما ، فعدنا إليه فأنشد [من البسيط] :

لَمَّا أَنَاخُوا قُبَيْلَ الصُّبْحِ عَيْنَهُمْ وَرَحَلُوا وَسَارَتْ بِالْهَوَى الْإِبِلُ
وَقَلَّبْتُ مِنْ خِلَالِ السَّجْفِ نَاطِرَهَا تَرْنُو إِلَيَّ وَدَمْعُ الْعَيْنِ مُنْهَمِلٌ^(١)

(١) السَّجْفُ : السُّتْرُ .

فَوَدَّعَتْ بَيْنَانٍ عِفْدُهَا عَنْمٌ . . نَادَيْتُ لَا حَمَلَتْ رِجْلَاكَ يَا جَمَلٌ^(١)
وَلَيْلِي مِنَ الْبَيْنِ مَاذَا حَلَّ بِي وَبِهَا يَا نَارِحَ الدَّارِ حَلَّ الْبَيْنُ وَأَزْتَحَلُّوا
إِنِّي عَلَى الْعَهْدِ لَمْ أَنْقُضْ مَوَدَّتَهُمْ فَلَيْتَ شِعْرِي وَطَالَ الْعَهْدُ مَا فَعَلُوا
فَقَالَ لَهُ بَغِيضٌ مِنَّا : ماتوا ، فقال : وأنا أيضاً أموتُ ، فلم يزل
يتجَدَّبُ مِنْ قَيْدِهِ حَتَّى فَارَقَ الْحَيَاةَ :

والشعرُ الأوَّلُ لخالدِ الكاتبِ ، ولا يمكنُ أن يكونَ صاحبَ
القِصَّةِ ؛ لأنَّ خالداً لَمْ يَحْبَسْ ، وإنَّما وسوسَ وهامَ على وجهِهِ ،
وقالَ أبْنُ دَقِيقِ العِيْدِ ، وأجادَ [في « نفع الطيب » ٦٨/١ مِنَ الطَّوِيلِ] :

إِذَا كُنْتُ فِي نَجْدٍ وَطَيْبٍ نَعِيمِهَا تَذَكَّرْتُ أَهْلِي بِاللَّوَا وَمُحَجَّرِ
وَلِإِنْ كُنْتُ فِي أَهْلِي عَرَّتْنِي صَبَابَةٌ إِلَى سَاكِنِي نَجْدٍ وَعَيْلَ تَصْبَّرِي
فَمَا زَالَ لِي يَسَّ الْقَرِيقَيْنِ وَقَفَةٌ فَمَنْ لِي بِنَجْدٍ بَيْنَ أَهْلِي وَمَعَشَرِي

وقالَ آخَرُ [في « نفع الطيب » ٦٧/١ مِنَ الطَّوِيلِ] :

وَلِي بِالْحِمَى أَهْلٌ وَبِالْبَنَانِ جِيزَةٌ وَفِي حَاجِرِ خِلٍّ وَفِي الْمُنْحَنَى صَحْبُ
تَقَسَّمَ ذَا الْقَلْبِ الْمُتَيَّمُ بَيْنَهُمْ أَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ يُقَسِّمُ الْقَلْبُ ؟

وقالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلِيُّ بْنُ حَزْمٍ الظَّاهِرِيُّ [في « شذرات الذهب » ٣٠٠/٢

مِنَ الْوَافِرِ] :

لَيْتَ أَصْبَحْتُ مُزْتَحِلاً بِجِسْمِي فَرُوحِي عِنْدَكُمْ أَبَدًا مُقِيمٌ
وَلَكِنْ لِلْعِيَانِ لَطِيفٌ مَعْنَى لَهُ سَأَلَ الْمُعَايَنَةَ الْكَلِيمُ^(٢)

(١) العَنَمُ : أَرَادَ بِهِ الْبَنَانُ الْمَخْضُوبَ ؛ لِأَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْعَنَمِ وَهُوَ نَبْتُ أَحْمَرُ .

(٢) الكَلِيمُ : هُوَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَفِي الْبَيْتِ إِشَارَةٌ
إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

وقال [في «وفيات الأعيان» ٣/ ٣٢٧ من الوافر] :

يَقُولُ أَخِي: شَجَاكَ رَحِيلُ جِسْمٍ وَرُوحُكَ مَا لَهُ عَنَّا رَحِيلُ
فَقُلْتُ لَهُ: الْمَعَايِنُ مُطْمَئِنُّ لِذَا طَلَبَ الْمُعَايِنَةَ الْخَلِيلُ^(١)

وقال صدر الدين بن المرحل [في «طبقات ابن السبكي» ٩/ ٢٦٠ من الكامل] :

يَا رَبِّ فِي الْأَطْعَانِ سَارَ فَوَادُهُ وَيُودُهُ لَوْ كَانَ سَارَ جَمِيعُهُ^(٢)

وقال ابن خلكان [في «وفيات الأعيان» ٤/ ٢٧٥] : كَانَ الشَّهْرِسْتَانِيُّ
يُرْوِي بِإِسْنَادِهِ الْمُتَّصِلَ لِلدَّرِيدِيِّ أَنَّهُ قَالَ [مِنَ الْمُسَرَّحِ] :

وَدَعْتُهُ حِينَ لَا تُودَعُهُ رُوحِي وَلَكِنَّهَا تَسِيرُ مَعَهُ
ثُمَّ أَفْتَرَقْنَا وَفِي الْقُلُوبِ لَنَا ضَيْقُ مَكَانٍ وَفِي الدُّمُوعِ سَعَهُ

(١) الخليل : هو سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وَلَا قَالَ إِزْرَعْ رَبِّي أَرِنِي كَيْفَ تَعْمَلُ...﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

(٢) وهو من قصيدة له شائقة وهي :

يَا رَبِّ جَفْنِي قَدْ جَفَاهُ هُجُوعُهُ	وَالْوَجْدُ يَغْصِي مُهْجَتِي وَيُطِيعُهُ
يَا رَبِّ قَلْبِي قَدْ تَصَدَّعَ بِالنَّوَى	فَلِإِلَى مَتَى هَذَا الْبِعَادُ يَزُوعُهُ ١٩
يَا رَبِّ بَذَرُ النَحْيِ غَابَ عَنِ الْحَيِّ	فَمَتَى يَكُونُ عَلَى الْخِيَامِ طُلُوعُهُ ١٩
يَا رَبِّ لَا أَدْعُ الْبُكَاءَ فِي حُبِّهِمْ	مِنْ بَعْدِهِمْ جُهِدُ الْمُقْبِلِ دُمُوعُهُ
يَا رَبِّ هَبْ قَلْبَ الْكَاتِبِ تَجَلُّدًا	عَمَّنْ يُحِبُّ فَقَدْ دَنَا تَوَدُّعُهُ
يَا رَبِّ هَذَا بَيْنُهُ وَيَمَادُهُ	فَمَتَى يَكُونُ لِإِبَائِهِ وَرُجُوعُهُ ١٩

ويطربني - فيما يقرب من الموضوع - قول الإمام الشبلي ،
نسأل الله أن ينفعنا به [كما في « قرى الضيف » ٤ / ٢٤٠ من الكامل] :

مَضَتْ السَّيِّئَةُ وَالْحَيِّئَةُ فَأَنْبَرَى دَمَعَانِ فِي الْأَجْفَانِ يَزْدَحِمَانِ
مَا أَنْصَفْتَنِي الْحَادِثَاتُ رَمَيْنَنِي بِمُودَعَيْنِ وَلَيْسَ لِي قَلْبَانِ

* * *

[قال أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥ من الطَّويل] :

أَشَارُوا بِتَسْلِيمِ فَجَدْنَا بِأَنْفُسِ تَسِيلُ مِنَ الْأَمَاقِ وَالسَّمُ أَدْمَعُ

يقول : أشاروا علينا بالسلام . . فجَدْنَا لَهُم بِالْأَرْوَاحِ تَسِيلُ مِنْ شَرِّ الْمَطْلَعِ
الْأَمَاقِ ، يَحْسُبُهَا النَّاسُ دُمُوعًا ، وَ(السَّمُ) لُغَةً فِي الْأَسْمِ ،
وَأَسْتَعْمَلُهَا لَيْسَ بِجَيِّدٍ ؛ لِأَنَّهَا مَهْجُورَةٌ .

وَالْمَعْنَى مُتَكَرِّرٌ فِي شِعْرِهِ ، مِنْهُ قَوْلُهُ [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٩ مِنْ الرُّوحِ الرَّاحِلَةِ وَلَيْسَ
هَمٌّ ! فَيَنْبَغِي التَّفْرِيقُ الْكَامِلُ] :

رَحَلَ الْعَزَاءُ بِرِخْلَتِي فَكَأَنِّي أَتْبَعُهُ الْأَنْفَاسَ لِلشَّيْنِ
وقوله [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٨/ ٤ مِنْ الْكَامِلِ] :

لَيْسَ الْقَبَابُ عَلَى الرُّكَّابِ وَإِنَّمَا هُنَّ الْحَيَاءُ تَرَحَّلَتْ بِسَلَامٍ^(١)
أَزْوَاحًا أَنَّهُمْ لَمَلَّتْ وَعِشْنَا بَعْدَهَا مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرَتْ عَلَى الْأَقْدَامِ

وقوله [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٣/ ٢٢١ مِنْ الْوَافِرِ] :

بَقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمْ أَرْتَحَالًا وَحُسْنَ الصَّبْرِ زُفُوا لَا الْجَمَالَ^(٢)
وقال غيره [مِنْ الطَّوِيلِ] :

خَلِيلِي مَا دَمَعَا بِكَيْتٍ وَإِنَّمَا هِيَ الرُّوحُ مِنْ عَيْنِي تَسِيلُ عَلَى خَدِّي

(١) الْقَبَابُ : الْهُوَاجُ . الرُّكَّابُ : الْإِبِلُ .

(٢) زُفُوا الْجَمَالَ : خَطَمُوهَا بِالْأَرْزَمَةِ ، وَزَمَّ : تَقَدَّمَ فِي السَّيْرِ ، وَأَصْلُهُ مِنْ زَفُوها :
إِذَا قَادُوهَا بِالْأَرْزَمَةِ لِلسَّيْرِ .

وقال بشار [في «ديوانه» ٤٩/٤ من الطويل] :

وَلَيْسَ الَّذِي يَجْرِي مِنَ الْعَيْنِ مَأْوَها وَلَكِنَّها رُوحِي تَذُوبُ فَتَقْطُرُ

وقال ديك الجن [في «ديوانه» ٢١١ من الخفيف] :

لَيْسَ ذَا الدَّمْعِ دَمْعٌ عَيْنِي وَلَكِنْ هِيَ نَفْسِي تُذِيبُها أَنْفَاسِي

وقال ابن دريد [في «ديوانه» ٤٥ من الكامل] :

لَا تَحْسَبُوا دَمْعِي تَحَدَّرَ إِنَّها نَفْسِي جَرَتْ فِي دَمْعِي الْمُتَحَدِّرِ

وقال [في «ديوانه» ٥٦ من الكامل] :

قَلْبٌ تَقْطَعُ فَاسْتَحَالَ نَجِيعًا فَجَرَى وَصَارَ مَعَ الدُّمُوعِ دُمُوعًا

وكلُّهُ مِنَ المبالغة المقبولة ؛ إذ يُتصوَّرُ عقلاً وعادةً ، ولين خرج عنها . . فلن يجاوز الإغراق ، وهو مقبول أيضاً .

والافتراق له أحترق ، يفضي بكثير من القلوب إلى الانفطار

والانشقاق ، قال النمرئي [من الكامل] :

إِنَّ الْمَنِيَّةَ وَالْفِرَاقَ لَوَاحِدٌ أَوْ تَوَآمَانِ تَرَضَعَا بِلَبَّانِ

فِي فُرْقَةٍ الْأَخْبَابِ شُغْلٌ شَاغِلٌ وَالْثُكْلُ أَجْمَعُ فُرْقَةُ الْإِخْوَانِ

وقال آخر [في «المستطرف» ٨٧/٢ من الكامل] :

جَاءَ الرَّحِيلُ فَحِينَ جَدَّ تَرَحَّلَتْ مُهْجُ الْفُؤُسِ لَهُ عَنِ الْأَجْسَادِ

مَنْ لَمْ يَيْتِ وَالْيَتِيمُ يَضْدَعُ قَلْبُهُ لَمْ يَذِرْ كَيْفَ تَفَثُ الْأَكْبَادِ

وقال ابن دراج القسطلبي [في «ديوانه» ٧٥ من الطويل] :

وَمَا كَانَ هَذَا الْبَيْنُ بَيْنَ أَحَبَّةٍ وَلَكِنْ قُلُوبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ

وَأَنشَدَ الْمَاجِشُونُ لِلْمَهْدِيِّ [كما في «المستطرف» ٨٦/٢] : مَا قَالَهُ يَوْمَ
فَارَقَ أَحِبَّابَهُ حَتَّى أَبْكَاهُ ، وَهُوَ [مِنَ الْبَسِيطِ] :

لِلَّهِ بِأَكْ عَلَى أَحِبَّابِهِ جَزَعًا قَدْ كُنْتُ أَخَذَرُ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ
مَا كَانَ وَاللَّهُ شَوْمُ الدَّهْرِ يَتْرُكُنِي حَتَّى يُجَرِّعَنِي مِنْ بَعْدِهِمْ جُرْعًا
إِنَّ الزَّيْمَانَ رَأَى إِنْفَ السُّرُورِ لَنَا فَدَبَّ بِالْبَيْنِ فِيمَا بَيْنَنَا وَسَعَى
فَلْيَصْنَعْ الدَّهْرُ بِنِي مَا شَاءَ مُجْتَهِدًا فَلَا زِيَادَةَ شَيْءٍ بَعْدَ مَا صَنَعَا
وَأَبْكَاهُ أَيْضًا آخِرُ بَمَا أَنشَدَهُ مِنْ قَوْلِهِ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

رَمَى الْحُبُّ مِنْ قَلْبِي السَّوَادَ فَأَوْجَعَا وَصَاحَ فَصَبَحَ بِالرَّحِيلِ فَأَسْمَعَا
وَعَزَّادَ حَادِي الْبَيْنِ فَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا فَأَصْبَحْتُ مَسْلُوبَ الْفُؤَادِ مُفْجَعَا
كَفَى حَزَنًا مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ أَنَّنِي أَرَى الْبَيْنَ لَا أَسْطِيعُ لِلْبَيْنِ مَدْفَعَا
وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ بِالْيَوْمِ جَاهِلًا فَبَا لَكَ بَيْنًا مَا أَمَرُّ وَأَوْجَعَا
ومثلُ هذا كثيرٌ في هذه الأمالي ، فلا نحيلُ على مجلسٍ بعينه ؛
لأنَّ في كثيرٍ منها ما يشبههُ ويتعلَّقُ به ، ولا سيَّما الثاني .

* * *

[قال أبو الطيّب المتنبي في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ٢٣٥ من الطويل] :

حَسَايَ عَلَى جَمْرِ ذِكْيٍ مِنَ الْهَوَىٰ وَعَيْنَايَ فِي رَوْضٍ مِنَ الْحُسْنِ تَرْتَعُ

شرح المطلع (الحَسَا) : ما داخل الجوف ، وأكثر ما يراؤ به القلب .

يقول : قلبي من فراقهم يوم الوداع على جمرٍ يتوقّد ، وعيناي ترتعان من وجه الحبيب في روضٍ من الحسن ، وإنما قال :
في القلب في النار والعيون في الجنان

(ترتعُ) ؛ لأنّ العينين في حكم الواحد ، إذ هما حاسة واحدة ، وهو من قول أبي تمام [في «ديوانه» ٢/ ٤٣٠ من الطويل] :

أَفَنِي الْحَقُّ أَنْ يَضْحَى بِقَلْبِي مَاتَمٌ مِنَ الشَّوْقِ وَالْبُلُوِّ وَعَيْنَايَ فِي عُرْسٍ وَأَبُو تَمَامٍ أَخَذَهُ عَمَّنْ قَبْلَهُ ، فَقَدْ قَالَ أَبْنُ الدِّمِينَةِ [من الطويل] :

غَدَتِ مُقْلَتِي فِي جَنَّةٍ مِنْ جَمَالِهَا وَقَلْبِي غَدَا مِنْ هَجْرِهَا فِي جَهَنَّمَ وَنَقَلَهُ التَّهَامِيُّ إِلَى مَا تَرَى ، فَأَحْسَنَ ، حَيْثُ قَالَ [في «ديوانه» ٤٧٢ من الكامل] :

إِنِّي لِأَزْحَمُ حَاسِدِي لِحَرٍّ مَا ضَمَّتْ صُدُورُهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ^(١) نَظَرُوا صَنِيعَ اللَّهِ بِي فَعُيُونُهُمْ فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي نَارٍ وَقَالَ خَالِدُ الْكَاتِبِ [من المجت] :

قَالُوا نَرَاكَ سَقِيمًا ؟ فَقُلْتُ : مِنْ وَجْتِيهِ فِي النَّارِ قَلْبِي ، وَعَيْنِي فِي الرَّوْضِ مِنْ مُقْلَتِيهِ

(١) الْأَوْغَارُ : الْأَحْقَادُ .

وهذا أشبهُ بيتِ الناظمِ ممَّا تقدَّم ، بل هو بعينه ، لا اختلاف إلا
في بعض الألفاظ .

وقال الحسين بن الضحَّاك الخليع [من الطويل] :

لَقَدْ مَلَأَتْ عَيْنِي بِغُرِّ مَحَاسِنِ مَلَأَنْ فُؤَادِي لَوْعَةً وَهُمُومًا
وللناظم فيما لا يخرجُ من معناه قوله [في «المكبري» ٧٢/٤ من
الوافر] :

وَمَنْ خَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلَامٌ
وهو ناظرٌ إلى قوله تعالى : ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُمُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ
وَوَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] .

ولا يخرجُ عنه قولُ شاعرِ المعرَّة [في «سقط الزند» ١١٨ من الخفيف] :

حَلَبٌ لِلْوَلِيِّ جَنَّةٌ عَذْنٌ وَهِيَ لِلْغَادِرِينَ نَارُ الْجَحِيمِ
وهو من قولِ صديقه عبد الوهاب المالكي ، الذي سبقَ لنا ذكره
[في «وفيات الأعيان» ٢٢١/٣ من البسيط] :

بَغْدَادُ دَارٌ لِأَهْلِ الْمَالِ طَيِّبَةٌ وَلِلْمَقَالِيسِ دَارُ الضَّنْكِ وَالضُّيُوقِ
ظَلَلْتُ حَيْرَانَ أُمُشِي فِي أَرْقَتِهَا كَأَنِّي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقِ

* * *

[قال أبو الطيّب المتنبي في «العكبري» ٢/ ٢٣٦ من الطويل] :

وَلَوْ حُمِلْتُ صُمُّ الْجِبَالِ الَّذِي بَنَا غَدَاةً أَفْتَرَقْنَا أَوْشَكْتَ تَتَصَدَّعُ

الم البعاد يهد الجبال

وهو من قول البُحترى [في «ديوانه» ١/ ٢٥٧ من الوافر] :

وَلَوْ أَنَّ الْجِبَالَ فَقَذَنَ إِنْفَاءً لِأَوْشَكِ جَامِدٍ مِنْهَا يَذُوبُ

وقوله [من الطويل] :

وَأَكْتُمُ مَا بِي مِنْ هَوَاكِ وَلَوْ يُرَى عَلَى جَبَلٍ صَلْدٍ إِذَا لَتَصَدَّعَا

وقد سبق - فيما روي عن ذي النون المصري - قول المرأة [من

الطويل] :

صَبَرْتُ عَلَى مَا لَوْ تَحْمَلُ بَعْضُهُ جِبَالُ شَرُورِي أَوْشَكْتَ تَتَصَدَّعُ

وقال ذو الرُّمَّة [بل الصمة بن عبد الله في «الأغاني» ١١/ ٦ من الطويل] :

أَمَّا وَجَلَالِ اللَّهِ لَوْ تَذْكُرُنِي كَذِكْرَاكِ مَا نَهْنَهْتُ لِلْعَيْنِ مَذْمَعَا
فَقَالَتْ : بَلَى وَاللَّهِ ذِكْرًا لَوْ أَنَّهُ تَضَمَّنَهُ صُمُّ الصِّفَا لَتَصَدَّعَا

وقال آخر [وهو مجنون ليلي في «ديوانه» ٥٤ من الطويل] :

فَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْخَصِي فَلَقَ الْخَصَا وَبِالرَّيْحِ لَمْ يُسْمَعْ لَهُنَّ هُبُوبُ

وكلُّهُ ناظرٌ إلى قوله تعالى ، تَبَارَكَ اسْمُهُ : ﴿ نَكَادُ السَّمَوَاتِ

يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم : ٩٠] ، وقوله جلَّ

ثَنَاؤُهُ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتُمُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ

اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

وقال أبو دهبيل الجمحي ، يصف لوعة الفراق [من الطويل] :

وَيَوْمَ وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ وَكُلُّنَا يُعَدُّ مُطِيعَ الشُّوقِ مَنْ كَانَ أَحْزَمًا
فَصِرْتُ بِقَلْبٍ لَا يُعْتَفُ فِي الْهُوَى وَعَيْنٍ مَتَى أَسْتَمُطِرْتُهَا مَطَرَتْ دَمًا

وقال الأمير تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي [في

ديوانه ٤٦٢ من الطويل] :

وَمَا أُمُّ خَشَفٍ طُولَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ يَبْلَقَعَةَ بَيْدَاءَ ظَمَانَ صَادِيًا^(١)
تَهْنِمُ وَلَا تَذَرِي إِلَى أَيْنَ تَنْتَهِي مُوَلَّهَةً حَيْرَى تَجُوبُ الْفَيَافِيَا
أَضَرَّ بِهَا حَرُّ الْهَجِيرِ فَلَمْ تَجِدْ لَغُلَّتْهَا مِنْ بَارِدِ الْمَاءِ شَافِيَا
إِذَا بَعُدَتْ عَنْ خَشَفِهَا أَنْعَطَفَتْ لَهُ فَالْقَنُ مَلْهُوفَ الْجَوَانِحِ طَاوِيَا
بِأَوْجَعِ مِنِّي يَوْمَ شَدُّوا حُمُولَهُمْ وَنَادَى مُنَادِي الْبَيْنِ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

وبعض المعنى مأخوذ من قول عمرو بن كلثوم [في ديوانه ٨١ من

الوافر] :

فَمَا وَجَدَتْ كَوْجِدِي أُمُّ سَقَبٍ أَضَلَّتْهُ فَرَجَّعَتْ الْحَيْنِنَا^(٢)
وَلَا شَمِطَاءَ لَمْ يَتْرُكْ شَقَاهَا لَهَا مِنْ تَسْعَةٍ إِلَّا جَيْنِنَا^(٣)

وفي المجلس الأول ما يشبهه ، من كلام متمم بن نويرة ، ومثله

قول الأبيوردي [من الطويل] :

وَمَا أُمُّ سَاجِي الطَّرَفِ مَالٌ بِهِ الْكَرَى عَلَى عَذَابَاتِ الْجِرْجِ نَحْسَبُهُ قَلْبًا

(١) الخشف : الظبي أول مشبه .

(٢) السقب : ولد الناقة . الترجيع : ترديد الصوت .

(٣) الشمطاء : العجوز المسنة ، وهو أشد لحزنها . الجينين : الولد ما دام في بطن أمه ، والميت ؛ لأن القبر يجنّه ؛ أي : يستره وهو المراد هنا .

تُرَاعِي بِإِخْدَى مُقْلَتَيْهَا كِنَاسَهَا وَتَزِمِي بِأُخْرَى نَحْوَهُ نَظَرًا غَرْبًا
رَأَتْ مَرْتَعًا مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ فَانْتَهَتْ إِلَيْهِ وَذُو الْأَطْمَاعِ لَا يُخَمِّدُ الْغُفْبَى
فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ اللَّبَانَةَ رَاجَعَتْ خِبَاهَا فَالْقَتِ خِشْفَهَا قَدْ قَضَى نَخْبَا
أُتْبِجَ لَهُ عَارِي السَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ يَخُوضُ إِلَى أَوْطَارِهِ مَطْلَبًا صَغْبَا
فَوَلَّتْ عَلَى ذُغْرِ وَيَالْتَفْسِ مَا بِهَا مِنَ الْكَرْبِ لَا لُقَيْتِ فِي حَادِثِ كَرْبَا
بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ عَجَّتْ رِكَابُهَا لِيَبِينَ فَلَمْ تَتْرُكْ لِدُنِي صَبْوَةَ لُبَا

وهي أبيات رائعة ، وإن أخطأ المثل محلّه منها ؛ إذ لم ترد على
النجاة بنفسها من عاري السواعد ، ولو أنها بقيت رابضة . . لبدأ
بها ، ثم ثنى بطلّاهَا ، فالعاقبة عندها محمودّة ، لا مذمومة ، ولو
قدر له أن يتسنّم الذروة من الروعة . . لأشار إلى أنّه أفترس طلاها
بمرأى منها ، فإنّ ذلك أوجع وأفجع .

صلاح الدين يُعزّي في وذكرْتُ به كتاباً سَيَرُهُ صلاحُ الدين الأيوبيّ ، تعزّيّة في والدِه
والده
لبعض قرابته ، من إنشاء القاضي الفاضل^(١) [في «الروضتين في اخبار
الدولتين» ٢/ ٢٥٠] : لقد عظمتِ اللّوعةُ ، واشتدّتِ الرّوعةُ ،
وتضاعفتِ لغيبتنا عنه الحسرةُ ، وأستنجدنا بالصبرِ فأبى ، وأجابتِ
العبرةُ ، فيا له فقيداً فَقَدْنَا بهِ العزاءَ ، وهانت بعده الأرزاءُ :

وَتَحْطَفُنْهُ يَدُ الرَّدَى فِي غَيْبِي هَبْنِي حَضَرْتُ لَدَيْهِ ، مَاذَا أَصْنَعُ ؟

(١) قَالَ القاضي أَبُو شَدَّادٍ : لَمَّا عَادَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ . . بَلَغَهُ - قَبْلَ
وَصُولِهِ إِلَى (مِصْرَ) - وَفَاةُ أَبِيهِ نَجْمِ الدِّينِ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ؛ حَيْثُ لَمْ يَحْضُرْ
وَفَاتَهُ ، فَبَعَثَ إِلَى أَقَارِبِهِ بِالْكِتَابِ الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ .

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٨٤/٢ من البسيط] :

لَمَّا اسْتَحَرَّ الْوَدَاعُ الْمَحْضُ وَأَنْصَرَمَتْ أَوَاخِرُ الصَّبْرِ وَلَّى كَاظِمًا وَجَمًا^(١)
رَأَيْتُ أَحْسَنَ مَرْثِيٍّ وَأَقْبَحَهُ مُسْتَجْمِعِينَ لِي التَّوْدِيْعَ وَالْعَنَمَا^(٢)

وأهل المعاني ينتقدون عليه عطف العنم على التوديع ؛ إذ لا مناسبة بينهما ، كما ينتقدون عليه مثل ذلك في قوله [في «ديوانه» ١٥٢/٢ من الكامل] :

لَا وَاللَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النُّوَى مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ
غَيْرَ أَنَّ التَّأْوِيلَ لِلأَوَّلِ أَقْرَبُ مِنْهُ لِلثَّانِي .

وقال أبو تمام أيضاً [في «ديوانه» ٣١/٢ من الكامل] :

قَالُوا الرَّحِيلُ فَمَا شَكَّكَ بِأَنَّهَا نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا تُرِيدُ رَحِيلًا

وقال [في «ديوانه» ٦/٢ من البسيط] :

نَكَادُ تَنْتَقِلُ الْأَزْوَاحُ لَوْ تَرَكْتُ مِنْ الْجُسُومِ إِلَيْهَا حِينَ تَنْتَقِلُ

وقال [في «ديوانه» ٤٢٨/٢ من الخفيف] :

إِنَّ يَوْمَ الْفِرَاقِ يَوْمٌ عَبُوسٌ أَيُّ سَيْلٍ تَسِيلُ فِيهِ الْتُّفُوسُ

(١) استَحَرَّ : أَسْتَدَّ . المحضُ : الخالصُ . الكاظمُ : الكاتمُ الغيظِ . الوجمُ : الساكتُ حزناً .

(٢) العنمُ : أراد به البنانُ المخضوبُ ، لأنه يشبهُ بالعنمِ وهو نبتٌ أحمرٌ .

أي : حينَ أَرَفَ الوداعُ ونفذَ الصبرُ فسكتَ العاشقُ حزناً . حصلتُ على أقبحِ شيءٍ وهو التوديعُ ، وعلى أجملِ شيءٍ وهو إشارةُ الأناملِ الحمريِّ بالفراقِ .

وقد أخذَ البغدادِيُّ بأطرافِ المحاسنِ في قوله [في « المستطرف »

٨٩/٢ من البسيط] :

قَالَتْ وَقَدْ نَالَهَا لِلْبَيْنِ أَوْجَعُهُ وَالْبَيْنُ صَغَبٌ عَلَى الْأَخْبَابِ مَوْقَعُهُ
اجْعَلْ يَدَيْكَ عَلَى قَلْبِي فَقَدْ ضَعُفْتُ قُوَاهُ عَنْ حَمَلِ مَا فِيهِ وَأَضْلَعُهُ
وَأَغِطْ عَلَيَّ الْمَطَايَا سَاعَةً فَعَسَى مَنْ شَتَّ شَمَلَ الْهَوَى بِالْبَيْنِ يَجْمَعُهُ
كَأَنِّي يَوْمَ بَنَّا حَسْرَةً وَأَسَى غَرِيقُ بَخْرٍ يَرَى الشَّاطِئِ فَيَمْنَعُهُ

وقال آخرُ [وهو ابن البديري في « المستطرف » ٨٩/٢ من الطويل] :

وَلَمْ أَسْتَطِعْ يَوْمَ التَّوَى رَدَّ عَبْرَةٍ وَقَلْبِي أَسَى مِنْ حَرْهَا يَتَقَطَّعُ
فَقَالَ خَلِيلِي إِذْ رَأَى الدَّمَعَ دَائِمًا يَفِيضُ دَمًا مِنْ مُقْلَتِي لَيْسَ يُدْفَعُ
لَنْ كَانَ هَذَا الدَّمَعُ يَجْرِي صَبَابَةً عَلَى غَيْرِ لَيْلَى فَهُوَ دَمْعٌ مُضْبِعُ

الأذواق في الفراق ثم إنَّ الأذواقَ مختلفةً في شأنِ التوديع ، كما سبقت الإشارةُ إليه
في المجلس الثاني .

القسم الأول يحبه لأنه فَمِنْهُمْ : مَنْ يُوَثِّرُهُ ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ قَرَبِ الْبَعِيدِ ، وَأَنْكِشَافِ مَكْنُونِ
يُخْرِجُ مَكْنُونِ الْحُبِّ الْحُبِّ ، فَقَدْ كَتَبَ مَصْعَبُ بْنُ الزَّبِيرِ مِنْ مِيدَانِ الْحَرْبِ [كما في « المتظم »
حتى (٢٥٧ هـ) ١١٤/٦] : لُسْكِينَةُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ ، بَعْدَ لَيَالٍ مِنْ فِرَاقِهَا
بهذه الأبيات [من الطويل] :

وَكَانَ عَزِيزًا أَنْ أَيْتَ وَيَتَنَا حِجَابٌ فَقَدْ أَضْبَحَتْ مِنِّي عَلَى عَشْرِ
وَأَبْكَاهُمَا وَاللَّهُ لِلْعَيْنِ فَأَعْلَمَنِي إِذَا أَزْدَدَتْ مِثْلَيْهَا فَصِرَتْ عَلَى شَهْرِ
وَأَنْكَى لِقَابِي مِنْهُمَا الْيَوْمَ أَتَنِي أَخَافُ بَأَن لَّا نَلْتَقِي آخِرَ الدَّهْرِ

ثم أشخصها إليه ، فشهدت معه الحرب ، ودخل عليها يوم

قُتِلَ ، وقد نزع ثيابه ، ثم لبس غلالة ، وتوشح بثوب وهو محتضن سيفه ، فعلمت أنه غير راجع ، فصاحت : وا حزناء عليك يا مصعب ، فالتفت إليها ، وقال : أوكُل هذا لي في قلبك؟ قالت : وما أخفي عنك أكثر ، قال : لو كنت أعلم أن لي عندك هذا كله . . لكان لي ولك شأن ، ثم خرج ولم يرجع ، وقد سبق خبره في غير هذا المجلس .

وقال جرير [في «ديوانه» ٩٤٠/٢ من الكامل] :

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ بِالرَّقَمَتَيْنِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ
فَقِيلَ لحفيده [كما في «المستطرف» ٨٦/٢] : ما كان جدك صانعاً لو
علم أنه آخر العهد؟ قال : كان يقلع عينه حتى لا يرى مظعن أحبابه ،
فهو حينئذ أليق بحال من يكره الوداع ، لا بما نحن فيه ممن يؤثره ،
ومنه قول بعضهم [من السريع] :

وَسَهَّلَ التَّوَدِيعَ يَوْمَ النَّوَى مَا كَانَ قَدْ وَعَّرَهُ الْهَجْرُ
وقال [من الخفيف] :

لَيْسَ عِنْدِي خَطْبُ النَّوَى بِعَظِيمٍ فِيهِ رَوْحٌ وَفِيهِ كَشْفُ غُمُومٍ
إِنَّ فِيهِ اُعْتِنَاقَ لَوْدَاعٍ وَأُنْتَظَارَ اُعْتِنَاقِ لِقْدُومٍ

وقول أبي عبادة المازي بعضه آخر المجلس الخامس [في «ديوانه» ١٥٣١/٣ من الطويل] :

وَلَوْ عَرَفَ النَّاسُ التَّلَاقِيَّ وَحُسْنَهُ لَحُبِّبَ مِنْ أَجْلِ التَّلَاقِيَّ التَّفَرُّقُ
فَيَا حُسْنَهُ وَالذَّمْعُ بِالذَّمْعِ وَاشْجُ يُمَارِجُهُ وَالْحَدُّ بِالْحَدِّ مُلْصَقٌ^(١)

(١) واشج : مشتبك .

وَقَدْ ضَمَّنَا وَشُكُّ الْتَلَاقي وَلَفَّنَا عِنَاقٌ عَلَى أَعْنَاقِنَا ثُمَّ ضَيِّقُ
فَلَمْ تَرَ إِلَّا مُخْبِرًا عَنْ صَبَابَةٍ بِشَكْوَى ، وَإِلَّا عَبْرَةً تَتَرَفَّقُ
وَمِنْ قُبَلٍ قَبْلَ الْتَلَاقي وَبَعْدَهُ نَكَادُ بِهَا مِنْ شِدَّةِ الْلُثَمِ نَشْرُقُ
وقد أرادَ ابنُ درَّاجٍ - شاعرُ الأندلسِ - أن يتعلَّقَ بهذه الأذيالِ في
قولِهِ [في «ديوانِهِ» ٩٠ : مِنَ الْكَامِلِ] :

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْفِرَاقُ مَدَامِعَا بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِبًا بِتَرَائِبِ
أَتَفَرَّقُ حَتَّى بِمَنْزِلِ غُرْبَةٍ ؟ كَمْ نَحْنُ لِلْأَيَّامِ نُهْبَةٌ نَاهِبَا
وَلَكِنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ تَرْحَةً رَاحِلِ فَأَنَا الْكَزَعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةٍ آيِبِ
هَلْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ بَذْرًا طَالِعَا فِي الْأَفْقِ إِلَّا مِنْ هِلَالٍ عَازِبِ^(١)

وأخرجَ ابنُ السَّبْكِيّ [في «طبقاتِهِ» ٤/٢٣٣] : بسنْدِهِ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ
الشَّيرَازِيِّ ، قَالَ : أَنشَدَ الْمَطَرُزُ لِنَفْسِهِ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

وَلَمَّا وَقَفْنَا بِالصَّرَاةِ عَشِيَّةً حَيَارَى لِتَوْدِيْعٍ وَرَدَّ سَلَامِ^(٢)
وَقَفْنَا عَلَى رَغَمِ الْحَسُودِ وَكُلْنَا نَفْضُ عَنِ الْأَشْوَاقِ كُلِّ خِتَامِ
وَسَوَّغَنِي عِنْدَ الْوَدَاعِ عِنَاقُهُ وَلَمَّا رَأَى وَجْدِي بِهِ وَغَرَامِي
.. تَلَثَّمْ مُرْتَابًا بِفَضْلِ رِدَائِهِ فَقُلْتُ : هِلَالٌ بَعْدَ بَذْرِ تَمَامِ ؟
وَقَبَّلْتُهُ فَوْقَ الْلُثَامِ فَقَالَ لِي : هِيَ الْخَمْرُ إِلَّا أَنَّهَا بِفِدَامِ^(٣)

(١) العازبُ : البعيدُ .

(٢) الصَّرَاةُ : نَهْرٌ يَأْخُذُ مِنَ الْفِرَاتِ ، فَيَنْسَكِبُ فِي دَجَلَةٍ ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ (بَغْدَادِ) مَسِيرَةُ
يَوْمٍ .

(٣) الْفِدَامُ : شَيْءٌ تَشْدُهُ الْأَعَاجِمُ عَلَى أَنْوَاعِهَا عِنْدَ السَّقْيِ ، يَكُونُ كَالْمَصْفَاةِ
لِلشَّرَابِ .

ومرضَ عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرِ بنِ الحسينِ ، فعادَهُ
الأميرُ ، فلمَّا أنصرفَ . . كتبَ إليه [كما في « وفيات الأعيان » ١٢٢/٣] :
ما أعرفُ أحداً جزى العلةَ خيراً غيري ، فقد شكرتُ نعمتها ؛ إذ
أفاضت بي إلى رؤيتك ، فأنا كالأعرابيِّ الذي جزى البينَ خيراً حيثُ
قالَ [مِنَ الطويلِ] :

جَزَى اللهُ يَوْمَ الْبَيْنِ خَيْراً فَإِنَّهُ أَرَانَا عَلَى عِلَاتِهِ أَمْ ثَابِتٌ
أَرَانَا رِبِّيَّاتِ الْخُدُورِ وَلَمْ نَكُنْ نَرَاهُنَّ إِلَّا بِأَنْتِعَاتِ الْتَوَاعِتِ^(١)
وقالَ الناطِمُ [في « المُكَبَّرِ » ٦٠/٢] :

وَمَنْ لِي يَبْزُومَ مِثْلَ يَوْمِ كَرِهْتُهُ قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ الْوَدَاعِ مِنَ الْبُعْدِ
وقالَ [في « المُكَبَّرِ » ٢٤٩-٢٤٨/٢] :

مَا زِلْتُ أَخْذُرُ مِنْ وَدَاعِكَ جَاهِداً حَتَّى أَغْتَدَى أَسْفِي عَلَى التَّوْدِيعِ
رَحَلَ الْعَزَاءُ بِرِخْلَتِي فَكَأَنَّمَا أَتْبَعْتُهُ الْأَنْفَاسَ لِلتَّشْنِيعِ
أَوْ مَا رَأَيْتُمْ فِي الصَّرَاةِ مُلَوَّحَةً مِمَّا أُرْفِرُقُ فِي الْقُرَاتِ دُمُوعِي^(٢)
والبيتُ الأوسطُ قد سبقَ عمَّا قريبٍ ، وقالَ [في « المُكَبَّرِ »
٢٤٦-٢٤٧/١] :

وَجَلَّ الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِنَا حُسْنُ الْعَزَاءِ وَقَدْ جُلِينَا قَبِيحُ
فَيْدُ مُسْلَمَةٍ وَطَرْفُ شَاخِصٍ وَحَشَى تَذُوبُ وَمَذْمَعُ مَسْفُوحُ
يَجِدُ الْحَمَامُ وَلَوْ كَوَجْدِي لَانْبَرَى شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الْحَمَامِ يَنْوَحُ

(١) أي : لم تكن نرى تلك الفتيات الجميلات إلا بوصف الواصفات .

(٢) رفرق الماء : صبهُ ، وكذا الدمعُ .

وقال بشار [من البسيط] :

إِنَّ الْوَدَاعَ مِنَ الْأَخْبَابِ نَافِلَةٌ لِلظَّاعِنِينَ إِذَا مَا يَمُمُّوْا بَلَدًا
وَلَسْتُ أَذْرِي إِذَا شَطَّ الْمَزَارُ بِهِمْ هَلْ تَجْمَعُ الدَّارُ أَمْ لَا نَلْتَفِي أَبَدًا ؟

وقال آخر [من الوافر] :

تَمَتَّعَ مِنْ حَبِيْبِكَ بِالْوَدَاعِ فَمَا بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنْ اجْتِمَاعِ
فَلَمْ أَرْ فِي الَّذِي لَا قَيْتُ شَيْئًا أَمْرٌ مِنَ الْفِرَاقِ بِلَا وَدَاعِ

ومنهم من يكرهه ؛ لِمَا يَقْدَحُ مِنَ الزُّنَادِ ، ويفتت من الأكباد ،

قال أبو عبادَةَ [في «ديوانه» ٣/ ١٤٩٥-١٤٩٦ من مجزوء الكامل] :

لَا تَغْدِلْنِي فِي مَسِيْدٍ سِرِّي يَوْمَ سِرْتُ وَلَمْ أَلَاقِكَ
فَلَقَدْ خَشِيتُ مَوَاقِفًا لِلْبَيْنِ تَسْفُحُ غَرْبَ مَا قِكَ^(١)
وَذَكَرْتُ مَا يَجِدُ الْمُوْدُ عُنْدَ ضَمِّكَ وَأَعْتِنَا قِكَ
فَرَكْنْتُ ذَاكَ تَعْمُدًا وَخَرَجْتُ أَهْرُبُ مِنْ فِرَاقِكَ

القسم الثاني يكرهه
ويقول درة المفسد
مقدم على جلب
المصالح

وقال آخر [في «قرى الضيف» ٣/ ٣٤٤ من مجزوء الكامل] :

لَا تَرْكَنْنِ إِلَى الْوَدَاعِ وَإِنْ سَكَنْتَ إِلَى الْعِنَاقِ
فَالشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا تَصْفَرُّ مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ

وهذا هو الأحرى بالقبول ، والأسعد بالدليل ؛ إذ له أصل
يتمشى عليه من قواعد العلم عندنا ، وهو : أَنَّ ذَرَّةَ الْمَفَاسِدِ أَوْلَى مِنْ
جَلْبِ الْمَصَالِحِ^(٢) ، فتعين دفع الأرجح من مفسد الاضطراب
والاحتراق ، على ما لا يبلُ لوعة ، ولا يشفي غليلاً ، من آثار اللثم

(١) القرب: الدمع . المائق : مجرى الدمع من العين أي من طرفها مما يلي الأنف .

(٢) هذه قاعدة فقهية مشهورة .

والعناق ، وهذا كله عند الرضا ، أمّا مَنْ لَمْ يَقْرُبْ مِنْ الْبَعْدِ ، إِلَّا
عِنْدَ الْوَدَاعِ . فأولّٰى بِهِ أَنْ يَحْرَصَ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَا سَقْنَاهُ مِنْ
كَلَامِ الشُّعْرَاءِ لَمْ يَتَوَارَدُ أَكْثَرُهُ عَلَى نَقْطَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَمِمَّا جَاءَ فِي مَطْلَقِ الْوَدَاعِ ، قَوْلُهُ - أَعْنِي النَّاطِمَ - [فِي « الْمَكْبَرِيِّ » مَا جَاءَ فِي الْوَدَاعِ
٣٠٨٣٠٧/٢ مِنَ الطُّوِيلِ] :

وَلَمْ أَرَ كَالْأَلْحَاطِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ بَعَثَنَ بِكُلِّ الْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقٍ
أَدْرَنَ عُيُونَنَا حَايِرَاتٍ كَأَنَّهَا مُرْكَبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زُنْبُقٍ
عَشِيَّةَ يَغْدُونَا عَنِ النَّظَرِ الْبُكَاءِ وَعَنِ لَذَّةِ التَّوَدُّيعِ خَوْفُ التَّفَرُّقِ
وِغَالِبُ ظَنِّي أَنْ قَدْ ذَكَرْتُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ ، أَنَّ الْأَخِيرَ مِنْ
قَوْلِ النَّمِيرِيِّ [كَمَا فِي « دِيوان الحماسة » ١٤٢/٢ مِنَ الطُّوِيلِ] :

نَظَرْتُ كَأَنِّي مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ إِلَى الرِّبْعِ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ أَنْظُرُ
وَقَالَ النَّاطِمُ أَيْضاً [فِي « الْمَكْبَرِيِّ » ٢٩٥/٢ مِنَ الْوَافِرِ] :

نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ وَالْعَيْنُ شَكْرِي فَصَارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقَا^(١)
وَقَدْ أَخَذَ التَّمَامَ الْبَذْرُ فِيهِمْ وَأَعْطَانِي مِنَ السَّقَمِ الْمَحَاقَا
وَبَيْنَ الْفَرْعِ وَالْقَدَمَيْنِ نُورٌ يَقُودُ بِلاَ أَرْمَتَهَا الْنِيَاقَا
وَقَالَ [فِي « الْمَكْبَرِيِّ » ٣٤٢/٢ مِنَ الطُّوِيلِ] :

وَقَفْنَا وَمِمَّا زَادَ بَئَا وَقُوفُنَا فَرِيقِي هَوَى : مِنَّا مَشُوقٌ وَشَائِقُ
وَقَدْ صَارَتْ الْأَجْفَانُ قَرْحَى مِنَ الْبُكَاءِ وَصَارَ بَهَاراً فِي الْأَحْدُودِ الشَّقَائِقُ^(٢)

(١) العينُ الشكرى : الممتلئة بالدمع .

(٢) البهَّارُ : زهرٌ أصفر . الشَّقَائِقُ - جمعُ شَقِيقَةٍ - : وهي زهرٌ أحمرٌ ينسبُ إلى
النعمانِ .

وقال بعضهم [من البسيط] :

غداً أودعُ قوماً أودعُوا كيدي نارا وَعَهْدِي بِهِمْ بَرْداً عَلَى الْكَيْدِ
أُبْدِي التَّجَلْدَ أَخِياناً فَيَهْزُنِي رِنَقُ يَجْفُ وَخَدْ بِالْذُمُوعِ نَدِي
لَا أَنَسَ يَوْمَ تَنَازَعْنَا حَدِيثَ نَوَى وَقَوْلَهَا وَهِيَ تَبْكِي : خَانَنِي جَلْدِي
فَدَمَعُهَا بَرْدٌ فَوْقَ الْعَفِيقِ جَرَى وَرَيْقُهَا ضَرْبٌ قَدْ شَبَّ بِالْبَرْدِ^(١)
كُنَّا إِلَى الْوَصْلِ قَدْ مِلْنَا فَنَقَصَهُ هَذَا الرَّحِيلُ الَّذِي مَا دَارَ فِي خَلْدِي

وقال آخر [في « المستطرف » ٤٦/٢١ من الكامل] :

لَمَّا التَّقِينَا لِلْوَدَاعِ وَأَعْرَبَتْ عَبْرَاتِنَا عَنَّا بِدَمْعِ نَاطِقِ
فَرَقْنَا بَيْنَ مَحَاجِرٍ وَمَعَاجِرٍ وَجَمَعْنَا بَيْنَ بَنَفْسِجٍ وَشَقَاقِقِ

وقال أبو بكر الزبيدي الإشبيلي [في « نفع الطيب » ٧/٤ من مغلغ

البسيط] :

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ مِنْ عَذَابٍ أَشَدَّ مِنْ وَقْفَةِ الْوَدَاعِ
مَا بَيْنَهَا وَالْجَمَامِ فَرْقٌ لَوْلَا الْمُنَاحَاةُ وَالنَّوَاعِي
إِنْ يَفْتَرِقُ شَمْلُنَا وَشَيْكَا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ ذَا اجْتِمَاعِ
فَكُلُّ شَمْلٍ إِلَى فِرَاقٍ وَكُلُّ شَغْبٍ إِلَى أَنْصَادِ

قصائد للمؤلف في ولي في الوداع ما تُشَقُّ بِهِ الْأَسْمَاعُ ، منه قولِي [من الكامل] :

الوداع

وَدَعْتُهُمْ وَكَتَمْتُهُمْ خَبَرَ النَّوَى وَالْحَالُ أَنِّي بِالتَّكْثُمِ وَائِقُ
لَكِنْ ضَعُفْتُ عَنِ الْهَوَى فَبَادَرْتُ مِنْ مَحْجَرِي عَلَى الْخُلُودِ سَوَابِقُ ؟
قَالُوا : تَفَارِقْنَا وَأَنْتَ حَيَاتُنَا مَاذَا يَكُونُ الْحَالُ حِينَ تَفَارِقُ

(١) الضَّرْبُ : العسل الأبيض .

فَعَيِّتُ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ لِأَنَّهُ
وَأَرَابَهُمْ وَجَلِسِي وَلَكِنِّي وَإِنْ
فَعَصَرْتُ عَيْنِي مُوْهِمًا فِيهَا قَدْ
قَدْ كَادَ يَفْضَحُنِي نَشِيجُ خَانِقُ
خَارَتْ قُوَى جَلْدِي بِقَيْتِ أُسَارِقُ
وَأَرَيْتُهُمْ أَنِّي بِرَيْقِي شَارِقُ

وَقَوْلِي [كما في «ديوان المؤلف» ق ٣٩-٤٠ من الطويل] :

فَقُورًا رَيْنَمَا تُزَوِّي الْمَطَايَا عَلَى مَهْلٍ
وَمَا غَرَضِي نَفْعُ الرِّكَابِ وَإِنَّمَا
فَلَمْ تُجِدْنِي نَفْعًا وَمَا بَزْدُ نَسْمَةٍ
وَأُمِّ رِثَالٍ سَبَّحَتْ بِدُمُوعِهَا
وَلَمَّا رَأَوْا مَا قَدْ عَرَاهَا تَحَدَّرَتْ
وَلَا دَمْعَةً إِلَّا لَهَا بِفُرَادِهَا
يُذِيبُ الْجَوَى أَحْشَاءَهَا فَتَكَادُ مِنْ
وَمَا عِنْدَهَا مِنْ حَسْرَةٍ وَصَبَابَةٍ
أَوْدَعُهُمْ وَالْعَيْنُ شَكْرَى وَرَبِّمَا
عَدَانِي الْبُكَاءُ تِلْكَ الْغَدَاةُ عَنِ الْحَيَا
صَلِيبُ حَصَاةٍ فِي الْخُطُوبِ وَإِنَّمَا
فَمَا أُنْسَ مِ الْأَشْيَاءِ لَمْ أُنْسَ سَاعَةً
تَنَاسَبَتْ الْأَضْدَادُ حَتَّى تَمَازَجَتْ
تُرَاجِعُنِي عَذْبُ الْكَلَامِ بِلَهْجَةٍ
لَهَا غَايَةٌ مِنِّي تُرِيدُ بُلُوغَهَا

وَتَرْتَاخُ فِي الْأَعْطَانِ مِنْ ذَلِكَ السَّهْلِ
لَأُطْفِئَ مِنْ بَثْنِي بِرَائِحَةِ الْأَهْلِ
عَلَى كَيْدِ حَرَى مَرَا جِلْهَا تَغْلِي
وَلَا قَطْرَةً إِلَّا تَصُوبُ عَلَى طِفْلِ^(١)
مَدَامِعُهُمْ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ كَالْوَبْلِ
عَلَى مَا بِهَا وَخَزُ الْأَسِنَّةِ وَالنَّبْلِ
لَوَاعِجَهَا تَجْرِي عَلَى الدَّمْعِ فِي الْكُحْلِ
كَمِثْلِ اللَّذِي بِي حَذُوكَ التَّلْعِ بِالتَّلْعِ
تَنْدَى بِهَارِ الْخَدِّ مِنِّي عَلَى الْبُخْلِ
وَكَانَ عَلَى رَأْيِي حَرَامًا عَلَى مِثْلِي
رَأَيْتُ مَذَاقَ الْبَيْنِ أَشْوَى مِنَ الْقَتْلِ
عَرَفْنَا الْهَوَى فِيهَا عَلَى غُصَّةِ الثُّكُلِ
مَرَارَةٌ ذَاكَ الثُّكُلِ فِي لَذَّةِ الْوَصْلِ
يَمِيلُ بِهَا فِيهَا النَّشِيجُ إِلَى الْمَطْلِ
فَيَقْطَعُهَا عَنْهَا إِذَا شَرَعْتَ تُمْلِي

(١) رِثَال : جمع الرّال ، وهو فرخ النعام حتى يأتي عليه حول . الطّفّل : الرخص
الناعم الرقيق ، وطفّلت الشمس : مالت للغروب .

وَمِنْ بَعْدِ جُهْدٍ غُيِّضَتْ عِبْرَاتُهَا وَمَا فَعَلْتُ إِلَّا وَقَدْ سَلَبَتْ عَقْلِي
تَقُولُ : وَقَدْ تَنَبَّيْنَا أَتْرُكُنَا كَذَا فَرَادَى لَدَى الْأَعْدَاءِ فِي الْبَلَدِ الْمَخْلِ
فَقُلْتُ : ثِقِي بِاللَّهِ فَهُوَ حَسِينُنَا وَحَافِظُنَا سُبْحَانَهُ الْجَامِعُ الشَّمْلِ
قَطَعْنَا مِنَ النَّاسِ الرَّجَا فَتَأَكَّدَتْ رَوَابِطُنَا بِالْفَائِضِ الْجُودِ وَالْفَضْلِ
وَلَا شَيْءَ كَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ يُعَزِّي لَدَى سُودِ التَّوَائِبِ بَلْ يُسَلِّي
وَهِيَ طَوِيلَةٌ ، وَكُلُّهَا مِنْ هَذَا النُّوعِ ، وَفِي هَذَا الْقَدْرِ مِنْهَا
الْكَفَايَةُ .

* * *

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المَتْنَبِيُّ فِي « العُكْبَرِيِّ » ٢٣٧/٢ مِنْ الطُّوِيلِ] :

أَنْتَ زَائِرٌ مَا خَامَرَ الطَّيِّبُ ثَوْبَهَا وَكَأَلِمْسِكَ مِنْ أَرْذَانِهَا يَتَضَوُّعٌ

يَصِفُ خَيَالَهَا السَّارِي إِلَيْهِ ؛ بِدَلِيلِ الْبَيْتِ الَّذِي لَمْ نَذْكُرْهُ قَبْلَهُ ، رَائِحَةُ الْحَبِيبِ أَجْمَلُ
وَيَقُولُ : إِنَّهُ جَاءَ ، فَنَمَّ بِهِ الْعِطْرُ ، وَتَأَرَّجَ بِهِ الْمَكَانُ ، مَعَ أَنَّهَا لَمْ
تَتَعَطَّرْ ، وَلَوْ أَنَّهَا كَانَ يَصِفُ زِيَارَتَهَا بِنَفْسِهَا . . لَصَحَّ أَنْ يَقُولَ :
مَا خَامَرَ الطَّيِّبُ ثَوْبَهَا ، فَأَمَّا وَالْحَالُ أَنَّهُ لَا يَصِفُ إِلَّا خَيَالَهَا ، فَلَا
وَجَهَ لَذِكْرِ الثَّوْبِ ، لَكِنَّهُ اخْتَلَطَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ ، وَاسْتَنَوَقَ لَدَيْهِ
الْجَمَلُ ، وَامْتَزَجَتِ الْيَقِظَةُ بِالْمَنَامِ ، وَاشْتَبَهَتِ الْحَقَائِقُ بِالْأَحْلَامِ ،
وَأَصْلُ الْمَعْنَى . . قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ [فِي « الْمُسْتَرْفِ » ١٢٧/١ مِنْ الطُّوِيلِ] :
أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ زَائِرًا وَجَدْتُ بِهَا طِينًا وَإِنْ لَمْ تَطِيبْ
وَخَرَجَ كَثِيرٌ - عَلَيْهِ مُطَرَفٌ خَزٌّ^(١) - مِنْ عِنْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ ،
فَاعْتَرَضَتْهُ عَجُوزٌ ، مَعَهَا نَارٌ فِي رَوْثَةٍ ، فَتَأَفَّفَ مِنْهَا ، فَقَالَتْ لَهُ أَلَسْتَ
الْقَائِلَ [كَمَا فِي « دِيوانه » ١٤٧ مِنْ الطُّوِيلِ] :

فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزَنِ دَبَّجَهَا الْحَيَا يَمُجُّ اللَّذَى جَنَاجُثُهَا وَعَرَارُهَا^(٢)
بِأَطْيَبِ مَنْ أَرْذَانِ عَزَّةٍ مَوْهِنَا إِذَا أُوقِدَتْ بِالْمَنْدَلِ الرُّطْبِ نَارُهَا^(٣)

(١) الْمُطَرَفُ : رِداءٌ مِنْ خَزٍّ .

(٢) الْحَزَنُ : الْأَرْضُ الْغَلِيظَةُ . يَمُجُّ : يَرْمِي . الْجَنَاجِثُ : رِيحَانَةٌ طَيِّبَةُ الرِّيحِ
بَرِّيَّةٌ . الْعَرَارُ : الْبَهَارُ الْبَرِّيُّ ، طَيِّبُ الرَّائِحَةِ .

(٣) الْأَرْدَانُ : أَطْرَافُ الْأَكْمامِ ، كَانَتْ تَضَعُ الْعَرَبُ فِيهَا الدَّرَاهِمَ . مَوْهِنًا : الطَّرْفُ =

فَقَالَ لَهَا : نَعَمْ ، فَقَالَتْ : لَوْ وَضَعْتَ الْمَنْدَلَ عَلَى مِيمُونَةَ الزَّنْجِيَّةِ ،
أَوْ هَذِهِ الرُّوْتَةَ . . لظَهَرَ لَهَا عَرْفُ طَيْبٍ ، هَلَّا قُلْتَ : كَمَا قَالَ أَمْرُؤُ
الْقَيْسِ : - تَعْنِي بَيْتَهُ السَّابِقَ - فَأَنْكَسَرَ ، وَأَعْطَاهَا الْمُطْرَفَ ^(١) .

وَيُرْوَى [فِي «الْأَغَانِي» ٢٧٥/١٥] : أَنَّهُ أَنْصَرَفَ وَهُوَ يَقُولُ [مِنْ الْكَامِلِ] :

الْحَقُّ أَبْلَجُ لَا يَخِيلُ سَبِيلُهُ وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ أُولُوا الْأَخْلَامِ
وَقَالَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ فِي قَوْلِهِ : (إِذَا أَوْقَدْتَ بِالْمَنْدَلِ الرَّطْبَ) :
إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَمَامِ وَصْفِ الرُّوْتَةِ ، وَقَدْ حَصَلَ بَيْنَ الْقَسَمِينَ التَّقْدِيمُ
وَالتَّأْخِيرُ ؛ لِضَيْقِ الْوِزْنِ ، وَهُوَ تَأْوِيلُ بَغِيضٍ ، لَا يَقُولُهُ وَلَا يَقْبَلُهُ إِلَّا
مَنْ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى بَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ ، وَلِئِنْ عَيَّبَ عَلَيْهِ فِي هَذَا . . فَقَدْ
قَالَ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَمَا نُطْفَةُ كَانَتْ سُلَالَةً بَارِقٍ نَمَتْ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ ثُمَّ اسْتَقَلَّتْ
بِأَطْيَبِ مِنْ أَنْيَابِ عَزَّةَ بَعْدَ مَا حَدَا اللَّيْلُ أَعْقَابَ الْتُجُومِ فَوَلَّتْ

وَمَعْنَى الْبَيْتِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ مُتَكَرِّرٌ عِنْدَ النَّازِمِ ، مِنْهُ قَوْلُهُ [فِي
الرَّوَاثِ الْمُسْكِيَّةِ تَفَضُّحَ صَاحِبِهَا وَلَوْ تَخَبُّاً «الْعُكْبَرِيُّ» ١٣/١ مِنْ الْكَامِلِ] :

قَلْتُ أَلْمَلِيحَةَ وَهِيَ مِنْكَ هَتَكُهَا وَمَسِيرُهَا بِاللَّيْلِ وَهِيَ ذُكَاءٌ ^(٢)

= الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ . الْمَنْدَلُ : الْعُودُ الطَّيِّبُ الرَّائِحَةِ .

وَالْمَعْنَى : فَمَا رَوْضَةٌ بِالْأَرْضِ الْغَلِيظَةِ الصَّخْرِيَّةِ ، طَيِّبَةِ الزَّرْعِ ، يَفُوحُ نَدَى
رِيحَانِهَا الْبَرِّيِّ ، وَطَيْبِ رَائِحَةٍ بِهَارِهَا ، بِأَطْيَبِ وَأَزْكَى مِنْ رَائِحَةِ أَطْرَافِ أَكْصَامِ
عَزَّةَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ وَقَدْ أَشْعَلَتْ نَارَهَا بِأَعْوَادِ الْمَنْدَلِ الطَّيِّبِ الرَّائِحَةِ .

(١) «الْأَغَانِي» (٢٧٥/١٥) .

(٢) ذُكَاءٌ : أَسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الشَّمْسِ .

وقال النميري [الماكي في «ديوانه» ٥٨ من الطويل] :

وَمَا مُزْنَةٌ جَاءَتْ فَأَسْبَلَ وَذَقَهَا عَلَى رَوْضَةٍ رِيحَانُهَا قَدْ تَخَصَّدَا
كَأَنَّ تِجَارَ الْهِنْدِ حَلُّوا رِحَالَهُمْ عَلَيْهَا طُرُوقاً ثُمَّ حَلُّوا بِهَا الْغَدَا
بَاطِبٍ مِنْ ثَوْبَيْنِ تَأْوِي إِلَيْهِمَا سَعَادُ إِذَا نَجْمُ السَّمَائِينَ غَرَّدَا^(١)

وقال آخر [من الخفيف] :

دُرَّةٌ كَيْفَ مَا أُدِيرَتْ أَضَاءَتْ وَمَشَمُّ مِنْ حَيْثُ مَا شُمَّ فَاحَا

وقال بشار [من المديد] :

وَتَوَقَّ الطَّيْبَ لِيَلْتَنَّا إِنَّهُ وَاشٍ إِذَا سَطَعَا

وقال أبو عبادَةَ [في «ديوانه» ١/ ١٥٠ من المتقارب] :

وَكَانَ الْعَيْرُ بِهَا وَاشِيَاً وَجَزَسُ الْحَلِيِّ عَلَيْهَا رَقِيَاً
وقد سبق في المجلس الأول بعض قول علي بن جبلة [في «ديوانه»

٧٦ من الرَّمَل] :

بِأَبِي مَنْ زَارَنِي مُكْتَتِمَاً حَذِرَاً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَرَعَا
طَارِقٌ نَمَّ عَلَيْهِ نُورُهُ كَيْفَ يُخْفِي اللَّيْلُ بَذْرَاً طَلَعَا ؟
رَصَدَ الْخُلُوءَ حَتَّى أَمْكَنْتَ وَرَعَى السَّاهِرَ حَتَّى هَجَعَا
كَابَدَ الْأَهْوَالَ فِي زَوْرَتِهِ ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّى وَدَّعَا

ولئن لم تتصل هذه بيت البحث . . فإنها متصلةً ببيت الذي
سقناه شاهداً له ، وقد كان سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب -

(١) السماكين : نجمان نيران . غرود النجم : إذا ارتفع .

رضي الله عنهم - يطرب كثيراً كلما غناه أشعب بهذين [كما في « البداية والنهاية » ١١٢/١٠ من الطويل] :

أَلَمْتُ بِنَا وَاللَّيْلُ دَاجٍ كَأَنَّهُ جُنَاحُ غُرَابٍ عَنْهُ قَدْ نَفَضَ الْفَطْرَا
فَقُلْتُ : أَعْطَارُ نَوَى فِي رِحَالِنَا ؟ وَمَا أَخْتَمَلْتُ لَيْلَى سِوَى عَرْفِهَا عِطْرَا

وقالت إحدى صواحب أم زرع [كما في « البخاري » (٥١٨٩) من مجزوء الرجز] :

الْمَسُّ مَسُّ أَزْنَبٍ وَالرَّيْحُ رِيحُ زَرْزَبٍ
وقال أبو المطاع ابن ناصر الدولة [في « نفع الطيب » ٤١٥/٣ من البسيط] :

ثَلَاثَةٌ مَنَعَتْهَا مِنْ زِيَارَتِهَا وَقَدْ دَجَى اللَّيْلُ خَوْفَ الْكَاشِحِ الْحَقِيقِ
صَوْتُ الْجَيْنِ وَمَوَاسُ الْحُلِيِّ وَمَا يُفْزَحُ مِنْ عَرَقٍ كَالْعَنْبَرِ الْعَبِيقِ
هَبَهَا الْجَيْنِ بِفَضْلِ الْكُمِّ تَسْتُرُهُ وَالْحُلِيِّ تَزْرَعُهُ مَا أَلْشَانُ فِي الْعَرَقِ ؟

وقلت - أنا - في مطلع قصيدة نبوية [كما في « ديوان المؤلف » ٦٩ من الكامل] :

زَارَتْ وَقَدْ جَنَحَ الظَّلَامُ بِلاَ حِذَا عُطْلاً مُنْقَبَةً فَنَمَّ بِهَا الشَّدَا^(١)
فتراني أستوفيت ما في الثلاثة الأبيات ، وزدت عليها ، في بيت

(١) جَنَحَ الظَّلَامُ : أقبل . بلا حِذَا : حافية حتى لا يظنن إليها أحد . العُطْل من النساء : الخالية من الحلي ، إمّا لأنها استغنت بجمالها عن الحلي ، وإمّا للخوف من أن يُسمَعَ صوتُ الحلي . منقبة : ذات نقاب . نَمَّ : أعلن وباح . الشدا : ذكاء الرائحة الطيبة .

واحد ، بلا إعناتِ فكرٍ ، ولا إرهاقِ رويّةٍ ، مع صعوبةِ القافية ،
ورقة الانسجام .

وقلتُ في مطلع قصيدة إماميّة [كما في «ديوان المؤلف» ٤٩٣ من الطويل] :

تَرْكَنَ الْحُلَى وَأَجْتَزَنَ وَاللَّيْلُ جَانِحُ فَنَمْتُ بِمَا تَحْتَ السُّتُورِ الرِّوَائِحُ
نَوَاعِمُ لَوْلَا الْخُمُرُ لَانْكَشَفَ الدُّجَى مَرَزَنَ حَوَالَيْنَا وَهُنَّ سَوَائِحُ
سَلَبَنَ الْكُفَى لَمَّا تَمَایَلَنَ وَأَنْشَى بِحُسْرَتِهِ مِنْهُنَّ غَادٍ وَرَائِحُ
وَمَا صَانَنَا عَنْ سِحْرِهِنَّ سِوَى هَوَى بِهِ مُلِثْتُ مِنْ قَبْلِهِنَّ الْجَوَائِحُ

ومما يتعلق بطيب النكهة قول جرير [في «ديوانه» ٩٩٠ من الكامل] :

طيب النكهة يدخل في
الموضوع

تَجْرِي السَّوَاكُ عَلَى أَغْرَ كَأَنَّهُ بَرْدٌ تَحَدَّرَ مِنْ مُتُونِ غَمَامِ
وقول ابن الرُّوميّ وقد ادّعى أنَّ محبوبه رَوْضُ الْحُسَنِ ، وهو
منقطع النّظير [في «ديوانه» ٩٠٧ من الطويل] :

كَذَلِكَ أَنْفَاسُ الرِّيَاضِ بِسَحْرَةٍ تَطِيبُ وَأَنْفَاسُ الْوَرَى تَتَغَيَّرُ
وقال التّهاميّ [من البسيط] :

لَوْ لَمْ يَكُنْ أَقْحَوَانًا نَغْرُ مَبْسَمِهَا مَا كَانَ يَزْدَادُ طِيبًا سَاعَةَ السَّحْرِ
وقال المعريّ [من الطويل] :

وَقَدْ بَلَغَتْ سِنَّ الْكَعَابِ وَقَابَلَتْ بِنِكَهَةِ مَعْقُودِ السَّخَابِينِ مُرْضَعُ

ويذكر عن بعض بني أميّة : أَنَّهُ عَابَ عَلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ شَيْبَ
شاربه ، وقال إِنَّهُ دَلِيلُ التَّرْقِي^(١) ، فقال لَهُ الْحَسَنُ : كَلَّا ،
ولكن النساء تتعلّل بأنفاسنا ، فيسرعن إلى شواربنا الشيب ،

(١) التَّرْقَى : الخفة والطيش .

وَتَنْصَرِفُ نَسَاؤُكُمْ بِأَنْوَفِهَا إِلَى أَصْدَاغِكُمْ ؛ لِبَخْرِكُمْ ، فَيَكُونُ شَيْبُكُمْ هُنَاكَ .

عبد الملك بن مروان
كان أبخر يسقط الذباب
عن فمه
[كما في « ثمار القلوب » ٧٥] : أَبَا الذَّبَّانِ .

وَكَانَتْ عِنْدَهُ لِبَابَةٌ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَكَلَ مِنْ تَفَاحَةٍ ، وَرَمَى بِهَا إِلَيْهَا ، فَأَخْرَجَتْ مَكَانَ فِيهِ بِالسُّكَّيْنِ ، وَأَكَلَتْ الْبَاقِيَّ ، فَقَالَتْ : مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَتْ : أَلْقَيْتُ عَنْهَا الْأَذَى ، فَطَلَّقَهَا ، وَتَزَوَّجَتْ بَعْدَهُ بَعْلِيَّ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَكَانَ أَصْلَعَ ، فَبَعَثَ عَبْدُ الْمَلِكِ أَمْرَاءَ تَكْشِفُ رَأْسَهُ بِحَضْرَتِهَا ، فَفَعَلَتْ ، فَعَرَفَتْ لِبَابَةَ الْخَبَاءِ ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ : قُولِي لَهُ : أَصْلَعُ مِنْ بَنِي عَمِّي . . خَيْرٌ مِنْ أَبْخَرَ مِنْ بَنِي أُمِّيَّةَ ، فَمَا زَالَ يَتَطَلَّبُ الْأَعْثَرَاتِ لِعَلِّي حَتَّى جَلَدَهُ ، وَطَافَ بِهِ عَلَى جَمَلٍ ، وَرَأْسُهُ مِمَّا يَلِي الذَّنْبَ .

البَّخَرُ وما يتعلق به
وَبَيْنَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَعْصُ لَيْلَةً . . إِذْ سَمِعَ أَمْرَاءَ تَقُولُ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَمِنْهُمْ مَنْ تُسْقَى بِعَذَبٍ مُبَرَّدٍ تَفَاحٍ فَيَلْكُمُ عِنْدَ ذَلِكَ قَرَّتِ (١)
وَمِنْهُمْ مَنْ تُسْقَى بِأَخْضَرِ آجِنٍ أَجَاجٍ فَلَوْلَا خَشْيَةُ اللَّهِ فَرَّتِ
فَاسْتَدْعَى زَوْجَهَا ، فَإِذَا هُوَ أَبْخَرُ ، فَخَلَعَهَا مِنْهُ .

وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتَزِ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَإِنَّ أَمْرًا يَقْوَى عَلَى لَثَمِ ثَغْرِهِ عَلَى الضُّغْطِ وَالتَّعْذِيبِ فِي قَبْرِهٍ يَقْوَى

(١) التَّفَاحُ : الْمَاءُ الْبَارِدُ الْعَذْبُ الصَّافِي الْخَالِصُ ، الَّذِي يَكَادُ يَنْقُحُ الْفَوَادُ وَيَكْسِرُهُ بِيَرْدِهِ .

وقالت أخرى « كما في » ديوان الحماسة « ٢٢٩/٢ من الطويل] :

فَمَا جِنْفُهُ الْخُزْنِيرِ عِنْدَ ابْنِ مُقْرَبٍ قَتَادَةَ إِلَّا رِنَحُ مِسْكِ وَغَالِيَةِ

وذكر ابن خلكان « في » وفیات الأعيان « ٣٨٠/٥ : أنه كان ليس كل ما يلمع ذهباً
بـ (أصبهان) رجلٌ حسنُ النعمة ، واسعُ النفس ، كاملُ المروءة ،
يقالُ لهُ : سِمَاكُ بنُ النعمانِ ، وكان يهوى مغنيّةً من أهلِ
(أصبهان) ، لها قَدْرٌ ، تعرفُ بأُمِّ عمرو ، فلإفراطِ صبايئِهِ بها ،
وحبِّهِ لها . . وهبها عدّةً من ضياعِهِ ، وكتبَ على نفسه كتباً بذلك ،
حملها إليها على بغلٍ ، فشاع الخبرُ ، وتحدّث به الناسُ ، وكَبُرُوا
الخبرَ ، وكان بـ (أصبهان) رجلٌ متجلّفٌ بينُ الركَاكَةِ ، يهوى مغنيّةً
أخرى ، فلمّا اتّصلَ به ذلك . . ظنَّ بجهلِهِ وقلةِ عقلِهِ أنَّ سماكاً إنّما
أهدى لأُمِّ عمرو جلوداً بيضاء ، لا كتابَةَ فيها ، وأنَّ هذا من الهدايا
التي تستحسنُ ويجلُّ موقعُها عندَ مَنْ تهدي إليها ، فأبتاعَ جلوداً
كثيرةً ، وحملها إلى عشيقتهِ على بغلين ، فلمّا وصلتها ووقفت على
جليّةِ الأمرِ . . تغَيَّظت عليه ، وكتبتَ إليه رقعةً تشتمُهُ ، وتحلفُ أنّها
لا تكلمُهُ ، وسألت بعضَ الشعراءِ أن يعملَ لها أبياتاً في المعنى ،
ففعَلَ ، وهذه هي الأبياتُ [من مجزوء الكامل] :

لَا عَادَ طَوْعُكَ مَنْ عَصَاكَ	وَحُرِمْتُ مِنْ وَضِلِي مُنَاكَ
فَلَقَدْ فَضَخْتُ الْعَاشِقِينَ	بِقُبْحِ مَا فَعَلْتَ يَدَاكَ
أَرَأَيْتَ مَنْ يُهْدِي الْجُلُودَ	دِإِلَى عَشِيقَتِهِ سِوَاكَ
وَأَظُنُّ أَنَّكَ رُمْتَ أَنَّ	تَخْكِي بِفِعْلِكَ ذَا سِمَاكَ
ذَاكَ الَّذِي أَهْدَى الضُّيَا	عَ لَأُمِّ عَمْرٍو وَالصُّكَاكَ

فَبَعَثْتَ مُنْتَهَى كَأَنَّكَ قَدْ مَسَخَتْ بِهِنَّ فَكَا
 مَنْ لِي بِقُرْبِكَ يَا رَقِيذٍ عٌ وَلَسْتُ أَهْوَى أَنْ أَرَاكَ
 لَكِنْ لَعَلِّي أَنْ أَقْ طَعَمَ مَا بَعَثْتَ عَلَيَّ قَفَاكَ

وَأَنشَدَ الْجَوْهَرِيُّ لَامْرَأَةٍ مِنَ الْعَرَبِ [مِنْ الْبَسِيطِ] :

إِنِّي بُلَيْتُ بِعَذِيوْطٍ لَهُ بَخْرٌ يَكَادُ يَقْتُلُ مَنْ نَاجَاهُ إِنْ كَشَرَا^(١)

وَقَالَ آخَرُ [كَمَا فِي « لِسَانِ الْعَرَبِ » ١٢٨/٣ مِنْ الْبَسِيطِ] :

نَكِهْتُ مُجَالِدًا فَشَمَمْتُ مِنْهُ كَرِيحِ الْكَلْبِ مَاتَ قَرِيبَ عَهْدِ^(٢)
 فَقُلْتُ لَهُ: مَتَى أَسْتَحْدِثُ هَذَا؟ فَقَالَ: أَصَابِي فِي جَوْفٍ مَهْدِي

وقد مرَّ كثيرٌ ممَّا يتَّصِلُ بموضوعِ النكهةِ والطيبِ ، عندَ الكلامِ
 على قولِهِ [في « المُكَبَّرِيِّ » ١٦٤/٣ مِنْ الْبَسِيطِ] :

يُجَرُّ شَوْقًا فَلَوْلَا أَنَّ رَائِحَةَ تَزْوَرُهُ مِنْ رِيَّاحِ الشَّرْقِ مَا عَقَلَا

وقولِهِ [في « المُكَبَّرِيِّ » ٢/٣٣٨] :

وَتَفْوُحُ مِنْ طِيبِ الثَّنَاءِ رَوَائِحُ لَهُمْ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَنَشَقُ

* * *

(١) العَذِيوْطُ : الذي إذا أتى أهله أبْدَى ، أي : سَلَحَ أو أَكْسَلَ .

(٢) نَكِهَتْهُ : أي تَشَمَّمَتْ رِيحَهُ .

المجلس السادس عشر

[قال أبو الطيب المتنبّي في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ٢٣٨ من الطّويل] :

فَمَا جَلَسْتُ حَتَّى أَتَشْتَ تُوسِعُ الْخُطَا كَفَاطِمَةَ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تَرْضَعُ

المعنى ظاهر^(١) ، وقد سبق ما يتعلّق به في المجلس الأوّل ، السرعة في التوديع عند قوله [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ٢٧٩ من الخفيف] :

فَأَفْتَرَقْنَا حَوْلًا وَلَمَّا الْتَقَيْنَا كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعًا

ونقول هنا : إنّ الزائر ربّما يتعمّد ترك الإطالة ؛ لإفضائها إلى الطباع البشرية غريبة الملاّة ، وقد قال الخوارزمي [في «ديوانه» ٣٨٢ من الوافر] :

وَمَا بَيْنِي فَيْكَ مِنْ زُهْدٍ وَلَكِنْ أَخْضَفُ عَنْكَ أَغْبَاءَ الْمَلَالِ

وقال ابن المقفّع - ما معناه - : إذا أقبل عليك إنسان ، فسرّك أن لا يدبر عنك يوماً ما . . فلا تُنعم الإقبال عليه ، والتفتّح له ، فإنّ الناس قد أندمجوا على طبائع لؤم ، يفرون عمّن قرّب منهم ، ويلصقون بمن هرب عنهم .

وكان ابن الخطّاب يضرب الناس على الإقامة بعد الحجّ ، ويقول : كثرة إلف الإنسان للشيء . . تذهب هيته من قلبه .
أخاف أن يأنس الناس بهذا البيت ، فتسقط هيئته من قلوبهم .

(١) أي هي في سرعة توديعها . . كمن فطمت ولدها قبل أن ترضعه .

وما أَتَخَذَتِ الْمُلُوكُ الْحِجَابَ . . إِلَّا حِفْظاً لِلْهِيبَةِ ؛ فَإِنَّ أَجْرَ
النَّاسِ عَلَى السَّبَاعِ الرَّعَاةُ ؛ لِكثَرَةِ مَا يَرَوْنَهَا .

وَكَانَ أَبْنُ عَمَرَ يَطْوِي السُّهُوبَ ، وَيَقْطَعُ الْعُقَابَ^(١) إِلَى
(الْمَدِينَةِ) ثُمَّ يَنْيخُ رَاحِلَتَهُ نَضْواً بِيَابِ الْمَسْجِدِ^(٢) ، وَيَحْيِيهِ ، ثُمَّ
يَقُومُ تَجَاةَ الْقَبْرِ الْأَعْطَرِ ، وَيَقُولُ [بِنَحْوِهِ فِي « الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى » ١٥٦/٤] :
السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، السَّلَامُ عَلَيْكَ
يَا أَبَتِ ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ ، وَيَرْكَبُ مِنْ فَوْرِهِ .

من نوادر الأعمش
ومرض الأعمش فجاءه أبو حنيفة يعوده ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : نَخْشَى أَنْ
نَكُونَ ثَقُلْنَا عَلَيْكَ ، قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ لَأَنْتَ ثَقِيلٌ عَلَيَّ وَأَنْتَ فِي دَارِكَ ،
وَمَا بِأَحَدِ الْإِمَامِينَ بَغْضَةً وَلَا ثَقُلُ ظِلٌّ ، وَلَكِنَّ الْأَعْمَشَ ذَهَبَ إِلَى
التَّنْدُرِ وَالتَّظْرِفِ ، وَالْإِشَارَةِ إِلَى تَفَرُّدِ أَبِي حَنِيفَةَ بِالْفَضْلِ تَفَرُّداً يَثْقُلُ
عَلَى أَقْرَانِهِ - وَهُوَ مِنْهُمْ - أَحْتِمَالُهُ .

وَيَذْكُرُ : أَنَّهُ حَلَفَ بِطَلَاقِ أَمْرَأَتِهِ إِنْ أَخْبَرَتْهُ بِنِفَادِ الدَّقِيقِ ، أَوْ
كَتَبَتْ إِلَيْهِ ، أَوْ بَعَثَتْ الْخَادِمَ يَخْبِرُهُ ، فَاسْتَفْتَتْ أَبَا حَنِيفَةَ ؟ فَقَالَ
لَهَا : إِذَا نَامَ . . فَارْبِطِي بِذِيْلِهِ كَيْسَ الدَّقِيقِ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ أَنَّهُ فَرَّغَ ،
مِنْ غَيْرِ أَنْ تَطْلُقِي ، فَفَعَلَتْ ، فَعَرَفَ أَنَّهَا مِنْ كَيْسِ أَبِي حَنِيفَةَ ،
فَقَالَ : قَاتَلَهُ اللَّهُ ، لَقَدْ فَضَحْنَا حَتَّى عِنْدَ أَزْوَاجِنَا .

من نوادر الشعبي
وقد ذكرنا في غير هذا المجلس عَنِ الشَّعْبِيِّ : أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ فِي
إِبْلِ لَهُ جَرَبَاءُ ، فَقَالَ لَهُ : أَلَا تَعَالِجُهَا ؟ قَالَ : لَا ، وَإِنَّمَا لَنَا عَجُوزٌ
نَتَكَلَّمُ عَلَى دَعَائِهَا ، فَقَالَ : أَجْعَلْ مَعَ دَعَائِهَا شَيْئاً مِنَ الْقَطِرَانِ .

(١) الْعُقَابُ : الْمَرْقَى فِي عَرْضِ الْجَبَلِ .

(٢) نَاقَةُ نَضْوٍ : أَرْهَقَتْهَا الْأَسْفَارُ ، وَأَذَابَتْ لَحْمَهَا .

ومرّ بقصّارٍ يقولُ [في « المستطرف » ١/ ٢٢٣] : (فُتِنَ الشَّعْبِيُّ لَمَّا)^(١)
ويقفُ ، فجاءَ إليه ، وما زالَ يكرّرُ عليه الأبياتَ حتّى حفظها .

ومن نوادرِهِ : أنّه مرضَ ، فأبرمَهُ العوّادُ بالسّؤالِ عن مرضِهِ
وسببِهِ ، فلم يكنْ منه إلّا أن كتَبَ رقعةً ، شرحَ فيها القصّةَ ، وعلّقها
فوق رأسِهِ ، فإذا سُئِلَ بعدَ ذلكَ . . قالَ للسّائلِ : أقرأ ما في الورقةِ .

ويروى : أنّ سلَمَةَ بنَ عاصمٍ دخلَ على الفراءِ يعوّدهُ ، فأبرمَهُ ، زيارة المريض
والحَفَ في السّؤالِ ، فأنشدَ الفراءُ [الأبيات في « المستطرف » ٢/ ٥٧١ من
البسيط] :

حَقُّ الْعِيَادَةِ يَوْمٌ بَيْنَ يَوْمَيْنِ وَخِلْسَةٌ مِثْلُ لَحْظِ الطَّرْفِ بِالْعَيْنِ
لَا تَبْرِمَنَّ مَرِيضاً فِي مُسَاءَلَةٍ يَكْفِيكَ مِنْ ذَاكَ تَسْأَلُ بِحَرْفَيْنِ

ومن أمثاله تعرف أطراح السلف للحشمة ، وبراءتهم من التكلف الكلفة تذهب الالفة
والتنطع ، وسيرهم بسوق الطبيعة ، وإنّ أحدهم لخليق بقول الناظم
[في « المعبري » ٢/ ٢٨٧ من الطويل] :

تَفَكَّرُهُ عِلْمٌ وَسِيرَتُهُ هُدًى وَبَاطِنُهُ دِينٌ وَظَاهِرُهُ ظَرْفٌ^(٢)

(١) تَقَدَّمتِ امرأةٌ جميلةٌ إلى الشَّعْبِيِّ ، فأدّعت عندهُ ، فقضى لها ، فقال هُذيلٌ
الأشجعي :

فُتِنَ الشَّعْبِيُّ لَمَّا رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَيْهَا
فَنَتَنَّهُ بَيْنَ يَدَيْنِ كَيْفَ رُؤْيَا مِعْصَمِيهَا
وَمَشَتْ مَشِيئاً رُؤْيَا نُسَمِّ هَزَّتْ مِنْكِيبِيهَا
فَقَضَى جَوْرًا عَلَى الْخَصْصِ لَمْ يَلْمِ يَقْضِ عَلَيْهَا

فتناشدها النَّاسُ ، وتداولوها ، حتّى بلغتِ الشَّعْبِيَّ ، فَضْرِبَ الأشجعي
ثلاثين سوطاً .

(٢) بفتح الظاء الكياسة قال في « تاج العروس » : وبعض المتشدقين يضمون الظاء =

وقوله [في «المكبري» ٧٥/٤ من الوافر] :

يَرُوعُ رَكَانَةً وَيَذُوبُ ظَرْفًا فَمَا تَذِرِي: أَشْنِخْ أَمْ غَلَامٌ^(١) ؟

وترى المترسمين من أبناء زماننا يتوقرون في مجالسهم ،
ويتزهدون عن كثير مما يفعله السلف الطيب ، وقلوبهم أفاحيص
الأحقاد ، وأوكان الأحساد^(٢) .

وسئل النخعي [بنحوه في «المستطرف» ٥٠٢/٢] : أَكَانَ أَصْحَابُ
رسول الله ﷺ يمزحون ؟ قَالَ : نعم ، والإيمان في قلوبهم مثل
الجبال الرواسي ، وكانوا يتمازحون^(٣) ، فإذا خاضوا في الدين ..
انقلبت حماليقهم .

وقال بعضهم : لنا في الدعاة مذهب جميل ، يخرج بنا من
العبوس ، ويلحقنا بأحرار الناس ، الذين ارتفقوا عن لبسة الرياء ،
وأنفوا من التشوف بالتصنع .

ولله در الناظم في قوله [في «المكبري» ٢٢٠/٣ من المنسرح] :

أَفْضَلُ مَا يُطْلَبُ النَّجَاحُ بِهِ الطُّبُّ عٌ وَعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلُّ^(٤)

= فرقا بينه وبين الظرف للوعاء ، وهو غلط محض لا قائل به .

(١) يروع : يفرغ ، الركانة : الوقاء .

(٢) المفحص : هو مجثم القطاة ؛ لأنها تفحصه . والوكن : عش الطائر .

(٣) والمعروف : أنهم كانوا يتباحون ؛ أي : يترامون . والرواية عن بكر بن

عبد الله : « يتمازحون ويتباحون بالطبخ فإذا جاءت الحقائق كانوا هم

الرجال » اهـ « النهاية » ابن الأثير .

(٤) المعنى : إذا فعل الإنسان الشيء بعبادته وجد النجاح فيه ، وإذا بالغ وتعمق ..

أخطأ وزل .

وقال محمد بن كناسة [في «البيان والتبيين» ٥٤٦/١ من المنسرح] :

فِي أَنْفَبَاضٍ وَحِشْمَةٍ فَإِذَا لَقِيتُ أَهْلَ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ
أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُخْتَشِمٍ

وهما بيتان يغبطُهُ عليهما إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، والغبطة
من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ؛ فإنَّهما ليسا منه في الذروة .

وَيَتَّصِلُ بِالْمَوْضُوعِ قَوْلُهُ عليه السلام : « رَزَّ غِبًّا . . تَزْدَدُ حُبًّا » (١) .

وقيل [في «مجمع الأمثال» ٣٢٢/١] : إِنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَهُ مُعَاذُ بْنُ صَرَمٍ زَرْغَبًا . . تَزْدَدُ حُبًّا
الخزاعي ، وكانت أُمُّهُ مِنْ عَكَّ ، وكان فارسَ خِزَاعَةَ ، وكانَ يَكْثُرُ
زِيَارَةَ أَخْوَالِهِ ، فَاسْتَعَارَ مِنْهُمْ فَرَسًا سَابِقَ عَلَيْهِ جَحِيشُ بْنُ سُوْدَةَ عَلَى
الْمَخَاطَرَةِ ، فَسَبَقَهُ وَأَخَذَ فَرَسَهُ ، وَلَمَّا أَخَذَهُ . . أَرَادَ أَنْ يَزِيدَ فِي
إِغَاظَةِ جَحِيشٍ - وَكَانَ لَهُ عَدُوًّا - فَنَحَرَهُ ، فَقَالَ لَهُ جَحِيشٌ : قَتَلْتَ
- لَا أُمَّ لَكَ - فَرَسًا خَيْرًا مِنْكَ وَمِنْ أَبِيكَ ، فَقَتَلَهُ ، وَلَحِقَ بِأَخْوَالِهِ ،
فَرَكِبَ فِي طَلَبِهِ أَخُو جَحِيشٍ وَأَبْنُ عَمِّهِ ، فَقَتَلَهُمَا ، وَقَالَ [مِنْ الطَّرِيلِ] :
قَتَلْتُ جُحَيْشًا بَعْدَ قَتْلِ جَوَادِهِ وَكُنْتُ قَدِيمًا فِي الْحَوَادِثِ ذَا فَتْكَ
وَجُدْتُ لِعَمْرٍو بَعْدَ بَذْرِ بَضْرَبَةٍ فَخَرًّا كَمَا خَرَّ الْعَقِيرُ مِنَ الْكُنْكَ (٢)

(١) أخرجه عن حبيب بن مسلمة الفهري الحاكم في «المستدرک» (٣/ ٣٩٠) وفي
الباب :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار والطبراني في «الأوسط» والبيهقي
في «الشعب» ، وعن ابن عمرو عند الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وعن
عائشة عند الخطيب في «التاريخ» .

(٢) العقيز : المعقور ، وهو المذبوح من النعم التي تُهدى في مناسك الحج .

وَأَقَامَ فِي أَخْوَالِهِ زَمَانًا ، ثُمَّ اخْتَصَمَ مَعَ بَعْضِهِمْ فِي صَيْدِ
أَصْطَادُوهُ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ خَالِهِ : لَوْ كَانَ فِيكَ خَيْرٌ . . . لَمَا تَرَكَكَ
قَوْمُكَ ، فَقَالَ مَعَاذُ : زُرْ غَيْبًا . . . تَزِدُّ وَدًّا ، ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ ، فَأَرَادَ أَهْلُ
الْقَتْلِ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُ بِثَأْرِهِمْ ، فَقَالَ لَهُمْ قَوْمُهُمْ : لَا تَقْتُلُوا فَارِسَكُمْ
وَإِنْ ظَلَمَ ، فَقَبِلُوا مِنْهُ الدِّيَاتِ .

وقد قيل [في « مجمع الأمثال » ١/ ٢٢٣ من الطويل] :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُقْلَى فَزُرْ مُتَوَاتِرًا وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حُبًّا فَزُرْ غَيْبًا

وقال آخر [في « مجمع الأمثال » ١/ ٢٢٣ من الطويل] :

عَلَيْكَ بِإِغْبَابِ الزُّبَارَةِ إِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ كَانَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَسْلَكًا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْغَيْثَ يُسَامُ دَائِمًا وَيُسَالُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَ

وقال أبو تمام [في « ديوانه » ١/ ٢٤٨ من الطويل] :

وَطُولُ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ لِدِينَا جَنَّتِهِ فَأَغْتَرِبَ تَجَدَّدِ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

المحبون أقسام : ثُمَّ المحبون على أقسام :

١- قسم ساقط أَمَّا أَهْلُ الدَّعَاوِي السَّاقِطَةِ ، وَالْأَغْرَاضِ السَّافِلَةِ ، وَالشَّهَوَاتِ

الْبَهِيمِيَّةِ : فَلَا يَحْصُلُ مِنْهُمْ أَلْمِلُ إِلَّا قَبْلَ النَّيْلِ ، ثُمَّ يَحْدُثُ عِنْدَهُمْ
أَلْمَلُّ لِأَدْنَى عَارِضٍ يَخَالِفُ الْهَوَى ، وَقَدْ قَالَ أَسْمَاءُ بْنُ خَارِجَةَ
الْفَزَارِيِّ - وَتَمَثَّلَ بِهِ الْقَاضِي شَرِيعٌ ، وَأَخْطَأَ مَنْ يَنْسِبُهُمَا لِلشَّافِعِيِّ -

[في « جمهرة خطب العرب » ٢/ ٥٠٧ من الطويل] :

خُذْنِي الْعَفْوُ مِنِّي تَسْتَذِينِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقْنِي فِي سَوَرَتِي حِينَ أَغْضَبُ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الْحُبَّ فِي الْقَلْبِ وَالْأَذَى إِذَا أَجْتَمَعَا لَا يَلْبَثُ الْحُبُّ يَذْهَبُ

وَأَمَّا أَهْلُ السُّطَّةِ فِي الْمَحَبَّةِ^(١) : فَكَمَا قَالَ ابْنُ الْمَرْحَلِ الْأَنْدَلُسِيُّ ٢- قسم متوسط

[مِنْ الرَّمَلِ] :

لَوْ يَكُونُ الْحُبُّ وَضَلًا كُلُّهُ لَمْ تَكُنْ غَايَتُهُ إِلَّا الْكَمَلُ
أَوْ يَكُونُ الْحُبُّ هَجْرًا كُلُّهُ لَمْ تَكُنْ غَايَتُهُ إِلَّا الْكَلَلُ
إِنَّمَا الْوَضَلُ كَمِثْلِ الْمَاءِ لَا يُسْتَطَابُ الْمَاءُ إِلَّا بِالْعَلَلِ^(٢)

وَأَمَّا أَهْلُ الْمَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ : فَإِنَّهُمْ كَمَا قَالَ الْأَحْوَصُ [مِنْ الطُّوِيلِ] : ٣- قسم صادق

إِذَا قُلْتُ : إِنِّي مُشْتَفٍ بِلِقَائِهَا فَمِمَّ التَّلَاقِي زَادَ مَا بَيْنَنَا وَجَدًا ؟!

وَقَالَ عَرُوةُ بْنُ أُذَيْنَةَ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١٢٣ مِنْ الْبَسِيطِ] :

المحب دائماً جائع لا

لَا بَعْدُ سَعْدَى مُرِيحِي مِنْ جَوَى سَقَمٍ يَوْمًا وَلَا قُرْبُهَا إِنْ حُمَّ يَشْفِينِي^(٣) يشيع من محبوبه ولا من وصله

وَوَضَّحَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي قَوْلِهِ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٦٠ / ٢٤٧٥ مِنْ الطُّوِيلِ] :

أَعَانِقُهُ وَالنَّفْسُ بَعْدَ مَشُوقَةٍ إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي ؟
وَالشَّمُ فَاهُ كَيْ تَزُولَ حَرَارَتِي فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفَى غَلِيلُهُ سِوَى أَنْ تَرَى الرُّوحَانَ يَمْتَرِجَانِ

وَقَالَ آخَرُ [مِنْ الْبَسِيطِ] :

وَكَذْتُ وَهُوَ ضَجِيعِي أَنْ أَقُولَ لَهُ مِنْ شِدَّةِ الْحُبِّ : قَدْ أَبْعَدْتَ فَأَقْتَرِبْ

(١) السُّطَّةُ : المتوسط .

(٢) الْعَلَلُ : محرقة الشربة الثانية ، أو الشرب بعد الشرب تبعاً .

(٣) الْجَوَى : الحرقه وشدة الوجد من عشق أو حزن . حُمَّ : قرب وحن .

وقال قاضي القضاة ابن جماعة [في «طبقات ابن السبكي» ١٤٢/٩ من

الوافر] :

أَحْسُ إِلَى زِيَارَةِ حَيِّ لَيْلَى وَعَهْدِي مِنْ زِيَارَتِهَا قَرِيبُ
وَكُنْتُ أَظُنُّ قُرْبَ الْعَهْدِ يُطْفِئُ لَهَيْبَ الشَّوْقِ فَأَزْدَادَ اللَّهَيْبِ

ويقرب من هذا قليلاً قول الناظم [في «المكبري» ١٣٦/١ من الوافر] :

سَأْمُضِي وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ مِنِّي مَغْنِي لَيْلَتِي وَغَدَاً إِيَّابِي

وقال بشار يصف شدة العناق [في «ديوانه» ٧٨/٤ من الطويل] :

خَلَوْتُ بِهَا لَا يَخْلُصُ الْمَاءُ بَيْنَنَا إِلَى الصُّبْحِ دُونِي حَاجِبٌ وَسُتُورُ

فأخذه ابن الجهم فقال [في «ديوانه» ٩٥ من الطويل] :

أَلَا رَبُّ لَيْلٍ ضَمَّنَا بَعْدَ هَجْعَةٍ وَأَذْنَى فُؤَاداً مِنْ فُؤَادِ مُعَذِّبِ
وَبَيْنَنَا جَمِيعاً لَوْ تَرَأَوْ زُجَاجَةً مِنْ الْكَرَّاحِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرَبِ

وقال آخر [من البسيط] :

لَا وَالْمَنَازِلِ مِنْ نَجْدٍ وَلَيْلَتِنَا بِالْعَوْرِ إِذْ جَسَدَانَا بَيْنَنَا جَسَدُ
كَمْ رَامَ فِينَا الْكَرَى مِنْ لُطْفِ مَسْلِكِهِ نَوْمًا فَمَا أَنْفَكَ لَا خَدُّ وَلَا عَضْدُ

ويحكي : أن يحيى بن معاذ الرازي كتب إلى أبي يزيد البسطامي
يقول له : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته ، فكتب إليه أبو
يزيد : قد شرب غيرك البحار منها ، فلم يزو ، ولم يزل لسانه
مندلعا ، يقول : هل من مزيد ؟

لا توص حريصاً في
تخفيف الزيارة

وأنشدوا [من الوافر] :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ : ذَكَرْتُ الْفِي وَهَلْ أَنْسَى فَأَذْكُرُ مَا نَسِيتُ ؟

أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ
 شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأْسًا بَعْدَ كَأْسٍ فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَلَا رَوَيْتُ
 وَقَوْلُهُ (أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ . . . إِلَى آخِرِ الْبَيْتِ) قَدْ يَشْبَهُ قَوْلَ
 أَمْرِيءِ الْقَيْسِ [فِي « دِيوانه » ١١٧ مِنْ الطُّوَيْلِ] :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفَسًا
 لَكِنَّ الْفَرْقَ كَبِيرٌ ، وَالْبَوْنَ بَعِيدٌ ، وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ أَنْاسٍ مُشْرِبَهُمْ ،
 وَمَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنْقَسَامِ الْأَحْبَابِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ هُوَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ
 بَعْضِهِمْ [فِي « لِسَانِ الْعَرَبِ » ٣٤٧/١٠ مِنْ الطُّوَيْلِ] :

ثَلَاثَةُ أَحْبَابٍ : فَحُبٌّ عَلاَقَةٌ وَحُبٌّ نِيْمَلًاq وَحُبٌّ هُوَ الْقَتْلُ^(١)

(١) التَّمْلَاقُ : التَّوَدُّدُ .

ذَكَرَ الثَّعَالِبِيُّ فِي « فِقْهِ اللَّغَةِ » مَرَاتِبَ الْحُبِّ فَقَالَ :

أَوَّلُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ الْهُوَى .

ثُمَّ الْعَلَاقَةُ وَهِيَ : الْحُبُّ الْمَلَازِمُ لِلْقَلْبِ .

ثُمَّ الْكَلْفُ وَهِيَ : شِدَّةُ الْحُبِّ .

ثُمَّ الْعِشْقُ وَهِيَ : أَسْمٌ لِمَا فَضَّلَ عَنِ الْمَقْدَارِ الَّذِي أَسْمُهُ الْحُبُّ .

ثُمَّ الشَّقْفُ وَهِيَ : إِحْرَاقُ الْحُبِّ الْقَلْبَ مَعَ لَذَّةٍ يَجِدُهَا .

ثُمَّ الْجَوَى وَهِيَ : الْهُوَى الْبَاطِنُ .

ثُمَّ التَّيْمُ وَهِيَ : أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ الْحُبُّ ، وَمَنْهُ : سُمِّيَ تَيْمُ اللَّهِ ؛ أَيِ : عَبْدُ اللَّهِ ،
 وَمَنْهُ : رَجُلٌ مَتَيْمٌ .

ثُمَّ التَّبَلُّ وَهِيَ : أَنْ يَسْقَمَهُ الْهُوَى ، وَمَنْهُ : رَجُلٌ مَتَبُولٌ .

ثُمَّ التَّنْدِيلُ وَهِيَ : ذَهَابُ الْعَقْلِ مِنَ الْهُوَى ، وَمَنْهُ : رَجُلٌ مَدْلَةٌ .

ثُمَّ الْهُيُومُ وَهِيَ : أَنْ يَذْهَبَ عَلَى وَجْهِهِ لَغَلْبَةُ الْهُوَى عَلَيْهِ ، وَمَنْهُ : رَجُلٌ
 هَائِمٌ .

ويحكى : أَنَّ شيخاً وقفَ ببابِ المهديِّ ، فقالَ لحاجبهِ : أنظرْ
مَنْ بِالْبَابِ ، وما حاجتُهُ ؟ قَالَ : لَا أَذْكَرُ حاجَتِي إِلَّا بَيْنَ يَدَيِ أميرِ
المؤمنينَ ، فطالعهُ بقوله ، فقالَ : أدخله ، ومُرهُ فليخفُفْ ،
فدخلَ ، وسلَّم ، ثُمَّ قَالَ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

إِذَا شِئْتَ خَفَّفْنَا فَكُنَّا كَرِيشَةٍ مَتَى تُلْقِيهَا الْأَنْفَاسُ فِي الْجَوِّ تَذْهَبُ
وَإِنْ شِئْتَ سَلَّمْنَا فَكُنَّا كَرَائِبٍ مَتَى يَقْضِ حَقًّا مِنْ سَلَامِكَ يَغْزُبُ^(١)
وَإِنْ شِئْتَ ثَقَّلْنَا فَكُنَّا كَصَخْرَةٍ مَتَى تُلْقِيهَا فِي حَوْمَةِ الْبَحْرِ تَرْسُبُ
فضحكَ المهديُّ ، وقالَ لَهُ : بَلْ تَكْرُمُ وتَقْضِي حاجتَكَ ،
ووصلَهُ بعشرةِ آلافِ درهمٍ .

وقد أَلَمَّ بِهِ النَّاظِمُ فِي قَوْلِهِ [فِي «الْمَكْبَرِيِّ» ١٩٨/١ مِّنَ الطَّوِيلِ] :

أَخِيفُ سَلَامِي حُبًّا مَا خَفَ عِنْدَكُمْ وَأَسْكُتُ كَيْمًا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

أبو عبيدة النحوي وقدَّم أبو عبيدة النحويُّ على الفضلِ بنِ الربيع ، فقالَ لَهُ [فِي
والفضل بن الربيع «وفيات الأعيان» ٢٤٠/٥] : مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : الرَّاعِي . قَالَ :

وَكَيْفَ فَضَّلْتُهُ عَلَى غَيْرِهِ ؟ قَالَ : لِأَنَّهُ وَرَدَ عَلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ
الرحمنِ الأُمويِّ ، فوصلَهُ فِي يَوْمِهِ ، وَصَرَفَهُ فِيهِ ، فَقَالَ يَصِفُ حَالَهُ
مَعَهُ [فِي «دِيوانِهِ» ٨١ مِّنَ الْوَافِرِ] :

وَأَنْضَاءٍ تَحْنُ إِلَى سَعِيدٍ طَرُوقاً ثُمَّ عَجَلْنَ ابْتِكَاراً
حِمْدَنْ مَنَاخَهُ وَأَصْبَنَ مِنْهُ عَطَاءً لَا قَلِيلَ وَلَا ضِمَاراً^(٢)

(١) يَعْزُبُ : يَبْعُدُ .

(٢) الضَّمَارُ : مَا يَرْجَى مِنَ الدِّينِ وَالْوَعْدِ وَكُلُّ مَا لَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ثَقَةٍ .

فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ : مَا أَحْسَنَ مَا أَقْتَضَيْتَنَا ، ثُمَّ أَسْتَخْرَجَ لَهُ صَلَّةً مِنْ
الرَّشِيدِ ، وَشَيْئاً مِنْ مَالِهِ ، وَصَرَفَهُ مِنْ يَوْمِهِ .

وهي شبيهة بما فعل مروان بن أبي حفصة [في « وفيات الأعيان »] أهنأ البر عاجله
١٨٩/٥ [فقد ورد على المهدي بقصيدة يقول له فيها - ما قد ذكرناه في
غير هذا المجلس وهو - [في « ديوانه » ٩٤ من الطويل] :

إِلَيْكَ قَصَرْنَا الْنُصْفَ مِنْ صَلَوَاتِنَا مَسِيرَةَ شَهْرٍ بَعْدَ شَهْرٍ نُوَاصِلُهُ
وَمَا نَحْنُ نَخْشَى أَنْ يَخِيبَ مَسِيرُنَا إِلَيْكَ وَلَكِنْ أَهْنَأُ الْبِرَّ عَاجِلُهُ
فَضَحَكَ الْمَهْدِيُّ ، وَأَمَرَ لِكُلِّ بَيْتٍ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَلَبَّتْ
سَبْعِينَ .

وقال أبو عبادة [من الكامل] :

عَجَلْتَ رِفْدَهُمْ وَأَفْضَلُ نَائِلٍ حَيَّ الْوُفُودُ بِهِ الْهَنِيُّ الْمُجَلِّ

وقدم أحد مشايخ القبائل على الأمير عبد الله بن علي العولقي في
مجلس حفله ، فقال له : ما شأنك ؟ قال : شيبه ، قصد شيبه ،
بغى شيبه ، قال له : قد أمرت لك بثلاثة ، أحدها : طلبك ،
والثاني : هديتك ، والثالث : نفقة الطريق ، وصرفه من يومه ،
و(الشيبه) في عرفهم هو الألف .

ويروى [بنحوه في « الأغاني » ٢٥٢/٥] : أَنَّ الرَّشِيدَ غَاضَبَ إِحْدَى
حَظَايَاهُ ، وَهِيَ مَارِدَةٌ ، وَاتَّسَعَتْ شَقَّةُ الْخُلَافِ ، وَأَعْيَا التَّدَارُكُ ،
حَتَّى جَاءَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ ، وَبَقَرَ لَهُ
الْحَدِيثَ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّ الْأَمْرَ أَعْيَانِي مِنْ قَبْلِهِمَا ، هَذَا يَعْزُّ
بِالْمُلْكِ ، وَتِلْكَ تَتَشَبَّثُ بِدَلَالِ الْجَمَالِ ، وَالرَّشِيدُ أَوْلَى بِأَنْ تَسْتَخْفَهُ

الصباغة ، فقل ما تسهلُ به طريقَ الصلح ، فقال [في «ديوانه» ٢٨ من الكامل] :

صَدَّتْ مُغَاظِبَةٌ وَصَدَّ مُغَاظِبًا فِكَلَاهُمَا مِمَّا تَجَنَّى مُغَضَّبُ
إِنَّ الْتَجَنَّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمَا دَبَّ السُّلُوكُ لَهُ فَعَزَّ الْمَطْلَبُ
رَاجِعَ أَحَبِّكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ إِنَّ الْمَتَيْمَ قَلَمًا يَتَجَنَّبُ

فألقاها يحيى إلى الرشيد ، فقال : ما رأيتُ شعراً أشبهَ منه بحالنا ، ولكأنِّي مقصودٌ به ، قال يحيى : نعم ، قالها العباسُ بنُ الأحنف : في شأنك ، فقال الرشيدُ : هاتِ نعلي يا غلام ، واستخفَّهُ الأمرُ أن يأمرَ بشيءٍ للعباس ، ولما دخلَ على ماردة . . سألتُهُ عَنْ سببِ رضاهُ ، فأخبرها ، فقالت : بماذا كوفىء العباسُ ؟ قال : ما فعلتُ شيئاً ، قالت : والله لا جِلستُ حتَّى تعجلَ له جائزتهُ ، فأمر له بمالٍ جزيل ، تأثَّل به عقاراً ، في حديثٍ طويل ، وموضعُ الشاهدِ مِنَ البيتِ الثاني ، مع تعجيلِ الجائزة .

لا تشبث بالملك وذكرتُ بهذا ما لا يتعلَّقُ بالموضوع ، ولكن لا بأسَ بذكره ؛ تمهيداً للبيتِ الآتي ، وهو أنَّ امرأةَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ غضبتُ عليه ، فتبعتهَا نفسُهُ ، ولم يتتفعِ بأمره ، وأعياءُ رضاها ، وأخذتهُ العزَّةُ أن يخضعَ لها ، فقال له أحدُ العربِ : أتأذنُ لي أن أُكَلِّمها ؟ فقال : نعم ، فأستأذنُ عليها وهو يبكي ، قالت له : ما شأنك ؟ قال : إِنَّ لِي ابْنَيْنِ ، عدا أحدهما على الآخرِ فقتله ، فزعمَ الخليفةُ أَنَّهُ قَاتِلُ الْقَاتِلِ ، فقلتُ : أنا وليُّ الدَّم ، وقد عفوتُ ، فلم يجبِ إلى شيءٍ ممَّا قلتُ له ، وما بقيتُ لي حيلةٌ سواكِ ، ثم أخذَ في النحيبِ حتَّى رقتُ له ، وبكت من بكائه ، وقالت : إني لا أُكَلِّمُهُ منذُ أَيَّامٍ ،

فَقَالَ لَهَا : وَلَكِنَّهَا نَفوسٌ سَتُخَيِّنُهَا ، وَاللهُ يَقولُ : ﴿ وَمَنْ أَخِيكَاها
فَكَأَنَّنَا أَخِيكَا النَّاسِ جَمِيعاً ﴾ [المائدة : ٣٢] ، فَتَهَيَّأَتْ ، وَلَمْ يَشْعُرْ
إِلَّا وَالْخُصْمُ يُوْذَنُهُ بِدُخُولِهَا ، فَكَانَ مَا كَانَ . وَمِنْهُ تَعْرِفُ حَالَةَ
الْقَوْمِ ، وَتَسْتَطِيعُ عَوَائِدَهُمْ ، وَتَسْتَقْرِئُ طَبَاعَهُمْ .

* * *

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمَتْنَبِيُّ فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٨ مِنْ الطُّوِيلِ] :

تَذَلُّلٌ لِمَنْ تَهَوَّى عَلَى الْقُرْبِ وَالْتَوَى فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لَا يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

التذلل للحبيب هو العز
والسعادة

سِنَّةُ الْعَاشِقِ الْخَضُوعُ ، وَإِرْسَالُ الدَّمْعِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّابِغَةُ
الْجَعْدِيُّ - أَوْ زَفَرُ بْنُ الْحَارِثِ ، عَلَى اخْتِلَافِ الرِّوَايَةِ - [النَّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ
فِي « دِيْوَانِهِ » ٨٧ مِنْ الطُّوِيلِ] :

تَرَدَّدْتُ ثَوْبَ الذَّلِّ يَوْمَ لَقَيْتُهَا وَكَانَ رِدَائِي نَحْوَةَ وَتَجَبُّرًا

وَقَالَ أَبُو نُوَّاسٍ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٥٨٠ مِنْ الْمَدِيدِ] :

سِنَّةُ الْعُشَّاقِ وَاحِدَةٌ فَإِذَا أَحْبَبْتَ فَاسْتَكِنِ

وَقَالَ ابْنُ الْأَحْنَفِ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٥١ مِنْ الْمُنْسَرَحِ] :

لَا بُدَّ لِلْعَاشِقِ مِنْ وَقْفَةٍ تَكُونُ بَيْنَ الْوَصْلِ وَالصَّرَمِ
حَتَّى إِذَا أَلْهَمُ تَمَادَى بِهِ رَاجِعَ مَنْ يَهْوَى عَلَى رُغْمِ

وَقَالَ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٤٣ مِنْ الطُّوِيلِ] :

تَحْمَلُ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا . . فَقُلْ : أَنَا ظَالِمٌ !
فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلِ الذَّنْبَ فِي الْهَوَى يُفَارِقُكَ مَنْ تَهْوَى وَأَنْفَكَ رَاغِمٌ !

وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ حَزَامٍ فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٧ مِنْ الطُّوِيلِ] :

وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ أَضَرَّ بِهِ الْهَوَى فَعَوْدُهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَتَعَوَّدُ

وَقَالَ مَسْعُودُ بْنُ الْحَسَنِ الْبِيَّاضِيُّ [مِنْ الطُّوِيلِ] :

أَلَاَنَّ الْهَوَى صَغْبِي وَذَلَّلَ جَانِبِي وَأَلْقَى إِلَيَّ أَيْدِيَكُمَْا بَعْنَانِي

وقد سبق مرّة قولُ أبْنِ الدِّمِينَةِ [في «ديوانه» ١٦١٥ من الطُّويل] :

فَلَوْ قُلْتُ : طَأْ فِي النَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهُ رِضًا لَكَ أَوْ مُذِنَ لَنَا مِنْ وَصَالِكَ
لَقَدَّمْتُ رِجْلِي نَحْوَهَا وَوَطَّئْتُهَا هُدًى مِنْكَ لِي أَوْ ضَلَّةً مِنْ ضَلَالِكَ

وقالَ البَحْتَرِيُّ [في «ديوانه» ١٦٥٢/٣ من الخفيف] :

وَتَذَلَّلْتُ خَاضِعاً لِمَلِيكِي وَقَلِيلٌ مِنْ عَاشِقِي أَنْ يَذِلَّ

وقالَ المَرْتَضَى [في «ديوانه» ٢١٧/٣ من الطُّويل] :

وَكَمْ مِنْ جَلِيدٍ لَا يُخَامِرُهُ الْهَوَى شَنَّ عَلَيْهِ الْوُجَدَ حَتَّى تَتِيماً
أَهَانَ لَهُنَّ الْنَفْسَ وَهِيَ كَرِيمَةٌ وَأَلْقَى إِلَيْهِنَّ الْحَدِيثَ الْمُكْتَمَا

وقالَ أَخُوهُ الرُّضَيُّ [في «ديوانه» ٤٩٧/١ من الكامل] :

لَوْ حَيْثُ يُسْتَمَعُ السَّرَارُ وَقَفْتُمَا لَعَجَبْتُمَا مِنْ عِزِّهِ وَخُضُوعِي

وقالَ أَبُو فِرَاسٍ الحَمْدَانِيُّ [في «ديوانه» ١٤٣ من الطُّويل] :

فَإِنْ شِئْتُ أَنْ لَا عِزَّ بَعْدِي لِعَاشِقِي وَأَنْ يَدِي مِمَّا عَلِفْتُ بِهِ صِفْرُ

وقالَ آخَرُ [وهو أحمد بن محمد الطوسي كما في «وفيات الأعيان» ٩٨/١ من

الطُّويل] :

وَهَانَ عَلَيَّ اللَّوْمُ فِي جَنْبِ حُبِّهَا وَقَوْلُ الْأَعَادِي : إِنَّهُ لَخَلِيعُ
أَصَمٍّ إِذَا نُودِيَ بِأَسْمِي وَإِنِّي إِذَا قِيلَ لِي : يَا عَبْدَهَا لَسَمِيعُ

وقالَ الوَأْوَاءُ الدَّمَشْقِيُّ [في «ديوانه» ٢٦٦-٢٦٧ من البسيط] :

قَالَتْ لَطِيفِ خَيَالِ زَارَنِي وَمَضَى : بِاللهِ صِفُهُ وَلَا تَنْقُصْ وَلَا تَزِدْ
فَقَالَ : خَلَقْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمًا وَقُلْتُ : قِفْ عَنْ وُرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدْ
قَالَتْ : صَدَقْتَ الْوَفَا فِي الْحُبِّ شَبِهُتُهُ يَا بَرْدَ ذَاكَ الَّذِي قَالَتْ عَلَى كَبِدِي

وقد ذكرنا هذه الأبيات أو بعضها في غير هذا المكان .

قد ينصق من يرى الحبيب
ومتى وصل المحب من الانقياد لأوامر المحبوب إلى هذه
الغاية . . أمثلت نفسه بهيبته ، وأخذه البهت ، والروعة من مفاجأة
طلعتيه ، ومنه قول بعضهم [وهو أبو الفرج بن هند كما في « عيون الأنباء في طبقات
الأطباء » ٤٣٢ / ١ من الطويل] :

تَمَيُّتُهُ حَتَّى إِذَا مَا رَأَيْتُهُ بُهِتٌ فَلَمْ أَغْمِلْ لِسَانًا وَلَا طَرْفًا
وَأَطْرَفْتُ إِجْلَالًا لَهُ وَمَهَابَةً وَحَارَلْتُ أَنْ يَخْفَى الَّذِي بِي فَلَمْ يَخْفَ^(١)

وهما ناظران إلى قول المجنون [في « ديوانه » ٥٩ من الطويل] :

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً فَأُبْهِتُ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ
وَأُصْرَفُ عَنْ رَأْيِي الَّذِي كُنْتُ أَرْتِي وَأَنْسَى الَّذِي أَعْدَدْتُ حِينَ تَغِيبُ

وقوله [في « ديوان جميل » ٢٢٥ من الطويل] :

وَإِنِّي لَيْسِنِي لِقَاؤِكَ كُلَّمَا لَقَيْتُكَ يَوْمًا أَنْ أَبْتُكَ مَا يَبَا

وقوله [أي : المجنون في « ديوانه » ١٦٣ من الطويل] :

وَدَاعَ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى فَهَيَّجَ أَشْجَانَ الْفُؤَادِ وَمَا يَذْرِي
دَعَا بِأَسْمٍ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وقول أبي صخر الهذلي [في « ديوان الحماسة » ٦٧ / ٢ من الطويل] :

وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً فَأُبْهِتُ لَا عُرْفَ لَدَيَّ وَلَا نُكْرَ

(١) وبعد هذين البيتين :

وَقَدْ كَانَ فِي قَلْبِي دَفَائِرُ عَنِيهِ فَلَمَّا اكْتَفَيْنَا مَا وَجَدْتُ وَلَا حَرْفًا

وَقَالَ عُتَيْبُ بْنُ مَالِكٍ الْعَقِيلِيُّ [في «لسان العرب» ١٤/٢٣٧ مِنْ الطَّوِيلِ] :
أَتَيْتُ مَعَ الْحَدَاثِ لَيْلَى فَلَمْ أَيْنِ فَأَخْلَيْتُ فَاسْتَعَجَمْتُ عِنْدَ خَلَايَا

وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الطُّشَيْرَةِ [في «ديوانه» ٩٤ مِنْ الطَّوِيلِ] :
بِنَفْسِي مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنَانِهِ عَلَى كَيْدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهُ
وَمَنْ هَابَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهَبْتُهُ فَلَا هُوَ مُعْطِينِي وَلَا أَنَا سَائِلُهُ

وَقَالَ أَبُو أَبِي رِبْعَةَ [بل المجنون في «ديوانه» ٧١ مِنْ الطَّوِيلِ] :
أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ عَلَيَّ وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

وَقَالَ بَشَّارٌ [في «ديوانه» ٢/٣١٩ مِنْ الْبَسِيطِ] :
تُلْقَى بِتَسْيِيحَةٍ مِنْ حُسْنٍ مَا خُلِقَتْ وَتَسْتَفِرُّ حَشَا الرِّائِي بِإِزْعَادِ

وَقَالَ آخَرُ [كما في «مصارع العشاق» ١/٢٩٢ مِنْ الطَّوِيلِ] :
فَمَا هِيَ إِلَّا لَخْظَةٌ بِتَبَسُّمٍ وَتَضْطَكُ رِجْلَاهُ وَيَسْقُطُ لِلْجَنْبِ

وفي هذا قصَّةٌ لَا بَأْسَ بِذِكْرِهَا ؛ لِطِلَاوَتِهَا ، وَهِيَ [كما في «وفيات المبرد والجارية المغنية الأعيان» ٤/٣١٧] : أَنَّ بَعْضَهُمْ صَنَعَ وَلِيْمَةً ، دَعَا إِلَيْهَا الْأَعْيَانُ ، ثُمَّ أَمَرَ جَارِيَتَهُ فَعَنَّتْ [مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَقَالُوا لَهَا : هَذَا حَبِيبُكَ مُغْرَضٌ فَقَالَتْ : أَلَا إِغْرَاضُهُ أَيْسَرُ الْخَطْبِ
فَمَا هِيَ إِلَّا لَخْظَةٌ بِتَبَسُّمٍ وَتَضْطَكُ رِجْلَاهُ وَيَسْقُطُ لِلْجَنْبِ

فَاهْتَزَّ الْقَوْمُ أَرْتِيَا حَا وَطَرِبَا ، مَا خَلَا أَبِي الْعَبَّاسِ الْمَبْرُودَ - وَكَانَ حَاضِرًا - فَانْكَسَرَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ ، وَقَالَ لَهُ : أَوَلَمْ يَعْجَبْكَ الْغَنَاءُ ؟
قَالَتِ الْجَارِيَةُ : بَلَى ، وَلِنَّمَا أَرَادَ مِنِّي أَنْ أَقُولَ هَكَذَا :

(وَقَالُوا لَهَا : هَذَا حَبِيبُكَ مُغْرَضًا) ، ولم يدرِ أَنَّ أَبْنَ مَسْعُودٍ
قرأ : (وَهَذَا بَغْلِي شَيْخٌ) فطربَ حينئذِ أَبُو الْعَبَّاسِ ، حتَّى شقَّ
ثوبَهُ .

ما السبب في اندهاش
المحب عند رؤية
المحبيب؟
وقد اختلفَ في سبيلِ ما يعرضُ للمحبِّ مِنَ الْهَيْبَةِ ، وما يحدثُ
لَهُ عِنْدَ الْمَفَاجَأَةِ مِنَ الرُّوعَةِ ؛ فقليل : لِأَنَّ الْقَلْبَ يَنْفَرُجُ مِنَ الشَّوْقِ إِلَى
اللقاءِ ، فيهربُ الدَّمُ ، وقد يبرُدُ ويضطربُ ، فتحدثُ الرعدةُ ،
وربَّما كَانَ الْمَوْتُ .

سلطان المحب على
قلب المحبوب أقوى
من سلطنة السلطان
على الرعية
وقيل : إِنَّ لِلْمُحْبُوبِ سُلْطَانًا عَلَى قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ ، أَعْظَمَ مِنْ
سُلْطَنَةِ الْمُلُوكِ عَلَى الرِّعِيَّةِ ، فَإِذَا رَأَوْهُ - وَلَا سَيِّمًا مَعَ الْمَفَاجَأَةِ -
أَرْتَاعُوا كَمَا يَرْتَاعُ نَاطِرُ الْمَلِكِ الْكَبِيرِ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الَّذِي يَقُولُ [مِنْ
الْمُجْتَنِّ] :

الْمُلْكُ لِلَّهِ وَخُدَّةُ وَلِلْخَلِيفَةِ بَغْدَةُ
وَلِلْمُحِبِّ إِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ

وقالَ سُلْطَانُ الْعَاشِقِينَ [في «ديوانه» ١٦٥ مِنْ الطُّوِيلِ] :

وَبِتَّنَا كَمَا شَاءَ أَقْتِرَاحِي عَلَى الْهَوَى أَرَى الْمُلْكَ مُلْكِي وَالزَّمَانَ غُلَامِي^(١)

وقد سبقَ في غيرِ هَذَا الْمَجْلِسِ قَوْلُ الْمَهْدِيِّ لِلْخَيْرُرَانِ [من
الوافر] :

أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّكَ تَمْلِكُنِي وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَيْنِي
وَأَنَّكَ لَوْ قَطَعْتَ يَدِي وَرَجْلِي لَقُلْتُ مِنَ الرِّضَا : أَحْسَنْتَ زَيْنِي

(١) اقتراحِي : مطلبِي .

وقال المأمون [من الطويل] :

أَيَا رَبَّةَ الْحُسْنِ الَّتِي هَتَكَتْ نُسُكِي عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنْتِ لَا بُدَّ لِي مِنْكَ
فِيمَا بِدُلُّ وَهُوَ أَلَيُّ بِالْهَوَىٰ وَإِمَّا بَعِزُّ وَهُوَ أَلَيُّ بِالْمُلْكِ
وقول الرشيد [في «ديوانه» ٤٨ من الكامل] :

مَلَكَ الثَّلَاثُ الْآنِسَاتُ عِنَانِي وَحَلَلَنَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
مَا لِي تَطَاوَعُنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا وَأُطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فِي عِصْيَانِي
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَىٰ - وَبِهِ قَوَيْنَ - أَشَدُّ مِنْ سُلْطَانِي
وللثلاث المشار إليهنَّ في الأبيات حديث طريف ، لا يتسع
لإيرادِهِ الوقت .

وقال بعض ملوك المغرب من بني مروان ، وما أدري أهو أخذ
عن الرشيد أم الرشيد هو الذي أخذ عنه [وهو المستعين بالله ، الذي أخذ عن
الرشيد كما في «نفع الطيب» ٢٢٧/٢ من الكامل] :

وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثٌ كَالذَّمَى زَهَرُ الْوُجُوهِ نَوَاعِمُ الْأَبْدَانِ
كَكَوَاكِبِ الظُّلُمَاءِ لُحْنٌ لِنَاظِرِي مِنْ فَوْقِ أَغْصَانِ عَلَى الْكُثْبَانِ
هَلْذِي الْهَلَالُ وَتِلْكَ بِنْتُ الْمُشْتَرِي حُسْنًا وَهَلْذِي أُخْتُ غُضَنِ الْبَانِ
حَاكَمْتُ فِيهِنَّ الْهَوَىٰ فَقَضَىٰ لَهَا سُلْطَانُهَا السَّامِي عَلَى سُلْطَانِي
مَا ضَرَّ أَنْتِي عَبْدُهُنَّ صَبَابَةٌ وَبَنُو الْزَمَانِ وَهُنَّ مِنْ عُبْدَانِي
إِنْ لَمْ أُطِيعْ فِيهِنَّ سُلْطَانَ الْهَوَىٰ كَلَفًا بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانِ

وقال آخر [من الطويل] :

يَلْدُ لَهُ ذُلُّ الْهَوَىٰ وَخُضُوعُهُ وَلَوْلَا الْهَوَىٰ مَا لَدَّ لِلْعَاقِلِ الْدُّلُّ

وقال آخر [من الطويل] :

إِذَا كُنْتَ تَهْوَى مَنْ تُحِبُّ وَلَمْ تَكُنْ ذَلِيلًا لَهُ فَاقْرَ السَّلَامَ عَلَى الْوَصْلِ
تَذَلَّلَ لِمَنْ تَهْوَى لِتَكْسَبَ عِزَّةً فَكَمْ عِزَّةٌ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالذَّلِّ

وفي «ديوان الشرف ابن الفارض» ما لا يوجد مثله عند غيره ،
منه [في «ديوانه» ١٥٣ من الكامل] :

مَنْ لِي لَهُ ذَلِكَ الْخُضُوعُ وَمِنْهُ لِي عِزُّ الْمَنْوَعِ وَقُوَّةُ الْمُسْتَضْعِفِ^(١)
لَوْ قَالَ: تِنِهَا قَفْ عَلَى جَمْرِ الْقَصَى لَوَقَفْتُ مُنْتَبِلًا وَلَمْ أَتَوَقَّفِ^(٢)
أَوْ كَانَ مَنْ يَرْضَى بِخَدِّي مَوْطِنًا لَوَضَعْتُهُ أَرْضًا وَلَمْ أَسْتَنْكِفِ^(٣)

ثم ما لبث أن أمثل ما أشار به ابن أبي عتيق على ابن أبي ربيعة
كما سلف ، وكما قد زعم ابن المعتز من قبل ، ففرش خده ، وقال
[ابن الفارض في «ديوانه» ١٦٥ من الطويل] :

وَلَمَّا تَوَافَيْنَا عِشَاءً وَضَمْنَا سَوَاءً سَبِيلِي دَارَهَا وَخِيَامِي
وَمِلْنَا كَذَا عَنْ سَاحَةِ الْحَيِّ حَيْثُ لَا رَقِيبَ وَلَا وَاشٍ بِزُورِ كَلَامِ
فَرَشْتُ لَهَا خَدِّي غِطَاءً عَلَى الثَّرَى فَقَالَتْ: لَكَ الْبُشْرَى بَلِّغْ لثَامِي

وقال [في «ديوانه» ١٥٦ من الخفيف] :

وَكَفَّانِي عِزًّا بِحُبِّكَ ذُلِّي وَخُضُوعِي وَلَسْتُ مِنْ أَكْفَاكَ

(١) الْمَنْوَعُ : الشَّدِيدُ الْمَنْعِ . الْمُسْتَضْعِفُ : الَّذِي يرَانِي ضَعِيفًا أَمَامَهُ .

(٢) تِنِهَا : دَلَالًا .

(٣) أَسْتَنْكِفُ : أَسْتَكْبِرُ .

وقال [في «ديوانه» ١٧٣ من الطويل] :

وَلَمْ يَبْقَ مِنِّي مَا يُنَاجِي تَوْهُمِي سِوَى عِزِّ ذُلِّي فِي مَهَانَةِ إِجْلَالِي

وقال [في «ديوانه» ١٣٦-١٣٧ من الطويل] :

وَقَالَ نِسَاءُ الْحَيِّ عَنَّا بِذِكْرِ مَنْ جَفَانًا : وَبَعْدَ الْعِزِّ لَدَّ لَهُ الْذُلُّ
فَحَالِي وَإِنْ سَاءَتْ فَقَدْ حَسُنَتْ بِهَا وَمَا حَطَّ قَدْرِي فِي هَوَاهَا بِهِ أَعْلُو
وَلِي هِمَّةٌ تَغْلُو إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا وَرُوحٌ بِذِكْرَاهَا إِذَا رَخِصَتْ تَغْلُو

وقال [في «ديوانه» ٥٨ من الطويل] :

ذَلَّلْتُ بِهَا فِي الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي وَأَذْنِي مَنَالٍ عِنْدَهُمْ فَوْقَ هِمَّتِي
وَمِنْ دَرَجَاتِ الْعِزِّ أَمْسِنْتُ مُخْلِدًا إِلَى دَرَكَاتِ الذُّلِّ مِنْ بَعْدِ نَخْوَتِي
فَلَا بَابَ لِي يُغْشَى وَلَا جَاءَ يُرْتَجَى وَلَا جَارَ لِي يُخْمَى لِفَقْدِ حَمِيَّتِي

وقال [في «ديوانه» ٥٣ من الطويل] :

وَحُسْنٌ بِهِ تُسَبَّى إِلْهَى دَلَّيْنِي عَلَى هَوَى حَسُنْتَ فِيهِ لِعِزِّكَ ذِلَّتِي

وقال سبطه [في «ديوان ابن الفارض» ٢٠٩ من الطويل] :

تَوَاضَعْتُ ذُلًّا وَأَنْخَفَاضًا لِعِزِّهَا فَشَرَفَ قَدْرِي فِي هَوَاهَا التَّوَاضُعُ
لَئِنْ صِرْتُ مَخْفُوضَ الْجَنَابِ فُحْبُهَا لِقَدْرِ مَقَامِي فِي الْمَحَبَّةِ رَافِعُ

وقال أبو الجعبري : زرت مع والدي قبر أبي الفارض ، فوجدنا
عنده تراباً كثيراً ، فصرخ الشيخ وقال [من الطويل] :

مَسَاكِينُ أَهْلِ الْعِشْقِ حَتَّى قُبُورُهُمْ عَلَيْهَا تُرَابُ الذُّلِّ بَيْنَ الْمَقَابِرِ
ثُمَّ حَمَلَ الشَّيْخُ التُّرَابَ فِي ثَوْبِهِ ، وَحَمَلْنَاهُ مَعَهُ إِلَى أَنْ كُنُسْنَا الْقَبْرَ
وَمَا حَوْلَهُ .

حال النبي ﷺ وتواضعه
مع أهله

وأكبرُ ممَّا ذكرناه كُلُّهُ . . حالُهُ ﷺ معَ أزواجهِ ، فقد كانَ - كما
ذكرنا لونا مِنْهُ في المجلسِ الثاني عشرَ عندَ قولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ٣٣٣
مِنَ الكاملِ] :

وَعَدَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى دَفَنْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَغْشَقُ ١؟
- حسنَ العشرةِ لَهُنَّ ، وَكُنَّ يهجرنَهُ إِلَى الليلِ ، وكانَ يقولُ :
« خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِيهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » (١) .

وكانَ (إِذَا صَلَّى العَصْرَ . . دارَ عليهنَّ كُلَّهنَّ ، ودنا مِنْهُنَّ مِنْ غيرِ
مسيبٍ ، وكانَ يسرُّبُ إِلَى عائِشَةَ بناتِ الأنصارِ يلعبنَ مَعَهَا ،
ويمكِّنُها مِنَ اللَّعِبِ ، ويحمِلُها لتَنظُرَ إِلَى الحبشةِ وَهُم يَلْعَبُونَ فِي
مَسْجِدِهِ وَهِيَ مَتَكِنَةٌ عَلَى مَنْكِبِيهِ ، وكانَ إِذَا هَوَيْتُ شَيْئاً لا مَحْذُورَ
فِيهِ . . تَابَعَهَا عَلَيْهِ ، وكانَ إِذَا شَرِبْتَ مِنَ الْإِنَاءِ . . أَخَذَهُ فَوَضَعَ فَمَهُ
عَلَى مَوْضِعِ فَمِهَا وَشَرِبَ ، وَإِذَا تَعَرَّقَتْ عَرْقاً - وهوَ العَظْمُ الَّذِي عَلَيْهِ
لَحْمٌ - أَخَذَهُ وَأَعْتَمَدَ مَوْضِعَ فَمِهَا) (٢) .

ولَمَّا نَزَلَتْ بَرَاءَتُهَا . . قَالَتْ لَهَا أُمُّهَا : قومي إِلَيهِ ، فَقَالَتْ : وَاللَّهِ
لَا أَقُومُ إِلَيْهِ ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ ، وَهِيَ الَّتِي تَوَاطَأَتْ مَعَ حَفْصَةَ عَلَى
غِشِّ الْجَوْنِيَّةِ حَتَّى فَرَّقَتَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، كَمَا قَدْ ذَكَرْنَا فِي
غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ ، فَلَمْ يُتْرَبْ (٣) .

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن حبان في «الإحسان» (٤١٩٤) ،
وهو في «كشف الأستار» (١٤٨٣) .

(٢) تقدّمت هذه الأحاديثُ معَ تخريجِها في غيرِ هذا المجلسِ .

(٣) التثريبُ : التّعيير والاستقصاء في اللوم ، وتُرِبَ عليه : قُبِحَ عليه فعله .

ولله درُّ القائل [من الوافر] :

وَيَقْبَحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ

وقال النازم [في «المكبري» ٢٥٥/٤١ من الوافر] :

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوُصْفَانِ جِدًّا وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

وقال [في «المكبري» ٦٥/١١ من الطويل] :

وَيَخْتَلِفُ الْرُّزْقَانِ وَالْفِعْلُ وَاحِدٌ إِلَى أَنْ يُرَى إِحْسَانُ هَذَا لِذَا ذَنْبًا

وبعد : فمعاذ الله أن يكون جميع ذلك إلا لحكمة عالية ، لم أر الحكمة في ميل الرجل من نبة عليها ، وكأنها - والعلم له جل شأنه - راجعة إلى صفة للمرأة العدل .

وتوضيحا : أن الكون - كما قلنا غير مرة - لم يتسق نظامه إلا بناموس الجاذبية ، وهو المحبة الصادقة ليس غير ، والإنسان سر هذا الكون ، فبالحري أن لا يستقيم شأنه إلا بها ، فهي المقصود الأكبر من الحياة الزوجية ، بشهادة قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ، فذلك السكون والرحمة والمودة هي التي بها تُتطعم الحياة ، ويُستعجل النعيم ، وتُناسى الآلام ؛ إذ كل لذة في الدنيا دفع ألم ، سوى ما كان من أمثالها ، فهي التي بها يسهل احتمال مشاق الكون المظلمة ، وقطع عقباته الكأداء ، والصبر على موجعاته الكبرى ، ويتبع ذلك استبقاء النسل ؛ ضرورة بقاء العالم إلى أمده المحدود له .

فمن الطافه - جل شأنه - تركيب الشهوة التي تستبي الغيور ،

وتستنزِلُ الوقورَ ، ولا يخفى ما في طريقِ إرضائها الذي لا بدَّ منه من الذلِّ الفاحشِ ، الواقعِ على المرأةِ ، فعوّضَتْ عنه برجحانِ الكفّةِ لدَى ميزانِ الهوى ، وإِعلاءِ الدرَجَةِ عندَ سلطانِ الحبِّ ، ورفعِ المنزلَةِ في دولَةِ الجمالِ ، فهوَ إذن سرٌّ لطيفٌ محسوسٌ من أسرارِ العدلِ الإلهيِّ ، الذي قامَتِ الأرضُ والسماءُ عليه .

ولَئِنْ قِيلَ : إِنَّهُ لَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الْكَرَمِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ . قُلْنَا : هُمُ الْمَقْصُودُونَ وَإِنْ قَلُّوا ، وَلَا عِبْرَةَ بِمَنْ سِوَاهُمْ وَإِنْ جَلُّوا ؛ إِذْ هُمْ بِالْعَجَمَاوَاتِ أَشْبَهُ ، لَا يَعْرِفُونَ الْعِزَّ وَلَا الْهَوْنَ ، وَلَا الْعَالِيَّ وَلَا الدُّونَ ، وَقَدْ أَسْلَفْنَا مَرَّةً قَوْلَ حَبِيبٍ [أَبَا تَمَامٍ فِي « دِيوانِهِ » ٣٣٠/١ مِنْ الْبَسِيطِ] :

إِنَّ الْكَرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا (١)
وَقَدْ يُشَبِّهُهُ قَوْلُ أَبِي عُبَادَةَ [فِي « دِيوانِهِ » ٩٧٦/٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

قُلَّ الْكَرَامُ فَصَارَ يَكْثُرُ فَذُهُمْ وَلَقَدْ يَقِلُّ الشَّيْءُ حَتَّى يَكْثُرَ (٢)
وَقَوْلُ النَّازِمِ [فِي الْمَكْبَرِيِّ ١٥٥/٢ مِنْ الطُّوِيلِ] :

فَجَاءَتْ بِهِ صَلَتْ الْجَبِينِ مُعْظَمًا تَرَى النَّاسَ قَلًّا حَوْلَهُ وَهُمْ كَثُرُ (٣)
فَيَتَلَحَّصُ مِنْهُ : أَنَّ الْمَحَبَّةَ سرُّ الْأَسْرَارِ ، وَأَنَّ أَفْضَلَ مَظَاهِرِهَا الْحَيَاةَ الزَّوْجِيَّةَ ، وَأَنَّ مَا يَلْحَقُ الْمَرْأَةَ مِنَ الْمَهَانَةِ بِالصُّورَةِ فِيمَا يَتَوَلَّدُ

-
- (١) قُلٌّ : قَلِيلٌ . يَعْنِي : أَنَّ لِلْكَرَامِ شَأْنًا عَظِيمًا يَكْثُرُ بِهِمُ الْخَيْرُ وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُمْ ، كَذَلِكَ غَيْرُ الْكَرَامِ كَثِيرٌ وَالْعَدَدُ قَلِيلٌ الشَّانِ .
(٢) الْفُذُّ : الْفَرْدُ .
(٣) الصَّلْتُ : الْجَبِينُ الْوَاضِحَةُ .

من بعض دواعي الحب لبقاء التنازل . . . تُعوّض عنه في شرع الهوى ، بأن تكون مالكة لا مملوكة ، وحاكمة لا محكومة ، وغالبة لا مغلوبة ، والكرام في ذلك مساقون بسوق الطبيعة ، وموكلون فيه إلى الداعية ، ومن سواهم وإن كانوا دهماء الناس ، والسواد الأعظم . . . فإنهم لا عبرة بهم ، وفي الأحكام الشرعية ما يكفي للتناصف بينهم ، وتوفية المرأة ما أمتازت به من حقوق الخدمة ، والمؤنة ، والثقة ، والكفالة ، وغير ذلك .

ثم إذا كان هذا الخضوع للجمال الحادث . . . فما بالك به لمظهر كل جمال أقدس ، وكمال أنفس ، وكثيراً ما تكون المحبة البشرية وسيلة للحب الإلهي ، والله درّ لسان الدين بن الخطيب في قوله - الذي قلما أذكره إلا وخفني النشيج ، وتبادرت من محجري القطرات - وهو [في «نفع الطب» ٢٨٢/٦ من الطويل] :

جَزَى اللَّهُ عَنِّي زَاَجِرَ الشَّيْبِ خَيْرَ مَا جَزَى نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكَ طَرِيقَ الْحُبِّ حَتَّى إِذَا أَتَتْهُ نَعَوَضْتُ حُبَّ اللَّهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

وَمِنْ هُنَا كَانَ ﷺ سَيِّدَ الْمُتَوَاضِعِينَ ، يَعْلِفُ بَعِيرَهُ ، وَيَقُمُ بَيْتَهُ ، تَوَاضَعَهُ
وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ^(١) ، وَيَرْفَعُ ثَوْبَهُ ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ ، وَيَطْحَنُ مَعَ خَادِمِهِ ، وَيَأْكُلُ مَعَهُ ، وَيَحْمِلُ بَضَاعَتَهُ مِنَ الْسُوقِ بِيَدِهِ ، وَيَصَافِحُ الْفَقِيرَ ، وَيَتْرُكُ لَهُ يَدَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُلْقِيهَا ، وَلَا يَحْتَقِرُ مَا دُعِيَ إِلَيْهِ ، وَلَوْ إِلَى حَشْفِ التَّمْرِ .

(١) قال الحافظ العراقي : رواه أحمد في «المسند» من حديث عائشة . يخصف : يخرزه بيده ليصلحه .

وحالُه معروفٌ مع أهلِ الصُّفَّةِ ، وآخرُ ما نزلَ عليه في شأنِهِمْ قولُه تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَقْدِرْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فكانَ بعدَ ذلكَ لا يقومُ عنهُم حتَّى يكونوا هُمُ الْبَادِثِينَ بِالْقِيَامِ ، غيرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا بِلَدَاءِ ، ولا نُقْلَاءِ كَأهلِ زمانِنَا ، ولكنَّهُمْ كَمَا قَالَ أَبُو أَبِي رَيْعَةَ [في «ديوانه» ١٦٣ مِنَ الطُّوِيلِ] :

فَلَمَّا أَتَصَرَّنَا دُونَهُنَّ حَدِيثَنَا وَهُنَّ خَبِيرَاتٌ بِحَاجَاتِ ذِي التَّبَلِ (١)
عَرَفَنَ الَّذِي نَهَوَى فَقُلْنَ: أَتَذُنِي لَنَا نَظْفُ سَاعَةً بَيْنَ الْبَسَائِنِ وَالنَّخْلِ
فَكَانُوا إِذَا عَرَفُوا أَنَّهُ يَرِيدُ الْقِيَامَ.. أَنْصَرَفُوا عَنْهُ ، وقد جَوَّدْتُ
الْكَلَامَ فِيهِ بِمَا أَظُنُّنِي لَمْ أُسَبِّحْ إِلَيْهِ فِي « حَاشِيَتِي عَلَى الشَّمَائِلِ »
فَتَوَاضَعُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَثَرُ صَدَقِ مُحَبَّتِهِ ، وَاتَّسَاعِ مَعْرِفَتِهِ .

ولقد كَانَ سَلِيمَانُ - عَلَى اتَّسَاعِ مَلِكِهِ - يَتَفَقَّدُ الْحِلَقَ فِي الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَى ، ثُمَّ لَا يَجْلِسُ إِلَّا مَعَ الْمَسَاكِينِ ، وَكَانَ لَا يَتَغَدَّى حَتَّى
يَتَرَحَّلَ النَّهَارُ ؛ لِيَذُوقَ طَعْمَ الْجُوعِ ؛ حَتَّى لَا يَنْسَاهُمْ .

تواضع سيدنا سليمان
عليه الصلاة والسلام

وَمِنْ شَرِيفِ تَوَاضُعِهِ مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِ مَعَ الْهَدْهِدِ ؛ إِذْ
قَالَ لَهُ ﴿ سَنَنْظُرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] ، فَإِنَّهُ كَانَ
يَفْتَحُ الْقُلُوبَ الْغُلْفَ ، وَالْأَذَانَ الصَّمَّ ؛ إِذْ لَا تَجِدُ أَرْقً وَلَا أَبْدَعَ
وَلَا أَبْلَغَ مِنَ الْإِفْصَاحِ بِنِسْبَةِ الصَّدَقِ إِلَيْهِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ الصَّادِقُ وَحْدَهُ
فِي عَسْكَرِهِ ، وَلَمَّا كَانَ الْكَذِبُ لَمْ يَجِرْ فِيهِ عَلَى مُقْتَضَى السِّيَاقِ مِنْ

(١) المعنى : حِينَ آنَسَنَّا مَتَا تَكْتُمًا وَقَصْرًا لِلْحَدِيثِ.. شَعَرْنَا بِحَاجَةِ الْمُحِبِّينَ
لِلْخُلُوةِ ، وَهُنَّ بِذَلِكَ عَارِفَاتُ خَبِيرَاتُ .

الخطاب ، بل التفت وقال ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] ولم يقل
 أم كذبت ؛ رفقا به ، وحنوا عليه ؛ كي لا ينفطر قلبه ، وتشق مرارته
 من هول نسبة الكذب إليه ، ولكنه قال له ما معناه : إن صدقت . .
 فهي فضيلة ، كأنك المنفرد بها ، وإن كذبت . . فكثير مثلك ،
 وهذا والله ما يهز النفوس ، وقيم الشعور ، وينفذ في القلوب ،
 ويستهي الخواطر ، ويذيب الحجارة ، وإنه لمن المعجز الذي تزل
 الفصحاء عن مرقاته ، ولا بدع ؛ فالالتفات هو المقام الذي تتفاوت
 به الطبقات ، وقد ذكرنا منه في تفسير الفاتحة من كتابنا « بلايل
 التغريد » ما تشرح به صدور المؤمنين إن شاء الله تعالى .

ومن أجهلاء من يلتبس عليه العز بالكبر ، والتواضع بالملق ،
 فتجد صاحب العزة يكلّم الفقير ، ويلاطف الصغير ، ويجالس
 المساكين ، ويخضع للحق ، ويستكين حتى إذا جالس الأمراء . .
 فهو أمير ، وإذا حضر الكبراء . . فهو كبير . وقد قال ابن الخطّاب :
 أريد رجلاً إذا كان أمير القوم . . كان كعضيهم ، وإن لم يكن
 أميرهم . . فكانه أميرهم .

وقال أبو تمام [في ديوانه ١٠١/٢ من الكامل] :

مَتَبَدَّلُ فِي الْقَوْمِ وَهُوَ مُبْجَلٌ مُتَوَاضِعٌ فِي الْحَيِّ وَهُوَ مُعْظَمٌ^(١)

وقال الآخر [من الكامل] :

مُتَوَاضِعٌ وَالْكُتْلُ يَخْرُسُ قَدْرُهُ وَأَخُو التَّوَاضُعِ بِالنَّبَاهَةِ يَنْبُلُ

لا يتردد على الأبواب ، ولا يدهن ، ولا يهاب ، ولا يجري

(١) المتبدّل : تارك التصوّن والاحتشام . مبجلٌ : معظّم .

خلفَ الآمالِ ، ولا يتبعُ مرضيَ أهلِ المالِ ، وآيتهُ أن تجدهُ مبغوضاً
لدى أهلِ النخوةِ والشرفِ ، محبوباً عندَ أهلِ الضعفِ والعقلِ .

الكلام على المتكبر وأما صاحبُ الكِبَرِ : فتجدهُ غامطاً للحقوقي ، غارقاً في
العقوقي ، لا يقابلُ الناسَ إلا بالأنفةِ ، ولا يكلمهم إلا من أطرافِ
الشفةِ ، لا يعرفُ لأحدٍ قدره ، ولا يقبلُ من مسيءِ عذره ، لكنه
يتواضعُ لمن فوقه بمقدارِ ذلك ووزنه ، فإذا مثلَ أمامَ الكُبراءِ ، أو
حضرَ عندَ الأمراءِ . . نزلَ عن سماءِ تلك الرفعةِ ، وأنحدرَ عن قلَّةِ
تلك العظمةِ ، وذلك دليلٌ على أنه من ألامِ الناسِ نفساً ، وأسقطهم
همّةً ، وأزمنهم ذمّةً .

ومِنهم مَنْ يكونُ الكِبَرُ معجوناً في طبيئِهِ ، لا يظهرُ أثرُهُ فيه إلا
لَمَن ساعدهُ الطمعُ على الترفعِ عليه ، حتَّى إذا ما ضحكَ لَهُ الزمانُ . .
ورى ذلكَ الزنْدُ ، وأنفجرَ ذلكَ الجرحُ ، وقد قالَ سفيانُ - رحمه الله -
: - إِنَّ اللَّثَامَ إِذَا تَمَوَّلُوا . . اسْتَطَالُوا ، وَإِذَا أَفْتَقَرُوا . . تَوَاضَعُوا ،
وَالْكَرَامَ إِذَا تَمَوَّلُوا . . تَوَاضَعُوا ، وَإِذَا أَفْتَقَرُوا . . اسْتَطَالُوا .

ومتى رسخَ الكِبَرُ في نفسِ الإنسانِ . . استخدَمَ مَنْ قدرَ عليهِ مِنْ
الخلقِ في قضاءِ شهوتِهِ ، وتنفيذِ إرادتِهِ ، ورأى أَنَّ الصوابَ ما تُمَثِّلُ
لَهُ نفسُهُ ، وَأَنَّ العقولَ لم ترجَحْ إلا لِموافقةِ مشربِهِ ، وهذهِ حالُ
سائرِ المستبدِّينَ ، وَمِنْ علامَتِهِمْ أَنَّ تجدَ أَهْلَ العلمِ أبغضَ ما يكونُ
إليهم :

أسباب بغض
المستبدِّين لأهل العلم
أما أولاً : فلأنَّ العلمَ يهدُّ مِنْ بنائِهِمْ ، ويحطُّ مِنْ كبريائِهِمْ ،
ويغضُّ مِنْ عِنائِهِمْ ، ويعرِّفُ بطغيانِهِمْ .

وأما ثانياً : فإنَّهُمْ يبغضونَهُم بالطبعِ لذاتِهِ ؛ حيثُ إِنَّ لَهُ سلطاناً

أَقْوَى مِنْ كُلِّ سُلْطَانٍ ، وَلَا بَدْءَ لِلْمُسْتَبَدِّ أَنْ يَسْتَحْقِرَ نَفْسَهُ وَلَوْ فِي سِرِّهِ
كُلَّمَا وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى مَنْ هُوَ أَرْفَعُ سُلْطَانًا مِنْهُ ، فَتَرَاهُ لَا يَحِبُّ أَنْ يَرَى
وَجْهَ عَالِمٍ شَرِيفٍ حَزْزٌ قَطُّ ، بَلْ يَسْعَى جَهْدَهُ فِي إِسْقَاطِ قَدْرِهِ ، وَالتَّقَوُّلِ
عَلَيْهِ ، وَإِلْصَاقِ الْمَعَاصِبِ بِهِ ، وَابْتِغَاءِ الْعَثَرَاتِ فِي طَرِيقِهِ ، فَإِنْ أَضْطَرَّ
إِلَى الْعِلْمِ أَحْيَانًا . . أَخْتَارَ الْمُتَصَاغِرَ الْمُتَحَذِّقَ الدُّنْيَا :

لَأَنَّهُ أَوَّلًا : يَعْرِفُ نَقْصَهُ وَأَنْحِطَاطَهُ ، فَلَا يَجِدُ فِيهِ مِنْ طَلَائِعِ
الْمَجْدِ مَا يَنْغُصُ عَلَيْهِ ، وَلَا مَا يَشِيرُ حَسَدُهُ .

وَلَأَنَّهُ ثَانِيًا : يَمْلَأُ رِضَاهُ ، وَيَسَارِعُ فِي هَوَاهُ ، بِخِلَافِ الْأَوَّلِ .

وَلَأَنَّهُ ثَالِثًا : يَتَّخِذُ مِنْهُ مَثَالًا لِتَحْقِيرِ الْعُلَمَاءِ إِذَا تَظَاهَرَ بِعَدَمِ
الْمِبَالَاةِ بِهِ ، وَالْحَقُّ بِحَاشِيَتِهِ ، وَأَدْخَلَهُ فِي غَمْرَةِ أَتْبَاعِهِ ، وَأَمَثَالَ
هَؤُلَاءِ الْمُسْتَبْدِينَ وَالتَّكَبُّرِينَ وَاجِبٌ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ أَحْتِقَارُهُمْ
وَهَجْرُهُمْ ، وَالتَّكَبُّرُ عَلَيْهِمْ ؛ فَقَدْ سُئِلَ الْحَسَنُ عَنِ التَّوَاضُعِ ^(١) ؟
فَقَالَ : هُوَ التَّكَبُّرُ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ .

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ الرَّازِيُّ : التَّكَبُّرُ عَلَى مَنْ تَكَبَّرَ عَلَيْكَ بِمَالِهِ الْكَلَامُ فِي الْكِبَرِ وَالْعِزِّ
تَوَاضُعٌ . وَمُصَدِّقُهُ قَوْلُهُ ﷺ : « مَنْ تَوَاضَعَ لِرَغْنِيٍّ . . ذَهَبَ ثُلَاثَا
دِينِهِ » ^(٢) .

(١) فِي « صِفَةِ الصَّفْوَةِ » (١٣٩ / ٤) : ابْنُ الْمُبَارَكِ بَدَلُ (الْحَسَنِ) .

(٢) أَخْرَجَهُ بَنُحُوهُ عَنْ وَهْبِ الْبَيْهَقِيِّ فِي « الشَّعْبِ » (١٠٠٤٣) ، وَأَوْرَدَ نَحْوَهُ عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الدِّيلَمِيِّ كَمَا فِي « كِتَابِ الْعَمَالِ » (٦٢٨٩) بِلَفْظٍ :
« مَنْ تَضَرَّعَ لِصَاحِبِ دُنْيَا وَضَعَ بِذَلِكَ نِصْفَ دِينِهِ » وَعَنْ أَنَسٍ عِنْدَ الدِّيلَمِيِّ كَمَا
فِي « الْكَتَرِ » (٦٢٩٠) « مَنْ تَضَعَضَعَ لِدُنْيَا إِرَادَةَ دُنْيَاهُ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ
بِوَجْهِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

وَلَمَّا سَأَلَهُ مَسِيلَمَةُ الْكَذَّابُ الْمُلْكَ بَعْدَهُ.. قَالَ لَهُ : « وَاللَّهِ لَوْ
سَأَلْتَنِي هَذَا الْغُودَ - لِعُودَ فِي يَدِهِ - لَمْ أُعْطِكْهُ » (١) .

وَلَمَّا جَاءَهُ نَصَارِيُّ (نَجْرَان) ، وَعَلَيْهِمُ الْحُلُّ ، وَأَزْرَارُ
الذَّهَبِ .. أَوْقَفَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّهَارِ فِي الشَّمْسِ .

وَأَشَدُّ السَّرْخَسِيِّ [في « نفع الطيب » ١١٠/٣ من البسيط] :

لَمْ أَلْقَ مُسْتَكْبِرًا إِلَّا تَحَوَّلَ لِي عِنْدَ الْلِقَاءِ لَهُ الْكِبَرُ الَّذِي فِيهِ
وَلَا حَلَا لِي مِنَ الدُّنْيَا وَلَذَّتْهَا إِلَّا مُقَابَلَتِي لِلثَّيِّهِ بِالثَّيِّهِ

وَقَالَ بَعْضُ عِظَمَاءِ الدُّنْيَا لِلْحَسَنِ : مَا أَعْظَمَكَ فِي نَفْسِكَ !
فَقَالَ : لَسْتُ بِعَظِيمٍ فِي نَفْسِي ، وَلَكِنِّي عَزِيزٌ . مِنْ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ :
﴿ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المتافون : ٨] ؟

وَمَرَّ فِي الْمَجْلِسِ الْحَادِي عَشَرَ مَا يَشْبَهُهُ عَنْ زَيْنِ الْعَابِدِينَ
عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ [مِنَ الطُّوِيلِ] :

وَمَا أَنَا مَزْهُوٌّ وَلَكِنِّي فَتَى أَبَتْ لِي نَفْسٌ عَزَّةٌ لَنْ أُزِيلَهَا

وَقَالَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ - وَهُوَ عَلَى الْإِمَارَةِ - لَوْكَيْعِ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ :
سَوْ عَلَيَّ ثِيَابِي ، قَالَ : فِي خُفِّي ضَيْقٌ ، فَلْيَنْزِعْهُ الْأَمِيرُ ؛ حَتَّى أَنْفَرُغَ
لِمُسَاوَاةِ ثِيَابِهِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ عَدِيُّ : إِنَّ الْجَلِيسَ لِيَلِي مِنْ جَلِيسِهِ أَكْثَرَ
مِمَّا قُلْتُ لَكَ ، قَالَ : يَا عَدِيُّ إِذَا عُرِلْتَ عَنَّا .. فَكَلَفْنَا أَكْثَرَ مِنْ

(١) أَخْرَجَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ الْبَخَارِيِّ (٤٣٧٨) ، فِي (الْمَغَازِي)
بَلَفْظٍ : « لَوْ سَأَلْتَنِي هَذَا الْقَضِيبَ مَا أُعْطَيْتُكَ » .

هَذَا ، وَأَمَّا وَأَنْتَ تَرَى لَكَ عَلَيْنَا بَسْطَةً بِالْإِمَارَةِ . . فلا .

وَأَتَى سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى طَاوُوسَ فَلَمْ يَكْلُمْهُ ، فَقِيلَ لَهُ
فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ فِي عِبَادِ اللَّهِ مَنْ يَسْتَصْغِرُ
مَا يَسْتَغْظِمُهُ مِنْ نَفْسِهِ .

وفي « الإحياء » جملةٌ صالحةٌ مِنْ هَذَا النوعِ .

وَكَانَ الْأَغْنِيَاءُ - [كما في « الحلية » ٦ / ٣٦٥] - يَتَمَنُّونَ أَنْ لَوْ كَانُوا فَقَرَاءَ
فِي مَجْلِسِ سَفِيَانَ الثُّورِيِّ .

وَكَذَلِكَ كَانُوا فِي مَجَالِسِ آبَائِنَا وَمَشَائِخِنَا ، فَمَا بِالْعَهْدِ ، مِنْ قَدَمٍ ، مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَالَّذِي
وَلَمْ يَعْظُمُ فِي بِلَادِنَا الْفَرَقُ ، وَيَتَّسِعَ الْخَرْقُ إِلَّا عَمَّا قَرِيبٍ ؛ إِذْ تَصَدَّقْتُ بِهِ شَرْمَتَهُ
لِلزَّعَامَةِ مَنْ أَغْنَيْهِمْ بِمِثْلِ قَوْلِي - مِنْ قَصِيدَةٍ كَانَ إِنْشَاؤُهَا فِي أَيَّامِ الْحَدَاثَةِ -
[في « ديوان المؤلف » ق ١٧٣ مِنَ الطُّوَيْلِ] :

وَنَشَاءُ هَذَا الشَّرُّ مِنْ صُنْعِ قَادَةٍ إِلَيْهِمْ أَكْفُ الْأَغْنِيَاءِ تُشِيرُ
لَقَدْ أَتَرَوْا الدُّنْيَا فَكُلُّ أَحْيَى غِنَى لَدَيْهِمْ وَلَوْ جَمَّ الدُّنُوبُ أَثِيرُ
فَأَضْبَحَ حَالُ الْعِلْمِ مِنْ شَوْمٍ فَعَلِهِمْ كَحَالِ غَرِيبٍ خَانَ فِيهِ خَفِيرُ
نَكَزْتُ عَلَيْهِمْ فَعَلَهُمْ فَوَقَعْتُ فِي مَعَامِعَ ، فِيهِنَّ الْمَكْرُ عَسِيرُ

وما بنا أن نذكر تواضع الصدر الأول للحق ؛ لأنه البحر الذي
لا يُدركُ قعره ، ولا يُبصرُ عبره ، وقد رأينا بعيون رؤوسنا ممن أشرنا
إليهم ما يُغني عن الخبر [قال البديع الهمداني في « قرى الضيف » ٤ / ٣٤٤ مِنْ
الطُّوَيْلِ] :

أَحَادِيثُ يَزِينُهَا الْعِيَانُ كَمَا تَرَى وَإِنْ نَحْنُ حَدَّثْنَا بِهَا دَفَعَ الْعَقْلُ

ولاً.. فلو لم نَرَ شيئاً من ذلك.. لاخْتَلَطَ عَلَيْنَا الأَمْرُ ،
وتشككنا فيما يروى من تلك الأخلاقِ الفاضلةِ عَنِ السَّلَفِ الطَّيِّبِ ،
ولكنَّ العِيَانَ قطعَ كُلِّ شَكٍّ ، وأزالَ كُلَّ تَرَدُّدٍ ، فلنا بحقٍّ أَنْ نتمثَّلَ
وقتما كُنَّا نشاهدُ مشايخنا بقولِ الناظمِ [في « المُكَبَّرِ » ٢٢٧/٤ مِنْ البسيطِ] :

مَا شَيْدَ اللَّهِ مِنْ مَجْدٍ لِسَالِفِهِمْ إِلَّا وَنَحْنُ نَرَاهُ فِيهِمْ أَلَا نَا

ومما يروى عَنْ أَبِي يَزِيدَ البسطاميِّ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ كَأَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ
قَامَتْ ، وَتَجَلَّى الْحَكَمُ الْعَدْلُ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، وَأَخَذَ
الْمَلَائِكَةُ يَأْتُونَ النَّاسَ وَاحِداً وَاحِداً ، يَنْتَفِضُونَ مِنَ الْفَرَقِ^(١) ، حَتَّى
حَضَرَتْ نَوْبِي ، فَجِئْتُ بِي تَرَعْدُ فَرَائِصِي ، فَقَالَ لِي الْجَبَّارُ : مَاذَا
جِئْتُ بِهِ؟ قُلْتُ : الثِّقَةُ بِكَ ، قَالَ : وَهَلْ مِنْ شَكٍّ حَتَّى تَمُنَّ بِالثِّقَةِ بِي؟!
قُلْتُ : جِئْتُكَ بِالزُّهْدِ ، قَالَ : وَهَلْ لِلدُّنْيَا مِنْ قَدَرٍ حَتَّى تَمُنَّ بِالزُّهْدِ
فِيهَا؟! قُلْتُ : أَنْقَطَعَتْ حُجَّتِي يَا رَبِّ ، فَأَلْهَمْنِي رُشْدِي ، قَالَ : قُلْ :
جِئْتُ بِالْانْكَسَارِ بَيْنَ يَدَيْكَ ، أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى .

ولئن كَانَتْ مَنَاماً.. فمصدّقها قولُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْحَدِيثِ
الْقُدْسِيِّ : « أَنَا عِنْدَ الْمُتَنَكِّسَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي »^(٢) .

وفي « الصَّحِيحِ » : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ
سَاجِدٌ »^(٣) .

(١) الْفَرَقُ : الْخَوْفُ .

(٢) ذَكَرَهُ الْمَنَاوِي فِي « فَيْضِ الْقَدِيرِ » (٥١٩/١) ، وَالْمِجْلُونِي فِي « كَشْفِ
الْخَفَاءِ » (٦١٤) عَنِ الْقَارِي فَقَالَ : لَا أَصْلَ لَهُ .

(٣) أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُسْلِمٌ (٤٨٢) فِي (الصَّلَاةِ) .

وفي لزومياتي [مِن الطويل] :

يَذُلُّ لِرَبَّاتِ الْحِجَالِ أَخُو الْهَوَىٰ وَإِنْ كَانَتْ الدُّنْيَا إِذَا سَارَ تَهْتَزُّ
وَمَا عَفَرَ الْإِنْسَانُ فِي التُّرْبِ وَجْهَهُ لِمَوْلَاهُ إِلَّا كَانَ فِي ذَلِكَ الْعِزُّ

* * *

[قال أبو الطيّب المتنبي في «العكبري» ٢/ ٢٣٩ من الطويل]:

وَلَا تُؤَبِّ مَجْدٍ غَيْرَ نُؤَبِّ ابْنِ أَحْمَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِلُؤْمٍ مُرَقَّعٍ

شرح المطلع والعيوب
التي فيه

يقول: إنّه لم يسلم المجد لأحد خالصاً غير مشوب بشيء من اللؤم.. إلّا للممدوح، وقد انتقل من النسب إلى المديح من غير مناسبة، وذلك ما يسمونه: الوثب، والقطع، والاقتراب، كل ذلك يطلقونه عليه، وهو الأكثر في الجاهلية، واشتهر به من المتأخرين البحتري، وأبو نواس، حتى قال بعضهم [من مجزؤه الكامل]:

وَبِأَكْوَنِ الْبُخْتَرِيِّ مِنَ النَّسَبِ إِلَى الْمَدِيحِ
وَلِلنَّاطِمِ مِنَ الْمَخَالِصِ الْفَائِقَةِ مَا لَا يَسْتَهَانُ بِقَدْرِهِ، وَلَا يُجْهَلُ
مَكَانُهُ، كَقَوْلِهِ [في «العكبري» ١/ ٢٧١ من الطويل]:

المخالص الفائقة
للمتنبي

فَلَا تَعْجَبَا إِنْ أَلْسِيُوفَ كَثِيرَةً وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ
وَقَوْلِهِ [في «العكبري» ٢/ ١٥٣ من الطويل]:

وَعَيْتُ ظَنَّنَا تَحْتَهُ أَنَّ عَامِراً
عَلَا لَمْ يَمُتْ أَوْ فِي السَّحَابِ لَهُ قَبْرٌ
وَقَوْلِهِ [في «العكبري» ١/ ٢٢٨ من الكامل]:

أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ الْجِيَادِ كَأَنَّمَا
أَيْدِي بَنِي عِمْرَانَ فِي جَبْهَاتِهَا^(١)

(١) المعنى: جعلت قبلة خيلي المناقب والمحامد منكم، كما لو كانت نعمكم على جبهاتها.

وقوله [في «المكبري» ٣٠٨/٢ من الطويل] :

نَوَدُّهُمْ وَالْيَسْرُ فِينَا كَأَنَّهُ قَنَا ابْنَ أَبِي الْهَيْجَاءِ فِي قَلْبٍ فَيُلْقِي^(١)

وقوله [في «المكبري» ١٧٧/٢ من الخفيف] :

وَتَمَنَيْتُ مِثْلَهُ فَكَأَنِّي طَالِبُ لابنِ صَالِحٍ مَنْ يُوَازِي^(٢)

أَمَّا قَوْلُهُ [في «المكبري» ٢٥٣/٢ من الوافر] :

أَحْبَبُّكَ أَوْ يَقُولُوا : جَرَّ نَمْلٌ ثَبِيرًا وَأَبْنُ إِبْرَاهِيمَ رَيْعًا^(٣)

.. فلا يستحسنه إلا من ختم الله على بصيرته ، كما أسلفناه ،
وإن خفي ذلك على الشارح ، والعلم شاهد ؛ إذ لا مناسبة في
العطف بين الجمليتين ، ومثله مردود عند أهل المعاني .

وَمِنْ أَحْسَنِ الْمُخَالِصِ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ [في «ديوانه» ٣٤٠ من الشعراء والمخالص

البيط] :

أَمَطَّلَعَ الشَّمْسُ تَبَغْيِي أَنْ تَوْمَّ بِنَا فَقُلْتُ : كَلَّا وَلَكِنْ مَطَّلَعَ الْكَرَمِ

وقوله [في «ديوانه» ٣١٦ من الطويل] :

أَجْدُكَ هَلْ تَذَرِينِ يَا رَبَّ لَيْلَةٍ كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكَ يُنْشَرُ^(٤)

لَهَوْتُ بِهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بِغُرَّةٍ كَغُرَّةٍ يَخْيِي حِينَ يُمْدَحُ جَعْفَرُ

-
- (١) أبو الهيجاء : والد سيف الدولة . القنا : الرماح . الفيلق : الجيش .
(٢) يوازي : يعادل ويمائل . ابن صالح : هو الممدوح . وهذا البيت من أحسن
المخالص التي للمتنبي وقد أحسن فيه ، وله في المخالص اليد الطولى .
(٣) الثبير : جبل عظيم معروف بالحجاز ، وقد أوردته الشعراء كثيراً في أشعارهم .
(٤) أجذك : كلمة منصوبة على المصدرية ، وهي كلمة تستعمل بمعنى قولك :
أجد منك . قرونك : خصال شعرك .

وقول أبي نواس [في «ديوانه» ٢٩٩ من الطويل] :

دَعَيْنِي أَكْثَرَ حَاسِدِيكَ بِرِخْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهَا الْخَصِيبُ أَمِيرُ

وقوله [في «ديوانه» ٣٣٠ من الكامل] :

وَإِذَا أَرَدْتَ مَدِيحَ قَوْمٍ لَمْ تَمْنُ فِي مَدْحِهِمْ فَأَمْدَحْ بَيْنَ الْعَبَّاسِ^(١)

وقول الفرزدق [في «خزانة الأدب» ١/ ٣٣٠ من الطويل] :

إِذَا آنَسُوا نَارًا يَقُولُونَ : لَيْتَهَا وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمْ نَارُ غَالِبٍ

وقول البُحتري [في «ديوانه» ١/ ٦٢٤ من الطويل] :

رِيَاضُ تَرَدَّتْ بِالنَّبَاتِ مَجُودَةً بِكُلِّ جَدِيدِ الْمَاءِ عَذْبِ الْمَوَارِدِ^(٢)

إِذَا رَاوَحَتْهَا مُزْنَةٌ بَكَرَتْ لَهَا شَائِبُ مُجْتَازِ عَلَيْهَا وَقَاصِدِ^(٣)

كَأَنَّ يَدَ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا بِتِلْكَ الْكَسَائِرَاتِ الْرَوَاعِدِ

وقال البهاء زهير [في «ديوانه» ٢٢٢ من الكامل] :

أَهْوَى الْكَذْلُ فِي الْغَرَامِ وَإِنَّمَا يَأْبَى صَلاحُ الدِّينِ أَنْ أَتَذَلَّ

مَهَذُّ بِالْفَزْلِ الْرَشِيقِ لِمَدْحِهِ أَرَدْتُ قَبْلَ الْفَرَضِ أَنْ أَتَفَلَّ

بعض الشعراء يدعي
النقص في الناس ليرفع
ممدوحه

ثُمَّ إِنَّ دَعْوَى النِّقْصِ فِي الْخَلْقِ تَمْهِيدٌ لِتَفْضِيلِ الْمَمْدُوحِ عَلَيْهِمْ

لَا يَخْلُو عَنْهُ شَعْرٌ قَطُّ ، حَتَّى كَادَ أَنْ يَقَعَ بِهِ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحِيمِ الْبَرَعِيُّ

فِي إِسَاءَةِ الْأَدَبِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ،

وَلَا سِيَّما فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَسْتَهْلَهَا بِقَوْلِهِ [مِنَ الْوَافِرِ] :

(١) لم تمن : لم تكذب .

(٢) مجودة : أصابها الجود ، وهو المطر الغزير .

(٣) شَائِبٌ - جمع شُوبٍ - : وهو الدفعة من المطر .

سَمِعْتُ سَوْنَجَعَ الْأَثَلَاتِ غَنَى عَلَى مَطْلُوزَةِ الْعَذَبَاتِ رَثًا^(١)

أَمَّا الغَضُّ مِنْ قَوْمٍ مَعْيَنِينَ ، لِتَفْضِيلِ الْمَمْدُوحِ عَلَيْهِمْ . . فليس
بِالْحَقِيقَةِ إِلَّا تَقْصِيرًا بِهِ ؛ إِذْ لَا كَبِيرَ فَائِدَةٍ فِي الْفَضْلِ عَلَى الشَّقَاطِ ،
وَالِارْتِفَاعِ عَلَى السُّفْلَةِ [قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْقَاضِي السَّجَزِيُّ فِي « قِرَى الضَّبِّ »
٢٩٩/٥ مِنَ الطُّوِيلِ] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إِذَا قِيلَ : هَذَا السَّيْفُ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا

وَقَدْ وَقَعَ فِيهِ الْبُحْتَرِيُّ إِذْ يَقُولُ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٠٠/١ مِنَ الْكَامِلِ] :

شَهِدْتُ لَقَدْ أَنْصَفْتُهُ حِينَ تَنْبَرِي لَهُ مُضِلْنَا عَضْبًا مِنَ الْبَيْضِ مِقْضَبًا^(٢)
فَلَمْ أَرْ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا عِرَاكًا إِذَا الْهَيْبَةُ التُّكْسُ كَذَّبًا!^(٣)

وَالْحِمَاسِيُّ [إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَرْتِ] فِي قَوْلِهِ [فِي « دِيْوَانِ الْحِمَاسَةِ » ٢٥١/٢ مِنَ
الطُّوِيلِ] :

وَلِإِنِّي لِمَمَّنْ أَبْسُطُ الْكَفَّ بِاللَّذَى إِذَا شَنِجَتْ كَفُّ الْبَخِيلِ وَسَاعِدُهُ^(٤)

وَلِإِنَّمَا صَادِقُ الْمَدْحِ مِثْلُ قَوْلِ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١٦٤] مِنْ أَبْلَغِ مَا يَكُونُ الْمَدِيحُ أَنْ
تَرْفَعُ شَأْنَ عَدُوِّ
مَمْدُوحِكَ ثُمَّ تَفْضُلُهُ
الْبَسِيطِ] :

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ^(٥) عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا فَخْرَ
بِالتَّكْسِ عَلَى رِعَاقِ
النَّاسِ

(١) الْأَثَلُ : شَجَرٌ مِنَ الطَّرَفَاءِ وَاحِدَتُهُ أَثْلَةٌ ، وَالْجَمْعُ أَثَلَاتٌ . وَالتَّائِلُ : أَصْلٌ مَالٌ .

(٢) الْمَقْضَبُ : السَّيْفُ الْقَاطِعُ .

(٣) الضَّرْغَامُ : مِنْ أَسْمَاءِ الْأَسَدِ . التُّكْسُ : الرَّجُلُ الضَّعِيفُ وَالْمَقْصَرُ عَنْ غَايَةِ
النَّجْدَةِ .

(٤) شَنِجَتْ : يَسَيْتُ .

(٥) هَذَا الْبَيْتُ مِنْ أَرْوَعِ مَا قِيلَ فِي الْجُودِ ، وَقَدْ عَكَّسَهُ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ :

وما سبق في المجلس السادس من قول أبي تمام وما يناسبه في
« ديوانه » ٣١١/٢ من الطويل :

فَتَى كُلَّمَا أَرْتَادَ الشُّجَاعُ مِنَ الرَّدَى مَفْرَأَ غَدَاةِ الْمَازِقِ أَرْتَادَ مَضْرَعًا^(١)
وقد اتَّفَقَ أَنَّ شَاعِرَيْنِ تَقَدَّمَا فِي تَهْنِئَةٍ بَفَتْحٍ ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا : فَعَمِدَ
إِلَى تَحْقِيرِ أَمْرِ الْعَدُوِّ ، وَتَوْهِينِ شَأْنِهِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فَعَظَّمَ مِنْ
قُدْرِهِ ، وَكَبَّرَ مِنْ أَمْرِهِ ، فَاسْتَحَقَّ الْجَائِزَةَ الضَّخْمَةَ ؛ إِذْ ذَهَبَ
بِالْمَمْدُوحِ إِلَى أَعْدٍ شَأْوٍ فِي الْمَدِيحِ .

ووقع لي : أَنْ أَعْتَرَضَ غَبِيٌّ عَلَى كَلَامِ لِي ، فَتَقَضَّتْ قَوْلُهُ فِي
رِسَالَةٍ سَمَّيْتُهَا « تَأْدِيبُ الْمُجْتَرِي وَتَكْذِيبُ الْمُفْتَرِي » وَأَنْعَقَدَ مَجْلِسُ
لِذَلِكَ ، وَلَمَّا انْقَطَعَ ، وَأَعْيَاهُ الْإِنْفَصَالُ . . قُلْتُ فِي آخِرِهَا : عِنْدَ
ذَلِكَ أَنْكَشَفَتِ الْعِجَاجَةُ ، وَلَا فَخْرَ ؛ فَالرِّمِيَّةُ دِجَاجَةٌ ، وَأَعْطَانِي
الْناظِمُ شَاهِدًا ذَكَرْتُهُ وَهُوَ [في « المُكَبَّرِي » ٣٧٣/٣ من البسيط] :

وَشَرُّ مَا قَنَصْتُهُ رَاحَتِي قَنَصُ شُهْبِ الْبُرَاةِ سَوَاءٍ فِيهِ وَالرَّخْمُ
وَفِيمَا يَتَّصِلُ بِمَا نَحْنُ فِيهِ قَوْلُ مَهْلَهْلِ ابْنِ رَبِيعَةَ [في « ديوانه » ٤٢ من
الوافر] :

كَأَنَا غَدَوَةٌ وَيَنِي أَيْنَا بِجَنْبِ عُثَيْرَةٍ رَحِيًا مُدِيرِ^(٢)

= يَضِلُّ بِالنَّفْسِ إِذْ جَادَ الْكَرِيمُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ السَّرَفِ
(١) أَرْتَادَ : طَلَبَ . الْمَازِقُ : الْمَضِيقُ . الْمَصْرَعُ : مَكَانُ الْمَصْرَعِ ، الْمَوْتُ .

وَالْمَعْنَى : أَنَّ هَذَا الْقَائِدَ يُقَدِّمُ حِينَ يَعْجُزُ الشُّجْعَانُ ، وَكُلَّمَا أَشْتَدَّ الْقِتَالُ
ثَبَتَ فِي مَوْقِعِهِ لِيَكْسِبَ حَسَنَ الثَّنَاءِ .

(٢) عُثَيْرَةٌ : مَوْضِعٌ بَعَيْنُهُ ، بِهِ جَرَى الْيَوْمُ الثَّالِثُ بَيْنَ تَغْلِبِ وَبَكْرِ . رَحِيًا - مَثْنً =

وقال عمرو بن كلثوم [في ديوانه ٨٦٠ من الوافر] :

كَأَنَّ يَابَنَّا مِنَّا وَمِنْهُمْ خُضِبْنَ بِأَزْجَوَانٍ أَوْ طُلَيْنَا^(١)
كَأَنَّ سُيُوفَنَا فِينَا وَفِيهِمْ مَخَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِبِنَا^(٢)

وقال عمرو بن العاص في صفين [من الطويل] :

كَأَنَّ التَّمَاعَ الْبَيْضَ فِينَا وَفِيهِمْ تَبَوُّجُ بَرْقٍ فِي تَهَامَةٍ نَاقِبٍ
وقال أيضاً فيها [من الطويل] :

أَجِثْتُمْ إِلَيْنَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَنَا وَمَا رُمْتُمْ وَغَرَّ مِنَ الْأَمْرِ أَعْسَرُ
لَعْمَرِي لِمَا فِيهِ يَكُونُ احْتِجَاجُنَا إِلَى اللَّهِ أَذْهَى لَوْ عَقَلْتُمْ وَأَنْكَرُ
تَعَاوَزْتُمْ ضَرْباً بِكُلِّ مُهْتَدٍ إِذَا شَدَّ وَزْدَانٌ تَقَدَّمَ قُنْبَرُ
كَتَائِبُكُمْ طَوْرًا تَشْدُو وَتَارَةً كَتَائِبُنَا فِيهَا الْقَنَا وَالسَّنَوْرُ^(٣)
إِذَا مَا الْتَقَوْا يَوْمًا تَدَارَكَ بَيْنَهُمْ طِعَانٌ وَمَوْتُ فِي الْمَعَارِكِ أَحْمَرُ

وقال العباس بن مرداس [في ديوانه ٩٢٠-٩٣ من الطويل] :

وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْحَيِّ حَيًّا مُصْبِحًا وَلَا مِثْلَنَا يَوْمَ التَّقِينَا فَوَارِسًا^(٤)
أَكْرَ وَأَحْمَى لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِسَا^(٥)

= رحي - : وهي الأداة التي يطحن بها ، ذكرهما الشاعر ليدل على توازن تغلب وبكر في هذا اليوم ، أي : كانا سواء .

(١) الأرجوان : صبغ أحمر اللون .

(٢) المخاريق - جمع مخراق - : وهو ثوبٌ يُلف وتَضْرِبُ بِهِ الصبيان بعضهم بعضاً .

(٣) السَّنَوْرُ : بقية السلاح ، وقيل : الدروعُ خاصّة .

(٤) المصْبُحُ : الذي يؤتى صباحاً للغارة .

(٥) أَكْرَ : أكثرُ كراً . الحقيقة : ما يحق على المرء أن يحميه . القوانس - جمع =

إِذَا مَا شَدَدْنَا شِدَّةً نَصَبُوا لَنَا صُدُورَ الْمَذَاكِي وَالرُّمَاحِ الْمَدَاعِصَا^(١)
 إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيحٍ نُكِرْهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعْنَ إِلَّا كَوَاسِحَا^(٢)

وقال عبد الشارق بن عبد العزى الجهني [في «ديوان الحماسة» ١/ ١٦٩

من الوافر] :

أَلَا حَيَّيتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا نُحَيِّيَهَا وَإِنْ كَرُمْتَ عَلَيْنَا
 رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ جِنَّا عَلَى أَحْقَادِنَا وَقَدْ اخْتَوَيْنَا^(٣)
 فَأَرْسَلْنَا أَبَا عَمْرٍو رَيْنَا فَقَالَ : أَلَا أَنْعُمُوا بِالْقَوْمِ عَيْنَا^(٤)
 وَدَشُّوا فَارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءَ فَلَمْ نَغْذُزْ بِفَارِسِهِمْ لَدَيْنَا
 فَجَاؤُوا عَارِضًا بَرْدًا وَجِنَّا كَمِثْلِ السَّيْفِ نَرْكَبُ وَارِئِنَا^(٥)

= قونسي - : وهو أعلى بيضة الرأس .

(١) المذاكي - جمع مذك - : وهو ما جاوز القروح بسنة ، وقد قرح الفرس إذا دخل في السادسة . المدعص من الرماح : الغليظ الشديد الذي لا يثني ، ودعسه بالرمح طعنه .

يقول : إذا حملنا عليهم ثبتوا في وجوهنا ونصبوا صدور الخيل القرح والرماح المعدة لذلك .

(٢) يقول : إذا الخيل دارت عن مصروع مثلاً . كررنا عليهم ؛ لنصرع مثلاً ما صرعوا مثلاً ، وإن كرهت الخيل الكر لشدة البأس فلم ترجع إلا كواسح .

(٣) وقد اختوينا : أي لم نطعم شيئاً ، وكانوا يكرهون الطعام عند الحرب ؛ مخافة أن يطعن أحدهم في بطنه فيخرج منه الطعام ، فيكون ذلك عاراً .

وجواب (لو) محذوف ؛ لأن الأبيات مقصورة على بيان القصة ، والتقدير : لو رأيت غداة جئنا على أحقادنا ، لم نطعم شيئاً . . لرأيت أمراً عظيماً .

(٤) الريئة : العين الذي يطلع على أخبار العدو .

(٥) العارض : السحاب المعترض في الأفق . الوازع : الذي يرتب الجيش ويقدم ويؤخر ، ومعنى نركب وازهينا : لا نتقاد لمن يريد ضبطنا من الجيشين .

تَنَادَوْا يَا بَلَهْتَ إِذْ رَأَوْنَا قُلْنَا : صَوِّبِي رَمِيًا جُهَيْنَا^(١)
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ فَجَلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ أَرْعَوَيْنَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا أَنْخَا لِلْكَلاَكِلِ وَأَرْتَمَيْنَا
فَلَمَّا لَمْ نَدْعُ قَوْسًا وَسَهْمًا مَشِينَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا
شَدَدْنَا شِدَّةً فَقَتَلْتُ مِنْهُمْ ثَلَاثَةً فَنِيَّةً وَقَتَلْتُ قَيْنَا
وَشَدُّوا شِدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا بِأَرْجُلٍ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُورِنَا
وَكَانَ أَحْيَى جُورِينَ ذَا حِفَاطٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفَتَيَانِ زَيْنَا
فَأَبَوْا بِالرِّمَاحِ مُكْسَرَاتٍ وَأَبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدِ أَنْحَيْنَا
وَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أَحَاحُ وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا الْكَلَمَى سَرَيْنَا^(٢)

وقال بعض العرب ينصف خصومه [في «ديوان العباس بن مرداس» ١١٨

من الوافر] :

وَلَيْسَ الْجُبْنُ عَادَتُهُمْ وَلَكِنْ رَمَيْنَاهُمْ بِثَلَاثَةِ الْأَثَافِي^(٣)

وقال النابغة الجعدي ، أو زفر بن الحارث [في «ديوان النابغة» ٨٨ من

الطويل] :

فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بِالنَّبْعِ بَعْضُهُ بَبْغَضِ آبَثِ عَيْنَانُهُ أَنْ تَكْسُرَا^(٤)
سَقَيْنَاهُمْ كَأْسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا وَلَكِنَّا كُنَّا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَا

(١) تنادوا بالبهتة : أي دعوا بهتة ، وبهتة وجهية : بطن من العرب .

(٢) الأحاح : العطش والغيب ، وشدة الغم .

(٣) الأثافي : الأحجار الثلاثة التي توضع عليها القدر حتى يكون تحتها الموقد من حطب ونحوه .

(٤) النبغ : شجر أخضر العود صلب الخشب ، إذا تقادم . . أحمر لونه ، يستخدم في صناعة القسي والسهام ، والنبغ كناية عن كرم الأصل وشرف النسب .

وقال معاوية لدغفل [في «جمهرة خطب العرب» ٣٦٧/٢] : أخبرني عن قومك بكر بن وائل ، قال : كانوا أهل عز قاهر ، وشرف ظاهر ، قال : فأخبرني عن إخوانهم تغلب ، قال : كانوا أسوداً ترهب ، وساماً لا تقرب ، قال : فكم أدبلوا عليكم ؟ قال : أربعين سنة ، لا نتصف منهم في موطن نلقاهم فيه . . حتى كان يوم تحلاق اللمم ، وقد غضب الحارث بن عباد لقتل ابنه بشنع نعل كليب ، فحمي ، وقال [من الخفيف] :

قرباً مَرَبَطَ النِّعَامَةِ مِنِّي لَحَقْتُ حَزْبُ وَائِلِ جِيَالِ
قرباً مَرَبَطَ النِّعَامَةِ مِنِّي إِنَّ بَيْعَ الْكِرَامِ بِالشُّنْعِ غَالِي
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ اللَّهُ وَإِنِّي بِحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالِي

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٧٥/١ من الكامل] :

ضَرَبَ الْجِبَالَ بِمِثْلِهَا مِنْ عَزْمِهِ غَضَبَانِ يَطْعَنُ فِي الْحِمَامِ وَيَضْرِبُ

وقال [في «ديوانه» ٢٢١/١ من الطويل] :

وَلَمْ أَرَ كَالْمَلْعُونِ أَثَرِي ذَخِيرَةً وَأَبْقَى دَمًا وَالْحَادِثَاتُ تُجَابِيهِ
إِذَا قُلْتُ : بِيضُ الْمَشْرِفِيَةِ أَهْمَدَتْ حُشَاشَتُهُ . . كَرَّتْ تَثُوبُ ثَوَائِبُهُ^(١)
يُبْتُ الْمَنَابِيَا وَالْمَنَابِيَا يَحْزَنُهُ وَيَكْمُنُ مِنْهُ الْحَنْفُ وَالْحَنْفُ كَارِيهِ
إِذَا أَرْدَادَ شَغْبًا كَانَ وَالِي قِرَاعِهِ مَلِيًّا لَهُ بِالْفَضْلِ حِينَ يُشَاغِبُهُ^(٢)

- (١) أهمدت : سكت . البيض : السيوف . المشرفية : السيوف المنسوبة إلى قري من أرض العرب تدنو من الريف اسمها مشارف الشام . تثوب : تعود .
الثواب : الريح الشديدة التي تكون في أول المطر .
(٢) الشغب : كثرة الجلبة المؤدية إلى الشر . القراع : التطاحن .

كَمَا اللَّيْلُ إِنْ تَرَدَّدَ لِعَيْنَيْكَ ظُلْمَةٌ حَنَادِسُهُ تَزْدَادُ ضَوْءاً كَوَاجِبُهُ^(١)

وقال من قصيدته التي يصف بها ملاقاته الفتح بن خاقان للأسد [في ديوانه ٢٠١/١ من الطويل] :

هَزَبْتُ مَشَى يَبْغِي هَزَباً وَأَغْلَبْتُ مِنْ الْقَوْمِ يَغْشَى بَاسِلَ الْوَجْهِ أَغْلَبًا^(٢)
أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثُمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ رَأَى لَهَا أَمْضَى جَنَاناً وَأَشْغَبًا^(٣)
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعاً وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَباً
فَلَمْ يُغْنِهِ أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلاً وَلَمْ يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْكَ مُنْكَباً
حَمَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفَ لَا عَزْمَكَ أَتْنَى وَلَا يَدُكَ أُرْتَدَّتْ وَلَا حُدَّهُ نَبَاً

والأخير من عيون الشعر ، وفرائده ، ومختاره ، وخالصه ، وإن قال المرتضى في « أماليه » : إنه من شعر لبعض الجاهليين ، ذكره ونسيته .

وقال الناظم [في « المكبري » ١٨٥/١ من الطويل] :

وَمَا عِدَمَ الْأَلْفُوكَ بَأْساً وَشِدَّةً وَلَكِنَّ مَنْ لَاقَوْا أَشَدُّ وَأَنْجَبُ

وقال [في « المكبري » ٨٤-٨٣/١ من الوافر] :

وَلَوْ غَيْرُ الْأَمِيرِ غَزَا كِلَاباً ثَنَاهُ مِنْ شُمُوسِهِمْ ضَبَابُ^(٤)

(١) الحنادس : الظلمات ، وتطلق أيضاً على ثلاث ليالٍ مظلمة من آخر كل شهر .

(٢) الهزب : من أسماء الأسد . الأغلب : الأسد الغليظ الرقبة وهو من صفات المدح .

(٣) أدل : أجترأ .

(٤) الضباب - جمع ضبابية - : وهي سحابة تغشى الأرض كال دخان ، يقال منه : أضب نهارنا .

وَلَا قَى دُونَ ثَابِيهِمْ طَعَانَا يُلَاقِي عِنْدَهُ الذُّنْبَ الْغَرَابُ^(١)
وَحَيْلًا تَغْتَذِي رِيحَ الْمَوَامِي وَيَكْفِيهَا عَنِ الْمَاءِ السَّرَابُ^(٢)
وَلَكِنْ رَبُّهُمْ أَسْرَى إِلَيْهِمْ فَمَا نَفَعَ الْوُقُوفُ وَلَا الذَّهَابُ^(٣)

وقال [في] «المكبري» ١٣٩/٣ : [من الخفيف] :

وَهُمُ الْبَخْرُ ذُو الْغَوَارِبِ إِلَّا أَنَّهُ صَارَ عِنْدَ بَخْرِكَ الْآ^(٤)

وقال [في] «المكبري» ٣٦٢/١ : [من الوافر] :

لَقُوكَ بِأَكْبَدِ الْإِبِلِ الْأَبَايَا فَسُقْتَهُمْ وَحَدُّ السَّيْفِ حَادٍ

وقال [في] «المكبري» ١٠٠/٢ : [من الوافر] :

وَمَا أَنْقَادَتْ لِعَيْرِكَ فِي زَمَانٍ فَتَعْرِفَ مَا الْمَقَادَةُ وَالصَّنَارُ

وقال [في] «المكبري» ١٣٥/٣ : [من الخفيف] :

حَالُ أَعْدَائِنَا عَظِيمٌ وَسَيْفُ الدَّ وَلَهُ ابْنُ السُّيُوفِ أَعْظَمُ حَالًا

وقال [في] «المكبري» ٧/٣ : [من الوافر] :

يَحِيدُ الرُّمَحُ عَنْكَ وَفِيهِ قَصْدٌ وَيَقْصُرُ أَنْ يَنَالَ وَفِيهِ طَوْلُ^(٥)

(١) الثابي - جمع ثابة - : وهي الحجارة التي تجعل حول البيت ، يأوي إليها الراعي

ليلاً ، وهي مبارك الإبل ومرابض الغنم .

(٢) الموامي - جمع موماة - : وهي المفازة .

(٣) ربهم : هو الله تعالى ، ولا يُقال لغيره إلا بالإضافة . أسرى : سار ليلاً .

والمعنى : لم تنفعهم الحرب ، لأنهم أدركوا ، ولا الوقوف لو وقفوا في

ديارهم للدفاع والمحاماة ؛ لأنهم لو وقفوا قتلوا .

(٤) الغوارب : أعالي الموج . الآل : السراب .

(٥) يحيد : يرجع . القصد : الاستقامة ، يريد : أن الرمح مستقيم غير معوج .

ولمّا أنقرضت دولة بني رزيك على يد أبي شجاع شاور بن مجير . . جلس ذات يوم وحوله جماعة من صنائع بني رزيك ، فوقعوا فيهم ؛ تملقاً لأبي شجاع ، ومقاربة له ، فقال عمارة اليميني [من البسيط] :

زَالَتْ لِيَالِي بَنِي رُزَيْكٍ وَأَنْصَرَمَتْ وَالْمَذْحُ وَالذَّمُّ فِيهَا غَيْرُ مُنْصَرِمٍ
كُنَّا نَظُرُ وَبَعْضُ الظَّنِّ مَائِمَةٌ بَأَنَّ ذَلِكَ جَمْعٌ غَيْرُ مُنْهَزِمٍ
وَلَمْ يَكُونُوا عَدُوًّا ذَلَّ جَانِبُهُ لَكِنَّهُمْ غَرِقُوا فِي سَنِكَ الْهَمِّ
وَمَا قَصَدْتُ بِتَعْظِيمِي عِدَاكَ سِوَى تَعْظِيمِ شَأْنِكَ فَأَعْذُرَنِي وَلَا تَلُمْ
وَلَوْ شَكَرْتُ لِيَالِيهِمْ مُحَافَظَةً لِعَهْدِهَا لَمْ يَكُنْ بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمٍ
وَلَوْ فَتَحْتُ فِي يَوْمٍ بِذَمِّهِمْ لَمْ يَرْضَ فَضْلُكَ إِلَّا أَنْ يُسَدَّ فِيمِي

فشكره شاور وأولاده على الوفاء ، وحفظ العهد^(١) .

وقد سبق نظائره في الكلام على قوله [في «المكبري» ٣٣٩/٢ من

الكامل] :

يَا ذَا الَّذِي يَهْبُ الْجَزِيلُ وَعِنْدَهُ أَنِّي عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ

أمّا دعواه لممدوحه براءة الجيب من العيب . . فأولى الناس بذلك سيّد الوجود ، وأفضل مولود ، فقد أخذ ابن الفارض في خلوته يردّد قول الحريري [في «وفيات الأعيان» ٢٥٥/٣ من مجزوء الرجز] :

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطْ وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطْ

حتّى سمع هاتفا يقول [من مجزوء الرجز] :

مُحَمَّدُ الْهَادِي الَّذِي عَلَيْهِ جَنَرِنُلْ هَبَطْ

(١) «وفيات الأعيان» (٤٤٢/٢) .

الكلام حول عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وللعلماء في عصمة الأنبياء كلام ، حاصله الذي ذهب إليه الأشعرى : عصمتهم من الكبائر وصغائر الخسة فقط .

وقالت الرافضة ، وطائفة من متأخري الشافعية : بعصمتهم من الكبائر والصغائر مطلقاً ، قبل النبوة وبعدها ، وتلزم عليه إشكالات طويلة ، يلزم لها تأويل طائفة من القرآن .

وما أحسن قول النابغة [الذبياني في ديوانه ٧٨ من الطويل] : لا تجد إنساناً كاملاً ولكن العبرة بالأغلب

ولست بمُستبني أحاً لا تلثمهُ على شعث ، أي الرجال المهدَّب ؟

وقال بشر [البيت غير منسوب في قرى الضيف ١٨١/١ من الطويل] : وَمَنْ ذَا الَّذِي تَرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَابِيَهُ وصدق فإنما العبرة بالأكثر الغالب من أحوال الإنسان ، فمن غلب عليه الخير والفضل .. عُدَّ من الأخيار الفضلاء ، وتُنوِّسَتْ مساوئِهِ في جَنبِ محاسنِهِ ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] .

وقد ذكرنا في كتابنا « بلبل التفريد » : حديث معاوية مع ابن جعفر ، وزيدته : أَنَّ إِحْدَى أَزْوَاجِهِ أَنْبَهُتُهُ لِيَسْمَعَ مَا عِنْدَ ابْنِ جَعْفَرٍ مِنَ الْأَغَانِي ؛ لِتُحِطَّ مِنْ قَدْرِهِ عِنْدَهُ بِذَلِكَ ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ .. أَنْبَهَا ؛ لِتَسْمَعَ مَا كَانَ مِنْ تَهْجِدِ ابْنِ جَعْفَرٍ وَتِلَاوَتِهِ ، وَقَالَ : هَذَا مَكَانٌ مَا أَسْمَعْتَنِي .

ولله قول بعضهم [البيت في نفع الطيب ٢٥/٦ غير منسوب لقائل من الكامل] :

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ

وقول الناظم [في «المكبري» ٢٩٢/٢ من الطويل] :

فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ أَلَّا يَنْ سَرَزَنَ أَلْوَفُ
وكثيراً ما تمثّلنا بهذين البيتين ، ولا ملامّة ؛ فالمناسبات
كثيرة .

وَأَمَّا مَنْ غَلَبَتْ سَيِّئَاتُهُ ، وَكَثُرَتْ سَقَطَاتُهُ ، وَرَجَحَتْ تَبَعَاتُهُ . .
فَلَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ السَّاقِطِينَ ، وَلِلَّهِ دُرُّ الْقَائِلِ [مِنَ الْكَامِلِ] :

وَلَيْتَ تَسْرُوكَ مِنْ تَمِيمٍ خَلَّةٌ فَلَمَّا يَسْؤُوكَ مِنْ تَمِيمٍ أَكْثَرُ
وما يقرّره الفقهاء في باب الشهادة من حدّ العدالة لا يخرج عمّا
ذكرناه ، وقد قال ﷺ : « وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ : فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ
عَاتِقِهِ »^(١) اعتباراً بالأكثر من غلبة الأسفار عليه ، وإلا . . فهو يضعها
في كثير من أحواله .

وتجد كثيراً ممّن يكتُب في التراجم يجاوز الحدود ، ويتقول
على الله ، ومثل أولئك لا يكون ما يكتبون إلّا حجة على سقوطهم ،
وأطراحهم ، وأندفاع سائر مروياتهم عن القبول ، ومن هنا أخطأ كثير
في تقدّيس السلف الصالح ، والذهاب بهم إلى عصمة الملائكة ، أو
إلى ما يقرب منها ، ونشأ عن ذلك فساد كبير في الدين ، يزول إن
شاء الله بما أشبعنا القول في تحقيقه من « بلبال التغريد » .

* * *

(١) أخرجه عن فاطمة بنت قيس مسلم (١٤٨٠) في (الطلاق) ، وأحمد
(٤١٢/٦) ، وأبو داود (٢٢٨٥) وما بعده ، والترمذي (١١٨٠) ،
والنسائي (٧٤/٦) في الطلاق .

[قال أبو الطيّب المتنبي في «العكبري» ٢/ ٢٤٣ من الطويل] :

إِذَا عَرَضْتُ حَاجًّا إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ إِلَى نَفْسِهِ فِيهَا شَفِيعٌ مُشَفِّعٌ

الجود ليس وراثة عن الجود... ولكنه حساسية في الجلود
معناه ظاهرٌ ، وهو ممّا تداوله الشعراء طارفاً وتليداً ، قال الحطيئة [في «ديوانه» ٣١٠ من الطويل] :

وَذَاكَ أَمْرٌ إِنْ تَأْتَيْهِ فِي نَفْسِهِ إِلَى مَالِهِ لَا تَأْتِيهِ بِشَفِيعٍ
وقال الفرزدق [من الطويل] :

لِكُلِّ أَمْرٍ نَفْسَانِ : نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَأُخْرَى يُعَاصِيهَا الْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسِكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى إِذَا قَلَّ مِنْ أَخْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا
وقال أبو العتاهية [من الطويل] :

أَيَا جُودَ مُوسَى نَادِ مُوسَى لِحَاجَتِي فَلَيْسَ إِلَيَّ مُوسَى سِوَاهُ شَفِيعٍ^(١)
وقال ابن الرومي [في «ديوانه» ١٤٦٨/٤ من الطويل] :

أَبَا الصَّفْرِ مَنْ يَشْفَعُ إِلَيْكَ بِشَافِعٍ فَمَا لِي سِوَى شِعْرِي وَجُودِكَ شَافِعٍ
وقال الخزيمي [في «ديوانه» ٢١ من الكامل] :

شَفَعْتُ مَكَارِمُهُمْ لَهُمْ فَكَفَّتْهُمْ جُهْدَ السُّؤَالِ وَلُطْفَ قَوْلِ الْمَدَاحِ

(١) البيت غير منسوب في «المستطرف» (٣٥١/١) ، وهو على الشكل التالي :
أَيَا جُودَ مَعْنٍ نَادِ مَعْنًا لِحَاجَتِي فَلَيْسَ إِلَيَّ مَعْنٍ سِوَاكَ شَفِيعٌ

وقال أبو العباس المبرّد [في «المستطرف» ٢٨١/١] : أتاني رجلٌ
يستشفعُ بي في حاجةٍ ، وأنشدني لنفسه [من البسيط] :

إِنِّي قَصَدْتُكَ لَا أَذِلِّي بِمَعْرِفَةِ وَلَا بِقُرْبِي وَلَكِنْ قَدْ فَشَتْ نِعْمُكَ
فِيكَ حَيْرَانٌ مَكْرُوباً يُؤَزِّقُنِي ذُلُّ الْغَرِيبِ وَيُغْشِيَنِي الْكُرَى كَرْمُكَ
وَلَوْ هَمَمْتُ بِغَيْرِ الْعُرْفِ مَا عَلِقْتُ بِهِ يَدَاكَ وَلَا أَنْقَادَتْ لَهُ شَيْمُكَ
مَا زِلْتُ أَنْكَبُ حَتَّى زُلْزِلْتُ قَدَمِي فَأَخْتَلُ لِشَيْبَتِهَا لَا زُلْزِلْتُ قَدَمُكَ
قال : فشفتُ له ، وقمتُ بأمره ، حَتَّى بَلَغْتُ لَهُ مَا أَحَبُّ .

وقال أيضاً : قلتُ لعبدِ الله بنِ يحيى بنِ خاقانَ : أنا أَشْفَعُ إِلَيْكَ -
أَصْلَحَكَ اللهُ - في أمرِ فلانٍ ، فقالَ لي : قد سمعتُ ، وأطعْتُ ،
وسأعطيه كذا ، فما كانَ مِنِ نقصٍ . . فعَلَيَّْ ، وما كانَ مِنِ زيادةٍ . .
فلهُ ، فقلتُ لَهُ : أنتَ - أَطَالَ اللهُ بقاءَكَ - كما قالَ زهيرٌ [في «ديوانه»
١٤٠ من الوافر] :

وَجَارٍ سَارَ مُتَعِمِداً عَلَيْنَا أَجَاءَتْهُ الْمَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ
ضَمِينًا مَالَهُ فَعَدَا سَلِيمًا عَلَيْنَا نَقْصُهُ وَلَهُ النَّمَاءُ

وقال المجنون [في «ديوانه» ١٩٢ من الطويل] :

مَضَى زَمَنٌ وَالنَّاسُ يَسْتَشْفِعُونَ بِي فَهَلْ لِي إِلَى لَيْلَى الْغَدَاةِ شَفِيعُ؟
وفي البيتِ رائحةٌ تدبُّثٌ وقيادةٌ ، لولا ما يمهّدُ لَهُ بِهِ العذرُ مِنْ أَنَّهُ
لا يراؤُ ظاهرُهُ .

وقال الصولي [بل المجنون في «ديوانه» ١٩٥ من الطويل] :

وَبُنْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةٍ إِلَيَّ فَهَلَّا نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعُهَا

أَكْرَمُ مِنْ لَيْلَى عَلَيَّ فَتَبَتْنِي بِهِ النِّجَاهُ أَمْ كُنْتُ أَمْرًا لَا أُطِيعُهَا

الشفاعة عند الناس من
الجود

وَقَالَ بَعْضُهُمْ [وهو أبو بكر ابن هارون المهلب في «خزانة الأدب» ٣٧٦/٢] :
كُنَّا فِي حَلَقَةٍ دَعْبِلِ الْخَزَاعِيِّ ، فَذَكَرَ أَبُو تَمَّامٍ ، فَقَالَ دَعْبِلُ : إِنَّهُ يَتَّبِعُ
مَعَانِيَّ فَيَأْخُذُهَا ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : هَاتِ صُورَةَ ذَلِكَ ، قَالَ : قُلْتُ [في
«ديوانه» ١٩٣ مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَإِنَّ أَمْرًا أَسَدَى إِلَيَّ بِشَافِعٍ إِلَيْهِ ، وَيَزْجُو الشُّكْرَ مِنِّي لِأَخْمَقُ
فَأَخَذَهُ وَقَالَ [في «ديوانه» ٢٩/٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

وَإِذَا أَمَرُوا أَسَدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّهُا مِنْ مَالِهِ
فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ ، فَإِنْ كَانَ سَبَقَكَ . . فَقَدْ
قَصَّرْتَ ، وَإِنْ كُنْتَ سَبَقْتَهُ . . فَقَدْ أَحْسَنَ الْإِتِّبَاعَ ، وَصَارَ أَحَقُّ بِالْمَعْنَى
مِنْكَ ، فغَضِبَ دَعْبِلُ وَقَامَ .

ثُمَّ إِنَّ مَا قَالَهُ أَبُو تَمَّامٍ عَيْنُ الصَّوَابِ ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِشُكْرِ الشَّافِعِ ،
وَلَمْ يَبْخَسِ الْمَعْطَى حَقَّهُ مِنَ الصَّنِيعِ ، بِخِلَافِ دَعْبِلٍ ؛ فَإِنَّهُ أَهْتَضَمَ
حَقَّ الْمَشْفُوعِ إِلَيْهِ جَمْلَةً ، كَمَا فِي قَوْلِهِ [في «ديوانه» ١٩٣ مِنْ الطَّوِيلِ] :
شَفِيعَكَ فَأَشْكُرُ فِي الْحَوَائِجِ إِنَّهُ يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ
بِشَهَادَةِ فَعْلِيَّةِ الْخَبَرِ ، وَتَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ
لَا يَجُوزُ .

وهذا رسول الله ﷺ يقولُ : « أَرْفَعُوا إِلَيَّ حَوَائِجَ النَّاسِ ،
وَأَشْفَعُوا . . تَوَجَّرُوا ، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ »^(١) .

(١) أخرجه عن أبي موسى رضي الله عنه أحمد (٤١٣/٤) ، والبخاري
(١٤٣٢) ، ومسلم (٢٦٢٧) ، وأبو داود (٥١٣١) ، والترمذي =

وقد وقع البُحترِّي في قريبٍ ممَّا وقع فيه دعبِلٌ ، وذلك حيثُ
يقولُ [في «ديوانه» ٣٨/١ من الكامل] :

وَعَطَاءٌ غَيْرِكَ إِنْ بَذَلَ سَتَ عِنَايَةٍ فِيهِ عَطَاؤُكَ
غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَصْرُخْ بِأَهْتِضَامِ الْمَشْفُوعِ إِلَيْهِ ، وإنَّمَا قد يُوْخَذُ مِنْ
فحوى كلامِهِ ، معَ أحتِمَالِهِ لغيرِ ذلكَ ، فهوَ مثلُ قولِ الآخرِ [من
الكامل] :

وَإِذَا أَمَرُوْهُ أَسَدَى إِلَيْكَ بِشَافِعٍ خَيْرًا فَذَاكَ الْخَيْرُ خَيْرُ الشَّافِعِ
وقالَ عليُّ بنُ قريشٍ الجرجانيُّ [في «صبح الأعشى» ١٧٠/٩ من
الطويل] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَغْطِفْكَ إِلَّا شَفَاعَةٌ فَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ يَكُونُ بِشَافِعٍ
وما أحسنَ في دفعِ المذمَّةِ عَمَّنْ أعطى بالشِّفَاعَةِ من قولِ ابنِ
الروميِّ [في «ديوانه» ٢٠٦٨/٥ من الخفيف] :

لَنْ يَعْيبَ السَّحَابُ أَنْ تَتَوَلَّى مِنْهُ أَيْدِي الرِّيَّاحِ حَلَّ الْعَزَالِي
وقالَ البُحترِّي [في «ديوانه» ١٠٠٧/٢] :

وَلِي حَاجَةٌ لَمْ أَلْ فِيهَا وَسِيلَةً إِلَى الْقَمَرِ الْوَضَّاحِ وَالسَّيِّدِ الْغَمْرِ^(١)
شَفَعْتُ إِلَيْهِ بِالْإِمَامِ وَإِنَّمَا تَشَفَّعْتُ بِالسُّنْسِ أَنْتَصَاراً إِلَى الْبَذْرِ
فَلَمْ أَرِ مَشْفُوعاً إِلَيْهِ وَشَافِعاً يُدَايِنُهُمَا فِي مُنْتَهَى الْجُودِ وَالْفَخْرِ
فَعَالَ كَرِيمٍ أَلْفَعَلَ مُطْلَبِ الْجَدَا وَقَوْلِ مُطَاعِ الْقَوْلِ مُتَّبِعِ الْأَمْرِ

= (٢٦٧٤) ، والنسائي (٧٨/٥) .

(١) الغمرُ : الكريمُ الواسعُ الخُلُقِ . لم أَلْ : لم أقصُر ولم أبطئ .

إذا تعدت الأمور من أعاليها .. أتيناها من أسافلها
وكان لعبد الله بن الزبير حاجة إلى معاوية لواءه فيها ، فاستعان
عليه ببعض نسائه ، ففضى حاجته ، فعير ابن الزبير بذلك ، فقال :
إذا تعدت الأمور من أعاليها .. طلبناها من أسافلها ، فأخذه
البُحرِيُّ وقال [في ديوانه ٣٠ / ١٩٠٠ من الطويل] :

إِذَا مَا أَعَالِي الْأَمْرِ لَمْ تُغَطِّكَ الْمُنَى فَلَا بَأْسَ فِي اسْتِنْجَاحِهَا بِالْأَسَافِلِ

ما يصلح الرجل بالنهار .. تفسده المرأة بالليل
وأتفق لابن الزبير بعد ذلك مثله^(١) ، فقد اختصم إليه الفرزدق
وعزسه النوار ، ونزل الفرزدق على ابنه حمزة ، ونزلت كنوار على
زوجيه ، فكان ما يصلح حمزة من أمر الفرزدق نهاراً ، تفسده المرأة

(١) كانت زوجة الفرزدق ابنة عمه وهي النوار ، وكان قد خطبها رجل من قريش ،
فبعث إلى الفرزدق تسأل أن يكون وليها ، إذ كان ابن عمها ، فقال : إِنْ
بِ(الشَّامِ) مَنْ هُوَ أَقْرَبُ مِنِّي إِلَيْكَ ، وما أنا آمنُ أَنْ يقدِمَ قَادِمٌ مِنْهُمْ فَيُنْكَرَ ذَلِكَ
عَلَيَّ ، فأشهدي أنك قد جعلت أمرك إليّ . . . ففعلت ، فخرج الشهود ، وقال لهم :
قد أشهدكم أنها جعلت أمرها لي ، وأنا أشهدكم أنني قد تزوجتها على مئة ناقة حمراء
سود الحديق ، فغضبت من ذلك ، وأستعذت عليه ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير
- وأمر (الحجاز) و(العراق) يومئذ إليه - وخرج الفرزدق أيضاً .

فأما النوار : فنزلت على خولة بنت منظور بن زبآن الفزاري ، امرأة
عبد الله بن الزبير ، فرققتها ، وسألتها الشفاعة لها .

وأما الفرزدق : فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير - وهو ابن خولة
المذكورة - ومدحه فوعده الشفاعة .

فكلمت خولة في النوار ، وتكلم حمزة في الفرزدق ، فأنجحت خولة ،
وأمر عبد الله بن الزبير أن لا يقربها حتى يصيرا إلى (البصرة) فيحتكما إلى
عالمه عليها ، فخرجا ، وقال الفرزدق في ذلك :

أَمَا بَنُوهُ فَلَمْ يَقْبَلْ شَفَاعَتَهُمْ
الآيات .

ليلاً ، حتَّى أيقنَ الفرزدقُ بالفشلِ ، فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

أَمَّا بَنُوهُ فَلَمْ تُقْبَلْ شَفَاعَتُهُمْ وَشُقِّعَتْ بِنْتُ مَنْظُورٍ بِنِ زَبَانَا
لَيْسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُتَزَرًّا مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْيَانَا
ولا حاجةَ لاستِيفاءِ القِصَّةِ ؛ لأنَّها طويلةٌ ، ولها أذنانٌ .

وقالَ صائِنُ الدينِ الموصليُّ [في «وفيات الأعيان» ٢٧٩/٥١ مِن الوافرِ] :

إِذَا أَحْتَاجَ النَّوَالُ إِلَى شَفِيعٍ فَلَا تَقْبَلْهُ تُضْحِ قَرِيرَ عَيْنِ
إِذَا عِيفَ السُّؤَالُ لِفَرْدٍ مِّنْ فَأُولَى أَنْ يُعَافَ لِمَتَّيْنِ

ومن أبداع ما رأيتُ في الشفاعاتِ : ما كتبه عروة بنُ الزبيرِ إلى
الوليد بن عبد الملك مع كعبِ العبيسيِّ ، يسكِّنه من غضبةٍ غضبها
في الشفاعةِ إلى الوليد
بن عبد الملك
عليه في جُزمٍ كانَ منه .

ونصُّه : لو لم يكن لكعبٌ من قديمِ حرمته ما يغفرُ له عظيمُ
جريرته . . لوجبَ أن لا تحرمهُ التقيُّو بظُلِّ عفوك ، الذي تأمله
القلوبُ ، ولا تعلقُ به الذنوبُ ، وقد استشفعَ بي إليك ، فوثقتُ له
منك بعفوٍ لا يخلطُهُ سخطٌ ، فحقَّقَ أمله فيَّ ، وصدَّقَ ثقتي بك ،
مغتنيماً للشُّكرِ ، مبتدئاً بالنعمةِ .

فكتبَ إليه الوليدُ : قد شكرتُ رغبتهُ إليك وعفوتُ عنه ؛ لمعوله

= ثُمَّ إِنَّ الْفَرَزْدَقَ اتَّفَقَ مَعَهَا ، وَبَقِيَ زَمَانًا لَا يُولَدُ لَهُ وَلَدٌ ، ثُمَّ وَلِدَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ
عِدَّةُ أَوْلَادٍ ، وَهَم : لَبَطَةٌ ، وَسَبْطَةٌ ، وَحَبْطَةٌ ، وَرَكْضَةٌ ، وَزَمْعَةٌ ، وَكُلُّهُمْ مِنْ
التَّوَارِ ، وَلَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ عَقِبٌ إِلَّا مِنَ النِّسَاءِ .
انظر : «وفيات الأعيان» (٩٩/٦) .

عليك ، وله عِندي الذي تحبُ ، إن لم تقطعَ كتبَكَ عَنِّي في أمثاله
وفي سائرِ أمورِكَ .

المنصور يطلب من محمد بن جعفر أن يخفف من كتب شفاعاته

وذكرتُ بها [ما روى الأبشيهي في «المستطرف» ١/ ٢٨٠] : أَنَّ المنصورَ
كَانَ معجباً بمحادثةِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ عبيدِ اللَّهِ بْنِ العَبَّاسِ ، وَكَانَ
النَّاسُ يَفْزَعُونَ إِلَيْهِ فِي الشَّفَاعَاتِ ، حَتَّى أَثْقَلَ عَلَى المنصورِ ،
فَحَبَسَهُ مَدَّةً ، ثُمَّ أَشْتَقَّ إِلَيْهِ ، وَقَالَ للرَّبيعِ : إِنَّهُ لَا صَبْرَ لِي عَنْهُ ،
وَلَكِنِّي أَسْتَقِلُّ شَفَاعَاتِهِ ، فَشَرَطَ عَلَيْهِ الرَّبيعُ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهَا ،
فمَكَثَ أَيَّاماً لَا يَشْفَعُ لِأَحَدٍ ، ثُمَّ وَقَفَ لَهُ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ
بِرِقَاعٍ مَدَّخِلُهُ عِنْدَ المنصورِ ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْهُمْ ، فَقَصَّ عَلَيْهِمْ
خَبْرَهُ فَضَرَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَمَّا إِذَا أَبَيْتُمْ قَبُولَ العَذْرِ . . فَإِنِّي
لَا أَقْبُضُهَا عَنْكُمْ ، وَلَكِنْ أَجْعَلُهَا فِي كُمِّي ، فَقَذَفُوهَا فِي كُمِّهِ ،
وَدَخَلَ عَلَى المنصورِ ، وَهُوَ فِي الخُضْرَاءِ المَشْرِفَةِ عَلَى (مَدِينَةِ
السلام) وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الضِّيَاعِ ، فَقَالَ لَهُ : أَمَا تَرَى إِلَى حُسْنِهَا؟!
قَالَ : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَبَارَكَ اللَّهُ فِيمَا آتَاكَ ، وَهَنَّاكَ بِإِتْمَامِ
نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ فِيمَا أَعْطَاكَ ، فَلَمْ تَبْنِ الْعَرَبُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَا الْعَجَمُ
فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ ، مِثْلَ مَدِينَتِكَ هَذِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ يُسَمِّجُهَا فِي نَظَرِي أَنْ
لَا ضِيعَةً لِي فِيهَا ، فَضَحِكَ ، وَقَالَ : نَزَيْدُهَا حَسَنًا فِي عَيْنِكَ بِثَلَاثِ
ضِيَاعٍ ، قَدْ أَقْطَعْتُكَهَا ، فَدَعَا لَهُ ، وَبَيْنَا هُوَ يَكْلُمُهُ . . بَدَرَتْ الرِّقَاعُ
مِنْ كُمِّهِ ، وَانْتَشَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ ، فَقَالَ لَهُ المنصورُ : مَا هَذِهِ؟
فَسَكَتَ ، فَقَالَ : بِحَقِّي إِلَّا أَخْبَرْتَنِي ، فَشَرَحَ لَهُ الْأَمْرَ ، فَضَحِكَ ،
وَقَالَ : أَيْبَتَ يَا أَبْنَ مَعْلَمِ الْخَيْرِ إِلَّا كَرَمًا وَجُودًا ، ثُمَّ أَخَذَهَا ،
وَتَصَفَّحَ مَا فِيهَا ، وَوَقَعَ عَلَيْهَا كُلُّهَا بِمَا طَلَبَ أَصْحَابُهَا .
ومنه تَعْرِفُ الفرقَ مَا بَيْنَ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي العَبَّاسِ ، فَالْأَوَّلُ :

يستزیدُ عروۃً فی الشفاعاتِ ، والثانی : يستقصرُ ابنَ عمِّه عنها ، إلا أن یقالَ : إنَّ هذا قد أبرمَ وأصجرَ ، بخلافِ الأوَّلِ .

أمَّا شفاعَةُ جعفرِ بنِ یحییٰ إلى الرشیدِ فی عبدِ الملکِ بنِ صالحٍ . . فشیءٌ یدفعُهُ العقلُ ، لولا ما تواترَ مِنَ النقلِ ^(١) .
 جعفر بن یحیی زوج
 بنت الرشید من غیر
 علمه . . فیجیزه

(١) القصةُ التي نوَّهَ الشيخُ إليها طويلاً ، وهي باختصارٍ كما في « المستطرف » (٢ / ٣٣٢) : أنَّ عبدَ الملکِ بنَ صالحٍ قَدِمَ على مجلسٍ فيه جعفرُ بنُ یحییٰ ، فقالَ لَهُ جعفرُ : جُعِلْتُ فداءَكَ قد علوتَ علينا وتفضَّلْتَ ، فهل مِن حاجةٍ تبُلِّغُها مقدرتي ، وتحيط بها نعمتي ، فأقضيها لك ؟ قالَ : بلى ، إنَّ في قلبِ أميرِ المؤمنينَ الرشیدِ بعضَ تغییرٍ عليَّ ، فتسألُهُ الرضا عني .

قالَ جعفرُ : قد رضيتُ عنكَ أميرُ المؤمنينَ .

قالَ : وعليَّ ، عشرةُ آلافِ دينارٍ .

قالَ جعفرُ : هي حاضرةٌ لك من مالي ، ولك من مالِ أميرِ المؤمنينَ مثلها .

قالَ : أريدُ أن أشدَّ ظهرَ ابني بمصاهرةٍ من أميرِ المؤمنينَ .

قالَ : قد زوَّجَهُ أميرُ المؤمنينَ بابنته الغالية .

قالَ : وأحبُّ أن تخفِّقَ الألوَّةَ على رأسِهِ .

قالَ : وقد ولَّاهُ أميرُ المؤمنينَ (مصر) .

فانصرفَ عبدُ الملکِ بنُ صالحٍ ، وكانَ مِمَّنْ حضرَ ذلكَ المجلسَ إبراهيمُ بنُ المهديِّ قالَ : فبقيتُ متعجباً من إقدامِ جعفرٍ على ذلكَ من غيرِ استئذانٍ ، وقلتُ في نفسي : عسى أن يجيبَهُ أميرُ المؤمنينَ إلى ما سألهُ مِنَ الولايةِ والمالِ والرضا . . إلَّا المصاهرةَ ، قالَ : فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . بكرتُ إلى بابِ الرشیدِ ؛ لأنظرَ ما يكونُ من أمرِهِم ، فدخلَ جعفرُ ، فلم يلبثْ أن دُعِيَ بأبي يوسفَ القاضي ، ثمَّ بإبراهيمَ بنِ عبدِ الملکِ بنِ صالحٍ . . فخرجَ إبراهيمُ وقد عُقدَ نكاحُهُ بالغاليةِ بنتِ الرشیدِ ، وعُقدَ لَهُ على (مصر) الراياتُ ، والألوَّةُ تخفِّقُ على رأسِهِ ، وخرجَ كُلُّ مَنْ كانَ مَعَهُ في القصرِ إلى بيتِ عبدِ الملکِ بنِ =

إذلال النفس في حاجات الناس هو العز في الدنيا والآخرة
وقيل لشعبة : أفنيت مالك ، وأخلقت جاهك في حوائج الناس ، فقال : أصونهما ليوم فآقتي .

وقال الخابز أَرْزِي [مِنَ الْكامل] :

خَرِقُ يَجُودُ بِمَالِهِ وَبِجَاهِهِ وَالْجُودُ كُلُّ الْجُودِ بِذُلِّ الْجَاهِ
ويروى : « إِنَّ الْعَبْدَ يُسْأَلُ عَنْ جَاهِهِ ، كَمَا يُسْأَلُ عَنْ عُمَرِهِ
فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ : جَعَلْتُ لَكَ جَاهًا ، فَهَلْ نَصَرْتَ بِهِ مَظْلُومًا ، أَوْ قَمَعْتَ
بِهِ ظَالِمًا ، أَوْ أَعْتَصْتَ بِهِ مَكْرُوبًا ؟ » ^(١) والله جَلَّ شَأْنُهُ يَقُولُ : « مَنْ
يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ
مِنْهَا » [النساء : ٨٥] .

اللهم .. لا تذل عزيزاً ودخل ابن السَّمَّاءِ - الزاهد المشهور - على بعض الرؤساء يشفعُ
إليه في رجلٍ ، فقال له : أتيتك في حاجة ، الطالب والمطلوب فيها
شريفان إن قضيت ، ذليلان إن لم تقض ، فأختر لنفسك عزَّ البذل
على ذلِّ المنع ، وأختر لي عزَّ النُّجْحِ على ذلِّ الردِّ ، فقضيت حاجته ،
وشفعه فيما أراد .

الرجل يزور كتاباً على لسان ابن الفرات فيصح له ويمضيه عليه
وذكرَ ابنُ خَلْكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٤٢٨/٣] : أنَّ رجلاً أتصلت
عطلته ، فزورَ كتابَ شفاعَةٍ مِنْ أَبِي الْحَسَنِ الْفَرَاتِ إِلَى عَامِلٍ
(مصر) أَبِي زَنْبُورٍ الْمَارْدَانِيِّ ، فارتابَ في أمرِهِ ، لخروج الخطَّابِ

= صالح . انظر القصة بتمامها في « المستطرف » (٣٣٢ / ٢) .

(١) أخرجه بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنه الطبراني في « الصغير » (١٨)
ولفظه : « إذا كان يوم القيامة دعا الله عبداً من عبيده ، فيوقف بين يديه فيسأله
عن جاهه كما يسأله عن ماله » .

عَنِ الْمَعْهُودِ ، فَعَلَّلَهُ بِعُلَالَةٍ^(١) ، وَاحْتَبَسَهُ عَلَى ضِيَاءٍ وَعِدٍ ، رِيْثَمَا كَتَبَ إِلَى ابْنِ الْفَرَاتِ ، وَأَنْفَذَ إِلَيْهِ بَعِيْنَ الْكِتَابِ الْمَزْوُورِ ، فَشَاوَرَ أَصْحَابَهُ ، فَكَانَ أَجْمَلُهُمْ مُحْضَرًا مِّنْ أَشَارَ بِكُشْفِ خَبْرِهِ ؛ لِيَفْضِيَ إِلَى حَرَمَانِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ ابْنِ الْفَرَاتِ إِلَّا أَنْ أَخَذَ الْقَلَمَ ، وَأَيَّدَ الْكِتَابَ ، وَأَكَّدَ الشَّفَاعَةَ ، فَبَعْدَ أُمَّةٍ مِنَ الزَّمَانِ دَخَلَ عَلَى ابْنِ الْفَرَاتِ رَجُلٌ ذُو هَيْئَةٍ مَّقْبُولَةٍ ، وَبَزَّةٍ فَاخِرَةٍ ، وَأَقْبَلَ يَدْعُو ، وَيُنْكِي ، وَيَقْبُلُ الْأَرْضَ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْفَرَاتِ : مَنْ أَنْتَ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ ؟ - وَكَانَتْ هَذِهِ كَلِمَتُهُ - فَقَالَ : صَاحِبُ الْكِتَابِ الْمَزْوُورِ إِلَى أَبِي زَنْبُورٍ ، الَّذِي صَحَّحَهُ كَرَّمَ الْوَزِيرَ ، وَشَمَلَهُ جِلْمُهُ ، فَضَحَكَ ابْنُ الْفَرَاتِ ، وَقَالَ : كَمْ وَصَلَ إِلَيْكَ مِنْهُ ؟ فَقَالَ : وَصَلَ إِلَيَّ مِنْ مَالِهِ وَمِمَّا قَسَطَهُ عَلَى عَمَّالِهِ وَأَصْحَابِهِ عَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْفَرَاتِ : وَلَا تَغِبْ عَنَّا ، فَإِنَّا نَعْرِضُكَ لِمَا يَزِدُّادُ بِهِ صِلَاحُ حَالِكَ ، ثُمَّ أَسْتَخْدِمُهُ ، وَأَكْسِبُهُ مَالًا جَزِيلًا .

ومثلها ما ذكره البيهقي في « المحاسن » من أن رجلاً ضاقت به وكذلك يمضي يحيى
الحال ، وتعدّرت عليه المطالب ، فأفتعل كتاباً من يحيى بن خالد البرمكي
البرمكي ، وشخص به إلى (أذربيجان) لعبد الله بن مالك الخزاعي ، ولم يعلم ما بين الأمرين من فرط التعادي والتحاسد ، فقال له عبد الله : إن كتابك هذا مفتعل ، سأزيل علتك ، وأحبسك حتى أستطلع الأمر ، وأتعرّف بخبر الكتاب ، فبعث إلى وكيله (العراق) ليستفهم عن القصة ، فجاء الوكيل إلى يحيى ، وأنهى إليه الخبر ، فكتب بخطه : فلان من أحص من يليني ، وأوجبه

(١) أي : أعطاه الشيء القليل الذي يتعلل به .

حقاً عَلَيَّ ، وقد أَخْبَرَنِي صَاحِبُكَ بِتَشْكُوكِكَ فِي أَمْرِهِ ، فَلِيُزَلَّ عَنْكَ الشُّكُّ فِدَيْتِكَ ، وَلِيُعْذَ مَعْجَلاً بِمَا يَشْبَهُكَ ، فَلَمَّا خَرَجَ الْوَكِيلُ . . قَالَ يَحْيَى لِأَصْحَابِهِ : مَا تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ أَفْتَعَلَ عَلَيَّ كِتَابَ شِفَاعَةٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكٍ ، وَصَلَ بِهِ إِلَى (أَذْرَبِيجَانَ) ؟ فَقَالُوا جَمِيعاً : نَرَى أَنَّ تَفَضُّحَهُ ، وَتَعْلَنَ أَمْرَهُ ؛ لِيَرْتَدَّعَ بِهِ غَيْرُهُ ، فَقَالَ : قَبِّحَ اللَّهُ هَذَا مِنْ رَأْيٍ ، مَا أُنْذَلُهُ ، هَذَا رَجُلٌ ضَاقَ بِهِ الرِّزْقُ ، فَوَثَّقَ بِي ، وَشَخَّصَ إِلَى (أَذْرَبِيجَانَ) مَعَ بَعْدِ شَقَّتِهَا ، وَصَعُوبَةِ طَرِيقِهَا ، أَفْتَشِيرُونَ عَلَيَّ أَنَّ أَقْطَعَ أَمَلُهُ؟ وَأُحْيَبَ رَجَاءُهُ؟ وَقَدْ عَرَفْتُمْ قَدْرَ عَبْدِ اللَّهِ وَمَكَانَتِهِ مِنْ قَلْبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْبُغَاةِ الَّتِي سَعَى فِي إِزَالَتِهَا هَذَا الرَّجُلُ ، أَفْتَرِيدُونَ أَنْ أَرُدَّ الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بَعْدَ هَذَا التَّقَارُبِ ، إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْبُعْدِ؟ إِنَّهُ لَنَكْذُ الْأَبَدِ .

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ بِمَا كَتَبَ بِهِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ كَرَمِهِ ، وَسَعَةِ أَحْتِمَالِهِ ، وَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابُ بِخَطِّهِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ . . اسْتَحْضَرَ الرَّجُلَ ، وَقَدْ سَقَطَ فِي يَدِهِ ؛ لاعتراضِ سوء الظَّنِّ بقلبه ، فَقَالَ : قَدْ وَرَدَ عَلَيَّ كِتَابُ أَخِي بِصَحَّةِ أَمْرِكَ ، وَسَأَلَنِي تَعْجِيلَ صَرْفِكَ ، وَدَعَا لَهُ بِمِئَتِي أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَبِمَا يَلِيقُ بِهَا مِنَ الدُّوَابِّ وَالْخُلَعِ وَالْأَلَّةِ ، فَلَمَّا حَضَرَ بَابَ يَحْيَى . . أَدْخَلَ ذَلِكَ بَرْمَتَهُ إِلَيْهِ ، فَأَمَرَ لَهُ يَحْيَى بِمِثْلِهِ ، وَأَثْبَتَهُ فِي خَاصَّتِهِ .

وكتب عبد الحميد بالوصاية في رجلٍ إلى بعض الرؤساء [كما في «وفيات الأعيان» ٣/ ٢٢٩] : حقُّ مُوصِلٍ لهذا عليك كحقِّهِ عَلَيَّ ؛ إِذْ رَأَى مَوْضِعاً لِأَمَلِهِ ، كَمَا رَأَى أَهْلاً لِحَاجَتِهِ ، وَقَدْ أَنْجَزْتُ حَاجَتَهُ ، فَحَقَّقْ أَمَلَهُ ، وَالسَّلَامُ .

نماذج من كتب
الشفاعات

وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة يقول له فيها [مِن الطويل] :
 شَفِّعْنِي إِلَيْكَ اللَّهُ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ وَلَيْسَ إِلَيَّ رَدُّ الشَّفِيعِ سَبِيلُ
 فَأَمَرَهُ بلزوم البيت ، وكان يعطيه عند الصباح كل يوم ألف
 درهم ، فلما استوفى ثلاثين ألفاً . ذهب الرجل ، فقال خالد : أما
 والله لقد عزمْتُ على إجرائها له إلى آخر العمر^(١) .

وقال رجل لجعفر بن يحيى : أُمْتُ إِلَيْكَ بِذِمَامِ الْأَمَلِ ، وحسن
 الظنِّ ، وقراءة العلم ، قال : إِنَّ ما ذَكَرْتَ لِيُوجِبُ الْحَقَّ ، ويعقِدُ
 الْفَرْضَ ، وَرَحِمُ الْعِلْمِ أَمْسُ قَرَابَةٍ ، وَالطَّفُ ضُورَةٌ^(٢) .

وأستاذن بعضهم على الفضل بن يحيى ، وزعم أن له مائة
 إلى الأمير ، ولما سأله عن حاجته . قال : قد أعربت عنها
 رثائَةُ الهَيْئَةِ ، وضعفُ الطاقَةِ ، قال الفضلُ : فما الذي تمثُّ
 به؟ قال : ولادةُ تقربُ من ولادتك ، وجوارٌ يدنو من جوارك ،
 وأسمٌ مشتقٌّ من أسمك ، قال : أمّا الجوارُ . فقد يكونُ ،
 والأسماءُ تتفقُ ، فما علمُك بالولادة؟ قال : أخبرني أُمِّي :
 بأنّها لما وضعتني . قالوا : ولدَ ليحيى غلامٌ سمّوه الفضلَ ،
 فصغرتني ؛ إعظاماً لاسمِكَ ، وسمّنتني فضيلاً ، قال : كم أتى
 عليك؟ قال : خمسٌ وثلاثون سنةً ، قال : صدقتَ ، وأعطاهُ
 لكلِّ سنةٍ ألفاً^(٣) .

(١) «المستطرف» (٢٨١/١) .

(٢) الضُّورَةُ : الرجل الصغير الشأن الحقير الدليل الفقير .

(٣) من الدراهم ، انظر : «وفيات الأعيان» (٣٢/٤) .

وقال بعضهم يمدحُ مَعْنَا [مِنَ الطُّوِيلِ] :

وَمِنْ هَوَاكَ شَفِيعٌ لِي يُغْفِلْنِي وَإِنْ نَأَيْتُ وَإِنْ قَلْتُ بِي الذِّكْرُ

وقال مروانُ بنُ أبي حفصة يمدحُ المهديَّ [في «ديوانه» ٦٦ مِن

الطُّوِيلِ] :

وَمَا لِي إِلَى الْمُهْدِيِّ لَوْ كُنْتُ مُذْنِبًا سَوَى حِلْمِهِ الْأَصَافِي عَلَى النَّاسِ شَافِعُ

وهو مِن قصيدة له شاعرة يقولُ فيها [في «ديوانه» ٦٦] :

وَلَا هُوَ عِنْدَ السُّخْطِ مِنْهُ وَلَا الرِّضَا بَغَيْرِ الَّذِي يَرْضَى بِهِ اللَّهُ قَانِعُ

تَغْضُّ لَهُ النَّاسُ الْعُيُونَ وَطَرْفُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ خَاشِعُ

وقد أغارَ على الثاني ابنُ أيوبَ التميميُّ ، فقال يمدحُ الفضلَ بنَ

سهلٍ [في «وفيات الأعيان» ٤٣/٤ مِن الطُّوِيلِ] :

تَرَى عُظَمَاءَ النَّاسِ لِلْفَضْلِ خُشْعًا إِذَا مَا بَدَا وَالْفَضْلُ لِلَّهِ خَاشِعُ

تَوَاضَعَ لَمَّا زَادَهُ اللَّهُ رِفْعَةً وَكُلُّ جَلِيلٍ عِنْدَهُ مُتَوَاضِعُ

ومعنى البيتِ المشروح متكررٌ عندَ الناظمِ منه قوله [في «المكبري»

١٤٢/٤ مِن الطُّوِيلِ] :

وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فُؤَادُهُ فَكَلَّمَهُ عَنِّي وَلَمْ أَتَكَلَّمِ

وقال جحظةٌ [في «ديوانه» ١٤٥ مِن الطُّوِيلِ] :

وَمَالِي حَقٌّ وَاجِبٌ غَيْرَ أَنْنِي إِلَيْكُمْ بِكُمْ فِي حَاجَتِي أَتَوَسَّلُ

وقال آخرُ [في «صبح الأعشى» ١٤٠/٩ مِن الطُّوِيلِ] :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي حَاجَتِي أَلْفَ شَافِعٍ لَمَّا كَانَ فِيهِمْ مِثْلُ جُودِكَ شَافِعُ

وقال أبو الحسن السلامي [من الطويل] :

إِذَا زُرْتَهُ لَمْ تَلَقَ مِنْ دُونِ بَابِهِ حِجَاباً وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِ بِشَافِعِ
كَمَاءِ الْفُرَاتِ النِّجْمُ أَغْرَضَ وَرَدُّهُ لِكُلِّ أَنْاسٍ فَهَوَ سَهْلُ الشَّرَائِعِ
نَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً تَهَلَّلَ أَبْكَارِ الْغُبُورِ الْهُوَاعِ

* * *

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمَتْنَبِيُّ فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٥ مِنْ الطَّوِيلِ :

فَصِيحٌ مَتْنٌ يَنْطِقُ نَحْدَ كُلِّ لَفْظَةٍ أَصُولُ الْبَرَاعَاتِ الَّتِي تَنْفَرُغُ

مبحث بلاغي حول
الفصاحة

يَصِفُ قَلَمٌ مَمْدُوحُهُ ، وَيَقُولُ : إِنَّ كُلَّ لَفْظَةٍ مِنْ أَلْفَاظِهِ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ الْبَرَاعَةِ ، وَالْبَرَاعَةُ هِيَ كَمَالُ الْفَصَاحَةِ .

وَفَصَاحَةُ الْمَفْرَدِ : سَلَامَتُهُ مِنَ التَّنَافُرِ ، وَالْغَرَابَةِ ، وَالْكَرَاهَةِ ، وَالْخُرُوجِ عَنِ الْقِيَاسِ .

وَفَصَاحَةُ الْمَرْكَبِ - بَعْدَ سَلَامَةِ مَفْرَدِهِ مِمَّا ذُكِرَ - : أَنْ لَا يَكُونَ مَكْرَرًا ، وَلَا مَعْقَدًا ، وَلَا مَتَنَافِرًا ، وَلَا ضَعِيفَ التَّأْلِيفِ ، وَلَا مُتَتَابِعَ الْإِضَافَاتِ ، كَمَا هُوَ مَقَرَّرٌ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي .

الافتخار بالقلم وحسن
البيان

وَحَسْبُ الْقَلَمِ شَرَفًا أَنَّ اللَّهَ نَوَّهَ بِذِكْرِهِ ، وَأَمْتَنَ بِتَعْلِيمِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق : ٤-٣] ، وَأَقْسَمَ بِهِ فَقَالَ : ﴿ تَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] ، وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا رَأَيْنَاهُ يَفْتَحِرُ بَعْلَمَ قَطٍّ سِوَى حَسَنِ الْبَيَانِ ، فَقَالَ : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ »^(١) . وَقَالَ : « أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، بَيْنَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَسْتَرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدِ »^(٢) .

(١) أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ (٦٩٩٨) بِلَفْظٍ : « بَعَثَتْ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ » ، وَمُسْلِمٌ (٥٢٣) فِي الْمَسَاجِدِ ، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٥٥٣) ، وَالنَّسَائِيُّ (٤٣/٦) .

(٢) أَوْرَدَهُ فِي « كَشَفِ الْخَفَاءِ » (٦٠٩) وَقَالَ عَنْ السَّيُوطِيِّ فِي « اللَّالِئِ » : « مَعْنَاهُ صَحِيحٌ ، وَلَكِنْ لَا أَصْلَ لَهُ ، وَأَطَالَ فِيهِ الْكَلَامَ وَأَجَادَ .

وقد سبق في غير هذا المجلس أنّ (بيد) هنا بمعنى من أجل ؛ لأنّ الاستدراك لا يحلو ما لم يشتمل على رونق وحسن ، ولأنّ الأصل في الاستثناء الاتصال ، فإذا لم يل أداته إلّا صفة مدح . . تحول إلى الانقطاع ، فكأنّه لم يجد صفة تناسب الاستثناء ، فأضطرّ إلى ما لا يناسبه ، وأستشهد ببعض أهل المعاني لاستحسان ما كان من قبيل ذلك بقول النابغة الجعديّ [في « ديوانه » ١٨٨ من الطويل] :

فَتَى كَمَلْتَ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ أَلْمَالِ بَاقِيَا
إِنَّمَا يَتَمُّ لَوْ سَكَتَ عَلَى قَوْلِهِ : (جَوَادٌ) أَمَا وَقَدْ عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ :
(فَمَا يُبْقِي مِنَ أَلْمَالِ بَاقِيَا) . . فقد خرج الاستثناء فيه عن الانقطاع ، وبقي على ما كان عليه من الاتصال ؛ لأنّ إتلاف المال بأسره في الجود ممّا يحتمل الذمّ ، وهذا شيء واضح لا غبار عليه ، ففي تمسك الكثير به من العلماء موضع فسيح للعجب .

وقد قال كشاجم [في « ديوانه » ٢٤٦ من مجزوء الكامل] :

مَا فِيهِمْ عَيْبٌ سِوَى الْإِفْرَاطِ فِي الْجُودِ فَقَطْ
وَقَالَ أَبُو هَفَّانَ [مِنَ الْمُنْسَرَجِ] :

عَيْبُ بَنِي مَخْلَدٍ سَمَاحَتُهُمْ وَأَنَّهُمْ يُثْلِفُونَ مَا وَجَدُوا

وممّا أجمع على تقديمه أهل العلم في مدح القلم قول أبي تمام الشعراء وتقديم القلم على السيف

[في « ديوانه » ٥٧/٢ من الطويل] :

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِشَبَابِهِ تُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلِّ وَالْمَفَاصِلُ^(١)

(١) شبابه : حذّه ، أي رأس القلم ، شبه حذّ قلمه بحذّ السيف وجعله يفتك بالأمر المعضل فيقتله ويذلّ صعباته وينال منه ما لا ينال الحسام .

لَهُ الْخَلَوَاتُ أَلَاءٌ لَوْلَا نَجِيئُهَا لَمَّا أَحْتَفَلْتُ لِلْمَلِكِ تِلْكَ الْمَحَافِلُ^(١)
لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ وَأَزْيُ الْجَنَى أَشْتَارَتُهُ أَيْدِ عَوَاسِلُ^(٢)
لَهُ رِيقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنَّ وَقَعَهَا بِآثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلُ^(٣)
فَصِيحُ إِذَا اسْتَنْطَقْتُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ وَأَعْجَمُ إِنْ خَاطَبْتُهُ وَهُوَ رَاجِلُ^(٤)

وبيت الناظم ناظرٌ إلى القسم الأول من الأخير .

وقال ابن الرومي [في «ديوانه» ٥٠٨/٢ من البسيط] :

فِي كَفِّهِ قَلَمٌ نَاهِيكَ مِنْ قَلَمٍ نُبْلًا ، وَنَاهِيكَ مِنْ كَفِّ بِهِ أَتَشْحَا
يَمْحُو وَيَكْتُبُ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ بِهِ فَمَا الْمَقَادِيرُ إِلَّا مَا مَحَا وَوَحَى

وقال [في «ديوانه» ٢٢٩٤/٦ من البسيط] :

إِنْ يَخْدُمُ الْقَلَمَ السَّيْفُ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرُّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفُهُ الْأُمَمُ
فَالْمَوْتُ - وَهُوَ الَّذِي لَا شَيْءَ يَغْدِلُهُ - مَا زَالَ يَتَّبَعُ مَا يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ
فَقَدْ قَضَى اللَّهُ لِلْأَقْلَامِ مَذْبُورِيَّتَ أَنَّ السَّيُوفَ لَهَا مَذْأَهَقَتْ خَدَمُ

(١) نجيتها : حديثها السري . احتفلت : أحسنت القيام بالأمور . المحافل : المجالس . يقول : لولا سر هذه الأقلام لما أنتظم الملك .

(٢) لعابُ الأفاعي : سمها . لعابه : ريقه ؛ أي : مداده . الأري : العسل . الجنى : كل ما يجتنى ويقطف . أشتارته : جتته . عواسل : التي تجني العسل . يقول : إن مداد قلمي في تهديد الأعداء قاتلٌ كسم الأفاعي ، وفي التلطف للإخوان كالعسل .

(٣) الطل : الندى أو المطر الخفيف . يقول : إن ما يجري من ريق هذا القلم على القرطاس تافه يحكي الندى في قلبي ولكنه يشبه المطر الغزير بقوة إذا نظرت إلى خبره ووقع آثاره في الشرق والغرب .

(٤) راكب : أي راكب على أصابع الكاتب . الأعجم : ضد الفصيح .

وقال [في «ديوانه» ١٧٣/١ ١٧٤ من المقارب] :

لَعَمْرُكَ مَا أَلْسَيْفُ سَيْفُ الْكَمِيِّ بِأَخَوْفَ مِنْ قَلَمِ الْكَاتِبِ
لَهُ شَاهِدٌ إِنْ تَأَمَّلْتَهُ ظَهَرَتْ عَلَى سِرِّهِ الْغَائِبِ
أَدَاةُ الْمَنِيَّةِ فِي جَانِبِيَّةِ فَمِنْ مِثْلِهِ رَهْبَةُ الرَّاهِبِ
أَلَمْ تَرَ فِي صَدْرِهِ كَالسَّنَانِ وَفِي الرُّذْفِ كَالْمَرْهَفِ الْقَاضِبِ ؟

وقال [من البسيط] :

إِذَا جَرَى الْأَرْقَشُ النَّضْنَاضُ فِي يَدِهِ جَرَى شَجَاعٌ يَمُجُّ السُّمَّ وَالْعَسَلَا^(١)
خَطٌّ إِذَا قَابَلَتْهُ الْعَيْنُ قَابَلَهَا رَوْضُ الرَّيْبِ إِذَا مَا طَلَّ أَوْ وَبَلَا

وقال أبْنُ الدَّهَّانِ [في «ديوانه» ٥١-٥٢ من الكامل] :

تُرِدِّي الْكَتَائِبَ كُتِبُهُ فَإِذَا أَنْبَرْتُ لَمْ تَذِرِ أَنْفَذَ أَسْطَرًّا أَمْ عَسْكَرًا
لَمْ يَخْسِنِ الْأَنْرَابُ فَوْقَ سَطُورِهَا إِلَّا لِأَنَّ الْجِنْسَ يَغْفِدُ غَيْرًا^(٢)

والأَوَّلُ نَاطِرٌ إِلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ [في «ديوانه» ٤٨/٢ من الطويل] :

فَمَا إِنْ تُبَالِي إِذْ يُجْهَرُ رَأْيُهُ إِلَى نَاكِثٍ أَنْ لَا يُجْهَرُ جَخْفَلَا^(٣)

والثَّانِي مِنْ قَوْلِ الطُّغْرَايْنِيِّ [في «ديوانه» ٩٣-٩٤ من الطويل] :

إِذَا مَا دَجَا لَيْلُ الْعَجَاجَةِ لَمْ يَزَلْ بِأَيْدِيهِمْ جَمْرٌ إِلَى الْهِنْدِ مَنْسُوبُ
عَلَيْهَا سَطُورُ الضَّرْبِ يُعْجِمُهَا الْقَنَا صَحَائِفُ يَغْشَاهَا مِنَ النَّفْعِ تَتْرِبُ

(١) يقال حية نضناضة : لا تستقر في مكان ، أو إذا نهشت قتلت من ساعتها ، أو التي أخرجت لسانها تنضنضه أي تحركه .

(٢) العُيَيْرُ : الغبارُ .

(٣) الناكثُ : ناقضُ العهدِ ، أي إنَّ رأيَ الخليفةِ يغني عن تجهيزِ الجيوشِ لحسنِ سياسته .

وقال آخر [الآيات للبستي وهي في « طبقات ابن السبكي » ٢٦٥ / ٨ من البسيط] :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ قَصَبٍ ثُمَّ اسْتَمَدُّوا بِهَا مَاءَ الْمَيِّتَاتِ
نَالُوا بِهَا مِنْ أَعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا مَا لَمْ يَنَالُوا بِحَدِّ الْمَشْرِفِيَّاتِ^(١)
ورأيتُ أبنَ السبكي^(٢) . عزا هذين البيتين للنّاظم ، وما رأيتها
في « ديوانه » .

وقال المعري [في « سقط الزند » ١٦٤ من الكامل] :

يَا مَنْ لَهُ قَلَمٌ حَكَى فِي فِعْلِهِ أَيْمَ الْغَضَى لَوْلَا سَوَادُ لُعَابِهِ^(٣)
عُرِفَتْ جُدُودُكَ إِذْ نَطَقْتَ وَرَبَّمَا لَغَطَ الْقَطَا فَأَبَانَ عَنْ أَنْسَابِهِ^(٤)
وَهَزَزْتَ أَعْطَافَ الْمُلُوكِ بِمَنْطِقِي رَدَّ الْمُسِنَّ إِلَى أَقْتِبَالِ شَبَابِهِ

وقال البُستي [في « قرى الضيف » ٣٥٤ / ٤ من البسيط] :

إِنْ هَزَّ أَقْلَامُهُ يَوْمًا لِيُعْلِمَهَا أَنْسَاكَ كُلَّ كَمِيٍّ هَزَّ عَامِلُهُ
وَأِنْ أَقَرَّ عَلَى رَقٍّ أَنْسَامُهُ أَقَرَّ بِالرَّقِّ كُتَّابُ الْأَنَامِ لَهُ

وقال المؤيدُ الألوُسي [في « وفيات الأعيان » ٣٤٧ / ٥ من الكامل] :

وَمُتَّقِفٍ يُغْنِي وَيُقْنِي دَائِمًا فِي حَالِي الْمِنْعَادِ وَالْإِنْعَادِ
قَلَمٌ يَقُلُّ الْجَيْشَ وَهُوَ عَرْمَرَمٌ وَالْبَيْضُ مَا سُلْتُ مِنَ الْأَغْمَادِ
وَهَبَّتْ لَهُ الْأَجَامُ حِينَ نَشَابَهَا كَرَمَ السُّيُولِ وَهَيْبَةَ الْأَسَادِ

(١) وجاء أيضاً برواية : لا ينال .

(٢) الآيات في نسختنا التي اعتمدناها في التحقيق (٢٦٥ / ٨) .

(٣) الأيم : الحية .

(٤) اللَّغَط : الصوت والجلبة ، وقيل : من كثر لغظه كثر غلظه .

وهو معنى بديع ، قَالَ أَبْنُ خَلْكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٣٤٧/٥] : إِنَّهُ
لَمْ يُقَلَّ أَحْسَنُ مِنْهُ فِي الْقَلَمِ .

وفي عكس ذلك من تفضيل السيف على القلم ، يقول أبو مسلم ومن الشعراء من يفضل
السيف على القلم متمثلاً وقد جاءه كتاب مروان بن محمد [من الطويل] :

مَحَا السَّيْفُ أَسْطَارَ الْبَلَاغَةِ وَالنُّحَى عَلَيْكَ لُيُوثُ الْغَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقال البُحرِيُّ [في « ديوانه » ٢٠٤٤/٣ من البسيط] :

تَعْنُو لَهُ وَزَرَءُ الْمُلِكِ رَاغِبَةً وَعَادَةُ السَّيْفِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ الْقَلَمَ^(١)

وقال [في « ديوانه » ٤٦٧/١ من الطويل] :

فَلَا غَرَّني مِنْ بَعْدِهِ عِزُّ كَاتِبٍ إِذَا هُوَ لَمْ يَأْخُذْ بِحُجْزَةِ رَامِحٍ^(٢)

وقال النَّاظِمُ [في « المُكَبَّرِي » ١٥٩/٤ من البسيط] :

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي : الْمَجْدُ لِلْسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

وقال [في « المُكَبَّرِي » ٣٠٢/٢ من الوافر] :

وَهَلْ تُغْنِي الرِّسَائِلُ فِي عَدُوٍّ إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ طَبَا رِقَاقَا ؟

وقال [في « المُكَبَّرِي » ٣٥٢/٣ من الطويل] :

وَلَا كُنْتُ إِلَّا الْمُسْرِفِيَّةُ عِنْدَهُ وَلَا رُسُلٌ إِلَّا الْخَمِيسُ الْعَرْمَرَمُ

وقال [في « المُكَبَّرِي » ٣٦/٣ من البسيط] :

تَتَلَوُ أَسِنَّةُ الْكُتُبِ الَّتِي نَفَذَتْ وَيَجْعَلُ الْخَيْلَ أَبَدَالاً مِنَ الرُّسُلِ

(١) تعنو : تخضع وتذل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه : ١١١] .

(٢) الحُجْزَةُ : معقد الإزار . الرامح : صاحب الرمح .

ويحكى [في «وفيات الأعيان» ٧/٧] : أَنَّ مَلِكَ الْإِفْرَنْجِ كَتَبَ إِلَى
الْأَمِيرِ يَعْقُوبَ بْنِ يَوْسُفَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ صَاحِبِ (الْمَغْرِبِ)
يَتَهَدَّدُهُ ، فَكَتَبَ يَعْقُوبُ إِلَيْهِ مَعَ رَسُولِهِ : أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ
لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ، الْجَوَابُ مَا
تَرَى لَا مَا تَسْمَعُ ، ثُمَّ تَجْهَزُ وَعَبْرَ (الْأَنْدَلُسِ) وَدَخَلَ بِلَادَ الْإِفْرَنْجِ
فَأَخَذَ فِيهِمْ ، حَتَّى كَادَ يَسْتَأْصِلُهُمْ ، وَلَمْ يَسْمَعْ أَهْلُ (الْأَنْدَلُسِ)
بِكُسْرَةِ فِيهِمْ مِثْلَهَا ، وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةَ (٥٩٥ هـ) ^(١) .

وَقَالَ الْمَعْرِيُّ [في «سقط الزند» ١١٠ مِنْ الْبَسِيطِ] :

دَعِ الْبِرَاعَ لِقَوْمٍ يَفْخَرُونَ بِهِ وَبِالطَّوَالِ الرُّدْنِيَّاتِ فَافْتَحِرِ
فَهْنٌ أَقْلَامُكَ الْلَاتِي إِذَا كَتَبْتَ سَطْرًا أَنْتَ بِمَدَادٍ مِنْ دَمِ هَدَرِ
وَقَالَ النَّاطِمُ فِيمَا يَشْبُهُ الطَّرْفَ الْأَوَّلَ [في «المكبري» ١٦٦/٢ مِنْ

الْكَامِلِ] :

يَا مَنْ إِذَا وَرَدَ الْبِلَادَ كَتَابُهُ قَبْلَ الْجِيُوشِ ثَنَى الْجِيُوشَ تَحِيُّرًا

وَقَالَ [في «المكبري» ١٦٦/٢ مِنْ الْكَامِلِ] :

يَتَكَسَّبُ الْقَصَبُ الضَّعِيفُ بِخَطِّهِ شَرَفًا عَلَى صُمِّ الرِّمَاحِ وَمَفْخَرًا

وَقَالَ [في «المكبري» ٢٥٦/٣ مِنْ الْكَامِلِ] :

كَلِمَاتُهُ قُضِبَ وَهْنٌ فَوَاصِلٌ كُلُّ الضَّرَائِبِ تَخْتَهُنُ مَفَاصِلُ
وَالْمَفَاخِرَةُ بَيْنَ السِّيفِ وَالْقَلَمِ تَطُولُ ، وَقَدْ أُلْفَتْ لَهَا الرِّسَالُ الضَّافِيَةُ
الذِّيُولُ .

(١) وَلَكِنْ فِي « وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ » (٧ / ٧) كَانَ ذَلِكَ سَنَةَ : (٥٩٢ هـ) .

والصوابُ التفصيلُ : فعندَ القوَّةِ والنفوذِ .. فالسيوفُ هي الصوابُ التفصيلُ في الخدمُ ، وأما عندَ الضعفِ والعجزِ .. فلا حُفَّ لِلأَقلامِ وَلَا قَدَمٌ ، وفي قريبٍ من ذلكَ يقولُ الناظمُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٩٨/٤ مِنْ الخَفِيفِ] :
 وفي قديمٍ من ذلكَ يقولُ الناظمُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٩٨/٤ مِنْ الخَفِيفِ] :
 وكذلك العكس

وَكَفَّتْكَ الصَّفَائِحُ النَّاسَ حَتَّى قَدْ كَفَّتَكَ الصَّفَائِحُ الْأَقْلَامُ^(١)

وقالَ في المدحِ بالمفخرَينِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٣١٠/٢ مِنْ الطَّوِيلِ] :
 ضَرُوبٌ بِأَطْرَافِ السُّيُوفِ بَنَانُهُ لَعُوبٌ بِأَطْرَافِ الْكَلَامِ الْمُسَقَّقِ^(٢)

وقالَ [في «العُكْبَرِيِّ» ١١٢/٤ مِنْ الطَّوِيلِ] :
 إِذَا صُلْتُ .. لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِصَائِلٍ وَإِنْ قُلْتُ .. لَمْ أَتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمٍ

وقالَ [في «العُكْبَرِيِّ» ٣٦٩/٣ مِنْ البَسِيطِ] :
 الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالضَّرْبُ وَالطُّغْنُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ^(٣)

وتعالَموا بعدَ الحربِ العظمى بِحديثِ أعجَبَنِي ، وإنْ لَمْ أَكُنْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ صَحَّتِهِ ، وهو : أَنَّ أَحَدَ قَوَادِ الْإِنْكِلِيزِ زَارَ بَعْضَ مَدَارِسِ الْمُسْتَعْمَرَاتِ ، فَالْقَى الْأَسْئَلَةَ عَلَى التَّلَامِيذِ عَنْ شَأْنِ الْقَلَمِ وَالسِّيفِ ، فَأَجَابُوهُ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ .

فقالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا لَوْ سَأَلَنِي الْقَائِدُ .. لَسَمِعَ مِنِّي غَيْرَ مَا قَالُوا ، قالَ : وما هو ؟

(١) الصَّفَائِحُ : السيوفُ .

(٢) الْكَلَامُ الْمُسَقَّقُ : العويصُ الغامضُ الذي شُقَّ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ .

(٣) الْقِرْطَاسُ : الْكِتَابُ فِيهِ الْكِتَابَةُ . وقد وردَ الْبَيْتُ بِلَفْظِ : وَالسِّيفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ ، واللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

قَالَ : أَمَّا سَعْدُ زَغُولٍ : فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ غَيْرُ الْقَلَمِ . .
 شَرَّدَتْهُمُوهُ كُلَّ مَشَرِّدٍ ، وَطَرَّدَتْهُمُوهُ كُلَّ مُطَرِّدٍ ، وَأَمَّا مُصْطَفَى كَمَالٍ :
 فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ عِنْدَهُ السِّيفُ . . عَمَدَ إِلَى الْمِعَاهِدَةِ الَّتِي أَبْرَمَتْهَا دَوْلَتُكُمْ
 مَعَ خَمْسِ وَعِشْرِينَ دَوْلَةً سِوَاهَا ، فَدَاسَهَا بِنَعَالِهِ ، وَلَمْ يَنْتَظِخْ فِي
 ذَلِكَ عِزَّانٍ ، فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، وَقَالَ : إِنَّهُ مِسْعَرُ
 حَرْبٍ .

وَكُلُّ مَا سَبَقَ مِنَ الْمَفَاضَلَةِ بَيْنَ الْأَدَاتَيْنِ إِنَّمَا هُوَ بِالنِّسْبَةِ لِمَجَرَّدِ
 النُّفُوزِ وَالتَّشْرِيفِ ، فَأَمَّا إِذَا نَظَرْنَا إِلَى مَا يَتَّبِعُ الْقَلَمَ مِنْ مَوَادِّ الْعِلْمِ . .
 أَنْقَطَعَتِ النِّسْبَةُ ، وَأَتَضَحَّ الْفَرْقُ .

وَيَعَجِبُنِي قَوْلُ التَّهَامِيِّ [فِي « قُرَى الضَّيْفِ » ٥٣/٥ مِنْ الطُّوِيلِ] :

وَمَنْ فَاتَهُ نَيْلُ الْعُلَا يُعْلُومُهُ وَأَقْلَامُهُ فَلْيَبْغِهَا بِحُسَامِهِ
 فَمَوْتُ الْفَتَى فِي الْعِزِّ مِثْلُ حَيَاتِهِ وَعَيْشَتُهُ فِي الدُّلِّ مِثْلُ حِمَامِهِ

وَحَدُّ الْبَلَاغَةِ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ [فِي « الْمُسْتَرْفِ » ٩٥/١] : أَنْ
 يَبْلُغَ الرَّجُلُ كُنْهَ مَا فِي خَاطِرِهِ بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ .

الإنسان مخبوء خلف
لسانه

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ [فِي « الْمُسْتَرْفِ » ٩٦/١] : مَا رَأَيْتُ رَجُلًا إِلَّا
 هَبَّتْهُ حَتَّى يَتَكَلَّمَ ، فَإِنْ كَانَ فَصِيحًا . . عَظُمَ فِي صَدْرِي ، وَإِلَّا . .
 سَقَطَ مِنْ عَيْنِي .

وَلَا يَزَالُ النَّاضِمُ يَمْدَحُ بِالْبَلَاغَةِ ، وَيُثْنِي بِالْفَصَاحَةِ وَاللَّسَنِ ، كَمَا
 فِي قَوْلِهِ [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ١٠٠/٤ مِنْ الْخَفِيفِ] :

المديح بالبلاغة

قُلْ فَكَمْ مِنْ جَوَاهِرٍ بِنِظَامٍ وَدَّهَا أَنَّهَا بِفِيكَ كَلَامٌ

وقوله [في «المكبري» ٢٢٧/٤ - ٢٢٨ من البسيط] :

مَا شَيْدَ اللَّهِ مِنْ مَجْدٍ لِسَالِفِهِمْ إِلَّا وَنَحْنُ نَرَاهُ فِيهِمْ الْآنَا
إِنْ كُؤِنُبُوا أَوْ لُقُوا أَوْ حُؤِرِبُوا وَجِدُوا فِي الْخَطِّ وَاللَّفْظِ وَالْهَيْجَاءِ فُرْسَانًا^(١)
كَأَنَّ أَلْسِنَهُمْ فِي الثُّنْطِقِ قَدْ جُعِلَتْ عَلَى رِمَاحِهِمْ فِي الطُّغْنِ خُرْصَانًا^(٢)

وقوله [في «المكبري» ٥٥/٢ من الخفيف] :

خَلَقَ اللَّهُ أَفْصَحَ النَّاسِ طَرًّا فِي مَكَانٍ أَغْرَابُهُ أَكْرَادُهُ

وقوله [في «المكبري» ١٢٣/٣ من الخفيف] :

وَبِأَلْفَاظِكَ أَقْتَدَى فَإِذَا عَزُ زَاكَ قَالَ الَّذِي لَهُ قُلْتُ قَبْلًا

وقوله [في «المكبري» ٢٣٥/٣ من الكامل] :

نَطِيقُ إِذَا حَطَّ الْكَلَامُ لِثَامَهُ أَعْطَى بِمَنْطِقِهِ الْقُلُوبَ عُقُولًا^(٣)

وقوله وقد أساء فيه الأدب [في «المكبري» ٢٤٤/٣ من الكامل] :

لَوْ كَانَ لَفْظُكَ فِيهِمْ مَا أَنْزَلَ أَلْ قُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

(١) في البيت لفٌّ ونشرٌ مرتبٌ ؛ حيثُ ذَكَرَ أفعالَ الشرطِ في الشرطِ الأوَّلِ ثُمَّ جاءَ
بأجوبتيها مرتبةً في الشرطِ الثاني فصَارَ المعنى :

إِنْ كُؤِنُبُوا... وَجِدُوا فِي الْخَطِّ فُرْسَانًا ، وَإِنْ لُقُوا مُلَاقَاةَ الْمُخَاطَبَةِ
وَالْمَكَالَمَةِ... وَجِدُوا فِي اللَّفْظِ فُرْسَانًا ، وَإِنْ حُؤِرِبُوا... وَجِدُوا فِي الْهَيْجَاءِ
فُرْسَانًا أَيْضًا .

(٢) الخرصانُ : الأسنَّةُ .

(٣) الثُّنْطِقُ : جَيْدُ الْقَوْلِ وَالثُّنْطِقِ . الثَّامُ : مَا يَجْعَلُ عَلَى الْوَجْهِ مِنَ الْعِمَامَةِ ، كَانَتْ
الْعَرَبُ تَفْعَلُهُ لِأَجْلِ حَرِّ الشَّمْسِ ، وَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَتَكَلَّمُوا كَشَفُوا الثَّامَ .

وقوله [في «المكبري» ١/ ٦٢ من الطويل] :

عَلَيْمٌ بِأَسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللَّغَى لَهُ خَطَرَاتُ تَفْضُحِ النَّاسِ وَالْكَتْبَا

وقوله [في «المكبري» ٢/ ١٨٠-١٨٣ من الخفيف] :

بَلَّغْنَاهُ الْبَلَاغَةَ الْجُهْدَ بِالْعَفْ - وَنَالَ الْإِسْهَابَ بِالْإِنْجَارِ
مَلِكٌ مُنْشِدُ الْقَرِيضِ لَدَيْهِ يَصْنَعُ الشُّوبَ فِي يَدَيِ بَزَارِ

وقوله [في «المكبري» ١/ ١٨٢ من الطويل] :

فَتَى يَمْلَأُ الْأَفْعَالَ رَأْيَا وَحِكْمَةً وَبَادِرَةً أحيانَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ

وقوله [في «المكبري» من الوافر] :

إِذَا مَا صَافَحَ الْأَبْصَارَ يَوْمًا تَبَسَّمتِ الضَّمَائِرُ وَالْقُلُوبُ

وقوله [في «المكبري» ٢/ ١٦٥ من الكامل] :

بِأَبْنِي وَأُمِّي نَاطِقٌ فِي لَفْظِهِ ثَمَنٌ تَبَاعُ بِهِ الْقُلُوبُ وَتُشْتَرَى
وما أكثرَ ما أصابَ الناظمُ الهدفَ في إكباره الفصاحةَ ؛ لأنَّ حدَّ
الإنسانِ - بعدَ الحيوانيةِ - الناطقيةِ ، وبمقدارِ ما تتفاوتُ الناسُ في
الحدِّ . . تتفاوتُ في المحدودِ .

وما أحسنَ قولَ الخنساءِ [من الطويل] :

كَأَنَّ كَلَامَ النَّاسِ جُمَعَ حَوْلَهُ فَأُطْلِقَ فِي إِحْسَانِهِ يَتَخَيَّرُ
وكانَ يقالُ في الصدرِ الأوَّلِ : إِنَّ الفصاحةَ أَنتَهَتْ إِلَى أَرْبَعَةٍ :
عليّ ، وأبنِ عَبَّاسٍ ، وعائشةَ ، ومعاويةَ .

وقالَ بعضُ العلويِّينَ : سُئِلَ الشعبيُّ - وأنا حاضرٌ - عَنِ أَفْصَحِ
النَّاسِ؟ فقالَ : معاويةُ وأبْنُهُ ، وسعيدُ أبْنُ العاصِ وأبْنُهُ ، فتغيَّرَ

وَجَهِي ، وَقُلْتُ لَهُ : أَيْنَكَ مِنْ عَلِيٍّ ؟ قَالَ : إِنَّ هَذَا يَسْأَلُ عَنْ فَصْحَاءِ
الْبَشَرِ ، وَلَمْ يَسْأَلْ عَنْ فَصْحَاءِ الْمَلَائِكَةِ .

وشبيه بهذا قول الواقدي : سُئِلَ الْمُهَلَّبُ عَنِ الشَّجْعَانِ ؟
فَقَالَ : أَبْنُ الْكَلْبِيَّةِ - يَعْنِي مَصْعَبَ بْنَ الزَّيْبِرِ - وَعَمْرُ بْنُ عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ
مَعْمَرٍ ، وَعَبَادُ بْنُ الْحَصِينِ الْحَبِطِيُّ ، قِيلَ لَهُ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ
عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْبِرِ ، وَعَبِيدِ اللَّهِ بْنِ حَازِمٍ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا كُنَّا فِي ذِكْرِ
الْإِنْسِ ، وَلَمْ نَكُنْ فِي ذِكْرِ الْجِنِّ .

وقال الشعبي : مَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَتَكَلَّمُ إِلَّا وَدِدْتُ أَنَّهُ سَكَتَ ،
وَأِنْ أَحْسَنَ ، إِلَّا زِيَادًا . . فَإِنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ قَطُّ مِنْ حَسَنِ إِلَّا إِلَى أَحْسَنَ
مِنْهُ .

وجاء أعرابيٌّ إِلَى حَلْقَةِ الْحَسَنِ وَسَمِعَهُ يَتَكَلَّمُ ، فَقَالَ : هُوَ فَصِيحٌ
إِذَا لَفَظَ ، نَصِيحٌ إِذَا وَعَظَ [مِنْ الْبَسِيطِ] :

مُلَقَّنٌ مُلْهَمٌ فِيمَا يُحَاوِلُهُ جَمٌّ خَوَاطِرُهُ جَوَابُ آفَاقٍ

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٧٣/٢ مِنْ الْوَافِرِ] :

مِنْ السِّخْرِ الْحَلَالِ لِمُجْتَنِبِهِ وَلَمْ أَرْ قَبْلَهُ سِخْرًا حَلَالًا
وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ : «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِخْرًا» (١) .

وقال الرضي [في «ديوانه» ٤٨١ مِنْ الْكَامِلِ] :

إِلَّا تَكُنْ فِي الْجَمْعِ أَمْضَى طَعْنَةً فَلَأَنْتَ أَمْضَى خُطْبَةً فِي الْمَجْمَعِ

(١) سلف وأخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٥١٤٦) في
(النكاح) .

وَإِنِّي لِأَحْسُ بِانْكَسَارِ عَظِيمٍ فِي نَفْسِي كُلَّمَا نَظَرْتُ فِي كِتَابِ
 الْجَاحِظِ ، أَوْ أَبْنِ الْمَقْقَعِ ، أَوْ رَسَائِلِ الْقَدَمَاءِ وَمَرَاجِعَاتِهِمْ ، أَوْ
 تَرْشُلِ لِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ ، أَوْ عِبَارَاتِ السَّعْدِ ، أَوْ الْغَزَالِيِّ .
 كَمَا لَا أَخْلُو عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْخُورَةِ وَقَتَّمَا كُنْتُ أُدْرَسُ فِي « مِفَاتِيحِ
 الْغَيْبِ » لِلْإِمَامِ الرَّازِيِّ ؛ إِذْ كُنْتُ أُعَلِّقُ الْمَعْنَى بِذَهْنِي ثُمَّ أُلْقِيهِ فِي
 عِبَارَةٍ ، يَشْهَدُ الْعَارِفُ بِمَقَادِيرِ الْكَلَامِ أَنَّهَا عَلَى الْبَدِيهَةِ خَيْرٌ مِنْ عِبَارَتِهِ
 الَّتِي يَتَرَوَى فِيهَا ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَلِأَبِي وَلِسَائِرِ مُشَايخِي
 الرِّضْوَانِ وَالرَّحْمَةِ .

* * *

[قال أبو الطيّب المتنبي في «العكبري» ٢/٢٤٦ من الطويل] :

أَلَا أَيُّهَا الْقَبِيلُ الْمُقِيمُ بِمَنْبَجٍ وَهَمَّتُهُ فَوْقَ السَّمَائِينَ تُوَضِّعُ

(الْقَبِيلُ) فِي الْأَصْلِ : مَلِكُ حِمَيْرٍ ، وَقَدْ سَبَقَ فِي غَيْرِ هَذَا شَرْحُ الْمَطْلَعِ
الْمَجْلِسِ كَلَامٌ يَتَعَلَّقُ بِهِ . وَ (مَنْبَجٌ) : بَلَدٌ بِ (الشَّامِ) ،
وَ (السَّمَائِينَ) : نَجْمَانِ ، هُمَا : السَّمَاءُ الرَّامِحُ ، وَالسَّمَاءُ
الْأَعَزُّ . وَ (الْإِبْضَاعُ) : الْإِسْرَاعُ .

وَمَا أَكْثَرَ مَا يَنْبِي النَّاظِمُ عَلَى مَنْ يَمْدَحُ بِكِبَرِ النَّفْسِ ، وَعَلَوْ ^{المدح بكبر النفس}
الْهَمَّةُ ؛ لِمَا يَجِدُ فِي صَدْرِهِ مِنْ ذَلِكَ ، فَمَنْتُهُ قَوْلُهُ [مِنْ الطَّوِيلِ] : ^{وعلو الهمة}

لَهُ هَمٌّ لَا مُتَهَيٍّ لِكِبَارِهَا وَهَمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ^(١)

وَقَوْلُهُ [فِي «الْعُكْبَرِيِّ» ١/١٧١ مِنْ الْبَسِيطِ] :

حَتَّى أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا نَهَائَتَهَا وَهَمَّتُهُ فِي أَبْتِدَاءَاتٍ وَتَشْيِيبٍ^(٢)

وَقَوْلُهُ [فِي «الْعُكْبَرِيِّ» ١/٢٧٥ مِنْ الطَّوِيلِ] :

فَتَى يَشْتَهِي طُولَ الْبِلَادِ وَوَقْتَهُ تَضِيقُ بِهِ أَوْقَاتُهُ وَالْمَقَاصِدُ

وَقَوْلُهُ [فِي «الْعُكْبَرِيِّ» ٤/٢٧٧ مِنْ الْمُنْسَرَجِ] :

تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هَمٌّ مِلْءُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا

(١) الْبَيْتُ لِبَكْرِ بْنِ الطُّطَاحِ فِي «دِيَوَانِهِ» .

(٢) التَّشْيِيبُ : ذِكْرُ أَيَّامِ الشَّبَابِ وَاللَّهْوِ وَالْغَزْلِ ، وَهُوَ يَكُونُ فِي أَبْتِدَاءِ قِصَائِدِ
الشُّعْرَاءِ ، هَذَا هُوَ الْأَصْلُ ، ثُمَّ سُمِّيَ أَبْتِدَاءُ كُلِّ أَمْرٍ تَشْيِيبًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ذِكْرُ
أَيَّامِ الشَّبَابِ .

وقوله [في «المكبري» ٣٧٨/٣ من الطويل] :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وقوله [في «المكبري» ١٨٢/١ من الطويل] :

وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفِّي زَمَانَنَا وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفِّكَ تَطْلُبُ

وقال العطوي فيما يشبه بيت القصيد من طرف خفي [من

المنسرح] :

إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ لَابِسًا خَلْقًا فَهَمَّتِي فَوْقَ هَامَةِ الْمَلِكِ

وقال التنوخي [من الرجز] :

وَأَنْفُسٍ مَسْكُنُهَا بَيْنَنَا وَهَمُّهَا فَوْقَ السَّمَاءِ وَالْأَشْهَاءِ

وقال النعيمي الفقيه [في «طبقات الشافعية» ٢٣٨/٥ من المتقارب] :

إِذَا أَعْطَشَتْكَ أَكْفُ اللَّثَامِ كَفَّتْكَ الْقَنَاعَةُ شَبْعًا وَرِيًّا

فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ فِي الشَّرَى وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فِي الثَّرَى

وقال بعض الصوفيّة [من مُخَلَّعِ البسيط] :

يَا رَبِّ شَخْصٍ تَرَى قَرِيبًا وَرُوحَهُ فِي الْعُلَا تَجُولُ

وما زال أولئك الفريق ، وسالكو تلك الطريق ، متعلقوا الأرواح

بالجمال الأقدس ، والملا العليّ الأنفس ، إلا أنهم يتفاوتون عند

انبعاث الأنوار^(١) ، وأنكشاف الأسرار .

أقسام الصوفية عند
انبعاث الأنوار

(١) الانبعاث : أن ينبعث عليك شيء فجأة وأنت لا تشعر . وانبعاث المزن : انبعاث

بالمطر وفي الكلام : اندفع .

فَمِنْهُمْ : مَنْ يَغْتَرُّ بِمَجَرَّدِ مَا يَشْمُ نَفَحَهُ ، وَيَشِيمُ لَمَحَهُ ، وَيَسْكُرُ مِنْ زِينَتِهِ ، وَيَتَوَهَّمُ الْخَادِمَ حَبِيبَهُ ، فَيَسْفُلُ بِهِ الْغَرَضُ ، وَيَتَكَسَّرُ عَلَيْهِ الْمَرَضُ ، وَيَنْقَلِبُ وَرَا ، وَيَفْتَتِنُ بِمَا يَرَى : ﴿ وَأَقْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٥] .

وَمِنْهُمْ : مَنْ تَنَكَّسَ زَجَاجَتُهُ إِذَا أَنْكَشَفَتْ عَجَاجَتُهُ ، وَيَبُوحُ بِسَرِّهِ ، وَيَضْطَرُّ فِي أَمْرِهِ ، وَيَعْتَرِيهِ خَبَلٌ ، وَرَبَّمَا أَخْتَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

سَقَوْنِي وَقَالُوا : لَا تُغْنِي وَلَوْ سَقَوَا جَبَالَ حُبْنِي مَا سَقَوْنِي لَغَنَّتْ وَمِنْهُمْ : مَنْ يَأْخُذُهُ الْهَيَامُ ، وَيَغْلِبُهُ الْإِصْطِلَامُ^(١) ، فَتَرَاهُ حَاضِرًا وَهُوَ غَائِبٌ ، وَجَامِدًا وَهُوَ ذَائِبٌ ، ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] ، وَهَذَا سِرٌّ غَيْرُ مَطْوِيٍّ ، وَلَهُ فِيمَا يُتَعَارَفُ شَاهِدٌ مَرْوِيٌّ ، هُوَ [فِيمَا رَوَاهُ الْأَصْفَهَانِي فِي «الْأَغَانِي» ٦٥/٢] أَنَّ الْمَجْنُونَ جَاءَهُ بَعْضُ قَرَابَتِهِ يَلُومُهُ ، وَيَعْذَلُهُ ، وَيَسْتَكْفُهُ ، وَيَسْلِيهِ ، وَهُوَ مُصْغٍ لِكَلَامِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا عِنْدَكَ؟ قَالَ لَهُ : وَمَا قُلْتَ؟ فَإِنِّي لَمْ أَفْقَهُ خَطَابَكَ ، وَإِنِّي لَمَنْهُوبُ الْفِكْرِ ، مَذْهُوبُ الْعَقْلِ ، مُبْلَبَلُ الْبَالِ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ [فِي «دِيَوَانِهِ» ٢٣٤ مِنْ الْكَامِلِ] :

وَأَدِينُ لَخَطِّ مُحَدِّثِي حَتَّى يَرَى أَنَّ قَدْ فَهِمْتُ وَعِنْدَكُمْ عَقْلِي وَشَغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الْحَدِيثِ سِوَى مَا كَانَ مِنْكَ فَلِإِنَّهُ شَغِلَنِي

وَاللَّهُ دُرُّ الَّذِي يَقُولُ [فِي «الْمَدْحِ» ٢٥٠ مِنْ الْبَسِيطِ] :

وَاللَّهُ لَوْ حَلَفَ الْعُشَّاقُ أَنَّهُمْ صَرَعُوا مِنَ الْحُبِّ أَوْ مَاتُوا لَمَّا حَثُوا

(١) الْإِصْطِلَامُ : الْاسْتِئْصَالُ . وَلَعَلَّ الْمَعْنَى الْمُرَادُ أَنَّهُ غِيَابُ الْحَسِّ وَالْفِكْرِ .

وما أحسنَ قولَ رابعةَ العدويّةِ [في «ديوانها» ٧٩٧٨ من الكامل] :

إِنِّي جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدِّثِي وَأَبَحْتُ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي
فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أُنِيسِي

ومنهم : الزاكي نباته ، الراسخ ثباته ، الكاملة صفاته ، أولئك
هم حجج الله وبيئاته : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

* * *

[قال أبو الطيّب المتنبي في «العكبري» ٢/ ٢٤٧ من الطويل] :

أَلَيْسَ عَجِيئاً أَنْ وَصَفَكَ مُعْجِزٌ وَأَنْ ظُنُونِي فِي مَعَالِكَ ظُلُعٌ

هو شبيه بقوله [في «العكبري» ٢/ ٢٦٦ من الكامل] :
أَكَلْتُ مَفَاخِرَكَ الْمَفَاخِرَ وَأَنْشَتُ عَنْ شَاوِهَرٍ مُطِئٍ وَصَفِي ظُلُعاً^(١)
كل ما يقال وكل ما يكتب دون قسر الممدوح

وقوله [في «العكبري» ١/ ٣٤٠ من الكامل] :
يَفْنَى الْكَلَامُ وَلَا يُحِيطُ بِوَصْفِكُمْ أَيْحِيطُ مَا يَفْنَى بِمَا لَا يَنْفَدُ ؟!

وقوله [في «العكبري» ١/ ١١٩ من البسيط] :
مَحَامِدُ نَزَفَتْ شِعْرِي لِيَمْلَأَهَا قَالَ مَا أَمْتَلَأْتُ مِنْهُ وَلَا نَضَباً^(٢)

وقوله [في «العكبري» ٢/ ٢٨٧-٢٨٩ من الطويل] :
وَمَا حَارَتْ الْأَفْهَامُ فِي عُظُمِ شَأْنِهِ بِأَكْثَرِ مِمَّا حَارَ فِي حُسْنِهِ الطَّرْفُ
فَرَوَّعَجَباً مِنِّي أَحَاوِلُ نَعْتَهُ وَقَدْ فَنَيْتُ فِيهِ الْقَرَّاطِيْسُ وَالصُّخْفُ

وقوله [في «العكبري» ١/ ١٩٤ من الطويل] :
تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَذْحِ حَتَّى كَانَهُ بِأَبْلَغِ مَا يُثْنَى عَلَيْهِ يُعَابُ
والأخير من قول البُحْتَرِيِّ ، وقد مرَّ في غير هذا المكان [في
«ديوانه» ١/ ١٥ من الخفيف] :

- (١) شَاوِهَرٌ : سَبْقَهَاءٌ . ظُلُعٌ - جَمْعُ ظَالِعٍ - : وَهُوَ الْغَامِزُ مِنْ يَدٍ أَوْ رَجُلٍ ، أَيْ :
الْأَعْرَجُ .
(٢) أَلَّ : رَجَعَ .

جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ فَقَدْ كَا دَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هَجَاءٌ

وقال الناظم أيضاً [في «الكبرى» ٨١/٣ من البسيط] :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ

وقال أشجع [في «ديوانه» ٢٤٨ من الوافر] :

مَدَحْنَاهُمْ فَلَمْ نُذَرِكْ بِمَدْحٍ مَأْثَرَهُمْ وَلَمْ نَشْرُكْ مَقَالًا

وقال ابن الحجاج [من الطويل] :

هُوَ الْبَحْرُ إِنْ حَدَّثَ عَنْ مُعْجَزَاتِهِ ضَعُفَتْ عَنْ أَسْتِغْرَاقِ تِلْكَ الْعَجَائِبِ
وَإِنْ رَامَ شِعْرِي أَنْ يُحِيطَ بِوَضْفِهِ أَحَاطَ بِشِعْرِي الْعُجْزُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقال الماكي [بل النامي في «قرى الضيف» ٢٨٤/١ من الطويل] :

جَهَدْتُ وَلَمْ أَبْلُغْ مَذَاكَ بِمَدْحَةٍ وَلَيْسَ مَعَ التَّفْصِيرِ عِنْدِي سِوَى الْعُدْرِ^(١)

وقال الرشيد لبعض الشعراء : هَلْ أَحْدَثْتَ فِينَا شَيْئًا؟ قَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، الْمَدِيحُ كُلُّهُ دُونَ قَدْرِكَ ، وَالشَّعْرُ فَيْكَ فَوْقَ
قَدْرِي ، وَلَكِنِّي أَسْتَحْسِنُ قَوْلَ الْعَتَابِيِّ [من البسيط] :

مَاذَا عَسَى مَادِحٌ يُثْنِي عَلَيْكَ وَقَدْ نَادَاكَ فِي الْوَحْيِ تَقْدِيسٌ وَتَطْهِيرٌ
فَتُ الْمَادِحِ إِلَّا أَنْ أَلْسُنَا مُسْتَنْطَقَاتٌ بِمَا تُخْفِي الْأَضْمَائِرُ
وقد أخذه البوصيري ، أو غيره في مدح سيّد الوجود فقال [من
البسيط] :

مَاذَا عَسَى الشُّعْرَاءُ الْيَوْمَ قَائِلَةٌ مِنْ بَعْدِ مَا مَدَحْتَ حَمُّ تَنْزِيلُ

(١) في «قرى الضيف» : (سوى جهدي) بدل : (سوى العذر) .

وقال ابن هانيء الأندلسي - وقد أساء الأدب على الله ؛ إذ قال
هذا في مخلوق - [في «ديوانه» ٩١ من البسيط] :

أَتَبَعْتُهُ فِكْرِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ غَايَاتِهَا بَيْنَ تَضْوِيْبٍ وَتَضْعِيدِ
أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ بُرْهَانٍ يَلُوحُ وَمَا أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَخْدِيدِ

وقال الشريف الرضي فيما يمكن أن يعدّ من هذا القبيل [في
«ديوانه» ٧٩٥ من المنسرح] :

يَا مُخْرِسَ الذِّهْرِ عَنْ مَقَالَتِهِ كُلُّ زَمَانٍ عَلَيْكَ مُتَّهِمٌ
شَخْصُكَ فِي وَجْهِ كُلِّ دَاجِيَةٍ ضُحَى وَفِي كُلِّ مَجْهَلٍ عَلَمٌ

وقد مرّ بعض ما هنا في الكلام على قوله [في «المكبري» ٢٩/٤ من
الكمال] :

[كَصِفَاتِ مَوْلَانَا أَبِي الْفَضْلِ الَّتِي بَهَرَتْ] فَأَنْطَقَ وَاصِفِيهِ وَأَفْحَمَا
مِنَ الْمَجْلِسِ الْخَامِسِ .

* * *

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٧ مِنْ الطَّوِيلِ] :

وَأَنْتَ فِي ثَوْبٍ وَصَدْرُكَ فِينُكُمَا عَلَى أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ الْأَرْضِ أَوْسَعُ

شرح المطلع والانتقاد
عليه

يقولُ : أليسَ عَجِيباً أَنَّ صَدْرَكَ هُوَ أَوْسَعُ مِنْ الْأَرْضِ؟! قَدْ
أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ ثَوْبٌ ، وَتَأَلَّفَ الْبَيْتُ فِيهِ ضِعْفٌ ، وَقَوْلُهُ : (وَصَدْرُكَ
فِينُكُمَا) مِنَ الْكَلَامِ الْغَثِّ الْبَارِدِ ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٢٠
مِنْ الْبَسِيطِ] :

تَضِيقُ عَنْ جَيْشِهِ الدُّنْيَا وَلَوْ رَحُبَتْ كَصَدْرِهِ لَمْ تَبْنِ فِيهَا عَسَاكِرُهُ
وقوله [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٣/ ٦٦-٦٧ مِنْ الْمُتَقَارِبِ] :

أَيَقْدَحُ فِي الْخَيْمَةِ الْعُدْلُ وَتَشْمَلُ مَنْ دَهَرَهَا يَشْمَلُ
تَضِيقُ بِشَخْصِكَ أَزْجَاؤُهَا وَيَرْكُضُ فِي الْوَاحِدِ الْجَحْفَلُ

وقوله [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٥٤ مِنْ الطَّوِيلِ] :

فَتَى لَا يَضُمُّ الْقَلْبُ هِمَاتِ قَلْبِهِ وَلَوْ ضَمَّهَا قَلْبٌ لَمَا ضَمَّهُ صَدْرُ

وقوله [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٣/ ٧٩ مِنْ الْبَسِيطِ] :

ضَاقَ الزَّمَانُ وَوَجْهُ الْأَرْضِ عَنْ مَلِكٍ مِلءُ الزَّمَانِ وَمِلءُ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

وقوله [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٥٤ مِنْ الْمُتَقَارِبِ] :

وَمَنْ ضَاقَتْ الْأَرْضُ عَنْ نَفْسِهِ حَرَى أَنْ يَضِيقَ بِهَا جِسْمُهُ^(١)

(١) حَرَى : خَلِيقٌ وَحَقِيقٌ .

وقوله [في «المكبري» ٢٧٧/٤ ٢٧٨ من المنسرح] :

تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هَمَمٌ مِلءُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا
فَإِنْ أَتَى حَظُّهَا بِأَزْمِنَةٍ أَوْسَعَ مِنْ ذَا الزَّمَانِ أَبْدَاهَا

وقوله [في «المكبري» ٢٧٠/٢ من الكامل] :

لَمْ يُرْضِ قَلْبَ أَبِي شَجَاعٍ مَبْلَغٌ قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلَمْ يَسْغُهُ مَوْضِعُ

وقال ابن مطير ، أو مروان بن أبي حفصة ، في رثاء معين [ابن مطير تعظيم شأن الممدوح
وأن ما في صدره أكبر من الدنيا
في «ديوانه» ٦٣ من الطويل] :

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعًا^(١) ؟
بَلَى قَدْ وَسِعَتْ الْجُودُ وَالْجُودُ مَيْتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِفَّتْ حَتَّى تَصْدَعَا

وقال أشجع السلمي في رثاء عمر بن سعيد بن سلم بن قتيبة بن
مسلم [في «ديوان الحماسة» ٣٥٥/١ من الطويل] :

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٌ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ^(٢)

في مريثة جليلة ، تعدد من محاسن المراثي ، وهي في «ديوان
الحماسة» [٣٥٥/١] ، مرر بعضها في غير هذا المجلس ، وقد ذكرنا
البيت في شرح قوله [في «المكبري» ٣٣٥/٢ من الكامل] :

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى قَضَى . . فَحَوَاهُ لَحْدُ ضَيْقُ

(١) مترع : مملوء .

(٢) الصحاصح - جمع صحصح - : وهو الأرض الجرداء المستوية .

وقال آخر [وهو عبد الله بن أيوب التميمي في «ديوان الحماسة» ٣٩٦/١ من
الكامل] :

عَجَبًا لِأَرْبَعٍ أَذْرُعٍ فِي خَمْسَةٍ فِي جَوْفِهِ جَبَلٌ أَشَمُّ كَيْبَرُ
وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٢٤٣ من البسيط] :

وَرَحْبُ صَدْرٍ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ كَوْسَعِهِ لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدُ
وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ١٠٥/١ من الطويل] :

كَرِيمٌ إِذَا ضَاقَ الزَّمَانُ فَإِنَّهُ يَفْضِلُ الْفَضَاءَ الرَّحْبُ فِي صَدْرِهِ الرَّحْبُ
وقال [في «ديوانه» ١٣١٩-١٣٢٠ من الطويل] :

فَلَنْ تَكْبُرَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ بِأَسْرِهَا وَقَدْ وَسَعَتْهَا سَاحَةٌ مِنْ رَبَاعِهِ
تَضِيعُ صُرُوفُ الدَّهْرِ فِي بُعْدِ هَمِّهِ وَتَتَوَى الرِّزَايَا فِي اتِّسَاعِ ذِرَاعِهِ^(١)
وقال [في «ديوانه» ٧٤/١ من الكامل] :

يَحْمِلُنَ كُلُّ مُفَرِّقٍ فِي هِمَّةٍ فَضْلُ يَضِيقُ بِهَا الْفَضَاءُ السَّبْسَبُ^(٢)
وقال السري الرفاء يرثي مصلوباً [في «ديوانه» ٣٥٦ من الطويل] :

يَعِزُّ عَلَى الْعَلِيَاءِ أَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ظُبَا أَسْيَافِهِ وَالْعَوَامِلِ
وَلَيْسَ بِعَارٍ مَا عَرَاكَ وَإِنَّمَا حَمَاكَ اتِّسَاعُ الصَّدْرِ ضَيْقَ الْمَنَازِلِ
أَحَلَّكَ مِنْ أَعْلَى الْهَوَاءِ مَحَلَّةً نَأَتْ بِكَ عَنْ ضَيْقِ الثَّرَى وَالْجَنَادِلِ

(١) تتوى : تهلك .

(٢) السبسب : المفازة . الفضل : الثوب الواحد يقسرُ عليه الرجل والمرأة وتبدله
للأعمال .

وقال [في «ديوانه» ٣١٤ من الكامل] :

رَحْبُ الْمَنَازِلِ مَا أَقَامَ فَإِنْ سَرَى فِي جَحْفَلٍ تَرَكَ الْفَضَاءَ مَضِيقًا

وقال أبو الحسن ابن الأنباري في قصيدته ، التي أجاد فيها ،

وسبق لنا ذكرها [في «قرى الضيف» ٤٣٩/٢ من الوافر] :

وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ تَضُمَّ عَلَاكَ مِنْ بَعْدِ الْمَمَاتِ

أَصَارُوا الْجَوْ قَبْرَكَ وَأَسْتَنَابُوا عَنِ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ

ولا يخفى أنَّ سعة الصدر آية السؤدد ، وسلم الشرف ، والله جل شأنه يقول : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام] :
سعة الصدر من آيات السؤدد

. [١٢٥]

وَأَنْتَهتَ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأَمَانِيَّ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي

صَدْرِي * وَبَيِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ [طه : ٢٥-٢٧] .

وما طلبه موسى أعطيه نبينا صلوات الله عليهم من غير سؤال ،

فقد قال له ربه : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : ١] .

وجعله مع ذلك أفصح الناس .

وذكر ابن أبي الحديد [في «شرح النهج»] أمثلة من سعة صدر أمثلة من سعة صدر

معاوية وحلمه

معاوية :

أَحْذَهَا : أَنَّهُ وَفَدَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْكُوفَةِ حِينَما خُطِبَ لابْنِهِ يَزِيدَ بُولَايَةَ

العهد من بعده ، وفي أهل (الكوفة) هاني بن عروة المرادي ،

وكان سيِّداً شريفاً ، فقال - والناسُ حوله في مسجد (دمشق) - :

عجباً لمعاوية يوطئ الأمر لائنه ، وحاله معلوم ، يريد أن يقسّرنا عليه ، وما ذلك بكائن والله .

فأسرع بها غلام من قريش إلى معاوية ، فقال : أرجع إليه ، وأنصحه إذا خفّ عنه الناس ، وقُل ما شئت ، فقال له : قد وصلت كلمتك إلى معاوية ، ومالك والمجاهرة بهذا ، وأنت في أيديهم ، وهم بنو أمية لا يخافون إلا ، ولا يرقبون ذمّة ، وما دعائي لهذا غير النصيح لك ، والإشفاق عليك ، فقال هاني : يا ابن أخي ، والله ما خرج هذا إلا من صدر معاوية ، فقال الفتى : وما أنا ؟ ومعاوية لا يعرفني ولا أعرّفه ، فقال له : وما عليك ، إذا لقيته . فقل له : يقول لك هاني : والله ما إلى ذلك من سبيل ، فدخل الفتى على معاوية ، فأخبره ، فقال : نستعين عليه بالله ، ثم قال بعد أيام للوفد : أرفعوا حوائجكم - وهاني فيهم - فرفعوا إليه حوائجهم ، فقضاها ، ولما رفع إليه هاني حاجته . رماها إليه ، وقال : كنت أرى لك شأنًا ، ثم تسأل هذا النزر الحقيق ، فأطلب على قدر همّتك ، فزاد في الرقعة ما زاد ، فرماها إليه ثانية ، ولم يزل يردّها عليه ، ويستزيده ، حتّى أنقطعت به الأماني ، وأستعبده الإحسان ، فقال : لا والله ما بقي في نفسي إلا حاجة واحدة ، قال : ما هي ؟ قال : أن تولّيني الأخذ بالبيعة ليزيد من أهل (العراق) ، قال : دونك ذلك . فأحكم أمرها ، ووثق عهدها ، بمعونة من المغيرة بن شعبة ، وكان إذ ذاك والي (العراق) .

والثاني : مرّت قافلة من اليمن لمعاوية بـ (المدينة) ، فوثب عليها الحسين بن علي فأخذها ، وكتب إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ عِيرًا مَرَّتْ بِنَا مِنْ (الْيَمَنِ) ، تَحْمِلُ مَالًا ،
وَحُلَلًا ، وَعَنْبَرًا ، وَإِنِّي أَحْتَجُّ إِلَيْهَا ، فَأَخَذْتُهَا ، وَالسَّلَامُ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةُ كِتَابًا يَقُولُ فِيهِ : وَأَيُّمُ اللَّهِ ، لَوْ تَرَكْتَ ذَلِكَ
حَتَّى يَصِيرَ إِلَيْنَا ، ثُمَّ طَلَبْتُهُ . . لَمْ نَمْنَعُهُ دُونَكَ ، وَإِنِّي لَأَرَى فِي
رَأْسِكَ يَا أَبْنَ أَخِي نَزْوَةً ، وَبَوْدِي أَنْ أَكُونَ صَاحِبَهَا ؛ لِأَغْفِرَهَا لَكَ
وَكَتَبَ أَسْفَلَ الْكِتَابِ [فِي « دِيَوَانِهِ » ١٠٠٠ مِنْ الرُّمَلِ] :

يَا حُسَيْنُ بْنَ عَلِيٍّ لَيْسَ مَا جِئْتَ بِالسَّافِعِ يَوْمًا فِي الْإِلْعَلِّ
أَخَذَكَ الْمَالَ وَلَمْ تُؤْمَرْ بِهِ إِنَّ هَذَا مِنْ حُسَيْنٍ لَعَجَلُ
قَدْ أَجَزْنَاهَا وَلَمْ نَغْضَبْ لَهَا وَأَحْتَمَلْنَا مِنْ حُسَيْنٍ مَا فَعَلَ

وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ كَانَ لَهُ بَسْتَانُ بـ (الطَّائِفِ) ، إِلَى جَانِبِهِ بَسْتَانُ آخَرُ
لِابْنِ الزَّبِيرِ ، فَطَفِقَ غُلَمَانُهُ يَعِيشُونَ فِي بَسْتَانِ ابْنِ الزَّبِيرِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ
يَسْتَكْفُهُمْ ، وَيَقُولُ : إِنْ دَفَعْتَهُمْ عَنِّي . . وَإِلَّا كَانَ لِي وَلَكَ شَأْنٌ ،
فَاسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ فِي الْجَوَابِ ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ - وَأَظْنُّهُ أَبْنُو زَيْدٍ - :
أَرَى أَنْ تَبْعَثَ لَهُ بِجَيْشٍ ، أَوَّلُهُ عِنْدَهُ ، وَآخِرُهُ عِنْدَكَ ، حَتَّى يَعْرِفَ
مَكَانَهُ ، فَقَالَ : أَوْخَيْرُ مِنْ ذَلِكَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ يَعْتَرِفُ بِفَضْلِهِ ، وَفَضْلِ
أَبِيهِ ، وَسَابِقَتِهِ ، وَأَصَافَ بَسْتَانَهُ وَغُلَمَانَهُ إِلَى بَسْتَانِ ابْنِ الزَّبِيرِ
وَوِغْلَمَانِهِ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَفِيدُ الْكَرْمَ وَالْعَفْوُ إِلَّا مَعَ أَهْلِهِ ، مِمَّنْ يَقُودُهُمُ الْإِحْسَانُ لَا يَفِيدُ الْكَرْمَ وَالْعَفْوُ إِلَّا
بِحُزَامِهِ ، وَيَقْتُلُهُمُ الْعَفْوُ بِحُسَامِهِ ، قَالَ النَّازِمُ [فِي « الْمَكْبَرِيِّ » ١ / ٢٨٨ مِنْ
الطُّوِيلِ] :

وَمَا قَتَلَ الْأَخْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا

وقال [في «المكبري» ١٣٦/٤ من الطويل] :

وَأَخْلُمُ عَنْ خِلْسِي وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى أَجْزِهِ حِلْمًا عَلَى الْجَهْلِ يَنْدَمِ

أَمَّا إِذَا كَانَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ . . فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ إِلَّا بِسُوءِ الْمَغْبَةِ ، وَقَدْ

فَكَرْتُ مَرَّةً فِي أَصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ إِلَى اللَّثَامِ ، فَلَمْ أَرَ نَكْبَةً لَهَا فِي

التَّارِيخِ ذِكْرٌ إِلَّا كَانَ أَصْلُهَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، حَتَّى لَقَدْ ذَكَرْتُ فِي

مَقَالٍ نَافِعٍ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ وَاقِعَةً ، كُلُّهَا يَصْلُحُ شَاهِدًا لِمَا أَقُولُ ،

مِنْهَا : قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ

يَتُوسَعُ أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي

الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصاص : ١٩] ؛ إِذْ لَمْ يَغِشَّ عَلَى

مُوسَى إِلَّا الْإِسْرَائِيلِيَّ الَّذِي نَصَرَهُ بِالْأَمْسِ ، وَقَدْ جَرَّبْتُ ذَلِكَ فِي

نَفْسِي ، وَقَانَا اللَّهُ شَرًّا مِنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ .

وَصَدَقَ سَفِيَانُ [الثوري] فِي قَوْلِهِ [في «حلية الأولياء» ٣٩٠/٦] :

مَا وَجَدْنَا أَصْلَ كُلِّ عَدَاوَةٍ . . سِوَى أَصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ

وَقَدْ قَالَ زَهِيرٌ [في «ديوانه» ٢٦ من الطويل] :

وَمَنْ يَفْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَعْذُ حَمْدُهُ ذِمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

وَقَالَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ [في «مجمع الأمثال» ١٤٤/٢ من الطويل] :

وَمَنْ يَفْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يُجَازِي كَمَا جُوزِي مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ^(١)

(١) مجيرُ أُمِّ عَامِرٍ : وَهِيَ الضَّبْعُ ، مِثْلُ عَرَبِيٍّ قَصَّتُهُ هِيَ : طَرَدَ قَوْمٌ ضَبْعًا حَتَّى
الْجُزُوهَا إِلَى خِيْمَةِ أَعْرَابِيٍّ ، فَأَجَارَهَا ، فَقَالُوا لَهُ صَيْدُنَا وَطَرِيدُنَا ، فَقَالَ كَلَّا ،
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ : لَا تَصِلُونَ إِلَيْهَا مَا ثَبَّتَ قَائِمٌ سِيفِي بِيَدِي ، فَتَرَكُوهُ ، فَقَرَّبَ
إِلَيْهَا لَبْنًا ، فَأَقْبَلَتْ تَلْعُ فِيهِ . . حَتَّى شَبِعَتْ ، وَبَيْنَمَا هُوَ نَائِمٌ فِي جُوفِ بَيْتِهِ . . إِذْ
وَثَبَتْ عَلَيْهِ ، فَبَقِرَتْ بَطْنَهُ ، وَذَهَبَتْ ، فَأَخَذَ أَبْنُ عَمِّ لُؤْلُؤَةَ وَكُنَانَتَهُ ، فَلَمْ يَزَلْ =

بَرَاهَا وَرَبَّاهَا فَلَمَّا تَمَكَّنَتْ فَرْتُهُ بِأَنْيَابِ لَهَا وَأَظَافِرِ

[وروى الميداني في «مجمع الأمثال» ٢٣٧١ أنه] رَبُّي أَحَدُهُمْ جَرَوْ ذَنْبِ
يَرْضَعُهُ مِنْ شَاتِيهِ ، فَلَمَّا قَوِيَ . . أَفْتَرَسَهَا ، فَقَالَ [مِنْ الْوَافِرِ] :

بَقَرْتَ شُوَيْهَتِي وَفَجَعْتَ أَهْلِي فَمَنْ أَنْبَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذَيْبُ
إِذَا كَانَ الطَّبَاعُ طِبَاعَ سُوءٍ فَلَا لَبْنَ يُفِيدُ وَلَا حَلِيبُ

وما أحسن قول المهلب [مِنْ الْبَسِيطِ] :

لَمَّا اعْتَقَدْتُمْ أَنَا لَا حُلُومَ لَهُمْ ضِعْتُمْ وَضِعْتُمْ مَنْ كَانَ يَعْتَقِدُ
وَلَوْ جَعَلْتُمْ عَلَى الْأَحْرَارِ نِعْمَتَكُمْ حَمَنُكُمْ السَّادَةُ الْمَذْكُورَةُ الْخُشْدُ
قَوْمٌ هُمْ الْجِذَمُ وَالْأَنْسَابُ تَجْمَعُهُمْ وَالْمَجْدُ وَالْدِّينُ وَالْأَرْحَامُ وَالْبَلَدُ^(١)
إِذَا فُرَيْشُ أَرَادُوا شَدَّ مُلْكِهِمْ بِغَيْرِ قَخْطَانٍ لَمْ يَبْرَحْ بِهِ أَوْدُ

وقال النازم [في «المكبري» ١٨٧/٣ ١٨٨] مِنَ الطَّوِيلِ :

إِذَا قِيلَ : رَفَقًا قَالَ : لِلْجِلْمِ مَوْضِعٌ وَحِلْمُ الْفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ
وَلَوْلَا تَوَلَّى نَفْسِهِ حَمْلَ حِلْمِهِ عَنِ الْأَرْضِ لَانْهَدَّتْ وَنَاءَ بِهَا الْجِمْلُ

وقال [في «المكبري» ١١٢/٤] مِنَ الطَّوِيلِ :

مِنْ الْجِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْجَهْلَ دُونَهُ إِذَا اتَّسَعَتْ بِالْجِلْمِ طُرُقُ الْمَظَالِمِ

وقال سعد بن ناشب [في «جمهرة الأمثال» ٢٧٣/١] مِنَ الطَّوِيلِ :

وَفِي اللَّيْنِ ضَعْفٌ وَالشَّرَاسَةُ هَيْبَةٌ وَمَنْ لَا يَهَبُ يُخْمَلُ عَلَى مَرْكَبٍ وَغَرِ

= في طلبها حتى قتلها ، وأنشأ يقول :

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاق الذي لا قى مجير أم عامر

في أربعة أبيات انظر في «المستقصى في أمثال العرب» (٢/ ٢٣٣) .

(١) الجلم : بالكسر الأصل ، وبالفتح القطع .

وَقَالَ أَوْسُ بْنُ حُبَاءَ [كما في «البيان والتبيين» ٣٨٩/١ من الطويل] :
 إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهَوَانَ فَأَوْلِهِ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِينًا أَوَاصِرُهُ^(١)
 وَقَدْ أَرْتَاكَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ قَوْلِ النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ [في «ديوانه» ٨٥ من
 الطويل] :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَذَّرَا
 وَقَالَ قَيْسُ بْنُ زَهِيرٍ - [في «مجمع الأمثال» ١١٦/٢] يرثي حَمَلُ بْنُ
 بَدْرِ ، وَهُوَ مِمَّا تَمَثَّلَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ [في «جمهرة خطب العرب»
 ١٢٧/٢ من الوافر] - :

أَظُنُّ الْحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ
 وَمِنْ مَرَاثِي قَيْسٍ فِي حَمَلِ بْنِ بَدْرِ وَأَخِيهِ عَيْنَةَ - وَكَانَ هُوَ الَّذِي
 قَتَلَهُمَا يَوْمَ جَفْرِ الْهَبَاءِ - قَوْلُهُ [في «ديوان الحماسة» ٦٤/١ من الوافر] :

شَفَيْتُ النَّفْسَ مِنْ حَمَلِ بْنِ بَدْرِ وَسَيَفِي مِنْ عَيْنَةَ قَدْ شَفَانِي
 وَإِنْ أَكْ قَدْ شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِي فَلَمْ أَقْطَعْ بِهِمْ إِلَّا بَنَانِي
 وَقَالَ الْحَصِينُ بْنُ الْحَمَامِ فِي مِثْلِهِ [في «الأغاني» ١٦٢/١٣ من الطويل] :
 نَفَلْتُ هَامًا مِنْ رَجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

وَقَالَ الْعَدِيلُ بْنُ الْفُرَخِ [في «ديوان الحماسة» ٢٠٨/١ من الطويل] :
 وَإِنِّي وَإِنْ عَادَيْتُهُمْ أَوْ جَفَوْتُهُمْ لَتَأْلُمُ مِمَّا عَلَّ أَكْبَادَهُمْ كَبِيدِي

(١) وتمة الأبيات :

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْذِرْ عَلَيَّ أَنْ تُهِنَنِي فَذَرُهُ إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي أَنْتَ قَادِرُهُ
 وَقَارِبَ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَكَ قُدْرَةٌ وَصَّمَّ إِذَا أَتَيْتَ أَنَّكَ عَاقِرُهُ

وقال منصور النميري للرشيد ، حينما شدَّ وطأته على العلويين
[في «الأغاني» ١٦٢/١٣ من الوافر] :

وَإِنَّكَ حِينَ تَبْلُغُهُمْ أَذَاهُمْ وَإِنْ ظَلَمُوا لَمْخَرِقُ الضَّمِيرِ
من قطعة سبق بعضها أواخر المجلس الثالث عشر ، وغاية
الغايات في الموضوع . . قول أبي عبادَةَ [في «ديوانه» ١٢٩٩/٢ من الطويل] :
إِذَا أَحْتَرَبْتُ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرْتُ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا
وَلَمْ يَنْسَ حَظُّهُ النَّاطِمُ مِنْهُ ، فقال [في «المكبري» ٧٩/١ من الوافر] :

وَكَيْفَ يَتِمُّ بِأُسْكَ فِي أَنْاسٍ تُصِيبُهُمْ فَيُؤْلِمُكَ الْمَصَابُ ١٩
وقال [في «المكبري» ١١١-١١٢/٢ من الوافر] :

بَنُو كَعْبٍ وَمَا أَكْرَزَتْ فِيهِمْ يَدٌ لَمْ يُذْمِهَا إِلَّا السَّوَارُ
بِهَا مِنْ قَطْعِهِ أَلَمٌ وَتَقْصُ وَفِيهَا مِنْ جَلَالَتِهِ أَفْتِخَارُ
لَهُمْ حَقٌّ بِشْرَكَكَ فِي نِزَارٍ وَأَذْنَى الشَّرِّكَ فِي أَصْلِ جَوَارُ
لَعَلَّ بَيْنَهُمْ لِبَيْنِكَ جُنْدُ فَأَوَّلُ قُرْحِ الْخَيْلِ الْمِهَارُ^(١)
وَأَنْتَ أَبْرُّ مَنْ لَوْ عُوَّ أَفْنَى وَأَعْفَى مَنْ عُقُوبَتُهُ الْبَوَارُ
وَأَقْدَرُ مَنْ يَهَيِّجُهُ أَنْتِصَارُ وَأَخْلَمُ مَنْ يُحْلِمُهُ أَقْتِدَارُ

وقد سبق أواخر المجلس الثاني بعض ما يتعلق بالعمو ، وحكمة
انتقامه ﷺ من اليهود ، ومنه على قریش .

* * *

(١) القُرْحُ: الخيل إذا أستوت وصارَ لها خمسُ سنين. المِهَارُ - جمعُ مهرٍ -: وهو
الصغيرُ من الخيل.

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المَتَنِيّ فِي « العُكْبَرِيِّ » ٢ / ٢٤٨ مِنْ الطَّوِيلِ] :

أَلَا كُلُّ سَمَحٍ غَيْرِكَ الْيَوْمَ بَاطِلٌ وَكُلُّ مَدِيحٍ فِي سِوَاكَ مُضَيِّعٌ

كل مديح في غير
الممدوح... ضياع

معناه مِنْ قَوْلِ ابْنِ الرُّومِيِّ [فِي « دِيوانِهِ » ٤ / ١٤٢٥ مِنْ الطَّوِيلِ] :
فَكُلُّ مَدِيحٍ لَمْ يَكُنْ فِي ابْنِ صَاعِدٍ وَلَا فِي أَبِيهِ صَاعِدٍ فَهُوَ هَابِطٌ
ويروى [فِي « تَارِيخِ بَغْدَادِ » ١٣ / ١٤٤] : أَنَّ مِرْوَانَ ابْنَ أَبِي حَفْصَةَ دَخَلَ
عَلَى المَهْدِيِّ بَعْدَ مَوْتِ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، فِيهِمْ
سَلْمُ الخَاسِرُ وَغَيْرُهُ ، فَأَنشَدَهُ مَدِيحاً فِيهِ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ :
شَاعِرُكَ مِرْوَانُ ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ ، فَقَالَ لَهُ المَهْدِيُّ : أَوْلَسْتَ القَائِلَ؟
[فِي « دِيوانِهِ » ٨٣ مِنْ الوَافِرِ] :

مروان بن أبي حفصة
وغضب المهدي عليه

أَقْمَنَا بِالْيَمَامَةِ إِذْ يَتَسَنَّا مُقَاماً لَا نُرِيدُ بِهِ زِيالاً
وَقُلْنَا : أَيْنَ نَزَحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ ؟ وَقَدْ ذَهَبَ الْنَوَالُ فَلَا نَوَالاً!
فكَيْفَ جِئْتَ تَطْلُبُ نَوَالَنَا ، وَقَدْ ذَهَبَ النَوَالُ فِي زَعْمِكَ؟!
لَا شَيْءَ لَكَ عِنْدَنَا ، جُرُّوا بِرَجْلِهِ ، فَجُرُّوا بِرَجْلِهِ حَتَّى أَخْرَجُوهُ .
فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ . . تَلَطَّفَ حَتَّى دَخَلَ مَعَ الشُّعْرَاءِ ، وَإِنَّمَا
كَانَتْ الشُّعْرَاءُ تَدْخُلُ عَلَى الْخُلَفَاءِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنْ كُلِّ عَامٍ ، وَأَنشَدَهُ
قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَسْتَهْلُهَا بِقَوْلِهِ [مِنْ الْكَامِلِ] :
(طَرَفَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خِيَالَهَا)

يقول فيها [فِي « دِيوانِهِ » ٩٧-٩٩ مِنْ الْكَامِلِ] :

مَلِكُ تَقَرَّعَ نَبْعُهُ مِنْ هَاشِمٍ مَدَّ الْإِلَهِ عَلَى الْأَنَامِ ظِلَالَهَا

جَبَلٌ لَأُمَّتِهِ تَلُودُ بِرُكْنِهِ رَادَى جِبَالٍ عِدَاتِهِ فَأَزَالَهَا
هَلْ تَعْلَمُونَ خَلِيفَةً مِنْ قَبْلِهِ أَجْرَى لِغَايَتِهِ الَّتِي أَجْرَى لَهَا ؟
أَفَتَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا بِأَكْفُكُمْ أَمْ تَسْتُرُونَ هَلَالَهَا ؟
أَمْ تَجْحَدُونَ مَقَالََةً مِنْ رَبِّكُمْ جَبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا

فَأَنْصَتَ لَهَا الْمَهْدِيُّ ، وَلَمْ يَزَلْ يَزْحَفُ شَيْئاً فشيئاً ، كُلَّمَا سَمِعَ
شَيْئاً مِنْهَا . . . حَتَّى صَارَ عَلَى الْبَسَاطِ ؛ إِعْجَاباً بِهَا ، وَأَرْتِيحاً مِنْهَا ،
ثُمَّ قَالَ لَهُ : كَمْ بَيْتٌ هِيَ ؟ قَالَ : مِئَةٌ بَيْتٌ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ،
وَهِيَ أَوَّلُ مِئَةِ أَلْفٍ أُعْطِيَهَا شَاعِرٌ فِي خِلَافَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ [كما في « تاريخ
بغداد » ١٣ / ١٤٥] .

ويروى : أَنَّ مِرْوَانَ ابْنَ أَبِي حَفْصَةَ دَخَلَ عَلَى جَعْفَرِ الْبَرْمَكِيِّ ،
فَقَالَ لَهُ : أُنْشِدْنِي مَرثِيَّتَكَ فِي مَعْنٍ ، فَأَنْشَدَهُ ، حَتَّى فَرَّغَ مِنْ
الْقَصِيدَةِ ، وَدَمَوْعُ جَعْفَرٍ تَتَحَادَرُ عَلَى خَدَّيْهِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ . . . قَالَ لَهُ
جَعْفَرٌ : هَلْ أَتَاكَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ لَهُ : فَلَوْ كَانَ
مَعْنٍ حَيًّا . . . كَمْ كَانَ يَبْكِي عَلَيْهَا ؟ قَالَ : أَرْبَعَ مِئَةِ دِينَارٍ ، قَالَ لَهُ : قَدْ
أَضْعَفْنَاكَ لَكَ عَنْهُ ، وَزِدْنَاكَ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَأَقْبَضَ مِنَ الْخَازِنِ أَلْفًا
وَسِتِّ مِئَةِ دِينَارٍ قَبْلَ أَنْ تَنْصَرِفَ إِلَى رَحْلِكَ ، فَأَمْتَدَحَ جَعْفَرًا بِأَبْيَاتٍ ،
وَتَسَلَّمَ الْمَالَ .

ويقال [في « الأغاني » ٢٠ / ٥٦] : إِنَّهُ دَخَلَ عَلَى الرَّشِيدِ - أَيْضًا -
فَأَسْتَنْشَدَهُ الْمَرثِيَّةَ الْمَذْكُورَةَ ، وَبَيْنَ يَدَيْ الرَّشِيدِ سُكْرُجَّةٌ ، فَمَلَأَهَا
مِنْ دَمَوْعِهِ^(١) ، وَهِيَ عَرْضَةُ ذَلِكَ ، وَلَوْ لَا خَشْيَةُ الْإِمْلَالِ . . .

(١) قَالَ فِي « الْأَغَانِي » ٢٠ / ٥٦ فَلَمَّا أَنْتَهَى مِنْ إِنْشَادِهَا . . . بَكَى هَارُونُ الرَّشِيدُ ،
وَلَوْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ سُكْرُجَّةٌ لَمَلَأَهَا مِنْ دَمَوْعِهِ .

لذكرتها ، ولكنها موجودة في كتب التواريخ ؛ لأنها وراثية
الحسين بن مطير^(١) أحسن ما قيل في رثاء معن ، ولقلما ذكرت
قصيدة مروان السابقة . . إلا تمثلت بقول أبي تمام [من الطويل] :

فإن أنا لم يمدحك عني صاعراً عدوك فأعلم أنني غير شاعر
وقول أبي عبادة [في «ديوانه» ١١٦٩ من الكامل] :

ليواصلنك ركب شعري دائماً يزويه فيك لحسنه الأعداء
وقول الناظم [في «المكبري» ٥٣/٤ من الطويل] :

واسمع من الفاظه اللغة التي يلد بها سمعي وإن ضمنت شمني
وقول ابن نباتة السعدي [في «المثل السائر» ٣٢٩/٢ من البسيط] :

خذها إذا أنشدت في الحي من طرب صدورها عرفت منها قوافيها
يسئ لها الراكب العجلان حاجته ويضبح الحاسد الظمان يزويها
فإنني بها جدمعجب ، على مخالفتها لمذهبي ومشربي .

ولما مات أبو العباس السفاح . . دخل أبو دلامة على المنصور ،
والناس يعزونه ، فأنشده [في «ديوانه» ٦٨ من الكامل] :

رثاء أبي دلامة لأبي
العباس السفاح وغضب
المنصور عليه ثم رضاء
عنه

أمنيت بالأنبار يا ابن محمد لم تستطع عن غيرها تخويلاً
فلتبكين لك النساء بعبرة ولتبكين لك الرجال عويلاً
مات الندى إذ مت يا ابن محمد فجعلته لك في الثراب عديلاً
إنني سألت الناس بعدك كلهم فوجدت أسمع من سألت بخيلاً

(١) التي يقول فيها :

فيا قبر مغن كيف وارتيت جودة وقد كان منه البر والبحر مزرعاً

الْشَّقَوَتِي أَخْرْتُ بَعْدَكَ لِلَّتِي تَدْعُ الْعَزِيزَ مِنَ الرِّجَالِ ذَلِيلًا
فَلَاخِلْفَنَ يَمِينَ حَقِّ بَرَّةٍ تَأَلَّهُ مَا أُعْطِيتُ بَعْدَكَ سُؤلاً

فَأَبْكَى النَّاسَ ، وَأَغْضَبَ الْمَنْصُورَ ، حَتَّى قَالَ لَهُ : لَئِنْ سَمِعْتُكَ
تَنْشُدُهَا مَرَّةً أُخْرَى.. لَأَقْطَعَنَّ لِسَانَكَ ، فَقَالَ أَبُو دَلَامَةَ : إِنَّهُ كَانَ لِي
مَكْرِمًا ، وَقَدْ جَاءَنِي مِنَ الْبَدْوِ كَمَا جَاءَ اللَّهُ بِأُخْوَةِ يُوسُفَ إِلَيْهِ ، فَقُلْ
أَنْتَ كَمَا قَالَ يُوسُفُ : لَا تَثْرِبَ عَلَيْكَ ، فَسَرَّيَ عَنِ الْمَنْصُورِ ،
وَقَالَ : قَدْ أَقْلَنَّاكَ يَا أَبَا دَلَامَةَ ، فَسَلْ حَاجَتَكَ ، فَقَالَ : قَدْ أَمَّرَ لِي أَبُو
الْعَبَّاسِ بَعْشَرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ ، وَخَمْسِينَ ثَوْبًا ، وَهُوَ مَرِيضٌ ، فَلَمْ
أَقْبُضْهَا ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ : مَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ؟ فَشَهِدَ لَهُ سَلِيمَانُ بْنُ
مَجَالِدٍ ، وَأَبُو الْجَهْمِ ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ : أَدْفَعْهَا إِلَيْهِ ، وَسَيِّرْهُ إِلَى
هَذَا الطَّاغِيَةِ - يَعْنِي عَمَّةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَكَانَ قَدْ أَظْهَرَ الْخِلَافَ ،
وَخَرَجَ بِنَاحِيَةِ (الشَّامِ) - فَوَثَبَ أَبُو دَلَامَةَ ، وَقَالَ : أُعِيدُكَ بِاللَّهِ أَنْ
أُخْرَجَ مَعَهُمْ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَمَشْؤُومٌ ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : أَمْضِ فَإِنَّ
يُؤْمِنُنَا يَغْلِبُ شَوْمَكَ ، فَقَالَ : مَا أَحْبَبُّ لَكَ أَنْ تَجْرِبَ مِنِّي ذَلِكَ عَلَى
هَذَا الْعَسْكَرِ ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي أَيُّهُمَا يَغْلِبُ ، يُؤْمِنُكَ أَوْ شَوْمِي ، غَيْرَ
أَنِّي بِنَفْسِي أَدْرِي وَأَعْرِفُ وَأَطُولُ تَجْرِبَةً ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ : دَعْنِي مِنْ
هَذَا ، فَمَا لَكَ بَدًّا مِنَ الْخُرُوجِ ، قَالَ : فَإِنِّي أَصْدُقُكَ الْآنَ ، شَهِدْتُ
وَاللَّهِ تِسْعَةَ عَشَرَ عَسْكَرًا ، هُزِمَتْ كُلُّهَا ، وَكُنْتُ أَنَا سَبَبَ هَزِيمَتِهَا ،
فَإِنْ شِئْتَ الْآنَ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنْ يَكُونَ عَسْكَرُكَ تَمَامَ الْعَشْرِينَ..
فَأَفْعَلْ ، فَاسْتَفْرَعَ الْمَنْصُورُ ضَحْكَاً ، وَأَذِنَ لَهُ أَنْ يَتَخَلَّفَ .

وما زال الشَّعْرُ وَأَهْلُهُ فِي الْإِعْتِبَارِ الْأَوَّلِ عِنْدَ الْأُمَوِيِّينَ وَالْعَبَّاسِيِّينَ الْحَرِّ تَكْفِيهِ الْإِشَارَةُ
يَتَأَثَّرُونَ بِأَقْوَالِهِمْ ، وَيَقْبَلُونَ شَفَاعَاتِهِمْ ، وَيُغْضُونَ عَنْ هَفَوَاتِهِمْ ،

ويتنافسون في أصطناعِهِمْ ، ويتحاسدونَ على بناتِ أفكارِهِمْ ،
وما ذلكَ إلَّا لكرَمِ طباعِهِمْ ؛ فالكريمُ هو الذي يتأثرُ بالكلامِ ،
ويهربُ مِنَ الملامِ ، وقد قالَ جلُّ شأنهُ : ﴿ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفْعُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وذلكَ أنَّ المؤمنَ لا يكونُ إلَّا كريماً ، والكريمُ يفعلُ بالكلامِ ،
ولا سيِّماً إذا كانَ بليغاً ، ولهذا أَسْتَحْبُوا البلاغَةَ في الخطابةِ ،
وحسبُكَ أنَّ كثيراً مِنَ ظَلَمَتِهِمْ وجَبَّارِيهِمْ يحقنُ الدماءَ الغزيرةَ لِكَلِمَةٍ
تملاً سمعَهُ مِنَ الشاعِرِ ، فأما الآنَ . . فقد ذهبتِ العروبيَّةُ ، بل
أُتْمِسَتْ الإنسانيَّةُ ، قالَ ابنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦٨٩/٢ مِنَ الطويلِ] :

أَرَى النَّاسَ مَخْسُوفاً بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يُقْلَبْ عَلَيْهِمْ صَعِيدُهَا

وَمِنَ الْأَدَلَّةِ عَلَى تَأْثِيرِ الشُّعْرِ وَنَفْوذِهِ [كما في « الكامل في أسماء الرجال »
٤٣٠/١] : ما فعلهُ الحارثُ ابنُ أبي شميرٍ الغسانيُّ ، فلقد أَسْرَ
شَاسَ بنَ عبدةَ في تسعينَ مِنَ بني تميمٍ وغيرِهِم مِنَ الْعَرَبِ ، فَقَدِمَ
عليهِ علقمَةُ الفحلِّ وأَسْتَعَطَفَهُ بقصيدَتِهِ لَهُ التي يقولُ منها [في « ديوانهِ »
٤٨٤٠-٤٣٩ مِنَ الطويلِ] :

إِلَى الْحَارِثِ الْوَهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي لِكُلِّكِلْهَا وَالْقَصْرَيْنِ وَجِيبُ^(١)
هَدَانِي إِلَيْكَ الْفَرْقَدَانِ وَلَا حَبُّ لَهُ فَوْقَ إِغْلَامِ الْمِثَانِ عُلُوبُ^(٢)

(١) القصرَيانِ : ضلعانِ قصيرانِ تليانِ الخاصرتينِ . الوجيبُ : الرعدةُ والاضطرابُ
من شدَّةِ السيرِ .

(٢) هداني إليك الفرقدانِ : يعني أَنَّهُ سَرَى بِاللَّيْلِ فِي سِيرِهِ إِلَيْهِ فَاهْتَدَى بِالنَّجُومِ .
اللاحِبُ : الطريقُ الواضِحُ . المِثَانُ - جمعُ مِثْنٍ - : وهو المكانُ الصَّلْبُ
المستوي . العُلُوبُ - جمعُ عُلْبٍ - : وهو الأَثَرُ ، وإنما أَرَادَ أَنْ يَصِفَ هَذَا =

فَلَا تَحْرِمْ نِي نَائِلًا عَنْ جَنَابِهِ فَإِنِّي أَمْرُؤٌ وَسَطُ الْقَبَابِ غَرِيبُ^(١)
وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحَقُّ لِسَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْوُبُ^(٢)

فَقَالَ الْحَارِثُ لَهُ : نَعَمْ ، وَنِعْمَةٌ عَيْنٍ ، وَأَطْلُقْ لَهُ أَخَاهُ شَاسًا ،
وَأَسْرِ تَمِيمَ بِأَسْرِهِمْ ، وَمَنْ سَأَلَهُ فِيهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ .

وَشَفَعَ الْفَرَزْدَقُ إِلَى تَمِيمِ بْنِ مُرَّةٍ^(٣) بِقَوْلِهِ [فِي «الْأَغَانِي» ٣٥٥/١٠ مِنْ
الطُّوِيلِ] :

تَمِيمُ بْنُ مُرَّةٍ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي بَظْهَرٍ فَلَا يَغِي عَلَيَّ جَوَابُهَا
فَهَبْ لِي خُنَيْسًا وَاخْتَسِبْ فِيهِ مَنَّةً لِعَبْرَةٍ أَمْ مَا يَسُونُ شَرَابُهَا
أَتَتْنِي فَعَاذْتَ يَا تَمِيمُ بِغَالِبٍ وَبِالْحُفْرَةِ السَّافِي عَلَيْهَا تُرَابُهَا
وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ أَنَّكَ مَاجِدٌ وَلَيْتُ إِذَا مَا الْحَزْبُ شَبَّ شِهَابُهَا

= الطريقَ بأنه متصلٌ بالوعورِ والأماكنِ الغليظةِ ، وإنما تجشَّم ركوبُهُ إليه . . لِمَا
يرجو من معروفِهِ وفضلِهِ .

(١) الجَنَابَةُ : الغُرْبَةُ .

(٢) قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ : أَيِ أَنْعَمْتَ وَتَفَضَّلْتَ . الذَّنُوبُ : الدَّلُوعُ الْعَظِيمَةُ ، وَضَرْبُهَا
مَثَلًا لِلْحِظِّ وَالنَّصِيبِ .

(٣) فِي «الْأَغَانِي» : تَمِيمُ بْنُ زَيْدٍ ، وَلِلْأَبْيَاتِ قِصَّةٌ حَاصِلُهَا :

أَنَّ تَمِيمَ بْنَ زَيْدٍ غَزَا (الْهِنْدَ) فِي جَيْشٍ ، فَجَمَّرَهُمْ ، وَفِي جَيْشِهِ رَجُلٌ يُقَالُ
لَهُ : حُبَيْشٌ ، فَلَمَّا طَالَتْ غَيْبَتُهُ عَلَى أُمِّهِ . . أَشْتَاقَتْهُ ، فَسَأَلَتْ عَنْهُ يُكَلِّمُ لَهَا
تَمِيمَ بْنَ زَيْدٍ أَنْ يُقْفَلَ أَبْنَاهُ ، فَقِيلَ لَهَا : عَلَيْكَ بِالْفَرَزْدَقِ فَاسْتَجِيرِي بِقَبْرِ أَبِيهِ
- وَكَانَ قَبْرُ أَبِيهِ مَعَاذًا لِلنَّاسِ - فَأَتَتْ قَبْرَ غَالِبٍ بِكَاطِمَةٍ ، حَتَّى عَلِمَ الْفَرَزْدَقُ
مَكَانَهَا .

ثُمَّ أَتَتْهُ وَطَلَبَتْ إِلَيْهِ حَاجَتَهَا ؛ فَكَتَبَ إِلَى تَمِيمِ بْنِ زَيْدٍ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ . وَتَمَامُ
الْقِصَّةِ مَذْكُورَةٌ فَوْقَ .

فَأَطْلَقَ لَهُ مَنْ فِي الْجَيْشِ مِنْ خَنِيسٍ وَحَبِيشٍ ؛ لِاشْتِبَاهِ الْأَسْمِ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَ بِالْإِحْتِيَاظِ .

وَشَفَعَ أَبُو تَمَّامٍ إِلَى الْمُعْتَصِمِ فِي عَقْدِ الْبَيْعَةِ لِلْوَائِقِ بِوَلَايَةِ الْعَهْدِ ، فَأَطْلَبَهُ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١/ ٣٤٤-٣٤٥ مِنْ الْكَامِلِ] :

فَأَشْدُدْ بِهَارُونَ الْخِلَافَةَ إِنَّهُ سَكَنُ لَوْحَشَتِهَا وَدَارُ قَرَارِ
بِفَتَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْقَمَرِ الَّذِي حَقَّقَهُ أَنْجُمُ يَغْرُبُ وَنَزَارِ^(١)
هُوَ نَوْءُ يُمْنٍ مِنْكُمْ وَسَعَادَةٍ وَسِرَاجُ لَيْلٍ عِنْدَكُمْ وَنَهَارِ^(٢)
فَأَقْمَعْ شَيَاطِينَ النِّفَاقِ بِمُهْتَدٍ تَرْضَى الْبَرِيَّةَ هَذِيهِ وَالْبَارِي^(٣)
لَيْسِيرَ فِي الْأَفَاقِ سِيرَةَ رَافَةٍ وَيَسُوسَهَا بِسَكِينَةٍ وَوَقَارِ

وَتَشَفَّعَ بَنُو تَغْلِبَ بِأَبِي تَمَّامٍ إِلَى مَالِكِ بْنِ طَوْقٍ ، وَكَانُوا قَدْ أَفْسَدُوا ، وَعَاثُوا ، فَتَقَدَّمَ بِقَصِيدَةٍ يَقُولُ فِيهَا [فِي « دِيْوَانِهِ » ١/ ١٠٦-١٠٧ مِنْ الْكَامِلِ] :

وَرَأَيْتَ قَوْمَكَ وَالْإِسَاءَةَ مِنْهُمْ جَرَحَى بِظُفْرِ اللَّزْمَانِ وَنَابِ

(١) يَعْرَبُ : أَبُو الْيَمَانِيَةِ الْقَحْطَانِيَّةِ . نَزَارٌ : أَبُو النَّزَارِيَّةِ الْعَدْنَانِيَّةِ . وَالْوَائِقُ قَحْطَانِيٌّ مِنْ جِهَةِ أَخَوَالِهِ ، وَنَزَارِيٌّ مِنْ جِهَةِ آبَائِهِ ؛ لِأَنَّهُ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ أَبِي الْعَبَّاسِيِّنَ الْأَعْلَى تَزَوَّجَ سَلْمَى بِنْتَ يَزِيدَ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ، ثُمَّ مِنَ الْخَزَرَجِ قَبِيلَةً يَمَانِيَّةً كَانَتْ فِي يَثْرِبَ ، وَهُمْ وَالْأَوْسُ أَنْصَارُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْإِسْلَامِ .

(٢) النَّوْءُ : طُلُوعُ نَجْمٍ بَعْدَ غُرُوبٍ آخَرَ . سِرَاجُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ : الْقَمَرُ وَالشَّمْسُ .

(٣) إَقْمَعْ : أَقْهَرْ . شَيَاطِينُ النِّفَاقِ : لَعَلَّهُ أَرَادَ بِهِمُ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ ثُمَّ ثَارُوا عَلَيْهِ ، أَوْ لَعَلَّهُ يَشِيرُ إِلَى الْمَكِيدَةِ الَّتِي دَبَّرَهَا فِي أَثْنَاءِ الزَّحْفِ عَلَى (عُمُورِيَّة) بَعْضُ الْقَوَادِ الْمُسْلِمِينَ لِإِغْتِيَالِ الْمُعْتَصِمِ وَمُبَايَعَةِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْمَأْمُونِ ، فَأَخْفَقَ تَدْبِيرُهُمْ ، وَأَنْتَقَمَ الْمُعْتَصِمُ مِنْهُمْ ، وَحَسَنَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْمَأْمُونِ .

هُمْ صَيَّرُوا تِلْكَ الْبُرُوقَ صَوَاعِقًا فِيهِمْ وَذَاكَ الْعَفْوَ سَوَاطِ عَذَابٍ
فَأَقْلَ أُسَامَةَ جُزْمَهَا وَأَضْفَحَ لَهَا عَنْهُ وَهَبَ مَا كَانَ لِلْوَهَّابِ
فَهُمْ بِعَيْنِ أَبَاغٍ رَاشُوا لِلْوَعَى سَهْمِيكَ عِنْدَ الْحَارِثِ الْحَرَّابِ^(١)
فَمَضَتْ كُهُولُهُمْ وَدَبَّرَ أَمْرَهُمْ أَحْدَانُهُمْ تَذْيِيرَ غَيْرِ صَوَابٍ
لَا رِقَّةَ الْحَضَرِ اللَّطِيفِ غَذَتْهُمْ وَتَبَاعَدُوا عَنْ فِطْنَةِ الْأَعْرَابِ
فَإِذَا عَجَمَتْهُمْ وَجَدَتْ لَدَيْهِمْ كَرَّمَ الثَّقُوسِ وَقِلَّةَ الْأَدَابِ^(٢)
لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَعْظَمُ أُنُورَةٍ وَأَجْلُهَا فِي سُنَّةٍ وَكِتَابٍ
أَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ الْقُلُوبِ رِضَاهُمْ كَرَمًا وَرَدَّ أَخَايِدَ الْأَحْزَابِ^(٣)

فوقعت من مالك أحسن موقع ، فأجزل ثوابه ، وقبل شفاعته ،
ورد القوم إلى منازلهم ، بعد اليأس المستحكم ، والعداوة الهائلة .

وقال أبو عبادة [في ديوانه ١٢ / ٣٦٥ من الكامل] :

إِنْ أَبَقَ أَوْ أَهْلِكَ فَقَدْ نِلْتُ الَّتِي مَلَأْتُ صُدُورَ أَقَارِبِي وَعِدَائِي
وَعَدَوْتُ نَذْمَانَ الْخَلَائِفِ نَابَهَا ذِكْرِي وَنَاعِمَةً بِهِمْ نَشَوَاتِي

(١) عين أباغ : واد على طريق الشام إلى الفرات . راشوا : ألزقوا عليها الريش .
وقوله : راشوا سهميك : أراد أعانوك ؛ لأنَّ السهم لا يُتَفَعُّ بِوَحْدِهِ حَتَّى يُرَاشَ .
الحارث الحَرَّابُ : وصف لكلِّ ملكٍ يقالُ لَهُ الجارثُ ، وقد جاء الحارث بنُ
أبي شمر الغساني إلى (عين أباغ) لمحاربة النعمان بن المنذر الذي ناصره بنو
تغلب فانتصر على الحارث وهزمه .

(٢) عجمتهم : عركتهم لتختبرهم .

(٣) المؤلفة القلوب : قوم دخلوا في الإسلام رغبة في الغنائم والعطاء ، وكان منهم
جماعة من قريش ، وجماعة من غيرهم . الأخايِدُ : ما يؤخذ من العدو في
الحرب . الأحزاب : كلٌّ من تحزَّب على الإسلام من مشركين ويهود .

وَشَفَعْتُ فِي الْأَمْرِ الْجَلِيلِ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْجَلِيلِ فَأَنْجَحُوا طَلَبَاتِي
وَصَنَعْتُ فِي الْعَرَبِ الصَّنَائِعَ عِنْدَهُمْ مِنْ رَفْدِ طُلَّابٍ وَفَكَ عُنَاةٍ

قل للمليحة في الخمار
الأسود

والأمرُ في ذلك أكثرُ من أن يتناوله الضبطُ ، أو يحصيهُ القلمُ ،
ومن الغاية فيه ما ذكرهُ أبْنُ خَلْكَانَ [في « وفيات الأعيان » ١٦١/٤] وغيرُهُ :
أَنَّ أَحَدَ التَّجَارِ قَدِمَ (المدينة) المَشْرِفَةَ بِحَمَلٍ مِنَ الْخُمْرِ السُّودِ ،
فَكَسَدَتْ ، فِضَاقَ صَدْرُهُ ، وَأَتَى مَسْكِينَ الدَّارِمِيَّ ، فَقَصَّ عَلَيْهِ
الْقِصَّةَ ، فَقَالَ : كَيْفَ أَعْمَلُ وَأَنَا قَدْ تَرَكْتُ الشُّعْرَ ؟ - وَكَانَ تَرَهَّدَ ،
وَأَنْقَطَعَ فِي الْمَسْجِدِ الشَّرِيفِ - فَقَالَ التَّاجِرُ : أَنَا غَرِيبٌ ، وَمَالِي
بِضَاعَةٌ سَوِيٌّ هَذَا الْحِمْلُ ، وَقَدْ دَلَّنِي النَّاسُ عَلَيْكَ ، وَقَالُوا :
مَا يُنْفِقُهَا لِي غَيْرُكَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ . . . حَتَّى خَرَجَ مِنَ
الْمَسْجِدِ ، وَقَالَ [مِنَ الْكَامِلِ] :

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الْأَسْوَدِ مَاذَا أَرَدْتَ بِنَاسِكَ مُتَعَبِدِ
قَدْ كَانَ شَمَّرَ لِلصَّلَاةِ ثِيَابَهُ حَتَّى قَعَدَتْ لَهُ بِبَابِ الْمَسْجِدِ

فَشَاعَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَتَغَالَتِ النِّسَاءُ فِي الْخُمْرِ السُّودِ وَلَمْ تَبْقَ
بِ(المدينة) ظَرِيفَةٌ إِلَّا طَلَبَتْ خِمَاراً أَسْوَدَ ، فَبَاعَهَا بِأَضْعَافِ
أَثْمَانِهَا ، وَرَجَعَ مَسْكِينٌ إِلَى مَا كَانَ أَنْقَطَعَ إِلَيْهِ مِنَ التَّعَبُّدِ .

وَالْبَيْتُ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ يَشْبَهُ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ [مِنَ الْكَامِلِ] :

وَأَرَى الْمَدِينَةَ إِذَا عَدَاكَ نَقِصَةٌ فَأَعَافُهُ وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَاتِمِ
فَإِذَا أَمْتَدَحْتُ سِوَاكَ قَالَ الشُّعْرُ لِي لَمْ تَزَعْ حَقِّي إِذْ أَبَحْتَ مَحَارِمِي

وَقَالَ النَّازِمُ [في « الْمُكَبَّرِي » ٢٥٥/١] :

إِنَّ الْقَرِيفَ شَجٍ بِعِطْفِي عَائِذٌ أَنْ لَا يَكُونَ سِوَاكَ الْمَمْدُوحُ

وقال [في «المكبري» ٣٦٥/١ من الوافر] :

وظنوني مدحتهم قديماً وأنت بما مدحتهم مرادي

وقال [في «المكبري» ٣٧٨/٢ من البسيط] :

أحييت للشعراء الشُّعرَ فامتدحوا جميعَ من مدحوه بالذي فيكما

وقال كثيرٌ [في «ديوانه» ٣٠٢ من الطويل] :

متى ما أقل في آخر الدهر مدحةً فما هي إلا لابن ليلى المكرم

وقال أبو نواس [في «ديوانه» ٥٨١ من الطويل] :

وإن جرت الألفاظ منا بمدحةٍ لغيرك إنساناً فانت الذي نغني

ثم إن وضع المدح في غير محله من كبائر الذنوب ، وقبائح العيوب ، جناية على العلم ، وإهانة للأدب ، وأنغماس في المهانة ، وتدسُّس في النذالة ، وتعلُّق بالكذب ، وأخذ بمجامع النفاق .
من كبائر الذنوب وضع المديح في غير محله

وقد قال زهيرٌ [من البسيط] :

وإن أصدق بيت أنت قائله بيت يُقال إذا أنشدته : صدقاً^(١)

ومن قضاء ابن الخطَّاب في تفضيل زهير [في «طبقات فحول الشعراء» ٦٣/١] : أنه لا يمدح أحداً إلا بما فيه ، كما سبق في كثير مما يتعلق به في المجلس الثالث ، عند قوله [في «المكبري» ٣١٠/١ من المنسرح] :

قد أجمعت هذه الخليقة لي أنك يا ابن النسي أوحدها

(١) نسب صاحب «العقد الفريد» (٣٢٦/٥) البيت لزهير ، وليس في «ديوانه» ، وإنما هو في «ديوان حسان بن ثابت» (٤٣٠) .

وقد قال أبو تمام [في «ديوانه» ٢٦٢/٢ من الكامل] :

عَاشَ إِنَّكَ لِلنِّيمِ وَإِنِّي إِذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لِلنِّيمِ

وقال النازم [في «المكبري» ١٤٩/٢ من الطويل] :

إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ عَلَى هِبَةٍ فَالْفَضْلُ فِيمَنْ لَهُ الشُّكْرُ

ومعناه : إذا لم يرفعك الأدب عن شكر الناقص . . فذلك الناقص هو أفضل منك .

ولله درّ أبي عبادة في قوله [في «ديوانه» ٢٩/١ من الكامل] :

خَطَبَ الْمَدِينَةَ فَقُلْتُ: خَلَّ طَرِيقَهُ لِيَجُوزَ عَنْكَ فَلَسْتُ مِنْ أَكْفَائِهِ

وقال غيره [من الطويل] :

مَدَحْتُهُمْ فَاسْتُجِبَ الْمَدْحُ فِيهِمْ وَيَا رَبَّ جَبَدٍ لَا يَلِيْقُ بِهِ الْعَقْدُ

فعلى الحرّ أن يحترم نفسه ، ويربأ بها عن الخسة ؛ فقد قال حاتم

[في «شرح ديوانه» ٨١ من الطويل] :

وَنَفْسِكَ أَكْرَمُهَا فَإِنَّكَ إِنْ تَهَنُّ عَلَيْكَ فَلَنْ تَلْقَى لَهَا الدَّهْرَ مُكْرَمًا

وقال الحسين بن مطير [في «ديوانه» ٥٨ من الطويل] :

وَنَفْسِكَ أَكْرَمَ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَسْتَعِيرُهَا

وقال آخر [وهو منقر بن فروة المنقري في «البيان والتبيين» ٤٩٨/١ من

الطويل] :

وَمَا أَلْمَزُهُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فَنِي صَالِحِ الْأَخْلَاقِ نَفْسَكَ فَأَجْعَلِ

وقال الحماسي [من الوافر] :

نَحِبُ الشَّيْءَ ثُمَّ نَصُدُّ عَنْهُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ مَقَالُ
مَخَافَةَ أَنْ يُقَالَ لَنَا فَخَزَى وَنَعْرِفُ مَا تُسَبُّ بِهِ الرِّجَالُ
وقد أنحط مقدارُ الشَّمَخِ ، وهو من أصحابِ رسولِ الله ﷺ
بقوله لعرابة [في «ديوانه» ٣٣٦ من الوافر] :

إِذَا مَا رَايَهُ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ
وقوله^(١) [من الوافر] :

إِذَا مَا رَايَهُ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ وَقَصَرَ مُبْتَغُوهَا عَنْ مَدَاهَا
وَضَاقَتْ أَذْرُعُ الْمُشْرِينَ عَنْهَا سَمَا أَوْسُ إِلَيْهَا فَاخْتَوَاهَا
وقد مرَّ في المجلسين الثالث ، والحادي عشر شيء من حديث
الشَّمَخِ .

ولقد كان الشعرُ غالي القيمة عند العرب ، لا تضعه إلا عند مَنْ
يستحقُّه ، ولا تجود بالمدح منه إلا عن دافع قويٍّ ، كأن لا تجد
ما يقوم بالمكافأة سواء على جلائل الصنائع ، فقد أحسن المعلق إلى
أمرى القيس حينما أجاره من المنذر بن ماء السماء ؛ إذ طلبه ليثأر
منه بأخويه الذين قتلها ما (دير مرينا) ، فلم يجد لمجازاته أكبر من
أن يمدح رهطه بقوله [في «شرح ديوانه» ٢٠٤ من الوافر] :

أَقَرَّ حَشَا أَمْرِي الْقَيْسِ بْنِ حَجْرٍ بَنُو تَيْمٍ مَصَايِنُحُ الظَّلَامِ

(١) البيت من شواهد «الإيضاح في علوم البلاغة» ١٩٩ لبشر بن حازم .

وَمِنْ نَفوذِ الشَّعْرِ إِلَى الْقُلُوبِ ، وَسُلْطَانِهِ عَلَى النُّفُوسِ ،
وَسِيرُورَتِهِ فِي الْبِلَادِ ، صَارَ ذَلِكَ الْوَصْفُ لِقَباً رَاسِخاً لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ
الْيَوْمِ .

وَقَالَ أَيْضاً لِسَعْدِ بْنِ الضُّبَابِ [فِي «شرح ديوانه» ١٠٩ مِنْ الْوَافِرِ] :
سَأَجْزِيكَ أَلَدِّي دَافَعْتَ عَنِّي وَمَا يَجْزِيكَ عَنِّي غَيْرُ شُكْرِي
فَأَفَادَ أَنَّ شُكْرَهُ النِّهَايَةُ فِي الْمَجَازَةِ ، وَالْغَايَةُ الَّتِي لَا فَوْقَهَا
لِلْمُكَافَأَةِ ، وَكَثِيراً مَا نَجَدُ الشَّاعِرَ يَشْتَكِي تَقْصِيرَ مَمْدُوحِهِ بِهِ ، وَفِي
طَبْعِ ذَلِكَ الْاعْتِرَافُ بِدَنَاءَةِ الْهَمَّةِ ، وَزَمَانَةِ الْمَرْوَةِ ، وَإِلَّا . . . فَلَوْ كَانَ
حِزْأً . . . لِأَكْرَمَ نَفْسَهُ وَأَدَبَهُ عَنِ امْتِدَاحِ مَنْ لَا يَعْرِفُ مُقَادِيرَ الْكَلَامِ .
إِذَنْ ، فَلَمْ يَفْعَلْ بِهِ الْمَمْدُوحُ إِلَّا مَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ مِنْ الْإِحْتِقَارِ ،
وَالْإِطْرَاحِ .

وصية الحطيئة عند وفاته
وفي خبر الحطيئة المشهور : أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ^(١) [كَمَا فِي
«الْأَغَانِي» ١٨٩/٢] : لَا أَجْزِعُ عَلَى شَيْءٍ ، جَزَعِي عَلَى جَيْدِ الْمَدِيحِ
يُوضَعُ فِيمَنْ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ .

(١) لَمَّا حَضَرَتِ الْحَاطِيَّةُ الْوَفَاةَ . . . أَجْتَمَعَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ ، فَقَالُوا : يَا أَبَا مُلَيْكَةَ أَوْصِ .
قَالَ : وَبِلِّ الشُّعْرِ مِنَ الرُّوَاةِ الشُّوْءِ . قَالُوا : أَوْصِ يَرْحُمُكَ اللَّهُ .
قَالَ : مَنْ الَّذِي يَقُولُ :
إِذَا أَنْبَضَ الرَّأْمُونَ عَنْهَا تَرَنَّمْتُ تَرَنَّمُ تَكْلَى أَوْجَعْتَهَا الْجَنَائِزُ
قَالُوا : السَّمَاحُ . قَالَ : أَبْلَغُوا غُطْفَانِ أَنَّهُ أَشْعَرُ الْعَرَبِ .
قَالُوا : وَيْحَكَ أَهْذِهِ وَصِيَّةٌ ؟
قَالَ : أَبْلَغُوا أَهْلَ ضَابِيءٍ أَنَّهُ شَاعِرٌ حَيْثُ يَقُولُ :
لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنَّنِي وَجَدْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ =

وفي غير موضع من هذه المجموعة أفضنا في مذمة الدناءة ، ذم الكذب ومعابة التصنع ، ومقت الرياء ، وتقبيح التلؤن ، وقد قال جل ثناؤه : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَلْعَبُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعَهُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿

[الشعراء : ٢٢٤-٢٢٧] .

= قالوا : أتت الله ، ودع عنك هذا . قال : الشُّعْرُ صَنَعٌ وَطَوْنٌ سُلْمَةٌ إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْخَضِيضِ قَدُمُهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْرِبَهُ فَيُنْجِسَهُ قِيلَ : يا أبا مليكة.. أَلَمْ حَاجَةٌ ؟ قَالَ : لا والله ، ولكن أجزع على المديح الجيد يُمدح به من ليس له أهلاً . قالوا : فمن أشعر الناس ؟ فأوماً إلى فيه ، وقال : هَذَا الْجَحِيذُ إِذَا طَمَعَ . قالوا : قُلْ : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فقال : قَالَتْ وَفِيهَا حِينَةٌ وَذَعْرُ عَوِذُ بِرَبِّي مِنْكُمْ وَحِجْرُ قِيلَ لَهُ : فما تقول في عبيدك ؟ قَالَ : هُمْ عِبِيدُ قِنْ مَا عَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ . قِيلَ : فأوص للفقراء بشيء . قَالَ : أوصيهم بالإلحاف في المسألة ؛ فَإِنَّهَا تَجَارَةٌ لَا تَبُورُ ، وَأَسْتُ الْمَسْؤُولِ أَضْيَقُ . وتعاقب القول مع الحطينة إلى أن قالوا : فهل لك شيء تعهد فيه غير هذا ؟ قَالَ : تحملوني على أتان ، وتتركوني راكبها حتى أموت ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَمُوتُ عَلَى فَرَاشِهِ ، وَالْأَتَانُ مَرَكَبٌ لَمْ يَمُتْ عَلَيْهِ كَرِيمٌ قَطُّ . فحملوه على أتان ، وجعلوا يذهبون به ويجيئون . . حتى مات وهو يقول : لَا أَحَدَ أَلَمَ مِنْ حُطَيَّتِهِ هَجَا يَنْبِيهِ وَهَجَا الْمُرِيَّتَةِ مِنْ لُؤْمِهِ مَاتَ عَلَى فُرَيْتِهِ انظر « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » (١ / ٣٢٣) .

وقال بعض الشعراء [في « المستطرف » ١٧/٢ من البسيط] :

لَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ إِلَّا مِنْ مَهَانَتِهِ أَوْ عَادَةِ الشُّؤْءِ أَوْ مِنْ قِلَّةِ الْوَرَعِ
وَلَمَّا أَنْتَهَى قَارِئُ « الدِّيْوَانِ » عَلَيْنَا إِلَى هُنَا . . أَخَذَهُ الْحِرَانُ^(١) ،
وَأَشْتَغَلَ بِالْقِرَانِ^(٢) ، وَعَسَى أَنْ يَعُودَ عَسَى ، وَقَدِيمًا قِيلَ : ذُبَحَ
الْعِلْمُ عَلَى أَفْحَاذِ النِّسَاءِ^(٣) ، فَسَاقَ اللَّهُ الْخَيْرَ إِلَيْهِ ، وَبَارَكَ لَهُ ، وَبَارَكَ
عَلَيْهِ ، وَجَمَعَ لَهُ التَّهَانِي ، وَبَلَغَهُ غَايَاتِ الْأَمَانِي ، وَإِيَّانَا ،
وَأَوْلَادَنَا ، آمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَسَلَّمَ .

* * *

(١) الحِرَان : يستعمل في الأصل للدواب إذا صعب انقيادها ، والمراد هنا :
التقصير عن مسابقة غيره .

(٢) القِرَانُ : التزويج ، كان النبي ﷺ إذا أتى يوم الجمعة . . قال للسيدة عائشة :
« الْيَوْمَ يَوْمٌ تَبْعُلُ وَقِرَانٌ » أي : تزويج .

(٣) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١٣٣٢) ليس بحديث ، وفي معناه :
ضاع العلم وهو من نحو كلام بشر الحافي .

خاتمة المجالس

كثيراً ما يجولُ البحثُ في المفاضلةِ بينَ الشعراءِ والشعراءِ ، مبحث هام حول الشعر ،
فيذهبُ بي العجبُ أقصاهُ من إدلاءِ كلِّ برأيه ، ورجمِهِ بظنِّهِ ، والشعراءِ والكلامِ في
نقد الشعر
وتعصُّبِهِ لهواه ، دونَ قَبْسٍ من هُدًى ، ولا بصيرةٍ من علمٍ ، كأنَّهم
أولُ مَنْ يتكلَّمُ في الفنِّ ، وكأنَّ لم تُولَفْ فيه الكتبُ ، وتُقرَّرِ
المباحثُ ، ويَغْتَرُّ بعضهم بِمَنْ يتلقَّى علمَهُ عن الصحفِ ، ويستوردهُ
من أطرافِ المجلاتِ ، ويجعلُ ذوقَهُم ميزاناً ، وأقوالَهُم برهاناً ،
والحالُ : أنَّ لا أجتهدُ مع وجودِ النصِّ ، وقلَّما نجدُ بيتاً إلا لنظيرِ
العلمِ فيه مجالاً من سائرِ نواحيهِ ، فليزنه بقواعدِ الفنِّ التي تطيِّسُها
مثاقيلُ الذرِّ مَنْ يلمُّ بِهِ ، وإلاَّ . . فليقفْ عندَ حدِّهِ ، وليربِّعْ على
ظِلِّهِ ، وليتأخَّرْ حيثُ أخَّره القدرُ ، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ
السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

وَمِنْ أكبرِ المحنةِ في هذا العلمِ أدعاءُ الرقيعِ شأنَ الرفيعِ ،
وإنتحالُ الضالِّعِ شأوَ الضليعِ ، وإلاَّ . . فما قرَّره علماءُ المعاني
والبيانِ والبديعِ لا يصحُّ أن يُرجعَ إلاَّ إليه ، وأن لا يعوَّلَ إلاَّ عليه .

وكانتِ هذه العلومُ تسمَّى صنعةَ الشعرِ ، وتسمَّى نقدَ الشعرِ ،
ونقدَ الكلامِ ، كلُّ ذلكَ يقالُ ، ثمَّ طرأت لها تلكَ الأسماءُ ، كما
أشارَ إليه أبْنُ الأنباريِّ ، والسكريُّ .

ثم تمييزُ الكلام ، ووزنه ، ومعرفةُ سمينه من غثه ، لا تكونُ إلا بالتمرُّن على تلك القواعد ، وإدمانِ النظرِ إليها ، حتَّى إذا وُضِعَ للنقدِ . . عرضه الباحثُ على نواميسها ، وما لا تصلُّه يصارُ فيه إلى الذوق .

وأهلُ الذوقِ هم أهلُ الطباعِ السليمةِ ، والأفكارِ المستقيمةِ ، والقرائحِ النقيةِ ، والأفهامِ الذكيَّةِ ، ممَّن راضٍ نفسه على تلك العلوم ، ومارسَ الخطابةَ ، وداوَمَ الكتابةَ ، وأكثرَ السهرَ ، وركبَ الضجرَ ، وجنَّى على القلبِ والبصرِ ، في مزاولةِ الكلامِ ، ومجاولةِ الأقلامِ ، ومحاورةِ الأعلامِ ، ومعالجةِ الشرِّ والنظامِ ، فأولئك صيارفُته ونقَّادُه ، وأمراؤه وأسيادُه ، فهو إذن مثلُ الجمالِ :
منه : ما له قانونٌ خاصٌّ تشمله العبارةُ ، ويأتي عليه الضبطُ .

ومنه : ما لا يُعرفُ إلا بالذوقِ كالملاحَةِ ، فقد تتقاربُ الجاريتان وصفاً وجمالاً ، ثم تُقوِّمُ هذه بآلفٍ ، وتلك بآلفين ، ولو سئلَ الناقدُ البصيرُ عن سببِ ذلك . . لم يقدِرْ على الإفصاحِ عنه ؛ لأنَّ المعاني أكثرُ من الألفاظِ ، غيرَ أنَّه لا يُقبلُ ذلك إلا ممَّن أحاطَ بسائرِ صفاتِ الجمالِ المحدودةِ ، وتلك الملكةُ التي تحصلُ لمن مارسَ الفنونَ شبيهةٌ بالاستحسانِ ، وهو أنقداحُ الدليلِ في نفسِ المجتهدِ من دونِ أن يجدَ عبارةً تستوفي كُنْهَ ما في خاطره منه .

ومع الاتفاقِ على أنَّه لا يكونُ إلا لمن بلغَ درجةَ الاجتهادِ ، فهم فيه على اختلافٍ ، تمنعهُ الشافعيةُ ، وتقولُ به الحنفيةُ .

وكيفما كان الأمرُ ، فنقدُ الشعرِ درجةٌ عاليةٌ ، ومركبٌ ليس بالذلولِ ، ثم نجدُ كلَّ غبيٍّ يضربُ فيه بسهمٍ ، ويتهمُّ عليه بلا

فهم ، وذلك من غير الحضارمة أعجب ، أمّا هم . . فليس منهم
 بغريب ؛ لأنّه ليس بأكبر من تسوّرهم على الطب ؛ إذ قلما يمرض
 بينهم إنسان إلا وصف له كل من يعود دواء ، وكلفه أخذه ، حتّى
 يقتلوه شاء أم أبى .

وقد سمعتم ما قلناه في ردّ كلام الغبي الذي أستهان بقدر
 اللفظ ، وزعم أن لا معول إلا على المعاني ، من أن الكلام مفروغ
 منه ، وأن أول مسألة في الفن هي أن الفصاحة خاصّة بالألفاظ ، وأن
 البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع الفصاحة ، هذه هي أول
 قدم يضعها الطالب في طريق هذا العلم ، وكيف يخوض في
 غوامضه من لم يعرف مبادئه بعد ؟ ! إن هذا شيء عجاب !

وجلّ معول أهل هذا الشأن على اللفظ ، أكثر منه على المعنى ،
 ألا ترى أنك تسمع من حين إلى آخر قول العامّة : فلان وكيل آدم
 على عياله ، فلا تجد لها روعة ، ولا تلقي لها بالاً ؟ ولما قال
 علي بن جبلة [في ديوانه ٩٢ من الوافر] :

تَكْفُلُ سَاكِنَ الدُّنْيَا حُمَيْدٌ فَقَدْ أَضَحَتْ لَهُ الدُّنْيَا عِيَالًا
 كَأَنَّ أَبَاهُ آدَمَ كَانَ أَوْصَى إِلَيْهِ أَنْ يُعُولَهُمْ فَعَالًا

. . طنطن له أهل الأدب ، وقالوا إنه المعنى الذي كانت الشعراء
 تحوم حوله ، ولم تقلد عليه ، على أن يزيد بن مفرغ قد قال قبله
 يمدح مروان [في ديوانه ١٨٢ من الكامل] :

وَأَقَمْتُمْ سُوقَ الْكِنَاءِ وَلَمْ تَكُنْ سُوقُ الْكِنَاءِ تُقَامُ فِي الْأَسْوَاقِ
 فَكَأَنَّمَا جَعَلَ الْإِلَهِ إِلَيْكُمْ قَبْضَ النَّفْسِ وَقِسْمَةَ الْأَرْزَاقِ

وقال بعضُ العربِ [في «ديوان الحماسة» ٨٨/١ من الطويل] :

كَأَنَّ ابْنِي أَوْصَى بِكُمْ أَنْ أَضْمَكُمُ إِلَيَّ وَأُوجِي عَنْكُمُ كُلَّ ظَالِمٍ^(١)

وما في شيءٍ من هذا زائدٌ على ما تقوله العامةُ ، سوى روعةِ اللفظِ ، وحسنِ الشارةِ ، وجمالِ الديباجةِ ، وفصاحةِ التركيبِ ، ولئِنْ قِيلَ : إِنَّهَا لَمْ تتداولهُ العامةُ إِلَّا بعدَ أَنْ حصَلَهُ لَهُمْ ابْنُ جبلةَ ، وألقاهُ إلى السَّاحِلِ .. قلنا مستحيلٌ ؛ لأنَّهم لا يعرفونَ ابْنَ جبلةَ ، ولا من لقاهُ ، ولا يسمعونَ مِمَّنْ يعرفُهم ، وإنَّما ألقتهُ إليهمُ الطبيعةُ التي ألقتهُ عليه .

وقد قال شاعرُ المعرَّةِ [من الوافر] :

ضَرَبْتُكَ فِي بَيْنِي الدُّنْيَا كَثِيرٌ وَعَزَّ اللَّهُ رَبُّكَ مِنْ ضَرِيبِ
وَمَا الْعُلَمَاءُ وَالْجُهْلَاءُ إِلَّا قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ مِنْ قَرِيبٍ
ومع ذلكَ فهناك أمثلةٌ أخرى ، منها : أَنَّ قولَ شوقي [من

الخفيف] :

نَظَرَةٌ فَأَبْتَسَامَةٌ فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ
معدودٌ من محاسنِهِ ، وما فيه زائدٌ على ما فعلهُ زنجيٌّ وكُلَّ
بحراسةِ بستانٍ ، فسَلَّمَ عليهِ إنسانٌ ، فلم يردِّ ، فشكاهُ إلى مولاهُ ،
فعاتبَهُ ، فقالَ لَهُ : إِنَّ السَّلَامَ يُفْضِي إلى الكلامِ ، والكلامُ يُفْضِي إلى
الملام ، والملامُ يُفْضِي إلى بطيخةٍ ، فإن شئتَ أَنْ أقسمَ لكَ بطاطيخِ
بستانِكَ .. رَدَدْتُ على مَنْ سَلَّمَ عليَّ ، وإلَّا .. فلا .

(١) أي أدفع وأنهي .

وَسَمِعْتُ مَرَّةً عَجُوزاً تَصِفُ بَضَاضَةَ فِتَاةٍ^(١) ، وَتَقُولُ : لَوْ
أَصَابَتْهَا نَارٌ . . لَانْطَفَأَتْ مِنْ مَاءٍ وَجْهَهَا . بَيْنَمَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ يَرْقُصُونَ
طَرِباً ، وَيَحْجُلُونَ عَجَباً ، مِنْ قَوْلِ شَاعِرِهِمْ [ابن حمديس في « المثل
السائر » ٣٢١/١ مِنْ الْكَامِلِ] :

أَضْرَمْتُ قَلْبِي فَأَزْتَمَى بِشَرَارَةٍ وَقَعْتُ بِخَدِّكَ فَأَنْطَقْتُ مِنْ مَائِهِ
وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ أَبِي عُبَادَةَ [في « ديوانه » ٢٤/١ مِنْ الْكَامِلِ] :

وَضِيَاءُ وَجْهِ لَوْ تَأَمَّلَهُ أَمْرُؤُ صَادِي الْجَوَانِحِ لَازْتَوَى مِنْ مَائِهِ
فَهَلْ تَجِدُ فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا زَائِداً عَلَى كَلَامِ الْعَجُوزِ؟ لَوْلَا شِدَّةُ
الْمَتَنِ ، وَقُوَّةُ الْأَسْرِ ، وَجَمَالُ التَّالِيفِ ، وَرَوَعُهُ التَّرْصِيفِ ،
وَالشَّوَاهِدُ عَلَى مِثْلِهِ كَثِيرَةٌ .

وقد ذكرنا مرَّةً : أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ لَمْ يَأْخُذِ الْقِسْمَ الْأَخِيرَ مِنْ ثَانِي
الْبَيْتَيْنِ الْآتِيَيْنِ ، عَلَى مَا سَبَقَ فِيهِ أَوَائِلُ الْمَجْلِسِ الْخَامِسِ . . إِلَّا عَنِ
لِسَانِ سَائِلٍ ، وَهُمَا [في « ديوانه » ١٤٨-١٤٩ مِنْ الطُّوِيلِ] :

يَرَى أَقْبَحَ الْأَشْيَاءِ أَوْبَةَ أَمَلٍ كَسَنَهُ يَدُ الْمَأْمُولِ حُلَّةَ خَائِبٍ
وَأَحْسَنُ مِنْ نُورٍ يَفْتَحُهُ الصَّبَا بِيَاضِ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَوَاهِبِ
وَإِنْ تَعَجَّبْتَ . . فَأَعَجَبْ مِمَّنْ سَوَّلَ لَهُ الْهَوَى ، وَاسْتَحْفَهُ
الْجَهْلُ ، وَذَهَبَ بِهِ التَّعَصُّبُ النَّاشِئُ عَنْ مَجْرَدِ التَّقْلِيدِ إِلَى غَايَةِ
مَطْوَحَةٍ مِنَ الْغُرُورِ ، بِالْقَصِيدَةِ الْمُسْتَهْلَةِ بِهَذَا [مِنْ مَجْزُوءِ الرَّمْلِ] :

حَفَّ كَأْسَهَا الْأَحَبُّ فَهِيَ فِضَّةٌ ذَهَبُ

(١) أَمْرَأَةٌ بَضَّةٌ : نَاعِمَةٌ .

وقد قلنا : إِنَّهُ بَيْتٌ تَافَهُ ، طَلَعَتْ بِهِ الْقَصِيدَةُ كَاسِفَةً ،
وحسبك من الانتقاد عليه مخالفتُهُ للقواعدِ العربيَّةِ ؛ إذ لا يجوزُ
تركُ العطفِ في الخبرِ إذا تعدَّدَ صاحِبُهُ ، ولو حُكِّمًا كقولِهِ
تعالى : ﴿ أَمَّا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعَبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ ۖ ﴾ [الحديد : ٢٠] ،
بخلافِ ما تعدَّدَ لفظًا فقط ، بأنَّ كانَ لا يصحُّ الاقتصارُ على
بعضِهِ ، فإنَّ العطفَ يمتنعُ فيه ، كـ (الرمانُ حلٌّ حامِضٌ) وهذا
البيتُ إنما هو من الأوَّل .

ثمَّ إِنَّهُ معنَى مرميٍّ في مدارجِ الطُّرُقِ ، ممتَهِنٌ على ألسنةِ الشعراءِ
إلى حدِّ الابتذالِ ، وقلَّ من وصفَ الراحِ إلَّا جاءَ في تشبيهِ الفقاقيعِ
بما هو خيرٌ منه ، قالَ المتلمِّسُ [في « ديوانهِ » ٨٠ من الوافر] :

عُقَارٌ عَتَّقَتْ فِي الدَّنِّ حَتَّى كَأَنَّ حَبَابَهَا حَدَقُ الْجَرَادِ^(١)

وقالَ أبو نواسٍ [في « ديوانهِ » ٥٢٤ من الطُّويل] :

بَنَيْنَا عَلَى كِسْرَى سَمَاءَ مُدَامَةٍ مُكَلَّلَةً حَافَاتُهَا بِنُجُومٍ^(٢)

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٧ من البسيط] :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَضْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقالَ أبْنُ الرومِيِّ [في « ديوانهِ » ١٦٥٥/٤ من المنسرح] :

لَهَا صَرِيحٌ كَأَنَّهُ ذَهَبٌ وَرَغْوَةٌ كَاللَّيْلِ الْفَلَقِ

(١) العُقَارُ : الخمرُ .

(٢) مُكَلَّلَةٌ : محفوفةٌ ومحاطةٌ . النجومُ : المرادُ بها الحبُّ ، أي الفقاقيعُ التي
تعلو الكأسَ .

وقال الأول [من الطويل] :

إِذَا سَحَّهَا السَّاقِي حَسِبْتَ حُبَابَهَا عِيُونَ الدُّبَى مِنْ تَحْتِ أَجْنَحَةِ النَّحْلِ^(١)

وقال ابن المعتز [في «ديوانه» ١٨٩/٢ من الطويل] :

خَلِيلِي قَدْ طَابَ الشَّرَابُ الْمُبْرَدُ وَقَدْ عَذْتُ بَعْدَ التُّسْكِ وَالْعُودُ أَحْمَدُ
فَهَاتِ عُقَاراً مِنْ قَمِيصِ زُجَاجَةٍ كَيَاقُوتَةٍ فِي دُرَّةٍ تَتَوَقَّدُ
يَصُونُغُ عَلَيْهَا الْمَاءُ شُبَّاکَ فِضَّةٍ لَهُ حَلَقٌ يَنْضُ تَحُلُّ وَتُغْقَدُ

وقال [في «ديوانه» ١٨٧/٢ من الطويل] :

وَنَارٍ قَدْ خَنَاهَا سِرَاعاً بِسُخْرَةٍ مَتَى مَا يُرْفِقُ مَاءٌ عَلَيْهَا تَوَقَّدُ
يَجُولُ حُبَابُ الْمَاءِ فِي جَنَابَتِهَا كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُورِدٍ

وقال [آخر في «المستطرف» ٤١٥/٢ من البسيط] :

كَأَنَّ فِي كَأْسِهَا وَالْمَاءُ يَقْرَعُهَا أَكَارِعَ التَّمْلِ أَوْ نَقَشَ الْخَوَاتِيمِ

وقال ابن وكيع [في «المستطرف» ٤١٠/٢ من الطويل] :

وَحَمْرَاءَ مِنْ مَاءِ الْكُرُومِ كَأَنَّهَا فِرَاقُ عَدُوٍّ أَوْ لِقَاءُ صَدِيقِ
كَأَنَّ الْحُبَابَ الْمُسْتَدِيرَ بِطَوَفِهَا كَوَاعِبُ دُرٍّ فِي سَمَاءِ عَقِيقِ

وقال الآخر [من المديد] :

وَأَكْتَسَتْ مِنْ فِضَّةٍ دُرّاً خَلَّتْهَا مِنْ تَحْتِهَا ذَهَباً
كَكَمِنَتِ اللَّوْنِ قَلْدَهَا فَارِسٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ حَبِيباً

(١) الدُّبَى : الجراد .

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٧/١ من الكامل] :

وَفَوَاقِعُ مِثْلُ الدُّمُوعِ تَرَدَّدَتْ فِي صَخْنٍ خَذَ الْكَاعِبِ الْحَسَنَاءِ
وإنَّه لَمِنْ أَكْبَرِ الْعَارِ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَذَا الْبَيْتِ حَصِيلَةً أُسْتَقْرَأَ
الْأَشْعَارِ الثَّمِينَةِ ، وَالتَّشْبِيهَاتِ السَّمِينَةِ ، فَمَا لِلْجُهْلَاءِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ
طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ ، وَتَرْتِيبِ دَرَجَاتِهِمْ ، وَتَعْرِيفِ طَبَقَاتِهِمْ ،
هِيَهَاتَ . . لَقَدْ حَنَّ قَدَحٌ ، لَيْسَ مِنْهَا .

ولله درُّ المعريِّ في قوله [في «سقط الزند» ٢٢٥ من الطويل] :

وَمُذْ قَالَ إِنَّ أَبْنَ اللَّئِيمَةِ شَاعِرٌ أُولُو الْجَهْلِ مَاتَ الشُّعْرُ وَالشُّعْرَاءُ
أَلَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ الْحُكْمَ بِالشَّيْءِ فَرَعُ تَصَوُّرِهِ؟ فَهَلْ حَقَّقُوا تِلْكَ
الْمَعَارِفَ ، وَتَفَيَّثُوا ظِلَالَهَا الْوَارِفَ؟ أَمْ يَجْرُونَ كَمَا يَجْرِي فِي
الدِّيمَاسِ السَّيْلُ ، وَيَخْبِطُونَ كَمَا تَخْبِطُ الْعُشْوَاءُ بِاللَّيْلِ ، وَقَدْ قَالُوا :
إِنَّ الشُّعْرَ كَالْبَحْرِ ، أَهْوَنُ مَا يَكُونُ عَلَى الْجَاهِلِ ، أَهْوَلُ مَا يَكُونُ
عَلَى الْعَالِمِ .

وقيل للمفضل الضبي [في «صبح الأعشى» ٣٤٥/٢] : لِمَ لَا تَقُولُ
الشُّعْرَ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهِ؟ قَالَ : عِلْمِي بِهِ هُوَ الَّذِي يَمْنَعُنِي مِنْ
قَوْلِهِ .

ثُمَّ إِنَّ لِكُلِّ لَفْظَةٍ خَاصَّةً تُعْرَفُ بِهَا حَسَنًا وَقَبْحًا ، ثِقَلًا وَقَبُولًا ،
وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفَرِّقُ بَيْنَ الْإِسْفَنْطِ^(١) وَالْمُدَامِ ، وَالْخَنْشَلِيلِ^(٢)

(١) الإسفنت : المطيب من عصير العنب ، أو ضرب من الأشربة ، أو أعلى
الخمير ؛ لأن الدنان تسفطتها أي تشربت أكثرها .

(٢) الخنشليل : الجيّد الضرب بالسيف .

والسيف؟ وما أشبه ذلك - وكلُّهُ مِنَ الْأَوَّلِيَّاتِ التي لَمْ يَحُوجْ إِلَى التَّنبِيهِ إِلَيْهَا إِلَّا جَهْلُ المتأخِّرِينَ المُركَّبُ .

ومرقاة البلاغة التي تزلُّ عَنْهَا الفصحاءُ ، وَقَدَفَاتُهُ التي تختلجُ دونَهَا البلغاءُ هيَ وَضْعُ كُلِّ كلمةٍ في المَوْضِعِ الذي يليقُ بِهَا ، حتَّى تَجِيءَ خفيفةً عَلَى اللِّسَانِ ، مثَالُهُ قولُهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

ففي لفظَتَي : (الضفادع) و (القُمَّل) ما لا يَنكَرُ مِنَ الاستِثْقَالِ ، لكنَّهُمَا لَمَّا تَوَسَّطَتَا الْأَلْفَاظَ السَّهْلَةَ المَقْبُولَةَ . . حَسَنَ مَوْقِعَهُمَا ، وَأَشْرَقَ عَلَيْهِمَا ضَوْؤُ الجَمَالِ ، وإِلَّا . . فقد كَرِهُوا قولَ الفرزدَقِ [في « صبح الأعشى » ٢٨٤ / ٢٠٢ مِنَ الكَامِلِ] :

مِنْ عِزِّهِ اخْتَجَرَتْ كُلِّيبٌ عِنْدَهُ زُمْرًا كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ
والقرآنُ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ مِثَالُ تَمَكُّنِ الْأَلْفَاظِ مِنْ مَوَاقِعِهَا ، لا يَمَكُنُ فِيهِ تَحْوِيرٌ قَطُّ ، ولا يَحْتَاجُ إِلَى تَمَثُّلٍ ، وَهُوَ كُلُّهُ مِنْ هَذَا النَّمَطِ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَتَجَلَّى أَثَرُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ نَقْطٍ ، وَهُوَ الْأَمْرُ يُتَظَنُّ نِيْلُهُ ، فَلَا يَدْرُكُ ذِيْلُهُ [مِنَ الطَّرِيلِ] :

تَرَاهُ عُيُونُ النَّاطِرِينَ إِذَا بَدَأَ قَرِيبًا ، وَلَا يَسْتَطِيعُهُ مَنْ يَرُوقُهُ
وقال النَّاظِمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١١١ / ١٠١ مِنَ البَسيطِ] :

كَأَنَّهُ الشَّمْسُ يُغَيِّبُ كَفَّ قَابِضِهِ شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبًا
ومِمَّا يَدُلُّ لَصِحَّةَ مَا نَقُولُ قولُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَبْثَغْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبْنَا وَقْضِيبًا * وَزَيَّنَّاها وَخَلًّا * وَحَدَّيْنِ غُلْبًا * وَفَلَكَهَ وَأَبًّا * مَتَّعًا لَكُمْ وَلِأَنعَمِكُمْ ﴾ [عبس : ٣٢-٢٤] .

وقوله جلّ ذكره : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصّٰلِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤-٨٦] .

فلم يخرج الأسلوب فيها عن التعلي والتدلي . . إلا لينساق على أعذب ما يكون ، وأخفه على الألسنة .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَابْنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ ﴾ [النساء : ٢٣] ، فإنه لم يلتفت عن الخطاب في بنات الأخ والأخت ، ولم يخالف بين إسناد الرضاع للأمهات والأخوات . . إلا لذلك ، والله أعلم بحكمته ، إلا أن هذا هو الذي ينفد بخاطر هذا المتطفّل .

ويتصل بهذا . . اختيار الألفاظ ، ووضع كل شيء فيما لا يتجافى عنه ، أرأيت لو أن الله جلّ شأنه أبدل العسل من قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَيٍّ ﴾ [محمد : ١٥] بالشهد لانتقصت العذوبة الحاصلة من تحريك الوسط في العسل ؟

وتدبر قوله : ﴿ حَقَّ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

وقوله : ﴿ وَلَمَن جَاءَ بِهِ جِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ [يوسف : ٧٢] ، فإن كلاً من الجمّل في الأولى ، والبعير في الثانية ، واقع في موضعه الذي يطلبه ، ولا يصلح على سواه ، وكم رأيناه يتجاوز ما يستثقل من

اللفظ إلى الكناية عنه كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وما ذاك - والعلم له جل شأنه - إلا لكرهية استعمال الأرض مجموعة .

ولا يبعد أن يكون منه قوله : ﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : ١٤] .

وقوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، أمّا الأولى : فواضح ، وأمّا الثانية : فلما في همزة القطع في لفظة الأمام لو جعلها مكانها من الاستثقال .

فأفضل أنواع الإعجاز فيما أرى خفة الذكر الحكيم على أسلة^(١) اللسان ، بحيث يتمكن القارئ أن يتلو منه ما لا يمكنه أن يقرأ من غيره في الزمن الواحد ، باعتبار الحروف ، وهذا أمر لم أجربه ، ولم أر من نبه عليه ، غير أنني أعتقد اعتقاداً جازماً يسعني أن أستشهد عليه بقوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، ولئن توهم متوهم أنه ليس إلا نتيجة صقال الألسن ، وكثرة التلاوة . . فليجرب فيه وفيما يمر فيه من غيره مرور السهم من المحفوظات ، فسيصح له إن شاء الله ما نقول ، والكلام في أمثاله يطول ، وكله مفروغ منه ، مقرر في مواضعه ، لم نجى بشيء منه ، غير ما ذكرناه من عندنا ، ولم نخرعه من قبل أنفسنا ، ولكنته طريق واضح ، ومهيغ واسع ، لم نحتج للإشارة إليه إلا

(١) أسلة اللسان : طرفه .

للكَفِّ مِنْ جَمَاحِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ فِي الْعِلَالِي ، وَلَمْ
يَدْخُلُوا بَعْدُ فِي الدَّهْلِيَزِ .

وَأَقُولُ لَكَ وَاحِدَةً يَصِحُّ أَنْ تَعْمَلَ بِهَا فِي نَفْسِكَ دُونَ أَنْ تَقَاسِمَ بِهَا
سِوَاكَ ، وَهِيَ : أَنَّهُ إِذَا هَزَّ الْكَلَامُ شُعُورَكَ ، وَنَفَخَ دِمَاغَكَ ، وَهَيَّجَ
خَوَاطِرَكَ ، وَحَرَّكَ سَاكِنَكَ ، وَأَظْهَرَ كَامِنَكَ ، وَدَخَلَتْ لِسْمَاعِهِ
بِلُونٌ ، وَخَرَجَتْ بِلُونٌ آخَرُ مِنَ الْأَنْفَعَالِ مِنْهُ ، وَالتَّأَثَّرَ بِهِ . . فَأَعْرِفْ
أَنَّهُ كَلَامٌ جَزَلٌ ، وَجِدُّ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، وَلَا بَاسٌ أَنْ تَقْتَنِعَ بِالطَّلِّ مِنْ
هَذَا إِنْ أَعُوزَكَ الْوَابِلُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَّخِذَهُ حَكْمًا ، أَوْ تَقَطَّعَ بِهِ
جُزْمًا ، فَدُونَ ذَلِكَ خَرَطُ الْقِتَادِ مِنْ سَلَامَةِ الْفَطْرَةِ ، وَثُقُوبِ الْفَهْمِ ،
وَصِفَاءِ الطَّبْعِ ، وَأَصَالَةِ السَّلِيْقَةِ ، أَوْ مَا ذَكَرْنَا مِنْ أَسْتِكْمَالِ الْأَدَوَاتِ
بِكَثْرَةِ الْمَجَالِ ، وَالْأَخْذِ عَنِ الرِّجَالِ ، وَمِمَارَسَةِ الصَّنَاعَةِ ، وَمُحَاوَرَةِ
الْجَمَاعَةِ ، ثُمَّ لَا بَدَّ مَعَ تِلْكَ الْمَتَاعِبِ أَنْ يَتَّحَ لَكَ رَفِيقٌ يَقَالُ لَكَ
التَّوْفِيقُ ، وَإِلَّا . . ضَلَلْتَ عَنْ سِوَاءِ الطَّرِيقِ ، كَمَا أَشَارَ إِلَى مِثْلِهِ بِدِيعِ
الزَّمَانِ [فِي «مَقَامَاتِهِ»] فِي مَقَالٍ لَهُ أَغْلَى مِنْ عَقْدِ الْجَمَانِ .

* * *

تنبيهات

أحدها : كثيراً ما نقولُ في هذه المجالس : هذا مأخوذٌ من المعاني الظاهرة مشاع هذا، وهذا ناظرٌ إلى هذا ، وبعضُهُ لا يمكنُ إطلاقُ السرقةِ عليه ؛ بين الناس ولا يقضى فيها لأحد بالسبق لأنَّ المعاني الظاهرة تعتورها الأفهامُ ، وتتواردُ عليها الخواطرُ ، فهي مشاعةٌ بين الناس ، كالتشبيه بالبحر ، والقمر ، والأسد ، وما في حكمها ، من المخترعة في البدء ، المنتشرة فيما بعد ، كقول قيس بن الأسلتِ أو ابن الخطيم [في «ديوان ابن الخطيم» ١٦ من الكامل] :

مَا تَمْنَعُنِي يَقْظَى فَقَدْ تُؤْتِنُهُ فِي النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرِّدٍ مَحْسُوبِ
وقول المعريّ [من الطويل] :

تُسَيِّئُ بِنَا يَقْظَى فَأَمَّا إِذَا سَرَتْ رُقَاداً فَلِإِحْسَانِ إِلَيْنَا وَإِجْمَالِ
وقول مهيار [في «ديوانه» ١٨٤/٤ من الطويل] :

وَهَبْكُمْ مَنَعْتُمْ أَنْ أَرَاهَا بِنَاطِرِي فَهَلْ تَمْنَعُونَ الْقَلْبَ أَنْ يَتَمَنَّاها
وقول عبدة بن الطيّب في رثاء قيس بن عاصم [في «ديوانه» ١٠ من الطويل] :

وَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكٌ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمَا

وقول ابن المقفع [في «ديوان الحماسة» ٣٥٧/١ من الطويل] :

فَقَدْ جَرَّ نَفْعًا فَقَدْ نَا لَكَ أَتْنَا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرِّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ
وما جرى هذا المجرى ممّا تجاذبته الأيدي ، وتعاورته
الأفكار .

المتنبى بحق... يشبه
عصا سيدنا موسى...
يلقف كل ما يأتي به
الشعراء فيجيد أحياناً
وسيء أخرى

ثانيها : أشرنا غير مرّة إلى أنّ الناظم لا يدع لأحد شاذّة ولا فاذّة
إلاّ أطردها ، وكثيراً ما يستنمّن الورم ، كما مثلنا بقوله : [في
«المكبري» ٣٧٨/١ من الطويل]

[يَكَادُ يُصِيبُ الشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمِيهِ] وَيُمْكِنُهُ فِي سَهْمِهِ الْمُرْسَلِ الرُّدُّ
ويستحسن القبيح كما في قوله [في «المكبري» ٢٥٣/٢ من الوافر] :

أَحْبَبُّكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ ثَيِّراً وَأَبْنُ إِبْرَاهِيمَ رَيْعَا
ولم نجازف في شيء من ذلك ، فكَذَلِكَ كَانَ الرَّجُلُ ، غير أنّه -
والحق يقال - كثيراً ما يعمد إلى ما رخص فيغليه ، وإلى ما أمتهن
فيغليه ، ويعيد له جدّته ، وينشر له رفاتّه ، ويبعثه في خلقٍ جديد ،
أبهى من سابقه ، ألا ترى إلى المعنى الآتي؟ فأول من وقع عليه فيما
أظنّ الأفوه الأودي ، حيث قال [في «ديوانه» ٧٧ من الرمل] :

وَتَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا ثِقَةً مِنْ غَزَوِنَا أَنْ سَتَمَارُ^(١)

وقال نابغة ذبيان [في «ديوانه» ٥٧ من الطويل] :

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ

(١) سَتَمَارُ : أي ستأتيها الميرة وهو الغذاء والطعام .

جَوَانِحَ قَدْ أَيقَنَ أَنَّ قَيْلَهُ إِذَا مَا أَلْتَقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبٍ^(١)

وقال مسلم بن الوليد [في «ديوانه» ١٢ من البسيط] :

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثَقَنَ بِهَا فَهَنْ يَنْبَغْنَهُ فِي كُلِّ مُزْتَحَلٍ

وقال أبو نواس [في «ديوانه» ٢٨٣ من المديد] :

تَأْيَا الطَّيْرُ غَزَوَتَهُ ثَقَةً بِاللَّخْمِ مِنْ جُزْرِهِ

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٤٠/٢ من الطويل] :

وَقَدْ ظَلَلْتُ عِقْبَانُ رَايَاتِهِ ضَحَى بِعِقْبَانِ طَيْرٍ بِالدَّمَاءِ نَوَاهِلِ

أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ

ولم يبقَ من شاعرٍ إلا أفرغهُ في قالبٍ ، وأدرجهُ في مثالٍ ، حتَّى

أذالوهُ ، فلمَّا أنتهى إلى صاحبنا . . أطلع يوحه^(٢) ، وردَّ روحه ،

وأذكى رِيَّاهُ ، وأظهرَ محيَّاهُ ، فقال [في «المكبري» ٣٨٠-٣٧٩/٣ من

الطويل] :

يُقَدِّي أَنَّمُ الطَّيْرَ عُمرًا سِلَاحَهُ نُسُورُ الْمَلَأَ أَحْدَانُهَا وَالْقَشَاعِمُ^(٣)

وَمَا ضَرَّهَا خَلْقٌ بغيرِ مَخَالِبٍ وَقَدْ خَلَقْتَ أَسْيَافُهُ وَالْقَوَائِمُ

(١) جَوَانِحُ : ماثلة في أحد شقيها للوقوع ، ومنه قولهم : جنح الليل ، إذا مال .

(٢) يوح : أسمٌ من أسماء الشمس .

(٣) القشاعمُ : النسورُ الطويلاتُ العمرِ ، ومنه سميت المنية (أم قشعم) لطول

عمرها . الملا : وجه الأرض . الأحداث : الشابة ، والمعنى : يقدي أطول

الطير عُمرًا سلاح سيف الدولة ، وإنما يفديه لوجود الجثث في وقائمه ،

والاستبشار بكثرة ملاحمه .

وقال [في «المكبري» ٣/ ٣٣٨ من الطويل] :

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا أُسْتَسْقَتْ سَقَتَهَا صَوَارِمُهُ

وقال [في «المكبري» ٤/ ١١٣-١١٤ من الكامل] :

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُنَارُ بِسَالِمٍ
تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تَطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ الْقَشَاعِمِ
إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

وما كان لأبي الطيب أن يموت بحسرة على الإمارة وقد فتح
هذي القلاع ، ووفق لهذا الإبداع ، وإنني لكثيراً ما أمرتُ بهذه
القصيدة فيحدث لي عند كل مرة من روعة حسنها ، ورونق جمالها ،
ما لم أجده من قبل ، فسبحان المانع ، هذا والله السحر الحلال ،
والعذب الزلال ، والحديث الذي لا تزيده الإعادة إلا جدّة ،
ولا التكرار إلا لذة .

ثالثها : ربّما أنتقدنا عليه بعض قوله بحدّة ، وحكمنا عليه أحياناً
بشدّة ، فلا يذهب وهمك أنّا نبخسه حقّه ، ونهضم عليه فضله ،
وإنّما هي حالة من الحالات ، وجائشة من الجوائش ، يضطرّنا إليها
غروره بنفسه ، وإعجابه بشعره ، وإعراضه - كما يروى [في «المكبري»
٣/ ٣٨١] - عن كل نقد يورد عليه ، إلّا ما أشار به عليه سيف الدولة من
إبدال (الجيف) بـ (الجثث) من قوله [في «المكبري» ٣/ ٣٨١ من
الطويل] :

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جِيفِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

وقد جاءَ بأشياءَ ظاهرةِ النكارةِ والقبحِ ، مثلِ قوله [في «المكبري» ١٨٣/٢
من الخفيف] :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَجَوَّزُ إِلَيْهِمْ شُعْرَاءُ كَانَتْهَا الْخَازِبَارُ^(١)
وقوله [في «المكبري» ١٨٣/٢] :
أَنْتِ يَكُونُ أَبَا الْبَرِيَّةِ آدَمُ وَأَبْنُكَ - وَالثَّقْلَانِ أَنْتِ - مُحَمَّدُ!

وقوله [في «المكبري» ٢٠٧/٤] :
خَلَّتِ الْبِلَادُ مِنَ الْغَزَالَةِ لَيْلَهَا فَأَعَاضَهَاكَ اللَّهُ كَيْ لَا تَخْزَنَا^(٢)

وقوله [في «المكبري» ٣٢٥/٢] :
وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبْعِيَّةٌ يَصْنَعُ الْخَصِي فِيهَا صِبَاحَ اللَّفَالِقِ^(٣)

وقوله [في «المكبري» ٨٥/٤] :
فَلَا يُبْرَمُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ حَالِلٌ وَلَا يُخْلَلُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ مُبْرَمٌ

وقوله [في «المكبري» ٢٥٨/٣] :
جَحَفَتْ وَهُمْ لَا يَجْحَفُونَ بِهَا بِهِمْ شِيمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغَرِّ دَلَائِلُ^(٤)

(١) الخازيباز : حكاية صوت الذباب .

(٢) الغزالة : الشمس .

(٣) الملمومة : الكتيبة المجتمعة . سيفيئة : منسوبة إلى سيف الدولة . ربعية : منسوبة إلى ربعة ، وهي قبيلة سيف الدولة .

(٤) الجحف : الفخر . وفي البيت تقديم وتأخير ، إذ الأصل : جَحَفَتْ بِهِمْ شِيمٌ وفخرت ، وهم لا يفخرون بها . وهو من شواهد علم البلاغة .

وقوله [في «المكبري» ٢٢٤/٤ من البسيط] :

لَوْ اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بُعْرَانًا^(١)

فهذا - والله - كما قال هو نفسه : القولُ الهراء ، والشعرُ الذي لا يتقدّم إلا إلى الوراء ، ثم إنها قلما تتساوى أغراضه ، وتتقاطرُ فصوله ، ويطرُد نظامه ، إلا فيما كان من وصفِ الحروب ، وبعضِ قصائدِ كالتي أولّها [في «المكبري» ٧٥/١ من الوافر] :

بِغَيْرِكَ رَاعِيًا عِبْتُ الذَّنَابَ وَغَيْرِكَ صَارِمًا ثَلَمَ الْضُرَابُ^(٢)

والتي أولّها [في «المكبري» ١٠٠/٢ من الوافر] :

طَوَالَ قَنًا ، تُطَاعِنُهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فِي نَدَى وَوَعَى بِحَارُ
وإلا... فإنه بالأغلب لا يكون إلا مشئت السياق ، مبعر
الكلام ، مفرّق الأغراض ، قليل التشابه ؛ ولذا تجد في البيت له
تتمثل به وحده رواء ورونقا ، لا تجده فيه عندما تنشده بين إخوانه ،
ولقلما سنح بذهني أحد أبياته السائرة في مناسبة أصارت إليه... إلا
نزل الرجل بأقصى منزلة من الأعظام في نفسي ، حتى إذا حملني
الإكبار له على التزيّد ، ورجعت إلى «الديوان»... أنحط من عيني -
بالأغلب - أنحطاطا يتبين به البون البعيد ، والفرق الكبير ، ولا أراك
إلا توافقتني على هذا ، فإنه ملموس باليد ، وهو من أسرار قوله جلّ

(١) البُعرانُ : جمع بُعير .

(٢) المعنى : إذا كنت الحافظ للرعية لم يقدر عليهم أحدٌ بضربٍ ؛ لخوفهم منك ،
وبغيرك يعبت الذناب في حال رعيه وسياسته ، ويثلم الضرابُ غيرك في حال
قطعه ، وإذا كنت أنت الراعي لم يعبت الذناب بسوامك ، وإذا كنت أنت
الضارب لم يثلمك الضرب .

ذكره : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] ، ثُمَّ إِنْ كَانَ رَدِيئُهُ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ الْأَتِصَاعِ . . فَإِنَّ جَيِّدَهُ فِي الْأَوْجِ الْأَعْلَى مِنَ الارتفاعِ ، وَهَلْ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِهِ [فِي الْمَكْبَرِيِّ ٧٨/١ مِنْ الْوَافِرِ] :

إِذَا مَا سِرَتْ فِي آثَارِ قَوْمٍ تَحَاذَلَتْ الْجَمَاجِمُ وَالرَّقَابُ

وقوله [فِي الْمَكْبَرِيِّ ١٠٤/٢ مِنْ الْوَافِرِ] :

مَضَوْا مُتَسَابِقِينَ الْأَغْضَاءَ فِيهِ لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِشَارُ

وقوله [فِي الْمَكْبَرِيِّ ٢٣-٢٤/٤ مِنْ الْبَسِيطِ] :

صَدَمَتْهُمْ بِخَمِيسٍ أَنْتَ غُرَّتُهُ وَسَمَهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمُ
فَكَانَ أَثَبَتْ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمْ يَسْقُطُنَ حَوْلَكَ وَالْأَزْوَاحُ تَنْهَزُمُ

وقد ذكرَ الشارحُ جملةً صالحةً مِنْ بدائعِ شعرِهِ الَّذِي بَدَأَ بِهِ الشعراءُ ، وَتَرَكَ الطوائِفَ مِنْ معاصِرِهِ ، وَمِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنْبُودِينَ بِالْعَرَاءِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ شَرْحِ قَوْلِهِ [فِي الْمَكْبَرِيِّ ١٦١/١ مِنْ الْبَسِيطِ] :

أَرْوَرُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْشَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بَنِي

فَتُغْنِينَا الْإِحَالَهَ عَنِ الْإِطَالَةِ^(١) ، وَظَنِّي أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَوْفُقْهُ لَذَلِكَ الْإِبْدَاعَ ، الَّذِي شَاءَ بِهِ النَّاسَ فِي الْأَوَّلَى . . إِلَّا وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَتَجَاوَرَ عَنْ سَيِّئَاتِهِ فِي الْآخِرَى ، وَهُوَ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ بِهِ .

(١) وإتماماً للفائدة نذكرُ الآياتِ التي أشارَ إليها الشيخُ المؤلِّفُ - رحمه الله تعالى - وهي قولُ الشارحِ :

.....
 = قد أجمعَ الحدائقُ بمعرفةِ الشَّعرِ والثَّقَادُ أَكَّ لَابِي الطَّيْبِ نَوَادِرَ لَمْ تَأْتِ فِي
 شَعْرِ غَيْرِهِ ، وَهِيَ مِمَّا تَخْرُقُ الْعُقُولَ ، مِنْهَا فِي كَافُور :

فَجَاءَتْ بَنَاتُ إِنْسَانٍ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَلْفَهَا وَمَآئِيَا
 وَمَا مُدِيحَ أَسْوَدُ بِأَحْسَنَ مِنْ هَذَا .
 ومنها :

فَلِذِي الدَّارِ أَخْوَنُ مِنْ مُؤْمِسٍ وَأَخْدَعُ مِنْ كَيْفَةِ الْحَابِلِ
 ومنها :

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِيُجْرَحَ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ
 ومنها :

أَرْجُو نَدَاكَ وَلَا أَخْشَى الْمِطَالَ بِهِ يَا مَنْ إِذَا وَهَبَ الدُّنْيَا فَقَدْ بَخَلَا
 وهذا من أبلغ الوصف بالجود .
 ومنها :

وَذَلِكَ أَكَّ الْفُحُولَ الْبَيْضَ عَاجِزَةً عَنِ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الْخُضْيَةُ الشُّودُ
 هذا أشد ما هُجِيَ به أسود .
 ومنها :

إِذَا مَا سِرْتَ فِي آثَارِ قَوْمٍ تَخَاذَلَتِ الْجَمَاجِمُ وَالرَّقَابُ
 قال ابن نباتة : نحسن أن نقول ، ولكن مثل هذا لا نقول .
 ومنها :

إِذَا غَزَتْهُ أَعَادِيهِ بِمَسْأَلَةٍ فَقَدْ غَزَتْهُ بِجَيْشٍ غَيْرِ مَغْلُوبٍ
 ويعده :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِي مَسَامِعِهِ قَمِيصُ يُوسُفَ فِي أَجْفَانٍ يَغْمُوبٍ
 ومنها :

وَجُزْمِ جَرَّةٍ سُفْهَاءِ قَوْمٍ وَحَلِّ بَغْيَرٍ جَارِمِهِ الْعَذَابُ

وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ	وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فِعْلُهُ وَالْخَلَاتِي	ومنها :
وَمَا أَنْتِفَاعُ أَخِ الدُّنْيَا بِنَاطِرِهِ	وَإِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ	ومنها :
خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ	فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ رُحْلِ	ومنها :
لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ	فَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَالِ	ومنها :
آلَةُ الْغَيْشِ صِغَةً وَشَبَابُ	فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ الْمَرْءِ وَلَّى	وفيهما :
أَبَدًا تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُّ الدُّنْ	يَا قَيَّا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا	ومنها :
وَمَا الدُّمْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤْمَلَ عِنْدَهُ	حَيَاةً وَأَنْ يُشْتَقَ فِيهِ إِلَى النَّسْلِ	ومنها :
إِذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَيْبٌ	فَلَيْتِي قَدْ أَكَلْتُهُمْ وَذَاقَا	ومنها :
أَبَى خُلُقُ الدُّنْيَا حَيًّا تُدِيمُهُ	فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَيًّا تَرُدُّهُ	

.....

ومنها :

=

وَأَسْرِعْ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغْيِرًا تَكْلِفُ شَيْءٍ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ

ومنها :

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُذَرِّكُهُ تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ

ومنها :

وَمُرَادُ الْقُفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَفْأَنَى

وفيها :

غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يُلَاقِي الْمَنَايَا كَالِحَاتٍ وَلَا يُلَاقِي الْهَوَايَا

وفيها :

وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبَقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضْلُنَا الشُّجْعَانَ

وفيها :

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَمِنَ الْعَارِ أَنْ تَمُوتَ جَبَانًا

ومنها :

وَصِرْتُ أَشْكَ فَيَمْنِ أَضْطَفِيهِ لِعَلِمِي أَنَّهُ بَغْضُ الْأَنَامِ

وفيها :

وَأَنْفٌ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي إِذَا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكِرَامِ

وفيها :

وَلَمْ أَرْ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

ومنها :

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يَنْفَقِرُ وَالْإِفْسَادُ فَكَأَنَّ

وفيها :

إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرَكُ الْقَيْنِجِ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانًا وَإِفْضَالَ

ومنها :

إِنِّي لَأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أَحِبِّي
وَتُحِسُّ نَفْسِي بِالْحِمَامِ فَأَشْجُعُ

إلى قوله :

تَصْفُو الْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ
وَلَمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقِيقَةِ نَفْسَهُ
عَمَّا مَضَى فِيهَا وَمَا يَتَوَقَّعُ
وَيَسْؤُمُهَا طَلَبَ الْمَحَالِ فَتَطْمَعُ

ومنها :

تَوَقَّمِ النَّاسُ أَنَّ الْعَجْزَ قَرِينَا
وَفِي الْقُرْبِ مَا يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ

وفيهما :

وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الْإِنْصَافِ قَاطِعَةً
بَيْنَ الرُّجَالِ وَلَوْ كَانُوا ذَوِي رَحِمٍ

وفيهما :

هَوْنٌ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ
فَلِإِنَّمَا يَقَطَّاتُ الْعَيْنِ كَالْحُلُمِ

وفيهما :

وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَشْتَرُهُ
وَلَا يَغُفُّكَ مِنْهُمْ قَسْرُ مُبْتَسِمٍ

وفيهما :

غَاصَ الْوَفَاءُ فَمَا تَلَقَّاهُ فِي عِدَةٍ
وَأَعْوَزَ الصَّدْقُ فِي الْإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ

ومنها :

تُرِيدِينَ لَقِيَانِ الْمَعَالِي رَحِيصَةً
وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّخْلِ

ومنها :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ فَمَا بَالُنَا
نَعَاتُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ

إلى قوله :

يَمُوتُ رَاعِي الْفُضَاءِ فِي جَهْلِهِ
مَوْتَةً جَالِيئُوسٍ فِي طَبْعِهِ

ومنها :

وَإِنَّ الْمَاءَ يَخْرُجُ مِنْ جَمَادٍ وَإِنَّ النَّارَ تَخْرُجُ مِنْ زِنَادٍ

ومنها :

تَغَيَّرَ حَالِي وَاللَّيَالِي بِحَالِهَا وَشَبْتُ وَمَا شَابَ الزَّمَانُ الْغَرَائِقُ

ومنها :

فَرَادَ مَا تُسَلِّيهِ الْمُدَامُ وَعُمِرَ مِثْلُ مَا تَهْبُ الْكَلَامُ

وفيها :

وَدَفَّرَ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُنَّتٌ صِخَامٌ

وفيها :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

وفيها :

خَلَيْتُكَ أَنْتَ لَا مَنْ قُلْتَ خِلِّي وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالْكَلَامُ

وفيها :

وَشِبُّهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطِّغَامُ

وفيها :

وَمَنْ خَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلَامُ

وفيها :

وَمَا كُلُّ بِمَغْدُورٍ يَبْخُلِي وَلَا كُلُّ عَلَى بُخْلِ يُلَامُ

وفيها :

بِأَرْضٍ مَا أَشْتَهَيْتَ رَأَيْتَ فِيهَا فَلَيْسَ يُقْوَتْهَا إِلَّا الْكِرَامُ

وفيها :

فَهَلَّا كَانَ تَقْصُّ الْأَهْلِ فِيهَا وَكَانَ لِأَهْلِهَا مِنْهَا التَّمَامُ

ومنها :

وَاحْتِمَالُ الْأَذَى وَرُؤْيَا جَانِبِهِ
بِعِذَاءِ تَضَوُّي بِهِ الْأَجْسَامِ

وفيها :

ذَلَّ مَنْ يَغِيْطُ اللَّيْنِمَ بِعَيْشِ
رُبِّ عَيْشٍ أَخْفَ مِنْهُ الْحِمَامِ

وفيها :

مَنْ يَهْنُ يَهْلِي الْهَوَانُ عَلَيْهِ
مَا لِحَرْحِ بِمَيِّتٍ إِذَا لَمْ

ومنها :

أَفْاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضُ لِدَا الزَّمَنِ
يَخْلُو مِنْ أَلْهَمِ أَخْلَافُهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

وفيها :

فَقَرُّ الْجَهْلُولِ بِلَا عَقْلِ إِلَى أَدَبِ
فَقَرُّ الْحِمَارِ بِلَا رَأْسٍ إِلَى رَسَنِ

وفيها :

لَا يُعْجِبُنْ مُضِيماً حُسْنُ بَرْتِهِ
وَمَلْ يَرُوقُ دَفِيناً جَوْدَةُ الْكَفَنِ

ومنها :

عَرَفْتُ أَلْيَالِي قَبْلَ مَا صَنَعْتُ بِنَا
فَلَمَّا دَهَنَنِي لَمْ تَزِدْنِي بِهَا عِلْماً

وفيها :

وَأَنْسَى لِمَنْ قَوْمٌ كَأَنَّ نُفُوسَنَا
بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا

وفيها :

فَلَا عَبْرَتْ بِي سَاعَةٌ لَا تُعِزُّنِي
وَلَا صَحْبَتِي مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

ومنها :

وَأَنَا الَّذِي اجْتَلَبَ الْمَيِّتَةَ طَرَفُهُ
فَمِنْ الْمُطَالَبِ وَالْقَتِيلِ الْقَاتِلُ

وفيها :

وَإِذَا أَتَيْتَ مَلَمَحَتِي مِنْ نَاقِصٍ
فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

.....

ومنها :

وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقًّا وَقَيْنَةً وَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبَكْرُ

وفيها :

وَمَنْ يَنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَأَلْذِي فَقْرٍ فَعَلَ الْفَقْرُ

ومنها :

فَمَا فِي سَجَايَاكُمْ مُنَازَعَةُ الْعُلَا وَلَا فِي طِبَاعِ الثَّرِيَةِ الْمِسْكُ وَالنَّد

ومنها :

إِذَا عَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ الثُّجُومِ

وفيها :

فَطَنَّمُ الْمَوْتَ فِي أَمْرِ حَقِيرٍ كَطَنَّمِ الْمَوْتَ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ

وفيها :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَاحِبًا وَأَقْتَهُ مِنَ الْقَهْمِ السَّقِيمِ

ومنها :

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ الثُّغُوسِ فَإِنْ تَجِدَ ذَا عِمَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ

وفيها :

وَالذُّلُّ يُظْهِرُ فِي الدَّلِيلِ مَوَدَّةَ وَأَوْدُ مِنْهُ لِمَنْ يَوْدُ الْأَرْقَمُ

وفيها :

وَمَنْ الْبَيْلَةِ عَذْلٌ مِنْ لَا يَزْعَوِي عَنْ غَيْهِ وَخَطَابُ مَنْ لَا يَنْهَمُ

ومنها :

يُذَفَّنُ بَغْضُنَا بَغْضًا وَيَمْشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

ومنها :

وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ يَصُولُ بِلَا كَفٍّ وَيَسْعَى بِلَا رَجَلٍ =

رابعها : أننا نجري في هذه المجموعة - كما كررنا القول - العمل كان في الكتاب
 بسوقِ الخاطرِ ، وسيرِ البديهة ، ونسقطُ تداعي الأفكارِ ، ونذكرُ في
 كلِّ موضعٍ ما تنتهي بنا إليه الذاكرةُ ، وقد أشتملتُ من الأشعارِ على
 طرائفَ ، ومن النوادرِ على ظرائفَ ، لو وفقَّ أديبٌ لترتيبها ،

ومنها :

أَرَى كُلَّنَا يَنْغِي الْحَيَاةَ لِنَفْسِهِ حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَباً

وفيها :

وَيَخْتَلِفُ الْوَزَقَانِ وَالْفِعْلُ وَاحِدٌ إِلَى أَنْ يُرَى إِحْسَانُ هَذَا لِذَا ذَنْبَا

ومنها :

رُبَّ أَمْرِ أَنَاكَ لَا تَحْمَدُ أَلْفَ مَالٍ فِيهِ وَتَحْمَدُ الْأَفْعَالَ

وفيها :

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانَ بِأَرْضِي طَلَبَ الطُّغْنَ وَخَذَهُ وَالنُّزَالَ

وفيها :

مَنْ أَطَاعَ التَّمَّاسَ شَيْءٌ غَلَابَا وَأَغْتَصَابَا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالَا

وفيها :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وفيها :

وَوَضِعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَا مُضِرُّ كَوْضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

فهذا الذي لم يأت شاعر بمثله . وإنما ذكرناه مجملًا ليسهل أخذه وحفظه ،
 ولو تصفحت دواوين المجيدين المولدين والمحدثين . . لم نجد لأحد منهم
 بعض هذا نادرًا ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ويؤتي الحكمة من
 يشاء .

وإلحاق كل فرع بأصله ، وكل ضال بأهله . . لجاء كتاباً موفوراً
الفائدة ، مذكوراً العائدة ، معدوم النظر .

وكأنني بلائيم يلوم على ما أشرت إليه من تشتيت المواضيع ،
وتفريق الشواهد ، وجوابه - فوق ما عرف مما سلف - : اعتماد أن
ينال كل مجلس نصيبه من الجدد ، والهزل ، والوقش ، والجزل ؛
حتى يقوم بذاته ، ويستقل بنفسه ، ويمتع على حديثه ، وذلك من
أفضل فنون البلاغة ، وهي طريقة الذكر الحكيم ، إذ ترى آيات
الطلاق والبيع مقرونة بالوعظ المبكي ، والوعد المسكي ، والوعيد
المُنكي ، ولو كانت كما تقرأها في داوود بن الفقيه . . لما أعوز
الملحد لها جحوداً ، ولما خضع لها المصانع سجوداً .

ثم إن أمهات كتب الأدب - كـ «البيان والتبيين» للجاحظ -
لا تخلو عن الأغلاط ، والتحريف ، والتكرير ، والتصريف ،
فكثيراً ما أرى الآيات فيها مختلفة العزو ، مع تقارب المواضيع ،
وذلك أنصع لوجه عذرنا ، فيما يكون من مثله عندنا أنزُر منه
عندهم ، إن شاء الله تعالى .

خامسها : لما ألقى القلم عشاء مساء الليلة ١٧ من جمادى
الأولى سنة : (١٣٥٢ هـ) كما هي العادة ، تكون القراءة والكلام
عليها بما يحضر عشيّة ، ثم أخلو بنفسى ساعة من المساء ، أقيّد
فيها ما يكون ، وحينئذٍ وقد قرأت وردي ، وأخذت مضجعي ،
ووقع نظري على السماء ، وزيتها بالنجوم الزاهرة ، وما فيها من
الآيات الباهرة . . أستغرق فكري ، وأستجمع ذكري ، وأنطلقت
لساني بيت مر ذكره في المجلس العاشر ، لتقي الدين بن تيمية ،

خواطر الانتهاء من
الكتاب

وهو قوله [مِنَ البسيط] :

وَالْفَقْرُ لِي وَصَفُ ذَاتٍ لَا زِمَ أَبَدًا كَمَا الْغِنَى لَكَ وَصَفُ لَا زِمَ ذَاتِي
وأحسستُ مِنَ الوقتِ بطيبٍ ، ومن الإلهام بخطيبٍ ، فاستكانَ
القلبُ ، وأنشَرَ الصدرُ ، وقَفَّ الشَّعْرُ ، وأهْتَزَّ البدَنُ ، وأنبَسَطَتِ
الرُّوحُ ، وقرَّتِ العَيْنُ ، وعَظُمَتِ الأَريحَةُ^(١) ، وأغْتَنِمْتُ الفرصَةَ
بالمناجاةِ والدعاءِ ، وجاشتُ في الخاطرِ أبياتٌ ضَمَّتْهَا ذَلِكَ
البيتُ ، توجَدُ في موضعِها مِنْ « الديوان » ، غيرَ أَنَّهَا حالَةٌ جاءت
فَمَرَّتْ ، وأحلَّوَتِ ساعةٌ ثُمَّ أَمَرَتْ^(٢) ، واللهُ المَحْمُودُ أولاً وآخراً ،
ونبيُّه المصلَّى عليه وعلى آلهِ وأصحابِهِ ، والمسلَّمُ عليهم سلاماً
عاطراً .

* * *

-
- (١) هكذا في الأصل ، ولعلها الرويحة وهي : وجدانك السرور الحادث من
اليقين ، والله أعلم .
(٢) أَمَرَتْ : صارت مُرَّةً .

المحتوى

-المحتوى-

المجلس الثاني عشر

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِنْ لِي يَأْرُقُ وَجَوَى يَزِيدُ وَدَمْعَةٌ تَتَرَفَّقُ

- ٥ شرح المطلع
- ٥ السهر والأرق من أجل الهوى ومن أجل المجد
- ٦ منشأ الهموم وترادف الغموم من كبر الهممة
- ٧ اضحك على الحريص !!
- ٨ تعليل المتنبي لسبب حرصه
- ١٠ للأرق سبب آخر وهو: الخوف
- ١٠ أو المجد
- ١٠ أو غير ذلك
- ١٢ هجاء المتقاعسين عن المجد والسمو
- ١٥ العاقل تعب والجاهل مستريح
- ١٦ أشد الناس بلاءً من هم؟
- ١٨ لمن يبتسم الزمان؟
- ١٨ زيادة الحب !!
- ٢٠ حتى الجود يزداد

مَا لَاحَ بَرَقُ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرُ إِلَّا أَنْتَيْتُ وَلِي فُؤَادُ شَيْقُ

- ٢١ تذكر الأحباب عند كل ما تقع عليه العين فيعجبها.. من عادة العرب

- أحب شيء للعرب الغيث .. فلذا يتذكرون به الأحباب ٢١
- ومن عاداتهم التذكر عند لمح البرق ٢٢
- البكاء لسجع الحمام ٢٥
- صد الدلال من الكمال ٢٩
- مرض الحب لا دواء له ٢٩
- العاشق تعب على كل حال ٢٩
- عودة إلى بكاء الحمام ٣١
- كل إناء بما فيه ينضح ٣٦
- العرب تحفظ المستجير ولو كان حيواناً ٣٩
- من الأماكن التي تحن فيها العرب .. عند حنين الإبل ٣٩
- قد يهيج شوق العربي غير الذي ذكر ٤١

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ فَعَجِيتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ

- كيف يكون الموت بلا عشق ؟! ٤٣
- العشق من طبائع النفوس الكريمة ٤٣
- المحب يرى بعين غير عيون الناس ٤٤
- إذا رأيت عاشقاً .. فارحمه ٤٦
- المتنبي يعترف على نفسه بالجمود ٤٧
- هذه هي الشجاعة يا أبا الطيب ٤٨
- المتنبي صاحب أحوال متقلبة ٤٩
- لا تنافر بين الشجاعة والمحبة ٥٣
- الحب يصنع المعجزات ويقوي الجبان ٥٣
- أحوال سيد الوجود ﷺ مع النساء ٥٤
- الحب في ساحة الوغى ٥٦
- حمدونية بنت عيسى تلجأ إلى محمد بن صالح العلوي ٥٧

وَعَدَزْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنَّنِي عَيْرَتُهُمْ فَلَقِيتُ فِيهِ مَا لَقُوا

- من عيب .. ابتلي ٥٩
يجب أن تكون غيوراً ٦١
ذو النون المصري والفتيات الطائفات ٦٣
اعتراض المؤلف على نفسه ٦٤
الغيرة والأنفة العربية ٦٤
أبيات جميلة في الحب ٦٥
أبو السائب المخزومي يطلب العلم ٦٥

المجلس الثالث عشر

أَيَّنِي أَيَّنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبْدَأُ غَرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِقُ
نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَغْشَرٍ جَمَعَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا

- مسكين المتنبي لا يعرف السعادة!! ٦٩
كثير عزة والغراب الناق ٦٩
ليس كل غراب يُشَاءُ منه ٧٠
العيب على المتنبي ٧١
الحلم على الجاهل ٧١
التشاؤم والطيرة ٧٢
التذكير بالموت وقت اللذات ٧٣
حقارة الدنيا والكلام على الموت وذكر قصص في ذلك ٧٤

أَيْنَ الْأَكَاسِرَةُ الْجَبَابِرَةُ الْأَلَى كَتَرُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ وَلَا بَقُوا

- سبحان الدائم الباقي ٩٢

- يا ابن آدم .. إنك سائر إلى قبرك فتنّبهُ ٩٢
- لا يدوم إلا الحي القيوم ٩٥
- تقلّب أحوال الدنيا في الناس ٩٥
- الدنيا دولاب يدور ٩٦
- تجمع الدنيا بإرادتك وتتركها رغم أنفك ١٠٢
- مسألة أصولية حول الدنيا ١٠٣

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِحَيَاتِهِ حَتَّى قَضَى ، فَحَوَاهُ لَخْدٌ ضَيِّقُ

- شرح المطلع ١٠٥
- مَلِكُ الموت وسيدنا داود عليهما الصلاة والسلام ١٠٦
- الملكُ ومَلِكُ الموت ١٠٦
- لا تدري أين تكون المنية ١٠٦
- أبو دلف يتزود لموته ١٠٦
- تموت ولا ينفعك إلا عملك ١٠٧

خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَن لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقٌ

- الميت يسمع .. ولكنه لا يستطيع الكلام ١٠٩
- قبر المعتمد بن عباد قبله لبعض الشعراء ١١١
- مسألة فقهية حول البرزخ ١١٢
- الموت ... آه من الموت كم فعل الأعاجيب ١١٤

وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ وَلِمَتْنِي مُسَوَّدَةٌ وَلِمَاءٍ وَجْهِي رَوْنَقُ

- شرح المطلع والكلام على المتنبي ١١٨
- الكلام على الشيب ١١٩
- البكاء على الشباب ١٢٢

- المعتصم يعجب بقصيدة للنميري ١٢٣
- دواء عجيب لتسهيل الولادة .. اقرأه ولا تطبقه!!! ١٢٤
- المشيب والشباب والبكاء عليهما ١٢٥
- الشييب قبل الأوان مؤلم ١٣٠
- ما عذر المشيب في المجيء قبل أوانه؟ ١٣١
- من سار على الدرب .. وصل ١٣٢
- بغض النساء الشيب ١٣٣
- قصائد للمؤلف في الموضوع ١٣٦
- من فوائد الشيب أنه يردع عن الغي ١٤١
- من لطف الله بالعباد أنهم لا يحسون للشيب ألماً ١٤٣
- البكاء خوفاً من الشيء قبل وقوعه ١٤٤
- لله در الأمل ما أعظمه ١٤٦
- تأمل الدنيا ولا تركزن إليها ١٤٧

المجلس الرابع عشر

وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضٍ سَحَابٌ أَكْفَهُمْ مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُورُهَا لَا تُورِقُ

- الجود الذي تورق منه الصخور ١٥١
- مسألة بلاغية في الغلو ١٥٣
- البخل الذي تجف منه البحار ١٥٦
- عود على بدء في الكرم ١٥٦

وَنَفُوحُ مِنْ طَيْبِ الثَّنَاءِ رَوَائِحُ لَهُمْ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَنَشَقُ

- شرح المطلع ١٥٨
- الطيب الفائح من المحبوب لا يمكن أن يخفى ١٥٨

- ١٦١ أكذب الشعر
- ١٦١ طيب الثناء تابع لطيب الذات
- ١٦٣ الذكر الجميل والثناء الحسن .. جدير بأن يطلب من الله
- ١٦٥ مسألة نحوية حول (كاد):
- ١٦٦ ثناء المؤلف على المتنبي

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَبَدًا وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ

- ١٦٩ المديح والمغالاة فيه والقصص في ذلك
- ١٦٩ أبو الأسد وموسى الهادي
- ١٧٠ سلم الخاسر والمهدي
- ١٧١ الفرزدق وعبد الملك بن مروان وشهامة نفس الفرزدق
- ١٧٦ هل يجوز التسمي بـ: ملك الملوك وما شابهه؟
- ١٧٨ الغلو في المديح
- ١٨٤ وصل السيوف بالخطا عند العرب
- ١٨٥ شر الشعراء من يناقض نفسه بنفسه
- ١٨٨ ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً
- ١٨٩ الدنيا مصالح !! رحم الله أباك كان وكان .. ولم يكن
- ١٩٠ وهل أنا إلا مهرة عربية
- ١٩٣ جعل من الجبان بطلاً من أجل المصلحة
- ١٩٣ بش الرجال من يُشترى بالمال
- ١٩٤ يغيّر رأيه في الرجل .. بمجرد هدية
- ١٩٤ النفاق والمداينة ليس أمراً حديثاً
- ١٩٥ عودة إلى المديح
- ١٩٨ موقف رجولي للمأمون
- ١٩٩ شر العلماء .. علماء الملوك

يَا ذَا الَّذِي يَهَبُ الْجَزِيلَ وَعِنْدَهُ أَنِّي عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ

- ٢٠٠ شرح المطلاع
- ٢٠١ صور رائعة من الجود والإيثار على النفس
- ٢٠٣ حكم الفقهاء في الإيثار
- ٢٠٤ الجود المطبوع في النفس
- ٢٠٥ نعمته قلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي .. رجل وفي
- ٢٠٦ الميراثية الثانية لابن الأنباري .. قمة في الوفاء
- ٢٠٨ الحر لا يكذب ولو قُتِل
- ٢٠٨ الذروة في الشجاعة والوفاء
- ٢٠٩ السائل عن الإمام أحمد وقت محنته
- ٢٠٩ البحري شديد الوفاء للمتوكل
- ٢١٠ أبلغ ما يكون من الجود أن تكون كلك من أيادي معطيك
- ٢١٠ المديح لا يكون إلا عن رغبة
- ٢١١ الحر تكفيه الإشارة
- ٢١١ متى ينفع الجود وأين محله؟
- ٢١٢ الحلم على الجاهلين
- ٢١٥ التودد والتقرب من المساكين
- ٢١٧ إذا أعطيت هذا الرجل .. فقد أعطيت جميع أهل المدينة
- ٢١٧ العذل في الجود
- ٢١٧ جود المأمون
- ٢١٨ جود الفرزدق
- ٢١٩ صور من جود البرامكة
- ٢٢٣ يقضي دين صديقه ويكي
- ٢٢٣ التلذذ بالجود والإعطاء

- ٢٢٥ من أجواد الحضارمة
- ٢٢٥ يلومون الراضي العباسي على الجود
- ٢٢٦ نِعَمَ المال الصالح .. للرجل الصالح

المجلس الخامس عشر

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً وَأَنْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لَا أَغْرُقُ

- ٢٢٩ متى ينفع الغيث؟!
- ٢٣١ للجود .. حدود وكل ما زاد على حده .. انقلب إلى ضده على رأي!!
- ٢٣٢ من المبالغة في الإحسان قصة هرم بن سنان وزهير
- ٢٣٢ أبو دلف وعلي بن جبلة
- ٢٣٣ لا إسراف في الخير
- ٢٣٤ الجود العربي في سنة القحط
- ٢٣٥ من ليس له حظ .. لا يتعب ولا يشقى
- ٢٣٥ ألا موت يباع فأشتره
- ٢٣٦ الدهر دولاب والحر لا ينسى الأصحاب
- ٢٣٧ استطراد على المتنبي

كَذَبَ ابْنُ فَاعِلَةٍ يَقُولُ بِجَهْلِهِ مَاتَ الْكِرَامُ وَأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ

- ٢٣٩ شرح المطلع وفيه مباحث
- ٢٣٩ المبحث الأول على المطلع: هل يصح القول بموت الكرام مع وجود بعضهم؟
- ٢٤١ المبحث الثاني على المطلع
- المبحث الثالث على المطلع: المتنبي لا يزن كرم الناس ولؤمهم إلا
- ٢٤٤ بمعاملتهم له

المبحث الرابع على المطلع: أصل هذا المطلع من قصة جرت لأبي تمام ... ٢٥٢
المبحث الخامس على المطلع: ادعى بعضهم أن في البيت حشواً لا داعي
لذكره ٢٥٣

حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أَشِيعُ

شرح المطلع ٢٥٥
القلب والروح مع الأحباب أينما ذهبوا وأينما ارتحلوا ٢٥٦

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ فَجَدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الْآمَاقِ وَالسُّمُّ أَدْمَعُ

شرح المطلع ٢٦٥
الروح الراحلة وليس هم!! فينبغي التفريق ٢٦٦

حَشَائِي عَلَى جَمْرِ ذِكْرِي مِنَ الْهَوَى وَعَيْنَايَ فِي رَوْضِ مِنَ الْحُسْنِ تَزْنَعُ

شرح المطلع ٢٦٨
القلب في النار والعيون في الجنان ٢٦٨

وَلَوْ حُمِّلْتُ صُمُّ الْجِبَالِ الَّذِي بَنَا غَدَاةً أَفْتَرَقْنَا أَوْشَكْتَ تَصَدَّعُ

ألم البعاد يهد الجبال ٢٧٠
لوعة الفراق تذيب الآماق ٢٧١
صلاح الدين يُعَزِّي في والده ٢٧٢
آه... من الفراق ٢٧٣
الأذواق في الفراق ٢٧٤
القسم الأول يحبه لأنه يُخْرِجُ مكنون الحب ٢٧٤
القسم الثاني يكرهه ويقول درء المفساد مقدم على جلب المصالح ٢٧٨
ما جاء في الوداع ٢٧٩

قصائد للمؤلف في الوداع ٢٨٠

آتَتْ زَائِرًا مَا خَامَرَ الطَّيِّبُ نَوْبَهَا وَكَأَلِمْسِكَ مِنْ أَرْدَانِهَا يَتَضَوَّعُ

- رائحة الحبيب أجمل من الطيب ويشهد بذا البعيد والقريب ٢٨٣
الروائح المسكية تفضح صاحبها ولو تخبأ ٢٨٤
طيب النكهة يدخل في الموضوع ٢٨٧
من يدق الباب .. يسمع الجواب ٢٨٧
عبد الملك بن مروان كان أبخر يسقط الذباب عن فمه ٢٨٨
البَحْر وما يتعلق به ٢٨٨
ليس كل ما يلمع ذهباً ٢٨٩

المجلس السادس عشر

فَمَا جَلَسْتُ حَتَّى أَتَشْتَ تُوسِعُ الْخُطَا كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرَّهَا قَبْلَ تَرْضِعُ

- السرعة في التوديع ٢٩١
الطبائع البشرية غريبة ٢٩١
كثرة إلف الإنسان للشيء .. تذهب هيئته من قلبه ٢٩١
من نوادر الأعمش ٢٩٢
من نوادر الشعبي ٢٩٢
زيارة المريض ٢٩٣
الكُلْفَةُ تُذهب الألفة ٢٩٣
زر غباً .. تزدد حباً ٢٩٥
المحبون أقسام: ٢٩٦
١- قسم ساقط ٢٩٦

- ٢- قسم متوسط ٢٩٧
- ٣- قسم صادق ٢٩٧
- المحب دائماً جائع لا يشبع من محبوبه ولا من وصله ٢٩٧
- لا توص حريصاً في تخفيف الزيارة ٢٩٨
- أبو عبيدة النحوي والفضل بن الربيع ٣٠٠
- أهنا البر عاجله ٣٠١
- عبد الله بن علي العولقي وأحد الشيوخ ٣٠١
- لا تتدلل على أحبابك فتخسر يا ملك الزمان ٣٠١
- لا تتشبث بالملك ٣٠٢

تَذَلُّلٌ لِمَنْ تَهَوَّى عَلَى الْقُرْبِ وَالْتَوَى فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لَا يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

- التذلل للحبيب هو العز والسعادة ٣٠٤
- قد ينصعق من يرى الحبيب ٣٠٦
- المبرد والجارية المغنية النحوية ٣٠٧
- ما السبب في اندهاش المحب عند رؤية المحبوب؟ ٣٠٨
- سلطان المحب على قلب المحبوب أقوى من سلطنة السلطان على الرعية ٣٠٨
- حال النبي ﷺ وتواضعه مع أهله ٣١٢
- الحكمة في ميل الرجل للمرأة ٣١٣
- تواضعه ﷺ ٣١٥
- تواضع سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ٣١٦
- ينبغي التفريق بين العز والكبر والتواضع والملق ٣١٧
- الكلام على المتكبر ٣١٨
- أسباب بغض المستبدين لأهل العلم ٣١٨
- الكلام في الكبر والعز ٣١٩
- ما من يوم إلا والذي يليه شر منه ٣٢١

لا شيء ينفع سوى الانكسار بين يدي الله ٣٢٢

وَلَا تُؤْذِ مَجْدٌ غَيْرَ تَوْبِ ابْنِ أَحْمَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِلُؤْمٍ مُرَقَّعٍ

شرح المطلع والعيوب التي فيه ٣٢٤

المخالص الفائقة للمتنبى ٣٢٤

الشعراء والمخالص ٣٢٥

بعض الشعراء يدعي النقص في الناس ليرفع ممدوحه ٣٢٦

أبلغ ما يكون المديح أن ترفع شأن عدو ممدوحك ثم تفضله عليه؛ لأنه لا فخر

بالتقدم على رعاك الناس ٣٢٧

دعوى براءة الحبيب من العيب .. لا تليق إلا ٣٣٥

الكلام حول عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ٣٣٦

لا تجد إنساناً كاملاً ولكن العبرة بالأغلب ٣٣٦

إِذَا عَرَضَتْ حَاجٌ إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ إِلَى نَفْسِهِ فِيهَا شَفِيعٌ مُشَقَّعٌ

الجود ليس وراثته عن الجدود .. ولكنه حساسية في الجلود ٣٣٨

الشفاعة في الحب ٣٣٩

الشفاعة عند الناس من الجود ٣٤٠

إذا تعذرت الأمور من أعاليها .. أتيناها من أسافلها ٣٤٢

ما يصلح الرجل بالنهار .. تفسده المرأة بالليل ٣٤٢

كتاب عروة بن الزبير في الشفاعة إلى الوليد بن عبد الملك ٣٤٣

المنصور يطلب من محمد بن جعفر أن يخفف من كتب شفاعاته ٣٤٤

جعفر بن يحيى يزوج بنت الرشيد من غير علمه .. فيجيزه ٣٤٥

إذلال النفس في حاجات الناس هو العز في الدنيا والآخرة ٣٤٦

اللهم .. لا تذلل عزيزاً ٣٤٦

الرجل يزور كتاباً على لسان ابن الفرات فيصححه له ويمضيه عليه ٣٤٦

- وكذلك يمضي يحيى البرمكي ٣٤٧
نماذج من كتب الشفاعات ٣٤٨
الشعراء والشفاعات ٣٥٠

فَصِيحٌ مَتَى يَنْطِقُ تَجِدُ كُلَّ لَفْظَةٍ أَصُولَ الْبَرَاعَاتِ الَّتِي تَتَفَرَّعُ

- مبحث بلاغي حول الفصاحة ٣٥٢
الافتخار بالقلم وحسن البيان ٣٥٢
الشعراء وتقديم القلم على السيف ٣٥٣
ومن الشعراء من يفضل السيف على القلم ٣٥٧
الصواب التفصيل في المسألة فالسيف في محله أفضل من القلم وكذلك
العكس ٣٥٩
الإنسان مخبوء خلف لسانه ٣٦٠
المديح بالبلاغة ٣٦٠

أَلَا أَيُّهَا الْقَلِيلُ الْمُقِيمُ بِمَنْبِجٍ وَهَمَّتْهُ فَوْقَ السَّمَائِينَ تَوَضُّعُ

- شرح المطلع ٣٦٥
المديح بكبر النفس وعلو الهمة ٣٦٥
أقسام الصوفية عند انبعاث الأنوار ٦٥٥

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنَّ وَضْفَكَ مُعْجِزٌ وَأَنَّ ظُنُونِي فِي مَعَالِيكَ ظُلْعٌ

- كل ما يقال وكل ما يكتب دون قدر الممدوح ٣٦٩

وَأَنَّكَ فِي ثَوْبٍ وَصَدْرُكَ فِيكُمَا عَلَى أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ الْأَرْضِ أَوْسَعُ

- شرح المطلع والانتقاد عليه ٣٧٢
تعظيم شأن الممدوح وأن ما في صدره أكبر من الدنيا ٣٧٣

- سعة الصدر من آيات السؤدد ٣٧٥
 أمثلة من سعة صدر معاوية وحلمه ٣٧٥
 لا يفيد الكرم والعفو إلا مع أهله ٣٧٧
 كل نكبات التاريخ أصلها اصطناع المعروف إلى غير أهله ٣٧٨

أَلَا كُلُّ سَمَحٍ غَيْرِكَ أَلْيَوْمَ بَاطِلٌ وَكُلُّ مَدِيحٍ فِي سِوَاكَ مُضَيِّعٌ

- كل مديح في غير الممدوح .. ضياع ٣٨٢
 مروان بن أبي حفصة وغضب المهدي عليه ٣٨٢
 رضاه عنه وجلوسه بين يديه ليسمع مديح نفسه ٣٨٣
 الخلفاء تطلب من مروان بن أبي حفصة سماع مراثيته لمعن ٣٨٣
 رثاء أبي دلالة لأبي العباس السفاح وغضب المنصور عليه ثم رضاه عنه ... ٣٨٤
 الحر تكفيه الإشارة ٣٨٥
 أمثلة على تأثير الشعر ونفوذه عند أصحاب النفوس الأبية ٣٨٦
 قل للمليحة في الخمار الأسود ٣٩٠
 المديح لا يليق إلا بك ٣٩٠
 من كبائر الذنوب وضع المديح في غير محله ٣٩١
 الشعر عند العرب غالي القيمة لا يوضع إلا عند من يستحقه ٣٩٣
 وصية الحطيثة عند وفاته ٣٩٤
 ذم الكذب ٣٩٥
 - خاتمة المجالس ٣٩٧
 مبحث هام حول الشعر والشعراء والكلام في نقد الشعر ٣٩٧
 - تنبيهات ٤٠٩
 المعاني الظاهرة مشاع بين الناس ولا يقضى فيها لأحد بالسبق ٤٠٩
 المتنبي بحق .. يشبه عصا سيدنا موسى .. يلقف كل ما يأتي به الشعراء
 فيجيد أحياناً ويسيء أخرى ٤١٠

٤١٢	 من بدائعه
٤٢٣	 العمل كان في الكتاب على مبدأ الانتقال من زهرة إلى زهرة دون تعمد ترتيب
٤٢٤	 خواطر الانتهاء من الكتاب
٤٢٧	 المحتوى

* * *

